الأصداء العالمية للثورة المهدية

محمد المصطفى موسى



المصورات
2020

الأصداءُ العالميّة للثّورة المهديّة

محمد المصطفى موسى

هذا كتاب رحب الجناب. لم نر به أصداء المهدية في العالم كما لم نرها من قبل وحسب بل عرّى زيف دعوةٍ ذات طنان معنا لعقود وهي «إعادة كتابة التاريخ». وهي دعوة سياسية-بولتيكا روّجت لها نظم مستبدة طال عهدها فينا. وما جعل كتابة هذا التاريخ يسراً هو وقوعه على الصحافة الأوروبية في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر مما لم يسبقه إليه مؤرخ سوداني. فأوسع الصحافة البريطانية والإيرلندية والفرنسية والنمساوية والإسلامية نظراً. وعزز ذلك بكتب استجدّت في هذا القرن عن الإمبراطورية والحركة القومية مما شجعت عليه مدرسة ما بعد الاستعمار. لذا جاء هذا الكتاب بالحسنيين في علم التاريخ: فتح وثائقي وفتح في زوايا النظر للمهدية. ووطّن المهدية في تاريخ عالمي عريض بينما انكفأنا به في العقود الأخيرة إلى حكاية مغرقة في محليتها لا قيمة لها.

الدكتور عبدالله علي إبراهيم

هذا الكتاب ...

يقدّم عرضاً تحليلياً لنظرة الآخر تجاه الثورة المهديّة وانتصاراتها في السودان، ويضيف معرفةً تاريخيّةً لما كُتب سابقاً عنها؛ كما أنه يفتح آفاقاً جديدةً للباحثين الذين غابت عن مدوّناتهم المصدريّة بعض الوثائق والصُّحف المحفوظة في أضابير الأرشيف البريطاني.. وأنّ مؤلّف هذا الكتاب الدكتور محمد المصطفى موسى قد استبان كثيراً من الأصداء العالميّة للثورة والدولة المهديّة في مظانها الأرشيفيّة، وعرضها من واقع المنطلقات الفكريّة والسياسيّة التي شكلت استجابات المهتمين بانتصارات الثورة المهديّة في حروبها الدفاعيّة ضد الإمبراطوريّة البريطانيّة؛ فله التهنئة المستحقة على إنجاز هذا السِّفرُ القيم في موضوعه.

الدكتور أحمد إبراهيم أبوشوك

دار المصوّرات

للنشر والطباعة والتوزيع

الخرطوم غرب،
شارع الشريف الهندي
المتفرع من شارع الحرية

ت: 912294714 249+

elrayah1995@gmail.com

ردمك ISBN 978-99942-68-74-0



الأصداء العالميّة
للثورة المهديّة

الكتاب: الأصداء العالـميَة للثورة الـمهديَة
الكاتب: محمد الـمصطفى موسى

تاريخ النشر: الطبعة، الأولى 2020م

رقم الإيداع: 2019/0791م

المدير المسؤول: أسامة عوض الريح
التصميم والإخراج: محمد الصادق الحاج

الناشر:

دار المصورات

للنشر والطباعة والتوزيع
الخرطوم غرب،
شارع الشريف الهندي
المتفرع من شارع الحرية

ت: +249912294714
elrayah1995@gmail.com

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر ـ السودان
962.42
م م. س	محمد المصطفى موسى عبد الله حامد، 1966م -
الأصداء العالمية للثورة المهدية/ محمد المصطفى موسى عبد الله حامد.-
الخرطوم: دار المصورات للطباعة والنشر، 2019.
472 ص؛ 17×24سم.
ردمك: 978-99942-68-74-0
1. السودان - تاريخ - العصر الحديث - الثورة المهدية.
أ. العنوان

الأصداء العالميّة للثورة المهديّة

محمد المصطفى موسى



للنشر والطباعة والتوزيع
2020

المحتويات

مقدمة

عبدالله علي إبراهيم

«لقد انتصر المهدي وها نحن نبدو جميعاً كالأغبياء».

(لورد ولسلي قائد حملة إنقاذ غردون لزوجته).

منزلة الكتاب في أدب المهدية

هذا كتاب رحب الجناب. لم نرَ به أصداء المهدية في العالم كما لم نرها من قبل وحسب بل عرَّى زيف دعوةٍ ذات طنان معنا لعقود وهي «إعادة كتابة التاريخ». وهي دعوة سياسية-بولتيكا روّجت لها نظم مستبدة طال عهدها فينا. وكانت ورثتها في طزاجتها من الحركة الوطنية التي ساء ظنُّها بكتابة الأجنبي المستعمر لتاريخنا. ثم هرجت بها النظم المستبدة كبرنامج للتجييش الثقافي. وأخطر ما في هذا التحشيد افتراض أن إعادة الكتابة هذه مناسبة واحدة سعيدة وخاتمة، وأنها مما يقع بالعزيمة الوطنية وحدها.

وذاعت واحدة من هذه الدعوات في نهاية العقد السابع وأول الثامن من القرن الماضي في عهد الرئيس نميري. ولما بدا لي هزالها قدّمتُ محاضرة في جامعة جوبا بجوبا نشرتها لاحقاً في مجلة «سوداناو» قلت فيها إن التاريخ لا تعاد كتابته وإنما يكتب أبداً... وبس. فيُكتب متى استجدّت مصادر أو نظريات أو زوايا نظر جدّدت عزائم الكتابة طلباً للحقيقة. وعليه فرحابة جناب الكتاب الذي بين يدَي القارئ في كتابة أخرى للتاريخ، لا إعادة كتابة له، من فوق أرشيف مصادر وقعت للكاتب مصادفة. فالكاتب

طبيب ساقته غربة عن الوطن إلى إيرلندا. وقرأ في صحيفةٍ ما كلمةً عابرةً عن منزلة الثورة المهدية في الحركة القومية الإيرلندية التي قاومت التبعية لبريطانيا لثمان قرون تكلّلت بالتحرر منها بالاستقلال في ١٩٢٢ . وكانت تلك المقالة هي بذرة شغفه بمعرفة صدى المهدية في العالم حتى استوى له هذا الكتاب القيم.

وما جعل كتابة هذا التاريخ يسراً هو وقوعه على الصحافة الأوروبية في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر مما لم يسبقه إليه مؤرخ سوداني. فأوسع الصحافة البريطانية والإيرلندية والفرنسية والنمساوية والإسلامية نظراً. وعزز ذلك بكتب استجدّت في هذا القرن عن الإمبراطورية والحركة القومية مما شجعت عليه مدرسة ما بعد الاستعمار.

والكتاب بهذه الصفة فتح وثائقي من تلك التي جعلت تاريخ المهدية شاغلاً للتاريخ الأكاديمي المهني الذي بدأ بقيام شعبة للتاريخ بكلية الخرطوم الجامعية (جامعة الخرطوم). وهي المهنية التي خرجت به من وعثاء الخلاف السوداني القديم والمتجدد حولها، والتمثيل الاستخباراتي له علي يد رينالد وونجت، مدير مخابرات الجيش المصري، الذي كان يعد لغزو السودان المهدوي، وغيره، إلى رحاب العلم التاريخي. ووقع لنا مثله حين طرق مكي شبيكة ذخائر الوثائق البريطانية ونظائرها في القاهرة ومصر ليكتب لنا في ١٩٥١عن السياسية البريطانية تجاه السودان خلال الفترة لمهدية (١٨٨٢-١٩٠٢). وأعقبه آي ثيوبولد على تلك الذخائر ليكتب «المهدية» في نفس السنة. ووقع لنا مرة ثالثة حين رتب ب. م. هولت، المدرّس بكلية غردون وأول مدير لدار الوثائق السودانية، أرشيف المهدية فخرج لنا بكتابه «دولة المهدية» (١٩٥٨). ثم جاء من بعده محمد إبراهيم أبو سليم للقيام بأمر الأرشيف وليكتب بسخاء مشهود عن المهدية. وزاد الرجل بمبادرة مشتركة مع مكي شبيكة بشعبة التاريخ بجامعة الخرطوم لبذل هذا الأرشيف لرهط من طلاب الماجستير في التاريخ ليكتبوا عن تاريخ المهدية بتفصيل كما حصل في الأقاليم، والإدارة، والفتوح، وتراجم الرجال. وخرج لنا بذلك الجيل الثاني من مؤرخي المهدية من أمثال موسى المبارك الحسن، ومحمد سعيد القدال، وعبد الوهاب عبد الرحمن، وعوض عبد الهادي العطا ممن نشروا حصائلهم وبقيت

رسائل الآخرين الجامعية لم تر النور بعد. ووقع لنا الفتح من جهة المدخل المغاير لتاريخ المهدية في مثل كتابي «الصراع بين المهدي والعلماء» (١٩٦٨) الذي تناول غير مسبوق التاريخ الثقافي لها. وكذلك عصمت حسن زلفو الذي جاء بالخبرة العسكرية ليتكتب عن معركتي شيكان (١٨٨٣) وكرري (١٨٩٨). وهذا المؤلف الذي بيدنا جمع الحسنيين: لم يغز أرشيفاً فحسب بل طرق موضوع عولمية الثورة المهدية بحرفية مهنية عالية.

المهدية في صحف الغرب

أحصيت للكاتب نظره في نحو عشرين صحيفة إنجليزية وثق لخبرها ومادتها التي وردت من مراسلين حربيين مثل فرانك فيتزلي الذي أبقى المهدي على حياته بعد موقعة شيكان بحسب بعض المصادر. بل تلقت واحدة منها رسائل صحفية من مراسل لها في كلكلتا بالهند عن انتشار منشورات للمهدي بالهند. كما نشرت تلك الصحف برقيات من رويترز، وإفادات ضباط ممن شاركوا في الحرب ضد المهدية أيضاً. ونشر بعضها ملفات مفصلة مثل الذي عن شيكان أو آخر بعنوان «الكارثة في السودان» عن هزيمة شيكان.

وتجد فيها من حيث موضوعاتها نبرة الثأر من المهدي طاغية مع اعترافات متثاقلة بجرح الهزيمة وحرجها للإمبراطورية. وتطرقت بكثرة للتحدي الذي شكلته المهدية لها لجهة أنها ضمّت شعوباً إسلامية وقبائل بحالها بل قوميات مثل الهندوك التي لن تغفل عن درس ثورة المهدي. واعترفت بعضها للمهدي بالعبقرية العسكرية وأن الأمر بالسودان بعد مقتل غردون صار بيده لا بيد الجمهور البريطاني المتعطش للثأر.

وعلى معرفتنا بالزلزلة السياسية البريطانية لمقتل غردون في السودان في ١٨٨٥ إلا أنه ندَر أن وقفنا على زلزلتها الاقتصادية على كل من إنجلترا ومصر. فكسد للواقعة اقتصادُ بريطانيا وأسواقها المالية بلندن. فقالت البول مول قازيت (١٩ فبراير ١٨٨٥) إنه من النادر أن يجتمع البرلمان تحت سماء أكثر إظلاماً مما هي عليه في وقتها. وواصلت الصحف باستسلام قائلة إنه لم يبق لبريطانيا سوى قَطْع طريق المهدي إلى مصر. وعصفت حرب السودان بـ١٠ ٪ من دخل بريطانيا القومي. وتعرضت مصر لخسائر أكبر من تلك

التي تعرضت لها بريطانيا. وقالت صحيفة أدنبرا إيڤيننق نيوز (١١ مارس ١٨٨٥) إن وزير المالية سيضطر إلى فرض ضرائب جديدة على الخمور والتبغ وغيرها لتغطية العجز المحتمل في الموازنة. بينما طالب الراديكاليون بوقف الحرب. وما إن جاءت كرري في ١٨٩٨ حتى أثنت الصحافة على بسالة المهدويين الذين يغازلون الموت. واستنكرت إعدام الجرحى لتسمي قائد حملة غزو السودان، كتشنر، بـ«جزّار أم درمان».

أما صدى المهدية في إيرلندا فقد كان محض زمالة في الوجع من بريطانيا ورفقة في طريق الانفكاك من براثنها. فأحصيت ١٧ صحيفة إيرلندية انشغلت، استثماراً في المهدية لعرض ظلامتها من بريطانيا التي وطِئتها لثمانية قرون، بالمهدية كحركة تحرر وطنية تقاتل ذوداً عن وطنها. وبالنتيجة تميزت روايتها عن مواجهات المهدية لبريطانيا بالإنصاف الإيجابي خلافاً لصحف الأخيرة المضَّغِنة عليها. لم تكن المهدية خبراً لإيرلندا بل واقعاً ابتُلُوا به مع بريطانيا طلباً لتحرّر بلادهم. فلم تشحنهم معنوياً فحسب للمصابرة في طلب الحرية بل زوّدتهم برموز تزينوا بها للإزراء ببريطانيا. فتسمى، تشارلز ستيورات بارنيل، من قادتهم الوطنيين، بـ«مهدي إيرلندا» وذاع صيته في أروقة الصحافة البريطانية. ونشرت له كل صحف إيرلندا افتتاحيةً ما بعنوان «أسرِعْ أيها المهدي» (١٨٨٤) هشّت لهزيمة فالنتين بيكر في شرق السودان، وأثارت البريطانيين لأنها تمنّت لغردون مصير بيكر. ونقلتها عنه ٧ صحف بريطانية. وقيل إن من النواب بالبرلمان من أطْلَع قلادستون، رئيس الوزراء، عليها. وأراد من ذلك أن يسأله إن كان في نيته ملاحقة كاتبها جنائياً. وجدّدت صحيفةٌ ما ذكر المقال في مناسبة ذكراه الستين في ١٩٣٤. بل جاء رجع صدى المقال في مفكرة لرجل إيرلندي جرى نشرها في ٢٠٠٩.

ونشرت تلك الصحف تقارير مميزة عن المهدية. واختصت بعضها بفتح صحفي مثل نشر إحداها لمقابلة الصحفي الفرنسي أولفر باين مع المهدي. ونشرت الآيْرِشْمان تقريراً مطولاً في ٢٨ فبراير ١٨٨٥ بعد تحرير المهدي للخرطوم. أخذت فيه من صحف فرنسية احتفت بالمهدية ووصفت بريطانيا بالنعامة التي تدفن رأسها هرباً من الاعتراف بإذلال المهدي لها. وسمّت صحيفة فرنسية انتصار المهدي بالنور الساطع الذي لن يجدي

بريطانيا الازورار منه. وتحدثت أخريات عن الجرح الذي أعمله المهدي في بريطانيا. فطعن كبرياءها ولقّنها درسَ أن تحدّ من طموحها الإمبراطوري. وكان من بين كتّاب الصحف الفرنسية هنري روشيفورت السياسي اليساري الذي تطلّع أن يطوف صدى ثورة المهدي على مستضعفي المسلمين وغيرهم «من دلتا نهر القانج بالهند إلى دلتا نهر النيل بمصر». وقالت صحيفة إيرلندية إنه لم يعد ثمة هدف لمواصلة بريطانيا حرب السودان بعد مقتل غردون. فما تبقى لها سوى الانتقام لغردون بصورة صليبية بقتل أكبر عدد من أعراب السودان. ولما حدثت هذه الحرب الثأرية في كرري عادت إيرلندا بذاكرتها إلى وحشية بريطانيا في إيرلندا بعد ثورتها في ١٧٨٩ أي قبل قرن من وحشية كتشنر في السودان.

وكانت انتصارات المهدي على بريطانيا مما شمَّتَ فيها فرنسا قومياً كما رأينا فيما أخذته صحف إيرلندا من شماتتها. ونظر المؤلف في كتابات لصحيفتين فرنسيتين قرّعتا بريطانيا لتمنعها الاعتراف بهزيمتها في شيكان على يد المهدي الذي استضعفته بينما ضخمت من شوكتها كبراً. ونقلت صحيفة نمساوية عن أخرى بريطانية مخاوف بريطانيا من أن يمتد أثر المهدي إلى مصر، بل جاءت بخبر وفود ثوار تونسيين إلى الخرطوم.

وتناولت صحيفتان أمريكيتان نشاط عثمان دقنة في شرق السودان. وصدرت واحدة منها من مدينة مغمورة على نهر المسيسيبي نقلت خبر إغلاق ثوار المهدية للطرق المؤدية من البحر الأحمر إلى الخرطوم. وحكت الثانية عن اعتزال دقنة جنوده قبل المعركة وصلاتهم الجماعية الطويلة من أجل النصر. وورد في صحيفة أسترالية خبر قبض الشرطة الهندية على كميات من منشورات للمهدي. ووجدتُ صحيفتين إسكتلنديتين نعت إحداهما كسر «المربع الإنجليزي» في شيكان والوحدة الوطنية التي حققتها المهدية. واعتنت صحيفة من ويلز وأخرى من بريطانيا وثالثة إيرلندية بعلاقة أحمد عرابي باشا بالمهدية مما سنعرض له في بقية المقدمة.

المهدية في كتب معاصرة

نظر المؤلف في أكثر من عشرين كتاباً استجد عن المهدية والإمبراطورية رسمت الجغرافيا السياسية لصدى المهدية المترامي. وقفنا بها على صداها في إيرلندا، وعند مسلمي جنوب شرق آسيا، وحركة الوحدة الإسلامية والعربية، وفي الدولية الاشتراكية. واستثمر الشعر الإنجليزي كما لم يحدث قبل للنفاذ لما وراء برودهم السياسي من زعزعة المهدية لهم وحرجهم وخجلهم. وتطرق بالكتب إلى موضوعات لم نوسعها درساً مثل العنف الاستعماري، والبروباقاندا والإمبراطورية، وكاريزما المهدي، والمهدية والوحدة الوطنية، وأعانته هذا الكتب وغيرها لكتابة ترجمة لكل لاعب في تاريخ المهدية كشفت لنا وحدة الإمبراطورية بالذات فيما تعلق بأدوار مثل غردون وهكس في خدمتها حيث احتاجت لهم ومن ذلك السودان.

القومية الإيرلندية: أسرِعْ أيها المهدي

من فتوح الكتاب المعرفية رجوعه لكتب عن تاريخ الحركة القومية الإيرلندية استلهمت مواقف من المهدية وتعززت بها. فعموماً كان المهدي هو البطل الذي تطلع إليه الإيرلنديون كرافعة لمعنوياتهم ضد الإنجليز الذين دانوا لهم طويلاً. وها هو المهدي يجرّعهم غصص الهزيمة. واحتلت بالنتيجة أخبار ثورة السودان الصفحات الأولى بالصحف. وجاءت هذه الكتب بسيرة إدموند أودونافن القومي الإيرلندي الذي حارب في جيش هكس ضد المهدية على ما يكنّه من بغض للإنجليز. وقالت إن المهدي، وربما يا للأسف، لم يكن ليعلم بوجود مثله في صف العدو بما ينطبق عليه المثل السوداني «ليك حبيب في بيت العدا». بل وقالت الكتب إن صحيفة التايمز ظلت تروج حتى ٢٠١٢ أن أودونافن قد انقلب على الإنجليز وانضم للمهدية. وجاء فيها ذكر لأوغستا جريجوري التي كتبت عن المهدي. وقالت إنه أخذ بثأر إيرلندا. بل أوقفت صحيفة ما الطبع لنشر خبر فتح المهدي للخرطوم في حين صمتت وزارة الحربية الإنجليزية عن نشر الخبر.

العرابية: أيقونة عربية إسلامية

وأحصيت للكاتب ١٦ كتاباً في العربية نشرت منذ التسعينات حظيت فيها إستراتيجية الحرب في المهدية بحظ كبير نسبياً. وأعان بعضها في كتابة تراجم لقادة المهدية مثل كتاب الشريف حسين الهندي الذي تناول سيرة والده الشريف الهندي في المهدية. كتاب مكي أبو قرجة عن جده الأمير أبوقرجه، وكتاب عبد الرحمن إبراهيم الحلو عن جده الخليفة علي ود حلو، ومقالة جابر الأنصاري «الأمير جابر ود الطيب شهيد معركة كرري الذي لا يعرفه أحد» (الانتباهة ٢٣ يوليو ٢٠١٣). وكلمة لأشرف عبد الباقي على الإنترنت عن النائب عثمان ود أحمد أمير البطاحين الذي تزامل مع المهدي في مسيد الشيخ القرشي. ونلاحظ عرضاً قيام الأسر، في بيات كتابة التاريخ المهني، بتجديد ذكر رموزها في المهدية.

ولكن أهم هذه الكتب جميعاً كتابان أحدهما جمع آثار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في «العروة الوثقى» والآخر لمحمد عمارة فتح للمؤلف فتحاً في علاقة العرابية بالمهدية قصرنا دونه قبلها. ووسع الكتاب كثيراً من معرفتنا بالمهدية والعرابية التي وقفنا فيها عند عزيمة المهدي على فدائه بغردون العزير على بلده. ولتحقيق الغاية كانت تعليماته المشددة ألا يُقتل. ووفرت مصادر الكتاب التي عرضنا لها جوانب أكثر وأوثق عن علاقة واسعة بين الحركتين منظوراً لها من جهة عرابي. فكتب عرابي لليدي بلنت، زوجة الشاعر ويلفرد بلنت المعادي للإمبريالية، عن سعادته بنصر المهدي الذي هو ثأر سوداني لإخوتهم في مصر. وهي ما جاء في ١٩٦٦ في كتاب نورمان دانييل وبقي حبيس دفتيه. وقيل إن جيش بريطانيا وجد منشورات من المهدي في خيمة عرابي بعد هزيمته في التل الكبير.

كما وسع الكتاب من معرفتنا بعلاقة جمال الدين الأفغاني والمهدية. فعرفنا من أدبه ومحمد عبده في «العروة الوثقى» حماسة جمال الدين الأفغاني للمهدية. فبلغت حفاوته به حد قوله إن المهدي كان تلميذه بالأزهر. بل فكر الأفغاني في ابتعاث تلميذه محمد عبده ليلقى المهدي في السودان. وبلغ من حرص جمال الدين الأفغاني على تمتين الصف

السوداني من وراء المهدية أن عاب زلة محمد سر الختم الميرغني في نصرة الإنجليز.

كما أعاننا هذا الأدب التاريخي المستجد الذي شق إليه المؤلف أكباد الإبل لنقف على أصداء الثورة المهدية بين مسلمي آسيا. فاتّهَم الأفغاني بريطانيا بمنع الحج لحجب خبر المهدية عن الحجيج المسلمين. وكان للمجلة مراسلون في مصر والهند ينقلون انفعال مسلمي البلدين بالمهدية مما جعل المجلة عرضة للمصادرة فيهما. وعرضت المصادر وجوهاً عدة لتعلق الهنود المسلمين وقوميات هندية أخرى بالمهدي اضطرت صحيفة موالية لبريطانيا لوصف ذلك التعلق بالزور الصراح. بل اجتمع البريطاني وليفرد بلنت المعادي للإمبريالية بعلماء هنود مسلمين تعلق فؤادهم بالمهدي. وانشغل حتى غردون رغم حصاره بما قد يترتب على سحب الحاميات المصرية المكلف به على الهند. وقال إن انسحابها نصر سينداح انتفاضات فيها. وكان الأرق بذلك عاماً. فاجتمعت صفوة خبراء عملوا في الهند بمدينة درم بعد مصرع غردون لتتوقى من انتصار المهدي على الهند في بلاد المسلمين.

ونظر المؤلف في كتابين عن تاريخ الهند وسنغافورة لمساسهما بالمهدية. ووفر لنا الكتاب الثاني مادة لنرى حركة قومية أخرى تستقي من المهدية جذوة الهامها تثباً على حقها. كما وفر مادة ستعيننا في كتابة تاريخ أوفى لعلاقة عرابي، في جزيرة سيريلانكا، بالمهدية. واستعان بصحافة سنغافورة في وقتها. فكانت تنشر صحيح المهدية في وجه رفث القول عنها الذي اتهمته بأنه بروباقاندا إنجليزية. واعتنت صحافة سنغافورة بتفاصيل في غياهب السودان مثل من انتصر في المواجهة بين كرم الله الكركساوي المهدوي وأمين باشا في الاستوائية.

المهدية والاشتراكية الأوروبية: لصوصية الطبقات المخملية الخبيثة

لم نزد في معرفتنا عن معابر الاشتراكيين الأوروبيين إلى المهدية عن رسالة فردريك إنجلز إلى ماركس بشأنها. وبدا لي من نقاش كنت طرفاً فيه ثار في ٢٠١٨ أن ثمة عواراً في تملكنا لنص إنجلز نفسه برغم توافر تعريب لكتاب سيرغي سميرنوف، المؤرخ السوفيتي، عن المهدية الذي وثق للنص في كتابه «دولة المهدية من وجهة نظر مؤرخ

سوفيتي» الصادر في ١٩٦٦ وعُرِّب وصدر في ١٩٩٤.

أسفت لأن المؤلف لم يحصحص قول إنجلز عن المهدية الذي اختلفنا حوله. ولكنه طرق أبواباً في علاقة أولئك الاشتراكيين بالمهدية مجهولة بالنسبة لنا ما تزال. فجاء بذكر طائفة من أولئك الاشتراكيين منهم الشاعر وليام مورس من العصبة الاشتراكية التي استبشرت بسقوط الخرطوم (١٨٨٥) في أيدي من هم أولى بها. وكتب موريس عن أطماع الرأسمالية الإنجليزية في السودان والإمبراطورية. وعرض مانفستو للاشتراكيين بصدد حرب السودان التي تشعلها اللصوصية الخبيثة للطبقات المخملية في بريطانيا. ووزعت العصبة تقريراً على الصحف عن نصر المهدي في الخرطوم. واستنكر مورس فظاظة كتشنر في غزوه أعراب السودان وطابق بينه وبين فظاظة بريطانيا مع المزارعين الإيرلنديين قبل نحو قرن مضى. وسمى جند ولسلي مجموعة من اللصوص الذين يسعون لنشر حضارتهم الزائفة. كما عرفنا بقصيدة الأسترالي بانجو باترسون، الاشتراكي المعادي للإمبريالية، «من المهدي للقوات الأسترالية» (١٨٨٥). وسبق لعادل القصّاص نشرها نحو ٢٠١٨.

المهدية: لقاء درامي لسياسة بريطانيا بشعرها:

اعانت هذه الكتب المؤلف لا على زيادة حصيلتنا من الشعر والأدب الإمبراطوري والمهدية فحسب بل في جعلهما مصدراً لجغرافيا الكبرياء الإمبراطوري الذي مرغته المهدية. فلم نزد في معرفتنا من أدب الإنجليز عن المهدية في الماضي عن قصيدة «الفزي وزي» لروديارد كِبلنق، التي عمم ذكرها صلاح أحمد إبراهيم في «غابة الأبنوس» وأخرى لاحقة له هي «مدرسة كتشنر». فزدناهما بفضل هذا الكتاب عددا.

وأهم من هذا وذاك ما وضح لنا من أن هذا الشعر، كما وصى إدوارد سعيد في «الثقافة والإمبراطورية»، مرآة للإمبراطورية وبصورة مباشرة. فتورط بريطانيا في حروب السودان ما سماه فيرقوس نيكول، المؤرخ البريطاني للمهدية وبريطانيا، بفترة التقاء أدب بريطانيا بسياستها. فزعزعت الحرب يقين بريطانيا وطمأنينتها الإمبراطورية. فجاء شعرها وأدبها، كما قال آرثر كونان دويل، الذي اخترع شخصية شارلوك هولمز

المتحري البوليسي الحاذق، لا نافذة على المجد بل على البواطن المكلومة. وكان دويل أكثر من عبر عن زعزعة البريطانيين وفقدانهم الأمان في مجموعته القصصية «مأساة كورسكو». وبلغت به الزعزعة حد أن انضم شخصياً للجيش البريطاني ليحارب في السودان.

خامرت البريطانيين بعد هزائمهم على يد المهدية زعزعةٌ في النفس وحسٌّ بعدم الأمان. فتزعزعت الملكة نفسها. فلما تلقت نبأ فتح المهدي الخرطوم لاذت ببيت سكرتير العرش. وفزعت زوجته لمنظر الملكة التي قالت إنه فات أوان إنقاذ غردون فصلصل صدى كلمتها في أغنية ازدهرت في حانات إنجلترا في ذلك الوقت:

تأخرتم جداً على إنقاذه
هناك طأطأت إنجلترا رأسها
قُتل بطلنا العظيم.

وأعلنت الملكة الحداد العام. وغضبت على جرجرة قلادستون، الذي اعتقد بقوة أن المهدي وطني محق في ثورته، لقدميه دون إنقاذ غردون وفقد رئاسة الوزراء من جراء الهزيمة.

عرفنا من شعراء ذلك اللقاء بين الشعر والإمبراطورية والمهدية، علاوة على كبلنق، نفراً مميزاً. فزلزلتهم معركة أبو طليح حتى وثق لها شاعران هما وليام ماكونغال وسير هنري نيوبولت. فماكونغال في قصيدة «معركة أبو طليح» رأى في حشد الأنصار «جمال آسر». وكتب سير هنري نيوبولت الـ«Vtai Lampada» يرثي صرعى المعركة وفي مقدمتهم الكلونيل فردريك برينبي. وصوّر رمال صحراء بيوضه حمراء «بلون حطام المربع الإنجليزي». وهي دعوة للثأر لضحاياهم وكسر مربعهم. وروجت القصيدة لعسكرة المجتمع لتؤدي الدولة واجباتها. وجاءت بالثنائيات الاستشراقية: من إسلام ومسيحية، وتخلف وتحضر لتروج لفكرة الانتقام من المهدية الخالفة في سلم التطور. وبرزت المسيحية بوضوح في شاغل الإمبراطورية بالسودان. فلم يتورع حاكم الهند عن القول إن انتصار المهدية سَيُضيع الهند من يدهم. فالمسلمون سيرون في المهدية نصراً

للهلال على الصليب. وهكذا تسيدت الصليبية في مناخ تجييش الحملة على السودان.

وكشف المؤلف عن شاعر آخر هو وليام واتسون في ديوانه «الربيع الكئيب». وفيه عبر عن خيبة حملة ولسلي التي أرادت استنقاذ غردون وتحسر على تداعي أمجاد بريطانيا. ومنه قصيدة «السودانيون» التي قرظ فيها بسالة السودانيين:

لم يقاتلونا لأجر
ولا مال يترجونه من أحد
قاتلوا باسم ربهم.

كما توافر لنا بفضل هذا الكتاب أن نعرف عن الشاعر جورج أبيل وديوانه «غردون وقصائد أخرى». وفيه ينعى مغادرة فلول جراهام المهزوم شرق السودان (آخر إبريل ١٨٨٥):

اصطادنا أعراب السودان
وقعوا جميعاً في قبضة رجال عثمان دقنه السمر.

روَّع كبرياء السودانيين في كرري ونفذ إلى سويداء الشعر الإنجليزي. فكتب هنري سوتريس عن مهابة الأنصار وشدة بأسهم. واستعان بعض الكتاب بأبيات أمير شعراء إنجلترا لمعظم العصر الفكتوري، الفرد تينيسون، لوصف جسارتهم وهم يجرؤون عند فك الموت.

أما في النثر فسيُفاجأ القارئ بأن كاتبين قرأنا لهما نتاجاً مميزاً في مدارسنا وغيرهما انشغلا بالمهدية إبداعياً. فآرثر كونان دويل، الذي تقدم التعريف بكشوفه الإبداعية، نشر ضمن مجموعة قصصية له واحدة بعنوان «الراية الخضراء» عن معارك المهدية مع البريطانيين. أما روبرت لويس ستفنسون، صاحب «جزيرة الكنز»، فإنه تابع انتصارات المهدي على مرضه. ووصف الهزائم كأيام سوداء مليئة بالخزي لكرامة بريطانيا

وحصلنا بالأدب على الصوت الذي استكنّ فيه العار الذي غطى عليه نثر المجد الإمبراطوري. كما بثَّ هذا العارَ متحوّلٌ من النصرانية إلى الإسلام هو الداعية عبد الله

(وليام) من أسلم على يديه ٦٠٠ إنجليزي. فحذّر في صحيفته «كريسنت» (الهلال) من أن يمد مسلم يده لعون بريطانيا في حربها للمهدية. وأذاع شجاعة المهدويين في كرري وسمى النصر الإنجليزي عليهم نصر قراصنة ولصوص ومنتهبين لأرض السودان.

ومن جانب آخر تناول شعر ضحايا الإمبراطورية المهدية كضوء في نهاية النفق. وعلى معرفتنا بالشاعر الباكستاني القيم إقبال لم تذع بيننا قصيدته الواردة بديوان Javid Nama عن كتشنر. فانتهَز سانحة غرق كتشنر في البحر خلال الحرب العالمية الأولى ليعقد المقارنة بينه وبين الفرعون الذي أغرقه الله في البحر. وفي القصيدة يَعْبُر الشاعر وشبحه البرزخ ليريا روح الإمام المهدي الثائر. وتحاور روحه روح كتشنر بلهجة مترفعة منتصرة في مقارنة بين حال سيدنا موسى وحال المهدي في مقابلة فرعون وإنجلترا. فيقول المهدي لكتشنر:

لو كان لك عينان تبصر بهما
فلتنتظر عاقبة الانتقام من أشلاء الدراويش.
الجنة لا تمنح قبراً لأشلاء رجل مثلك.

العنف الاستعماري: كيف غضضنا الطرف عنه لقاء السكة حديد

كما أتاحت التوسعة في المراجع للمؤلف النظر المقارن في المهدية. فقارن العنف الاستعماري بعد كرري بأوضاع شبيهة في إيرلندا وسيراليون. فشهدت كرري كما في البلدين الآخرين وضع الأسرى في عشش، وحرقها، وإطلاق النار على من خرج منها طالبا للنجاة. كما اشتهرت كرري بتصفية الأسرى وترك جثثهم في العراء حتى اختلطت جثث الآدميين بالجمال. واستباح الغازي أم درمان. فأنفق الغزاة سحابة نهارهم يقتحمون البيوت، بين الأزقة، يركلون الأبواب بأقدامهم لكسرها، واقتحام النوافذ ملاحقين «أولئك الشياطين» في كل مكان. ولم يَزِع الغزاة أن معظم من تبقى من الأنصار بعد الهزيمة استسلم لهم فقتلوا رغم ذلك ما تراوح بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ منهم. وسبوا أجمل البنات واغتصبوهن. وتجدنا أكثرنا غضّ الطرف عن هذا العنف الذي هو حجر الزاوية في دولة المستعمرة ليتغنى بأفضال الإنجليز. وهو عنف «سَمْكَر»

المستعمرون به الدولة المغتصبة. ولم يجد مؤرخو دولة ما بعد الاستعمار الوطنية صعوبة في رد عنفها إلى المستعمرة وآليات الترويع فيها.

وساق ذلك ميشيل جوردون، التي استعان المؤلف برسالتها الجامعية، إلى مبحث في العنصرية التي من وراء ذلك العنف. فالعدو موصوف عند الغازي بالكسل والوحشية والإجرام بصورة مطلقة سوغت قتله. ووصفهم الغازي بالغلاة والمتعصبين مقدمة لإبادتهم. والشهادات من شهود كرري قالت إنهم وجدوا جيشاً منظماً يبعث الرهبة في النفس.

البروباقاندا والإمبراطورية: من يكتب عن من؟ وكيف؟

وأحسن الكتاب بدراسة كتب سلاطين باشا وأهرولدر وونجت كفصيل ينتمي للبروباقاندا لا للتاريخ. وأدب الترويج للإمبراطورية في المسرح والسينما مما شرع في التأليف فيه جون ماكنزي في وقت باكر في ١٩٨٤ . ولم يطأ قلم مؤرخينا هذه الأرض المكتشفة عن صناعة الإمبراطورية بالدعاية. وما تزال الكتب المخابراتية التي أشرنا إليها معتمدة عندنا كتاريخ. وتسربت بتعريب سلاطين بالذات إلى الثقافة التاريخية العامة واستوحتها كتابات روائية أخيرة مثل «شوق الدرويش». وكان من وراء كتب البروباقاندا هذه كما تقدم ونجت مدير استخبارات الجيش المصري المكلف بـ«استرداد» السودان. وقال عنه نكول إنه أضعَفَ من مصداقية الكتب بتدخّله في تحريرها. فوظفها لإذاعة خطه بوجوب تدخل بريطانيا لشل يد الخليفة دون التدمير الممنهج للسودان. وتلك أمنية عسكرية بريطانية لرد الاعتبار لجيشهم الذي أذاقته المهدية الأَمَرّين.

ولم نفق إلى تاريخه لنقدٍ تَواتَر عن الصفة الاستخباراتية لهذه الكتب. فنبّهَنا دانيل منذ ١٩٦٦ بأن ونجت مشغول بالمهدية بما يشبه الهوس. فضخم من ثورة أبي جميزة بدرافور مثلاً بما وافق غرضه في تحريج وضع المهدية. وهو مصاب في قوله بما سماه «الشك المتوهم» في كل معلومة تبلغه متى تعارضت مع قناعته بفساد المهدية وذهاب أيامها. وأشار دانيل ليد التبشير المسيحي من وراء الكتب الاستخباراتية. فقد أمض التبشير انهيار مشروعه في السودان بقيام دولة المهدية. وعليه استنسخت كتابات الدعاية هذه

الحروب الصليبية بصورة ما.

وأعقب ثيوبولد (١٩٥١) مؤلف دانيل. فضَعّف من قيمة أي تاريخ يكتبه مسجونون سابقون عن سجانهم. وعاب على سلاطين لؤمه على الخليفة الذي أحسن إليه. ثم اتبعهم هولت (١٩٥٨) الذي وصف هذه الكتب بالدعائية. وعاب على ونجت التركيز على توحش المهدية لأغراضه العسكرية في حين غيب الجانب البناء في دولة الخليفة. ووصف يوسف فضل الكتب موضوعنا هنا بـ«الجنوح للإثارة» لالتباسها بالثأر لغردون، والمطامع المسيحية التبشيرية، وحملات الغاء الرق، والهوس الاستعماري.

المهدي والوحدة الوطنية: عدد الشجر والمدر وزبد البحر

وتطرق الكتاب للمهدية كرافعة للوحدة الوطنية في مقابل تواريخ «قبَلية» لجماعات سودانية اتخذها البعض للطعن في التماسك الإسلامي الوطني من حول رسالتها. وبالطبع تجد من مرق من السودانيين على المهدية ولكن جماعة من نفس أهله ثبتوا عند ولائهم لها بما لا يصح القول مثلاً إن قبيلة كذا عادت المهدية وبادلتها المهدية عداء بعداء. فكان في معارك المهدية في كرري وأم دبيكرات رايات للجعليين والبطاحين والكبابيش مثلاً الذين يعدهم التاريخ المتداول خصوماً أزليين للمهدية بما فعلت بهم. فاجتمع عند رايتها الناس مسلمين أنصاراً للمهدي. بلغوا في الكثرة، في قول المهدي، «عدد الشجر والمدر وزبد البحر». فحارب العرب منهم وغير العرب كتفاً بكتف. فكان حمدان أبو عنجة والزاكي طمل من المنضلا، وهو شعب هجين، والغديات في شيكان. وأرسل المهدي فرسان الزغاوة بقيادة الأمير طاهر إسحاق لحصار الخرطوم بقيادة أبو قرجة. وفرسان مساليت بزعامة الأمير إسماعيل عبد النبي وولده هناك أبكر والفلاتة بقيادة الفكي الداداري. وما اختلطت الأعراق المسلمة مثل اختلاطها أول مرة في معركة أبو طليح بقيادة موسى ود حلو وعلي ود سعد الجعلي. فكان فيها كنانة ودغيم والحسنات والشانخاب من الوسط وبني جرار والحمر والجمع من كردفان. والبرقد من دارفور، وبني سليم من النيل الأزرق. والجعليون في أرضهم.

هل السودان استثنائي في استعماره؟

وأكثر ما ميّز الكتاب هو التراجم التي عَرّف بها بمن لعبوا أدواراً في سردية المهدية من سودانيين وبريطانيين وغيرهم. واستعان في تراجمه بموسوعات المعارف البريطانية ومواقع إليكترونية للجيش البريطاني. وستجد في هذه التراجم رجالاً لم يحاربوا في السودان فحسب بل في كل موضع من الإمبراطورية استدعتهم الضرورة له. وقيمة أنساب هؤلاء الرجال في خدمة الإمبراطورية أنها تصقل وعينا بوحدة الإمبراطورية البريطانية. فقد وجدت فينا من قال إن السودان لم يكن مستعمرة لأنه تبع وزارة الخارجية في بريطانيا لا وزارة المستعمرات. وهذا قول هين من وجوه كثيرة. فتبعية السودان للخارجية البريطانية لم تزد عن كونها حيلة تسترت بها بريطانيا لزعم أحقيتها بالسودان دون غيرها من الدول الأوروبية التي تكالبت على أفريقيا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فتذرعت بريطانيا باستعمار ثنائي مع مصر على السودان لأن لمصر حقوقاً قديمة في السودان لا سبيل للغلاط الأوروبي فيها. ولذلك كان وضع السودان تحت إشراف الخارجية البريطانية لا المستعمرات مراوغة دبلوماسية لمنع التكالب عليه.

ومن جهة أخرى، متى ما وقفنا على وحدة الإمبراطورية، بانَ زيفُ تمييز بعض صفوة السودانيين التي زعمت أن السودان لم يكن مستعمرة ببيّنة تلك الألعوبة الدبلوماسية البريطانية. وغابت وحدة الإمبراطورية علينا لأننا نقتطع تاريخنا من كامل تاريخ الإمبراطورية ونُحيله روايةً محليةً وما هو كذلك. فلم نزد في باب التاريخ المحلي عن ذكر صلة غردون بثورات الصين. ولكن لم ندرس سيرة هكس قبل موقعة شيكان لنعرف مخاطرته الإمبراطورية في هزيمة ثورة ١٨٥٧ في الهند، ثم اخماده تمردات اثيوبية انتهت بمعركة ماجدلا في نهاية ستينات القرن التاسع عشر. ونفس الحكي عن ستيوارت، الذي قبره ظاهر عند آبار الجقدول بصحراء بيوضه صريع المهدية، الذي لم تفته معركة إمبريالية مسماة: في الهند، والبوير والزولو في جنوب أفريقيا، وضد العرابية في مصر..

خاتمة

هذا كتاب رحب الجناب. جاء كما قلت بالحسنيين في علم التاريخ: فتح وثائقي وفتح في زوايا النظر للمهدية. ووطّن المهدية في تاريخ عالمي عريض بينما انكفأنا به في العقود الأخيرة إلى حكاية مغرقة في محليتها لا قيمة لها. وستبقى للكتاب مكرمة فكرية غرّاء هي أنه أحال للاستيداع دعوة طنانة وفارغة صدّعتنا بها النظم المستبدة التي ضرّجت حياتنا طويلاً وهي «إعادة كتاب التاريخ». فلم يحتج هذا الطبيب الطارئ على كتابة هذا التاريخ المبتكر السوي للمهدية لأكثر من الوقوع على جسد وثائقي متروك استدل عليه بمقال عابر في صحيفة إيرلندية عن صدى المهدية في بلدهم. فثبت فينا أن التاريخ لا تعاد كتابته إنما يُكتب سرمدياً. وظفرنا بكتاب في تاريخ المهدية وسّع فهمنا لها من فوق فتح وثائقي ومعرفي في وقت كانت الكتابة التاريخية عندنا تغط في أضغاث إعادة كتابة التاريخ.

الباب الأول

الثورة المهدية..
مخاض البدايات

الثورة المهدية.. مخاض البدايات

«في سوريا، مصر، الحجاز، كونيا وإستانبول وحتى في الهند نفسها.. يبذل الناس هناك الصلوات والدعوات بحماس شديد لتصعد متجهة إلى السماء من أجل نصرة المهدي بإفريقيا. حتى لو اجتمع على عداوة مهدي السودان عبيد السلطة من أمثال الأمراء ورؤساء الحكومات الحاليين مع نظرائهم من شيوخ الإسلام ذوي العلم. حتى ولو اعتَبر سلطانُ المغرب المهديَّ مارقاً أو استنكر مواقفَه سنوسيٌّ ليبيا -الذي يدّعي لنفسه مكانة المهدية- ورماه بالانتحال في ما وصف به نفسه. حتى وإن قذفه السطان عبدالحميد من عرشه بإستانبول بسيل من اللعنات.. فإن ذلك لن يغير شيئاً من حقيقة مفادها أن جموع وجماهير الأمة الإسلامية في كل تلك الأمكنة تبارك ما يقوم به المهدي في السودان وتتعاطف جميعها مع حركته».

من مقال بعنوان «Europe's Stake in Soudan»، نُشر بمجلة «Contemporary Review» البريطانية بتاريخ مايو ١٨٨٤، أرشيف الصحافة البريطانية.

لم يكن قصدنا من تلك القصاصة المنقولة عن صحيفة نخبوية بريطانية مهمة على نحو «Contemporary Review»، هو مجرد شحذ الذهن ليتبدى كمشّاءٍ يتلمس الطريق نحو مسالك تُفضي إلى سبر أغوار إحدى الصور التي تشكلت عليها مدارك الوعي البكرة بالثورة المهدية في خلايا العقل النخبوي ببريطانيا القرن التاسع عشر. فذلك أمر يستصعب أي عقل بحثي متعقل التراضي مع ما به من ميلٍ يستهوي تجييش الخواطر وحشدها نحو الاقتتال في إحدى خنادق أي طرفين متصارعين ارتمت فيما بينهما أرض محتشدة بأقاصيص التاريخ وأنفاسه التي ليس لمداها منتهى. بيد أن ما ساقنا لتلك البدايات الغرائبية عطفاً على خروجها عما أَلِفه المهتمون بالمنهجية التي

ليس هناك ما هو أخلق منها بدارسات علم التاريخ، ما كان سوى شغف قديم لاختراق الجدران التي انحبس وراءها التقليد وروحه السرمدية أو سلطانه الأزلي - إن شئنا أن نكون أكثر دقة - في تحديد طبيعة ذلك السياق الذي يجب أن يبعثر عليه التاريخ حبره بين صفحاته الضاجة بالوقائع والتفاصيل.

لذا ارتأينا أن نبتدئ ما نحن بصدده هنا، بالتجاسر على الخروج بتلك الوقائع وتحريرها من المنهاج السردي الذي يزجّ بأدق تفاصيلها في «زنازين» القصة التاريخية. وهي ذات «الزنازين» التي جعلت أقاصيص التاريخ محكومة ببدايات معينة، لابد أن تترتب فيها الأشياء كما تتراص روزنامة الأحداث في صفحات حياة المرء فلا يشغف له ذهن في استدعائها ما لم تأته منساقة من خلايا الذاكرة بذات الترتيب الذي جُبلت عليه طرائق التفكير المُثقلة بميراث «ما يتحتم أن تكون عليه الأشياء».

ولكن بالعودة إلى مقال «Contemporary Review» الذي أشرنا إليه في صدر ما قدمناه من حديث، يستبين أن المقال ذاته قد تزينت به تلك الصحيفة المهمة في ذات العام والشهر الذي لم تبلغ فيه الثورة المهدية بالسودان نهايات عامها الثالث بعد. فما الذي جعل حركة مقاومة سودانية قامت في أرض غزتها قوات الخديوي محمد على باشا قبل أكثر من ستين عاماً فأخضعتها لسطوتها الحديدية - كما أخضعت من قبلها مصر نفسها - بسلاسل القهر والتنكيل.. ما الذي جعل وقائعها تتسلق الذهن النخبوي الإنجليزي بأسواره الحصينة المتمثلة في ضمير صحافة يسار الوسط والذي عبرت عنه تلك المجلة تحديداً بما عرفت به من وعي طليعي تجاه قضايا العدالة المجتمعية ونظرة لبرالية متحررة لوقائع الأحداث العالمية عموماً؟

تساؤلات كتلك، قد لا تظل على حالها من السكون إن سبرنا مغزى الصيغة الخبرية التي تَشكّل من صلصالها ذلك المقال. فالمقال يوفر لنا ذائقة تحليلية معاصرة لتطلع الذهن الشعبي الإقليمي نحو انتصارات المهدية على القوى الاستعمارية واحتفائه بما قد يترتب عليها من نتائج. كل ذلك اقترن بقراءة واقعية مهمة لمتلازمة التناقض بين «يوتوبيا» الأماني الشعبية ومؤسسات السلطة القائمة على المستوى المناطقي الذي

كان السودان جزءاً منه بحسابات الدين والجغرافيا. بَيْد أن ما ذهبت إليه «Con-temporary Review» من الأثر الشعبي للثورة المهدية، لم يكن على مبعدة مما صرّح به مفكر مصري معاصر لها مثل الشيخ محمد عبده والذي استنطقته صحيفة «The Pall Mall Gazette» اللندنية إبان زيارته للعاصمة البريطانية في ١٨٨٤ عبر لقاء صحفي مطول، فتحدث بدوره عن تهيؤ المسرح الشعبي المصري للقبول بفكرة تقدم المهدي السوداني بقواته شمالاً لتحرير مصر من الهيمنة الاستعمارية ومن ذلك قوله: «في هذه اللحظة التي أتحدث معكم فيها، يتمتع المهدي بتعاطف كبير من الجماهير المصرية لأنهم يرون فيه المخلص والمنقذ من الاعتداء الأوروبي المسيحي وسينضم لصفوفه المصريون حالما حل هو بديارهم». وعندما سُئل الشيخ عن مدى اقتراب ما ذهب إليه بالحسابات الزمنية، جاء رده سريعاً: «إن لمحمد أحمد أنصاراً ومساندين بالفعل الآن في صعيد مصر ولكنه لن يتقدم إلى هناك إلا بعد تحرير مدينة الخرطوم»[1].

على أن ما انتحينا إليه من قراءة تحليلية للمسار الذي انطبعت على رماله أقدام الثورة المهدية على المستوى الشعبي، لن يرتفع بناؤه المعماري لمراقي الواقعية ما لم نتقدم بذات القراءة لاستكشاف مغارات الوعى الشعبي الحصينة المتمركزة في حركة الثقافة والفنون المصرية تحديداً. ومن ذلك ما جاء في إحدى مسرحيات يعقوب صنوع[2] - أحد أهم رواد المسرح المصري - بصيغتها المصغرة المعروفة باسم

1 صحيفة «The Pall Mall Gazette» اللندنية، ٧ أغسطس ١٨٨٤، أرشيف الصحافة البريطانية.

2 **يعقوب صنوع**: صحفي ومسرحي مصري ولد بالقاهرة في العام ١٨٣٩. درس الفنون بإيطاليا وتعلق قلبه بالمسرح. يعتبر في نظر الكثيرين من أهم رواد المسرح المصري في نهايات القرن التاسع عشر وعرف أيضاً بلقب «موليير» مصر. نشر مسرحياته أو لعباته التياترية بعدة صحف أصدرها بنفسه على نحو «**أبو نظارة زرقا**». غضب منه الخديوي للمحتوى الساخر لإحدى مسرحياته «**الوطن والحرية**» وهي تتعرض لفساد القصر عنده ونفي إلى فرنسا حيث واصل عمله كصحفي متخصص في أعمال التياترو. هناك اتصل بجمال الدين الأفغاني. وقد كتب الدكتور إبراهيم حمادة كتاباً عن يعقوب صنوع عام 1955م واسماه «**الصحفي الثائر**» كما جاء في المقدمة: «في هذا الكتاب سيرة لصحفي ثائر نادر المثال في تاريخ الصحافة المصرية». كان مؤرخاً دقيقاً لفضائح العصر ومباذل القصر. يمتاز يعقوب صنوع أو أبو نظارة كما عرف في التاريخ بأنه كان أول من انشأ مسرحاً في مصر، وأول من أصدر صحيفة هزلية كاريكاتورية في الشرق قاصيه ودانيه وأول من أخرج مجلة بالألوان، وأول من نفى من أصحاب الأقلام، وأول من جاهد في مصر والسودان ضد الاستعمار في كل مكان أربعة وثلاثين سنة وبطريقة لم يسبقه إليها إنسان. أما الدكتور سيد على إسماعيل فقد شكك في ريادته للمسرح المصري وساق في ذلك ما دعم حجته من الأدلة.

«اللعبة التياترية». وهي ذات «اللعبة التياترية» التي تعرض فيها لتصادم الفعل الرسمي للمؤسسة الخديوية الحاكمة مع القناعات الشعبية المصرية المرتبطة بالثورة المهدية. ففي سياق موازٍ لما ذهب إليه الشيخ محمد عبده، وبلهجة والغة في الوجدان الشعبي لمصر القرن التاسع عشر، أجرى صنوع على لسان شخصيته الافتراضية الهزلية «الشيخ أبو نظارة زرقاء» نقداً لاذعاً لتملق شيوخ الأزهر للخديوي توفيق بإصدار فتاوي تدين المهدي السوداني مثنياً عليه ومظهراً إياه على هيئة المُخلّص الذي سيأخذ للمصريين بثأرهم من أعدائهم البريطانيين.ومن ذلك قوله بعامية مصرية مبسطة:

«أنا ما يدخلشي عقلي، وعمري ما أصدق أن جماعة الأزهر اللي أشهد فيهم حب الوطن يكتبوا فتاوي ضد المهدي السوداني، لأنه الشهادة لله رجل بطل صنديد وقصده الوحيد أخذ ثأر عرابي واخوانه اللي خانهم توفيق وسلمهم في يد العدو وغاية مناه حرية مصر ورجوع أبنائها المذلولين لسعادتهم وثروتهم القديمة على أيام محمد على جنتمكان وابنه سعيد.. يا رب حلمك!»[1].

وبما أن ما نحن بصدده هنا، هو تبيان أصداء الثورة المهدية في عالمها المعاصر، وبرؤية أكثر عمقاً لامتداداتها الموثقة في الوجدان الشعبي ببقاع مختلفة، لذا يمكن القول بأن التطلع الشعبي لانتصارات الثورة المهدية على القوى الاستعمارية المختلفة لم يكن قاصراً على مناطقية محدودة في محيطها الجغرافي المباشر. ولإكساب هذا القول حُلّة موضوعية تحرره من مربعات المزاعم، قد يكون من الأهمية بمكان الإشارة لامتدادات الثورة المهدية بالذهن الشعبي الإيرلندي الثائر على قبضة بريطانيا بجزيرتهم المحتلة من قبل البريطانيين. تلك رمزية مركزية مهمة عبرت عنها صحيفة «United Ireland» بمنهجية تفكير كاثوليكية هدمت بحماستها حوائط تباين المعتقد بينها وبين الحركة المهدية لتحتشد بخواطرها مع السودانيين في خندق المقاومة. وقد تبدى ذلك جلياً حينما انبرت الصحيفة المحسوبة على تيار

1 **الثورة المهدية في المسرح المصري**، للدكتور سيد علي إسماعيل، منشورات المسرح الوطني - مسرح البقعة، أم درمان– السودان، ٢٠١٦، ص ٣٠.

القوميين الإيرلنديين لدفع افتراءات صحافة إنجلترا بإلصاق تهمة «ادِّعاء النبوة» بقائد الثورة السودانية.. فجادلتهم بلغة ثائرة مبسطة معربة عن ماهية ذات الرمزية التي سبقت إشارتنا إليها.. ومن ذلك قول الصحيفة نفسها:

«بالنسبة لنا هو ليس بنبي كاذب. بل إننا نعتبره أحد قراء تعاليم المسيح ممن أرسلتهم السماء، فهو جدير بثقتنا فيه لأنه هبة لكل الشعوب التي ترزح تحت وطأة المعاناة»[1].

حسناً، فلنبدأ بقراءة تحليلية لتلك السنوات المفصلية والتي عرفتها ذات الصحيفة الإيرلندية المار ذكرها ضمناً بعبارة مفتاحية مهمة وهي تحديداً ما وصف بسنوات «رزوح الشعوب تحت وطأة المعاناة». وما أسهل أن يجادل المرء هنا بالمنطق القائل بأن أي دراسة موضوعية لتفاصيل حركة ثورية تاريخية معينة وما أحدثته من أثر في عالمها المعاصر، تقتضي تشريح الظروف العالمية والمحلية التي صاحبت خروجها للعلن. وفي الإطار ذاته، أشارت صحيفة «العروة الوثقى» - لصاحبيها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده - للوهن الذي تسرب ببطء لمفاصل جسد الإمبراطورية العثمانية آنذاك منتقدة صمتهم تجاه تزايد النفوذ البريطاني على مصر وغيرها من المستعمرات العثمانية. وانتهت الصحيفة لتسمية الأمر برمته بـ«تجرع مرارة الصبر على تحكمات الإنجليز وحيفهم في أعمالهم وتعديهم على حقوق السلطان في المسألة المصرية والتي هي في الحقيقة أهم مسألة عثمانية أو إسلامية»[2]. ولعله ذات الوهن الذي وضعت مبضعها عليه صحيفة قومية إيرلندية مقاومة للنفوذ الاستعماري البريطاني مثل «Irishman» حين وصفت الإمبراطورية العثمانية بالهرم والشيخوخة وهي تسلم المناصب العليا في مراقي سلطتها لمجموعة من المرتزقة

1 صحيفة «**United Ireland**»، ٢٦ يناير ١٨٨٥، أرشيف الصحافة الإيرلندية. انظر أيضاً:
«Speed the Mahdi!» The Irish Press and Empire during the Sudan Conflict of 1883-1885 by Michael De Nie. Journal of British Studies, Vol. 51, No. 4 (OCTOBER 2012), Published by: Cambridge University Press on behalf of The North American Conference on British Studies, p. 893.

2 جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده: **العروة الوثقى**، الناشر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢، ص ١٦٨.

الأوروبيين ومن ذلك ما أشارت إليه بإخضاع السطان العثماني عبدالحميد الثاني لسلاح بحرية جيشه لقيادة الجنرال البريطاني هوبرت منذ ١٨٨١[1].

ويستبين ذات المعنى بملمحٍ أوضح فيما كاتب به الخليفة عبدالله – خليفة المهدي ورأس الدولة السودانية التي قامت بعد وفاته – السلطان العثماني عبدالحميد الثاني، مستعجباً من اعتماد العثمانيين على القوى الاستعمارية الأوروبية في تسيير جيوشهم وشئون إمبراطوريتهم. فقد وصف الخليفة عبدالله ذلك التناقض بما أسماه هو بـ«تمكينك للأعداء من بلاد الإسلام مع علمك سعيهم في إطفاء نور الله بأشد اهتمام. وأنت تزعم بأنك الذابّ عن حرم الدين فما عذرك غداً إذا وقعت بين يدي مولاك فسألك بما قدمت يداك»[2].

أما مصر نفسها فقد كانت الأحوال فيها تموج باضطراب متعاظم بعد خنوع الخديوي توفيق للبريطانيين واستعانته بهم لإخماد جذوة الثورة العرابية حتى صارت مصر في عهده – بحق– مستعمرة بريطانية غير رسمية، وهي ذات الفترة التي بلغ فيها تعداد القوات البريطانية التي احتلت مصر في ذلك الوقت عدداً فاق الخمسين ألف جندي بريطاني. وبدا محمد أحمد المهدي.. قائد الثورة المهدية مدركاً لسيطرة الإنجليز على مصر وإخضاع الخديوي توفيق لسطوتهم وتسييرهم إياه جسداً بلا روح وما تبع ذلك من قمع وتنكيل بقوى الثورة العرابية، فكتب للخديوي توفيق منددأً باقتران ذلك كله مع إصرار الأخير على مواجهة الثورة المهدية في السودان عسكرياً مستعيناً على تحقيق ذلك بالبريطانيين وآلتهم الحربية ومن ثم اعطاءهم الكلمة العليا في أمر الدولة المصرية. ومن ذلك بعض ما جاء بخطابه للخديوي توفيق والذي قال فيه:

---

1 صحيفة «**Irishman**» الإيرلندية، ١٥ ديسمبر ١٨٨٣، أرشيف الصحافة الإيرلندية.

2 خطاب الخليفة عبدالله بن السيد محمد للسلطان عبدالحميد الثاني: **تاريخ السودان** لنعوم شقير. تحقيق وتقديم الدكتور محمد إبراهيم أبوسليم، الناشر: دار الجيل، بيروت– لبنان، طبعة العام ١٩٨١، ص ٦٨٧.



الإمام محمد أحمد المهدي

بريشة الرسام الفرنسي الشهير جورج موندبارد

«وهكذا صارت جيوشك تأتيني ثلة بعد ثلة وأقدم لهم الإنذارات ولم تنفعهم والله يؤيدنا عليهم وينصرنا كما وعدنا ويقطع دابرهم إلى أن قلّت حيلتك وتلاشى أمرك، فسلمت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى أعداء الله الإنجليزوأحللت لهم دماءهم وأموالهم وأعراضهم فجاء الإنجليز بكبرهم وخيلائهم واعتمادهم على غير الله». وقال أيضاً: «وما كان يحسن منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم. ألم تسمع قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولّهم منكم فإنه منهم)؟»[1].

وفي السياق نفسه، تحدث مؤرخ الحركة الوطنية المصرية عبد الرحمن باشا الرافعي واصفاً سياسة البريطانيين الاستعمارية في مصر بعد قمع الثورة العرابية بمعركة التل الكبير في العام ١٨٨١: «كان أول ما فكر فيه الاحتلال من التغييرات الجوهرية هو إلغاء الجيش المصري وخلق جيش صغير يرأسه ضباط من الإنجليز يتولون أمره وقد بادر الإنجليز إلى إلغاء الجيش الوطني منذ الساعة الأولى للاحتلال». وصارت القيادة العليا للجيش المصري حكراً عل جنرالات بريطانيا بما في ذلك منصب القائد العام وأركان حربه مما دفع بالرافعي لوصفه بأنه صار «كالأداة في أيدي رؤسائه وضباطه الإنجليز» [2].

وفي الإطار أعلاه، تتقدم جدلية قديمة- متجددة لتفرض لها أوتاداً متجذرة في صدر أي قراءة تحليلية لطبيعة الاستعمار الذي كان يرزح تحت وطِئته السودان عند قيام الثورة المهدية في العام ١٨٨١. ومن ذلك أن الإرث المكتوب عن تلك الفترة ظل يشير إليها بفترة الاستعمار التركي المصري..على الأقل على مستوى الأدبيات السودانية المتناقلة جيلاً بعد جيل. وهو ذات المسار الذي كفل للذهنية الأرستقراطية

1 **الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته**، الدكتور عبدالودود شلبي، الناشر: مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠١، ص ١٦٩-١٧٠.

2 **مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال**، لعبدالرحمن الرافعي، الناشر: دار المعارف، القاهرة – مصر، الطبعة الرابعة، ١٩٨٣، ص ٢٠-٢١.

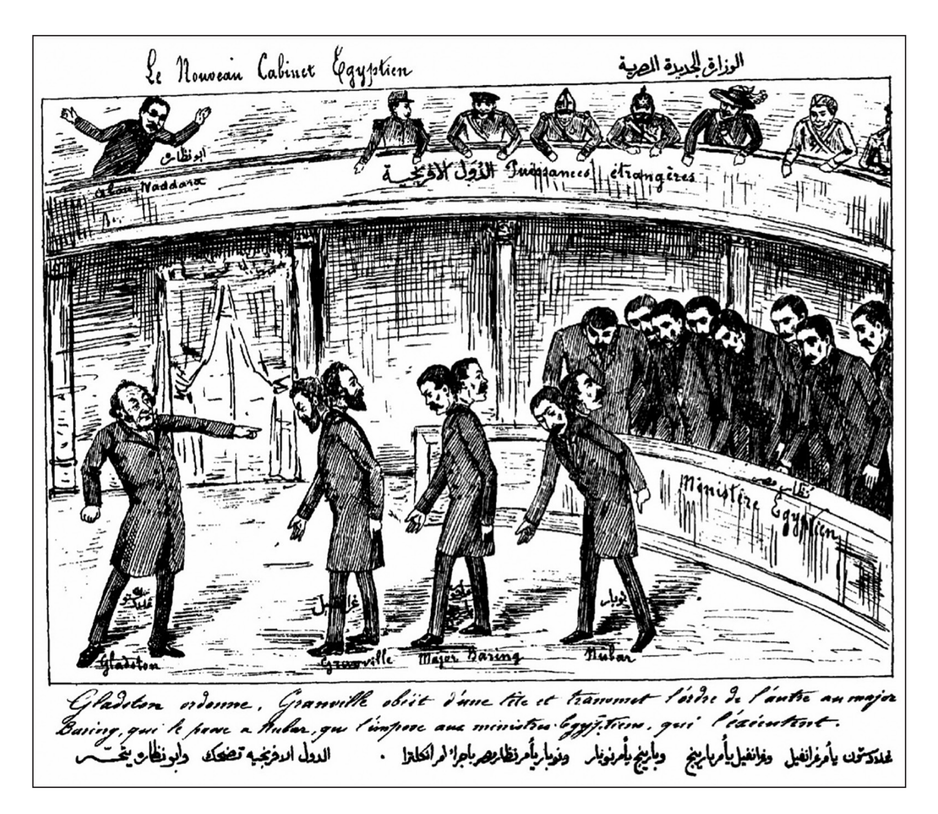
الخديوية حقاً تاريخياً لحكم السودان وإلحاقه بممتلكات مصر. بيد أن الجدلية ذاتها لن تخمد في الصدور، ما لم يتم تفكيك تفاصيلها للإجابة على تساؤلات تحتل موقع المنتصف من دائرة الفكرة بأكملها: هل كانت مصر فعلياً تحكم نفسها عند اندلاع الثورة المهدية؟ وبمعنى أكثر اقتراباً من حقائق الأشياء: هل واجهت الثورة المهدية قوى استعمارية تركية مصرية بالفعل أم سلطة مكونة من وكلاء محليين لقوى استعمارية أكبر كبريطانيا على وجه التحديد، بكل ما قد يصاحب ذلك من تصادم بين الإرادة الشعبية المحلية في تلك البقاع المختلفة والقوى النخبوية التي سعت بحدة لتأمين مراكز حكمها. متاهات معرفية تاريخية كتلك، قد يلتمع في حلكتها بريقٌ يدك ببأسه إرتهان الذهن البحثي لحيرةٍ مطلقة فيما يليها من وقائع. وهو ذات البرق الخاطف الذي يتبدى فيما قاله الجنرال البريطاني تشارلز غردون قبل أن تنتاشه رماح الثوار المهدويين على عتبات قصره في الخرطوم لاحقاً:

«إنه لضرب من ضروب الخيال، القول بأن هناك حكومة مصرية تحكم مصر. هذه رواية ساذجة بالنسبة لكل من يتبين الحقائق برؤية ثاقبة. هل يستطيع أحدكم أن يتخيل مسرحية هزلية أكثر من أن يطلب اللورد نورثبروك من الخديوي توفيق مساعدة حكومته لإنجاز مهمة ما. إنني شخصياً أتوقع أن ينفجر كلاهما ضاحكاً من عبث كهذا. فلتعذروني لأنني لا أستطيع أن أرسم لكم هذا الموقف الهازل على الورق»[1].

كل ذلك يفتح منفذاً عقلياً مهماً نحو الإقرار بأن الثورة المهدية لم تكن تصارع سوى سلطة إقليمية كانت كالجان الذي يحرس كنزاً من المصالح الاستعمارية، فلا يخزن بفعله ذاك إلا خزائن سيده. وهو ذات الاتجاه الذي قد يثير في مداه مراجعات أوسع لمصطلح «الاستعمار التركي - المصري للسودان» – على الأقل في مراحل المواجهة المبكرة للثورة المهدية مع القوى الاستعمارية – سمها إصطلاحاً بما شئت من الأسماء.

1 **Islam, Europe and Empire** by Norman Daniel (Edinburgh University Press; distrib. by Aldine Publishing Company, Chicago 1966, p. 419.

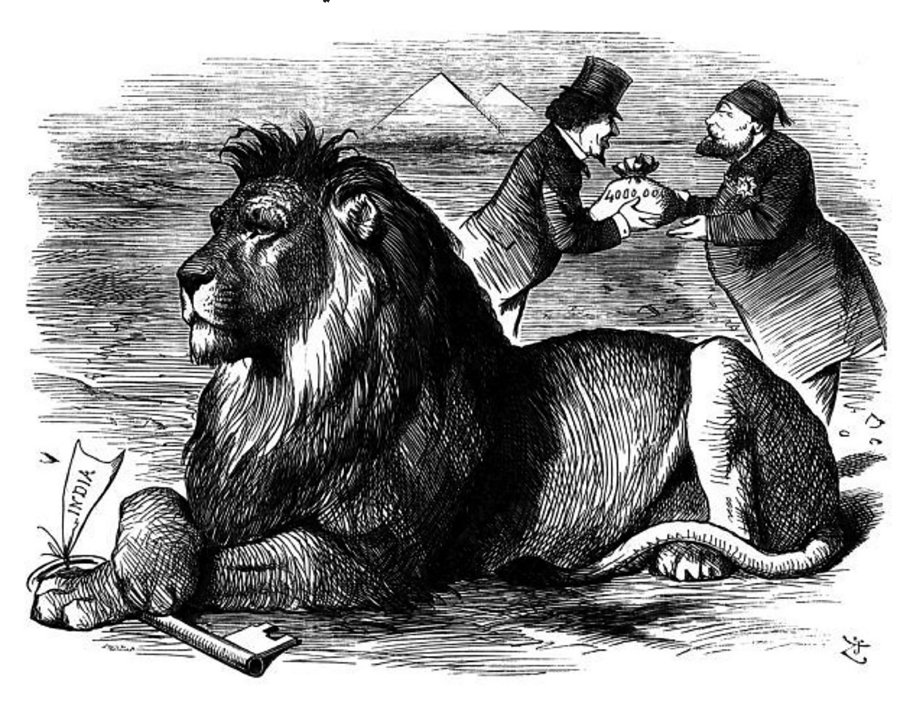
وبتضييق المدى الذي حاولنا التنقيب في أرضه المترامية، تبقى ملامسة بواطن الوقائع المحلية على مستوى السودان في مستهل ثمانينيات القرن التاسع عشر.. ضرورة لن يسهل دونها إيقاد الذهن بصورة افتراضية لما كانت عليه الأحوال هناك عند بدايات اندلاع الثورة المهدية. لقد تعرض المؤرخون بتوسعٍ مستفيض لآيات القهر والإذلال التي انتهى إليها نظام الحكم في السودان بذلك الوقت على الرغم من مضي أكثر من ستين عاماً على إرتكاز أقدام جند الخديوي محمد على باشا برمال البلاد وتثبيت دعائم حكمه هناك بما يكفي من القمع والتنكيل. فلنبدأ إذن بما قاله



رسم ساخر يوضح كيف كانت مصر تُحْكَم في عهد الخديوي توفيق: غلادستون رئيس وزراء بريطانيا يأمر وزير خارجيته غرانفيل وهو بدوره يأمر اللورد بارينج حاكم مصر البريطاني الأعلى وباريج بدوره يأمر نوبار باشا رئيس وزراء حكومة توفيق ونوبار يأمر وزراء مصر.

صحيفة «أبو نظارة زرقاء»، ٩ فبراير ١٨٨٤م

عبدالرحمن الرافعي عن أسباب قيام الثورة المهدية. وعندنا أن مصدر قوته يكمن في موقف الكاتب نفسه والذي ينطلق من ذات المدرسة الخديوية العتيقة التي تؤمن بملكية مصر وسيادتها على أراضي السودان بحق الفتح الباشوي المصري القديم. ولكن كل ذلك لم يمنع الرافعي من الإقرار بها شعر هو بمرارة الاعتراف بتفاصيله حين قال: «فأول هذه الأسباب مظالم الحكام، وما عاناه الأهلون من العسف وفداحة الضرائب، ويلزمنا أن نعترف بأن حكام السودان قبيل ظهور الثورة المهدية، وحين ظهورها، كانوا على جانب كبير من الظلم والجور، لقد كانوا خليطاً من الترك والشراكسة أو من المصريين. وكانوا كلهم سواء في إرهاق الأهلين، هذه حقيقة نشعر بالمرارة إذ نقررها، ولكنها الحقيقة الواقعة التي لا يجوز تجاهلها، بل علينا



كاريكاتير بعنوان «نصيب الأسد الإنجليزي» يوضح سيطرة الإنجليز على الخديوي إسماعيل «والد توفيق» وإغداقهم عليه بالمال ليتنازل عن امتيازات بلاده في قناة السويس ويمنحها لبريطانيا التي تودّ تأمين معبر سفنها للهند.

مجلة «ذا بنش» البريطانية، ١٨٧٤م.

أن نعترف بها، وأن نستخلص العبرة منها، فلو أن كل موظف مصري يشعر بأن عليه واجباً قومياً لبلاده ومنصبه، يؤدي هذا الواجب بأمانة واستقامة، لكان ذلك من عوامل عظمة مصر وسعادتها»، إلى أن يقول: «فهؤلاء الحكام الذين يقع عليهم نصيب كبير من تبعة نشوب الثورة المهدية، مما أدى إلى ضياع الإمبراطورية العظيمة التي بذلت مصر ما بذلت من الدماء والأرواح والأموال في سبيل تأسيسها»[1].

وكان نهم النظام الاستعماري القائم لجمع الأتاوات من السودانيين ووسائله الدموية في تحصيلها قد أورث غبناً متراكماً في نفوسهم حتى سادت تلك المقولة الشعبية التي تفضل الموت استلقاءاً بالأجساد تحت التراب على مهانة دفع ريال واحد كضريبة لحكم أجنبي سامهم سوء العذاب «عشرة رجال في تُربة ولا ريال في طُلبة». وابتكر النظام الحاكم أساليب وحشية في إشاعة الرعب بين الجماهير السودانية بوسائله القسرية المتفردة في تحصيل الضرائب والتي كان من بينها شد أجساد الضحايا في الأوتاد وحبس القطط بداخل سراويل الرجال حتى يرشدوا العساكر إلى مواضع أموالهم المخبؤة. وهي ذات المشاهد الوحشية التي خلدتها أبيات الشيخ محمد شريف نور الدائم أحد أستاذة المهدي حين قال:

ما أبت السودان حكم حكومة إلى.. أن أتى ضعف المطاليب من مصرِ
كالثلث والثلثين للمير وحده.. وللشيخ والنظار أضعافه فأْدرِ
بضرب شديد ثم كفٍ مؤلمٍ.. من بعد الإبقاء في الشمس والحرِّ
وأوتاد ذي الأوتاد من بعض.. فعلهم وأشنع من ذلك كله عمل الهرِّ[2]

كل ذلك أدى لهجرات جماعية لمجموعات مقدرة من القبائل السودانية لتهيم على وجهها في فلاة الأرض طلباً للسلامة وإيثاراً للعافية. ومن ذلك أبيات مماثلة حفل بها التراث المتناقل شفاهياً للسودانيين عن تلك الحقبة:

يــا الأربــاب أحكــي ليــك حكايــة الطاعــوا

1 عبدالرحمن الرافعي، مصدر سابق، ص٩٧-٩٨.

2 **الشعر في السودان**، للدكتور عبده بدوي، من إصدارات عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والآداب في الكويت، ١٩٨١، ص ٦٢.

بانــت عليهــم العوجــة ولي جناهــم ضاعــوا
الحــي مــا اســتتار والمــات رقــد بأوجاعــه
يأكلــوا فيهــم الــترك متــين مــا جاعــوا[1]

وبينما ذهب المؤرخ البريطاني البروفيسور «بيتر هولت» للقول بأن إجهاض تجارة الرقيق كان سبباً من أسباب عديدة لقيام الثورة المهدية، اتجه المؤرخ الأمريكي «كيم سيرسي» لتحدي تلك الفرضية برأي مختلف حين قال: «بالنسبة للمهدي نفسه ومجموعة الدائرة المركزية من أتباعه الخلصاء، كان هناك محفز أساسي اتخذ شكل العامل الديني للدفع بهم نحو مواجهة التركية بدرجة أكبر من مجرد تخليص السودان من سطوة حكم جعل الطريق إلى سبل كسب العيش في غاية الصعوبة. وبالتقدم أكثر في هذا الأمر فإننا نتساءل - بحسب ما أسهب فيه هولت- إن كان السبب الأساسي لاندلاع الثورة هو إحباط تجارة الرقيق فلماذا قاد الثورة إذن.. رجل دين ورع لم يكن لأنصاره أي صلة مع تجارة الرقيق؟»[2]. ويرى سيرسي في موضع آخر أن المهدي قد استخدم أيدولوجية دينية في مقاومته للنظام الاستعماري من خلال وصف الضرائب التي كان يجمعها- الترك كما أسماهم هو - بـ«الجزية» وهي ضريبة تؤخذ من غير المسلمين في النظام الإسلامي من أجل توفير الحماية لهم. وهو بذلك يلتجئ بصورة ارتجاعية مجدداً لفرضية الضرائب الباهظة ومركزيتها في منتصف دائرة الأسباب المفجرة للثورة المهدية. ولا شك في أن المهدي كانت يتكلم لغة عصره، لأن المظالم ذاتها لربما كانت تحتاج إلى عملية «أدلجة» تستوحي ثقل سطوة الدين على عقول الناس ومن ثم تحويلها لأجندة مقاومة للعسف والقهر بما يكللها برداء يتوافق مع أمزجة وإرث المجموعات المقاومة نفسها. ومن ذلك أن تعريفه للضرائب التي أثقلت كاهل السودانيين حينها بـ«الجزية» كان ينزع

1 د. عبدالرحمن الغالي: المهدية، قراءة في أطروحة رواية شوق الدرويش، الناشر: دار المصورات للنشر والطباعة والتوزيع، الخرطوم، ٢٠١٦، ص ٨٠.

2 **The Formation of the Sudanese Mahdist State. Ceremony and Symbols of Authority: 1882-1898**. Series: Islam in Africa, Volume: 11. Author: Kim Searcy. Publisher: Brill (Leiden-Boston). Publication date: 2011, p.22.

عن القوى المحتلة شرعية جبايتها ويفتح في الوقت ذاته منفذاً دينياً واسعاً لشرعنة عملية المقاومة الشعبية للسلطة الاستعمارية التي كانت تعتاش على قوت الجماهير. وعلى الرغم من تناول المفكر المصري الدكتور محمد عمارة لأسباب اندلاع الثورة المهدية من زوايا مختلفة، إلا أنه بدا متفقاً مع سيرسي على رفض فرضية «تحجيم تجارة الرقيق» كسبب أساسي لتفجير تلك الثورة السودانية. فمن واقع دراسته لمنشورات الثورة المهدية ووثائقها، ارتأى عمارة أن المهدية كانت في الأساس ثورة شعبية لفقراء ومعدمين وأن النظام الاجتماعي الذي بشرت به يتصادم كثيراً مع محاولة تصنيفها كحركة نخاسة أو تجارة رقيق، ومن ذلك قوله:

«على أن الحديث عن المهدية ومكانها من حركة اليقظة للإنسان العربي في العصر الحديث، لا يمكن أن يكتمل إلا إذا نحن عرضنا لفكرة شاعت، رغم خطئها، في كل الدراسات التاريخية التقليدية، عن السبب الأساسي في قيام هذه الحركة.. ففي المدارس يتعلم التلاميذ، وفي المصادر يقرأ الباحثون أن سعي الحكومة المصرية - مدفوعة بعوامل دولية - إلى الإلغاء الفوري لتجارة الرقيق، قد كان واحداً من أهم أسباب قيام الثورة المهدية - فهي في هذا الأمر - قد تكون ثورة النخاسين وتجار الرقيق، الذين استثمروا سلبيات الحكم ومظالم السلطة لحشد الشعب حول الثورة وأرادوها سبيلاً لإطلاق يدهم في النخاسة وتجارة الرقيق من جديد. لكن هذا الرأي الخطير، والشائع، فضلاً عن خطئه، فإنه يحجب عن القارئ والباحث قسمة نراها من أهم وأبرز قسمات الحركة المهدية.. لأنه يقدمها: ثورة نخاسين وأثرياء، بينما كانت، في الأساس وقبل كل شيء ثورة شعب وانتفاضة المعدمين والفقراء من هذا الشعب بالدرجة الأولى.. وهو يطمس كذلك نظامها الاجتماعي وفكرها في قضايا الثورة والأموال، الذي ندهش عندما نستخلص معالمه وقسماته من واقع التطبيق الذي أقامته الثورة، ومن وثائقها الأصلية المتمثلة في منشورات المهدي ذاتها»[1].

بيد أن الإيغال في تفكيك تلك الأسباب، يجب ألا يحجب عن عيني أي مستبصر

1 **تيارات الفكر الإسلامي**، للدكتور محمد عمارة، دار الشروق للنشر، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٢٧٩.

إرث السودانيين في مقاومة هذا العسف الذي امتد بغرسه منذ مواجهات الشايقية الأولى بـ«مهيرتهم» الجسورة ومذابح حملة الدفتردار الانتقامية رداً على إحراق الملك نمر لقائد جيش محمد على باشا الغازي وأعز أبنائه لديه إسماعيل باشا بمدينة شندي مروراً بانتفاضات الهدندوة ورفاعة الهوي والغديات تحت زعامة شيخهم علي ود كنونة. وهو ذات الإرث المقاوم الذي رأى المؤرخ الوطني الراحل الدكتور محمد سعيد القدال أن الثورة المهدية كانت تتويجاً لسلاسله المتصلة، ومن ذلك قوله:

«كانت الحقب الست من الحكم التركي زاخرة بالمقاومة والبطولات. لا يكاد ينقضي عام دون أن يشهد مظهراً من مظاهر الرفض. فالسودان الحديث ولد وهو يقاوم الحكم الأجنبي، وشب وهو يقاوم الحكم الأجنبي، وبلغ أشده وهو يقضي على الحكم الأجنبي. ورغم غزارة تلك المقاومة وتعدد أشكالها إلا أن الحكم الأجنبي كان يقضي عليها لأنها كانت مقاومة متفرقة وكانت انتفاضات تعبر عن السخط والرفض من منطلقات قبلية وإقليمية. ولكنها في مجملها شكلت الخلفية الأساسية التي كانت الثورة المهدية تتويجاً لها»[1].

ولا تخلو مجتمعات الأزمة التي ترزح تحت بأس الجور والمظلمات من إشكالات عميقة تهوي على الغزل الذي تنتسج منه أنكاثها بمعول غليظ لا يستبقى من تماسكها شيئاً.ولم يكن سودان التركية السابقة باستثناء من ذلك التعميم الذي من الممكن أن تتموضع في سياقه حقائق الأشياء. ويعطينا القس النمساوي «أوهرولدر» والذي عمل مبشراً ومنصّراً في سودان ما قبل الثورة المهدية.. يعطينا نموذجاً حياً لما يمكن أن تكون عليه مجتمعات القهر المأزومة من تخبط مرتبك يعصف فيها يعصف بقسطاس القيم والأخلاق العامة. وقد أشار المؤرخ الإنجليزي دانيال نورمان لاتخاذه مصدر كلام القس النمساوي المار ذكره من مسودة كتابه الأصلية. وهي ذات المسودة التي رأت جمهرة عريضة من المؤرخين المعاصرين أن القلم الاستخباراتي البريطاني قد غير فيها لاحقاً لتتناسب مع الحملة الدعائية لإعادة احتلال السودان، وهو أمر

1 الإمام المهدي – محمد أحمد بن عبدالله ١٨٤٤ –١٨٨٥، للدكتور محمد سعيد القدال، الناشر: دار الجيل، بيروت– لبنان، ١٩٩٢،ص ١٧–١٨.

سنأتي لتحليله في أبواب لاحقة من هذا الكتاب بإذن الله. لذا يبقى ذلك الاستشهاد بالمصدر الأصلي هنا ذا قيمة أكاديمية مهمة لشحذ الخيال حول ما كان يحدث فعلاً على المستوى الاجتماعي قبل اندلاع الثورة. ومن ذلك قول «أوهروالدر»:

«فيما يختص بالقيم الأخلاقية العامة، فقد كانت في غاية السوء على مستوى السودان كله، وبلغت من السوء قمته في العاصمة الخرطوم. قبل مجيء المهدي، لم يعرف الناس في السودان العار ولا احتشام الخلق. المدن الكبيرة كانت أمكنة ومراكز للفساد الأخلاقي. الخرطوم، المسلمية، المتمة والأبيض كانت جميعها أشبه ببلدة سدوم الغابرة من حيث تفشي الشذوذ الأخلاقي. ومن ذلك تلك الحادثة التي وقعت في مدينة الأبيض وتم الاحتفاء بها بحبور وعلانية. ولما جاء المهدي، وقف بشدة ضد تلك العادات الخبيثة بأجمعها وتحسنت الأخلاق العامة في عهده». وقال أيضاً: «وتعامل المهدي مع المعتدين على حرمات الناس ومنتهكي أعراضهم بجدية وحزم. حتى الأرقاء ممن ارتكبوا تلك الموبقات تم جلدهم حتى سالت من أجسادهم الدماء. وصار الناس أقل إقبالاً على شرب الخمور المحلية المعروفة بـ(المريسة) وكذلك تناقصت الانتهاكات الأخلاقية. وتم تشجيع الزواج بأقل التكاليف الممكنة امتثالاً لتعليمات المهدي»[1].

ولم يكن غريباً، أن تواجه مكامن الوعي الشعبي السوداني هذا الوضع المجتمعي المنحدر وما اكتنفه من مظالم محمولة عل أجنحة القهر والتنكيل والحكم الأجنبي الغاصب برفض عميق اتخذ أشكالاً عدة. على أن طبيعة هذا الرفض الشعبي لم تبتعد كثيراً عن الخصائص المجتمعية لمجتمع ما قبل الأزمة وما تعلق به من وجدان صوفي عريق بنزعته التطهرية التي لا يتسق معها ما ذهب إليه أوهروالدر. والذي لا مراء فيه، أن فكرة ظهور المهدي كمخلص أو منقذ من كل ذلك العسف كانت متجذرة بقوة في خلايا الذاكرة الشعبية السودانية. ويجب أن لا ننسى أنها ذات الذاكرة التي

1 نورمان دانيال، مصدر سابق، ص٤٣٩.
أما الحادثة التي اشار لها اوهروالدر وذكر انه «تم الاحتفاء بها بحبور وعلانية» فقد كانت حادثة حفل زواج معلن بمدينة الابيض زف فيه رجل لرجل وهي نفس الحادثة التي حصلت قبل اندلاع الثورة المهدية.

تبطنت أغشيتها بالإرث الصوفي المحلي بامتدادته التاريخية نحو كتابات أقطاب التصوف السابقين على نحوالشيخ محي الدين بن عربي وما إتصل بها من «أسطرة» لعملية ظهور المهدي نفسها واجتثاثه الدراماتيكي لمظاهر الظلم والقهر ليقيم على أنقاضها مجتمعاً «يوتوبيّاً» قائماً على مرتكزات العدل والإنصاف. ولم يكن من الغرابة بمكان اهتمام رائد الفكر اليساري العالمي «فريدريك إنجلز» بالفكرة ذاتها وميله نحو استقصاء ثقلها في موازيين حركة التغيير الاجتماعي الإنساني من خلال تقييمه للثورة المهدية في السودان، في إطار صراع مجتمعي بين مجموعات مُستغَلة وأخرى مُستغِلة تنتصر فيه الطبقة المسحوقة بقيادة المهدي[1].

بيد أن ما نحن بصدده هنا، ليس هو مناقشة فكرة المهدية ذاتها وموقعها من الإسلام كدين أو وقعها الإرثي على مدارس التفكير العقلاني المعاصرة لها على مستوى العالم.. بقدر ما هو ميلنا للتأكيد على رسوخ الفكرة في الوجدان الشعبي السوداني وملاءمتها لطبيعة المرحلة المجتمعية المتصلة به. وهي ذات المرحلة المجتمعية التي كان يتخلق في أحشائها جنيناً بايولجياً استنتسخ تطلعات الجماهير فيه نحو الحرية والانعتاق بطرائق عقلية توازت مساراتها مع الكسب الذهني والمعرفي لمجتمع متصوف كان يتحرق شوقاً لمحرر يتقدم الصفوف نحو منبر القيادة. وفي السياق ذاته، أشار «يوسف ميخائيل»[2] في مذكراته لتغلغل الفكرة في أخمص التراب المجتمعي بغرب السودان وتحديداً بمدينة الأبيض حين ذكر أن أطفال المدينة

1 سمرنوف: **دولة المهدية من وجهة نظر مؤرخ سوفييتي**- ترجمة هنري رياض، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٤، ص ١١٨.

2 **يوسف ميخائيل**: هو يوسف ميخائيل مليكه. وُلد بالعام ١٨٦٥ بمدينة الأُبيّض الواقعة بغرب السودان. ينتمي لأسرة قبطية هاجرت من مصر منذ نهايات ثلاثينيات القرن التاسع عشر حيث كان والده من ضمن الكتبة الذين ابتُعِثوا للسودان لترقية العمل الإداري في دواوين السلطة الاستعمارية هناك. حضر الثورة المهدية وهو شاب وانضم للمهدي عندما حاصرت قواته الأبيض من باب «التقية» كما قال هو. وعند انتهاء الدولة المهدية، رجع لمزاولة مهنة التجارة فعمل في شركة استعمار السودان. زُجّ به وهو شيخ مسنّ مع زوجته فيكتوريا للسجن بتهمة صناعة الخمور في عهد الاستعمار الإنجليزي الذي أعقب المهدية في حوالي العام ١٩٣٤. وعندما علم مفتش وسط كردفان البريطاني «أقلن» بحضوره لوقائع المهدية، أمدّه بأقلام وأوراق وحضّه على كتابة مذكراته ووقائع الثورة المهدية التي شهد هو تفاصيلها. **مذكرات يوسف ميخائيل**، تقديم وتحقيق الدكتور أحمد إبراهيم أبوشوك.

كانوا يقسمون أنفسهم كلما اجتمعوا للعب في الساحات إلى فريقين تحت مسمى «رايات المهدي» و«رايات الترك». واللافت للملاحظة هنا، أن رايات الترك قد ضمت بالفعل أبناء موظفين في النظام التركي السابق كالنور ولد حسن أفندي الصول بينما ضمت رايات المهدي ما وصفهم ميخائيل بـ«أبناء النوبة» وذكر أيضاً أن «رايات المهدي غلبت رايات الترك». ولما علم حسن أفندي الصول «وهو والد الطفل المسمى النور والذي كان زعيم رايات الترك» بتلك الواقعة، رواها لأحد أصدقائه فما كان من صديقه إلا أن علق قائلاً: «والله يا حسن افندي ما حصلت هذه المسالة من الأولاد الصغار إلا يظهر شيء في الكون، (أخذوا) فالكم من صغاركم، ألسنة الخلق أقلام الحق»[1].

ونبقى في ساحات مدينة الأبيض التي رصد فيها ميخائيل حنق الجماهير على جبروت النظام الاستعماري القائم حين قال: «وفي من يقول: (أنا مظلوم نسأل الله أن يزول هذا الحكم الجائر). وفي من يقول: (قطع الله دابر الحكام الظالمين) وما تسمع إلا السخط على الحكام وعلى كل من هو متولي على مصلحة من مصالح الحكومة». إلى أن يقول: «صارت أغلب الناس من رجال إلى نساء يقولوا: (ليس لنا مهدي).. (ما قالوا هذا أوان نزول المهدي)»[2].

واحتضن الوجدان الشعبي للشمال النيلي الفكرة ذاتها، متخذاً من مظالم الترك المتعاظمة دفقاً يتعهد غرسها بالعناية ليبقي عليها كزرع سامق الجذع تتطلع إلى سوقه الأبصار. ومن ذلك قول المادح النبوي الشهير حاج العاقب[3]:

---

1 **مذكرات يوسف ميخائيل**، تقديم وتحقيق الدكتور أحمد إبراهيم أبوشوك، الناشر: مركز عبدالكريم ميرغني، أم درمان – السودان، العام ٢٠١٧، ص٣٨-٣٩.

2 نفس المصدر، ص ٣٧.

3 **حاج العاقب**: من أهم شعراء تراث المديح النبوي في السودان وهو الحاج محمد العاقب بن أحمد بن سعد. ولد بديار قبيلة الجعليين في أوائل النصف الثاني من القرن الهجري الثاني عشر وتوفي بقرية قوز بدر بضواحي مدينة شندي قبل اندلاع الثورة المهدية. وقد بث أبياته تلك شغفاً كبيراً عند أبنائه وأحفاده وأقاربه دفعهم للتطلع لذلك القائد المنقذ الذي بشر به المادح الشهير. لذا لم يكن غريباً التحاقهم بالثورة المهدية فيما بعد وإسهامهم في انتصاراتها ضد القوى الاستعمارية كأمراء ومقاتلين في صفوفها. ترك حاج العاقب من ورائه تراثاً هائلاً من المديح النبوي، ما زال أثره يتقادم على من أعقبوه في ذلك الأدب الشعبي السوداني المهم.

يا مجير جيرنا
من زمناً ذلّ فقيرنا
الصغير يحكم كبيرنا
كل يوم ناساً تغيرنا
إما ديرو.. وإما ديرنا
وإما جيب «المهدي» أميرنا..[1]

ونسبت نبوءات وتطلعات مشابهة لظهور المهدي في مناطق وسط السودان على نحو ما أُرجع للشيخ القرشي ود الزين.. شيخ الطريقة السمانية بالجزيرة ومناطق الحلاويين من قول بظهور المهدي من بين أتباعه ومريديه.

وروى الناظر «بابو نمر»، ناظر قبيلة المسيرية بجنوب كردفان عن جده الأمير على الجُلة، أن الفترة التي سبقت اندلاع الثورة المهدية شهدت قدوم رجل ما إلى ديار المسيرية، لاحظ الناس خروجه إلى العراء بصورة راتبة ليملأ رئتيه بالهواء. وعندما سأله الناس عن مغزى فعله ذاك، قال أنه يستنشق رائحة المهدي القادم[2].

وفي سياق ما قدمنا له من تطلع شعبي جارف تعلقت فيه قلوب الجماهير في شغف مبين بظهور المخلص من ويلات القهر والعسف، يجتهد المؤرخ الأمريكي «كيم سيرسي» بأكاديميته الموغلة في دراسة طبائع المجتمعات الأفريقانية وأثر التراث الإسلامي في تحديد الاتجاهات العقلانية والفكرية فيها، يجتهد كثيراً في القول بأن مجتمع الأزمة الذي سبق اندلاع الثورة المهدية قد هيأ مسرحاً مثالياً لظهور قيادة كاريزمية لتتقدم حراك الجماهير نحو ما اعتمل في صدورها من تطلعات ومن ذلك قوله: «الأبطال الكاريزميون يتقدمون للقيادة بعد تقديم المجتمعات التي ينتمون إليها كمجتمعات يجتاحها مخاض متصل من الأزمات ومن ذلك رزوحها تحت وطأة حكم ظلوم جائر مما يجعلها تفتقر إلى الإيمان بقضاياها. هذه الفكرة الرئيسية

1 قرشي محمد حسن: **مع شعراء المدائح**، الجزء الأول، ص ٥٠. انظر أيضاً: عبدالرحمن الغالي، مصدر سابق، ص ٨٢.

2 القدال، مصدر سابق، ص ٣٤.

تتوافق مع مطامح القادة الكاريزميين مما يمكنهم من تقديم أنفسهم كقيادات قادرة على إنهاء الأزمة أو جعلها أخف وطأة على أقل تقدير»[1]. ويبقى التماهي قائماً هنا مع ما قال به رائد نظرية القيادة الكاريزمية ومؤرخ علم الاجتماعي السياسي الألماني «ماكس فيبر» في السياق المار ذكره ومن ذلك جزمه بأنه: «لابد أن يكون هناك نوع من الأزمات الاجتماعية كمطلوب أساسي لبروز القيادة الكاريزمية نحو قيادة حركة الجماهير»[2].

فلننظر لنرى إذاً، كيف صنع سودان القرن التاسع عشر بظروفه الشائكة المعقدة قيادته الكاريزمية وثورته التي ملأت الدنيا وشغلت الناس فيما بعد!.

1 كيم سيرسي، مصدر سابق، ص ٧٣.

2 نفس المصدر، ص ٧٢.

الباب الثاني

«محمد أحمد»
منذ الصبا إلى المهدية

محمد أحمد منذ الصبا إلى المهدية

فِي دُجىً مُطبِقٍ وَيَومٍ دجوجيٍّ
وَلَيل مقفقف مَقرورِ
وُلدت ثَورة البِلاد عَلى اَحضان
كُوخ وَفِي ذِراعي فَقيرِ
عوِّذوا طفلها وَصُونوا فَتاها
بجديد مِن الرُّقى أو اَثيرِ
وَاِقرأوا حَولَهُ المُعوذة الكُبرى
وَذُروا عَلَيهِ بَعض الذُرورِ

الشاعر التجاني يوسف بشير

لم تكن تلك الليلة التي أشار إليها التجاني سوى ليلة اليوم الثاني عشر من أغسطس ١٨٤٤. أما الكوخ الذي ولد فيه محمد أحمد فقد كان كائناً بجزيرة صغيرة تفصلها مياه نهر النيل عن مدينة «دنقلا» بشمال السودان. وهي ذات الجزيرة التي عرفت باسم جزيرة «لبَب» كواحدة من مجموعة جزائر الأشراف هناك.

لابد أن أخويه الكبيرين «محمد» و«حامد» قد نال من جسديهما نهكٌ ليس كمثل بأسه شيء في تلك الساعة المتأخرة من الليل. فقد خرج محمد ذو السنوات العشر مع أبيه لشاطيء الجزيرة الغربي بنهار اليوم ذاته ليرتب نشائر أخشاب من أشجار السنط. وهي ذات النشائر التي كان أبوه قد انقض عليها بساعديه القويين وهو يتأهب لرصها لصناعة قارب ما، فقد كان عبدالله ود فحل نجاراً وصانعاً ماهراً للمراكب والسفن. وهي ذات

الحرفة التي ظل آباؤه يتوارثونها كابراً عن كابر. أما حامد فقد كان طفلاً هادئ الطباع في الخامسة من عمره آنذاك. وهو ما جعل أبوه يبقيه مع أمه الحبلى حتى إذا أتاها المخاض أطلق ساقيه للريح بحثاً عن إحدى القابلات الثلاث اللائي ذاع صيتهن في تلك الجزيرة الهادئة. ومن ذلك أن والدته زينب بنت نصر ود محمد شقلاوي لم تكن تجيد من لهجة الدناقلة المحلية سوى القليل من الكلمات. ما زالت تذكر كيف زُفت إلى زوجها عبدالله بإحدى بيوتات الطين التي كانت تحتشد بها قرية «الشقالوة» المتاخمة لشندي قبل زمن فاق عقداً كاملاً من السنوات. هناك اجتمع نسوة من عشيرة أهلها الجعليين ليحتفين بتلك العروس العشرينية وقد غرسن في جسدها الممشوق نظرات إمتزجت فيها الغبطة بالحسد. عليها الآن أن تتصالح مع دوافع غياب زوجها لساعات أطول وهو يدق صفائح الخشب قبل أن تحولها أنامله المبدعة إلى سفن صغيرة تداعب أشرعتها هبات من هواء النيل وزخات سمائه لتبدو على شاطئيه كعرائس موغلة في الحسن. عليها أن تعي أن الباشبوزق[1] قد أثقلوا كاهله بالضرائب حتى لم يعد لديه مناص من مضاعفة جهده ليدفع عن بيته غائلة الحاجة. يتوجب عليها ألا تقيم وزناً لتلك الأوجاع التي تكأكأت عليها، فقد زارتها القابلة بنهار الأمس وأغلظت بقسمٍ قاطع بضريح «حاج شريف ود علي»[2] بأنها ستضع طفلها قبل عصر اليوم الذي يليه. بيدَ أن شيئاً من ذلك لم يحدث أبداً!.

1 **الباشبوزق**: جنود الاحتلال التركي غير النظاميين. عرفُوا بارتزاقهم من الجندية كما اشتهروا بقسوتهم ووحشيتهم البالغة في جمع الضرائب والأتاوات لمصلحة الحكومة.

2 **حاج شريف بن علي**: هو السيد حاج شريف بن علي بن أحمد بن علي بن حسب النبي بن صبر بن نصر بن عبدالكريم. كان شيخاً ذاع صيته في القرن السادس للهجرة بمجموعة الجزر المعروفة باسم جزائر الأشراف وهي ثلاث جزر.. «لبب» و«آب» و«ضرار» وتقع جميعها على مجرى النيل بمحاذاة مدينة دنقلا بشمال السودان. وقد ذكر البروفيسور عون الشريف قاسم في ترجمته للشيخ حاج شريف أنه ولد في ٥٨٠ هجرية / ١١٨٥م بمنطقة الخناق بشمال السودان.. بينما يرى المؤرخ المصري الدكتور عبد الودود شلبي أن أول من استقر بقرية الخناق هو السيد نصر بن عبدالكريم – جد حاج شريف الخامس – والذي ظل يتردد بين منطقتي كشتمة وأسوان بصعيد مصر قبل أن يستقر بالخناق لتنحدر منه ذرية ممتدة كان من أبرز رجالها حاج شريف بن حفيده علي. عاش حاج شريف سائحاً في مقبل حياته يسعى نحو العلم فاجتمع بالشيخ الصوفي الشهير عبدالسلام بن مشيش بالمغرب وأخذ منه. بَيد أن انتماءه للطريقة الشاذلية يبقى محل أخذ ورد. وساح حاج شريف بمناطق عدة بآسيا وأفريقيا قبل أن يقرر الاستقرار بجزيرة لبب حيث قام بتأسيس مسجد وخلوة ومدرسة لتعليم القرآن. وما زالت تلك الآثار باقية إلى يومنا هذا هناك. وامتد أثره الروحي وسط المجموعات السكانية هناك لسنوات بعيدة عقب وفاته وله ضريح يتوسط قباب الأشراف الكائنة بالشاطئ الغربي لجزيرة «لبب». عُرف محلياً بالصلاح والإخبات فقصده أهل

كعادته دوماً، تواطأ القدر بما جُبل عليه من مكر، على الإتيان بعكس ما يشتهي الإنسان من رغائب قد يدفعه شغفٌ ما لتحقيقها نحو إلباسها دثاراً من النبوءات والتنجيم. ومن ذلك، أن ذاك الطفل قد أطلق صرخته الأولى بعد انقضاء اليوم كله، لتشق صمتاً رهيباً بليلٍ استوى على سماء البلاد بأسرها «كالدجى المطبق الذي لا يسبقه سوى يوم دجوجي».

ولم تمض سوى سنوات خمس على مولد محمد أحمد حتى عزم والده على أخذ أسرته والإرتحال جنوباً لشواطئ منطقة كرري المتاخمة للنيل. هناك سيجد مخزوناً أكبر من خشب الأشجار المنتشرة بالضفة الغربية للنهر. كان ذلك هو عين ما يحتاجه ليتكسب من ذات الحرفة التي سترت حال بيته لوقت طويل. ويبدو أن فترة استقرار عبدالله وأسرته بمنطقة كرري لم تنل حظها من القراءة والتحليل في سياق ما ألقت به من سحائب إستظل به ذهن محمد أحمد الصغير حينئذ. ومن ذلك أن بعض المؤرخين قد درجوا على المرور بإختزال عجول على تلك المرحلة المهمة من حياة الفتى. اتجاهات كتلك، لابد أن مبعثها كان ميل جمهرة عريضة منهم للقفز بزانة متسارعة نحو التركيز على أسباب ودوافع الثورة التي قادها من دون سبر كافٍ لأغوار بنية الوعي الاجتماعية والسياسية التي إحتضنته منذ صباه الباكر. فأبوه كان صاحب حرفة مهمة في زمن كانت المراكب

العلم والحاجات. كغيره من شيوخ المتصوفة بذلك الوقت راجت حوله الأساطير ومن ضمنها امتداد عمره لأكثر من مائتي عام. وذهب عون الشريف قاسم للقول بأنه قد عاش لما يقارب الـ٢٨٠ سنة. وهو ذات التقدير الذي سار عليه عبدالودود شلبي حين قال ان الشيخ حاج شريف «قد عمّر طويلاً مستمتعاً بسلطان روحي قوي». مثل هذا النوع من «الأسطرة» لسير المشايخ الصوفيين في السودان لم يكن ليبتعد عن طبيعة الإرث الصوفي السوداني الذي ينسب العديد من الخوارق لدقائق وتفاصيل حياة هؤلاء الزعماء الدينيين. وتبقى الحقيقة الأهم من كل ما سبق، أن حاج شريف قد امتد عمره لسنوات طويلة، قد تدفعنا الموضوعية العلمية هنا لتقديرها بما يتراوح بين ١٠٠-١٢٠ سنة أو أكثر بقليل. عُرف الشيخ حاج شريف بلقب «ابو العشرة جد المئة «بحسبان أن كل واحد من أبنائه وبناته (ثمانية أبناء وبنتين) قد أنجب عشرة أبناء ليبلغ عدد أحفاده المباشرين مائة حفيد بالتمام والكمال. ويعتبر عبدالله بن فحل هو الحفيد الرابع لحاج شريف من حيث الترتيب في سلسلة أحفاده المنتسبين لإبنه محمد بن حاج شريف.
انظر «**موسوعة القبائل والأنساب في السودان**»، للدكتور عون الشريف، ج ٣، الطابعون: آفروقراف للطباعة والتغليف، الخرطوم - السودان، ١٩٩٦، ص٥٣٣-٥٣٥. انظر أيضاً: «**الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته**»، الدكتور عبدالودود شلبي، الناشر: مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠١، ص ١٧-١٩.

النيلية هي وسيلة مواصلات أساسية لعبور النهر وبالتالي ربط مناطق حيوية من سودان التركية السابقة مع بعضها بعضاً. وقد يجادل البعض بتوفر ذهن عبدالله بن فحل على بنية وعي اجتماعية مشابهة لأصحاب الحرف من أمثاله من حيث إرتهانها لحسابات الربح والخسارة في عمله اليدوي ومن ذلك أن دافعه للهجرة من «لبب» كان محكوماً عند البعض بذات الأسباب المهنية. كل ذلك يتيح منفذاً سهلاً لتسرب الأفكار من معاقل الذهن البحثي المتكاسل نحو خيال محدود لبنية الوعي لديه من حيث استدارتها في فلك من الذاتية المنكفئة على نفسها عطفاً على خلو سيرته من أي موقف مقاوم في زمن ناء فيه الجسد المجتمعي السوداني بأثقال من المظالم والتجاوزات.

استنتاجات كالتي مر ذكرها، قد لا نستصوب الجزم الكامل بصحتها إن أخذنا بما قال به البعض بأن عبدالله قد آوى بعض الهاربين- إبان وجوده بجزيرة «لبب» - من عسف أحد رجال التركية في المنطقة حتى فُرض عليه دفع غرامة بلغت ألفاً من الجنيهات نتيجة لمسلكه ذاك[1]. ويبقى الاستناد على ذلك الموقف المبكر المنسوب لعبدالله مهماً في تحليل ذهنية الوعي لديه ومن ثم التقدم نحو اعتبار ما حدث على أنه أحد مظاهر الرفض العملي التي أبداها تجاه واقعه السياسي والمجتمعي. بيد أن اتجاهه للهجرة جنوباً من موطنه يثير تساؤلات مجددة عن مدى الأنفاس الطويلة التي كان يشتمل عليها صدره ضد ما عايشه من عسف، مما يصعب مجدداً من عملية تصنيف بنية الوعي لديه ويؤرجحها بين شك الانكفائية ويقين الوعي المقاوم. وعلى المستوى الاجتماعي، وقد يبدو اقترانه بزوجة تنتمي من ناحية الأب والأم لقبيليتين مختلفتين[2] في مجتمع محلي موغل في التعصب لولاءات العرق والعشيرة، قد يبدو ذلك ميلاً آخر نحو الخروج من المألوف الجامد مما اعتاد عليه الناس وألفوه مما يعبد طريقاً سهلاً لوصف البناء الذهني الاجتماعي

1 **أوراق السيد علي المهدي**، نسخة بخط يد الشيخ سليمان أديب، دار الوثائق السودانية.

2 أشارت الدكتورة فاطمة أحمد عمر في سفرها المهم بعنوان «**الشايقية ومواقفهم من المهدية**» إلى أن زينب بنت نصر والدة المهدي وأشقائه كانت تنتمي لقبيلة الجعليين من ناحية الأب. أما والدتها فكانت تنتمي لفخذ العيساب الحنكاب من قبيلة الشايقية بمنطقة القرير قوز هندي بشمال السودان. وذكرت الكاتبة أن جدة المهدي لأمه كانت متعلقة به منذ طفولته وأن أسرة عبدالله ود فحل كانت تزور أهل والدة زينب بصورة راتبة. راجع الدكتورة فاطمة أحمد عمر: الشايقية ومواقفهم من المهدية، الناشر: واحة الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة،٢٠١٧، ص ١٠٩-١١٠.

لدى عبدالله بسمة الحركة أكثر من قبوعه بمربعات السكون.

مهما يكن مما سقناه من قبل، فقد توفي عبدالله بعد استقرار أسرته في كرري بقليل فدفن في ذلك الوادي الذي ما زال يحمل أسمه. ولسبب ما، انتقلت الأسرة بعد ذلك إلى حي سلامة باشا بالخرطوم وهو ذات الحي الشعبي الذي كان موقعه الجغرافي يحتل أطراف المدينة. وفي ذلك المكان خصوصية مهمة بدت كمحفز ذهني لذاكرة طفل لم يبلغ العاشرة بعد على نحو محمد أحمد. وهي نفس الخصوصية المكانية التى رمقتها عينا المؤرخ الراحل الدكتور محمد سعيد القدال بتأمل حصيف حين أشار إلى التعدد القبلي والمجتمعي هناك نتيجة لإزدحام الحي ذاته بـ«مجيء جماعات من الجعليين والشايقية والدناقلة والنوبيين». ومال القدال لوصف الخرطوم التي عاش فيها محمد أحمد الصغير بكلمات دقيقة حين قال:

«شهدت الخرطوم اختلاطاً قبلياً فاق أي منطقة أخرى، فهي تمثل المرحلة الجنينية في تكوين الأمة. وفي هذه المنطقة التي تضعف فيها الانتماءات القبلية شبّ محمد أحمد. كما شهدت المدينة مجيء أعداد هائلة من الأجانب بلغوا أربعة أخماس سكانها. وكان نفوذهم التجاري والسياسي والحضاري كبيراً جداً. وبرزت في المدينة فوارق حادة في الثراء بين الأجانب والسودانيين الذين كان نصيبهم ضئيلاً لتفوّق الأجانب عليهم. وأدت تلك الفوارق لزيادة حدة التناقضات مع الحكم الأجنبي والأجانب عامة»[1]. وبإسهاب أكثر، تقدم المؤرخ الإنجليزي فيرغس نيكول لوصف التناقضات الاجتماعية الصارخة التي حفلت بها الخرطوم في عهدها الاستعماري الأول وهي ذات المشاهد التي احتفرت بلا ريب في ذهن محمد أحمد اليافع. ومن ذلك ما قال فيه نيكول:

«كان هناك خليج شاسع بين مساكن الأغنياء وأسلوب الحياة لديهم وبين الفقراء من أهل المدينة. معظم أهل المدينة كان عليهم أن يأووا إلى سكن شعبي مكون من غرفة واحدة منخفضة السقف بساحة صغيرة أو حوش للحمار وغيره من الحيوانات.

1 الإمام المهدي – محمد أحمد بن عبدالله ١٨٤٤–١٨٨٥، للدكتور محمد سعيد القدال، الناشر: دار الجيل، بيروت– لبنان، ١٩٩٢، ص ٤٢–٤٣.

كانت مساكن العبيد الذين سخرتهم طبقة الصفوة في المدينة لخدمتها تتبرعم كفطريات الأرض بأطراف المدينة». ومضى نيكول ليقول: «وبالمقابل، عاشت الخرطوم المترفة في سرف بأسلوبها الحياتي المتضخم. وكانت الصفوة من كبار الشخصيات في المدينة تسكن بيوتاً فاخرة ومترامية الأطراف من حيث المساحة. وكانت تلك البيوت ممتلئة ومحتشدة بالخدم والمستخدمين الذين كان عليهم تنظيف خيول سادتهم وإعداد الوجبات المترفة لهم». وقال أيضاً: «أما مسئولو الحكم التركي الكبار فقد حافظوا على ما كان تقتضيه ضروراتهم من النساء وكان ذلك يشمل الزوجات والمحظيات من الجواري والخدم وحتى النساء الحرائر القادمات للخرطوم من جورجيا والحبشة وفي بعض الأحيان كان يتم تجميعهن بمنطقة ود مدني الخضراء حيث يمكن لنساء الباشاوات الإستمتاع بجو ألطف بجوار النيل الأزرق ذي المد الهائج السريع». وعن مظاهر الترف السلطوي التي تبدى عليها باشاوات الخرطوم في مقابل البؤس الذي الْتبَس أهل البلاد الحقيقيين، قال نيكول: «كانت العربات التي تجرها الأحصنة يتم استيرادها من باريس من أجل استخدام قيادات النظام الحاكم، فتبحر من أوروبا وهي مجزأة على أن يتم تجميعها في الخرطوم. تلك كانت عربات فاخرة وموغلة في الأناقة بشاسيه (chassis) مديد وأريحي المساحة ومقاعد مطرزة على شكلي محارة صدفية للحرس الخاص بذلك المسئول الحكومي. أما هيكل العربة فقد فقد كان مزخرفاً بزخارف عديدة وبه نقوش متفرقة على هيئة أوراق الأشجار» [1].

و أنتج احتكار النخبة الأجنبية الاستعمارية الحاكمة لمظاهر الثروة والسلطة المطلقة، أدباً شعبياً سودانياً متوارثاً كلّلته معاني الضجر والتململ من سلطة لم يكن لها همّ سوى التنعم بالإمتيازات وجباية الأتاوات من السودانيين بالوسائل القسرية. ويترأى كل ذلك من خلال تلك الأبيات التراثية المعروفة والتي قيل أنها نُظمت تضجراً من عسف «أراكيل» باشا الأرمني، حكمدار السودان في الفترة بين ١٨٥٧ – ١٨٥٨ وجاء فيها:

الباشا دا البشكولو

1 **The Mahdi Of Sudan And The Death Of General Gordon**. by Fergus Nicoll. Publishers: Sutton Publishing Limited.gloucestershire, United Kingdom. Publication Date: 2004, Pp. 27-28.

شن عرضه وشن طولو
كان حِرِم حولو لو
حتى شرق الله البارد هو لو[1]

و بينما كانت كل تلك المشاهد تتدافع نحو حصون ذاكرة محمد أحمد لترتمي على أساسها الراسخ بنية وعي تنتمي بالبنوة الشرعية لما كان يزلزل المجتمع من أزمات ويهز أركانه هزاً، لم تلبث أسرته هناك كثيراً قبل أن تتوفى السيدة زينب بنت نصر - والدة محمد أحمد وإخوته - فدفنت هناك وانتقل محمد أحمد إلى كفالة أخويه محمد وحامد الذين واصلا حرفة أبيهما وانخرطا سوياً في شراكة بينهما بصناعة المراكب والسفن. وانتقلت الأسرة بأكملها نحو كرري مجدداً لذات الغرض. وهكذا يستبين لنا بجلاء أن طفولة محمد أحمد لم تكن طفولة متنعمة بأية حال فقد ظلت حياته الباكرة تتنازعها مشاق عدة منها كثرة التنقل والترحال ومن ثم اليتم المزدوج بفقدان كلا الأبوين في فترة زمنية قصيرة. فهل كانت ظروف الشدة على المستوى المجتمعي ومن ثم على مستوى الدائرة الأسرية الضيقة مع غيرها مما سبق باعثاً مهماً لتكوين ذهنية ثائرة محتجة لديه؟ ذلك النوع من التساؤلات، مسها كلٌ من الباحثين الأمريكيين ريتشارد ديكيميجيان ومارغريت وزموريسكي مساً خفيفاً حين قررا في دراستهما الأكاديمية المهمة بعنوان «كاريزما القيادة في الإسلام - مهدي السودان» قررا أن: «الدارس لسنوات محمد أحمد الأولى يستطيع أن يحدد عدداً من السمات الشخصية والخبرات الحياتية التي جذبته جذباً نحو اتجاهات ثورية مضادة للنظام (الاستعماري)». وهو ذات النظام الذي حكم بيأسه مجتمعاً وصفته تلك الدراسة المار ذكرها بـ«المجتمع الذي مزقته الأزمات» أو «Crisis torn society»[2].

1 د. عبدالرحمن الغالي: **المهدية، قراءة في أطروحة رواية شوق الدرويش**، الناشر: دار المصورات للنشر والطباعة والتوزيع، الخرطوم، ٢٠١٦، ص ٨١.

المعنى: هذا الباشا الذي تتوقعون منه الإنصاف ألا ترون من يكون؟ فهو يحلل الحرام أو بمعنى آخر.. الشئ الممنوع هو الذي يحلو له. وحتى الهواء الطلق البارد في العراء فهو يدعي ملكيته لنفسه وينازع الناس فيه.

2 **Charismatic Leadership in Islam: The Mahdi of Sudan**, by Richard H. Dekmejian and Margaret J. Wyszomirski. Comparative Studies in Society and History. Vol. 14, No. 2. Publication Date: 1972, p.203.

انخرط محمد أحمد في سلك التصوف وتقدم وهو صبيّ يافع لم يتجاوز الثامنة من عمره بعد نحو خلاوي حفظ القرآن وتجويده بتشجيع من أخويه محمد وحامد[1]. وتنقل الفتى الصغير تبعاً لذلك بين مدارس دينية عديدة فتتلمذ على يد الشيخ الهاشمي بخلوته في كرري ثم انتقل بعدها لخلوة الفكي معتوق بشير أحمد شجر الخيري تلميذ الفكي الأمين ود أم حقين. ولم يلبث كثيراً أن انتهى إلى خلوة الفقيه الأمين الصويلح الشهيرة بقرية كترانج الواقعة على الضفة الشرقية للنيل الأزرق. هناك أظهر الفتى نفساً تواقة للمزيد من علوم الفقه والدين عندما خرج من كترانج - بعدما أمضى فيها وقتاً مقدراً - قاصداً الأزهر الشريف في مصر وما زال إهابه غضاً بسنوات عمره السبعة عشر. بيد أنه توقف في طريقه لمصر في العام ١٨٦١عند مدينة بربر في شمال السودان حيث إلتقى بالشيخ السماني ود فزع تلميذ الشيخ الصوفي الأشهر بالمدينة آنذاك وهو الشيخ محمد الضكير صاحب خلاوي الغبش، فأقنعه السماني بأن لا حاجة له بالذهاب إلى مصر لأن الشيخ محمد الضكير له من المعارف الدينية ما سيغنيه عن الإرتحال إلى تلك البلاد القصية، فخير له أن يتتلمذ على يديه تجنباً لرهق الغربة وأثقالها العديدة. مجدداً، توقف كلٌ من البروفيسور ريتشارد دكيجميان وزميلته مارغريت وزروميسكي عند هذه المحطة القدرية التي إنطبعت على رمالها خطى محمد أحمد، ليقررا أن إحتمال عدم أخذه بنصيحة

1 أشار المؤرخ البريطاني فيرغس نيكول إلى أن محمد وحامد قد قاما باستشارة بعض أقاربهما الموجودين بمنطقة الخرطوم وأم درمان المقابلة لها بحثاً عن أفضل الأستاذة والمشائخ الذين يمكن أن يتتلمذ عليهم شقيقهما الصغير. راجع نيكول، مصدر سابق، ص ٢٤. هذه الرواية تتناقض مع ما ذهب إليه الضابط المصري إبراهيم فوزي في كتابه «**السودان بين يدي غردون وكتشنر**» والتي قال فيها بأن شقيقي المهدي الكبيرين وقفا ضد ميله للتعليم الديني وأنهم أوسعوه زجراً وضرباً وقيداً في المنزل حتى لا يذهب للخلوة مجدداً. هذه الرواية رأينا أن نقف عندها بحذر لأن كتاب إبراهيم فوزي هذا كان قد صنفه المؤرخ الوطني بروفيسور يوسف فضل على أنه من أحد كتب الدعاية المناوئة للمهدية. ولا غرو في ذلك، فقد كان إبراهيم فوزي من ألد أعداء الثورة المهدية وعمل مساعداً للجنرال البريطاني غردون من أجل القضاء عليها. وسبق ذلك حنثه بعهده مع أحمد عرابي وعرض خدماته على غردون متخلياً بفعله هذا عن زملائه العرابيين الذين كانوا مشتتين في منافي الأرض ومعتقلات البريطانيين بمصر. ورغماً عن ذلك، يبقى ما اختطه قلم فوزي وثيقة مهمة تستوجب التمحيص في قراءتها استوثاقاً من الغث المختلق وانحيازاً للثمين المقارب لوقائع الأحوال. ومن المهم هنا مقاربة ما أشار إليه نيكول مع الروايات السماعية المتواترة داخل أسرة أشقاء المهدي وأحفادهم بخصوص تشجيع كل من محمد وحامد لأخيهم محمد أحمد في الاتجاه ذاته. انظر البروفيسور موسى عبدالله حامد: **تبصرة وذكرى.. سياحة في راتب الإمام المهدي**، الناشر: الدار السودانية للكتب، الخرطوم- السودان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص ٢٢.

السماني ود فزع كان يعني توجهه نحو مصر مما قد يخضع ذهنه اليافع وبنية الوعي المرتبطة به لأيديولوجية الأزهر المحافظة ومن ذلك قولهما بـ«أن التعليم الأزهرى كان الممكن أن يؤدي إلى إستقطاب أفكار المهدي نحوه وبالتالي إخضاع كل النوازع الثورية المبكرة لديه لعملية تدمير كامل»[1].

ولم يلبث المهدي كثيراً قبل أن يبدي ما يكفي من نوازع الثورة والتمرد على ما ترسخ في ذهنه من عسف النظام الاستعماري بالسودان. فقد رفض محمد أحمد وهو الذي لم يبلغ نهاية عقده الثاني بعد، أن يأكل من الطعام الذي يقدمه الشيخ محمد الضكير لطلابه في الخلوة لأن هذا الطعام يأتي من إعانات الحكومة التركية. وهي ذات الأموال التي انتهبتها الحكومة - في رأيه- غصباً من السودانيين بأساليب قسرية ومذلة. الأمر كله بدأ حين أخبره الشيخ الطاهر بأن شيخه محمد الضكير كان يتقاضى مرتباً من الحكومة. فما كان منه إلا أن إستعصم برفض صامت لكل ذلك ولم يرتض أن تمتد يداه لطعام أو شراب من ذلك المصدر الذي تراءى لوجدانه الثائر كمصدر غير شرعي. وعلم الشيخ محمد الخير بذلك فعاهد المهدي على أن يقدم له طعاماً من محصول الساقية التي ورثها عن والده، فطابت بذلك نفس المهدي وعاد يطعم مما يقدم له من محصول الساقية المذكورة [2].

واقعة كتلك، ليس من اليسر على أي ذهن بحثي متمحص الإعراض عن تفاصيلها دون إخضاعها لقراءة تحليلية في سياق المقدرة الذهنية المحتملة لدى فتى كمحمد أحمد على خلق تقاطعات موضوعية بين القهر الذي كان يرزح تحته مجتمع الأزمة والذي كان هو جزء منه وبين أسلوب الرفض الفرداني للنتائج المترتبة عليه، مما يمكن أن يدعونا لتأطير الأمر برمته في قالب قد يشكل مقدمة أو «precursor» لأيديولوجية عملية مقاومة إيجابية مكتملة الأركان. بيد أن فترته ببربر لم تكن كلها موغلة في في الرفض بقدر ما كانت متصفة بإقباله النهم على العلم ومعارف التصوف، فحفظ القرآن وجوده واقترب من أفكار فلاسفة الإسلام كابن سينا وبن رشد وأولع بالأدب والعلوم العقلية

1 ريتشارد ديكيميجيان ومارغريت وزموريسكي، مصدر سابق، ص ٢٠٣.

2 أوراق السيد علي المهدي، مصدر سابق.

والعلوم الطبيعية والمنطق ووجد بخط يده إفادة على ظهر كتاب تفسير الجلالين يفهم منها أنه قراءه سبعاً وسبعين مرة [1].. ويذكر القدال أن الشيخ محمد الخير قد دخل على تلميذه محمد أحمد في يوم ما فوجده يقرأ كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي وهو يبكي من الانفعال. فما كان منه إلا أن خطف منه ذلك الكتاب وأمره ألا يمس مثل هذه الكتب إلا بعد دراسة مختصر الخليل في الفقه المالكي دراسة كافية [2].

ويبدو أن التصوف قد ألقى بثقله على فؤاد محمد أحمد الشاب حتى أكسبه حساسية مفرطة تجاه كل ما كان يقرؤه، فامتلأت نفسه اليانعة بمخزون وجداني صادق ألهبته عاطفة متقدة تأرجحت بين مثالية الصوفي «اليوتوبوية» برفضها الديناميكي المحدود للتصالح مع مظاهر الأزمة - كرفضه أن يقتات من طعام مصدره أموال الحكومة - وبين مقدرته على تهذيب هذا الرفض وتحجيمه في إطار موضوعي من خلال القبول بما جاد عليه به أستاذه من طعام هو من حر ماله. وبمعنى أكثر دقة، يمكن القول بأن بنية الوعي الثورية لديه لم تصل مرحلة التكلس الكامل من حيث مقدرته على الأخذ بالحلول الوسطية عند مجابهة الأزمات وإغترافه من ثقافة الإرث الصوفي المتسامح بأبعاده الزمانية والمكانية المنحصرة في خلاوي الغبش تحديداً آنذاك. قراءة كتلك التي بذلناها على الورق، قد تتماهي لحد كبير مع البناء النظري «Theoretical Framework» الذي اتخذه دكيمجيان مع وزروميسكي للتقديم لدراستهما المفصلة عن كاريزمية القيادة عند المهدي السوداني بمعايير أكاديمية معاصرة، ومن ذلك قولهما:

«إن مقدرة القائد الكاريزمي على إمتلاك سمات الجنوح للمثالية من عدمها تخضع دوماً لطبيعة المجتمع الذي تنتمي إليه تلك القيادة.. كما تخضع أيضاً للمعايير الثقافية التي تنبثق من ذات المجتمعات. ففي محيطها المباشر، تُظهر القيادة الكاريزمية المحتملة سمات شخصية متقدمة. وتتصف في تلك المرحلة بمواهب شتى منها الديناميكية، الحساسية المفرطة وسعة الحيلة في مواجهة الصعوبات. هذه المواهب الفردية ستصبح لاحقاً وسائل أساسية

1 الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته، الدكتور عبدالودود شلبي، الناشر: مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠١، ص ٢٢.

2 القدال، مصدر سابق، ص ٥١.

لتعريف الجماهير والأتباع بالقيم والثوابت المرتبطة بحركة القائد الكاريزمي ودعوته»[1].

وتسارعت خطوات الشيخ الشاب محمد أحمد في طريق التصوف فتتلمذ على يدي الشيخ محمد شريف نورالدائم في ستينيات القرن التاسع عشر [2]. وما لبث أن أبان عن زهد وصلاح اقترنا بإقبال حميس على الدرس والتحصيل مما دفع شيخه الجديد لمنحه صفة الأستاذية في أقل من سنوات سبع. ثم ارتحل بعدها للإقامة بجزيرة أبا بمنطقة النيل الأبيض معتكفاً مع نفسه في مجاهدات صوفية وروحانية صعبة. هناك إلتأم شمله مجدداً مع إخوته محمد وحامد الذين أقاما «منجرة» ضخمة لصناعة السفن الشراعية. ومن ذلك أن الشيخ محمد أحمد «ابتنى مسجداً واحتفر غاراً يتعبد فيه ويخرج ليؤمّ الناس في الصلوات. لقد تبدل الحال وتحول أمر الشيخ محمد أحمد في أسرته من أخ أصغر يأتمر بأوامر شقيقيه الكبيرين إلى قائد وإمام مطاع في الأسرة وخارجها ليصبح مسموع الكلمة ونافذ الإرادة. وليس أدلّ على ذلك من أن شقيقيه كانا يقفان على باب غاره فلا يدخل عليه أحد قبل أن يستأذناه. وعندما قابلهما أبو السعود موفداً من قبل الحكمدار رؤوف باشا في عام ١٨٨١ – وكان أبو السعود صديقاً لهما – طلبا منه أن ينتظر حتى يحصلا على إذن منه بالدخول عليه في غاره. وعندما قال لهما أبو السعود أن الحكمدار قد بلغه أن الشيخ محمد أحمد يقول إنه هو المهدي قالا له: إن كان قال ذلك فقد صدق، فإنه لا يكذب»[3].

و يبقى من الأهمية بمكان، الإشارة لما تمثله الرواية السابقة من رمزية مرحلية تؤكد مقدرة الشيخ الشاب على توجيه مسار الأحداث بداخل أسرته الصغيرة ومحيطه المباشر من أتباعه ومريديه. فقد بدأت معالم البناء الاجتماعي لمرحلة ما قبل الثورة تتشكل بنسق متسارع. وهو ذات التسارع الذي انتقل بكل شيء من مربع الأقربين إلى رابطة اجتماعية وطنية تأسست على وشائج الدين بطبيعته الشعبية المتصوفة فشكلت تبعاً لذلك النواة

1 ريتشارد دكيمجميان ومارغريت وزروميسكي، مصدر سابق، ص ١٩٦.

2 يرى القدال أن الأرجح هو القول بانضمامه للشيخ محمد شريف نور الدائم في حوالي العام ١٨٦٥ بحسبان أن ١٨٦١ هو العام الذي انضم فيه من قبل لخلاوي الغبش في بربر وتتلمذ فيه على يدي أستاذه الشيخ محمد الخير.

3 موسى عبدالله حامد، مصدر سابق، ص ٢٤.

الأولى للقومية السودانية. فمنطقة النيل الأبيض نفسها كانت تغلي بالمظالم ومنها ما خلده أدباء معاصرون في دفاتر القصة والأدب على نحو «أربعون في الرسن» للقاص والأديب صديق الحلو[1]. ومنها ما أشار إليه المؤرخ الأستاذ عبدالرحمن إبراهيم الحلو في سفره المهم «الخليفة علي ود حلو.. صاحب الراية الخضراء» حين تحدث عن واقعة إعدام الترك لأربعين شاباً من قبيلة «دغيم» وهم مقيدون بالسلاسل بعد رفضهم دفع الضرائب لعساكر الحكومة، فقال: «وهنالك سبب آخر مهم لتأييدهم للمهدي وهو أن ذاكرة رجال قبيلة دغيم لم تنس مأساة شبابهم من الذين ساقتهم شرطة السلطة التركية انتقاماً من القبيلة وقد حدث ذلك قبل مجيء المهدي بعقد من الزمان»[2].

ولكن بالعودة إلى ركائز البناء المجتمعي المبكرة للثورة، تبقى الإشارة إلى طلائع هذا البناء مهمة في سياق محاولة تشكيل صورة افتراضية لما كانت عليه الأمور، ومن ذلك ما قال به المؤرخ الأستاذ عبدالرحمن الحلو:

«لكن بعد استقرار الأسرة في أبا تحول القرار في تحديد خط سير الأسرة إلى محمد أحمد نفسه، وذلك لأن التطورات اللاحقة جعلت الأسرة كلها تتحول من صناعة المراكب إلى صناعة الأحداث وكانت الجزيرة أبا محطة نقلتهم إلى محطات ومآلات أخرى على مدى العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر الميلادي (١٨٨١-١٨٩٩)». وقال أيضاً: «واجتمعت لديه دغيم وكنانة وغيرها من القبائل المجاورة ودخل بعضهم في تلمذته ومن بينهم علي ود حلو»[3]. ولم يكن ذلك الالتفاف الاجتماعي المنفتح حول «محمد أحمد» من قبل التركيبة القبلية المناطقية المتنوعة ليحدث دون سعيه ومبادرته بنفسه لتحقيقه وهو ما أشار إليه عبدالرحمن الحلو مجدداً بقوله:

«وطد الشيخ محمد أحمد علاقته برجال دغيم على مدى العشر سنوات التي أقامها

1 أربعون في الرسن: إحدى قصص مجموعة قصصية معنونة بـ«**امرأة من الزمن الماضي**» للأستاذ القاص صديق الحلو، إصدارات الخرطوم عاصمة الثقافة العربية، الخرطوم - السودان، ٢٠٠٥.

2 عبدالرحمن إبراهيم الحلو: **الخليفة علي ود حلو.. صاحب الراية الخضراء**، مطابع العملة، الخرطوم ٢٠١٢، ص ٤٥.

3 عبدالرحمن إبراهيم الحلو، مصدر سابق، ص ٤١-٤٢.

بجوارهم والتي سبقت إعلانه للمهدية. وكان يزورهم في منازلهم ويلقبونه بـ(أبي حبرة.. بمعنى صاحب الملفحة)، وقد ساعده في ذلك إضافة لقرب المكان اتصاله المبكر بقيادتهم الدينية التي رحبت به لأن أبناء محمد الحلو كانوا أصلاً قد سلكوا طريقة والدهم. وفي زيارته الأولى لهم أحيا الشيخ محمد أحمد ليلة من الذكر السّماني فأثار شجونهم بعد أن انقطعوا من ممارسة الصوفية فترة طويلة ارتبطت بحياة والدهم محمد الحلو. وكذلك نجح الشيخ محمد أحمد في استقطاب الشاب علي ود حلو الذي نال قسطاً من التعليم مقارنة بإخوانه وكان هو الذي انتقلت إليه خلافة والده بعد وفاة أخيه الأكبر الضوّاها ود حلو»[1]. وفي الشأن ذاته، تظل الروايات الشعبية المتوارثة في منطقة النيل الأبيض، مصدراً مهماً للإشارة للرابطة الاجتماعية الجديدة التي أفلح في إنشائها الشيخ محمد أحمد. وفي ذلك قال المؤرخ والأديب الراحل مكي أبو قرجة:

«كان الإمام المهدي قبل إعلان الدعوة كثيراً ما يعبر النيل يصحبه جماعة من تلاميذه لزيارة أبناء عمه بأم غنيم كما كان يعبر لزيارة مريديه. يقيم بينهم أياماً ويتحدث إليهم كثيراً عن أمور الدين وينصت إليهم كثيراً يتحدثون عن تجاربهم وأحوالهم ولا تزال الحكايات التي تروى عن زياراته وما صاحبها من أحداث صغيرة رطبة على ألسنة تلك المنطقة يتناقلونها جيلاً بعد جيل». وقال أيضاً: «فالرجل لم يكن يميز نفسه عن أقل الناس شأناً.. يؤاكل المساكين والبسطاء ويجلس معهم على الأرض مطأطأً رأسه يكسوه التواضع والوقار»[2]. واتسم سلوك الشيخ الشاب بذكاء وقّاد حين أظهر قدراً كبيراً من التوقير الصوفي لمقامات المشايخ والأولياء الذين يعتقد في صلاحهم أهل المنطقة، وهو سلوك على الرغم من اتساقه التام مع بنية الوعي المرحلية المتفقة مع ذهنية شيخ محلي متصوف مثله إلا أن أثره الافتراضي وامتداداته المجتمعية المناطقية ظل باقياً لأمد بعيد. وقد أشار الأستاذ مكي أبوقرجة إلى لقاء جمع الشيخ محمد أحمد بالشيخ محمد ود مدرع – أحد اقطاب التصوف المحليين المعروفين بمنطقة النيل الأبيض والذي عُرف بانتمائه

1 نفس المصدر، ص ٤٤–٤٥.

2 صولة بني عثمان في ملاحم الثورة المهدية، للأستاذ مكي أبو قرجة، دار صفصافة للنشر، القاهرة،، ٢٠١٥، ص ٤٨.

لقبيلتي «العركيين» و«الحُسنات» - في حياته فتوثقت صلته به تبعاً لذلك ثم أخذ يزور ضريحه بانتظام بعد وفاته. وهذا هو عين ما قال فيه مكي أبوقرجة:

«وقال الرواة أيضاً ان الشيخ محمد أحمد عندما كان يترجل من القارب ويسلم على جميع الرجال الذين يستقبلونه ثم يتجه نحو ضريح الشيخ محمد ود مدرع الذي لا يبعد كثيراً عن موقع القرية ويدخل إليه في زيارة تستغرق وقتاً غير قصير ثم يعود إلى الناس الذين يظلون بانتظاره»[1]. وعندما قامت الثورة المهدية، انضمّ أبناء ود مدرع السبعة لصفوفها وكان في مقدمتهم الأمير عبدالقادر ود محمد ود مدرع الذي حاصر الخرطوم بقواته لاحقاً وسقط شهيداً في إحدى المواجهات العسكرية مع قوات الجنرال البريطاني غردون قبل تحرير المدينة ذاتها. وظل الشيخ محمد أحمد على تواصل وثيق برجال مهمين ستشعل حماستهم لدعوته لاحقاً لهب الثورة في أماكن عديدة ومن هؤلاء عبدالرحمن النجومي والشيخ الحسين بن إبراهيم الزهراء بقرية الفشاشوية بالنيل الأبيض[2].

بيد أن الأحوال سرعان ما تغيرت حين قرر الشيخ محمد شريف نورالدائم أستاذ «محمد أحمد» طرده من الطريقة السمانية لأن تلميذه قد اعترض على حفل مختلط رقص فيه الرجال مع النساء. وهو ذات الحفل الذي أقامه الشيخ محمد شريف احتفاءاً بختان أنجاله، وهو ما أسماه كل من ديكيجميان ووزروميسكي بالرفض التطهري العنيف «fiercely puritanical» الذي أبداه محمد أحمد تجاه ما كان مناقضاً لذهنيته الصوفية الثائرة وأدي ذلك الرفض بدوره إلى إقصائه من الطريقة السمانية تحت زعامة محمد شريف نور الدائم[3]. وأعقب ذلك انضمام الشيخ محمد أحمد لشيخ آخر من مشايخ الطريقة السمانية وهو الشيخ القرشي ود الزين بمنطقة الحلاويين. وبعد وفاة شيخه الجديد رجع محمد أحمد إلى الجزيرة أبا مواصلاً نفس أنشطته السابقة. بيد أنه اكتسب من بقائه مع الشيخ القرشي أتباعاً ومناصرين سيكون لهم دور بالغ الأهمية في الثورة التي سيتزعمها ضد السلطة الاستعمارية القائمة، ومن هؤلاء عبدالله بن السيد محمد

1 نفس المصدر، ص ٤٦.

2 نفسه، ص ٥٠.

3 ريتشارد دكيمجميان ومارغريت وزروميسكي، مصدر سابق، ص ٢٠٤.

ود تورشين القادم من ديار قبيلة التعايشة بجنوب دارفور، عبد الرحمن بن القرشي ود الزين، عثمان النائب البطحاني وعبدالقادر ود حبوبة وآخرين.

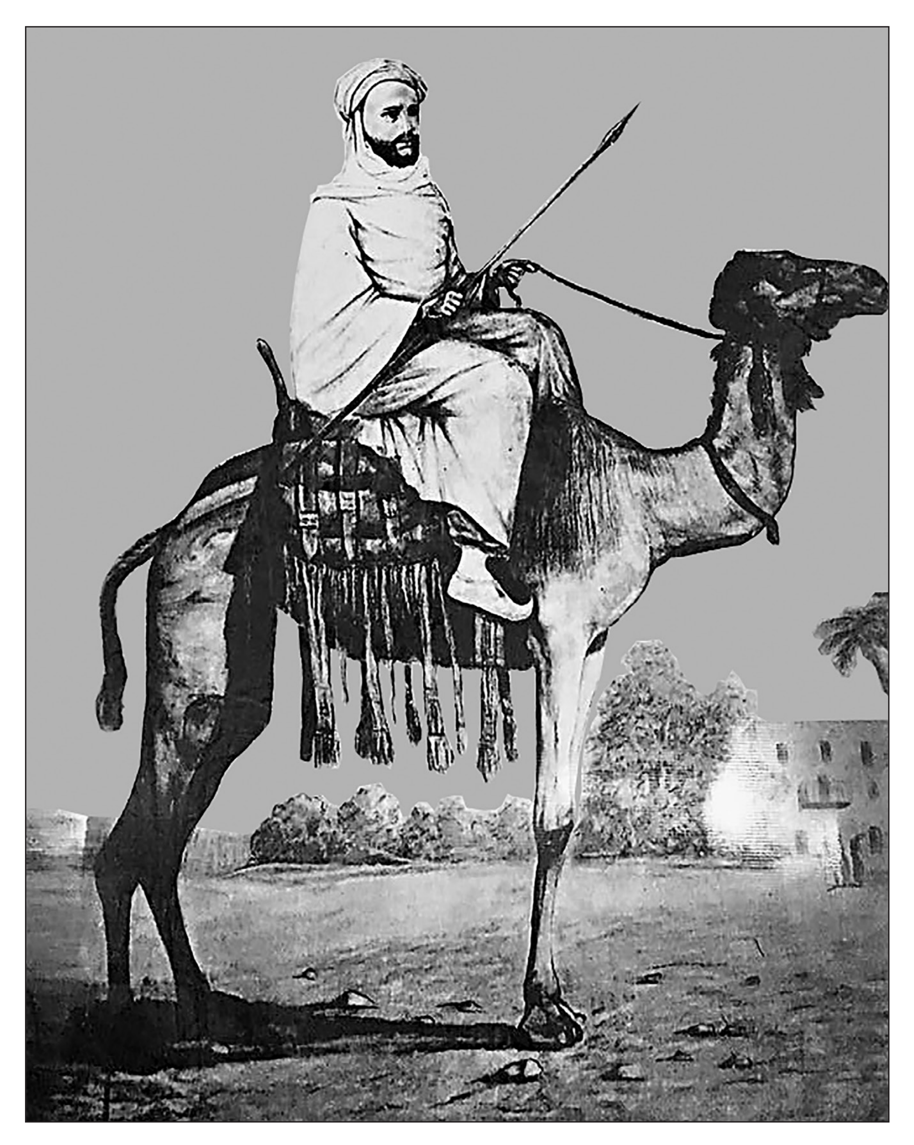
وطاف الشيخ «محمد أحمد» السودان في زمرة من مريديه سائحاً يسبر أغوار مظالم المجتمع المأزوم الذي كان يرزح تحت سطوته شعبه فإستمع للناس وعرف معاناتهم وما كبلهم من عسف. فقد كان السودان انذاك مستعمرة يحكمها خليط من المغامرين والمرتزقة الأوروبيين «فحاكم بحر الغزال هو الإيطالي (جيسي) وعندما ذهب خلَفَه الإنجليزي (ليبتون بك) وحاكم دارفور هو النمساوي (سلاطين) وفي لادو يحكم الألماني (سنترز) وفي فاشودة يحكم النمساوي (أرنست مانرو)»[1].. أما حكمدارية الخرطوم نفسها فقد تبادلها رؤوف باشا والألماني جيجلر ثم الجنرال البريطاني هنري دي كوتلوغون ومن بعده مواطنه الجنرال تشارلز غردون.

ويرى المؤرخ المصري الدكتور الشاطر بصيلي أن الحكم الأجنبي الموسوم بالقهر والفساد وتذمر المحكومين من أبناء الأرض ذاتها من مظالمه قد إستبانت صورته بوضوح بذهن الشيخ محمد أحمد من خلال طوافه المتصل بمناطق السودان المختلفة، وفي ذلك تحديداً قال البصيلي:

«وقد طاف الإمام المهدي البلاد من أقصاها إلى أقصاها. ولمس ما اختلج في قلوب الأهلين من روح التذمر واليأس على أولئك الفرنجة، ومن عاونهم من الوصوليين. ومن هؤلاء من وصل إلى رتب عسكرية عالية بحكم الوظائف الإدارية التي أوكلت إليهم، وكان لهذا الخليط أثره في إضعاف الجهاز الإداري وتسرب الفساد إلى صميمه مما جعله عاجزاً عن القيام بواجباته من المحافظة على أمن البلاد ورفاهيتها، فتهيأت بذلك الفرصة المناسبة ليعلن الإمام المهدي رسالته لمحاربة الإدارة الأوروبية. وما كان للحركة المهدية أن تسلك طريق العنف لولا الظروف السيئة التي جعلت مقاليد الحكم في يد الفرنج مما جعلها تنجرف عن طريقها الديني للعنف والقتال. ولو كانت في البلاد إدارة تقدر الظروف المحلية وتهدف في أعمالها إلى خدمة الشعب لكان لها أن تستنفذ أغراضها في طريق

1 **تيارات الفكر الإسلامي**، للدكتور محمد عمارة، الناشر: دار الشروق، القاهرة، مصر، ١٩٩٧،ص ٢٧٤.

سلمي، والدليل على ذلك قائم فيما سبق أن ذكرناه عن الفترتين كانت فيهما تقاليد الحكم في يد السلطة السنارية والخمسين عاماً الأولى من امتداد الإدارة المصرية في السودان»[1].



الإمام محمد أحمد بن عبدالله سائحاً ببقاع السودان قبل اندلاع الثورة المهدية.

1 **معالم تاريخ سودان وادي النيل.. من القرن العاشر إلى التاسع عشر الميلادي**، للدكتور الشاطر بصيلي عبد الجليل، الناشر: مكتبة الشريف الأكاديمية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ٢٢٠-٢٢١.

ولم يلبث محمد أحمد كثيراً في أعقاب عودته من سياحاته تلك، أن أعلن ثورته على النظام الاستعماري الذي تسربت مظالمه العميقة إلى وجدانه المرهف، فأعلن مهديته التي سيسعى من خلالها لتحرير السودان بأكمله من سطوة الترك وحلفائهم الأوروبيين. وطبيعة مهديته نفسها قد تكون متفقة لحد كبير مع السياق الاجتماعي والعقدي الذي إبتنى عليه مجتمع سودان «السلطة التركية» أمانيه وأشواقه الشعبية نحو الانعتاق على يد قائد ملهم ومخلص. وهي ذات التطلعات الشعبية التي أسهبنا في الإشارة إليها بالباب السابق. وقد يبدو كل ذلك متفقاً مع قراءة الدكتور بصيلي التي قال فيها: «وكانت الدعوة التي ظهرت في الثوب الديني التقليدي الذي يتمشى مع طبيعة البيئة المحلية تسلمها الزعيم المرتقب». وقال أيضاً: «ومن هذا يتضح أن دعوة الإمام المهدي في السودان لم تكن إلا استجابة لمشاعر الأهلين التي انطبعت بما تركه حكم الأوروبيين من أثر سيء وكان لتلك المشاعر انعكاساتها التي تمثلت في شخصية الإمام المهدي وطبيعته الدينية فالتفّوا حوله وناصروه»[1].

وينتحي المفكر المصري الدكتور محمد عمارة منحى مشابهاً حين يرجح بأن معاناة السودانيين تحت سطوة الحكم الأجنبي قد امتزجت في عقل وقلب محمد أحمد بروح التصوف التي أسبغت عليه شفافية تصاعدت مع رياضاته الروحية ففجرت في نفسه كإنسان طاقات غير عادية، ليتقدم نحو دور المخلص للبلاد بأكملها ومن ذلك قوله:

«وسواء أكان محمد أحمد قد أدرك أن تحقيق غاياته لابد له من طاقة عاطفية وشحنة روحية تهز قلوب المؤمنين وتذهلهم عن الروابط والقيود التي تشدهم إلى الدنيا ومتاعها فيسرعون بسوط الخارق المعجز إلى الانخراط في حركته الإصلاحية فاخترع أنه المهدي المنتظر اختراعاً.. أو أن الرجل قد امتزجت في عقله وقلبه ونفسه معاناة شعبه وأمته بالصوفية التي صنعت لروحه شفافية زادت منها رياضاته ففجرت فيه كإنسان طاقات غير عادية ولا منظورة فرأى ما لم يره الآخرون وما أنكره عليه الكثيرون».. إلى أن يقول: «سواء أن أخذنا بالتفسير الأول، أو اعتمدنا التفسير الثاني – وهو الذي نميل إليه –

1 نفس المصدر.

فلقد أعلن محمد أحمد في الأول من شعبان ١٢٩٨هـ -٢٩ يونيو ١٨٨١ أنه هو المهدي ودعا الناس للإيمان به والهجرة إليه والجهاد معه لإقامة الدين وتحرير البلاد من الأتراك والأجانب»[1].

ثم توافدت القبائل السودانية بمنطقة النيل الأبيض على مبايعته وتأييده. وتقدم المهدي السوداني منذ ذلك الوقت، لقيادة حركة مقاومة سودانية مسلحة للحكم الأجنبي بنفسه بعدما تدافعت الجماهير المُثقلة بالمظالم لتأييده، فأفلح في سحق كل القوات التي أرسلتها الحكومة لمواجهته. وانتصر في موقعة الجزيرة أبا في أغسطس ١٨٨١ على عساكر النظام الاستعماري الذين فاقوا رجاله عدداً وعتاداً بما يقارب الثلاثة اضعاف. ثم هاجر برجاله غرباً لجبل قدير حيث إلتفت قبائل المنطقة حوله وساندته. وهناك تحولت قواته لجيش مقاومة منظم وموزع على أربعة رايات معروفة. ولم يلبث المهدويون هناك كثيراً قبل ان يبيدوا حملتين عسكريتين متتابعتين جردتها السلطة الاستعمارية الحاكمة لقمع حركتهم في واقعتين عرفتا بواقعة «راشد بك أيمن» وواقعة «الشلالي» بالعام ١٨٨٢،وهي ذات الواقعة التي استشهد فيها شقيق المهدي الأكبر «حامد بن عبدالله»[2]. وكفلت انتصارات

1 عمارة، مصدر سابق، ص٢٧٦.

2 **السيد حامد عبدالله** (١٨٣٩-١٨٨٢): هو حامد بن عبدالله بن فحل. الشقيق الأكبر لـ«محمد أحمد» والثاني في ترتيب أشقائه بعد محمد بن عبد الله. كان أمهر إخوته في مهنة صناعة المراكب والسفن النيلية. تبرع بكل ما جمعه من مال لتمويل جيش الثورة المهدية المتجه نحو جبال قدير في ١٨٨١. شارك كقائد للفرسان بجيش الراية البيضاء.. أحد أهم رايات الجيش المهدوي في المعارك الأولى ضد القوى الاستعمارية. وكان شقيقه محمد ود عبدالله هو أمير هذه الراية. حضر واقعة الجزيرة أبا ١٨٨١ وواقعة راشد بك أيمن في العام نفسه. تقدم لقيادة محور المقدمة المكون من فرسان جيش الثورة المهدية في موقعة قدير ١٨٨٢ فاخترقوا تحصينات جيش العدو في زمن وجيز. وهي ذات اللحظة التي وصفها المؤرخ الأستاذ عبدالمحمود أبوشامة قائلاً: «أُصيب حامد بطلق ناري في ركبته اليمنى. أمسك ساقه بيده اليسرى والسيف بيده اليمنى وجعل يحجل بساق واحدة وهو يقاتل». وقال أبو شامة أيضاً: «شهداء الثورة قاربوا المائتين، بينهم السيد حامد أخ المهدي المحارب بساق واحدة، فقد استشهد في اليوم الثاني للمعركة». وترك حامد ابناً له في بطن أمه كان لا يزال عندما رحل. وُلد الطفل بعد وفاة أبيه بشهرين فأسموه حامد تيمناً بأبيه المقاتل -كعادة السودانيين بذاك الوقت. أما أولاده الآخرون فهم: محمد وعبدالله الهاشمي وأمين. وقد شارك محمد وعبداالله في معركة كرري ١٨٩٨ ضد قوات الغزو البريطاني ووقعا في أسر البريطانيين قبل أن يطلق سراحهما فيما بعد. واتجه البريطانيون نحو إعدام محمد ود حامد في أعقاب قيادته لثورة سنجة التي قاومت النفوذ البريطاني في ١٩١٩. وسبق ذلك محاكمة أخيه عبدالله بتهمة التدبير لهبة شعبية ضد الإنجليز في منطقة القفيل بالنيل الأبيض.
انظر: **من أبا إلى تسلهاي**، للأستاذ عبد المحمود أبو شامة، المطبعة العسكرية، الخرطوم، ١٩٨٦.

الثورة المهدية المتتابعة على القوى الاستعمارية المزيد من التأييد الشعبي المناطقي بغرب السودان، فاستوت الثورة بقامة ممتشقة ودانت لها معظم حاميات إقليم كردفان بغرب السودان في ظرف عامين. واتخذت من مدينة ألأبيض عاصمة لأراضيها المحررة. وهي ذات الفترة التي شهدت استدراج أقدام جنرالات بريطانيين بارزين لمواجهة الثورة ابتداءاً من العام ١٨٨٣ حين تقدم الجنرال البريطاني المعروف «وليام هكس» بقوات قوامها ١٥,٠٠٠ من الجنود لسحق الثورة المهدية خارج أسوار مدينة الأُبيّض.

الباب الثالث

معركة شيكان..
الأرض تبتلع جيش الغزاة!

معركة شيكان.. الأرض تبتلع جيش الغزاة!

«لقد كان المهدي على دراية تامة بأهمية عنصر المفاجأة في أرض المواجهات العسكرية. كان له المقدرة على الاستفادة القصوى من الطلائع العسكرية بنفس مقدرته على حرمان عدوه من ذات السلاح المهم. خرج منتصراً في كل معاركه الأولى بفضل مقدرته على توظيف سلاح عنصر المفاجأة.. فقد تمكن من إبادة حملة هكس بعنصر المفاجأة وفتح الخرطوم لاحقاً بهجوم طغى على طابعه عامل المباغتة أيضاً».

روبرت روسي «Robert.N.Rossi»..ضابط وأكاديمي أمريكي برتبة رائد، كلية القيادة والأركان الأميريكية، ١٩٩٤.

شهد اليوم الخامس من نوفمبر في العام ١٨٨٣ واحدة من أهم المواجهات العسكرية الحاسمة التي جرت وقائعها بالنصف الجنوبي للكرة الأرضية آنذاك. وهو ذات اليوم الذي جرت ببداياته موقعة محتدمة بين قوات الجنرال البريطاني وليام هكس وقوات الثورة المهدية تحت قيادة الإمام محمد أحمد المهدي. ووقع ذلك الصدام المسلح العنيف تحت ظلال غابة شيكان القابعة بأشجارها الشوكية الكثيفة على مشارف مدينة «الأُبيّض» بغرب السودان.

اختار الخديوي «توفيق» - الواقع تحت سطوة البريطانيين - الجنرال هكس مع صفوة من الضباط البريطانيين والأوروبيين لقيادة تلك الحملة الغازية التي تم الإعلان عن مراميها بلغة قاطعة لا تفسح لسواها أي مجال للالتباس في مقاصدها. ونعني هنا تحديداً، سحق الثورة السودانية وإعادة احتلال كل المدن والحاميات التي وقعت تحت قبضتها. وبانقضاء اليوم الخامس من نوفمبر بذلك العام، لم تعد تلك الغايات سوى بعض من الأمنيات الغوالي التي أسدل التاريخ ستره عليها دون أن تبرح صدور أصحابها نحو

مواطئ التنفيذ. وشهدت تلك الواقعة انتصاراً شعبياً وعسكرياً ساحقاً لأصحاب الأرض مما دعا البعض لاعتبار «شيكان» كأول معركة في تاريخ السودان بالقرن التاسع عشر تشهد استغلالاً عبقرياً لعوامل الجغرافيا والمناخ لصالح الثورة الوليدة. وتزامن ذلك كله مع تأييد شعبي كاسح لها في كل المناطق التي تقدم فيها هكس بحملته. وهو ذات التأييد الذي اتفق مع تخطيط إستراتيجي متقدم لاستدراج قوات الغزو لمعركة اختارت زمانها ومكانها قيادة الثورة المهدية بعناية فائقة وبحدسٍ عبقري متقدم.

وقد تحدث المؤرخ البريطاني فيرغس نكول صاحب كتاب «مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون» عن الجنرال هكس وتفاصيل تكوين جيشه لقمع الثورة المهدية، فقال فيما يلي ذلك:

«كان هكس ضابطاً بريطانيا مميزاً.. بلغ الثالثة والخمسين من عمره عند تكليفه بقيادة الحملة. وكان مديد القامة، حسن المظهر والتقاطيع وعلى وجهه آثار صرامة واضحة وذقن بارز أشيب الشعيرات»[1]. ويبدو جلياً أن هكس قد تم اختياره لهذه المهمة بعناية فائقة وتفضيلاً على الجنرال فالنتاين بيكر عطفاً على انضباطه وسمعته الحسنة بالمقارنة مع الأخير «والمفارقة أن فالنتاين بيكر نفسه لقي الأمَرّين وعانى ما عانى من الهزائم على يد الأمير عثمان دقنة قائد القوات المهدوية في سنوات لاحقة بشرق السودان». ولعلها ذات المزايا التي دعت اللورد دوفرين[2] - المقرب جداً من ملكة بريطانيا – لوصفه بـ«القائد الرصين والمتزن في أدائه وخبراته العسكرية كخيار ممتاز لقمع الثورة المهدية»[3].

و قامت صحيفة «Lloyd's» اللندنية بإعداد تقرير مفصل عن حملة هكس في نوفمبر ١٨٨٣ استعرضت فيه خبرات الجنرال وليام هكس الميدانية والقتالية المتنوعة من خلال سرد سيرته الذاتية الحافلة بالنجاحات في قمع الثورات التي قامت في شتى أرجاء الإمبراطورية البريطانية وجاء في ذلك التقرير: «انضم هكس للجيش البريطاني في مدينة بومباي الهندية في ١٨٤٩ وخدم بلده في البنغال في حملة ١٨٤٧-١٨٤٩ كما اشترك مع

1 فيرغس نيكول، مصدر سابق، ص١٦١.

2 **اللورد دوفرين**: سفير بريطانيا في استانبول ومصر بالتتابع.

3 نيكول، مصدر سابق، ص١٦٢.

اللورد كلايد في حملة اخضاع إقليم اويد الهندي. لقد تقلد رتبة اللواء أو «Brigade Major» في موقعة (ماجدالا) التي انتصرت فيها القوات البريطانية انتصاراً باهراً في الحبشة»[1].

وفور وصول «هكس» إلى القاهرة انخرط في حملة مباحثات مكثفة مع الخديوي توفيق.. ثم أتبع ذلك بلقاءات متصلة مع السير إيفلين وود[2] والذي فرضته بريطانيا قائداً عاما للجيش المصري برتبة سردار بعد ثورة عرابي.

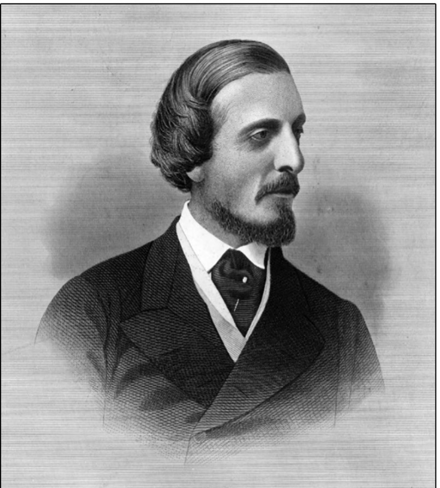
مغترّاً بتلك البدايات المبشرة وروح التعاون التي وجدها من الجميع بالقاهرة، بعث هكس إلى زوجته صوفيا ببريطانيا برسائل متتابعة في ١٨٨٣، تميزت الرسائل الأولى منها بقدر كبير من التفاؤل. ويتضح ذلك جلياً من خلال قوله في إحداها: «لقد كان الخديوي توفيق سخياً معي حينما وعدني بحافز شخصي يبلغ عشرة الآف من الجنيهات الإسترلينية إن أفلحت في حسم أمر السودان». وفي آن آخر تجده يركن إلى التشأوم المصحوب بالقلق والتوتر، مما دفع فيرغس نيكول إلى تقمص دور المحلل النفسي حين وصفه بالشخص المتقلب المزاج.. «Had wild mood swings» وقد تبدى ذلك حين كتب لصوفيا بعد لقائه المغلق بالقاهرة مع كل من السير «إيفلين وود»، اللورد «دوفرين»، و«السير إدوارد مالت»؛ قنصل بريطانيا بمصر، لتوفير الغطاء السياسي للحملة.. قائلاً: «إنني أشعر بغاية القلق. هل سأستطيع فعل كل هذا؟ إن هذا الأمر يبدو لي هائل الأعباء».

1 **Lloyd's Weekly London Newspaper**، الأحد ٢٥ نوفمبر ١٨٨٣، أرشيف الصحافة البريطانية.

2 **السير إيفلين وود (١٨٣٨–١٩١٩)**: هو هنري إيفلين وود. جنرال وإداري استعماري بريطاني مرموق خدم في جهات شتى من نواحي الإمبراطورية البريطانية. وُلد في مقاطعة إسيكس الواقعة شرق مدينة لندن والتحق بالجيش البريطاني كضابط صغير قبل أن يترقى سريعاً في سلمه بفعل أدائه العسكري المتميز. في أعقاب قمع الثورة العرابية واحتلال عساكر الإنجليز لمصر بالعام ١٨٨٢، فرضته بريطانيا قائداً عاماً للجيش المصري فما كان من لخديوي توفيق إلا أن يرضخ لهذا الاختيار. ولما توالت انتصارات الثورة المهدية، كان إيفلين وود يرنو لقيادة حملة إنقاذ الجنرال غردون التي أرسلتها الملكة فيكتوريا للسودان. وأورثه اختيار زميله الجنرال ولزلي لهذه المهمة -عوضاً عنه - حنقاً شديداً. بَيد أنه اشترك في الحملة ذاتها من خلال مسئوليته المباشرة عن خط الإمدادات لحملة ولزلي في ١٨٨٤. وتنضح المذكرات التي كتبها الأخير عنه بمرارة شديدة نتيجة لما نشب بينهما من خلاف في خط سير الحملة ومقاومة الثورة المهدية الناجحة لتقدمها في كل مراحلها المختلفة. ترقى إيفلين وود ليحوز على رتبة مشير في نهايات حياته المهنية بجيش الإمبراطورية البريطانية. انظر:

The British Empire, Where the Sun Never Sets.

https//:www.britishempire.co.uk/biography/evelynwood.htm



اللورد دوفرين



السير إيفلين وود



الجنرال البريطاني وليام هكس

وبعد أيام قلائل، يستعيد هكس نبرة التفاؤل المألوفة في خطاباته لزوجته والتي بدت في هذه المرة أقرب إلى الخيلاء الذي وقف بصاحبه عند مشارف الغرور، فكتب قائلاً:

«إن بعض الرجال يولدون عظماء وبعضهم ينتزع العظمة بأعماله في الحياة ولكنني

أعتقد جازماً أنني سأبقى عظيماً طوال حياتي»[1].. مُلمحاً إلى حتمية انتصاره على الثورة السودانية الوليدة!.

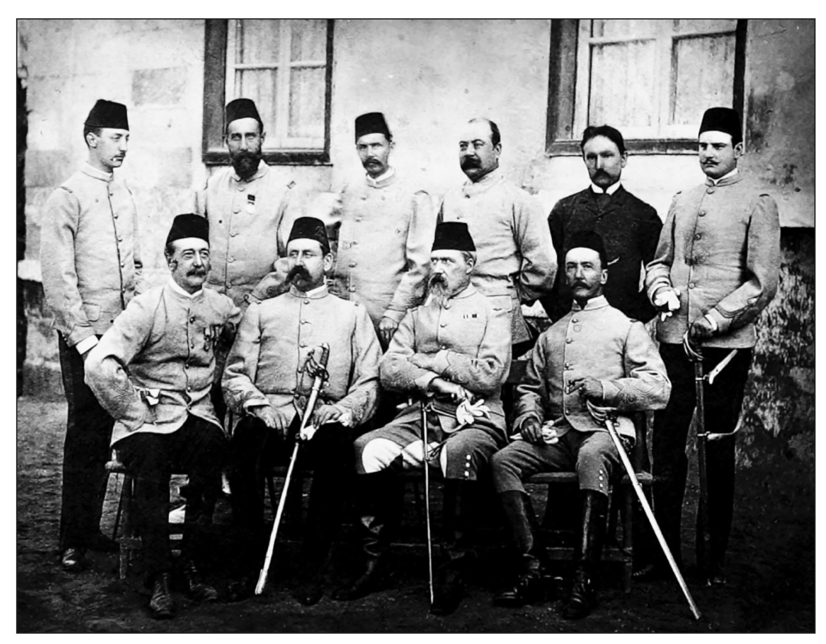
أما عن تكوين جيش حملة هكس فقد أوردت صحيفة «Lloyd's» اللندنية تفصيلاً مسهباً عن التشكيل القيادي للحملة حين ذكرت: «بالإضافة للجنرال هكس كقائد عام للحملة، اصطحب هكس معه عدداً من الضباط الأوروبيين فكان هناك القائد الإنجليزي الشهير فركهار برتبة Major أو رائد وهو الذي خدم كنقيب في وحدة المشاة بالجيش البريطاني المعروفة باسم Grenadier Guards جنباً إلى جنب مع الضابط البريطاني Massey والذي خدم برتبة نقيب في وحدة المشاة الأخرى بجيش الإمبراطورية والتي عُرفت باسم Middlesex Regiment. وكان هناك النقيب فروستير وكر الذي خدم كملازم بوحدة مشاة الجيش الملكي البريطاني المعروفة باسم Royal East Kent Regiment. أما على مستوى سلاح الفرسان فقد كلّف الميجور مارتن بقيادته، بينما تشكل السلاح الطبي بقيادة الدكتور روزنبرغ برتبة رائد جراح. كما تشكل سلاح الاستخبارات بقيادة الضابطين: وارنر وأي. بي. إيفانز»[2].

ولا يختلف تقرير الصحيفة اللندنية عن الهرم القيادي للحملة إلا اختلافاً طفيفاً عما أورده المؤرخ الوطني الأستاذ عبد المحمود أبو شامة في سِفره القيم (من أبا إلى تسلهاي). وقد أسهب الأستاذ أبو شامة حين تحدث عن جنود الحملة الذين كانوا خليطاً من الأتراك والألبان والشركس والمصريين من بقايا جيش عرابي ومجموعات أوروبية مقدرة وخلص إلى أن تعدادهم كان يربو عن الـ ١٥,٠٠٠ جندياً بالتمام والكمال. وما كان لجيش جرّار كهذا أن يُرسَل من دون توفير التغطية الإعلامية الفعالة لوقائع تحركاته، فصحب ذلك الجيش كأذرع إعلامية، كلٌّ من فرانك باور مراسل جريدة (التايمز اللندنية) وفرانك فيزتلي مراسل جريدة «The Graphic». كما تواجد أيضاً الصحفي الإيرلندي المثير للجدل إدموند أودونوڤون المحسوب على التيار القومي الإيرلندي، كمراسل حربي لصحيفة «Daily News».

1 نيكول: **خطابات هكس لزوجته صوفيا**، مصدر سابق، ص١٦٣.

2 صحيفة **Lloyd's Weekley London Newspaper**، نوفمبر ١٨٨٣، أرشيف الصحافة البريطانية.

بدأ جيش هكس تقدمه نحو المهدي في كردفان من منطقة «شات» بالنيل الأبيض في٢٧ سبتمبر ١٨٨٣، ومنها أرسل الجنرال هكس خطاباً مملوءاً بالوعيد لكل زعماء القبائل بالمنطقة، فعبرت كلماته عن صلف إنجليزي بالغ وهي تطالبهم بالتسليم والانقياد المقترن بعدم الانضمام للمهدي وإلا فأنهم سيدمرون معه ومع جيشه! وشاعت تلك الرواية الشعبية المتداولة حينئذ والتي كانت تتحدث عن الغرور الذي كان يعتمل بصدر هكس وثقته التامة بتحقيق ما كان يتطلع إليه من نصر ساحق. وهي ذات الرواية التي أوردها الأستاذ أبوشامة بأن «جيشه كان قادراً على دك الأرض بأحذيته ورفع السماء بسناكي البنادق». وهو عين ما أكده الأمير علي الجلّة.. أمير المسيرية الذي استجوبته إصدارة «Sudan Notes & Records» البريطانية الشهيرة لاحقاً[1].



الجنرال البريطاني هكس وأركان حربه من الضبّاط البريطانيين:
من اليسار إلى اليمين وقوفاً:
النقيب ميسي، الكولونيل فركهار، الرائد وارنر، الصول برايدي، النقيب إيفانز، النقيب فروستير ووكر.
من اليسار إلى اليمين جلوساً:
الكولونيل جون كولبورن، النقيب مارتن، الجنرال وليام هكس، الكولونيل هنري دي كوتلوغن

1 «The Defeat of Hicks Pasha,» By sheikh Ali Gulla and L. F. Nalder, **Sudan Notes and Records**, VIII, 1925. Published by University of Khartoum. P 119.

وبذات المعنى، بعث وليام هكس بخطاب ينضح بلغة الوعيد والتهديد من «شات» بالنيل الأبيض للإمام المهدي الذي كان مرتكزاً بقواته بمدينة «الأُبيّض» المحررة. وعندما تُلي خطاب هكس على المهدي، رد عليه بثقة القائد الذي يعرف كيف يثبت جنوده حين قال ببرود: «سبحان الله هذا المسكين نسي قدرة الله فأين قوة الله.. لا حول ولا قوة إلا بالله».. ثم نهض المهدي مخاطباً جيشه: «إذا طار الطير أين ينزل؟» فقالوا: «ينزل في الأرض» فعقب قائلاً: «نحن الأرض، وهؤلاء أينما توجهوا سيأتون إلينا»[1].

لم يهدر المهدي الكثير من الوقت، فقد كانت أدق المعلومات الاستخبارتية عن جيش الحملة الغازية كلها أمامه في «الأبيض» منذ يوليو١٨٨٣ بفضل جهاز الاستخبارات المهدوي بقيادة الأمير حمدان أبوعنجة والأمير محمد عثمان أبوقرجة. وتبعاً لذلك، استدعى المهدي الخلفاء والأمراء لمجلس حرب تشاوري منذ سبتمبر ١٨٨٣. كانت خطته العسكرية تبدو بسيطة ولكنها محكمة. أصدر المهدي أوامره باستدراج جيش هكس لفخ نصبه ببراعة في سهول كردفان الفسيحة على أن يتم حرمان جيش الحملة من الإمداد تماماً. كما وجه الأمراء.. «أبوقرجة» و«عبدالحليم مساعد» و«عمر الياس باشا أم برير» و«حمدان أبوعنجة» بمهام محددة. كانت مهمة هؤلاء حسب توجيهات محمد أحمد المهدي الصارمة هي إقلاق منام الحملة ليلاً بالاشتباكات السريعة الخاطفة دون الدخول معها في مواجهات مباشرة. وضرْب كل الخارجين عن التشكيل الإنجليزي للمربع العسكري مع دفن أكبر عدد ممكن من الآبار في طريق الحملة، وإخلاء القرى ومن ثم استدراج الغزاة لإنهاكهم وتحطيم روحهم المعنوية على طول الطريق. ونلمح تلك الإدارة المتقنة لتكتيكات الحرب الشعبية من خلال حملة مراسلات المهدي النشطة مع الأمراء، ففي سبتمبر ١٨٨٣ كتب المهدي للأمير أحمد ود جفون:

«وأنه بمجرد وصول جوابي هذا إليكم أنتم وجميع من معكم من الأنصار انضموا مع بعضكم البعض في جهة من الجهات وأخلوا لهم الطريق كي يجدوه سهلاً خالياً، واكمنوا لهم بالطلائع الشافية، وبعد تحققكم بذهابهم ومرورهم من نواحيكم، فأمسكوا قفاهم

1 أوراق السيد علي المهدي، نسخة مودعة بدار الوثائق السودانية بخط يد الشيخ سليمان أديب.

واتبعوهم من ورائهم فيصيرون في وسطنا».. إلى أن يقول: «الحرب خدعة، فشمروا عن ساعد الجد وقوموا بواجب ما أمرتم به ولا تغفلوا عن الطلائع دائما قبل وصولهم بنواحيكم ومرورهم ولا تقطعوا منا الإفادة من الأخبار المحققة»[1].

ذلك تكتيك برع المهدي في تنفيذه وأقر بعبقريته فرانك باور المراسل الحربي لصحيفة التايمز حين قال: «لم ينشغل السودانيون كثيراً بالمدفعية والأسلحة الثقيلة التي امتلكها جيش هكس. لقد كان أفضل سلاح أجادوا استخدامه ببراعة هو طبيعة بلادهم - يقصد الطبيعة الجغرافية للسودان- لقد أجادوا استخدام هذا السلاح بعبقرية فائقة»[2]. ويتفق المؤرخ والخبير العسكري البريطاني فيثرستون في كتابه «الوقفة الاخيرة للجنرال غردون» مع باور في الثناء على عبقرية خطة المهدي لاستدراج جيش هكس إلى مصيره المحتوم حين يقول: «لقد كان على الحملة التعامل مع حرارة الطقس القاسية، العطش ومضايقات واشتباكات الجيش المهدوي الخاطفة التي استمرت على نسق ثابت، مما أثار شقاقاً داخلياً وسط الرتب المتقدمة من ضباط الحملة. لقد كان المهدي ممسكاً بكل أوراق اللعبة (Holding all the cards). و كان جهاز الاستخبارت المهدوي على أعلى مستوى (First rate intelligence). وأرسل المهدي ألف فارس بقيادة الأمير محمود عبدالقادر لاحتلال منهل البركة مجبراً هكس على تحويل مسار جيشه لغابة شيكان»[3].

في يوم ٢٩ سبتمبر ١٨٨٣، أصدر المهدي أوامره لجيش الأنصار بنقل معسكره خارج أسوار مدينة الأبيض وتم تكثيف أعمال التدريب العسكري اليومي استعداداً لمواجهة حملة هكس. ونقل القائد الشاب الذي أكمل لتوه عامه التاسع والثلاثين.. رئاسته الميدانية تحت ظل شجرة التبلدية الضخمة الشهيرة بشرق المدينة. وأدت الدعاية الإعلامية الناجحة للثورة المهدية إلى توافد القبائل بالآلاف لمناصرة المهدي لتجديد البيعة والتأكيد على اتفاق الكلمة في مواجهة الغزاة. وكان لحادثة هروب الألماني جوستاف كلوتز من

1 منشور الإمام المهدي للأمير أحمد ود جفون: **الآثار الكاملة للإمام المهدي**، للدكتور «أبوسليم»، المجلد الاول، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم ١٩٩٢، ص٤٥٩-٤٦٠.

2 نيكول، مصدر سابق.

3 **Khartoum, 1885: General Gordon's Last Stand** by Donald Featherstone. Publishers: Osprey publishing. United kingdom, 1993, p.161.

معسكر هكس نحو معسكر أنصار المهدي أثر كبير في رفع معنويات جيش الثوار عندما نقل لهم معنويات الحملة الغازية المنهارة بسبب المناوشات الليلية المزعجة التي كانت تقوم بها طلائع الجيش المهدوي.

وتنادت إلى تلك التبلدية الضخمة أشتات قبلية سودانية اتفقت جميعها للمرة الأولى على قيادة موحدة لمواجهة القوات الغازية. وتوافد فرسان الغديات تحت زعامة الأمير إسماعيل ود الأمين[1]، الرزيقات بقيادة الأمير موسى ود مادبو، الحَمر بقيادة الأمير إبراهيم مليح، الحُمر بقيادة الأمير جبريل أبو جفنة[2] ثم رجالات عموم قبائل المسيرية بقيادة الأمير علي الجلة والأمير محمد ود طبيق وفرسان المجانين بزعامة الأمير ود نعمان، البديرية بقيادة الأمير عبدالصمد ود ابصفية والحوازمة بزعامة الأمير نواي ود ضيف الله، بني جرّار بقيادة الأمير ود نيباوي، الجِمع بقيادة ناظرهم الأمير عساكر أبوكلام، التعايشة بقيادة الأمير يعقوب ود تورشين والخليفة عبدالله، الجوامعة بقيادة الأمير موسى الأحمر[3] والأمراء رحمة ود منوفل وضوينا الجامعي والشامي ود هباني وفرسان المعاليا بقيادة الأمير الشيخ دودو، فرسان دار حامد بقيادة الشيخ قريقر، الفلاتة بقيادة الأمير

1 **إسماعيل ود الأمين**: هو الأمير إسماعيل الأمين الدندلوك. كان من أبرز زعماء قبيلة «الغديات» في كردفان عند اندلاع الثورة المهدية. انضم مقاتلاً بصفوفها مع فرسان ورجال قبيلته وحضر واقعة شيكان. شارك في مواجهات عديدة خاضتها الثورة المهدية ضد القوى الاستعمارية ومنها اشتراكه في محاولة صد هجوم الإيطاليين على مدينة كسلا. ظل على ولائه للمهدية حتى النهاية حيث سقط شهيداً في واقعة «أم دبيكرات» آخر معارك المهدية ضد البريطانيين في نهايات العام ١٨٩٩.هو ابن عم الشيخ علي كنونة الذي ثار على النظام الاستعماري التركي قبل الثورة المهدية فقُتل بكردفان مع ثلة من خواصه وأقاربه.

2 **جبريل أبوجفنة (١٨٥٣-١٨٨٣)**: هو جبريل ود أبوجفنة. أبوجفنة هو لقب والده الذي اشتهر بالجود وإكرام الأضياف لذلك عُرف بـ«أب جفنة» أي صاحب القدح أو الوعاء الذي يأكل منه الضيف. ينتمي لفخذ الفلايتة من قبيلة المسيرية الحمر من «خشم» بيت يقال له «أم بوكتة». كان من طلائع فرسان المسيرية الذين قابلوا المهدي حين كان في طريقه لجبل قدير في ١٨٨١ مع أبناء عمومته من المسيرية «العجايرة» بقيادة الأمير علي الجلة. شهد الأمير جبريل موقعتي قدير الأولى والثانية واشترك في تحرير مدينة الأبيض مع ثلة من فرسان «الفلايتة» الحُمر. قاد راية «الفلايتة» في معركة شيكان واستشهد في المعركة ذاتها. وكان شقيقه الأصغر محمد من فرسان الطلائع التي أرسلها المهدي تحت قيادة الأمير عمر الياس أم برير لاستكشاف أخبار جيش الجنرال البريطاني وليام هكس في طريق تقدمه لشيكان.
مقابلة مع الناظر الصادق بابو نمر في أم درمان بتاريخ ١٠ مايو ٢٠١٨.

3 **الأمير موسى الأحمر**: هو الأمير موسى محمد الأحمر. من أهم أمراء قبيلة الجوامعة في المهدية. تولى إمارة الجوامعة بعد مقتل الشيخ المنا ود إسماعيل وقاد راية القبيلة في معركة شيكان. بيد أن انضمامه للثورة المهدية كان يرجع لمراحلها المبكرة حين حل المهدي بجبل قدير في ١٨٨٢.

الفكي الداداري، الهبانية تحت قيادة الأمير كليب حمدان.. وفرسان «المنضلة» ممثلين في الأمير حمدان أبوعنجة ورفيقه الزاكي طمل[1]، الزيادية بقيادة الأمير جاد الله ود عيسى، قبيلة الكواهلة بزعامة الأمير جاد الله ود بليلو[2] جنباً إلى جنب مع الكبابيش بقيادة الأمير عوض السيد قريش[3] وفرسان قبيلة البرتي بقيادة الأميرين بشر ود نور الدين وأحمد

1 **المنضلة**: ينتسب المنضلة لمجموعة قبلية اختلطت فيها دماء جنوبية عديدة ومنها تحديداً قبيلة الفرتيت المنتشرة بين بحر الغزال وجنوب دارفور. أنجبت هذه القبيلة التي تصاهر فرع منها مع التعايشة.. قادةً وأمراء مهمين في الثورة المهدية. ومن أهم هؤلاء حمدان أبو عنجة الذي ذكر بعض المؤرخين انتسابه للبرقو والحمر من جهة الأب بينما أجمعت معظم المصادر على انتسابه للمنضلة من جهة والدته. ونسبت معظم المصادر صديقه الأمير الزاكي طمل للمنضلة أيضاً. انضم كل منهما للثورة المهدية في مراحل مبكرة قبل معركة شيكان وأسهما سوياً في معظم انتصارات الثورة المهدية فيما بعد.. بما في ذلك تحرير الخرطوم وحروب الحبشة.

2 هو الأمير **جاد الله ود بليلو**. ينتمي لفرع العبابدة من قبيلة الكواهلة الواسعة الانتشار بالسودان. عندما اندلعت الثورة المهدية، كان الأمير جادالله زعيماً عشائرياً مهماً للكواهلة بمنطقة أم بادر في شمال كردفان.و كان الكواهلة من أكثر القبائل تضرراً وتظلماً من السلطة الاستعمارية التركية التي أطلقت يد «أرستقراطية النوراب الحاكمة لدي الكبابيش» –كما أسماها البروفيسور عبدالله علي إبراهيم –لتفرض سيطرتها على جلّ قبائل كردفان بنظام «التبع» الذي كرّس لسلطة طبقة أرستقراطية قبَلية معينة. هاجر جاد الله ود بليلو للمهدي في جبل قدير بالعام ١٨٨٢ وبايعه منذ ذلك الوقت. عيّنه المهدي بعدها أميراً لعموم أمراء الكواهلة.. واضعاً تحت إمرته ستة من أهم أمرائهم وهم: أحمد عبد القادر الملقب بالإعيسر (من البراقنة) والأمير طه ود الفكي (من البراقنة) والأمير عطا بويتة (من العبابدة) والأمير فضل الله التوم (من الخلايقة الغزيا) والأمير عوض السيد طواقي (من البراقنة دار بحر) والأمير حمد ود الفكي (من البراقنة البقراب). وبعد وفاة المهدي، وفي أعقاب تأسيس العاصمة الوطنية في مدينة أم درمان، استقر هؤلاء الأمراء مع الخليفه عبدالله بأمدرمان وسكنوا بحي العرب. أما الأمير جادالله ود بليلو فكان بيته يقع غرب مستشفى أم درمان الحالي. واشترك ولداه عبدالله ويونس في موقعة كرري «١٨٩٨» ضد البريطانيين. استشهد يونس بالموقعة ذاتها، وأما عبدالله فقد بقي على قيد الحياة ونصّبه الكواهلة ناظراً عليهم بعد كرري، إلا أنه أبدى ما يكفي من الأنفة والكبرياء تجاه حكم البريطانيين مما استدعى عزله في أعقاب الحادثة التي كسر فيها الشيخ عبدالله ود جاد الله قلم المفتش الإنجليزي ماكمايكل في العام ١٩١٠. انظر: «**محاولة لفهم موقف الشيخ عبد الله جاد الله**»، بقلم الباحث الأستاذ فتح الرحمن موسى علي، نشر في سودانايل بتاريخ ٢٠-٣-٢٠١٤.

3 **عوض السيد ود قريش**: أمير مهدوي مهم ينتمي لفرع النوراب من قبيلة الكبابيش. وهو من أبناء عمومة التوم وصالح أولاد فضل الله ود سالم زعماء الكبابيش. بايع المهدي بعد تحرير مدينة الأبيّض. عيّنه المهدي أميراً على الكبابيش وشارك في موقعة شيكان وتحرير الخرطوم. وبعد وفاة المهدي، عيّنه الخليفة عاملاً عاماً للكبابيش سنة ١٨٨٧ واستقر في مدينة أم درمان حيث كان مسكنه مع مجموعة من أقاربه في الحي الواقع جنوب غرب بيت الخليفة الحالي. لعب دوراً مهماً في قيادة طلائع الاستكشاف التي أرسلها الخليفة لكشف عمليات الجيش الغازي العسكرية بدرب الأربعين في نوفبر سنة ١٨٩٧. شارك في معركة كرري التي واجه فيها الجيش المهدوي القوات البريطانية حيث قاد بنفسه ٦٩٧ مقاتلاً من فرسان الكبابيش واستشهد في المعركة ذاتها. انظر «**كرري**» لعصمت زلفو.

عبدالله أبوجديري[1]. وشكل كل هؤلاء قوام الراية الزرقاء. أما الراية الخضراء فتكونت من قبائل وسط السودان على نحو كنانة بزعامة الأمير البشير عجب الفيه، دغيم بقيادة الأمير موسى ود حلو، العمارنة بزعامة الأمير بابكر ود عامر، اللحوين بقيادة عبدالله ود برجوب، الحسنات بقيادة الأمير ود مدرع والعركيين بقيادة عبدالله ود النور.. البطاحين بقيادة الأمير عثمان ود أحمد الشهير بالأمير عثمان النائب البطحاني.. ثم الراية الحمراء والتي ضمت قبائل شمال السودان على نحو الجعليين بزعامة الأمراء: الياس باشا أم برير[2] وابنه عمر، حاج خالد العمرابي[3] وابنه عثمان وعبدالحليم مساعد، الدناقلة بزعامة

1 **بشر ود نور الدين** و**أبوجديري** من أهم أمراء قبيلة البرتي. وهي ذات القبيلة التي تنتشر مضاربها بشكل واسع في منطقة شمال دارفور. وتعدّ قبيلة البرتي من أهم القبائل التي ناصر فرسانها المهدي في ثورته بالعتاد والرجال. حضر كلّ من الأميرين معظم وقائع الثورة المهدية وقاتلا تحت راياتها إلى أن استشهد كلاهما في معركة كرري ضد قوات الغزو البريطاني بصبيحة اليوم الثاني من سبتمبر ١٨٩٨. انظر: «**موسوعة القبائل والأنساب في السودان**»، للدكتور عون الشريف، ج ١، ص٢٦٣.

2 الأمير **الياس أم برير**: هو الياس بن محمد بن عبدالله النفيعابي. ينتمي بنسبه لفخذ «النفيعاب» من قبيلة الجعليين. كان سرّ تجّار مدينة الأبيض كما عُيّن مديراً على كردفان ثم مديراً على مدينة شكا بدار الرزيقات في عهد التركية. بايع المهدي قبل تحرير مدينة الأُبيّض في ١٨٨٢. وكان له أثر فعّال في انتصارت الثورة المهدية فساندها بالمال والرجال. وقاتل أبناؤه التسعة كأمراء تحت رايات المهدية ومن أشهرهم ابنه الأميرعمر الياس والذي قُتل في مناوشات قوات استطلاع جيش المهدية مع قوات الجنرال هكس قبل موقعة شيكان بأيام قلائل. شارك في حصار وتحرير مدينة الخرطوم ويُنسب إليه الرأي القائل بضرورة مهاجمة المدينة عسكرياً حتى يتفرغ جيش الأنصار لمواجهة قوات الجنرال ولزلي في الشمال. سجنه الخليفة عبدالله وتوفي في ١٨٩٨ واتّهم حينها بالتآمر مع ابن عمه عبدالله ود سعد فيما قبل أحداث المتمة المتزامنة مع تقدم جيش الغزو البريطاني نحو أم درمان عاصمة الدولة المهدية. انظر: **موسوعة القبائل والأنساب في السودان**، للدكتور عون الشريف قاسم، الجزء الأول. انظر أيضاً **أوراق السيد علي المهدي**.

3 **حاج خالد العمرابي** (١٨١٧-١٩٠١): هو حاج خالد بن حمد بن كروم بن سليمان بن مالك بن حمد الرباع بن الشيخ حامد بو عصا. وهو حفيد الشيخ حامد أبو عصا المعروف أحد أهم مشايخ الجعليين العمراب بشمال السودان. وُلد بمنطقة جبل أم على في ١٨١٧. هاجر خالد في صباه القضارف، والحبشة، ثم الأبيّض حيث عمل بالتجارة. كان ختمي الطريقة في بادئ أمره ثم ما لبث أن سلك الطريق الخلوتية. بايع المهدي مبكراً في قدير عام ١٨٨٢ م، وكان أميراً للجلّابة في فترة حصار مدينة الأبيّض وتحريرها. كان من أمراء تحرير الخرطوم البارزين حيث عيّنه المهدي أميراً على المدينة بعد تحريرها كما أوكل إليه من قبل أمانة بيت مال المسلمين وكلّفه بمهمة حفظ الغنائم. ساند إخوانُه المهدية ومنهم الأمير حاج حامد الذي استشهد ببرّي في معارك تحرير الخرطوم. استشهد اثنان من أبنائه في معركة شيكان وهما الحداد وفتح الله. من أشهر أبنائه الأمير محمد عثمان الحاج خالد الذي شهد مواقع المهدية المختلفة وقاتل في صفوفها وبعث به الخليفة كسفير إلى إمبراطور الحبشة منليك.. وهو والد الأستاذ الدرديري محمد عثمان القطب السياسي الاتحادي المعروف صاحب الدور المهم في حركة اللواء الأبيض لاحقاً ضد الاستعمار البريطاني. بعد وفاة المهدي كان حاج خالد العمرابي من المقرّبين من الخليفة عبدالله وظل مخلصاً لبيعته

الأمير ميرغني صالح سوار الذهب والأمير فضلو أحمد، البديرية الدهمشية بزعامة الأمير النورعنقرة وزمرة من أقاربه. لقد كان سودان القرن التاسع عشر مكتمل القسمات بكل تشكيلاته الاجتماعية والقبلية الموحدة على أرض كردفان الغرة [1].

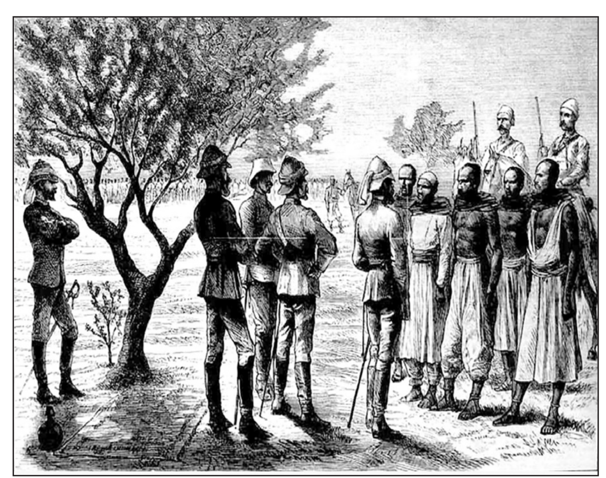
أطل شهر أكتوبر بسمائه الخالية من السحب وشمسه القائظة التي لم تبخل على الحملة الغازية بلهيبها الحراق. في تلك الأثناء، كان هكس يتقدم بقواته في نفس المسار الذي توقعه جهاز الاستخبارات المهدوي. ولعله ذات المسار الذي خطط له الإمام محمد أحمد المهدي مع خلفائه وأمرائه في مجلس شEوراه الذي ظل في حالة انعقاد مستمر بين معسكرات مقاتليه المتاخمة لتبلدية الرئاسة بأطراف مدينة الأبيض. نسبت المصادر الإنجليزية لجهاز استخبارات الثورة المهدية استحداثه وسائل جديدة في التكتيكات المتبعة لمواجهة الحملة الغازية. تحدثت جميعها عن تجنيد عدد مقدر من أدلاء الجيش الغازي ممن لهم خبرة بدروب رمال كردفان الوعرة بواسطة أمراء المهدية ومن ثم التنسيق مع هؤلاء لاستدراج هكس نحو مسار الرهد.. كازْقيل.. الأبيض. وبافتراض صحة ما انتحت إليه تلك المصادر يبقى من الموضوعية بمكان التطرق لخطة استخباراتية اتفق على تفاصيلها كل من «أبوقرجة»، «حمدان أبوعنجة»، «عبدالحليم مساعد» و«عمر الياس أم برير» بحسبان أن هؤلاء كانوا أبرز أمراء الطلائع المكلفين بمناوشة الحملة الغازية في أثناء تقدمها نحو الأبيض. وبإعمال المزيد من التحليل المنهجي على وقائع الأحداث، تقودنا النهايات المنطقية لتلك الفرضية نحو واقعة افتراضية أخرى وهي طرح الأمر برمته أمام المهدي ومجلس شُوراه بالأبيّض من ثم المصادقة النهائية على الخطة من هناك.

للمهدية حتى توفي في العام ١٩٠١.

انظر «**موسوعة القبائل والأنساب في السودان**»، للدكتور عون الشريف، ج ٣، ص٧٣٧-٧٣٨. انظر أيضاً: **مذكرات يوسف ميخائيل**، تحقيق الدكتور أحمد إبراهيم أبوشوك،الناشر: مركز عبدالكريم ميرغني، أم درمان، السودان، ٢٠١٧.

1 أكد زلفو مشاركة كل القبائل السودانية التالية في موقعة شيكان: من قبائل كردفان ودارفور: الغديات، الرزيقات، الحَمر، المسيرية، المجانين، البديرية، الحوازمة، بني جرّار، الجِمع، التعايشة، الجوامعة، المعاليا، دار حامد، الكواهلة، الكبابيش. ومن قبائل وسط السودان: كنانة، دغيم، العمارنة، الحسنات، اللحويين. ومن قبائل شمال السودان: الجعليين، الدناقلة والبديرية الدهمشية. انظر **شيكان: تحليل عسكري لحملة الجنرال هكس**، الرائد عصمت حسن زلفو،كرري للطباعة والنشر، السودان، ١٩٨٤.

مسألة تعاون الأدلاء مع الثوار هذه، حاولت الصحافة البريطانية اتخاذها كمشجب لتعلق عليه النتائج الكارثية التي انتهت عليها الحملة ولكن الذي لا يمكن أن يتسرب إليه شك من الوقائع هو أن القرار النهائي لسلوك هذا المسار كان بيد الجنرال البريطاني هكس وأركان حربه من ضباط الحملة الغازية[1]. ولعل العامل الموضوعي الآخر والذي أسهم في قرار هكس المار ذكره، كان طمعه في انضمام الملك «آدم ام دبالو» لحملته بجهات الرهد، آملاً ضرب الثورة المهدية من صفوفها الداخلية. في طوال فترة تقدمه بهذا المسار من شات نحو الرهد، لم تقع عينا هكس على شيء سوى القرى المهجورة الخالية من مظاهر الحياة والآبار التي أُهيل الغبار على مائها حتى لم يعد لدفقه أي أثر. لا شيء يدركه البصر سوى شجيرات متفرقة من الصمغ العربي بأشواكها الحادة ورمال موحشة لم تألف مثلها أعين الغزاة. وإستبد الهوس بوليام هكس وحاصره الفزع من فكرة تعاون أدلائه مع قوات أصحاب الأرض فإستعمل عليهم حراساً أشداء نهاراً وأوثق أعناقهم بالسلاسل ليلاً[2].



الجنرال وليام هكس يقيّد أعناق الأدلّاء بالسلاسل

1 أورد نيكول مسار الحملة النهائي حسب محرَّر رسمي صادر من الجنرال هكس ويشمل ذلك باختصار: شات.. الرهد.. كازْقيل.. ومن ثم الانقضاض على مدينة الأبيّض من جهة الجنوب. انظر: **مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون**، مصدر سابق، ص ١٧٥.

2 **Armies Of God: Islam and Empire on the Nile**, 18691899-, by Dominic Green. Publisher: Century Random House, United Kingdom, 2007, p.163.

ومع توغل الليل نحو ربعه الأول، كان خيالة الأمير «أبوقرجة» ينظمون صفوفهم للارتكاز خلف سترٍ حصين من غابات السنط وشجيرات الصمغ المتناثرة بفيافي كردفان. كان الهدف واضحاً ومحدداً، وهو تنفيذ تعليمات المهدي التي أوصاهم فيها بمناوشة العدو بالنيران المصوبة من على البعد والإجهاز على كل من تخلف من تشكيل جيش العدو من دون الدخول في مواجهة مباشرة مع القوة الأساسية ومن ثم الانسحاب السريع تحت غطاء الظلام الحالك. لقد كانت حملة هكس تواجه مجموعة أشباح! ولن يلبث ضوء الشمس كثيراً قبل أن يتمدد بأشعته الحارقة ليكشف عن أجساد الضحايا منهم والذين تساقطوا بفعل الحفل الليلي الصاخب الذي أقامه فيهم رماة الأنصار. مشهد تراجيدي كهذا، لم يكن هناك من هو أقدر على نقل تفاصيله من القاص والمؤرخ البريطاني دومنيك غرين حين قال:

«استمتع المهدي بمشاهدة العدو وهو يمشي مترنحاً نحو الفخ الذي نصبه له. وبينما قامت طلائع الاستكشاف المهدوية بردم كل الآبار بمسار هكس وجيشه، كانت هناك قوة عسكرية صغيرة قوامها ٣٠٠٠ مقاتل أنصاري تقتفي أثرهم من الخلف فتقوم بقطع خطوط الإمداد وتلسع بنيرانها المصوبة من البنادق كل العساكر المتأخرين في ذيل الجيش. لقد عزم المهدي على هزيمة هكس باستخدام سلاح الجغرافيا. سيدمر الجيش الغازي المترنح نفسه في رحلة بحثه عن المياه. وعندما تنهار قواه كفيلٍ ضخم أجهده التعب، ستقوم القوة الأساسية لجيش الأنصار بالإجهاز عليه».[1]

تلك الإستراتيجية القتالية المتقدمة التي أدار بها المهدي معركته مع هكس، أفلحت في استثارة الحنق من مكامنه الخاملة في صدر الجنرال البريطاني والذي بدا نافد الصبر، كسير الأمل، مملوءاً بما يكفي من الرغبات الجارفة في التشفي والانتقام من عدوه الذي بدا متفوقاً عليه بعدة أصعدة منذ الوهلة الأولى. وليس أدلّ على ذلك من شيء بمثل كلمات خطابه الذي كتب فيه لزوجته صوفيا قائلاً:

«يا للهول.. الأجواء هنا تتقيّظ بالحرارة لأبعد حد. لا أستطيع أن أكتب لك كثيراً

1 دومنيك غرين، مصدر سابق، ص ١٦٣.

اليوم. كل ما أتمناه هو ألا يُسقط المرض رجالي. ليس لدي ما أستطيع حملهم على ظهره سوى بعض الجمال التي نستخدمها لترحيل الأمتعة. آه لو رأيت وجهي! لقد أصبح ممتلئاً بالشقوق والبثور. اللهيب اللافح يغطيه تماماً ولا يتخلل ذلك إلا الدمامل المنتشرة فيه. كم أتمنى أن يتقدم المهدي بقواته ليلقانا هنا. آه.. لو حالفني الحظ ووقع في قبضتي. عندها سأعلقه ليُصلب في غضون عشر دقائق فقط»[1].

استدرجت رمال كردفان أقدام الجنرال هكس وقواته نحو التوغل في متاهاتها بما يستوجب ذلك من التصميم. بيد أن ما ترتب على ذلك لم يكن يتفق بأي قدر مع ما كان يحدو هكس من أمل. فمصادر المياه بدأت تتجه إلى الشح كلما تقدمت قواته للأمام. واقترن كل ذلك مع مناوشات رماة «أبو قرجة» المتكررة حين يسدل الليل أستاره ويصدر القائد الإنجليزي أوامره لجنوده بقضاء ليلتهم في العراء لحين مواصلة المسير بصباح اليوم التالي. وبينما كانت الحملة الغازية على بعد بضعة أسابيع من الرهد، حاول هكس جاهداً استنهاض عزم سكن نفسه لتحقيق أهدافه التي قطع من أجلها الآلاف من الأميال، مغالباً بأقصى ما يختزنه من جهد إحباطاته المتنامية بفعل تحالف الأرض وجغرافيتها الوعرة مع إنسانها الذي خبر دروبها وما ترتب على ذلك من اصطفاف شعبي مناطقي مع الثورة المهدية ضد جحافل الغزاة. وهو ذات الاصطفاف الذي أعقبه عمل استخباراتي على أعلى مستوى من قبل أصحاب الأرض لاختراق صفوف هكس والحصول على ما يريدونه من معلومات من مخابئها الحصينة. وفي ذلك تحديداً كتب الجنرال البريطاني لزوجته في أواخر سبتمبر، قائلاً:

«لابد أن أوظف كل أفكاري وطاقاتي للتركيز على كل ما من شأنه أن يؤدي لسحق محمد أحمد المهدي. أتوقع تحقيق ذلك بشكل كامل على الرغم من كل ما صادفني من عثرات. كل الدلائل تشير إلى أن محمد أحمد على إحاطة تامة بكل ما انتويت عليه من تحركات. وهي ذات التحركات التي كثيراً ما ظننت - مخطئاً - أنها ستبقى حبيسة بطي

1 M. W. Daly (ed.), **The road to Shaykan: letters of General William Hicks Pasha written during the Sennar and Kordofan campaigns, 1883**. (Occasional Papers Series [Durham], No. 20.) [iv], Durham: Centre for Middle Eastern Studies, University of Durham, 1983,p.90.

الكتمان. لولا علمه المسبق بكل تلك التحركات، لما أرسل إلينا قوات لمواجهتنا كما فعل الآن. ولكن لأعلمك فقط بالطريقة التي يتدافع فيها شعبه الذي يُؤْمِن به كقائد لنصرته، سأروي لك هذه القصة. قبل أن أغادر مدينة الدويم بيومٍ واحد، اتاني الرائد إيفانز الذي يعمل عندي مترجماً وضابطاً للاستخبارات أيضاً كما يحلو له أن يسمي نفسه.. أتاني في خيمتي ممسكاً برجلين مسلحين بالرماح أُخذا كأسيرين بواسطة قواتنا القائمة بدور الطلائع للحملة. أحدهما قال أنه كان جندياً حكومياً أسرته قوات المهدي بعد دخولها لمدينة الأبيض، بينما كان الآخر رجلاً مُسترقاً. أما الجندي الذي كانت بشرته تميل للسواد فلا شك لدي في أنه كان أذكى الرجال الذين قابلتهم في ذلك الجزء من العالم. أخبرني ذلك الرجل أنه هرب من الأبيض قبل ثمانية أيام، وجاد عليّ بمعلومات كثيرة قبل أن يتعرف عليه عدد من جنودي ممن كانت لهم سابق معرفة به. تم تجنيده على الفور في إحدى الوحدات العسكرية وتقدم الرجل مع جيشنا لمسيرة ثلاثة أيام. وبنهاية اليوم الرابع، انتهب ذلك الرجل جملاً وأسرع به عدواً نحو الأبيض حاملاً معه ما دفعناه له من مرتب شهرين مقدماً، بندقية، ١٢٠ وحدة من الذخيرة، الزِّي الرسمي الذي منحناه له بالإضافة للجمل الذي استعمله للهرب. لقد كان ذلك الرجل جاسوساً للمهدي واستطاع جمع كل المعلومات ومن ثم تمليكها لرجاله. إيفانز أخبرني لاحقاً بأنه سمع هذا الرجل يسرد قصصاً عديدة لمجموعة من عساكرنا عن ثلاثة رجال حاولوا اغتيال المهدي طعناً بالسكاكين. ولكن أسلحتهم لم تكن قادرة على اختراق جسده. هنالك عدد كبير من رجال الاستخبارات عندي من الذين يفتقرون للذكاء الذي يليق بمهمتهم. كيف تَرَكُوه ليشيع مثل هذا الحديث وسط جنودي الجهلاء لأربعة أيام متتاليات؟»[1].

عندما وصل هكس بقواته إلى مشارف الرهد في ٢٤ أكتوبر ١٨٨٣، انثال إلى نفسه دفق من الأمل بمقدارٍ يماثل دفق مياه خور «أبو حبل» على أرض الرهد الممتلئة بالخضرة وعيون الماء التي تسد منافذ البصر. وأمضت الحملة الغازية ستة أيام هناك في انتظار قدوم منشقين عن المهدي وانضمامهم لمسيرتها نحو الأبيض. ومضت الأيام الستة من دون أن

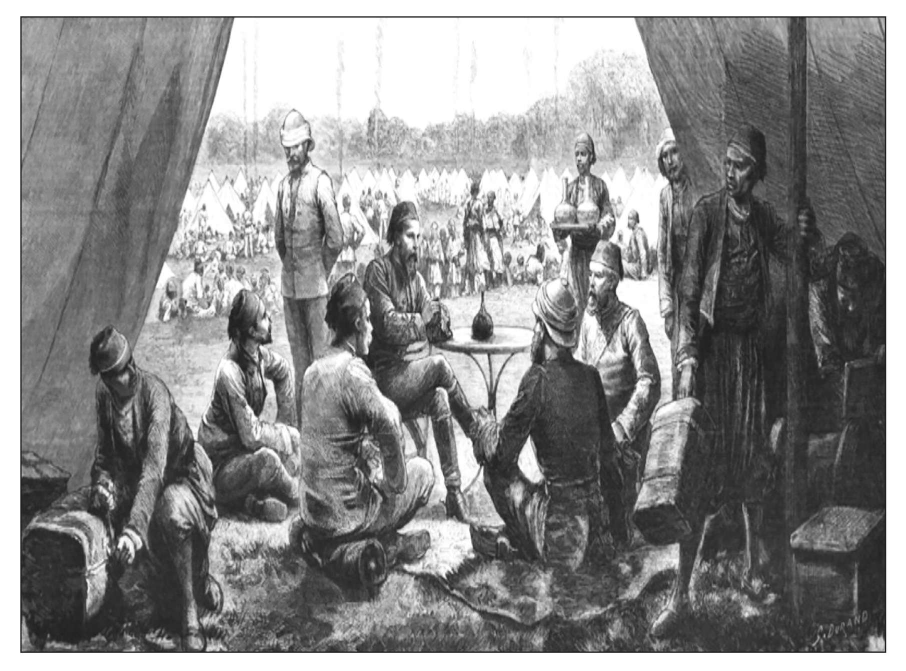
1 أوراق هكس، ص٩٩.

يظهر أحد! لم يكن أكثر ضباط الحملة الأوروبيين تشاؤماً ليتوقع ما كان ينتظرهم في الرهد من مفاجآت مفزعة. كعادتها، قامت قوات الأمير محمد عثمان أبوقرجة[1]- التي كانت في انتظارهم هناك - بالدخول في مناوشاتها الخاطفة المعهودة معهم. وصوب رماة الثوار بنادقهم نحو معسكر الحملة فأصلوه ناراً حامية. وانطلقت رصاصة محكمة لتخترق خيمة الجنرال البريطاني هكس وتصيب إحدى أرجل كرسيه الذي كان يجلس عليه فتهاوى به إلى الأرض. وقبل أن يستفيق القائد الغازي مما تغشاه من ذهول ليصدر أوامره بالتصدي لقوات أبو قرجة، كان الأخير قد انسحب برجاله بسرعة البرق تاركاً من ورائه بضع ألاف نسخة من منشور المهدي للحملة الغازية الذي يدعوها للتسليم والاستسلام على نحو ما جاء نصاً في آخره:

«من سلم يسلم، وأن أبيتم إلا الجحود، فأُسْوَتكم بمن سبق من الجنود».

1 **الأمير محمد عثمان أبوقرجة (١٨٣٩-١٩١٦)**: هو محمد بن عثمان «الملقب بالعربي» بن محمد بن الحاج الشيخ إدريس الجابري. وُلد بالعام ١٨٣٩ بقرية ود شلعي بمحاذاة النيل الأبيض. ينتمي لقبيلة الجوابرة المنتشرة بين مناطق المحس والدناقلة بشمال السودان. نزح والده من منطقة حفير مشو بالشمالية نحو منطقة النيل الأبيض فاستقر بـ«ود شلعي» ومنها انتقل إلى «القطينة» حيث شب محمد وأخواه الحسن ونصر الملقب بـ«كاشات». ومنها انتقلت الأسرة لقرية «أم غنيم» على ضفاف النيل الأبيض. كان محمد عثمان في بداية أمره تاجراً ناجحاً يجلب البضائع من وإلى جنوب السودان. ويرى الأستاذ الأديب الراحل مكي أبوقرجة.. أن لقب «أبو قرجة» قد التصق بمحمد عثمان منذ عهد تجارته في الجنوب و«القرجة» في اللهجة السودانية العامية تعني العصا. كان من أوائل المنضمين للثورة المهدية في أولى مراحلها مع أخويه الحسن ونصر. أما نصر فقد استشهد في مواجهات قوات المهدية مع قوات الجنرال البريطاني غردون إبان حصار الخرطوم، بينما قُتل الحسن في معركة جنس الشهيرة مع القوات البريطانية في شمال السودان في العام ١٨٨٥ . يعد الأمير محمد عثمان أبوقرجة من أهم صناع أحداث الثورة المهدية، فهو الذي قاد طلائع الفرسان التي أرهقت قوات الجنرال البريطاني وليام هكس وحرمتهم من النوم قبل معركة شيكان.. وهو الذي قاد مع ود النجومي عملية حصار وتحرير مدينة الخرطوم. بعد وفاة المهدي، عيّنه الخليفة عبدالله عاملاً إدارياً وأميراً عنه بشرق السودان في ١٨٨٦ ، بينما أبقى على عثمان دقنة عاملاً عسكرياً بالمنطقة ذاتها. ونجح «أبوقرجة» في تطييب خواطر بعض القبائل المتضجرة من الشدة التي أخذهم بها عثمان دقنة فأخذ الناس بالرفق والسياسة. وكلّفه الخليفة بعدها بمهام إدارية مختلفة في بربر والاستوائية. ولكن سرعان ما سعى الوشاة بين رفيقي سلاح الثورة الأوائل فأوغروا صدر الخليفة عليه. ونُفي أبو قرجة إلى منطقة الرجّاف بجنوب السودان في ١٨٩٢ . عمّر الأمير محمد عثمان أبو قرجة طويلاً وتوفي بقرية «أم غنيم» في ١٩١٦ تاركاً من ورائه أرتالاً من الروايات السماعية التي تناقلها أحفاده، تؤكد في مضمونها أن تضجّره مما حاق به من أذى لم يغير من ولائه للثورة المهدية وإرثها حتى الممات.

انظر: **صولة بني عثمان في ملاحم الثورة المهدية**، الأستاذ مكي أبو قرجة، دار صفصافة للنشر، القاهرة، العام ٢٠١٤.



الجنرال وليام هكس وأركان حربه بمنطقة الرهد قبل هجوم قوات الأمير محمد عثمان أبو قرجة.

في الرهد، اتضح جلياً أن الحرب المعنوية كانت هي الميدان الآخر الذي تفوق فيه الإمام محمد أحمد المهدي على خصمه البريطاني.وعلى الرغم من توجيهات هكس الصارمة بحرق كل منشورات المهدي بعد ذلك، إلا أنها كانت قد أدت ما أراده له صاحبها من دور على أكمل وجه. وليس أدل على ما أعقب ذلك من أثر بمثل ما كتبه الكولونيل البريطاني «فركهار» في مفكرته عن تلك الحادثة تحديداً:

«تحدثت اليوم مع المراسل الصحفي أودونفون وسألته عن أين يتوقع أن يرى نفسه في الأيام الثمانية المقبلة، فأجاب قائلاً: في العالم الآخر الذي يعقب الموت!»[1]. أما الموقف الآخر الذي يعضد الأثر المعنوي الساحق لمنشورات المهدية وسط جنود هكس من الألبان والشركس والمصريين فقد تجسد بصورة أكبر فيما وجده بعض الأنصار الذين كانوا يقتفون أثر جيش هكس، إذ وجدوا أن أحدهم قد كتب على إحدى ورقات تلك

1 نيكول، مصدر سابق، ص ١٨٣.

الإنذارات: «إني آمنت بربكم فاسمعون»[1].

أدرك الأمير عبدالحليم مساعد أن الجيش الغازي الآن قد صار في مهب رياح قوات الثورة المهدية بحسبان أن القوة الأساسية لجيش أصحاب الأرض ما زالت تعسكر بجحافلها تحت قيادة المهدي نفسه بأطراف مدينة الأبيض التي لا يفصلها عن الرهد سوى خمسين ميلاً تقريباً. وتبعاً لذلك، امتطى الأمير عبدالحليم جواده وعدا به مسرعاً ليرفع تقريراً مفصلاً للإمام المهدي في الأبيض حول تضعضع الحالة المعنوية للجيش الغازي طالباً منه الإذن بالانقضاض عليهم بمن معه من قوات الطلائع جازماً بمقدرته على سحقهم هناك. ولكن القائد أمره بالرجوع للارتكاز بقواته في نفس الأمكنة التي كانوا فيها. ويرى المؤرخ البريطاني نيكول أن رفض المهدي لفكرة الأميرعبدالحليم مساعد مردّه أنه كان يخطط للمعركة النهائية بوسائل أكثر براعة وعبقرية وبصورة تمكنه من إشراك كل القوى البشرية المقاتلة تحت إمرته[2]. وتعرض الخبير العسكري العميد السر أحمد سعيد لذات الواقعة - مع اختلاف طفيف في التفاصيل - في سِفره القيم «الحرب الشعبية تحت رايات الإمام المهدي والزعيم ماو» جازماً بأن رفض المهدي للتعجيل بالمواجهة الحاسمة مع قوات هكس في منطقة الرهد إنما يعبر في جوهره عن تخطيط إستراتيجي سليم لقائد كان يدري ماذا يريد أن يفعل بعدوّه وبوسائل معينة ومحددة أفلح في توظيفها من أجل انتصاره النهائي الذي سيجيء بمثلما خطط له، مدوياً وحاسماً، وفي ذلك تحديداً قال العميد السر أحمد سعيد:

«لا أتصور أن تكون هناك توجيهات عمليات أكثر وضوحاً وتكشف عن مخطط ذكي وعبقري يعرف بالضبط ما يريده من العدو مع كل خطوة يتقدمها ذلك الحشد الهائل نحوه. يؤكد هذا القول حادثة صغيرة وهي أنه حينما رأى الأمير عبدالحليم مساعد قوات الحملة تتقدم بكل ثقلها وأيقن أنها العدو الذي يبحث عنه وبشجاعته المعهودة

1 أوراق السيد علي المهدي، مصدر سابق.
هذه الواقعة قد تكون خضعت لعملية «أسطرة» تراثية كغيرها من الوقائع التي يتناقلها الموروث الشعبي الوطني حول حوادث الثورة المهدية.. ولكن إمكانية حدوثها بالفعل ليست بمستبعدة. والراجح أن السيد علي المهدي قد استجوب بنفسه عدداً ممن حضروا معركة شيكان وشاركوا فيها بصف الثورة المهدية.

2 نيكول، مصدر سابق، ص ١٨٣.

وبحثه عن الشهادة أراد أن يهاجمها فتدخل الأمير أبوقرجة ومنعه من ذلك لأن تعليمات المهدي واضحة ولا تقبل أي تعديل وتُنفذ كما هي حتى يصدر منه توجيه آخر. لم يقتنع الأمير عبدالحليم مساعد فأرسل كاتبه حسن حبشي يطلب الإذن من المهدي ليسمح له بالهجوم على قوات الحملة!!! لم يقبل المهدي ذلك بل رفضه وزجر حسن حبشي وعنفه على ذلك وأمره بالتقيد بالتعليمات بدقة حتى يرسل إليه الأوامر بالاشتباك. كان ذلك يعني بمنتهى البساطة أن المهدي يعرف ماذا يريد أن يفعله بعدوه ومتى وأين وبأي كيفية.. وكل ذلك بتخطيط محكم وتنفيذ صارم»[1].

عندما توسط قرص الشمس سماء اليوم الأول من نوفمبر، خرج الإمام المهدي على قيادة الجيش من مدينة الأبيض قاصداً شيكان، تاركاً من خلفه الأمير عبدالله ود جبارة حاكماً على المدينة. استقر رأي القائد على اختيار غابة شيكان والمساحة الفسيحة المنبسطة أمامها كميدان للمواجهة الحاسمة مع الغزاة. ووصل القائد الشاب بقواته لبركة «المصارين» قبل جيش هكس والذي فشل أيضاً في الوصول إلى منهل البركة بعد احتلاله بواسطة قوات الأمير محمود عبدالقادر التي أرسلها المهدي لذاك الغرض. وأصبح هكس في مأزق كبير ولا سبيل أمامه الا التقدم نحو كازْقيل ومنها إلى غابة شيكان. وبدأ فعلياً بالتحرك تجاهها من منطقة «مصران أم برة». عندها أمر المهدي بإرسال الطلائع من أصحاب الخيول لإحداث جلبة عظيمة ليوهم هكس بأن الهجوم الرئيسي علي وشك الوقوع مما اضطر هكس للتوقف وبناء زريبة مؤقتة. وفور تأكده من ان هكس سيقضي ليلته هناك، أصدر الإمام المهدي أوامره لفرسان الأمير «أبو قرجة» للقيام بعملية نقل ضخمة لقوات الأمير حمدان أبوعنجة من المشاة بواسطة الخيول إلى غابة شيكان حيث سيستغلون سواد الليل كغطاء للارتكاز. وقام بتنسيق العملية كل من الزاكي طمل والنور عنقرة. وتم حفر عدد من الخنادق حول الغابة. تلك العملية العبقرية التي سيكون لها التأثير الأكبر في إبادة حملة هكس. حدث كل ذلك بينما كان جيش المهدي الرئيسي يبعد حوالي الـ ١٥ ميلاً عن موقع هكس وجنوده!.

1 الحرب الشعبية تحت رايات الإمام المهدي والزعيم ماو، العميد السر أحمد سعيد، الدار العالمية للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٥، ص١٧٢-١٧٣.

في ٤ نوفمبر ١٨٨٣، عقد المهدي مجلس شوراه الأخير بحضور الخلفاء وكبار الأمراء حيث تقرر إحكام الكمين لحملة هكس في أرض شيكان. هناك سيختبئ رجال «أبوعنجة» تحت أشجار غابة شيكان، بينما كانت مهمة الأمير أبوقرجة وقواته هي مواصلة عمله في مطاردة جيش هكس من الخلف من خلال الاشتباكات الخاطفة لدفعه دفعا إلى شيكان حيث الكمين القاتل.

كدأبها دوماً، أقامت قوات الأمير أبوقرجة حفلها الصاخب الأخير على مقربة من زريبة رجال هكس، حينما توغلت ليلة الأحد ٤ نوفمبر ١٨٨٣ نحو مشارف الانتصاف. بحرصه المعهود على تنفيذ تعليمات قائده، أمطر الأمير محمد عثمان أبوقرجة ورجاله حملة هكس بوابلٍ حارق من الرصاص أشاع في صفوفهم ما خططوا له من هلع واضطراب وإنهاك حاسم لقوى عساكرهم قبل الضربة القاضية في اليوم الذي يليه.. وهنا بعض ما نقله المؤرخ البريطاني فيرغس نيكول عن طبيعة الأجواء السائدة في معسكر هكس بتلك الليلة تحديداً:

«كانت ليلة الأحد ٤ نوفمبر ١٨٨٣.. ليلة حافلة بالكآبة والوحشة. كانت ليلة الحرمان، الرعب والدمار والموت في هذا الجانب. بيد أن الليلة ذاتها، كانت ليلة النصر المؤزر بالجانب الآخر. (هذه أوقات سيئة).. هكذا كتب الرائد آرتر هرلث في مفكرته التي استطرد فيها قائلاً: (نحن الآن في غابة ما.. جميعنا محبطون لأبعد درجة. أمر الجنرال هكس الفرقة الموسيقية بعزف أهزوجة ما آملاً أن تمنحنا الموسيقى دفقاً من الحياة. ولكن الفرقة أوقفت عزفها بعد فترة وجيزة لأن الرصاص إنهمر علينا من كل الاتجاهات. وتساقط تبعاً لذلك الرجال ومعهم الجمال والبغال)»[1].

وفي يوم ٥ نوفمبر ١٨٨٣، أمّ المهدي جيشه لأداء صلاة الفجر وقُرِئ حزبٌ من القرآن مع «الراتب» حتى ألقت الشمس بطلائع خيوطها الذهبية المتفرقة على تفاصيل كل شيء هناك، فأحالت الظلمة التي كانت تردد آخر أنفاسها إلى قبسٍ من الضياء. نهض من فروته مسرعاً، ذلك الشاب ذو التسعة وثلاثين عاماً بقامته المائلة إلى طولٍ يفوق الربعة

1 نيكول، مصدر سابق، ص ١٨٥.

بسنتيمترات قليلة. كانت عمامته كعادتها.. ناصعة بيضاء تغطي شعر رأسه بالكامل وقد انسدل منها طرفٌ طويل ليستدير حول أسفل وجهه الأسمر دون أن يحجب لحيته التي بدت على الرغم من كثافتها، على درجة رائعة من التهذيب. كان يتزيا بذات الرداء الذي يرتديه أدنى جنوده وأرقهم حالاً.. الجبة البيضاء برقاعها الحمراء والخضراء المنتشرة على أطراف قماش من الدمور مع السروال الذي يرتفع إزاره فوق مستوى الكعبين ببضعة مليمترات. ولما جئ بجواده الأشهب، تقدم نحوه راجلاً بخطوتين ثم قفز على صهوته وسيفه ما زال قابعاً في ذلك الغمد الذي تدلى من اليسار ليلامس جسد الفرس الضخم. تأمل رجاله الذين تراصوا أمام عينيه المتوهجتين بانتظام بديع. رايات جيشه الثلاث.. الحمراء والخضراء والزرقاء.. تزخم البصر وقد غازلتها رياح نوفمبر الكردفانية الدافئة كالعاشق الذي يغازل سرباً من الحسان. ها هي الأرض التي تعرف رائحة عرق أبنائها جيداً.. قد تغطت بأرتالٍ من الخيل والرجال، تؤزها النقارة أزاً شارف بقوته بأس الزلزلة. الأمير عبدالرحمن النجومي في مقدمة الراية الحمراء يتصاهل فرسه وكأنه يناجي جواد الأمير موسى ود حلو في مقدمة رايته الخضراء. جراب الرأي الأمير يعقوب ود تورشين وقف شامخاً يتقدم الراية الزرقاء كتبلدية راسخة الغرس. الأمراء: حمدان ابوعنجة والزاكي طمل والنور عنقرة وميرغني صالح سوار الدهب والحاج خالد العمرابي بسحناتهم المتفاوتة.. كانت جيادهم تجوب صفوف مقاتليهم الأمامية بحماسة ملتهبة. اليوم إستوى ما غرسه السودانيون من جهد بأزنادهم الفتية لمجابهة الغزاة.استوى كل شيء وكأنه زرع مخضر السوق، مؤتلق الأوراق، يبهج البصر ويغزو ببهائه الأعين والحدقات. كانت تلك اللحظة التاريخية الحاسمة تحدث عن نفسها بما يكفي فلم تترك للقائد الكثير مما يمكن قوله.و تقدم المهدي بجواده إلى الأمام وهو يغالب صهيله المتعالي ووقع حوافره الحميسة مخاطباً جيشه بصوته الجهوري ولهجته الواثقة:

«من تأخر منكم ليصلح نعله فلن يدركهم أحياء». ثم أخذ موقعه وهو لا يزال على صهوة جواده بين الرايتين الخضراء والزرقاء وقال: «الله أكبر.. هيا توكلوا على الله».. وتلى قوله تعالي: «إن هؤلاء متبرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون» فحقت عليهم بقية الآية

«فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين»[1]. ثم أوصاهم بترديد دعاء الحرب ثلاثاً وانصرف الأمراء براياتهم للارتكاز في مواقعهم المرسومة حسب الخطة.

وصلت الحملة الغازية إلى قدرها المحتوم بشيكان في حوالي التاسعة صباحاً، فكانت كالفريسة التي تتقلب بمصيدة. قوات الأمير محمد عثمان أبوقرجة تطاردها من الخلف فلم يتذوق جنود هكس بسبب ذلك طعماً للنوم لأيام متتابعات، بينما الراية الزرقاء بقيادة الخليفة عبدالله والأمير يعقوب كمنت في ميسرة الجيش في حالة ارتكاز واستعداد للهجوم. وأحكمت الراية الخضراء بقيادة الأمير موسى ود حلو حصار ميمنة حملة هكس. وأما الراية الحمراء بقيادة الأمير عبدالرحمن النجومي والخليفة شريف فقد كانت تسد منفذاً ضيقاً بجوار غابة شيكان.

وحين وصل هكس بجنوده إلى الشراك المنصوب، قام بإعادة تنظيم جيشه المتقدم بتشكيل المربع الإنجليزي المعروف إلى ٣ مربعات على شكل حدوة حصان، ثم أرسل طلائع الاستكشاف نحو غابة شيكان حيث كان يختبئ رجال حمدان أبوعنجة، فأبيدت طليعة الاستكشاف بأكملها عند شجرة البروجي الشهيرة. وسقط جيش هكس بمربعاته الثلاثة بين كماشة هجوم رايات جيش المهدية الثلاث. وقام رجال «أبوعنجة» بإطلاق كثيف للنيران لتسهيل عملية الاقتحام. ولنترك هنا وصف تفاصيل ذلك الالتحام المحتدم للمؤرخ الإنجليزي فيرغس نيكول والذي قال:

«لقد كان الانقضاض المفاجئ للسودانيين على قوات هكس مثيراً للرعب في صفوفهم، فبينما تراجع رجال أبوعنجة للوراء قليلاً، تقدم الآلاف من حملة الرماح ليأخذوا مواقعهم، القوة الأساسية لجيش المهدية كانت بقيادة الأمير عبدالرحمن النجومي والأمير إبراهيم الحاج الترجماوي والخليفة علي ود حلو والخليفة عبدالله. تقدم هؤلاء وقاموا باختراق غابة شيكان نحو جيش هكس بقلوبٍ لا تعرف الخوف إطلاقاً. ومن الخلف أتى حملة السيوف والرماح من رجال قبائل البقارة الذين كانوا يطاردون

1 رواية تقدُّم المهدي بجواده بين الرايتين الزرقاء والخضراء وتلاوته للآية الكريمة المار ذكرها قبل موقعة شيكان وردت في أوراق السيد علي المهدي.

هكس لما يقارب الشهر، ولكن المفاجأة الصاعقة أتت الآن من داخل تشكيلات جيش الحكومة بهجوم مباغت زرع الفوضى والارتباك بقلب طوابير هكس وجيشه. لقد اختبأ الثوار بداخل خنادق مغطاة بأسقف خشبية. وما إن تجاوزهم الضباط والمربع العسكري الأول إلا وبرز لهم الأنصار من الخنادق وبدأوا طعنهم من الخلف»[1].

رواية نيكول لم تختلف كثيراً عما قاله الروائي والمؤرخ البريطاني دومنيك غرين في وصفه الدقيق للحظات الاشتباك الحاسمة بين الجيشين.. فلنترك مجالاً مماثلاً له لينقل لنا بعض معالم ذلك المشهد:

«الله أكبر..

عندما ارتفع صوت المهدي بالتكبير لمرات ثلاث إيذاناً بالهجوم، كانت شمس الظهيرة في قمة توهجها، وكانت المياه الجارية على مرمى البصر تماماً. عندها ارتمت على مسامع جنود هكس جلبة أصوات منطلقة نحوهم بسرعة.. صيحات مفزعة ومفاجئة وكأنها سيلٌ جارف جاء منحدراً من قمة جبل ما. سمعوا زئير الأنصار الذي كان يشابه في شدته هدير المحيطات قبل أن يروا رماحهم عالية. وتدافع آلاف الرجال من مختلف القبائل من خلف الأشجار وقد علا منهم الهتاف. الأرض انشقّت من تحت أقدام الجنود المصريين لتكشف عن مقاتلي الأنصار الذين كانوا يختبئون بتجاويف حفروها بباطن الأرض وغطوها بأفرع الأشجار، فلما عبرت قوات هكس فوق رؤوسهم.. قفز هؤلاء ونالوا من أعدائهم طعناً بالحراب في ظهورهم. لقد تلاشت كتيبة هكس القيادية وكأنها قشة عصفت بها الرياح»[2].

أُبيد جيش هكس عن آخره في معركة لم تستغرق أكثر من ١٥ دقيقة. ذلك كان زمن الالتحام المباشر بينما قدرت بعض المصادر زمن المعركة منذ تراءى الجيشان ما بين الـ٤٥ والـ٦٠ دقيقة. وسقط هكس قتيلاً ومعه أركان حربه وخيرة ضباطه. وبينما تضاربت الروايات الشعبية المتواترة عن كيف قُتِلَ هكس، فبعضها تقول أن الأمير ود نعمان أمير

1 نيكول: مصدر سابق، ص١٨٦.

2 دومنيك غرين، مصدر سابق، ص ١٦٤.

قبيلة «المجانين» قد انتاشه برمح فأرداه قتيلا[1].. والبعض الآخر تحدث عن مقتله بسيف الخليفة شريف أو الأمير محمد عوجة إلا ان الراحل الأستاذ مكي أبوقرجة يعرض رواية مختلفة من خلال سفره القيم (صولة بني عثمان في ملاحم الثورة) حين يقول: «في أعقاب المعركة اندفع فرسان الأمير أبو قرجة يطاردون فلول الجيش المندحر، فقد كان موقعهم في مؤخرته. أما هو فقد اندفع بحصانه يبحث عن مكان الإمام المهدي. كان مشغول البال بمصير الجنرال هكس ولم يتأكد له مصرعه ولم يجد إجابة شافية من المقاتلين الذين تضاربت أقوالهم. وفي وقت وجيز كان يقف أمام المهدي فتبادلا التحية بسلام طويل حار ولم يلبث أن استفسر الإمام عن مصير الجنرال هكس فابتسم الإمام المهدي ونادى بصوت عال (يا عبدالله.. يا عبدالله) فبرز فتى صغير السن وسرعان ما تعرف عليه أبوقرجة فهو أحد أقربائه من أولاد القطينة الذين تركهم صغاراً لم يشبوا عن الطوق

1 **الأمير ود نعمان** (١٨٥٠-١٩٨٥): هو أحمد بن محمد بن النعمان بن الشيخ جمعان بن صافي بن سهل. وُلد في ١٨٥٠ بديار قبيلة المجانين بكردفان. وكان للمجانين موجدة تاريخية عميقة مع الحكم الاستعماري القائم منذ مقتل اثنين من أهم فرسان القبيلة على يد المفتش التركي عثمان كودري قبل قيام الثورة المهدية. أما الفارسان فهما: مرجب وجاد الرب وأما والدهما فكان الشيخ مطرح ود صافي ود سهل من أهم زعامات القبيلة حينها. وقد عُرفت تلك الحادثة الدموية في أدبيات المجانين الشفاهية بـ«قتلة عيال مطرح ود صافي ود سهل». وعندما اندلعت الثورة المهدية، تقدم فرسان المجانين للانضمام لعمليات المقاومة في صفوف الثورة بزعامة الشيخ محمد ود بليلة والمقاتل الشاب حينها أحمد محمد ود نعمان الذي عيّنه المهدي قائداً للخيالة في موقعة قدير بالعام ١٨٨٢، فأبلى فيها بلاءاً كبيراً. كان ود نعمان قائداً لفرسان قبيلة المجانين في موقعة شيكان. وقد أكد حفيده الأستاذ أحمد التجاني ماهل أن الأمير ود نعمان- كما هو وارد في عدد من المصادر-هو الذي جندل الجنرال البريطاني هكس عن صهوة فرسه برمحه، بينما أجهز عليه فيما بعد الأمير محمد عوجة من فرسان قبيلة «الحمر» وكان هؤلاء الفرسان يرددون جلالة المهدية المعروفة باسم «الهيوت» حينها، وهي ذات الأهزوجة التي صارت إرثاً كردفانياً متناقلاً عن أدبيات المقاومة بعهد الثورة المهدية:

هيو هيو.. سدوا الفرقة..
هيو هيو.. أرفعوا الدرقة..
هيو هيو.. جبنا نصر الله..
هيو هيو.. التركاوي رقد غلة..

قام الأمير ود نعمان بدور كبير مع فرسان عشيرته في انتصارات الثورة المهدية بما في ذلك تحرير الخرطوم. واستقروا جميعاً مع المهدي في أمدرمان بحي العرب وحي الموردة. وبقي بعض فرسانهم بعد وفاة المهدي مع الخليفة عبدالله وقاتلوا الإنجليز في كرري وأم دبيكرات. عمر ود نعمان طويلاً وتوفي عن ١٣٥ سنة في العام ١٩٨٥ بمنطقة «الخوي» بكردفان في غربي السودان.

انظر.. أحمد التجاني ماهل: **التاريخ الشفاهي والحقائق المُغيبة في تاريخ السودان**، الأمير ود نعمان نموذجاً.

وأبلغ الإمام المهدي (أبوقرجة) أن عبدالله هو الذي قتل هكس»[1].



فرسان الأنصار يحيطون بالجنرال هكس في معركة شيكان



الأمير محمد عثمان أبو قرجة



الأمير ود نعمان

1 مكي أبوقرجة، مصدر سابق.

وبالاتجاه لسبر أغوار ما رواه البريطانيون عن تفاصيل مقتل الجنرال هكس، فإن دومنيك غرين مثلاً تحدث عن اجتماع شيوخ القبائل السودانية المختلفة ليغرس كلٌّ منهم رمحه في جسد الأخير.. كناية عن مشاركتهم جميعاً في القضاء على الجنرال البريطاني وحملته الغازية. حدثٌ كهذا إن افترضنا صحته، فإن واقعيته تنبني بشكل كبير على حدوثه حينما أوشكت المعركة على الانتهاء وخمدت تبعاً لذلك كل مواقع الاشتباكات الأخرى. وبحسب غرين فإن القتال قد ازدادت ضراوته حين نفدت ذخيرة هكس ومجموعة الضباط الأوروبيين من حوله في وحدة القيادة فاضطروا للالتحام المباشر بالسلاح الأبيض مع المقاتلين السودانيين الذين أحاطوهم من كل جانب. وجرى اشتباك عنيف للحظات حتى جاءت النهاية كما وصفها غرين: «عندما ضُرب هكس في مؤخرة رأسه، وانتاشه رمح في مفصل يده التي تحمل السيف قبل أن يخترق جسده رمح آخر. عندها تهاوى من جواده ليسقط على ما كان بجانبه من كومة أجسادٍ صريعة والدم يقطر من زيه العسكري البريطاني الصنع»[1].

وفي ذات الوقائع أيضاً، يقول ونستون تشرتشيل رئيس وزراء بريطانيا الأسبق أن هكس قد واجه في شيكان عدواً لا يعرف الخوف على الإطلاق (Fearless enemy) كما ذكر أن الأنصار دفنوه بتوقير احتراماً لشجاعته التي أبداها على حسب توجيهات قيادتهم. وفي معرض تعليقه على أحداث موقعة شيكان، كتب ونستون تشرتشيل في كتابه حرب النهر قائلا: «لقد انتزع السودانيون حريتهم بفضل بسالتهم المقترنة بشجاعة وبراعة قائدهم الورع»، ثم يستطرد قائلا: «لم يماثل البؤس والشقاء الذي رزح تحته السودانيون- إبان الحكم التركي - سوءاً إلا معنوياتهم المنخفضة حينها.. ببساطة لم يكن أحد منهم ليجرؤ على رفع السلاح على المستوي العملي لولا مجئ المهدي الذي نفخ في القبائل السودانية روح الحماسة التي طالما افتقدوها»[2]. أما البريطاني دونالد فيثرستون فيبدو أنه يتخذ من موقعة شيكان نموذجاً حين يحلل المقدرات العسكرية والقيادية

1 دومنيك غرين، مصدر سابق، ص١٦٤-١٦٥.

2 **The River war (History of the war in Sudan), Historical & Autobiographical Account of the Reconquest of Sudan**, by Winston Churchill. Publisher: Musaicum Books. Electronic Version, 2018, pp.69 - 70.

للمهدي والتي أرجعها لاطلاعه الواسع علي تاريخ حروب الإسلام الأولى ومقدرته على اختيار ما يناسب زمانه منها، فكتب قائلاً: «لقد كان قادراً على الاستفادة من هذا الإرث في الصبر على العدو والانتظار بتأنّ حتى تحين اللحظة المناسبة لتوجيه الضربة القاضية. لقد كان بارعاً في الاستفادة القصوى من لحظات الارتباك الكامل في صفوف عدوه. إن المرء منا ليجد قراراته المصيرية - في معظم الأحيان- مصحوبة بحدسٍ عبقري قلما يخطئ» ثم يستطرد قائلاً: «لقد كانت تكتيكات الأنصار العسكرية تعتمد على عنصرَي المفاجأة والصدمة والإحاطة الدائرية بالعدو من اتجاهين». ولا يخفي فيثرستون إعجابه الشديد بفكر القادة العسكريين للمهدية حين يقول عنهم: «على الرغم من عدم تلقّيهم تدريباً عسكرياً نظامياً إلا أن تكتيكاتهم العسكرية والقتالية المتأصلة قد جعلت منهم مقاتلين رائعين»[1].

وفي ذات السياق، أجرى «روبرت روسي» -الرائد بكلية القيادة والأركان بالولايات المتحدة الأمريكية - تحليلاً عسكرياً مهماً لوقائع معركة شيكان تحدث فيه عن العبقرية العسكرية الخلاقة التي ميزت التخطيط الإستراتيجي والأداء الميداني لقوات الثورة المهدية في مواجهة الحملة الغازية. وشمل برؤيته تلك، تقييمه للظروف المبكرة التي أحاطت تقدم هكس بقواته نحو كردفان.. وفي ذلك قال:

«لقد تمكن المهدويون من السيطرة الكاملة على أطراف البلاد بمساعدة عدد كبير من حلفائهم على المستوى الشعبي. كانوا على علم كامل بتفاصيل أي قوة عسكرية أُرسِلت لمواجهتهم. كانوا يمتلكون قوى أساسية من الفرسان اشتملت على محاربين لهم المقدرة على خوض المواجهات على ظهور الجياد والإبل. وكان لتفوقهم الاستخباراتي العامل الأكبر في مقدرتهم على تحطيم كل قوة عسكرية تم إرسالها إليهم. لقد عانت حملة هكس من تفوق قوات المهدي في هذا المجال بشكل أكبر من بقية القوات التي أرسلت من قبل لمواجهتهم في كردفان. كان على هكس التعامل مع حقيقة مفادها أن كردفان لم يعد فيها أي حامية صديقة يمكن أن تحجم أداء قوات المهدية أو توفر لقوات هكس قاعدة للتمويل والمساعدة».

1 فيثرستون، مصدر سابق، ص ١٦، ص ٤٠.

ويرى روسي أن انتصار الثورة المهدية في شيكان كان عملاً تم التخطيط له بأساليب عسكرية متقدمة من خلال توظيف التقارير المرفوعة بواسطة القادة الميدانين لطلائع الاستكشاف السودانية ومن ثم إخضاعها للتحليل بواسطة القيادة لاختيار ميدان مناسب للمواجهة العسكرية مع الحملة الغازية وبالتالي كانت نهاية كل شيء متسقة مع بداياته، وذلك على نحو قوله:

«استطاع المهدي بسط سيطرته الكاملة على مجال فن استخدام الطلائع العسكرية في مواجهته مع هكس مما مكّنه من اختيار غابة شيكان كأرض ستجري عليها الموقعة مع عدوه. مكّن ذلك رماته من حملة البنادق من تصويب نيرانهم نحو أهداف عديدة توفرت أمامهم بتشكيل المربع العسكري للعدو الذي اكتظ بالجنود. وتبعاً لذك كان بمقدور رجاله من حملة السيوف والرماح الانقضاض على العدو بواسطة الغطاء الناري الذي وفره لهم حملة البنادق. هكذا انتهى أمر قوات هكس في ٥ نوفمبر ١٨٨٣ بإبادة المهدويين لطابور قواته هناك».

ويميل روسي إلى الجزم بأن إستراتيجية المفاجأة العسكرية كانت ميداناً برع المهدي في استخدامه مع ما سبق ذكره من تفوق في مجال الاستكشاف العسكري. ويعزو الرائد الأمريكي تفوق الثورة المهدية في مواجهاتها العسكرية الأولى مع القوى الاستعمارية - بما في ذلك موقعة شيكان - لإجادة توظيف هذين العنصرين المهمين، وفي ذلك تحديداً يقول:

«لقد كان المهدي على دراية تامة بأهمية عنصر المفاجأة في أرض المواجهات العسكرية. كان له المقدرة على الاستفادة القصوى من الطلائع العسكرية بنفس درجة مقدرته على حرمان عدوه من ذات السلاح المهم. خرج منتصراً في كل معاركه الأولى بفضل مقدرته على توظيف سلاح عنصر المفاجأة، فقد تمكن من إبادة حملة هكس بعنصر المفاجأة ولاحقاً تمكن من فتح الخرطوم بهجوم طغى على طابعه عامل المباغتة أيضاً»[1].

أما المؤرخ الوطني الراحل والخبير العسكري الرائد عصمت زلفو فقد كتب معلقاً

1 **The Mahdist Revolution**, by Major Robert N. Rossi. A Master's Thesis, Presented at U.S. Army Command and General Staff College, USA, 1994, pp.39 - 40, p.74. https://apps.dtic.mil/dtic/tr/fulltext/u2/a284465.pdf

على لوحة المعركة التي استدعى تفاصيلها من بين أسطر سفره القيم بعنوان «شيكان» حين قال: «على مدار تاريخ الصراع البشري المسلح وإلى يومنا هذا لا زال الصدام الهائل الذي احتدم على سهول كردفان في ضحى يوم الاثنين من أواخر ١٨٨٣، يبرز مثالاً رائعاً لإبداع الفن العسكري في مزج الخيال والتخطيط بواقع التنفيذ والتطبيق.. فاختيار مسرح الالتحام المثالي الذي فجر فيه المهدي طاقات جيشه والسرعة الخاطفة التي أزاح بها آلافاً من الجنود المسلحين والمدربين من حيّز الوجود، وذلك الختام الخرافي الشبيه بأساطير الأولين حين تبتلع الأرض جيوشا بأكملها، كل ذلك يدل دلالة لا شك فيها ولا جدال على أنه كان نتاجاً لتخطيط محسوب بلغ قمته في ساعة توهج عقلي في أصيل يوم الأحد عقب مجلسه الحربي الأخير فتمخض عنه ذلك المخطط الفذ»[1].

وعن الأصداء الدولية لانتصارات الثورة المهدية بعد شيكان، أشار البروفيسور والمؤرخ الروسي سيرجي سمرنوف في مؤلفه القيم «دولة المهدية من وجهة نظر مؤرخ سوفيتي» إلى أن إرهاصات فشل حملة هكس قد أفزعت الحكومة البريطانية فكتب اللورد كرومر عند تعيينه قنصلاً لبريطانيا في مصر تقريراً في نوفمبر ١٨٨٣..جاء فيه: «أضحت الأوضاع بالسودان خطيرة تماماً.. فنحن لم نسمع شيئا عن حملة هكس منذ ٢٧ سبتمبر». وأشار في التقرير إلى أن هزيمة هكس تعني ضياع السودان كله. وتبعاً لذلك، تبنّى اللورد غرانفيل وزير الخارجية البريطاني آنذاك الدعوة للانسحاب وعدم التورط بالمزيد من القوات لمحاربة المهدية من خلال البرلمان البريطاني والذي شهد مداولات ساخنة بين النواب في كيفية التعامل مع الثورة المهدية وخصوصاً مع بروز فكرة إرسال غردون للسودان بعد هزيمة هكس. ويعتقد سمرنوف أن بريطانيا كانت تحاول أن تجعل من هزائمها أمام المهدية نصراً لها عن طريق المناورات الدبلوماسية. ويخلص المؤرخ الروسي نفسه إلى أن أهم النتائج المترتبة على هزيمة حملة هكس كانت على حسب نص كلماته: «استوعب الأمبرياليون البريطانيون الدرس من هزيمة حملة هكس فلم يأبهوا بالتفكير في الدخول في معارك أخرى مع قوات الثورة المهدية». وأشار إلى أن إيطاليا كانت هي الدولة الوحيدة التي أبدت مشاعر ودية تجاه ما حدث لجنرالات بريطانيا

1 زلفو، مصدر سابق.

من إهانة في السودان، بينما كان التوتر على أشده بين روسيا وفرنسا وألمانيا من ناحية وبريطانيا من ناحية أخرى[1].

وفي سياق مماثل جنح الباحث الكندي نيلس جونسون لتلخيص أصداء انتصار الثورة المهدية على جيش هكس بأرجاء عالم القرن التاسع عشر في كلمات موجزة وذلك على نحو ما قاله في ذات الإطار:

«لقد كان الأثر المترتب على خيبة حملة هكس عظيماً جداً. استطاعت الثورة المهدية أن تأسر اهتمام العالم كله وتوافد المبعوثون من بلاد المسلمين في الهند، المغرب، العراق، الحجاز وتونس ليسمعوا كلمات محمد أحمد المهدي. ومع ذلك كله، كان أثر انتصار المهدويين في بريطانيا أعظم من أي بقعة أخرى من تلك الأماكن»[2].

والذي لا شك فيه هو أن الفناء الأسطوري الذي تعرض له جيش هكس في غابة شيكان، كان قد ترك أثره الموجع في المخيلة النخبوية البريطانية. مثل هذه الذهنية لم تكن مهيئة بعد لإدراك أنه من الممكن لأي جيش يقوده جنرالات بريطانيون أكفاء تلقي هزيمة ساحقة من قوات أقل تدريباً وعتاداً واحترافية كقوات الثورة المهدية بحسب ما كانوا يعتقدون. وتبعاً لذلك انجرّ بعض البريطانيين وفي طليعتهم الجنرال «تشارلز غردون» إلى مغالطات متوهمة مفادها أنه لم تكن هناك معركة أصلاً، وأن الظمأ القاتل وحده هو الذي فتك بحملة هكس في صحاري كردفان. ذلك ما لم تغفل الباحثة الأمريكية ميريل ميراك ويسباك عن إيراده في بحثها القيم «لماذا يكره البريطانيون السودان، حرب المهدية ضد بريطانيا».. وقد تبدى جلياً ميلها نحو السخرية المستترة من تلك المزاعم، وذلك على نحو قولها:

«كان عسيراً على أذهان البريطانيين إدراك الحقيقة بخصوص تفاصيل الإبادة التي تعرضت لها حملة هكس، ونُقل عن غردون اعتقاده بأن الجيش بأكمله قد هلك بفعل

1 سمرنوف: **دولة المهدية من وجهة نظر مؤرخ سوفييتي**، ترجمة هنري رياض، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٤.ص ٤٧.

2 **The Ideological Structure of the Sudanese Mahdiya**, by Nels Johnson. Publisher: McGill University, Montreal – Canada, 1972.

العطش وأن المواجهة العسكرية بين الجيشين لم تجر على الأرض!»[1]. وفي ذات السياق، يؤكد الكاتب والروائي الإنجليزي «جوليان سيمونز» سيادة حالة من الإنكار والرفض النفسي العميق لدي الدوائر الرسمية البريطانية لما توارد إليها من أنباء بخصوص حملة هكس لبعضٍ من الوقت قبل أن يستبين كل شيء على حقيقته.. وفي ذلك قال:

«إن الكارثة التي تعرض لها جيش هكس في وقتٍ مبكّر من شهر نوفمبر، لم تصل أنباؤها إلى مشارف القاهرة إلا في زمنٍ متأخر من ذلك الشهر. وعلى الرغم من ذلك ظلت تلك الأنباء لوقتٍ ما عصية على التصديق الكامل»[2].

وعلى المستويين الشعبي والثقافي ببريطانيا، أخذت مأساة إبادة جيش هكس على رمال كردفان والتي أعقبتها انتصارات عثمان دقنة علي القوات البريطانية بتلال البحر الاحمر.. أخذت تلك الأحداث موقعاً مهماً في الوجدان القومي للإنجليز، فكتب الشاعر البريطاني جورج أبيل مجموعته القصائدية بعنوان «غردون وأشعار أخرى». وهي نفس المجموعة القصائدية التي نعى في بعض أبياتها مقتل الجنرال هكس بغابة شيكان.. متحسراً على مصيره المأساوي الذي اقترن مع هزائم الجنرال البريطاني فالنتاين بيكر على يد الأمير عثمان دقنة بشرق السودان. كما مال الروائي البريطاني الشهير آرثر كونان دويل للتعرض لمأساة إبادة حملة هكس في مقدمة قصته القصيرة بعنوان «The Debut Of Bimbashi Joyce» والتي وصف فيها ما حدث لهكس وقواته بالابتلاع أكثر من كونه عملية إبادة في مواجهة عسكرية[3].

في الجانب الآخر من الجزيرة البريطانية، وتحديداً على شواطئ الجزيرة الإيرلندية، عبر القوميون الإيرلنديون عن تعاطفهم مع انتصار الثورة السودانية في شيكان حين راجت

1 **Why the British hate Sudan: the Mahdia's war against London**, By Muriel Mirak-Weissbach. Executive Intelligence Review (EIR) Volume 22, Number 24, June 9, 1995.

2 **England's Pride - The story of the Gordon Relief Expedition** by Julian Symons. Publisher: House of Stratus, United Kingdom, 2008, p.13.

3 **Gordon and Other Poems** (1885). By George Abel. Publisher: Kessinger Publishing, USA, 2010.
انظر أيضاً:

The Green Flag, By Arthur Conan Doyle. publisher: Andrews Uk Limited, Electronic Book, 2012, PP. 243 - 253.

أسطورة تتحدث عن مصير مختلف للمراسل الحربي الإيرلندي «إدموند أودونوڤون» حيث تحدث البعض عن انضمامه لمعسكر الثوار السودانيين بشيكان ومقتله في صفوفهم وهو يحمل السلاح ضد هكس ويقول المؤرخ الإيرلندي مايكل فولي: «لقد تضخمت تلك الفكرة الخيالية وعضدتها مساندة القوميين الإيرلنديين لقوات الثورة المهدية ضد القوات الانجلو مصرية والتي عدوها واحدة من قوى الشر الإمبريالية». وفي ذات الاتجاه المتعاطف مع انتصارات السودانيين في شيكان، كتبت صحيفة «United Ireland» بلهجة أكثر واقعية في أعقاب مقتل اودونوفن المحتمل بغابة شيكان: «من سوء حظ إيرلندا أن المهدي لم يكن يعلم أن هناك مغامراً إيرلندياً شجاعا اختبأ في ملابس رجل إنجليزي. اودونوفن كان يكره بني سكسون المستعمرين بكراهية قد تفوق مقت المهدي نفسه لهم»[4].



إدموند أودونوفون بالعمامة بعد انحيازه إلى الثورة السودانية مقاتلاً في صفوفها ضد قوات الجنرال البريطاني هكس بحسب ما تخيلته ريشة الرسام الإيرلندي المنتمي لتيار «الفينان» القومي، أوليسيس أوكلي.

4 سيرة إدموند أودونوڤون- **استكشاف الخيال الصحفي**: مايكل فولي، نيويورك ٢٠١٢.
«The Reporting of Edmond O'Donovan: Literary Journalism and the Great Game» by Michael Foley in **Global Literary Journalism: Exploring the Journalistic Imagination**, (2012) Richard Lance Keeble and John Tulloch (ed) Peter Lang, New York.

ذكرى مقتل أودونوڤون المحتمل في شيكان لم تكن عصية على الاستدعاء حينما تعرضت لها قبل بضع سنوات صحيفة إيرلندية معروفة على نحو «Irish Times»، فكتبت عن مغامرته المختلفة بشتى بقاع الدنيا والتي تخللتها مواقف موثقة بطبيعتها المناوئة للهيمنة الاستعمارية البريطانية. وألمحت الصحيفة إلى احتمال انحيازه للثوار السودانيين ومقتله في صفوفهم وهو يحمل السلاح معهم ضد قوات هكس بموقعة شيكان، مما أبقى على صورته حية بذات الوهج البطولي الفنتازي في أذهان الإيرلنديين ومنحه تكريماً كبيراً بعد وفاته عطفاً على نهايته «الافتراضية» الباسلة في صفوف الثورة السودانية والتي اختزنت صورتها مخيلة شعبه لأمد بعيد، وفي ذلك ورد ما يلي:

«قام أودونوڤون بإرسال تقارير عن الحرب مالت لوصف جيش المهدي بالبسالة وحسن التسليح على الرغم من شعث ملابسهم والاعتقاد القائل بأنهم سيكونون الطرف الخاسر. وكان موته أكبر لغز، مما دفع القوميين الإيرلنديين للإشارة بأن أودوفون قد عبر بالفعل الحد الفاصل بين الجيشين وانضم للمهدي كأحد مناصريه في مواجهته مع الإمبريالية. وتم بعد ذلك منحه شرف عضوية فوق العادة لحركة الـ Fenian (المناوئة للهيمنة البريطانية). كما تم تخليد ذكراه بلوحة معدنية بإحدى سراديب كاتدرائية سانت بول بقلب الإمبراطورية. هذه اللوحة ما زالت موجودة هناك إلى يومنا هذا»[1].

مما تقدم ذكره، يتضح جلياً أن شيكان كانت ملحمة تاريخية سودانية خالدة ومقبرة حقيقية لغزاة أتوا من خارج الحدود لإعادة احتلال البلاد وفرض هيمنتهم الاستعمارية من جديد. وبالاستناد على ما سبق من وقائع تقوم على مصادر متعددة يمكن الجزم بأن شيكان كانت موقعة مصيرية، فقد التقت فيها عبقرية القيادة عند السودانيين وتخطيطها الإستراتيجي المتقدم بتصميم شعبي سوداني جارف تم فيه استخدام أسلوب الحرب الشعبية في مقاومة المحتل بصورة أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها مثالية على مستوى التطبيق والتنفيذ. وقد شهدت بذلك جمهرة من المؤرخين المعاصرين ممن حركتهم غريزة البحث العلمي والتقصي المحايد.

1 صحيفة التايمز الإيرلندية، عدد بتاريخ ٢٢ مايو ٢٠١٢،
https//:www.irishtimes.com/opinion/an-irishman-s-diary=?1.523134-amp

الباب الرابع

قراءة تحليلية
في ردود أفعال الصحافة البريطانية
وبعض الصحف العالـمية
بعد موقعة شيكان

قراءة تحليلية
في ردود أفعال الصحافة البريطانية
وبعض الصحف العالـمية
بعد موقعة شيكان

«إن الصحافة الإنجليزية تحاول جاهدة إيهامنا بأن تلك الهزيمة (في شيكان).. لا تعنيهم في شيء وأنها تخص قوات الخديوي وقادته العسكريين وحدهم. إننا جميعاً نعلم جيداً أنه منذ ما بعد معركة التل الكبير ضد العرابيين.. لم يزل الإطار العام للجيش هناك إنجليزياً صرفاً وأن اسم الجنرال هكس وحده كان أصدق دليل على جنسيته البريطانية التي لا جدال فيها. إن التعلل بأن جيش المهدي كان تعداده ٣٠٠ ألف مقاتل ما هو إلا تهويل مقصود الغرض منه حفظ ما تبقى من ماء وجه البريطانيين».

صحيفة «Le Rappel» الفرنسية.. أواخر نوفمبر ١٨٨٣.

شهد الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر ١٨٨٣ توارد أنباء انتصار الثورة المهدية في شيكان إلى أصقاع أوروبا القصية فخيمت تلك الكارثة بوقعها على الجزيرة البريطانية تماماً كم خيم عليها شتاء نوفمبر بحزنه ومساءاته القاتمة.

وبما أن وقائع شيكان لم تكن – بأي حال من الأحوال– حدثاً معزولاً عما حولها من مسرح الأحداث في عالم القرن التاسع عشر، فقد وجدت أنباء تلك المواجهة الحاسمة طريقها لصحافة العالم التي تناولتها بما يكفي من الاهتمام. ففي زمن كانت فيه الأرض تئن في أقاصيها البعيدة من مظالم أثقلت أجساد شعوب جنوبها بوطئتِها المميتة، لم يكن من المألوف لتلك الشعوب تحقيق انتصارات مفصلية لتزعزع فيما يمكن أن تزعزعه،

الهيمنة الاستعمارية المطلقة لشمال الكرة الأرضيّة على خارطة الأحداث انذاك. وفيما يلي سنحاول تبيان أصداء وقائع شيكان على صحف بريطانيا وغيرها من الصحف الأوروبية الأخرى بما توفر لدينا من أرشيف احتوى على تفاصيل موغلة في الدقة عن الأثر الذي ترتب على نتائج تلك المعركة.

من المهم هنا الإشارة إلى مدخل مفتاحي يسهل من الولوج إلى تفهم طبيعة تلك الاصداء، ونعني هنا تحديداً ما أورده المؤرخ البريطاني المعاصر فيرغس نكول صاحب «مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون» من اهتمام صحفي بريطاني بالحملة في مراحل تجهيزها المبكرة. فعلى الرغم من أن جيش هكس أُرسل إلى السودان بإسم الخديوي إلا أن كل شيء تم تحت علم ومساندة بريطانيا التي كانت هي الحاكم الفعلي لمصر الخديوي نفسها. وما كان لجيش جرّار يتكون من عدد يناهز الـ١٥ الف مقاتل كهذا ان يُرسل من دون توفير التغطية الإعلامية الفعالة لوقائع تحركاته. تلك أدبيات استعمارية عريقة ظلت بريطانيا تتبعها لسرقة الانتصارات ونسبها لمجد الإمبراطورية حينما تسنح الفرصة وتكتمل صياغة المشهد. لذلك صحب جيش هكس الصحفيون الثلاثة الذين ورد ذكرهم فيما سبق وهم: فرانك باور مراسل جريدة «التايمز» اللندنية..وفرانك فيزتلي مراسل جريدة «The Graphic».. وإدموند اودنوفن المراسل الحربي لصحيفة «Daily News». وإمعاناً في إجلاء الغبار عن هوس البريطانيين وولعهم القديم في تدوين انتصاراتهم فيما وراء البحار، أشار نيكول إلى أن بعض الرتب العليا من الضباط البريطانيين بحملة هكس كانوا يتقاضون ما يقارب الـ ٧٠٠ جنيهاً استرلينياً مقابل كتابة تقارير صحفية دورية للصحف البريطانية والتي دفعها تلهفها لنشر تفاصيل سير الحملة لبذل تلك الأموال بأكف منبسطة[1].

ولكن بالعودة للأخبار التي تصدرت الصحافة البريطانية عن حملة هكس نجد أن الملامح النهائية للجيش الغازي قد اكتملت مع مراحل تجميعه الأولى بالنيل الأبيض. وكشأن كل البدايات التي تنضح بالأماني العذبة، إحتوى تناول صحف بريطانيا لتلك

1 انظر: نيكول: مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون، ص ١٦٧.

التفاصيل على تفاؤل مُتصاعد وثقة حديدية في سحق الثورة المهدية وذلك على نحو ما ورد بصحيفة «شيفيلد ديلي تليغراف» بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٨٨٣ من تقرير أُختتم بلهجة جازمة مؤكدة جاء فيه: «لا يوجد أدنى شك من نجاح حملة الجنرال هكس. إن هيمنة المهدي على الأحوال ما زالت في تناقص كبير»[1]. ولكن تلك اللهجة المتفائلة سرعان ما تراجعت مع خروج الجيش الغازي من رحاب منطقة النيل الأبيض وتقدمه غرباً تجاه سهول كردفان الفسيحة، فلقي ما لقي من مقاومة ضارية بأسلوب الحرب الشعبية بكل مكوناتها البشرية والطبيعية والذي أفلحت الثورة المهدية في استغلاله كسلاح حاسم في مواجهة الغزاة مما أثر سلباً على معنويات رجال الحملة. وفي ذلك الشأن نشرت صحيفة «وسترن ديلي ميركري – The Western Daily Mercury» في أحد أعدادها الصادرة بنوفمبر ١٨٨٣ إفادات الميجور «إيفانز» ضابط استخبارات هكس حين قال: «لقد بارحنا الخرطوم في ٩ سبتمبر وتقدمنا على الضفة الغربية للنيل فوصلنا (الدويم) في غضون أربعة أيام. لم نتوقف عن التقدم للأمام منذ ذلك الوقت. الحر هنا قائظ بما يكفي. كبدنا ذلك خسارة ثلاثين من رجالنا بعد أن أهلكهم العطش والإنهاك وكذلك تتساقطت جمالنا بنفس الطريقة. نحن نتقدم الآن لثمانية ساعات متواصلة يومياً لمدة ١٦ يوم على التوالي. وصلنا إحدى القرى التي كانت تشتمل على عشرين كوخاً فقررنا أن نتوقف هنا ليستريح رجالنا ودوابنا لبعض الوقت. الماء هنا رديء للغاية والعدو الذين تصلنا أنباء كثيرة عن حشوده الكبيرة لا يبعد عنا سوى ثلاثين ميلاً. أما الطريق خلفنا فهو مقفل تماماً»[2].

لم يكن تقرير إيفانز المقتضب سوى تأكيد لحذاقة أسلوب إدارة المهدي لفن الحرب الشعبية لأن ما قاله مسئول مخابرات جيش هكس تطابقت تفاصيله مع توجيهات المهدي لأمرائه على أحسن ما يتمناه أي قائد من التطابق. وهي ذات التعليمات التي ألقى بها قائد الثورة المهدية للأمير أحمد ود جفون في منشوره المار ذكره من قبل بالباب السابق والمؤرخ بسبتمبر ١٨٨٣.

1 شيفيلد ديلي تليغراف، ١٤ سبتمبر ١٨٨٣، أرشيف الصحافة البريطانية.

2 «Mercury Daily Western»،عدد بتاريخ الثلاثاء ٢٧ نوفمبر ١٨٨٣،أرشيف الصحافة البريطانية.

وعلى الرغم من شُحّ الأنباء الواردة عن حملة «هكس» لصحافة بريطانيا بعد توغل الجيش الغازي في صحاري كردفان إلا أن تلك الصحف لم تكف عن نشر أخبار غير مؤكدة لانتصارات مزعومة حققها ذلك الجنرال البريطاني في أثناء تقدمه نحو مدينة الأبيض. ونالت صحيفة «ليدز ميركري» بتوجهاتها الإمبريالية المعروفة النصيب الأوفر من تلك الأنباء المغلوطة.

لم تدم تلك الأمنيات كثيراً، فسرعان ما تأكدت أنباء انتصار الجيش المهدوي على «هكس» بمعركة شيكان الحاسمة وطارت أصداؤها للأقاصي البعيدة فبدأت الصحف البريطانية تبحث عن تفاصيل حقيقة ما جرى بأسلوب أكثر واقعية. ونشرت صحيفة «فروم تايمز – Frome Times» التي تصدر بنواحي جنوب غرب إنجلترا تقريراً دقيقاً عن تفاصيل موقعة شيكان أخذ موقعاً مميزاً بعددها الصادر في يوم الأربعاء ١٩ يناير ١٨٨٤. وفيه نسبت الصحيفة نسختها من الرواية لأحد الأسرى من رجال هكس الذين تمكنوا من الهرب لاحقاً من مدينة «الأُبيّض» وجاء في ذلك التقرير:

«في ٤ نوفمبر تقدمت قواتنا نحو كازْقيل وبعد مسيرة متواصلة استغرقت ٤ ساعات تفاجأنا بهجوم ماحق من جيش العدو الذي أصلانا ناراً حامية. ورغماً عن معاناتنا السيئة من العطش إلا أننا حاولنا الحفاظ على مواقعنا. في ٥ نوفمبر توقف القتال قليلاً وكان علينا التقدم لإدراك الآبار وموارد المياه. بعد نصف ساعة من الزحف فوجئنا بالثوار السودانيين الذين أخذوا مواقعهم مختبئين خلف غابة شيكان ففتحوا فينا نيران بنادقهم وأحاطوا بِنَا من كل جانب. حاولنا الرد بقوة ولكن هجوم السودانيين اشتد علينا بعد ذلك وأُبيدت الحملة ولَم يتبق منها على قيد الحياة سوى ٢٠٠ من الجنود المصريين وبعض من الرقيق ممن جُرحوا أثناء المعركة»[1].

ولَم تكن تلك الأرقام التي أوردتها «Frome Times» بأي قدر من الاختلاف عما كان متوفراً لدي الدوائر الرسمية البريطانية. فعلى المستوى الرسمي، تلقى رئيس الوزراء البريطاني «غلادستون» فيما بعد منتصف نوفمبر١٨٨٣ بتمام الساعة الثانية ظهراً

1 «فروم تايمز»، عدد بتاريخ ١٩ يناير ١٨٨٤، أرشيف الصحافة البريطانية.

بتوقيت غرينتش. تلقى تقريراً تلغرافياً مفصلاً من حاكم عام السودان بالإنابة آنذاك وهو الجنرال البريطاني «هنري دي كوتلوغون». وهو ما اشتمل على تفاصيل إبادة حملة الجنرال وليم هكس بشيكان التي لم ينج منها بحسب التقرير ذاته سوى ٢٠٠ رجل. وعلى الرغم من أن تقرير كوتلوغون لم يكن واضحاً بخصوص مصير من تبقى من رجال هكس إلا أن صحيفة دبلن ديلي إكسبرس «Dublin Daily Express» جزمت في تقرير موجز عن نتائج معركة شيكان بأن الإمام المهدي قد أوصى قواته بالحفاظ على حياة الأسرى بما فيهم عدد من الأوروبيين الذين كان فيتزلي المراسل الحربي لصحيفة «The Graphic» اللندنية الذائعة الصيت في مقدمتهم [1]. ويتفق ذلك تماماً مع ما أوردته صحيفة «شيفيلد ديلي تليغراف» بعددها الصادر في ١٩ ديسمبر ١٨٨٣ والذي اشتمل على تحقيق بعنوان (نهاية هكس باشا، قصة يرويها أحد الناجين) وجاء فيه: «أمر المهدي أنصاره بعدم الإجهاز على أي جريح من قوات هكس. وجه المهدي أيضاً بأن لا يتعرض أحد بسوء للصحفي فيتزلي»[2].

وبالعودة لسلسلة تقارير كوتلوغون المتابعة للإدارة البريطانية عن أحوال السودان نجد أن من أهم تقاريره ذلك الذي وجهه لغلادستون- رئيس الوزراء البريطاني- موصياً فيه بأن صعوبة السيطرة على الأوضاع بالسودان في ظل انتصارات الثورة المهدية الاخيرة تقتضي اتخاذ قرار واقعي بانسحاب الإدارة الاستعمارية للسودان بأكملها إلى مدينة بربر وما وراءها. وإلتقطت القفاز صحف بريطانية كثيرة فدعت للانسحاب من السودان وعدم التورط بإرسال المزيد من الجنرالات لأتون حروبه المستعرة. كما دعت للاهتمام بتأمين حدود مصر التي كانت كما سلف ذكره تحت ما يشبه الوصاية البريطانية الكاملة آنذاك.

1 «دبلن ديلي إكسبرس»،عدد بتاريخ ٢٦ ديسمبر ١٨٨٣، أرشيف الصحافة البريطانية.
2 شيفلد ديلي تليغراف، عدد بتاريخ الأربعاء ١٩ ديسمبر ١٨٨٣، أرشيف الصحافة البريطانية.



الصحفي فرانك فيتزلي



الكولونيل هنري دي كوتلوغن؛
حاكم عام السودان بالإنابة ١٨٨٣

ولم تهدأ مصانع القرار الرسمية البريطانية والتي تمدد فيها القلق من نتائج انتصارات الثورة المهدية في شيكان حتى بلغ أشده في ١٣ ديسمبر ١٨٨٣.. أي بعد ما يقارب الشهر من واقعة شيكان، حينما كتب اللورد «بارينغ» مسئول ملف سلاح البحرية بحكومة غلادستون الثانية والشهير بلقب «لورد أوف نورث بروك».. كتب لصديقه اللورد «ريبون» معلقاً على انتصار السودانيين على حملة هكس في شيكان: «إن ما يحدث في السودان هو أمر في غاية الخطورة بحسبان أن هزيمة هكس ستجلب لنا نحن البريطانيين ما يكفي من إشانة سمعة»[1].

وفي ذات المعني، تحدثت صحيفة فرنسية ذائعة الصيت كصحيفة (Liberté) عن هزيمة هكس الساحقة بشيكان بلهجة تدعو فيها بريطانيا للاعتراف بهزائمها في السودان بدلاً من الهروب من تلك الحقيقة المؤلمة ويتمثل ذلك فيما جاء بالصحيفة نصاً:

1 **Gladstone, Gordon and the Sudan Wars: The Battle Over Imperial Intervention in the Victorian Age**, By Fergus Nicoll. Publisher: Pen and Sword. UK, 2013, p.45.

«إن المسئولية الاخلاقية لهذه الكارثة تنسحب على بريطانيا العظمي وحدها لأن جنرالات إنجلترا كانوا تحت تأثير أوهام مزدوجة: سوء تقدير لقوة المهدي وتضخيم متوهم لدورهم في إدارة قوات الخديوي»[1].

وتناولت صحيفة «Le Rappel» الفرنسية معركة شيكان ونتائجها بعد أن وجهت انتقادات ساخرة لمحاولة الإنجليز للتملص من هزائمهم على يد قوات الثورة المهدية. حيث قالت في ذلك:

«إن الصحافة الإنجليزية تحاول جاهدة إيهامنا بأن تلك الهزيمة لا تعنيهم في شيء وأنها تخص قوات الخديوي وقادته العسكريين وحدهم. إننا جميعاً نعلم جيداً أنه منذ ما بعد معركة التل الكبير ضد العرابيين لم يزل الإطار العام للجيش هناك إنجليزياً صرفاً وأن اسم الجنرال هكس وحده كان أصدق دليل على جنسيته البريطانية التي لا جدال فيها. إن التعلل بأن جيش المهدي كان تعداده ٣٠٠ ألف مقاتل ما هو إلا تهويل مقصود الغرض منه حفظ ما تبقى من ماء وجه البريطانيين»[2].

ولَم تمر لسعات صحافة فرنسا لبريطانيا من خلال الاحتفاء بانتصار الثورة المهدية في شيكان من دون أن تثير ما هو متوقع من المرارات في صفحات صحافة بريطانيا، فكتبت صحيفة «لندن إيڤنينغ ستاندرد – London Evening Standard» بعددها الصادر بصبيحة السبت ٢٤ نوفمبر ١٨٨٣ ما يمكن اعتباره اعترافاً إنجليزياً مستتراً بما أحدثته «شيكان» من جرح أدمى كبرياء بريطانيا. ومن ذلك قول الصحيفة ذاتها:

«إن الأثر العظيم الذي أحدثته إبادة حملة الجنرال هكس بالسودان لم يكن مقترناً بأي قدر من التعاطف معنا في باريس. لقد اجتمعت الصحف التي لا تفضل سيطرتنا الثنائية مع المصريين على أحوال السودان مع تلك الصحف التي تدفعها الكراهية الصرفة لإنجلترا.. اجتمعوا جميعاً على الابتهاج بتلك الضربة القاصمة التي نالت من هيبة وكبرياء بريطانيا». وفي ذات الإطار عنونت الصحيفة بنفس العدد، تحقيقاً مطولاً

1 صحيفة « **Liberté**» الباريسية، ٢٣ نوفمبر ١٨٨٣، أرشيف الصحافة البريطانية.

2 صحيفة « **Rappel Le**» الفرنسية، نوفمبر ١٨٨٣، أرشيف الصحافة الإنجليزية.

عن تفاصيل هزيمة هكس بعنوان «الكارثة في السودان» أو «The disaster in Sudan» ذكرت فيه أن الجنرال هكس تم تضليله بواسطة أحد أدلاء صحراء كردفان والذي لم يكن في حقيقته سوى أحد عملاء المهدي فقاد الجيش بأكمله إلى مسار شح فيه الماء ولُوّث ما تبقى من مصادره. وترتب على ذلك إبادة حملة هكس بكردفان بعد معركة اشترك فيها جيش جرّار من رجال الثورة المهدية. وتزعم الصحيفة أنه لم يتبق آنذاك أي من البريطانيين على قيد الحياة في السودان سوى حاكم عام السودان بالإنابة الجنرال كوتلوغون والمراسل الحربي المرافق لحملة هكس.. الصحفي فرانك باور[1].

وانضمت صحف نمساوية بارزة لحملة انتقادات الصحف الفرنسية للإعلام البريطاني وسياسته الرامية للتملص من هزيمتهم في شيكان فكتبت صحيفة «Neue Freie Presse» بتاريخ ديسمبر ١٨٨٣:

«إن في مقدور بريطانيا أن تزعم لآلاف المرات أن لا شأن لها بما يحدث في السودان. ولكن القضية الآن لم تعد قضية السودان لوحده بقدر ما هي قضية مصر. لقد هزت الحركة المهدية موقع الخديوي ولو لم يتم تقويته فمن المتوقع أن تنتشر تلك الموجة لتشمل كل أنحاء العالم الإسلامي».

أما صحيفة «Tagblatt» التي كانت تصدر من ڤيينا، فقد استبَقت الأحداث بالحديث عن قراءتها الخاصة لنتائج موقعة شيكان حين قالت:

«إن عدم منع المهدي من التقدم بقواته نحو مصر سيؤدي لتغييرات بالغة بكل العلاقات الدولية في القارة الأوروبية». وتعرضت صحيفة «Allgemein Zeitung» النمساوية المعروفة ضمناً للأثر الأقليمي للثورة المهدية عندما تحدثت عن توجيهات الحكومة المصرية لكافة مدراء الأقاليم لإرسال الجنود للقاهرة تأهباً لتحصينها. كما تحدثت ذات الصحيفة عن تقارير واردة من إستانبول تشير إلى مغادرة عدد من الثوار التوانسة لمدينة طرابلس الليبية في طريقهم للانضمام إلى المهدي في السودان[2].

1 «Standard Evening London».. السبت ٢٤ نوفمبر ١٨٨٣، أرشيف الصحافة البريطانية.

2 مقتطفات من مقالات صحافة النمسا عن انتصارات الثورة المهدية..نشرتها صحيفة «London Evening Standard» البريطانية بتاريخ السبت ٢٩ ديسمبر ١٨٨٣، أرشيف الصحافة البريطانية.

وانتحت صحيفة بريطانية مهمة كصحيفة «Reading Mercury» منحىً مشابهاً لصحف ڤيينا في تناولها لانتصار الثورة المهدية بشيكان من حيث خطورة الأثر الذي ستحدثه نتائج تلك المعركة الحاسمة على قبضة بريطانيا المحكمة فيما يختص بمستعمراتها بالعالم الإسلامي. وجاء بالصحيفة بهذا الشأن تحديداً:

«إن هنالك ثمة مخاوف جدية ستترتب على انتصار المهدي بما يُتوقع أن يتلوه من انعكاسات على العالم الإسلامي. إنه من الممكن جداً أن يكون نجاح الثورة المهدية بمثابة رسالة إيجابية تحرض المسلمين على القيام بانتفاضات مماثلة في المنطقة العربية وبلاد فارس وكل مناطق المسلمين بالهند» [1].

ولم تخمد ذكرى موقعة شيكان في صحافة النصف الشمالي من الكرة الأرضية حتى بعد انقضاء أكثر من عام على وقائعها. ومن ذلك ما خطه قلم الصحفي والبرلماني الإيرلندي أوكيلي -بما عرف عنه من تعاطف كبير مع الثورة المهدية- بصحيفة «ويسترن مورنينغ نيوز» الإنجليزية الصادرة بصبيحة الخميس ٢٢ يناير ١٨٨٥ عن تفاصيل مشاركة المهدي مقاتلاً بسيفه في معركة شيكان وزعم بأنه جُرح في المعركة مدللاً بذلك على بسالته كقائد. وجزم أوكيلي بأن المهدي لم يكن ليخبئ نفسه في المعارك بل كان يقاتل وسط جنوده «He takes part in all battles and does not spare his own person».

ووصف «أوكيلي» المهدي في ذات المقال، بأنه قائد على مستوى متعاظم من الذكاء ويتسم بقدرات شخصية قيادية خارقة لا يمكن أن يتسرب إليها شك[2].

غير أن الصحافة البريطانية لم تغفل أيضاً عن تقريظ جنرال إنجلترا -الذي ابتلعته غابة شيكان- بما يليق من المدح. وفي الاتجاه ذاته، تعرضت صحيفة «شيفلد ديلي تليغراف» لتفاصيل مقتله في أعقاب انقضاء المعركة بمقال مفصل، فذكرت فيه أن الجنرال هكس كان قد قاتل بشجاعة الأسود حتى نقطة النهاية وأفرغ محتويات مسدسه لثلاثة مرات

1 صحيفة «Mercury Reading»،عدد بتاريخ السبت ١ ديسمبر ١٨٨٣.

2 أرشيف الصحافة البريطانية ٢٢ يناير ١٨٨٥.

قبل أن يقاتل بالسيف ثم يُقتل بعد ذاك فكان آخر من لقي حتفه من رجال حملته[1].

واتجهت صحيفة أسكتلندية معروفة كصحيفة «The Dundee Courier And Argus» لتخصيص صفحتها الأولى من عددها الصادر بصباح الجمعة ٢٣ نوفمبر ١٨٨٣ لتحقيق مطول عن تفاصيل معركة شيكان تحت عنوان لم يخلُ من إثارة بيّنة: «الكارثة المفزعة في السودان، هزيمة هكس باشا وإبادة جيشه، تفاصيل المذبحة التي تعرضت لها قوات بلغ تعدادها ١٠ ألف رجل». وأشارت الصحيفة إلى أن المربع العسكري الذي شكل هكس قواته عليه قد تعرض للكسر بواسطة قوات المهدي بعد ٣ أيام من المناوشات والمعارك المتصلة انتهت بإبادة جيشه في شيكان. كما نقلت عن أحد شهود العيان إفادات تشير إلى انه استطاع أن يحصي ١٥٠ من جرحى الحملة المبادة.. أبقى أنصار المهدي على حياتهم بما في ذلك الصحفي فرانك باور[2]. وتحدثت الصحيفة عما وصفته بالشلل التام الذي خيم على حكومة غلادستون بفعل هذه الكارثة ولكنها توقعت أن يتم اتخاذ تدابير رسمية معينة بمساء يوم ٢٣ نوفمبر ١٨٨٣ حيال ما حدث. وحذرت الصحيفة بلهجة صارمة من وجود دلائل تشير إلى إمكانية سقوط ميناء سواكن في قبضة القبائل التي أعلنت عن ولائها للثورة المهدية بشرق السودان، في إشارة منها لعمليات الأمير عثمان دقنة والتي أدت إلى مقتل القائد الإنجليزي «مونكريف» في أعقاب موقعة شيكان مباشرة. وواصلت الصحيفة تحذيراتها المرسلة فتطرقت لتقدم قوات الثورة المهدية نحو الخرطوم الذي بات وشيكاً كما تحدثت بتفصيل عن أن مصر نفسها لم تعد بمأمن من تقدم قوات الثورة السودانية ونبهت إلى أن قوات الجنرال البريطاني «إيفلين وود» المتواجدة بجنوب مصر لم تكن سوى قوات ضئيلة العدد قياساً بما يحدث في المنطقة. وفي ختام تحقيقها المفصل اتجهت «The Dundee» نحو لهجة غلب عليها التشاؤم بخصوص فرص بريطانيا لإعادة الامور إلى ما كانت عليه حين قالت نصاً: «في واقع الحال، ان

1 شيفيلد ديلي تليغراف، ١٩ ديسمبر ١٨٨٣.

2 هناك مصادر أخرى عديدة تؤكد أن فرانك باور قد نجا من مصير بقية زملائه في الحملة المبادة حينما رجع من منتصف الطريق إلى شيكان بدعوى المرض ولكنه انضم لغردون لاحقاً وقتل في الباخرة الإنجليزية التي كان فيها الضابط البريطاني ستيوارت بعد اشتباكات مع قوات الثورة المهدية في مناطق المناصير بشمال السودان في العام ١٨٨٤.

أسراب المقاتلين الضخمة التي تتوفر تحت قيادة المهدي وما يتوقع لأعدادها من تزايد ستقلل كثيراً من توفر العوامل المساعدة لمقاومتنا لتحركاته الناجحة»[1].

ويبدو أن مخاوف «The Dundee» التي جاهرت بها لم تكن بالقطع الأولى على ذلك الصعيد، فقد تعرضت صحيفة لندنية متفردة كصحيفة «London Daily News» قبل الصحيفة المار ذكرها لنشر تحليل مستفيض حول الانتصارات المتتابعة التي حققتها الثورة المهدية بما في ذلك أحداث حصار وتحرير مدينة الابيض التي سبقت موقعة شيكان. وأشارت الصحيفة للوحدة الوطنية التي حققتها المهدية بين قبائل السودان المختلفة قائلة:

«بالإضافة للثلاثين أو الأربعين ألف من رجال المهدي الخلُص الذين يعسكرون معه بمدينة الأُبيض، أنه من الممكن القول بأن المهدي يحظى بالمساندة والتعاون الحيوي مما يقارب الثمانين قبيلة من قبائل السودان والتي تتمدد في أغلبية أراضي هذا البلد الشاسع من حدود صحراء بيوضة إلى أقاصي المناطق الاستوائية وبمقدار مماثل يصعب تحديده لأقاصي حدود دارفور الغربية. هؤلاء الأنصار الذين تتراوح أعدادهم ما بين الـ ٢٠٠-٣٠٠ ألف مقاتل يختلفون كثيراً في البنيان الجسماني والمزاج العام عن جنود أحمد عرابي. في الغالب الأعم تتشابه سحناتهم بدرجة وثيقة مع سحنات الهنود الحمر الأمريكيين وفي كثير من الأحوال تختلط دماؤهم بالدم الزنجي. ويمكن تعميم هذه الصفة على القبائل العربية المتاخمة للمناطق الاستوائية»[2].

وقبل أن يمر شهر على هزيمة هكس بشيكان نشرت صحيفة «مونماوث شاير مرلين – Monmouthshire Merlin» التي تصدر من ويلز تحقيقاً بعنوان «رأي أحمد عرابي في المهدي» حيث أشارت في تحقيقها المؤرخ بتاريخ الجمعة ٣٠ نوفمبر ١٨٨٣ إلى أن انتصار الثورة المهدية الأخير على قوات هكس لم يكن مفاجئاً بالنسبة لعرابي الذي كان يتحدث عن تعاظم نفوذ المهدي بصورة مكررة وقال بما يكفي من الصراحة أن على

1 أرشيف الصحافة البريطانية،٢٣ نوفمبر ١٨٨٣.

2 «لندن ديلي نيوز»،١ مايو ١٨٨٣، أرشيف الصحافة البريطانية.

إنجلترا الآن أن تُعد نفسها لزحف قواته التي ستعسكر يوماً ما بالقرب من القاهرة. وذكرت الصحيفة أن عرابي منذ قدومه إلى منفاه بجزيرة سريلانكا، ظل ثابتاً على رأيه بحتمية انتصار المهدي لأنه- بعكس الأوروبيين - يدرك أن روح الشعوب هناك تتوق بطبيعتها للتخلص عن ما أسماه بـ «الاستعمار المسيحي» شأنها شأن المسلمين في كل مكان[1].

وعلى ذات الإيقاع، مضت تصريحات عرابي اللاحقة عن الثورة المهدية بلهجة متصاعدة من التأييد بعد شيكان وما تلاها من المواجهات مع القوى الاستعمارية. ومن ذلك أن صحيفة «يوركشاير بوست» الإنجليزية الصادرة في يوم الاثنين ٤ فبراير ١٨٨٤ قد نقلت بمكان لافت من صفحاتها تصريحاته التي وصف فيها المهدي السوداني بالزعيم الذي يمتلك مقدرات هائلة تدعمها شخصية قوية متماسكة مما مكنه من أن يحشد خلفه ما لا يقل عن ١٥٠ الف من رجال شعبه الذين جُبلت فطرتهم على القتال»[2].

وبإدراكٍ أعمق لحقائق الأشياء، استدرجت بعض صحف القوميين الإيرلنديين قراءها نحو استكشاف الظروف الإقليمية المحيطة بانتصار الثورة السودانية على حملة الخديوي الغازية بقيادة الجنرال البريطاني هكس قبل أن تعرج للإشارة لبسالة السودانيين الذين وصفتهم بـ«المحاربين المتيقظين». وفي ذلك تحديداً، كتبت صحيفة «**Irishman**» مقالاً مهماً عنونته بعنوان (الانتقام لعرابي)، انتقدت فيه سياسات تركيا الاستعمارية التي أفضت لتحكم البريطانيين في عدد مقدر من المناصب العسكرية العليا لديها. وأبدت «**Irishman**» في ذات المقال تعاطفاً واضحاً مع الثورة المهدية مشيرة ضمناً إلى أن تلك الانتصارات هي بمثابة الانتقام الذي سيزيح عن عرابي ويلات المنفى المترتبة على الغبن الذي اعتمل في صدره جراء إخماد حركته بواسطة الإنجليز. ووجهت الصحيفة قدراً كبيراً من التمجيد لبسالة السودانيين في مقاومة جيوش الغزو الاستعماري مُذَّكِرة بإبادة

1 «**Merlin Monmouthshire**»، ٣٠ نوفمبر ١٨٨٣، أرشيف الصحافة البريطانية.

2 «**يوركشاير بوست**»،٤ نوفمبر ١٨٨٤ ،أرشيف الصحافة البريطانية.

حملة هكس بغرب السودان وما أعقبه من هزيمة ساحقة للقائد البريطاني فالنتاين بيكر على يد قوات الأمير عثمان دقنة بشرق البلاد وما ترتب على ذلك من انتصار ضمني مزدوج للثورة السودانية على البريطانيين والأتراك، وذلك على نحو ما قالت:

«كيف لا يمكن لنا وصف تركيا بالرجل الموغل في الشيخوخة والخَرَف وهي التي ما فتئت تسلم المناصب العليا في إمبراطوريتها لمجموعة من المرتزقة والمنحرفين. ما هي الفائدة العظيمة التي جنتها تركيا من جنرال بريطاني علي نحو هوبرت باشا؟ «عينته تركيا قائداً لسلاح بحريتها». وما الذي عاد عليها من حملة هكس المُبادة؟ لقد أدى ذلك إلى خسران جيش بأكمله ولكن علينا أن نعرف ماذا تلى مذبحة ٦ نوفمبر أيضاً. أُرسلت حملة منظمة أخرى تحت قيادة باشا بريطاني آخر «فالنتاين بيكر». هذه الحملة العسكرية حولتها سيوف مقاتلي المهدي بسرعتها المرعبة إلى مومياوات فأُبيدت بفضل بسالة محاربيه المتيقظين»[1].

صفوة القول، أنه بالاستناد إلى ما تقدم من وثائق يمكن الخلوص إلى أن معركة شيكان وما تلاها من نتائج وتداعيات قد أخذت حيزاً واسعاً من الاهتمام الصحفي البريطاني والعالمي. ونالت شيكان كمثيلاتها من النزالات العسكرية الفاصلة في عالم القرن التاسع عشر قدراً متقدماً من التحليل والتمحيص في تفاصيلها. وقد جرى كل ذلك بقدر لائق بما أحدثته تلك الواقعة من تغيير قلب موازين القوي العالمية – ولو إلى حين – في عالم تناهشته المطامع الاستعمارية التي لا تلقي بالاً لإرادات الشعوب، فكانت شيكان انتصاراً سودانياً شعبياً باهراً اندفع مده في عكس اتجاه جريان النهر الامبريالي العالمي آنذاك وكان من أمره ما كان!.

1 صحيفة «Irishman»، ديسمبر ١٨٨٣.،أرشيف الصحافة الإيرلندية.

الباب الخامس

موقعة تحرير الخرطوم..
٢٦ يناير ١٨٨٥م

موقعة تحرير الخرطوم..
٢٦ يناير ١٨٨٥م

«إن حالة الوهدة المميتة التي أصابت الإنجليز في حروب السودان هي أبسط ما يمكن أن نقرأه من دفاتر الأحداث في الأسبوع الذي سبق. لم يكن المهدي هو الذي انكسر بل على العكس تماماً؛ كان أعداؤه الإنجليز هم الذين نالتهم هزائمه الساحقة بعدما تم تحطيم قواهم العسكرية بقدر كبير. إن هذه الحرب صارت بلا هدف بعد انتزاع الخرطوم من أيديهم ومقتل غردون. ولكن إنجلترا بطبيعتها النازعة نحو السلب والإجرام لم تكن تحتاج لأي مبرارات تسوّغ لها غزو أراضي الشعوب. كان من المفترض إنقاذ غردون ولكن غردون ذهب إلى غير رجعة. الآن تحوّل هدفهم نحو الانتقام لغردون. والوسيلة التي تحقق تلك المهمة الصليبية هي قتل أكبر عدد من أعراب السودان ممن يمكن أن تطالهم أيديهم أو ممن أمكن أن يكونوا في مرمى نيران مدافعهم».

صحيفة «Irishman» الإيرلندية، في أعقاب تحرير الخرطوم[1].

شهدت نهايات العام ١٨٨٤ المفضية إلى بدايات العام الذي تلاه.. صراعاً عسكرياً ملتهباً تصدت فيه قوات الثورة المهدية في مواضع مختلفة من السودان لتقدم القوات البريطانية الغازية فأفلحت بقدر كبير في تعبئة الارادة الشعبية للسودانيين خلفها وتوحيد أشتاتهم المختلفة لتحقيق انتصار تاريخي على الإمبراطورية البريطانية تمثل في تحرير عاصمة البلاد من حكم أجنبي دام لفترة فاقت الستة عقود من الزمان. وأعقب ذلك، تضييق الخناق على القوات الإنجليزية في شمال السودان بالمواجهات المتتابعة حتى أُضطرت بريطانيا لسحب قواتها من السودان دون تحقيق أدنى أهدافها. كل ذلك أدى إلى قيام دولة وطنية، مهما اختلف المختلفون حول تفاصيلها.. إلا أنه

1 عدد بتاريخ ٢٨ فبراير ١٨٨٥.. أرشيف الصحافة الإيرلندية.

سيكون من الصعب جداً على أي ذهن متعقل تجاهل حقيقة مفادها إجماع جل المؤرخين على وصفها بكونها أول دولة مستقلة حررتها سواعد بنيها في عهد شهدت فيه أفريقيا تكالباً استعمارياً أوروبياً محموماً دونته دفاتر المؤرخين تحت مصطلح عرُف في الأدبيات الغربية بمسمى «The scramble for Africa». وقائع فاصلة كتلك، سيبقى من المهم جداً التعرض لتفاصيلها بموضوعية تتوخى الاقتراب من الأحداث بمعقولية الطرح المنبني على الأسانيد والمصادر الداعمة لصحته. وهي ذات المنهجية التي سنحاول جاهدين التمسك بأهدابها فيما سيعقب من كلمات.

بريطانيا ترسل منقذ مستعمراتها.. الجنرال تشارلز غردون حاكماً عاماً على السودان:

عندما اشتد ساعد الثورة المهدية وتوالت انتصاراتها في دارفور وكردفان وشرق السودان.. قررت بريطانيا بالتوافق مع مصر الخديوية إرسال الجنرال «تشارلز غردون» حاكماً عاماً على السودان.غردون الذي ملأ الدنيا وشغل أهل بريطانيا بانتصاراته الباهرة لمصلحة الإمبراطورية التي لم تكن تغرب عنها الشمس. تلك كانت انتصارات متفرقة زخمت آفاق عديدة امتداداً من أرض الصين البعيدة والتي قمع فيها أكبر ثورة شعبية ضد الاستعمار البريطاني وانتهاءاً بوقائعه التي سبقت بأرض القرم في أقاصي أوروبا. مجرد ذكر اسمه كان كافياً لاستثارة حماسة البريطانيين سعياً لردع الثورة السودانية التي سحقت ثلاثة من جنرالاتهم حتى هذه الساعة تحديداً. هؤلاء لن يكون آخرهم «وليام هكس» الذي سقط برماح السودانيين في شيكان ولا «مونكريف» و«فالنتاين بيكر»[1]

1 **فالنتاين بيكر** (١٨٢٧–١٨٨٧): هو الفريق أول «**Lieutenant General**» فالنتاين بيكر باشا. عسكري بريطاني مرموق وُلد بضاحية إنفيلد اللندنية في ١٨٢٧. وهو الشقيق الأصغر للسير البريطاني الشهير صامويل بيكر. خدم جيش بلاده في حرب القرم بخمسينيات القرن التاسع عشر وهي ذات الحرب التي انتصرت فيها بريطانيا بمعاونة حلفائها على الإمبراطورية الروسية. انضم بعدها لفرقة سلاح الفرسان بالجيش الملكي البريطاني المعروفة باسم «**Royal 10th Hussars**» حيث عُين كقائد أعلى للفرقة ذاتها لفترة ١٣ عاماً. وفي أعقاب الاحتلال الإنجليزي لمصر بعد إخماد الثورة العرابية بالعام ١٨٨٢، عُين بيكر قائداً عاماً للقوات المصرية. وتولى بيكر بنفسه قيادة القوات التي أُرسِلت للسودان لمواجهة قوات الثورة المهدية بقيادة الأمير عثمان دقنة بشرق السودان، في محاولة لفك الحصار الذي ضربته قوات الثوار حول مدينة طوكر. نال بيكر وقواته هزيمة ساحقة على يد قوات الأمير عثمان دقنة بموقعة «التيب» التي جرت في الرابع من فبراير ١٨٨٤.ولم يلبث بيكر كثيراً قبل أن يجمع قواته من جديد ليخوض معركة أخرى ضد قوات عثمان دقنة انتهت بإصابة الجنرال البريطاني بجرح بالغ الخطورة. رجع بيكر المنهزم إلى مصر

في مواجهات شرق السودان. وتبعاً لذلك، اندفعت رياح عاصفة من التفاؤل المفرط لتملأ أشرعة العديد من أعلام النخبة ببريطانيا، فكتب الكولونيل «بيفن إدواردز» قائد مدرسة الهندسة العسكرية بالجيش الملكي البريطاني لصديقه جرانفيل وزير الخارجية آنذاك.. بلهجة موغلة في الاحتفائية: «إن مجرد ذكر اسم غردون لهو كفيل بإنجاز العجائب هناك». بيد أن هذا الاحتفاء النخبوي الإنجليزي لم يكن على مبعدة من بعض المشاعر القومية القلقة التي اختبأت ببراعة سكسونية فائقة خلف صلف فطري جُبل عليه أهل تلك البلاد. وقد نجد فيما سبق سياقاً مشابهاً للذي كتب فيه السير «هنري فيرني» القيادي البارز بحزب اللبراليين الحاكم لجرانفيل نفسه قائلاً:

«لقد تمرس غردون على بسط نفوذه بصورة مميزة على الشعوب المتوحشة التي يصعب السيطرة عليها ومثيلاتها من الشعوب غير المتحضرة».

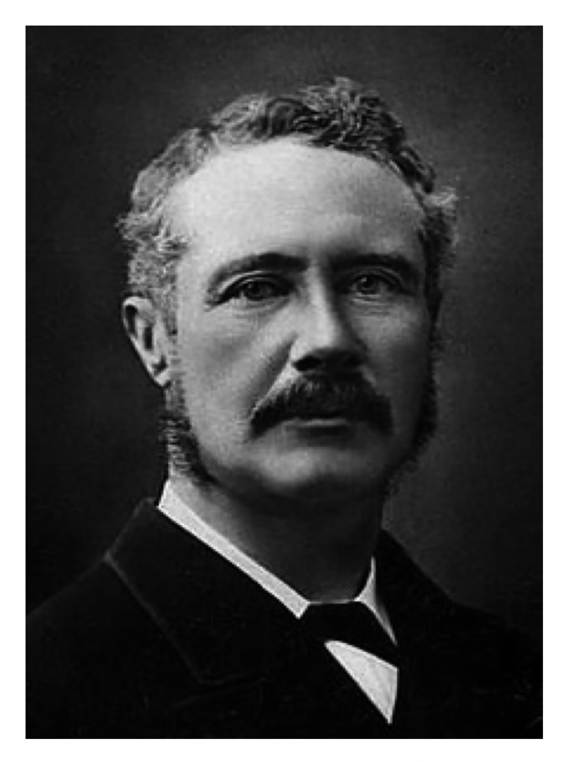
وكان لابد لجرانفيل أن يتسر ما يليه من مهام حتى يجد متسعاً من الوقت لقراءة ذلك السيل من الخطابات التي انهالت عليه غبطةً بتكليف غردون بمهامه الجديدة. تلك الخطابات التي حفل بعضها باندفاع متعجل لم يخلُ – في الكثير من الأحيان – من سوء تقدير كارثي لحقائق الأشياء في السودان، لم يكن آخرها ما كتبه الإداري الاستعماري البريطاني المعروف «أندرو كلارك» لوزير الخارجية المار ذكره حين قال: «إن كان المهدي بمثابة نبي عند شعبه، فإن مكانة غردون في السودان لا شك ستكون أعظم من ذلك»[1].

والحق أن أسطورة غردون التي تشكلت ملامحها بجلاء في الضمير النخبوي لبريطانيا القرن التاسع عشر، لم تعد لتصمد كثيراً بعدما سبر أغوارها مؤرخوهم اللاحقون بشيء

حيث ظل يشغل ذات الوظيفة القيادية بمصر قبل أن يلقى حتفه في١٧ نوفمبر١٨٨٧. وعلى الرغم من الهزائم المدوية التي أذاقتها له قوات الأمير عثمان دقنة، قالت عنه جريدة التايمز الإنجليزية: «من الممكن القول بأن مسيرة بيكر المهنية العسكرية كانت من أروع ما يمكن وصفه..لما قدمه من خدمات عسكرية عظيمة للإمبراطورية البريطانية». انظر:

The Victorians at War, 1815 - 1914: An Encyclopedia of British Military History, by Jr. Harold E. Raugh, Publisher: ABC-CLIO (25 Oct. 2004), Page 42.

1 مقتطفات من مراسلات مع جرانفيل، **جيوش الله.. الإسلام والإمبراطورية على ضفاف النيل**، لدومنيك غرين، الناشر: **House Random Century**، المملكة المتحدة، ٢٠٠٧، ص ١٧٤.



الجنرال البريطاني تشارلز غردون

من الموضوعية البعيدة عن هوجة التقديس التي اكتنفت اسمه لسنوات. وفي هذا الشأن كتب المؤرخ البريطاني فيرغس نكول صاحب كتاب «مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون» قائلاً: «كان غردون رجلاً معروفاً بأفعاله التي قد يكون مبعثها نزوة أو حدس ما، أكثر من استنادها على حقائق صلبة أو استنتاج موضوعي. اشتهر بسرعة الغضب والانفعال المصحوب بأحكام شخصية متعجلة.. كما عُرف بالتصلب والعناد في التمسك بما كان يعتقد بنفس القدر الذي عُرف فيه بسرعته الفائقة في تغيير تلك المعتقدات»[1]. تلك التناقضات المربكة التي أثقلت شخصية غردون بمزاج متقلب كأرجوحة طفل، لم يكن هناك من هو أقدر عن التعبير عنها بمثل أحد الضباط الذين رافقوه في بعض مهامه السابقة وفى ذلك قال:

1 فيرغس نيكول: مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون، مصدر سابق، ص ٢١٤.

«في بعض الأحيان تجده مستعداً للتنازل، عذب المعشر ووديا للغاية وفي أحيان أخرى كان ينفجر ثائراً في وجه أي أحد.. يبدي عنفاً وفظاظة بما يشق على المرء الاقتراب منه. كان يغير خططه حتى وإن شرع بالفعل في تنفيذها. أما أفعاله فكانت تجد طريقها للاكتمال في شكل خط مستقيم في حالة واحدة، ألا وهي دفعه لها بعامل الحماسة»[1].

بكل هذا الإرث من النجاحات الكولونيالية وما صاحبه من نفْسٍ استولى عليها القلق الغلول، وقف غردون على رصيف محطة بولاق الدكرور بوسط القاهرة في انتظار القطار الذي سيقله جنوباً ليتسلم مهامه كحاكم عام للسودان. تبدى للناظرين بقامة فارعة ووجهٍ أثقلته تجاعيد خفيفة خليقة برجلٍ مثله جاوز الخمسين بعامٍ وبضعة أشهر. عبثت بشعر عارضيه الأشيبين هبة خفيفة من رياح أمشير فبدا على وجهه خليط من الثقة والترقب الهياب لما هو قادم. كان متأنقاً كما درج من قبل بحلة سوداء كاملة وربطة عنق وَشَت عن هوس صاحبها بحسن المظهر الذي اختبأ خلفه سيل من الأفكار المصطرعة. بَيد أن ذهنه المضطرب لم يكن ليمنعه من التسليم لقناعاته الحديدية بمقدراته على إخماد تلك الثورة السودانية التي أضمر هو التصميم على كسر شوكتها من دون أن يلتفت لمطالب رسمية بريطانية بسحب حاميات السودان والتقهقر شمالاً. ها هو يستزيد بكل ما من شأنه أن يمكنه مما اشتمل عليه ذهنه من خطط وقد أخذ معه في سبيل ذلك صديقه الكولونيل الشاب ستيوارت والضابط المصري إبراهيم فوزي بذات المقطورة الخاصة التي خصصت لهم بمؤخرة القطار. لا مناص إذن من التقدم في ذات السكك الحديدية التي أقلّت الجنرال وليام هكس وانتهت بسحق حملته الغازية على مشارف مدينة الأُبيض قبل أقل من عام. ولما دارت عجلات القطار في صبيحة يوم ٢٦ يناير ١٨٨٤، لوّح غردون بكفٍّ مترفّع لنوبار باشا رئيس الوزارة المصرية الذي قبع على الرصيف لوداعه بجانب اللورد إيفلين بارينغ قنصل عام بريطانيا بمصر وجمهرة من الرسميين هناك. غردون الذي ظنّ أن كل أوراق اللعبة في السودان بين يديه لم يَدُرْ بخلده قط أنه الآن على بعد مسافة زمانية لن تتجاوز العام عن حتفه النهائي!

1 نيكول، مصدر سابق، ص ٢١٥.

الأمير عثمان دقنة يشعل الثورة بشرق السودان..

وعندما وطِئت قدما غردون أرض مدينة الخرطوم في ١٨ فبراير ١٨٨٤، كانت توجيهات الإمام المهدي قد سبقت للأمير عثمان دقنة[1] في شرق السودان بالإسراع في عملية تحرير مدن الشرق وقطع الطريق أمام أي تعزيزات بريطانية عن طريق البحر الأحمر. ووجّه المهدي من خلال منشوراته، الأمير عبدالله حامد المحمودابي بسرعة

1 **عثمان دقنة** (١٨٤٣-١٩٢٦): هو الأمير عثمان أبوبكر دقنة ينتمي بنسبه لفرعي «الدقناب» و«البشارياب» من قبيلة الهدندوة بشرق السودان. وُلد بمدينة سواكن المطلة على البحر الأحمر بشرق السودان في العام ١٨٤٣. قاوم الحكم الاستعماري مبكراً قبل قيام الثورة المهدية وسُجن قبلها بتهمة تأييد الثورة العرابية في مصر. انضم للثورة المهدية مقاتلاً في صفوفها حين هاجر للمهدي في «الأبيض» قبل معركة شيكان.. فعينه المهدي أميراً على عموم شرق السودان مكلفاً إياه بإشعال الثورة في جبال البحر الأحمر. التفّت حوله قبائل البجا في شرق السودان لمقاومة القوات التركية ومن بعدها القوات البريطانية الغازية هناك، فحقق نجاحات عسكرية كبيرة وألحق هزائم مؤثرة بجملة من الجنرالات الإنجليز الذين أُرسلوا لمواجهته. تولى إمارة شرق السودان بعد انسحاب القوات الإنجليزية وقيام الدولة المهدية. ظل مقاوماً شرساً للقوات الإنجليزية التي جاءت في حملة إعادة احتلال السودان تحت قيادة كتشنر في ١٨٩٨ وشهد كل وقائع مواجهات المهدية معها منذ موقعة النخيلة ومروراً بكرري وانتهاءاً بأم دبيكرات.. إلى أن أُسر العام ١٩٠٠. أرسله البريطانيون ليبقى حبيساً وراء قضبانهم في أماكن متفرقة منها دمياط ووادي حلفا إلى أن توفي في العام ١٩٢٦ دون أن يتزحزح عن إيمانه بالثورة المهدية وبمبادئه في ضرور مقاومة القوى الغازية. دُفن في وادي حلفا، وعندما قام السد العالي نُقلت رفاته من هناك إلى منطقة أركويت بشرق السودان في مبادئ ستينيات القرن الماضي، حيث يوجد ضريحه المعروف والقائم إلى يومنا هذا. واستدرج ذلك الحدث المهم قلم الأستاذ محمد أحمد المحجوب -الشاعر والدبلوماسي ورئيس وزراء السودان السابق – ليدون قصيدة رائعة بعنوان «عودة البطل» قال فيها:

لقيـة أعظـم وعظيـم قـوم أثـارت كامـن الحقـد الدفـين
لقـد هـاب العـداة لـه سلامـاً وقلبـاً قـد تسلّـح باليقـين
وبعـد المـوت هابتـه رجـال دهاهـا الذعـر في الجسـد الدفـين
حصـون البقعـة الثكلـى أفاقـت دوى المجـد في تلـك الحصـون
وعـاد إلى الحيـاة أخـو طعـان تلقّـى المـوت مرفـوع الجبـين
فهـاب المـوتُ طلعتَـه وخـارت فرائـض كـلّ رعـديد مهـين
عـداة الذيـن اثخنتهـم جـراحاً وجـاز الصـف بالسـيف المتـين
أبـا الأشـبال مجـدك فخـر شـعب تدارسـه الكهـول مـع البنـين
صحائـف لا تلـين علـى جبـان خـاض المـوت يهـزأ بالقريـن
تقدّمـتَ الصفـوف وأنـت مـاضٍ تُطاعـن بالشمـال وباليمـين
وتـردي كـلّ ذي عـنت دخيـلٍ وتلـوي بالفيالـق والحصـون

انظر «**عثمان دقنة.. أمير أمراء السودان الشرقي**» للأستاذ سليمان صالح ضرار.
انظر أيضاً: **موسوعة التوثيق الشامل الإلكترونية:**

http//:www.tawtheegonline.com/vb/showthread.php?t.45072=

توحيد قواته مع عثمان دقنة لتحقيق هذا الغرض. وبعث المهدي بمنشور اخر مفصل لقبائل البجا وعموم أهل شرق السودان جاء فيه بعد مقدمة وافية ما يلي:

«وحيث فهمتم ذلك وعقلتموه فإنني موجه لكم الشيخ عثمان أبوبكر دقنة السواكني لكي تستعينوا به على إقامة الدين وجهاد الكافرين وجعلته أميراً مباركاً لكم فإستمعوا له وأَطِيعُوا أمره ونهيه». وحض منشور المهدي السودانيين في ثغر البلاد الشرقي على الوحدة في مواجهة القوى الاستعمارية بجلاء بيّن حين ذكر ما يلي: «واشعروا في ذلك بغاية الجهد وعلو الهمة، واجتمعوا على كلمة واحدة باتفاق الجميع، والكلمة الواحدة هي التصميم على قتال الترك أهل المديرية التي أنتم فيها بعد اتفاقكم بأخذ عهودكم مع الله ورسوله وأميرنا النائب عنا» [1].

واستجاب شيوخ المجاذيب الذين مسهم ضيم القوى الاستعمارية بقيادة الشيخ الجليل الأمير الطاهر المجذوب[2] لنداءات الثورة المهدية فقاتلوا في صفوفها بعزمٍ حميس.

1 **عثمان دقنة.. أمير أمراء السودان الشرقي**، للأستاذ سليمان صالح ضرار، الطبعة الثانية العام ٢٠٠٢، مطبعة رأس الخيمة الوطنية، رأس الخيمة، الإمارات، ص ٥٤، ٥٥.

2 **الشيخ الطاهر المجذوب** (١٨٣٢-١٨٩٠): هو الشيخ محمد الطاهر الطيب قمر الدين حمد محمد المجذوب. كان شيخاً للطريقة المجذوبية بالسودان في نهايات القرن التاسع عشر. وهي إحدى أهم الطرق الصوفية بشرق السودان. عُرفت بكونها فرعاً من فروع الطريقة الشاذلية. ينتمي الشيخ الطاهر بنسبه إلى أسرة المجاذيب الشهيرة بالعلم والتصوف.. والمجاذيب هم أحد فروع قبائل الجعليين بشمال السودان. عُرف بمسجده ومدرسته للتعليم الديني بشهرتها الذائعة بمنطقة قباب بشرق السودان. وكان الأمير عثمان دقنة أحد تلامذته في الطريقة المجذوبية عند قيام الثورة المهدية. بايع الشيخ الطاهر المجذوب الإمام محمد أحمد المهدي وكانت بينهما مكاتبات عديدة قبل قيام الثورة وناصَرَ مع- مريديه وطلابه من الهدندوة والأرتيقة والحباب - تلميذه الأمير عثمان دقنة وقاتل في صفوفه ضد القوات الإنجليزية بشرق السودان. وثّق بشعره للكثير من تلك المواجهات ومنها موقعة «هندوب» والتي قال فيها:

هنـدوب تعـرفُ صبرنـا.. كيـف ارتكبنـا للمصاعـب
وهشـيم تشـهدُ عزمنـا.. كيـف ادّرَعنـا للمصائـب
يـا طالمـا صدنـا بهـا.. صيـد الغضنفـر للثعالـب
جيشـاً يـرنّ سـلاحُهُ.. كالرعـد إذ مـا المُـزن صائـب
وسـواكن تدري بنـا.. أنّـا لـدى الهيجـا نضـارب
بالمُـشرفيّ كأنـه.. وقـعُ الصواعـق في المضـارب
زمنـاً رصدنـا نحوهـا.. نبـدي العجائـب والغرائـب
ونئـزّ في أرجائهـا.. كالليـث إذ نشـب المخالـب

ظلّ على ولائه للمهدية حتى النهاية، توفي في ١٨٩٠ ليُدفن بالقرب من مدينة طوكر بشرق السودان.

ذاك كان شيخ مهيب بقامة مرتفعة أنحلها زهد صوفي فيها مقيم فإتسق كل ذلك مع وجهه الذي ما زادته التجاعيد المنتشرة بأسفل جفنيه إلا وقاراً مازجه توقٌ قتّال لمقاومة القوى المحتلة حتى آخر رمق. وحين وصل الأمير عثمان دقنة بقواته لمنطقة قباب بأركويت خرج لاستقباله الشيخ الطاهر المجذوب في حشد كبير من قبائل الهدندوة بمختلف أفخاذها على نحو الشرعاب والميشاب والتِرك والبشارياب والدقناب والشادلياب. وتقدم الشيخ المجذوب المتعطش للتغيير فقبَّل كتاب محمد أحمد المهدي ووضعه على عينه ورأسه وقام يخطب في مجلسه قائلاً: «هذا هو أمير شرق السودان تلميذي وحبيبي الأمير عثمان دقنة، وقد وافقت على إمارته وها أنا أبايعه أمامكم على السمع والطاعة والتأييد والنصر»[1]. وتبعاً لذلك، تقاطر بقية فرسان «الهدندوة» و«الحباب» و«الأرتيقة» لقتال المستعمرين تحت إمرة أمير الشرق. وأتبع ذلك انتصارات دقنة الساحقة على قوات الجنرال البريطاني «فالنتاين بيكر» واختراق المربع الإنجليزي بتخطيط سوداني عبقري مما أدى إلى تحرير مدينتي «طوكر» و«سنكات» في فبراير ١٨٨٤. وإزاء كل ما تقدم، علق ونستون تشرتشل «رئيس وزراء بريطانيا لاحقاً» في كتابه «حرب النهر» قائلاً: «أحس غردون بأن وضعه في الخرطوم صار مهدداً بسبب العمليات العسكرية في خط انسحابه المفترض»[2]. وسنرى فيما بعد كيف تسّيد الحنق الماحق نفس غردون حتى أنساه ما يليق بحلة القديس التي وضعها على جسده، فطفق يدوّن وصايا أربعاً لجيش جلالة الملكة مشدداً في مقدمتها على ضرورة أن يُذبح عثمان دقنة على قبره إن ظفر به الإنجليز بسبب سَدِّه عليه منافذ النجاة عن طريق البحر الأحمر.

ولكن بالعودة إلى ما سرده تشرتشل، سيبقى لافتاً للانتباه تعرضه لتفاصيل قرار الدوائر الرسمية البريطانية بالتصدي لانتصارت عثمان دقنة على الجنرال بيكر بإرسال السير جراهام بقوات بريطانية من الهند وما أعقب ذلك من ملاحم اصطدم فيها الأخير بالأمير عثمان دقنة وقواته من دون أن يفلح البريطانيون في كسر شوكة المقاومة الضارية

انظر «موسوعة القبائل والأنساب في السودان»، للدكتور عون الشريف ج ٣.

1 الأستاذ سليمان صالح ضرار، مصدر سابق، ص ٥٩-٦٠.

2 تشرتشيل، مصدر سابق، ص ٩٨-٩٩.

التي أبداها السودانيون على سواحل البحر الأحمر. تلك المقاومة التي استدرجت الجنرال جراهام نحو خسائر بشرية فادحة شملت بعض خيرة ضباطه، فرضت بأسها على مخيلة ونستون تشرتشل حين جاهر بإعجابه بمقدرات عثمان دقنة العبقرية واصفاً إياه بالقائد المحنك القادر على تنفيذ انسحابات تكتيكية ذكية بعد خسائر قاربت الـ٤٠٠ جندياً بريطانياً من جيش السير جراهام[1]. وألهب عثمان دقنة بخطبه الحماسية قوات الثورة المهدية ومقاتليها البواسل من قبائل البجا فتصدوا للإنجليز بجسارة أسطورية بقيت بعض مشاهدها حية تعتمل في أذهان من شهدوا تلك الملاحم من البريطانيين. وفي السياق ذاته، ليس هناك ما هو أكثر تعبيراً عما سبق ذكره بمثل ما قاله «فريدريك فيليرز»، المراسل الحربي المرافق للقوات الإنجليزية في شرق السودان.. فلنفسح له مجالاً مناسباً ليسرد ما وقعت عليه عيناه من صمود المهدويين وبسالتهم:

«ما لم تحطم رصاصة ما جمجمة أحدهم أو تخترق قلبه، فإنهم كانوا يندفعون نحونا بشراسة فائقة. حتى وإن أقعدهم الموت باستيلائه على أجسادهم، فإنهم سيقاومون آخر رعشة منه بمحاولة لقطع جسد العدو بالسيوف أو بالطعن أو حتى باستعمال أسنانهم للنيل منه. عندما اخترقوا المربع، اشتعلت المواجهة بقتالٍ مطلق بيننا. عبثاً حاولنا تجميع رجالنا للحفاظ على مواقعنا ولكن ببطء مؤكد، أجبرونا على التقهقر إلى الوراء. عندها كنّا نتلقى أسوأ موجات هجومهم علينا. كان عسيراً علينا تمييز العدو من الصديق وقد حجب الدخان منا الأبصار. لبرهة قصيرة توقف إطلاق النيران فخيّم علينا صمت مروع لبعض الوقت. ولكن القتال ما لبث أن استؤنف باشتباك مميت جرت فيه المواجهة يداً بيد. فانشغل الطرفان بالصياح المزمجر في وجه كل منهما. لقد كان تصويب المسدسات نحو المقاتل البجاوي أمراً لا طائل منه. فهو يبدو وكأنه يبتلع الرصاص ابتلاعاً ثم يتقدم للمواجهة بوجهٍ مبتسم»[2].

لابد أن كل تلك الشهادات كانت تقبع على الورق المتراكم فوق منضدةٍ ما بالقاهرة

1 نفس المصدر.

2 فيرغس نيكول: غلادستون وغوردون وحروب السودان، ص ١٦٩-١٧٠.

قبل أن تخضع للتمحيص اللازم بعدسة الجنرال الاستخباراتي البريطاني ريجنالد ونجت ليَخلُص بعدها إلى وصف الأمير عثمان دقنة «بثعبان الماء الزلق».. كناية على عبقريته العسكرية ومقدرته على إذكاء روح القتال والبسالة وسط جنوده. غير أن كل ما تقدم ذكره لم يكن كافياً للحيلولة دون تدحرج القوات البريطانية الغازية نحو هاوية سحيقة من السقوط في الميدان الأخلاقي الذي تصعدتهم صعوباته على غرارٍ مشابه لفشلهم العسكري في إخضاع المقاومة السودانية بمنطقة جبال البحر الاحمر المتاخمة لسواحله الممتدة بشرق البلاد. فالذي لا شك فيه أن حنق الإنجليز مما سبق قد قادهم لانتهاكات إنسانية دامية كان من ضمنها الإجتراء على تصفية الجرحى بدم بارد وفي ذلك قال المؤرخ البريطاني فيرغس نيكول:

«إن احترام البريطانيين للسودانيين الذين تقدموا مهاجمين في وجه البنادق والمدفعية الثقيلة.. بصورة متكررة وبنفوس منزوع منها الخوف، لم يحل دون الإعدام المنظم للجرحى المهدويين والذي قام به الجنود البريطانيون وطاقم المدنيين المصاحب لقواتهم»[1]. واستوثق نيكول كعادته من مصادره جيداً حين نسب تلك الحقائق لإفادة جنرال بريطاني مهم واجه قوات الثورة المهدية في وقائع مختلفة بشرق السودان على غرار«أندرو هاغارد».

مهما يكن من ذلك الأمر، فقد أفلح عثمان دقنة في الإبقاء على تعليمات المهدي المشددة له على أكبر مستوى ممكن من التنفيذ. وبَقى على الرغم من بعض الخسائر المؤثرة التي تكبدها، سداً منيعاً حال دون تقدم أي قوات بريطانية غرباً حتى تحررت مدينة الخرطوم في ٢٦ يناير ١٨٨٥. وطارت أصداء انتصارات الثورة المهدية الأولى على القوات البريطانية في شرق السودان لأصقاع أوروبا البعيدة، فكتب شاعر بريطانيا الأول «كبلينج».. أروع قصائده عن معارك المهدية مع القوات البريطانية في شرق السودان بعنوان«Fuzzy Wuzzy». ثم تبعه الشاعر البريطاني «جورج أبيل George Abel» فكتب عن ضربات عثمان دقنة الموجعة للقوات البريطانية:

1 نيكول، مصدر سابق، ص ١٦٩.

اصطادنا أعراب السودان بسهامهم
تعزيزاتنا طال انتظارها..
كم تأخرنا كثيراً..
رجالنا النبلاء في سواكن..
لقوا حتفهم لآخر رجل فيهم..
ثم أرسلنا الحملة البريطانية..
فضاعت..
هباءاً منثوراً في الصحراء..
رباه.. وقعوا جميعاً..
في قبضة رجال عثمان دقنة السُّمر[1].

واستدرج ثبات الثورة المهدية أمام جحافل البريطانيين بشرق السودان أقلاماً نخبوية معاصرة ثقيلة العيار على المستوى الإقليمي.. نحو تناول الأمر بما يليق به من التمجيد. بيد أن كل ذلك لم يكن ليخلو من النقد العنيف لما حسبه البعض نموذجاً لقوى الثورة المضادة التي انحازت إلى جانب المحتلين ضد حركة المقاومة. وفي السياق ذاته، تصدى الشيخ جمال الدين الأفغاني لما سبق في صحيفة «العروة الوثقى» لسان حال الصحافة العربية المناوئة للاستعمار آنذاك، فكتب قائلاً:

«وردت برقية من سواكن في ٢١ مارس مفادها أن الشيخ الميرغني ومعه شيخ آخر يقال أنه من مكة ذهبا في ذلك اليوم إلى المعسكر الإنجليزي ليحضرا خضوع كثير من مشائخ القبائل الذين جنحوا إلى السلم مع الإنجليز وفي حين آخر هذا الميرغني صاحب فرقة إنجليزية تسير إلى بئر هندوب[2] ليكون على يديه طاعة بعض القبائل في تلك النواحي ويقال إن إحداها ما زالت مترددة في قبول الطاعة وعدمه. هذا مما يعجب منه أن شيخاً يظهر بين المسلمين بمظهر العلم والرشاد، ثم يقود جيشاً إنجليزياً لإذلال أبناء ملته وإخوان دينه وجنسه. وهو يعلم أن شرفه شرفهم وسيادته بسيادتهم ولولاهم ما

1 جورج أبيل، مصدر سابق.
2 وردت هندوك، ولعل الأفغاني صَحَّفَ أصل الكلمة وهي بلدة هندوب بشرق السودان.

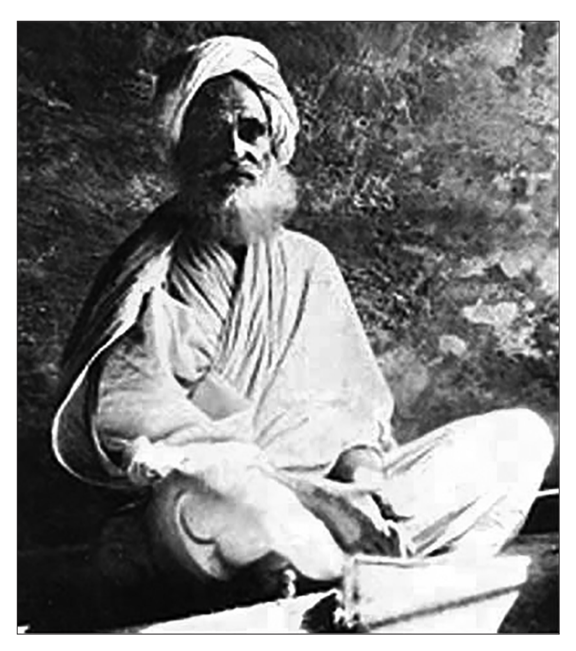
نال الإكرام والإجلال وما أغدقت عليه النعمة وما توفرت لديه دواعي الترف والنعيم وتمتع بكامل لذاته وشهواته. كيف يسوغ له أن يقدم جيوش الإنجليز قبل الوقوف إلى مقاصدهم وماذا يريدون من تذليل جيش العرب وإخضاعهم»، إلى أن يقول: «وكتب إلينا من مصر والحجاز أن جماعة من القطرين حكموا بمروقه وقالوا: إن هذا من أعظم الزلات التي لم يُرتكب نظيرها في الإسلام. على أنه ليس من العلماء ولا من العارفين بطرق الإرشاد وإنما نال الاعتقاد عند بعض السودانيين وراثة من أبيه وأنه لا يتميز عن العامة من الأميين في شيء، وإن كان هذا لا يدفع العجب من فعله» [1].

وفى الواقعة المار ذكرها، أورد الأستاذ سليمان ضرار مضموناً متماهياً مع ما ذهب إليه جمال الدين الأفغاني، وفي ذلك قال: «قام السيد محمد سر الختم الميرغني بإرسال خطاب للأمير عثمان دقنة يدعوه فيه للتوقف عن مناهضة الحكومة، وأرسل هذا الخطاب مع الخليفة محمد بادانين وهو من قرعيب الهدندوة، فاستقبله أنصار الأمير وذبحوا ناقته وأكلوها، ووجدوا عنده أربعين ألفاً من الجنيهات أرسلها السيد محمد سر الختم من أموال الإنجليز ليشتري بها ولاء القبائل، فسُلّمت للأمير عثمان»[2]. واستفاضت العروة الوثقى بقلمي رائدي فكر المقاومة العربية للقوى الاستعمارية - الشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده - لاحقاً نحو الإيغال فيما سبق بالمزيد من الأنباء حين نشرت خبراً مهماً تصدر صفحاتها تحت عنوان «جراهام وعثمان دقنة».. أشارت فيه إلى أن واحداً وعشرين شيخاً من مشائخ قبائل الشرق قد صمموا على مقاومة الإنجليز تحت قيادة عثمان دقنة معلنين «أن لا واسطة بينهم وبين الإنجليز ومساعديهم إلا السيف». وذكرت أن رد الأمير عثمان دقنة على خطاب السيد الميرغني الذي يدعوه فيه للتسليم للإنجليز جاء بالرفض وعوضاً عن ذلك محضه نصحاً حاسماً: «بأن يقوم بإرشاد الإنجليز إلى ترك الحرب ووضع السلاح وهو أولى له من نصح مشائخ القبائل العربية والإسلامية» [3].

1 جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده: **العروة الوثقى**، الناشر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢، ص ٢٣٠.

2 سليمان ضرار، مصدر سابق، ص ٧٥.

3 العروة الوثقى، مصدر سابق، ص١٩٩.



الأمير عثمان دقنة



الجنرال البريطاني جراهام



الجنرال البريطاني فالنتاين بيكر

ولكن بالرجوع لمناورات الأمير عثمان دقنة الناجحة ضد القوات البريطانية بالقرب من سواحل البحر الأحمر، فإن الحقيقة التي يصعب على أي ذهن متعقل تجاوزها، تشير بوضوح إلى مفصلية الدور الذي لعبته حركة المقاومة السودانية هناك في حرمان الإنجليز من التوغل غرباً نحو الخرطوم مما أدى إلى تشتيت جهودهم العسكرية وعزل تكتلاتهم المختلفة في السودان عن بعضها البعض. وفي ذلك تحديداً، كتب الرائد الأمريكي روبرت روسي في دراسته الوافية بعنوان «الثورة المهدية» والتي نال بها درجة الماجستير من كلية القادة والأركان الأمريكية:

«حُرم البريطانيون بواسطة قوات عثمان دقنة من استغلال طريق سواكن - بربر مما أتاح للمهدي وقتاً إضافياً لإنفاذ عملية حصار الخرطوم. وطال الجدال بين البريطانيين واشتد حول خياراتهم لإنقاذ غردون. ولولا قبضة عثمان دقنة الحديدية على المنطقة المحيطة بسواكن، لكان من الممكن جداً أن يجد المخططون الإستراتيجيون البريطانيون خياراً أكثر سرعة»[1].

تلك الحقائق المندرجة في إطار البديهيات بحسبان توفر المصادر العديدة التي تؤكدها اليوم، لم يكن غريباً إدراك أكاديمي أمريكي معاصر وموغل في تكتيكات الصراعات الإستراتيجية المسلحة - على نحو «روسي» - لكنها بهذا المستوى من التفصيل. فحتى صحافة أمريكا باهتماماتها المختلفة في عالم القرن التاسع عشر، لم تجد بداً من إفراد مساحات مقدرة بصحائفها لأنباء مواجهات الأمير عثمان دقنة مع الإنجليز وسده عليهم الطرق الموصلة للخرطوم. ولم تعد تلك الدقائق لتخفى حتى على محرري صحيفة محلية صغيرة تصدر من مدينة «Rock Island» الواقعة على ضفاف المسيسبي، فبدت أمامهم واضحة دون أن يدثرها الغموض. وفي ذلك تحديداً كتبت صحيفة «The Rock Island Argus» بشكل مطابق لوقائع الأحداث الحقيقية لحد كبير:

«على حسب التقارير المحلية الواردة من السودان، فإن الثوار يقومون حالياً بتكثيف قواتهم حول كل الطرق المؤدية للخرطوم. ويزعم الجواسيس المحليون أن المهدي قد

1 روبرت روسي، مصدر سابق، ص ٦٤.

بعث بالأسلحة والذخائر لعثمان دقنة لتمكينه من مواصلة عملياته العسكرية على شواطئ البحر الأحمر». وبالرجوع قليلاً للوراء فإن صحيفة أمريكية أخرى امتازت على «The Rock Island Argus» باتساع قاعدة قرائها، اهتمت بصورة أكثر تفصيلاً بأنباء مقاومة عثمان دقنة لقوات الجنرال البريطاني جراهام بسواحل السودان الشرقي. ونعني هنا تحديداً صحيفة «The Daily Bulletin» التي تطرقت لتفاصيل مختلفة الطابع حين تحدثت عن انعزال الأمير عثمان دقنة عن جيشه في خلوة حفلت بصلاة طويلة تضرع فيها لله طلباً للنصر على الإنجليز قبل المعركة. وهي ذات المواجهة التي تكبد فيها البريطانيون ٨٦ قتيلاً من جنودهم بالإضافة إلى خمسة ضباط من الرتب المتقدمة وثمانية اخرين لم يعثر لهم على أثر. ونوهت الصحيفة إلى أن الثوار السودانيين كانوا يزحفون دوماً للأمام في مواجهة الإنجليز دون اعتبار لما قد يصيبهم من خسائر ثقيلة مشيرة في الوقت ذاته لحشد عثمان دقنة لقواته المقاتلة حول مدينة سنكات[1].

هكذا بقي الأمير عثمان دقنة ومقاتلوه من قبائل البجا..كغصّة سدت منافذ الهواء إلى رئتي القوات الإنجليزية بشرق السودان مما استدعى المؤرخ البريطاني وليام رايت لوصفه بـ«أعتى قادة المقاومة الذين واجههم البريطانيون فيما بين (١٨٨٣–١٨٩٩) – The most formidable opponent of British in the Sudan». بَيد أن وليام رايت لم يُلْقِ الكلام على عواهنه دون أن يبرر الخلاصة التقريرية التي ساقنا نحو نهاياتها حول ما سبقت الإشارة إليه. فكتب «رايت» تحديداً عن عبقرية الأمير عثمان دقنة العسكرية في مقاومة الإنجليز.. قائلاً:

«من الممكن القول بأن الأميرعثمان دقنة كان أكبر عبقرية عسكرية تكتيكية واجهتها الإمبراطورية البريطانية في حروب الصحراء على الإطلاق. فقد كان بارعاً في الإبقاء على تماسك جنوده. ويعرف جيداً كيف يقوم بالاختراقات العسكرية المباغتة الناجحة لتشكيلات القوات البريطانية، فيضرب مؤخرة المربع العسكري للعدو – والذي أدرك دقنة جيداً أن مؤخرته هي أضعف نقاطه – ثم يعرف كيف يقود من بعدها عمليات

1 «The Daily Bulletin»، ٢٥ مارس ١٨٨٤، أرشيف الصحف الأمريكية التاريخية:
https//:chroniclingamerica.loc.gov./

الانسحاب الموفقة لقواته. كان عثمان دقنة يفهم جيداً أهمية رفع الروح المعنوية لرجاله فيؤكد لهم أن الإنجليز قد فروا وولوا الأدبار فيُلهم مقاتليه بمزيد من الشحنات المعنوية التي تحثهم على الثبات والإخلاص في القتال. لقد كان دقنة رائعاً (superb) في إلهاب حماس جنوده بالخطب الحماسية التي تستحسنها آذان الرجال قبل المعركة. وهي ذات المخاطبات التي كانت تستمر لساعات طويلة قبل المواجهات العسكرية مع البريطانيين»[1].

ولكن.. فلنعد قليلاً للخرطوم - حيث كان الجنرال البريطاني غردون قابعاً في قصر الرئاسة أو الحكمدارية - لنرى كيف ضجّت ضواحيها البعيدة بزحف الكتل البشرية السودانية من كل حدب وصوب. في الوقت الذي أصدر فيه المهدي توجيهاته للأمراء الشيخ العبيد ود بدر مع أبنائه إبراهيم، أحمد والعباس[2]، الأميرالشيخ عبدالله

1 **Omdurman 1898: Battle Story**, by William Wright. The History Press, E-Book, 2011, pp.66 - 67.

2 **العبيد ود بدر** (١٨١١-١٨٨٥): هو الشيخ محمد العبيد بن أحمد بن محمد بن علي بن موسى وينتهي نسبه إلى الشيخ محمد الخيار (المكنى ببدر). عرُف واشتهر بالشيخ العبيد ود بدر. ولد في العام ١٨١١بقرية «الحوارة» بجوار مدينة شندي بشمال السودان. يُعدّ من أهم مشايخ الطريقة القادرية وأكثرهم صيتاً على مستوى التصوف الشعبي في السودان، حيث كانت له مدرسة دينية لتحفيظ القرآن..أسّسها بجوار مسجده المعروف بقرية «أم ضواً بان» الواقعة في منطقة شرق النيل المتاخمة لمدينة الخرطوم. كانت له مراسلات عديدة مع المهدي منذ مراحل الثورة المبكرة. وعندما عُيّن الجنرال البريطاني غردون حاكماً عاماً على السودان، رفض العبيد ود بدر الاستجابة لدعواته بالانضمام له وأعلن انحيازه للثورة المهدية. حاصر الخرطوم بقواته المكونة من أتباعه ومريديه من المناطق القبلية القريبة كالمسلمية والعسيلات والمغاربة والمحس والعبدلاب والجعليين والبطاحين والشكرية. وكان الشيخ -الذي كانت سنوات عمره تقترب من منتصف السبعينيات -قد بعث من قبل ذلك بابنه الأمير إبراهيم العبيد ليبايع المهدي في الأبيض. وقاد العبيد ود بدر - مع أولاده إبراهيم والعباس وأحمد - قواته فحاصر الخرطوم من جهة شرق النيل وقطع خط التلغراف هناك وسدّ المنافذ على البريطاني تشارلز غردون حتى لم يعد لديه مخرج أو وسيلة اتصال من تلك الجهة مع القوات البريطانية الغازية في الشمال بقيادة الجنرال ولزلي. كل ذلك أثار حنق غردون اليائس من النجاة فكتب في إحدى وصاياه أن تقوم جيوش حكومة جلالة الملكة فيكتوريا بذبح العبيد ود بدر مع زمرة أخرى من قادة الثورة المهدية أحياء على قبره إن تمكنوا من بسط سيطرتهم على السودان مجدداً. توفي العبيد ود بدر بعد تحرير الخرطوم في بدايات العام ١٨٨٥. وبعث المهدي بخطاب مطول لأبناء ود بدر مريديه يذكر فيه شمائله وسابقته في الجهاد مستشهداً ببيت الشعر الذي عزّى به أحد الأعراب بن عباس بعد وفاة أبيه العباس (رضي الله عنهما):

اصبر نكن بك صابرين فإنما صبر الرعية بعد صبر الرأسِ

خير من العباس أجرك بعده والله خير منك للعباسِ

انظر المصادر الآتية:

الأستاذ عبدالمحمود أبوشامة: **من أبا إلى تسلهاي**، المطبعة العسكرية، الخرطوم، ١٩٨٦، ص ١٢٨-١٣٤.

حمد النيل[1] والأميرعلي الشريف محمد الأمين الهندي[2] بتوحيد الجهود لحصار الخرطوم.

الآثار الكاملة للإمام المهدي، للدكتور محمد إبراهيم أبوسليم، دار جامعة الخرطوم للنشر، ١٩٩٢، المجلد الرابع، ص ٢٤٧-٢٤٩.

مقال بعنوان **قوات الشيخ العبيد ود بدر تحرّر الخرطوم**، للأستاذ حسن مبارك كركساوي، نُشر بصحيفة الصحافة السودانية بتاريخ ٢٦ يناير ٢٠١٢.

1 **الأمير عبدالله حمد النيل**: هو الشيخ عبدالله بن الشيخ حمد النيل بن الشيخ أحمد الريح بن الشيخ يوسف أبو شرا. والده هو الشيخ حمد النيل بن الشيخ أحمد الريح شيخ الطريقة القادرية العركية في ذلك الوقت. عَيّن المهدي الشيخ عبدالله بن الشيخ حمد النيل أميراً على قومه وعاونه في ذلك الشيخ ود البحر وحدث ذلك في أعقاب معركة شيكان في العام ١٨٨٣. وكان الشيخ حمدالنيل -والد الأمير عبدالله - قد استجاب لنداء المهدي فحاصر مع أتباعه -بالتعاون مع الأمير علي الشريف محمد الأمين الهندي والشيخ العبيد ود بدر وابنه سليمان والأمير ود البصير - حاصروا صالح باشا الملك بفداسي فراسلهم المهدي حاثاً إياهم على اتفاق الكلمة والوحدة. وقد شارك الأمير عبدالله بن الشيخ حمد النيل في حصار وتحرير الخرطوم وانضم بعدها لقوات الأمير عبدالرحمن النجومي التي بعث بها المهدي لملاحقة فلول القوات الإنجليزية المنسحبة بشمال السودان. وبعد وفاة المهدي، اشترك الأمير عبدالله حمد النيل في غزو الحبشة رداً على اعتداءات أمراء الملك يوحنا على حدود الدولة المهدية الشرقية بجهات القضارف.

انظر: **دور الصوفية في مقاومة الاستعمار في إفريقيا**، للدكتور عمر مسعود التيجاني، ورقة علمية بتاريخ ٢٠٠٦.
http//:dspace.iua.edu.sd/bitstream.123456789/2854/1/5/pdf

انظر أيضاً: خطاب المهدي للشيخ حمد النيل وآخرين، **الآثار الكاملة للإمام المهدي**، للدكتور أبوسليم، المجلد الخامس، ص ٣٧٥. راجع أيضاً.. أبوشامة: **(من أبا إلى تسلهاي)**، ص ٥٢٥.

2 هو الأمير **علي بن الشريف محمد الأمين الهندي**. بايَع المهدي مبكراً وصار من أخلص أمرائه وحاصر بالتعاون مع قوات الشيخ حمد النيل ابن الشيخ أحمد الريح يوسف أبوشرا والشيخ العبيد ود بدر والأمير محمد الطيب البصير.. حاصروا جميعاً - بناءاً على توجيهات المهدي - صالح باشا الملك «معاون غرون باشا» في قرية فداسي بالجزيرة. بايَع والده الشريف محمد الأمين الهندي المهدي بالأبيّض وهو شيخ مسنّ شارفت سنوات عمره على المائة عام وكان على الرغم من كبر سنه حريصاً على نيل شرف الجهاد ضد المستعمرين. وقد روى تلك الواقعة حفيده الراحل الشريف حسين الهندي في مذكراته حين قال: «وحمل جدي جرابه، وجسده لا يكاد يحمله، وبقي مع الإمام المهدي شهوراً في الهجرة، وعندما حان وقت الهجوم على مدينة الأبيّض، تزود ببضع كسرات من العيش المحروق وتقدّم مع الإمام المهدي، حاول الإمام المهدي أن يثنيه ويرجعه ولكنه -و رجلاه لا تحملانه- كان يقابل ذلك بالرفض والإصرار عليه حتى قال له الإمام المهدي: (أنا لا أستطيع أن أتركك ولكن سرعتنا هذه تعطّل زحف الجيش، وقد يستفيد منها الأعداء.. أرجوك أن ترجع ولك أجر المجاهد، وأن تسأل لنا الله النصر فبيدك اسم الله الأعظم وسر السلاح).. وهنا فقط رجع جدي والحسرة والألم يقطعان نياط قلبه ولم تمض أيام حتى لبى نداء ربه». وبعد وفاة الشريف محمد الأمين الهندي واصل ابنه الأمير علي الشريف محمد الأمين الهندي في درب والده وحاصر الخرطوم مع المهدي ثم سار بقواته ليحاصر مدينة سنار التي قُتل فيها شهيداً في ١٨٨٥ ودُفن بقرية الشريف بجوار الخزان. وسرد الشريف حسين الهندي دور والده الشريف الأمير يوسف محمد الأمين الهندي في الثورة المهدية، فقال في ذلك: «وجاء دور أبي وكان في الخامسة عشرة، وقاد جيشاً للرباط في المتمة على الحدود الشرقية للسودان وظل يقاتل سنيناً حتى استولى كتشنر على أم درمان ثم رجع وهو يقاتل الشفتة وقاطعي الطريق حتى استقر في شرق النيل وغربه في منطقة الربوة». ويستطرد الشريف حسين الهندي ليقول: «وكان سلاطين وقتها مفتشاً عاماً ونائباً عن ونجت الحاكم

وانضم الشيخ عبدالقادر ود أم مريوم[1] حفيد الشيخ حمد ود أم مريوم لركب الثورة المهدية مبايعاً للمهدي ومحاصراً للخرطوم من جهة الكلاكلة، كما قام الأمير الشيخ أحمد المصطفى الأمين ود أم حقّين الشهير بـ«النوراني»[2] بتشديد الحصار من جهة

العام الذي كان غائباً وجرت بينه وبين والدي المقابلة الطريفة الآتية. وعندما أحضر والدي له وهو مكبل بالأغلال:

(أتريد أن تصير مهدياً يا ود الهندي ولم تكن إلا أميراً صغير السن والمقام؟) ورد والدي عليه: (إن الله على كل شيء قدير يا شويطين! فقد كنتَ مؤذّناً لنا وأصبحت الآن مفتّشاً عاماً وكنتَ مسلماً فكفرت بأنعم الله وسيذيقك الله لباس الجوع والخوف)».

انظر: «**لوطني وللتاريخ.. مذكرات الشهيد الشريف حسين الهندي**»، الناشر: مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي، أم درمان – السودان، ٢٠٠٦، ص ٩٧–٩٨.

1 **عبد القادر ود أم مريوم**: هو الشيخ عبد القادر بن إبراهيم بن محمد النور بن الشيخ حمد ود أم مريوم. ينتمي بنسبه لعشيرة «المريوماب» الشهيرة نسبة إلى الشيخ الصوفي المعروف حمد ود أم مريوم والذي ذاع صيته بعهد الدولة السنارية. أما الشيخ حمد نفسه فينتمي للمسلمية من جهة الأب والمحس من جهة الأم. تلقى الشيخ عبدالقادر في صباه تعليماً ديني الطابع في منطقة مسيد ود عيسى المطلة على النيل الأزرق. وكان قاضياً في منطقة الكلاكلة الواقعة بضاحية الخرطوم الجنوبية حينما أتى غردون كحاكم للسودان. انضم للثورة المهدية في فترة حصار المدينة فعيّنه المهدي أميراً، فجمع جيشاً من خواص أتباعه ومريديه ليحاصر به مدينة الخرطوم من ناحية الكلاكلة. كان من أهم الأمراء الذين بعثهم المهدي – تحت قيادة النجومي– لملاحقة القوات البريطانية المنسحبة تحت قيادة الجنرال ولزلي بشمال السودان. شهد معركة كرري وكان عضواً في مجلس القيادة الحربية برئاسة الخليفة عبدالله. عمّر طويلاً وتوفي في العام ١٩١٧ ودُفن بمنطقة الكلاكلة القبة بجنوب الخرطوم.

انظر مقال بعنوان «**الشيخ الأمير/ عبد القادر ود أم مريوم قاضي الكلاكلة ١٨٨٥م**»، بقلم الأستاذ عوض أبو المعالي، نشر بصحيفة **آخر لحظة** السودانية بتاريخ ٢٥ سبتمبر ٢٠١٢. انظر أيضاً: الأستاذ عبدالمحمود أبوشامة: **من أبا إلى تسلهاي**، المطبعة العسكرية، الخرطوم، ١٩٨٦، ص ٥٢٥.

2 **النوراني**: هو الأمير أحمد المصطفى بن الشيخ محمد الأمين ود أم حقّين. ولد بمنطقة الجزيرة اسلانج شمال مدينة أم درمان بالعام ١٨٢٥. عرف المهدي معرفة شخصية منذ وقت مبكر وكانت بينهما صلة صداقة قديمة. خلَفَ والدَه الشيخ محمد الأمين ود أم حقّين الذي ذاعت شهرته كأحد أهم شيوخ التصوّف بالسودان في بدايات الحكم التركي للسودان. انضم أحمد المصطفى ود أم حقّين للثورة المهدية في أعقاب معركة شيكان وعيّنه المهدي أميراً على رأس مجموعات قبَلية عديدة بمنطقة السروراب ومنهم الجموعية والجميعاب والسروراب والحريزاب والنوفلاب والقماراب والجباراب والفتيحاب والزنارخة وغيرهم. حاصر الخرطوم من ناحية أم درمان قاطعاً الطريق على أي نجدة إنجليزية لغردون من تلك الجهة. وكان من أهم الأمراء الذين أسهموا في تحرير مدينة الخرطوم بالعام ١٨٨٥. وبعد وفاة المهدي حضر الأمير أحمد المصطفى لأمدرمان بالباخرة من جهة بيت المال لأجل مقابلة الخليفة عبدالله فأمر الأخير بضرب أم باية – وهي نوع من الطبول أو الآلات الموسيقية تضرب عند الحرب أو لاستقبال قائد مهم في المهدية – وخرج الخليفة على ظهر فرسه مع كل قوات جيش المهدية لاستقبال وإكرام ود أم حقّين في أم درمان عاصمة الدولة المهدية. توفي الأمير أحمد المصطفى في ١٨٨٦ بحسب ما أورده الدكتور عون الشريف قاسم بسفره المهم «**موسوعة القبائل والأنساب في السودان**»، الجزء السادس، ص٢٣٢٣.

انظر «**صولة بني عثمان في ملاحم الثورة المهدية**»، الأستاذ مكي أبو قرجة، دار صفصافة للنشر، القاهرة،

السروراب. وبعث المهدي بالأمير محمد عثمان ابوقرجة على رأس قوات مقاتلة وعهد إليه مهمة حصار الخرطوم إلى حين تحركه هو بباقي الجيش من جهات كردفان نحوها. وتوافد أمراء الرزيقات بقيادة الأمير موسى مادبو وكوكبة من فرسان الزغاوة بقيادة الأمير طاهر إسحاق الزغاوي[1] وصحبهم أمراء المسيرية بقيادة الأمير علي الجلة ومعهم عدد من فرسان المساليت بزعامة الأمير إسماعيل عبدالنبي[2] وولده أبكر وتوافد الفلاتة

العام ٢٠١٤، ص ١٣٦. انظر أيضاً: مقال بعنوان «**الفكي أحمد المصطفى ود أم حقيّن وحصار وفتح الخرطوم**» بقلم الأستاذ الشيخ صلاح إدريس ود أم حقّين، نشر بصحيفة **الصحافة** السودانية، بتاريخ ٢٦ يناير ٢٠١٧.

1 الأمير **طاهر إسحق الزغاوي**: من أبرز أمراء قبيلة «الزغاوة» ومن أوائل طليعة فرسانهم الذين انضمّوا للثورة المهدية منذ موقعة قدير في العام ١٨٨٢. كان مقرّباً من المهدي ومحل ثقته كونه يعتبر في تراث المهدية ممن كان يطلق عليهم «**أبكار المهدي**» أي الرجال ذوي السابقة في مساندته. كان من أوائل سفراء المهدي حين أرسله في كوكبة من فرسان الزغاوة بخطاب لمحمد المهدي السنوسي زعيم الطريقة السنوسية بليبيا طالباً مساندته وهجرته بأتباعه لينضم للثورة المهدية أو قيامه بمجاهدة المستعمرين في بلاده ومن ثم تحقيق اتحاد الكلمة والتعاون لطرد القوى الاستعمارية من بلاد المسلمين. انظر: **معالم من العلاقات الخارجية للدولة المهدية (١٨٨٥– ١٨٩٩)**، مقال للدكتور محمد عبدالرحمن عريف، نشر بصحيفة «**رأي اليوم**» بتاريخ العشرين من أغسطس ٢٠١٨.
https://www.raialyoum.com/index.php/%D9%85%D8%B9%D8%A7%D9%84%D9%85-%D9%85%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D8%A7%D9%82%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%AE%D8%A7%D8%B1%D8%AC%D9%8A%D8%A9-%D9%84%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85/

2 هو الفقيه الأمير **إسماعيل عبد النبي** من أهم زعامات قبيلة المساليت في الثورة المهدية. بالإضافة لانتمائه للمساليت المنتشرين بمنطقة غرب دارفور حيث أماكن نفوذهم التاريخية المعروفة، كانت تجري فيه دماء ترجعه بالنسب لقبيلة خزام الكردفانية العريقة. وقد أسّس جده محمد ساجا خلوة (درجيل) بمناطق المساليت، والتي توارث أحفاده إدارتها. وقد تلقى والده عبد النبي العلم والفقه على يد الشيخ إسماعيل الولي بالأبيّض، ومن ثم انتسب للطريقة الإسماعيلية. ولقد أصبح إسماعيل فقيها مثل والده؛ وبهذه الصفة سافر كثيراً في غرب دارفور. وعندما ظهر المهدي ذهب إسماعيل وبعض من عشيرته لزيارته في كردفان (قدير والأبيّض)؛ وعاد ليبشر برسالة المهدي الدينية الجديدة، ويعلّم المساليت الشهادة والجلالة كما طلب منه المهدي. ومن المؤهلات الرئيسية التي أهّلت إسماعيل عبد النبي للزعامة، كونه فقيهاً تحت نظام جديد مؤسِّسُه فقيه هو الآخر، ألا وهو محمد أحمد المهدي، والذي كان إسماعيل عامله. وقد عُرف عن إسماعيل اهتمامه بتعاليم الدين والعقيدة المهدوية؛ فهو قد علّم المساليت ترديد (الشهادة) و(الجلالة)، وأمر الناس بالانتظام في الحضور للصلاة في المساجد، والالتزام بالصيام في رمضان. كما منع التمباك والمريسة، وطبّق توجيهات المهدي بتخفيض المهور. كذلك حارب بعض الممارسات الاجتماعية التقليدية، المتمثلة في الطقوس الدينية ذات الجذور الوثنية، والتي كانت تمارس أمام أحجار معينة، أو في قمم الجبال، أو في الكهوف، والأشجار الكبيرة، طلباً للمطر أو المنافع الأخرى. وقد أغلق إسماعيل الطريق المؤدّي إلى مزار (حجر جاركوني)؛ ومن بعده قطع السلطان تاج الدين (شجرة بيدا) لوضع نهاية للطقوس الوثنية التي كانت تؤدَّى تحتها. وفي ١٨٨٦ قام محمد خالد زقل بتسمية إسماعيل عبدالنبي

بخيلهم بقيادة الفكي الداداري[1]. وتقاطر فرسان الحلاويين من الجزيرة تحت إمرة الأمير ود البصير[2] والأمير عبدالرحمن القرشي ود الزين وثلة من فرسان الشكرية بقيادة الشيخ عبدالله عوض الكريم أبوسن.. وفرسان العركيين بقيادة الأمير أحمد حمدان العركي والأمير إدريس ود الشيخ مصطفى العركي.. وتقادمت قوات من قبيلة الكواهلة بقيادة الأمير جادالله ود بليلو مع مجموعة من الدناقلة السواراب تحت راية الأمير ميرغني

عاملاً للمهدية بدارفور. ويُعدّ السلطان أبكر بن الأمير إسماعيل عبدالنبي هو أحد أهم مؤسّسي سلطنة المساليت المعروفة وحكم بعده السلطان تاج الدين بن الأمير إسماعيل عبدالنبي والذي قاتل الفرنسيين وهو يتقدّم فرسان المساليت ببسالة معروفة وانتصر عليهم في معركة كريندينق الشهيرة بالعام ١٩١٠. انظر «**تاريخ دار مساليت ١٨٧٠- ١٩٣٠م (٣)**».. مقال بحثي عن كتاب بنفس العنوان.. المقال للأستاذ عبد المنعم خليفة خوجلي، نشر في جريدة **الصحافة** السودانية بتاريخ ١٦ - ٠٩ - ٢٠١٠.

1 **الفكي الداداري**: هو الأمير بيلو الداداري من أهم قيادات قبيلة الفولاني في المهدية. هاجر لمنطقة غرب السودان من منطقة سوكتو بنيجيريا منذ وقت مبكر. والتحق بالثورة المهدية في أعقاب موقعة قدير بالعام ١٨٨٢.. وقد سبقه ابنه الأمير محمد بيلو في الانضمام لصفوف الثورة المهدية. كان من العلماء العارفين واشتهر بالورع والصلاح بأوساط مجموعات الفلاتة المختلفة بالسودان. وبان نفوذه بعد وفاة المهدي حين تقدّم ليبادر بمبايعة الخليفة عبدالله فتقدم الآخرون على إثره. مثّل حلقة وصل مهمة بربط أحفاد الشيخ عثمان دان فوديو بنيجريا مع المهدية. لعب دوراً مهماً في مراسلات المهدي مع الشيخ سعيد حياتو حفيد الشيخ عثمان دانفوديو الذي عاصر المهدية وأيّدها. شهد معركة كرري متزعماً قوات قبيلة الفلاتة مع ابنه الأمير محمد بيلو.

2 **الأمير ود البصير**: هو الأمير محمد بن الطيب بن أحمد البصير بن عبدالرازق بن محمد نور. ينتمي لفخذ «المديداب» من قبيلة «الحلاويين» المعروفة بانتشارها الواسع بمنطقة الجزيرة بوسط السودان. كان شيخاً صوفياً سمانيّ الطريقة تماماً كجده الشيخ أحمد البصير الذي عُرف بالزهد والورع وكانت له خلوة لتدريس العلوم الدينية بالمنطقة المسماة بـ«حلة ود البصير» التي اشتهرت منذ عهد السلطنة الزرقاء. زامل الأمير ود البصير صديقه محمد أحمد المهدي بخلوة الشيخ القرشي ود الزين بالحلاويين. وامتدت الصداقة بينهما لاحقاً لتمضي نحو روابط المصاهرة بعدما تزوّج المهدي بالسيدة السرة بنت الأمير ود البصير وكان ذلك قبل قيام الثورة المهدية بسنوات ثلاث. وكان الأمير ود البصير من أوائل الذين استجابوا لنداءات المهدي عند اندلاع الثورة المهدية فعيّنه المهدي أميراً وقائداً لفرسان قبيلة الحلاويين. وأشعل ود البصير بدوره ضرام المقاومة في منطقة الجزيرة وحاصر مع زمرة من أمراء المهدية صالح باشا الملك في فداسي. وسار ود البصير في كوكبة من فرسان قبيلته لينضم لقوات المهدي المحاصرة للخرطوم فاشترك مشاركة فاعلة في عملية تحرير المدينة بالعام ١٨٨٥. واستقر بقواته مع المهدي بعد تأسيس مدينة أم درمان كعاصمة وطنية للدولة المهدية في المنطقة الواقعة بشمال المدينة حيث يوجد إلى الآن شارع «ود البصير» الشهير المتاخم لحي الهجرة والذي كان في الأصل اسمه «حي هجرة ود البصير». وبعد وفاة المهدي اشترك ود البصير في عدد من الوقائع العسكرية للمهدية. توفي الأمير محمد ود البصير بمهلة ود البصير بالقرب من قرية المحيريبا في منطقة الحلاويين بحوالي العام ١٩٢١.

انظر «**موسوعة القبائل والأنساب في السودان**» للبروفيسور عون الشريف قاسم، الجزء الأول، ص٣٠١- ٣٠٣.

صالح سوار الذهب، كما تنادى فرسان كنانة ودغيم والحسنات والعمارنة ودويح بقيادة الأمير بابكر ود عامر[1] وود مدرع والفقيه سعيد الدويحي من النيل الأبيض. وتوافد «البطاحين» بنواحي الجزيرة ليلتحموا ببني عمومتهم القادمين برفقة المهدي تحت إمرة الأمير عثمان النائب أمير البطاحين بقوات المهدية. ومن شمال السودان تقدَّم فرسان العبابدة والمناصير والرباطاب تحت قيادة الأمير الحسن سعد العبادي[2]. والتحمت تلك الجموع ببعضها بعضاً ومن ثم عُيّن الأمير عبدالرحمن النجومي أميراً للأمراء وقائداً عاماً لحصار الخرطوم، فأحاط هؤلاء جميعاً بالمدينة، إحاطة السوار بمعصم اليد. ولعل تاريخ السودان القريب أو البعيد لم يشهد تنادي أشتات نخبوية وشعبية سودانية مختلفة لمحاربة قوى استعمارية تحت راية سودانية موحَّدة كذلك الذي حدث إبان عملية تحرير

1 هو الأمير **بابكر ود عامر**..أمير قبيلة العمارنة التي تنتمي لقبيلة رفاعة الكبرى بالسودان.وُلد بمنطقة جبل موية جنوب الجزيرة المروية بالنيل الأبيض مابين ١٨٤٣م إلى ١٨٤٦م. بايع المهدي مبكراً وشهد هو وأقاربه أولى معارك الثورة المهدية بجزيرة «أبا» وشارك كقائد عسكري مهم في معظم مواقع الثورة المهدية ضد القوى الاستعمارية. كان من أهم أمراء المهدية أثناء حصار الخرطوم وابتعثه المهدي مع قوات من أهله العمارنة لمناصرة الشيخ العبيد ود بدر من ناحية شرق النيل. شارك في حصار وتحرير مدينة سنار فيما بعد. شارك في كرري كأحد أهم أمراء الراية الخضراء ولم يقتل بتلك المعركة فاستقر بمنطقة سقدي ولكنه ما لبث أن تعرّض للزجّ بسجون الإنجليز لعدة مرات وكان أبرزها حين قامت حركة الأمير عبدالقادر ود حبّوبة المسلحة ضد الاستعمار البريطاني بمنطقة الجزيرة. توفي في العام ١٩٢٨ بقرية هجاليج الواقعة بالقرب من مدينة ربك بالنيل الأبيض.

2 **الحسن سعد العبادي** (١٨٤٧-١٩٠٥): هو الأمير الحسن بن الحاج سعد العبادي. وُلد بالغبش قرب مدينة بربر في ١٨٤٧ لأب ينتمى لقبيلة العبابدة المعروفة بشمال السودان. أما والدته فتنتمي لقبيلة الرباطاب من فخذ «السنجراب». كان شيخاً عالماً متفقهاً وشاعراً جزل القوافي. زامل الإمام المهدي وصادقه بخلاوي الغبش في سبعينيات القرن التاسع عشر حيث تلقى كل منهما تعليمه على يد الشيخ محمد الخير عبد الله خوجلي هناك. هاجر للمهدي في الأبيض وبايعه منذ العام ١٨٨٣. شهد شيكان مقاتلاً في صفوف الثورة المهدية ضد حملة الجنرال البريطاني وليام هكس. عيّنه المهدي أميراً على مجموعات قبَلية مختلفة منهم أهله العبابدة والرباطاب ومجموعات من المناصير والفادنية والعبابسة. شهد مع المهدي معظم المعارك وشارك في موقعة تحرير الخرطوم. وقارع العلماء الدينيين الموالين للجنرال البريطاني غردون وحملة تخذيلهم الرامية لمنع السودانيين من الانضمام لصفوف المهدية مع صديقه الأمير الحسين الزهرا برسائل أدبية كثيرة. بعد وفاة المهدي عيّنه الخليفة عبدالله أميراً لإمارة البوغاز بجهات عتباي وصحرائها القريبة من البحر الأحمر فتمكّن من تأمين الحدود السودانية من جهة البحر الأحمر بشنّ غارات استباقية على بعض الطوابي المصرية بجهات البحر الأحمر في ١٨٩٠. ظل نافذ الكلمة في جهات الرباطاب لوقت طويل وتولى القضاء في بعض مراحل المهدية. وأنشأ من حرّ ماله مجموعة من الخلاوي الدينية بلغت في تعدادها سبعاً أو أكثر. عزله الخليفة عبدالله من إمارة البوغاز لاحقاً فلزم الفروة بمدينة أم درمان. توفي بينبع في ١٩٠٥ بعدما حجّ حجته الأخيرة بالعام ذاته.
انظر «**موسوعة القبائل والأنساب في السودان**»، للبروفيسور عون الشريف ج ٣، ص٥٩٣-٥٩٤.

الخرطوم..وفي هذا الشأن يقول البروفيسور الأمريكي ريتشارد ديكميجيان أستاذ العلوم السياسية بجامعة جنوب كاليفورنيا..في سفره القيم بعنوان (كاريزما القيادة في الإسلام، مهدي السودان):

«لقد كانت مقدرة المهدي على مخاطبة وتحريك الجماهير أفضل مثال للبساطة والوضوح المطلوب. في مجتمع معقد ومتعدد الأعراق والثقافات كما هو حال السودان في القرن التاسع عشر، كانت الثورة المهدية تمثل نقطة التقاء لمطامح وامال عريضة لقوى قبلية واجتماعية وسياسية مختلفة قاومت الاحتلال الأجنبي. لقد كان لكاريزما القيادة عند المهدي الدور الأكبر في تجاوز تقاطعات تلك القوي واسترضاء اشتاتها المختلفة وتحقيق التجانس والانصهار بينها ثم الوحدة ومن ثم الانتصار للثورة»[1].

وفى السياق ذاته، توقف الأكاديمي العسكري الأمريكي روبرت روسي عند مقدرة الثورة المهدية في مرحلة حصار الخرطوم على تجاوز التقاطعات القبلية بتوظيف التعدد المجتمعي في السودان لصالح حركة المقاومة عن طريق إشراك كل الأقطاب القبلية المختلفة فيها وما تبع ذلك من غرس لأوتاد متينة قامت عليها القومية السودانية لاحقاً. وليس أدل على ذلك من شيء مثل قوله:

«كانت للمهدي مقدرة واسعة على توظيف القادة الذين عملوا معه لتنظيم وقيادة شعبه في الثورة. لقد انتبه منذ وقت مبكّر إلى أنه لن يكون متاحاً لديه التواجد في كل تلك الأمكنة والقيام بكل شيء بنفسه. ومن ذلك أنه قد قام بإيكال المهام للآخرين بكفاءة عالية في عملية الجهاد لإسقاط الإدارة الاستعمارية. وبدرجة أكثر أهمية، فقد قام المهدي بوضع الأساس الذي ارتكزت عليه الروح القومية السودانية عن طريق اختياره للقادة من القبائل المحلية ومن ثم تكليفهم بمسئوليات سياسية وعسكرية»[2].

وفي أكتوبر ١٨٨٤، وصل الإمام المهدي بجيشه إلى ضواحي الخرطوم فأقام معسكره بنواحي «أبوسعد» المقابلة للمدينة المحاصرة في الضفة الأخرى من النهر، وهرع كبار

1 ديكميجيان ووزموريسكي، مصدر سابق، ص ٢٠٦.

2 روسي، مصدر سابق، ص ٥١.

الإمراء لاستقباله والاحتفاء بمقدمه. ولحظ الجميع تورّم قدميه حيث أن القائد أصر على قيادة الجيش بنفسه وهو يمشي راجلاً من كردفان إلى الخرطوم إظهاراً للتضامن والتشجيع لبعض أنصاره من المشاة الذين لا يمتلكون جياداً أو دواباً للسفر[1]. ولم يهدر القائد الكثير من الوقت فأصدر منشوره الشهير لأمراء الثورة المهدية وقواتهم المحاصرة للخرطوم حاثاً على الانضباط وعدم التعرض للمدنيين بأي أذى. واصطفى المهدي كعادته كلمات جلية مباشرة لتبيان مقصده حتى لا يلتبس منه شيء على أذهان رجاله ومن ذلك قوله:

«حيث لا يخفى عليكم أن الظلم دمار وهو محرّم كتاباً وسنة وليس من دأب الأخيار وإنما هو طريق الكفار الفجّار. وأنتم أنصار الله وقد خرجتم في سبيل الله، فاحذروا من فساد هجرتكم وصونوا أنفسكم من التعرض للناس في حقوقهم وأموالهم بالطريق لغاية وصولكم ذهاباً وإياباً واعلموا أن من تعدّى على أحد في نفسه أو ماله فنحن غير راضين عليه ولابد أن ينتقم الله منه في الدنيا قبل الآخرة»[2].

غير أن ما تَقدَّم من تعليمات مشدّدة لن يسهل سبر أعماق ما ورائها دون الإشارة إلى ما نقله فيرغس نيكول عن مجهودات المهدي لحقن الدماء ومحاولة إقناع غردون بتسليم المدينة حين يقول: «لقد شرع محمد أحمد المهدي في حملة مراسلات مطولة امتدت لزهاء العشرة أشهر لإقناع غردون بالعودة إلى بلاده مكرماً بدلاً من إزهاق باقي عمره في الدفاع عن ما لا فائدة في الدفاع عنه!»[3]. كما بدأ الأمير محمد عثمان أبوقرجة حملة مراسلات مع غردون لتحقيق نفس الغرض من دون نجاح يذكر. وفي السياق نفسه،أورد المؤرخ البريطاني الفريد هيك صاحب كتاب «يوميات الجنرال غردون»

1 إسماعيل عبدالقادر الكردفاني: **سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي**، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبوسليم، الناشر: دار الجيل، بيروت، ١٩٨٢،ص ٣٣٦.

2 منشور المهدي للأنصار الزاحفين لحصار الخرطوم من جهة السبلوقة تحت إمرة الأمراء أحمد المصطفى ود أم حقّين وأحمد ولد فائت والعطا محمد دود، بتاريخ ديسمبر ١٨٨٤، أبوسليم: **الآثار الكاملة للإمام المهدي**، دار جامعة الخرطوم للنشر، ١٩٩٢، المجلد الخامس، ص ١٦١.

3 فيرغس نيكول: **مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون**، ص ٢٢٢.

نص خطاب الأمير عبدالرحمن النجومي[1] لغردون والذي نقله نيكول أيضاً، وجاء فيه: «لقد مضى زمن طويل وأنت لا تريد الإذعان والتسليم.. ولقد أمدنا الله الآن بالرجال الأشداء الشجعان ومنهم أصحابنا وأحبابنا..رجال يحبون الموت في سبيل الله تماماً كما تحب أنت الحياة! يجاهدونك طمعاً فيما عند الله من ثواب. الموت أحب إليهم من زوجاتهم ومن كل ما يملكون في هذه الدنيا الفانية. إن المهدي يعمل لخيرك وصلاحك. وعلى الرغم من ذلك ما زلت أنت في عنادك وتكبرك، تدير ظهرك لذلك وتعتمد على قواك الزائلة والتي ستتجرد منها قريباً بإذن الله»[2].

وتشاغل غردون عن الرد على ود النجومي بهوايته المحببة التي لم تكن سوى غزو الأفق البعيد بمنظاره المكبر وقد احترقت نفسه المتململة شوقاً لرؤية طلائع حملة الإنقاذ الإنجليزية. وأتاه ذاك المنظار مجدداً بمشهدٍ أهال على آماله الندية أرتالاً من اليأس ليس لمداها منتهى. ها هي طلائع قوات الأمير محمد عثمان أبو قرجة تسد عليه منافذ البصر لتحاصر المدينة من ناحية ضاحية الجريف وما أن انتصف ذاك اليوم بشمسه الصيفية الحارقة حتى وجد غردون على مكتبه رسالة الأمير «أبو قرجة» التي يدعوه فيها كَدَأْب صاحبيه للتسليم مع التنويه على ما انتوى عليه من حفظ دماء كل من سلم من أهل

1 الأمير **عبدالرحمن النجومي** (١٨٥٠-١٨٨٩): هو عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عبدالرحمن النجومي. ينتمي بنسبه لفخذ النافعاب من قبيلة الجعليين. أما والدته فهي زينب إبراهيم عبدالرحمن الشيخ خوجلي ابو الجاز. ولد عبدالرحمن النجومي بقرية «مويس» في غرب شندي في العام ١٨٥٠. التقى بالإمام المهدي بخلاوي الغبش في سبعينيات القرن الـ١٩ حيث تتلمذا سوياً على يد الشيخ محمد الخير في مدينة بربر. انضم للثورة المهدية منذ أعقاب أولى معاركها ضد القوى الاستعمارية بجزيرة أبا في ١٨٨١. وفطن المهدي لمقدراته العسكرية الفطرية مبكراً.. فسرعان ما عيّنه أميراً عاماً وقائداً ميدانياً لقوات الراية الحمراء تحت إمرة قائدها الأعلى الخليفة شريف. تجلّت مواهبه القيادية في مواقع عدة منها على سبيل المثال معركة شيكان وتحرير الخرطوم ومعارك ملاحقة فلول القوات الإنجليزية المنهزمة في شمال السودان في ١٨٨٥. بعد وفاة المهدي، ظل النجومي مخلصاً للثورة فكان من أوائل من بايعوا الخليفة عبدالله. قُتل الأمير ود النجومي وهو يقود قواته التي كانت تتقدّم نحو مصر فأوغلت في جنوبها حتى بلغت توشكي. هناك دارت معركة عنيفة في العام ١٨٨٩ بين المهدويين والقوات الإنجليزية بقيادة الجنرال غرانفيل. انتهت بهزيمة قوات النجومي واستشهاده مع أهم أمرائه على نحو الأمير عبدالحليم مساعد. انظر «**رجال حول المهدي**» للمؤرخة الفرنسية فيفيان ياجي. انظر أيضاً: «**إلى أمير أمراء المهدية عبد الرحمن ود النجومي.. من حفيده في ذكرى مرور ١٢٦ عاماً على تحرير الخرطوم**»، مقال بقلم السفير/ محمد عثمان النجومي، نُشر في الصحافة يوم ٢٦ - ٠١ – ٢٠١١.

2 نفس المصدر، ص٢٣٧.

المدينة ومن ذلك قوله:

«إني حضرت من قِبَل المهدي أميراً على البرّين والبحرين، وقد أخذت فداسي وجئت إلى الخرطوم وأنصح أهلها بالتسليم. فإذا سلموا سَلِموا وأمنوا على أموالهم وأرواحهم وإلا فلابد لي من محاربتهم وأخذ المدينة منهم عنوة والسلام»[3].

والتحم إرث الثورة المكتوب مع الوجدان الشعبي المقاوم للاستعمار فاستحالت تلك الكلمات إلى أهازيج شعبية رددنها النسوة بمعسكر المهدي فشقت بعضها طريقها إلى أذني غردون من دون أن يدرك منها شيئاً سوى اسمه الذي تصدرها:

يا الغردون سلم ما ترجى..
دي حرابة الحاج اب قرجة..
أم الغردون الليلة وين تنومي..
حراق حشاك ود النجومي..

أو أهازيج أخرى أكثر رواجاً على غرار:

يا الغردون في بني عمك..
ديمة المولى زايد همك..
وقت أنصار الإمام إتلمّت
أمانة الجُلة في قلب أمك..

و أنشدت الشاعرة الشعبية الذائعة الصيت «بت مسميس» أبياتاً خالدة نعت فيها من استشهد برصاص قناصة غردون من فرسان المهدية المحاصرين للمدينة ومنهم الأمير «نصر عثمان» شقيق الأمير الحاج محمد عثمان ابو قرجة:

حاج أمحمد أخوي يأجرنا ويأجرك الله..
في عريس الخيل أمات سبيباً جَرَا..
دخل العوق الباروده يتجلى..

3 صولة بني عثمان في ملاحم الثورة المهدية، الأستاذ مكي أبو قرجة، ص ١٣٦.

وقدم التهليل وروحه في شان الله [1].

وفي أقصى ديار قبيلة الشايقية بالشمال، تسربت تلك الروح الثورية في مواجهة المستعمرين لتنغرس في وجدان الشعر الشعبي هناك حتى حينما كان الغرض من نظم أبيات معينة..الغزل العفيف وليس سواه، فشُبهت الفتيات الحسان بـ«بكيرة» المهدي أي ناقته التي إمتطاها في مقدمة جيشه القادم لمحاصرة الخرطوم وقد عرفت الناقة ذاتها بالرشاقة وخفة الحركة. ومن ذلك قول شاعر الشايقية حسونة في وصف محبوبته:

يا دهيب تبري أم الحسن
يا بكيرة المهدي أم رسن
طاردن حد ما طاردن
في ربع مشوارها ما جن[2].

وعلى مستوى أكثر صفوية، كتب الشيخ محمد عمرالبنّا خريج الرواق الأزهرى رائعته الشهيرة[3]:

الحرب صبر واللقاء ثباتُ	والموت في شأن الإله حياة
والجبن عار والشجاعة هيبة	للمرء ما اقترنت بها العزمات
والصبر عند البأس مكرمة	ومقدام الرجال تهابه الوقعات

كل ذلك المنتوج الثقافي الذي انتمى بالبنوة الشرعية للحالة الوجدانية الثورية التي وسمت المزاج العام للسودانيين آنذاك، جاء مصحوباً بحصار عسكري صارم للمدينة ومقاطعة اقتصادية شعبية على أعلى مستوى. لم يكن اتفاق كل تلك العوامل ليعني شيئاً أكثر تحديداً من إقامة سياج قاتل من العزلة حول غردون بداخل أسوار المدينة. لذا انجرّ الجنرال الإنجليزي كدأبه دوماً ليَنشُد الفكاك مما حاصره من أجواء خانقة بتدوين بعض

1 نفس المصدر.

2 «**الشايقية ومواقفهم من المهدية**» للدكتورة فاطمة أحمد عمر، ص ١١٣.

3 **الشعر العربي السوداني في أيام الدعوة المهدية**، مقال للأستاذ أسامة قرشي محمد حسن، نشر بجريدة **الصحافة** السودانية بتاريخ ١٧ مايو ٢٠١٣.

خطراته بأوراق مفكرته.. فكتب مسلماً ببأس الإرادة الشعبية السودانية التي أحاطت به كما يحيط فيلقٌ من الصيادين بفريسة ما:

«الناس هنا كلّهم مصطفّون ضدّنا. ويا لها من قوة هائلة تلك التي يمتلكونها! إنهم لا يحتاجون أن يقاتلونا، مجرد امتناعهم عن بيع الحبوب لنا سيكون كافياً»[1].

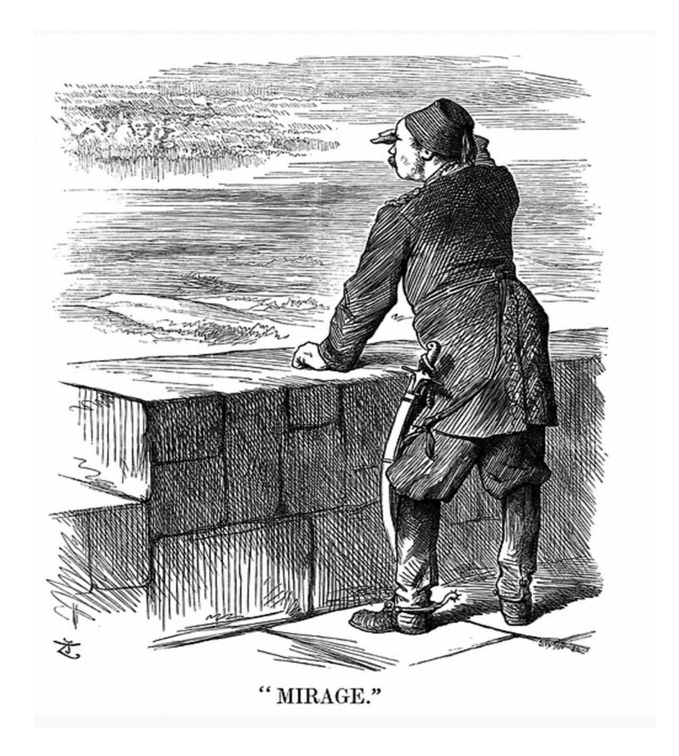
تلك المتاهات التي أحكمت حصارها حول هذا الجنرال البريطاني لم تكن على مبعدة عن خيال مبدعي ورسامي بريطانيا بذلك الوقت. ومن ذلك أن بعضهم قد أستدرجه موقف غردون الذي ليس فيه ما يحسد عليه لتصوير المشهد برمته في بضعة أبيات شعرية ورسم مصاحب. وهو ذات النص الذي ورد بمجلة «ذا بنش» البريطانية في العام ١٨٨٤ تحت عنوان «السراب» وجاء فيه الكلمات على لسان غردون:

ما هذا الذي يتبدّى لي خلف الكثبان؟
هل هو بعض وميض من سلاح إنجلترا؟
أم أنه حلم من خيال الصحراء..
هل هي النجدة التي أتطلع إليها؟
رباه.. هل هي آخر أوهام محنتي؟
أم أنها هذه الأرض الموحشة..
تمدّ لسانها طويلاً..
لتسخر مني بما وعدتني من سراب..

وعوضاً عن مواجهة تلك الأماني السرابية بما يجدر به من الواقعية، التجأ غردون إلى إستراتيجية الهروب إلى الأمام فأسَالَ كثيراً من المداد على الورق باعثاً بمجموعة خطابات لإمبراطور روسيا وإمبراطور النمسا وملك إيطاليا والبابا ليو الثالث عشر يحثهم فيها على دعمه في مواجهة الثورة المهدية وخطرها، محاولاً تصوير الأمر برمته على انه نوعٌ من صراع الحضارات[2].

1 نورمان دانيال، ص ٤١٧.

2 **خطابات غردون لملوك أوروبا وبابا الفاتيكان**، بتاريخ ١٥، ١٦–٤–١٨٨٤.. فيرغس نيكول: **غلادستون**



غردون والسراب. مجلة ذا بنش البريطانية ١٨٨٤

لم تكن تلك الرسائل المُثقلة بما يكفي من القلق الأولى من نوعها بأقلام البريطانيين تحديداً، فقبل عامٍ وبضعة أشهر، تسلل جزءٌ عظيم إلى قلب الملكة فيكتوريا حتى عصف بقدرتها المعتادة على اصطناع حالة من الوقار الزائف ازاء انتصار متوقع للسودانيين على إمبراطوريتها التي لم تغرب عنها شمسٌ في كبد السماء. ذلك أن وجود دولة مستقلة بأرض السودان كان سيعني فيما يعني تهديداً مباشراً لمصالح البريطانيين الإستراتيجية في مصر بكلما قد يتبعه من مشاكل قد تهدد الطرق البحرية المؤدية إلى الهند.. درة تاج الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية. وتسيد الترقب الهياب ذهن صاحبة العرش البريطاني حتى لم تجد مناصاً من الإلحاح على سكرتيرها الخاص السير «بنوسنبي» ليكتب لوزير خارجيتها اللورد غرانفيل قائلاً:

وغوردون وحروب السودان، Sword and Pen Publisher، نسخة إلكترونية ٢٠١٣، ص ٢٨٤.

«إن جلالة الملكة قلقة لأبعد حد بخصوص مصر.. وهي تخشى أنكم لا تلحظون بقدرٍ كاف أهمية مواجهة الثورة المهدية في السودان. إنه يتوجّب علينا ألا ندّخر أي جهد لمساعدة الحكومة المصرية لسحق هذه الثورة على الفور. أما الخيار الآخر فيبقى متمثلاً في إرسال قوات بريطانيا إلى هناك. هل أخذتم برأي الجنرال ولزلي في هذا الخصوص؟»[1].

الإمبراطورية البريطانية تبعث بقوات من الجيش الملكي البريطاني للسودان سعياً لقمع الثورة السودانية وإنقاذ الجنرال غردون:

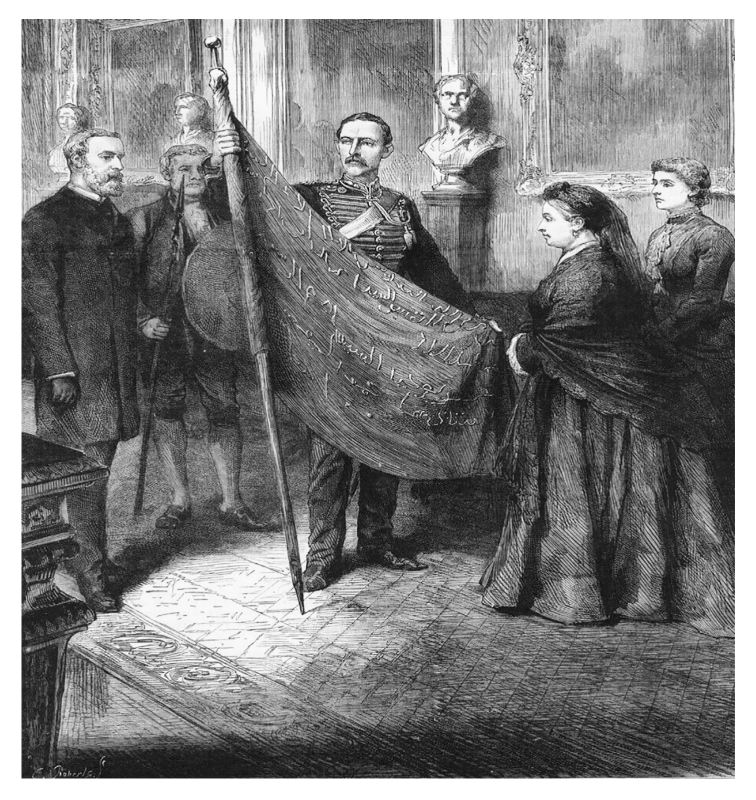
وفي الناحية الأخرى من شمال الكرة الأرضية، ذكر «لايتون ستريتشي» في مؤلفه بعنوان «نهاية الجنرال غردون» كيف بدأت حملة الرأي العام البريطاني تضغط جلادستون رئيس الوزراء البريطاني آنذاك للعمل على إرسال جيش إنقاذ بريطاني لاسترداد هيبة بريطانيا التي تمرغت في تراب السودان. وفي مارس ١٨٨٤، ارتجل غلادستون خطبة عصماء في مجلس العموم البريطاني رداً على هذه الحملة المحمومة وختمها بعبارته الأشهر على الإطلاق، ملخِّصاً الوضع في السودان كما يراه هو:

«إن هذا الشعب يناضل من أجل حريته.. ومن حق هؤلاء أن يناضلوا من أجل حريتهم!» مما أثار حفيظة صقور مجلس العموم البريطاني بقيادة اللورد هارينجتون وزير الحربية وآخرين. وفى خضم هذا الجدال الملتهب الذي شهدته أروقة السياسة البريطانية، تقدمت الملكة فكتوريا لتستبق الجميع بخطابها لرئيس وزرائها «غلادستون» الصادر من قصر باكينجهام بتاريخ ١٨٨٤ والذي جاء فيه:

«إن لجلالة الملكة مشاعر قوية تجاه ما يحدث في السودان.. انها تعتقد انه لابد من توجيه ضربة قوية لهؤلاء المسلمين حتى يعلموا جيداً انهم لم يهزمونا بعد! هؤلاء الأعراب المتوحشون لن يتماسكوا ليجترئوا على الوقوف أمام جيوش جيدة ومنظمة.. إن جلالة الملكة لترتجف من أجل سلامة الجنرال غردون وإن أصابه أي مكروه ستكون النتائج في غاية السوء»[2].

1 نيكول: غردون وغلادستون وحروب السودان، مصدر سابق، ص ٦٣.

2 **Dervish Wars, The Gordon and Kitchener in the Sudan 1880 - 1898: Gordon and Kitchener**



الملكة فيكتوريا تحتفل بتسلم إحدى رايات الثورة المهدية، ١٨٨٤.

وفي الوقت الذي حاصر فيه المهدي بفرسانه ومقاتليه الجنرال غردون بداخل جدران مدينة الخرطوم تزامناً مع ضربات عثمان دقنة الموجعة للقوات البريطانية في شرق السودان، أظهرت دوائر العرش البريطاني تهافتاً محموماً نحو تحقيق أي انتصار على الثورة المهدية حتى ولو كان متوهماً. وهو ذات التهافت الذي بلغ مداه في مايو ١٨٨٤ حين نُظم احتفال رسمي بقصر باكينغهام الملكي الواقع بقلب العاصمة لندن، تم فيه تقديم إحدى رايات الثورة المهدية للملكة فيكتوريا من قبل الجنرال البريطاني ويلفرد لويد. ويبدو أنها راية غنمتها الكتائب الإنجليزية في إحدى مناوشاتها مع قوات المقاومة المهدوية بقيادة الأمير عثمان دقنة في مواجهات شرق السودان. تلك الوقائع استبانت

in the Sudan, 1880 - 98, by Robin Neillands. Publisher: John Murray; First Edition edition 1996, United Kingdom, p. 112.

وكأنها محاولة طمأنة من حكومة غلادستون لسيدة العرش الإنجليزي بعدما استولى عليها الجزع جراء تقدم المهدويين المتواصل على جنرالاتها الذين أُبتعثوا إلى السودان. وحرصت صحيفة «جرافيك» اللندنية الشهيرة على تصدر الخبر لصفحاتها [1]- بذات الشهر المار ذكره- وقد اكتنفت صياغته لهجة احتفالية مغتبطة.

كل ما سبق من وقائع، استدعى توغل إمبراطورية بريطانيا بقضها وقضيضها لقمع الثورة السودانية التي اجترأت على اثخان كرامتهم بندبات عميقة. وتبعاً لما سبق، غادر الموانئ البريطانية جيش جرّار قوامه ١٤ ألف جندي بريطاني بقيادة اللورد ولزلي[2]. وهي تلك الحملة العسكرية التي عُرفت وقتها بجيش الإنقاذ البريطاني، على أن يلتزم الخديوي بتوفير قوة أخرى تناهز السبعة الآلاف من الجنود المصريين لتصحب الجيش الغازي في طريقه إلى السودان. رفع ذلك القوة الكلية للحملة البريطانية نحو مشارف الواحد وعشرين ألفاً من العسكريين. وكانت تلك أولى الخطوات التي استدرجت

1 صحيفة «**The Graphic**» الإنجليزية، السبت ١٧ مايو ١٨٨٤.

2 **اللورد غارنت ولزلي** (١٨٣٣-١٩١٣): هو غارنت جوزيف ولزلي. ولد لأسرة أنجلو-إيرلندية بمدينة دبلن في١٨٣٣. بدأ مسيرته العسكرية كضابط صغير في صفوف القوات الإنجليزية بالحرب الإنجليزية البورمية الثانية في ١٨٥٢ حيث أبلى بلاءاً حسناً لتتم ترقيته بسرعة من رتبة ملازم إلى نقيب. خدم بعدها جيش بلاده في حرب البريطانيين ضد الروس بمنطقة القرم قبل أن يتم إرساله إلى الهند لقمع الثورة الهندية المعروفة تاريخياً في الأدبيات البريطانية بـ «**Indian Mutiny of 1857**» فساهم في قمعها بكفاءة عالية برفقة جنرالات إنجليز آخرين على نحو وليام هكس الذي سقط بسلاح الثورة المهدية في السودان لاحقاً. ومُنح ولزلي ميداليات عسكرية من قبل قيادة الجيش البريطاني احتفاءاً واعترافاً بمجهوداته المميزة هناك ثم ما لبث أن رُقي عسكرياً لرتبة رائد. ابتُعِث ولزلي بعدها لكندا حيث عُيّن بعد رجوعه من هناك ضابطاً قيادياً مهماً في مكتب الحربية بوزارة الدفاع البريطانية في ١٨٧١. قاد هذا الجنرال البريطاني المميز القوات الإنجليزية التي أرسلتها الإمبراطورية البريطانية إلى غانا فقمع ثورة قبيلة الأشانتي في أقل من شهرين مما ممنحه مكانة كبيرة عند البريطانيين جميعاً وتوالت عليه الترقيات حتى أصبح لواءاً بحلول ١٨٧٨. وفي الأول من أبريل ١٨٨٢ عُيّن قائداً عسكرياً عاماً للقوات البريطانية في مصر.. فقاد الحملة العسكرية ضد ثورة أحمد عرابي وتمكّن من الانتصار على العرابيين في موقعة التل الكبير لتتم ترقيته إلى رتبة فريق أول بالجيش البريطاني.. كما تقدّم بقواته ليحتل منطقة قناة السويس ويؤمن مصالح بريطانيا في المنطقة بصورة فاعلة. ويعدّ اللورد ولزلي من العسكريين البريطانيين القلائل الذين حازوا بعدها على رتبة المشير أو «**Field Marshal**» بجيش الإمبراطورية البريطانية. عجزت القوات البريطانية التي قادها عن هزيمة الثورة المهدية بالسودان في (١٨٨٤-١٨٨٥) حيث قابلها السودانيون بمقاومة ضارية ففشلت بسببها حملة إنقاذ غردون وسقط عدد كبير من جنرالاته والضباط العاملين تحت إمرته برماح رجال المهدية قبل أن ترجع قواته أدراجها لبريطانيا دون تحقيق أدنى أهدافها. انظر **موسوعة المعرفة البريطانية**.

الأقدام الإنجليزية نحو جحيم كان ينتظرها في السودان، فمضت نحو ذلك الحتف على وجه السرعة، ودون أي قدرٍ من الإبطاء.

وعندما لاحت طلائع الجيش الإنجليزي بقيادة ولزلي في أقاصي شمال السودان بأواخر أكتوبر ١٨٨٤، رفع أمير الشمال، الأمير الشيخ محمد الخير «أستاذ المهدي سابقاً» تقريراً مفصلاً عن جيش الغزاة لتلميذه السابق وقائده الجديد محمد أحمد المهدي. وعقد المهدي مجلس شوراه بحضور الخلفاء وكبار الأمراء في منطقة «أبوسعد» بمحاذاة مدينة الخرطوم حيث كان يعسكر بقواته. وتقرر استدراج جيش ولسلي لمواجهة واسعة في منطقة أبو طليح يكون الهدف منها تعطيل تقدم الجيش البريطاني الغازي لحين تحرير الخرطوم. وقد تم وضع خطة محكمة تعتمد على استدراج الحملة البريطانية من خلال الصحراء الكبري وحرمانها من موارد الماء بالاشتباكات الخاطفة المتواصلة حول الآبار ودفن اكبر عدد من الآبار في طريق الحملة.

وعلى غير دأبه المعروف، بعث المهدي لغردون بخطاب ملتهب اللهجة خلص فيه إلى أن لا شيء يؤخره عن الانقضاض بجيشه على الخرطوم سوى حقن دماء المسلمين، ودعا كعادته غردون للتسليم من دون أن يجر معه المدينة لتبعات المواجهات العسكرية الدامية. وفيما يلي نص بعض ما جاء في الخطاب:

«واعلم أنني حضرت بجيوشنا المنصورة وأصحابنا وأحبابنا المؤيدين بالنصر من عند الله.. وكن على يقين اني على علم بحضور عساكر الإنجليز بجهة دنقلا، ولكن لست مبالياً بهم ولا بغيرهم بفضل الله.. وسيكون لهم أسوة بجيوش هكس والشلالي، ولا تغرنك نصرتك المتوالية فكل من استشهد عن أمرنا رأفة بهم لينالوا درجة الصالحين تصديقاً لقوله تعالى (ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون) ولولا مراعاة حسم دماء المسلمين لضربت صفحاً عن مخاطبتك وبادرتك بالهجومات التي لا أشك في نجاحها. فسلم تسلم انت ومن معك، وقد نصحتك وأنصحك وإلا فالحرب بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى»[1].

1 أبوشامة: من أبا إلى تسلهاي، المطبعة العسكرية، الخرطوم، ١٩٨٦، ص ١٩٢.

ويقول نيكول أن الإمام المهدي قد وجه الأمير محمد الخير عبدالله خوجلي[1] بتجميع قوات من قبائل الجعليين والدناقلة والبشاريين والعبابدة تحت قيادة الامير عبدالماجد محمد لمواجهة الغزاة في أبو طليح. واقتطع قوات مقدرة من فرسان قبيلتي «دغيم» و«كنانة» والمنضوين تحت لواء الراية الخضراء من جيشه المحاصر لمدينة الخرطوم بزعامة الخليفة علي ود حلو[2] وأرسلهم كتعزيزات لهذه القوات بقيادة الأمير موسى ود حلو

1 **الشيخ محمد الخير عبدالله خوجلي** (١٨٢٠–١٨٨٨): هو محمد الضكير بن عبدالله الملقب بـ«الأغبش» بن محمد بن خوجلي. وقد غيّر المهدي اسمه لاحقاً من محمد الضكير إلى محمد الخير فسار عليه الاسم الأخير. ينتمي الشيخ محمد الخير لقبيلة البديرية الدهمشية بمنطقة تنقسي بشمال السودان. هاجرت أسرته من تنقسي إلى المحمية ثم منها إلى مدينة بربر حيث أسّسوا مسجد وخلاوي الغبش التي أصبحت منارة وقبلة لقصّاد العلم من كل بقاع السودان. وتتابعت المشيخة في خلاوي الغبش من الشيخ عبدالله الأغبش لابنه الشيخ محمد الخير الذي ساح من قبل ذلك في بقاع مختلفة طلباً للعلم. وكان ممن تلقى العلم على أيديهما الشيخ حسين الزهرا بوادي شعير. وكان الشيخ محمد الخير تيجانيَّ الطريقة أخذها على يد الشيخ محمد المختار. وكان من أبرز تلامذة الشيخ محمد الخير في خلاوي الغبش الإمام محمد أحمد المهدي والشيخ أحمد الهدي الشايقي. ولما اندلعت الثورة المهدية، أتى الشيخ محمد الخير إلى تلميذه القديم لبيايعه في نواحي الجنزارة بضاحية الأبيّض، فخرج المهدي بجيشه لاستقباله وأحسن وفادته وذكر فضل أستاذه الذي تعلّم على يديه مطالباً الجميع بإنزاله ما يستحق من التكريم. ورجع محمد الخير من الأبيّض أميراً من قِبل المهدي على مديريتي بربر ودنقلا فاجتمع تحت رايته الجعليون والميرفاب والبديرية وحرّروا مدينة بربر وقطعوا خط التلغراف منها إلى مصر مما أدى إلى عزلة الجنرال البريطاني غردون وفشله في الاتصال مع رجال الإمبراطورية فيما وراء بربر. لعب الأمير محمد الخير دوراً مهماً في مقاومة جيش الإنقاذ الإنجليزي بقيادة ولزلي..كما أشرف بنفسه – كقائد إداري من قبل المهدية للمناطق المحررة في الشمال– على تنظيم وإمداد عملية مطاردة فلول جيش ولزلي المنسحب من السودان. توفي في العام ١٨٨٨عن عمر ناهز الثمانية وستين سنة.

انظر «**الشايقية ومواقفهم من المهدية**» للدكتورة فاطمة أحمد عمر، مصدر سابق، ص١٤٥–١٥٢.

2 **الخليفة علي ود حلو** (١٨٤٢–١٨٩٩): هو علي بن محمد الحلو بن إدريس بن حامد بن قيدوم بن إدريس بن حامد بن محمد بن محمد القنديل. ولد ببلدة « أغسل» بمنطقة النيل الأبيض لأب ينتمي لأعراب قبيلة « دغيم» هو محمد الحلو بن إدريس. أما والدته فهي السيدة خديجة بنت محمد آدم الكناني وقد كانت تنتمي لفخذ « أولاد هزيل» من قبيلة كنانة ذات المضارب المتاخمة لدغيم والشانخاب. تلقى علي ود حلو تعليماً دينياً متقدماً بحساباته الزمانية والمناطقية حيث تتلمذ علي يد الشيخ الصوفي الشهير محمد ود مضوي بالعليقة. والتقى به الشيخ محمد أحمد «المهدي لاحقاً» بخلاوي الشيخ محمد ود مضوي حين هم بزيارة الأخير بقرية العليقة ومسيدها الذائع الصيت. توثقت صلة المهدي بعلي ود حلو وعشيرته من دغيم وكنانة، فعمل الأخير معه معلماً في خلوة تدريس القرآن بجزيرة أبا. وكان علي ود حلو وعشيرته من أبكار المناصرين للثورة المهدية فعينه المهدي بعدها كثاني خلفائه وبالتالي كان دوره كبيراً في صناعة الأحداث في مرحلة الثورة وما أعقبها من دولة مستقلة. واشترك علي ود حلو في كل معارك المهدية بدءاً من موقعة الجزيرة أبا بالعام ١٨٨١ واختتاماً بمعركة أم دبيكرات في ١٨٩٩ وهي ذات المعركة التي سقط فيها شهيداً برصاص القوات البريطانية الغازية.

انظر: عبدالرحمن إبراهيم الحلو: **الخليفة علي ود حلو صاحب الراية الخضراء**، مصدر سابق.

«شقيق الخليفة علي ود حلو الأكبر» على رأس فرسان الراية الخضراء وأمراء اخرين كان من ضمنهم فرسان ذائعي الصيت على نحو البشير عجب الفيه. كل ذلك تم مع الإبقاء على ما تبقى من قوات الراية الخضراء تحت إمرة الخليفة علي ود حلو ضمن جيشه المحاصر لمدينة الخرطوم. كما وجه المهدي لذلك الجيش تعزيزات متفرقة من مناطق متاخمة لأبي طليح. ويتوافق ما سبق مع منشور المهدي بخط يده للخليفة عبدالله بتاريخ ١١ يناير ١٨٨٥ والذي جاء فيه:

«إن أمر جيش الإنجليز مهم، كون تعزيز الجيش فيه فوائد كثيرة وتثبيت للقلوب، وإطمئنان لأهل البلد وتشجيع لهم.. فليكن تجهيز اخوان صناديد كنحو حسن حسين وجماعته وبيرق ابن التويم المادح وبيرق اخي محمد العريق وبيرق علي بن الهاشمي وتشهيلهم بما يلزم من آلة وجباخين وليصير التنبيه على جماعة الصديق بتشهيلهم ولا يكون في هذا الأمر تأني والسلام»[1].

أما اللورد ولزلي قائد جيش الإنقاذ البريطاني، فقد إستهل حملته بخطاب غرور بعث به للجنرال غردون في الخرطوم..بعدما عبأ كل كلمة من كلماته بصلف استعماري بريطاني يتوافق مع ما اعتمل في صدره من خيلاء وهو القائد المزهو بقيادة جيش قارب تعداده الـ٢١ ألفا من الجنود.. دع عنك انتصارته المدوية التي سبقت في حروب المستعمرات البريطانية بشتى بقاع الأرض. ومن ذلك قوله في ذات الخطاب:

«وصلني كتابك بتاريخ ٤ نوفمبر وهو أول كتاب أخذته منك وسأكون في دنقلا بعد أربعة ايام، ويكون الجيش بين الدبة وأمبقول في ٧ يناير ١٨٨٥ ولست أعطيك تفصيل القوات التي يتألف منها الجيش ولكن تأكد انها كافية لسحق محمد أحمد المهدي وأنصاره ومحو ذكره من الوجود وكلما زاد عدد مقاتليه زاد سرورنا لانه بذلك يزيد عدد قتلاهم»[2].

ولكن اللورد البريطاني المتعجرف لم يكن يعلم حجم الأهوال التي تنتظر جيشه في السودان، فقد كان التنسيق على أعلى مستوى بين أمراء الثورة المهدية وقائدها الشاب

1 أبوسليم، مصدر سابق، ص ٢٠٦.

2 أبوشامة: مصدر سابق، ص ١٩٦.

لتلقينه درساً تاريخياً، ستظل وقائعه تتردد في صحائف التاريخ لأبد الابدين. غير أن ولزلي الغافل عما كان ينتظره، بدأ بالتقدم للأمام عملياً حين بعث بقسمٍ من جيشه جنوباً عبر الصحراء موكلاً قيادته لأكفأ جنرالاته وذلك كان السير هربرتٍ ستيوارت، بينما بقى هو بما لديه من قوات مرتكزاً بقرية كورتي في شمال السودان.. ريثما يجمع صفوفه حتى يزحف بقواته للأسفل عبر مسار نهر النيل.



اللورد ولزلي؛ القائد العام لجيش الإنقاذ البريطاني

ملحمة «أبوطليح» وخسائر كبيرة في صفوف الجيش البريطاني

عندما تقدم طابور الصحراء بقيادة الجنرال هربرت ستيوارت من آبار الجقدول باتجاه الجنوب، سدت قوات الثورة المهدية أمامه مرامي الأبصار باحتلالها لآبار «أبو طليح» في ليلة ١٣ يناير١٨٨٥. تحت وطأة ثقيلة من الظمأ، أيقن ستيوارت أن لا مناص لديه من التقدم تجاه آبار «أبو طليح» حتى يدرك مورد الماء ويبقي على آماله الندية في سحق أعدائه من أبناء تلك الأرض التي تتقيظ رمالها بالحرارة. وفي تلك الأثناء كان القدر ينسج مساراته بكفاءته العصية على إدراك بني الإنسان منذ الأزل نحو تحديد منطقة «أبوطليح» كنقطة فاصلة ستلتقي عندها قوات الثورة المهدية بالجيش البريطاني الغازي

بصبيحة ١٧ يناير ١٨٨٥. وكانت قوات الثورة المهدية المرتكزة هناك منذ ثلاثة أيام خلت بزعامة الأمير علي ود سعد[1] قد تلقت تعزيزات من بربر بقيادة الأمير عبدالماجد محمد خوجلي[2] ليبلغ عددها الكلي ما لا يربو عن الألفين مقاتل ينتمي معظمهم لقبائل الجعليين ومجموعات مقدرة من عشيرة الأمير محمد الخير المقربين من البديرية الدهمشية.

ولما إنتصفت ليلة السبت ١٦ يناير ١٨٨٥، غزت مسامع قوات الجعليين المرابطة بأبي طليح زلزلة «جلالة» جيش الثورة المهدية المشهورة في مواجهاتها مع الإنجليز.. «لا إله الا الله.. جودوا الكفار في شان الله».. فاهتزت لها الأرض وخالط وقعها كل ذرة من ذرات التراب. لم تكن تلك الحناجر الواثقة التي ردد الفضاء الفسيح هناك صدى صيحاتها سوى حناجر رجال الأمير موسى ود حلو برايته الخضراء البهيجة وقد تقدم هو بنفسه لقيادة مقاتليها البالغ عددهم ثلاثة الف من الفرسان والمشاة. وتعانق السودانيون من مختلف القبائل تحت راية موحدة حين تقدم الأمير على ود سعد بوجهٍ جزل ليرحب بالتعزيزات التي بعث بها المهدي من ضواحي الخرطوم المحاصرة، فاجتمع لدى الأنصار تبعاً لذلك خمسة آلاف من المقاتلين. وانعقد لواء القيادة بحسب توجيهات الإمام محمد أحمد بن عبدالله للأمير موسى ود حلو[3]، فأنفق الأخير بقية

1 هو الأمير **علي بن سعد بن فرح**. ولد بالمتمة في ١٨٤٤. ينتمي بنسبه لفرع النفيعاب من قبيلة الجعليين. أيد الثورة المهدية وانضم لصفوفها ليعمل تحت قيادة الأمير محمد الخير عبدالله خوجلي فحاصر معه مدينة بربر إلى ان تم تحريرها وقُطع خط التلغراف منها إلى مصر. كان يعمل بالتجارة قبل الثورة المهدية فجال مناطق كثيرة بالسودان وتوثقت صلته بالشيخ العبيد ود بدر منذ ذلك الوقت قبل أن ينضم كلاهما لقوات المهدية ويقاتل كل منهما البريطانيين في جبهات مختلفة. عندما تقدم الجيش البريطاني بقيادة ولزلي في صحراء الشمال، كان علي ود سعد على اتصال مستمر بالمهدي عبر محمد الخير فنقل إليه كل المعلومات الاستخباراتية المهمة عن تلك الحملة. قاد عشيرته الجعليين من حملة السلاح الناري في معركة «أبو طليح «و جُرح في يده بالموقعة ذاتها. توفي بعد معركة «أبو طليح «بأعوام عدة تاركاً من ورائه ولداً يسمى البشير وبنات ثلاث. انظر «من أبا إلى تسلهاي «للأستاذ عبدالمحمود أبوشامة.

2 الأمير **عبدالماجد محمد خوجلي** هو ابن عّم الشيخ محمد الخير عبدالله خوجلي أستاذ المهدي السابق وعامله لاحقاً على منطقة بربر وما تاخمها من المناطق بشمال السودان. وينتمي الأمير عبدالماجد لجزء مهم من قبيلة البديرية الدهمشية هاجر من منطقة « تنقسي» بشمال السودان ليجد له موطناً في مدينة بربر. انظر..» الشايقية ومواقفهم من المهدية» للدكتورة فاطمة أحمد عمر.

3 **موسى ود حلو:** هو الأمير موسى بن محمد الحلو بن إدريس بن حامد بن قيدوم. ينتمي لقبيلة دغيم من أعراب منطقة النيل الأبيض. هو الشقيق الأكبر للخليفة علي ود حلو ثاني خلفاء المهدي بعد الخليفة عبدالله. بايع المهدي منذ ما قبل موقعة الجزيرة أبا في ١٨٨١ وشارك مع أخيه الخليفة علي ود حلو في كل

الليل في تنظيم صفوف جيشه الذي إلتحمت فيها أشتات قبلية من شتى بقاع السودان على نحو الجعليين بأفخاذهم المختلفة، البديرية الدهمشية، دغيم، كنانة، اللحويين والشانخاب والجِمع والأحامدة[1].

وقسم موسى ود حلو جيشه إلى محاور خمسة جاعلاً محور أقصى اليمين من قوات الجعليين بأسلحتهم النارية تحت قيادة علي ود سعد وعبدالماجد خوجلي بينما أوكل قيادة محور أقصى اليسار لأحمد جفون[2] ورجاله من الشانخاب. أما بقية المحاور فكانت تحت قيادته المباشرة بمنطقة الوسط ومعه أمراء دغيم وكنانة واللحويين بقيادة الأمير ود برجوب والأحامدة بقيادة أميرهم المعروف البشير ود الشيخ محمد ود مضوي[3].

معارك المهدية بعدها. كان أميراً ميدانياً للراية الخضراء بموقعة شيكان. وهو ذات الأمير الذي أشارت عدد من المصادر الإنجليزية لعمليته الجسورة التي إقتحم فيها هو فرسانه المربع الإنجليزي ليغرسوا راية الثورة المهدية الخضراء في نقطة المنتصف منه تماماً وسط ذهول الجنود البريطانيين. استشهد الأمير موسى ود حلو في موقعة أبو طليح مخلفاً من ورائه ولداً واحداً اسمه عمر فقُتل مع الخليفة عبدالله ورجاله بموقعة أم دبيكرات ضد البريطانيين في ١٨٩٩.

انظر: عبدالرحمن إبراهيم الحلو، **الخليفة علي ود حلو: صاحب الراية الخضراء**، مطابع العملة، الخرطوم ٢٠١٢.

1 تفاصيل القبائل السودانية المختلفة التي اجتمعت بحسب نداء المهدي لمقاومة الإنجليز بأبي طليح. انظر، **الخليفة علي ود حلو: صاحب الراية الخضراء**، مصدر سابق.، ص ١٠٥.

2 **أحمد ود جفون** (١٨٢٨–١٨٨٥): هو الأمير أحمد بن جفون بن عيسى. ينتمي لفخذ «القناطير» من قبيلة «الشانخاب» الواسعة الانتشار بقرى منطقة النيل الأبيض في وسط السودان. كان أحمد ود جفون ناظراً لقبيلة الشانخاب في عهد الاحتلال التركي الذي سبق اندلاع الثورة المهدية. وكان المهدي قد أطلع أحمد ود جفون على تفاصيل انتفاضته ضد الحكم الاستعماري قبل أولى معارك الثورة المهدية في الجزيرة» أبا «بالعام ١٨٨١ وأوكل إليه مهمة تسهيل عبور مقاتلي جيش الثورة المهدية الحديث التكوين لنهر النيل نحو غرب السودان في أعقاب معركة الجزيرة أبا مباشرة. ولعب الأمير أحمد ود جفون دوراً مهماً في قيادة طلائع الاستكشاف المهدوية التي انتشرت بمنطقة النيل الأبيض حين تقدمت حملة الجنرال البريطاني وليام هكس لملاقاة قوات الثورة المهدية بموقعة شيكان. ومن ذلك أن للمهدي مراسلات عديدة معه بهذا الشأن تحديداً. تقدم لقيادة فرسان الشانخاب الذين انتظموا تحت إمرة الأمير موسى ود حلو لمواجهة القوات البريطانية في موقعة أبوطليح واستشهد هناك. وقُتل معه في ذات الموقعة مجموعة من أقاربه ومنهم شقيقاه جبارة ود جفون وعيسى ود جفون وابن أخته النعيم آدم.

3 **البشير محمد مضوي**: هو الأمير البشير بن الشيخ محمد ود مضوي. ينتمي بنسبه لقبيلة الأحامدة ذات النزل المعروف بمنطقة النيل الأبيض. ولد بمنطقة العليقة حيث مسيد والده الشيخ محمد ود مضوي ذي الصيت الذائع بالصلاح والإخبات في المنطقة. توثقت صلة الشيخ محمد ود مضوي مع المهدي منذ مراحل الثورة الباكرة وانضم هو مبايعاً ومقاتلاً في صفوف المهدية ضد القوى الاستعمارية برفقة ابنه الشيخ البشير واشقائه الستة أبناء الشيخ محمد ود مضوي: برير، محمد علي، مضوي، الزين، محمد النور وأبو القاسم. واشترك كل هؤلاء بموقعة أبو طليح واستشهدوا جميعاً فيما عدا الأمير البشير والذي

وكمن جيش الثورة المهدية تحت منحدر صخري على بعد ٣٠٠ ياردة تقريباً من وادي أبوطليح. بينما أنفق رجال الأمير علي ود سعد الثلث الأخير من الليل في تصويب بنادقهم تجاه معسكر الإنجليز فأصلوه- على الرغم من بنادقهم المهترئة - ناراً لاهبة مُحرقة. ووجه الأمير موسى ود حلو رجاله بقرع الطبول طوال الليل من منطقة معاكسة لإيهام الإنجليز أن الثوار موجودون هناك.

وفى تمام العاشرة من صباح ١٧ يناير، تقدم المربع الإنجليزي للأمام لا يلوي على شيء سوى إدراك آبار أبوطليح وأخذها من أعدائه عنوة. وألقت شمس الشتاء بحممها الحراقة على رؤوس الإنجليز دون أن تغفل عن غزو أعين الأنصار المرابطين في مخابئهم بوهجها الذي تستبين تحت ضوئه حقائق الأشياء. وسدد الأمير موسى ود حلو بصره وهو على صهوة جواده ناحية محور اليسار بقيادة الأمير علي ود سعد. كانت قامتاهما متماثلتين في الإرتفاع وإن إختلفت الحزوز التي زينت خديهما قليلاً وما نبت حولهما من ذقن دائرية حسنة التهذيب، إلا أن كليهما قد أسدل على كتفه الأيسر عذبة عمامته لتستلقي حتى مشارف منتصف الجذع. سرعان ما تحركت شفتاهما اتفاقاً بترديد دعاء الحرب ثلاثاً كما أوصاهم الإمام المهدي وإختلطت أصوات رجالهما الخافتة وهي تردد ذات الدعاء بوقع حوافر الخيل وصهيلها حتى بدا كل شيء لمن يسترق السمع كدوي مجموعات من النحل في خلاياها المتفرقة وقد مازجته ريحٌ صرصر عاصفة. وعندما وصل البريطانيون إلى نقطة المنتصف، كبر موسى ود حلو ثلاثاً إيذاناً ببدء الهجوم فتقدمت تلك الأجساد السمر الناحلة بجلابيبها البيضاء القصيرة وسراويلها التي لم تنسدل لمسافة أبعد من منتصف الساق لتنهب المسافة التي تحول بينها وبين الإنجليز نهباً. وليس هناك من هو أقدر على وصف ما حدث بالضبط في تلك المرحلة المبكرة جداً مثل الأمير علي ود سعد قائد قوات السلاح الناري في تلك الموقعة وأحد أهم أمراء الجعليين

حضر جل مواقع المهدية حتى آخر معاركها في أم دبيكرات ١٨٩٩ حيث أصيب في فخذه إصابه غير قاتلة. وبينما كان أبناء الشيخ محمد ود مضوي السبعة يقاتلون الإنجليز في أبو طليح، كان والدهم ود مضوي مرابطاً في معسكر المهدي بديم أبوسعد المحاذي للخرطوم مع بقية فرسان الأحامدة الذين وقع عليهم -مع غيرهم من قوات الجيش المهدوي - واجب إتمام عملية حصار وتحرير الخرطوم في يناير ١٨٨٥. عمر الأمير البشير طويلا وتوفي بقرية العليقة في١٩٥٠.

فيها، وفي ذلك قال:

«هناك (بأبي طليح) وفي صحراء متسعة تلاقينا مع الجيش الإنكليزي، فعندما بدت (طلائعنا) أمطرونا بوابل من الرصاص والقنابل بما هو معروف عن الإنكليز من الصلابة ومعرفة الحرب وتسديد المرمى فقابلناهم بصدور لا تهاب الموت بغيتها الشهادة والجزاء في الآخرة كما جاوبهم السلاح الناري الذي كان معنا، فقابلونا أيضاً ببأس وصلابة وكلانا سائر نحو الآخر حتى اختلطنا واشتبكنا بالسلاح الأبيض» [1].

واتجه الأستاذ المؤرخ عبدالرحمن الحلو لملامسة أغوار التفاصيل اللاحقة بما حفلت به من اشتباكات عنيفة دامية، فلنفرد له مجالاً هنا لينقل لنا بعض ملامح تلك المرحلة التي شهدت الالتحام المباشر لأصحاب الأرض مع القوات البريطانية الغازية:

«قام الانصار بهجوم عاصف على مؤخرة وواجهة المربع الإنجليزي فكسروا ضلع المربع وأجبروه على التراجع. وتلى ذلك قتال مواجهة رجل لرجل. اغتنم الأمير موسى ود حلو الفرصة واخترق المربع الإنجليزي وسط ذهول أعدائه حتى وصل إلى وسطه ممسكاً برايته الخضراء في يده اليسري والمصحف في يده اليمنى، فأسرع رجاله خلفه فثبتوا الراية بالحجارة في داخل المربع الإنجليزي!»[2].

وقدر الأستاذ أبو شامة خسائر البريطانيين في تلك المعركة بـ ٣٦٨ قتيلاً و١٠٦٩ جريحاً. وكان الكولونيل فريدرك برينبي[3] من أبرز من سقطوا برماح الانصار حين

---

1 شهادة الأمير علي ود سعد، **أوراق السيد علي المهدي**، نسخة مودعة بدار الوثائق السودانية بخط الشيخ سليمان أديب.

2 عبدالرحمن إبراهيم الحلو، **الخليفة علي ود حلو: صاحب الراية الخضراء**، مطابع العملة، الخرطوم ٢٠١٢، ص ١٠٧.

3 **فريدريك برينبي** (١٨٤٢-١٨٨٥): هو الكولونيل فريدريك غوستافس برينبي. كان ضابطاً استخباراتياً مرموقاً بجيش الإمبرطورية البريطانية. عرف بحبه للمغامرة وتجواله بأنحاء عديدة من العالم. عمل تحت إمرة الجنرال البريطاني فالنتاين بيكر الذي هزمته قوات الأمير عثمان دقنة بشرق السودان وأُصيب بجرح بالغ في موقعة التيب الشهيرة بالعام ١٨٨٤. أختاره ولزلي ليكون أحد قادة قواته المتقدمة لإنقاذ الجنرال غردون من حصار المهدويين وكان يخطط لتنصيبه قائداً عسكرياً على «المتمة» بعد احتلالها ومن ثم جعلها قاعدة إمداد لجيشه الذي كان يخطط أن يدفع به لمواجهة قوات الثورة المهدية المحاصرة لمدينة الخرطوم بقيادة الامام محمد أحمد المهدي. وقد ذكر المؤرخ الأستاذ عبد المحمود أبوشامة أن رمح الأمير

انتاشه الأمير البشير عجب الفيا بحربة مزقت منه أوردة الرقبة فأرداه قتيلاً على الفور. وقضى في تلك الملحمة أيضاً اللورد سانت فينسنت ليرفع العدد الكلي للضحايا الذين سقطوا بسلاح الانصار من ضباط الرتب البريطانية المتقدمة إلى الرقم ١٧. واستشهد المئات من قوات المهدية وكان أبرزهم الأمير الشجاع موسى ود حلو والذي أبر بوعده للامام المهدي باختراق المربع البريطاني وغرس راية الثورة المهدية في موضع القلب منه تماماً! وهو ذات المشهد الذي وصفه الجنرال البريطاني تشارلز ويلسون في مذكراته كما ترأى له تماماً فقال:

«رأيت شيخاً من مقاتليهم وهو يتقدم على صهوة جواده ليغرس رايته في نقطة المركز من المربع الإنجليزي مخترقاً ما احتشد أمامه من جمال. وأُصيب بعدها برصاصة أسقطته ليرتمي من ظهر جواده على ذات الراية. عرفنا فيما بعد أنه الأمير موسى من أعراب قبيلة دغيم بكردفان. كنت ألحظه هو يتقدم مهاجماً لمواقعنا وقد أمسكت إحدى يديه براية بينما أمسكت الأخرى بمصحف كان يقرأ منه بعض الآيات. لم أر في حياتي من قبل مشهداً بهذه الروعة. لم ينحرف الرجل عن مساره يميناً أو يساراً ولم يتوقف عن ترديد تراتيله وصلواته حتى غرس الراية بداخل مربعنا. لو كان هناك أي رجل يستحق مكاناً في جنة المسلمين، فليس هناك من هو بها أحق منه»[1].

واستشهد الأمير أحمد ود جفون زعيم قبيلة الشانخاب بجانب شقيقيه جبارة وعيسى. وكان أصغر الشهداء سناً الفارس محمد عبدالله بن أخ الأمير علي ود سعد والذي لم يبلغ العشرين بعد! بينما جرح عمه الأمير علي ود سعد في كتفه[2]. وإنجلت

البشير عجب الفيه – أحد أهم أمراء الراية الخضراء عن قبيلة كنانة المعروفة – هو الذي أنغرس برقبة برينبي حين خرج الأخير في ثلة من المقاتلين البريطانيين من التشكيل العسكري للمربع الإنجليزي فحاصرتهم مجموعة من فرسان الأنصار ولم ينج من تلك المقتلة إلا القليل من رفقاء برينبي. وكان برينبي يعد واحداً من أهم أبطال بريطانيا العصر الفيكتوري لذا ليس بمستغرب أن ينظم شاعران من شعراء الإمبراطورية – على نحو هنري نيوبولت وماكونغال– قوافي بكائية ترثي مقتله المآساوي.

1 **From Korti to Khartum; a journal of the desert march from Korti to Gubat and of the ascent of the Nile in General Gordon's steamers** by Wilson, Charles Wilson, Edinburgh; London: Blackwood.Publication date 1886, Electronic new version, Page 28 - 29.
https://archive.org/details/fromkortitokhart00wilsrich/page/28

2 أبوشامة: مصدر سابق، ص٤١٣.

المعركة لتحمل فيها حملت من أنباء، خبر استشهاد الأمير عمر بن الشيخ عساكر أبو كلام ناظر قبيلة «الجِمع» بالنيل الأبيض وكردفان.

وفى المعسكر الآخر كتب النقيب «ليونيل ترافورد» عن تلك اللحظات العصيبة تحديداً ناقلاً ما رأته عيناه من جسارة فائقة أبداها السودانيون وهم يزحفون نحو المربع الإنجليزي بقلوب لا تعرف الرهبة، فقال في ذلك:

«اتسم المشهد الذي تقدم فيه أعراب السودان نحونا بالمجد والبهاء. وطبقاً لتدريبنا كمشاة بالجيش البريطاني، فقد كنّا مؤمنين تماماً بأن المربع البريطاني ما لم ينكسر بالنار فإنه لن يستطيع إي مخلوق الاقتراب منه فوق أرض مستوية. كنّا مؤمنين تماماً بأنه لن يستطيع أعرابي واحد الاقتراب منا بمسافة تفوق المائة ياردة. كنّا نعتقد بأنهم حين تقدموا نحونا كانوا حتماً يتقدمون لحتفهم المؤكد. ومع ذلك كله، فإن السودانيين لم يصلوا مربعنا وحسب بل اخترقوه بالفعل. حتى وإن نسبنا جزءاً كبيراً من ذلك الفعل لإطلاق النار العشوائي من جانب فرقة الـ (Heavies) الإنجليزية إلا أن شجاعة أعراب السودان هي وحدها التي من دونها لم يكن من الممكن أن تكتمل عملية الاختراق»[1].

وطفق البريطانيون الذين بقوا على قيد الحياة بعد ملحمة أبوطليح، يسردون تلك الوقائع وقد امتلأت نفوسهم إعجاباً بآيات البسالة التي رسمها السودانيون بسواعدهم في ميدان المواجهة. ومن ذلك ما رواه اللورد بريسفورد والذي نجا من حتفه بأعجوبة في اشتباكات جرت بالمنطقة المميتة خارج تشكيل المربع الإنجليزي بإحدى الكمائن التي أقامها الأنصار هناك فأخطأته تلك المقتلة المنصوبة بإحكام فائق. فلنتوقف عن الإسترسال هنا قليلاً ولندع قلم اللورد بريسفورد يرسم لنا لوحة الأحداث كما تراءت أمام عينيه بعد إنحسار الاشتباك الدامي الذي أعقب اختراق السودانيين الجسور للمربع الإنجليزي:

«أحد فرسانهم تقدم مهاجماً لوحده من الناحية اليمنى للمربع العسكري البريطاني حتى إذا اقترب منه بمسافة قصيرة انتاشته رصاصة فأردته قتيلاً. في بعض الأحيان

1 **Beyond Reach of The Empire**, Colonel Mike Snooke, Fortline Books, 2013, pp. 923.

اختراق فرسان الثورة المهدية للمربع الإنجليزي في موقعة «أبو طليح»، والأمير موسى ود حلو يغرس الراية في قلب المربع، بريشة الفنان البريطاني ستانلي بيركلي.

كان رماتهم يزحفون على الأرض غير المستوية ليصطادوا برماحهم الأهداف القريبة بالمربع. لقد كانت شجاعتهم استثنائية بحق. رأيت بعينيّ ولداً من أولادهم في حوالي الثانية عشر من عمره وقد أصابته رصاصة في موضع المعدة.. رأيته يمشي ببطء في وسط عاصفة من الرصاص ليغرس رمحه في جسد أحد رجالنا. رأيت أيضاً أحد هؤلاء

الاعراب وقد أصابه جرحٌ في الساق فجلس على الأرض ورشق برمحه أحد جنودنا المارّين بجانبه. ولما توقف ذلك الجندي لتعبئة بندقيته، حاول العربي جاهداً الوصول لرمح آخر كان على الأرض، فلما فشل في ذلك، التقط حجراً وألقى به في وجه عدوه. ولما ارتكز الجندي موجهاً فوهة بندقيته تجاه ذلك الرجل، عندها جلس الأعرابي بثبات كامل وهو ينظر لفوهة السلاح حتى سقط قتيلاً برصاصة منه»[1].

ولنعد مجدداً لما خطه قلم النقيب البريطاني «ليونيل ترافورد» من أقاصيص مشابهة إختلفت شخصيات أبطالها المجهولين من السودانيين بيد أنها اتفقت جميعها على شيء واحد لا ثاني له.. ألا وهو عنادهم الحديدي الذي تأبى على الانكسار بفعل الآلة الحربية البريطانية، وفي ذلك قال ترافورد:

«لفت انتباهي أحد السودانيين هو ينتوي بجلاء أن يتقدم مهاجماً نحو الضلع الأيسر من المربع الإنجليزي، ولكن جواده أحجم عن المضي إلى الأمام. ورأيته يتحرك نحو المقدمة مجتراً فرسه بشدة واصرار ليستدرجه إلى داخل المربع. وتبعاً لذلك فغر الفرس فاه والتوى عنقه تجاهنا في ضلع المربع الأيسر بينما كانت حوافره تعدو باتجاه المقدمة منه. وبصورة مفاجئة تماماً، سيطر ذلك الفارس على الحصان ولكن إلتواء عنق فرسه بتلك الدرجة تزامن مع تحطم ركاب السرج الذي ارتمى على خاصرته، فإمتطى الرجل جواده بلا سرج موجهاً إياه نحو المربع في هجوم منفرد. وعندما دنا منا بمسافة ٣٠ ياردة، سقط الحصان على الأرض، ولكن الرجل وثب واقفاً وتقدم مجدداً نحو المربع ليسقط جريحاً بعد ذلك. ورغماً عن كل هذا، فإنه ظل يزحف نحونا مستعملاً يديه وركبتيه آملاً أن ينال من واحد منا قبل أن يموت. بيد أن ذلك الفارس لقي حتفه على مبعدة ياردة فقط من موضع قدمي، بعدما حاول جاهداً استنهاض جسده حتى مشارف الرمق الأخير»[2].

كل ما تقدم من مشاهد مفعمة بالجسارة، دفع المؤرخ البريطاني نورمان دانيال

1 جوليان سيمونز، مصدر سابق، ص ١٩٨.

2 شهادة ليونيل ترافورد عن أحداث «أبو طليح»، الموقع الإلكتروني لفرقة المشاة بالجيش الملكي البريطاني المعروفة باسم **Royal Sussex**:

http//:www.royalsussex.org.uk/soldiers-stories/lionel-james-trafford /

للحديث عن صلابة السودانيين في مواجهاتهم مع البريطانيين وما تولد عن ذلك من إكبار عميق بنفوس البريطانيين لتلك الشجاعة الاستثنائية، ارتبط ارتباطاً عميقاً بما رأوه من أعاجيب بتلك الاشتباكات الضارية.. وفي ذلك قال:

«معظم الكتُاب أبقوا على شجاعة الأنصار لتظل صورة مخيمة على عقول العامة من البريطانيين واستمر ذلك الأمر حياً على الأقل من ناحية وجهة نظر السودانيين أيضاً. كانت تلك الصورة قائمة على تجارب شخصية لهؤلاء الرجال البريطانيين الذين لم يكونوا متخصصين في الشؤون السودانية ولكن احترامهم للأنصار كان ناتجاً عن إكبارٍ تجاه عدوّهم تولد لتوه في ساحة القتال»[1].

بالقهقرة على مسار الأحداث قليلاً، من المهم جداً نقل ملامح التراجيديا التي أثقلت صدور الإنجليز في الجانب الآخر من المواجهة. ذلك أنه ما أن انحسرت موجة الهجوم الثاني لقوات الثورة المهدية على مواقع العدو بالانسحاب المنظم الذي قام به السودانيون.. حتى سيطرت على المعسكر البريطاني حالة من الهدوء القاتل الذي لم يلبث كثيراً قبل أن تعقبه عاصفة هوجاء حملت على متنها أرتالاً من الأنين الموجع، فانبسطت بسطوة جبارة على الأرض التي توسدتها أجساد ضحاياهم. مشهد كذاك، ليس هناك من هو أقدر من المؤرخ البريطاني جوليان سايمونز على سرد وقائعه بذائقة قلمه الأدبية المتفردة، وفى ذلك قال مبادئاً بوصف أثر مقتل الكولونيل برينبي على فرقة طابور الصحراء المسماة بالـ «Blues»:

«بعضهم جلس على الأرض وانخرط بالبكاء. كانت الخسائر التي تكبدتها القوات الإنجليزية ثقيلة جداً بالنسبة للحجم الصغير لذلك الجيش. قُتِل تسعة ضباط وستة وخمسون رجلاً آخرين. وكان هناك تسعة ضباط مع ثمانية وخمسين رجلاً من جنودنا في عداد الجرحى. أما فرقة الـ (Heavies) التي وقع على كاهلها الجزء الأكبر من الهجوم فقد خسرت معظم رجالها كقتلى. ٤٠ رجلاً من فرقة البحرية الذين اشتركوا في القتال، قُتِل منهم ثمانية بينما جرح سبعة منهم.

1 نورمان دانيال، مصدر سابق، ص ٤٤٢.

كل رجل كان على رأس مدفع غاردنر خارج المربع لقي حتفه تماماً فيما عدا بريسفورد. أما الجرحى فقد تعاظمت معاناتهم بعد اختراق المربع الإنجليزي، فقد تهاوت النقالات التي كانت تحملهم إلى الأرض بسبب الطعنات التي أثخنت بها أجساد الجمال. وكان اللورد سانت فينسنت محمولاً على إحدى النقالات بينما استلقى جندي آخر على نقالة بالجانب المعاكس. ولكن الجمل ذاته لقي حتفه فارتمى بجسده على سانت فينسنت لينقذ حياة اللورد مؤقتاً قبل أن يلقى حتفه هو نفسه لاحقاً». ويمضي سايمونز في وصف ذلك الحال الذي لا يُحسد عليه البريطانيون ليقول: «كان الرجال يعانون بصورة هائلة من العطش، كثيرون منهم فقدوا وعيهم وكثيرون منهم تضخمت منهم الألسنة وأسودّت منهم الشفاه. كان هناك القليل جداً من مياه الشرب المتبقية فترك معظمها للجرحى من الرجال»[1].

وطيرت طلائع الاستكشاف التي أرسلها الأنصار بعد المعركة أنباء الحالة الدامية التي كانت ترزح تحتها فلول القوات البريطانية للمهدي في معسكره بديم «أبو سعد» حيث كان يقود بنفسه عملية حصار مدينة الخرطوم. بحذاقته العسكرية التي اكتسبها من مواجهاته المتصاعدة مع القوى الاستعمارية، أدرك الإمام محمد أحمد المهدي أن الوقت قد حان لتوجيه ضربات أكثر عمقاً لطابور الصحراء البريطاني المرتبك جداً جراء خسائره الثقيلة، فأرسل تعزيزات أخرى لقوات الأمير علي ود سعد في المتمة بقيادة

1 جوليان سيمونز، ص ١٩٩-٢٠٠.
أما اللورد سانت فنسنت الذي لقي حتفه في «أبو طليح»: فهو جون إدوارد ليفسون جيرفث (١٨٥٠-١٨٨٥): حفيد قائد البحرية البريطاني الشهيرجون جيرفث والذي كان أول من قلده النظام الملكي البيريطاني لقب «**The Earl of St.Vincent**». كان جون إدوارد ليفسون من اللوردات القياديين في العصر الفيكتوري. وكان يحوز حينها على لقب «**Viscount of St. Vincent**» وهو أكبر لقب ملكي قيادي للورد بريطاني بمقاطعة ستافورد الواقعة بأواسط بريطانيا.. وقد عُرف في الأواسط السياسية الفيكتورية حينها بلقب «لورد سانت فنسنت». وبعد مقتله بسلاح المهدويين، ارتضت الملكة فيكتوريا ان يخلفه أخوه الأصغر كارنيج باركر جيرفث كخامس لورد من الأسرة ذاتها حاز على لقب لورد سانت فنسنت بالتتابع الوراثي.انظر:

The Complete Guide to the British Peerage & Baronetage:
http//:www.cracroftspeerage.co.uk/online/content/stvincent1801.htm.

الأمير النور عنقرة[1] والذي زحفت جحافله إلى المدينة على رأس ألف مقاتل. وبتتبعٍ أكثر دقة لوقائع ما يمكن أن يحدث في مثل هذه الأحوال، سنجد أن تلك الخطوة قد ماثلت لحدٍ كبير ملامح الذهنية العسكرية التي اتسمت بها قرارات المهدي في مواجهاته مع الإنجليز. ذلك أن تلك الخطوة المهمة قد تبدت بقدرٍ كبير من التماهي مع ما قاله الخبير العسكري البريطاني دونالد فيثرستون في معرض تحليله لفكر المهدي العسكري:

«كان المهدي قادراً على الاستفادة من هذا الإرث في الصبر على العدو والانتظار بتأن حتى تحين اللحظة المناسبة لتوجيه الضربة القاضية. كان بارعاً في الاستفادة القصوى من لحظات الارتباك الكامل في صفوف عدوه. ان المرء منا ليجد قرارته المصيرية – في معظم الأحيان– مصحوبة بحدسٍ عبقري قلما يخطئ».[2]

1 **الأمير النور عنقرة (١٨٣٦–١٩٢٤)**: وُلد في العام ١٨٣٦ بإحدى بلدات قبيلة البديرية الدهمشية العريقة وهي بلدة «قُشابي» الواقعة بشمال كورْتي. عمل النور مع الزبير باشا وتقلد رتبة بك في عهد الاستعمار التركي. عينه المهدي أميراً بعد وقوع مدينة «بارا» في قبضة الثورة المهدية. وعندما كان المهدي يحاصر بقواته مدينة الأبيض جاءه النور عنقرة مبايعاً وقد كان يرتدي البنطلون والقميص مع الطربوش. فسأله المهدي: ما هذا اللبس؟ ورد النور عنقرة قائلاً هذا لبس البكوية. فقال له المهدي: أنت من اليوم تلبس لبس الأمراء وخلع جلابيته وأعطاها للنور عنقرة. لعب دوراً قيادياً مهماً في معركة شيكان وتقدم بعدها مع المهدي ليشارك في حصار الخرطوم. وكان له القدح المعلى في تعطيل حملة الإنقاذ الإنجليزية بنواحي المتمة بعدما بعثه المهدي من ضواحي الخرطوم للغرض ذاته على رأس ألف مقاتل من حملة البنادق فناوشت قواته الإنجليز في مواجهات عديدة ومنها معركة الشبكات الشهيرة محدثة بأواسطهم خسائر ثقيلة. اشترك في انتصار جيوش المهدية على الأحباش وقاتل أميراً بقوات المهدية التي تصدت للغزو الإيطالي بجهات مدينة كسلا.. كان أميراً شجاعاً ومقاتلاً جسوراً مرهوب الجانب.. وفيه قال الشاعر وشيخ المادحين أحمد ود سعد:

النور عنقرة جرعة عَقود السّم
راكب في المحاص يضحك ويتبسّم
جسمه بحاله بالرصاص موسّم
الروح سبّلها.. إلا الأجل ما تم

لم يشترك النور عنقرة بمعركة كرري حيث كان طريح فراش المرض بالقضارف وعُرفت المنطقة التي سكن فيها في المدينة بديم النور هو حي سكني يحمل ذات الاسم وما زال قائماً إلى اليوم بالمدينة ذاتها. توفي الأمير النور عنقرة بالعام ١٩٢٤ ودفن بمقابر أحمد شرفي بأمدرمان.

انظر: **الشايقية ومواقفهم من المهدية**، للدكتورة فاطمة أحمد عمر، ص ١٣٠–١٣٤.

2 فيثرستون، مصدر سابق.



الأمير النور عنقرة قائد التعزيزات التي أرسلها المهدي لمقاومة القوات البريطانية في الشمال.
بريشة الفنان المبدع جحا.



السير هنري نيوبولت شاعر قصيدة «Vitai Lampada»، المنظومة في رثاء قتلى الجيش البريطاني في «أبو طليح».



نصب تذكاري لقتلى البريطانيين في «أبو طليح».



الأمير علي ود سعد؛ قائد السلاح الناري بقوات الثورة المهدية في معركة «أبو طليح».



الجنرال هربرت ستيوارت؛ قائد قوات الجيش البريطاني بموقعة «أبو طليح»، الذي سقط برماح المهدويين ودُفن بآبار الجقدول.



إحدى فرق الجيش البريطاني قبل موقعة «أبو طليح».

وتبعاً لتلك التطورات، تلت «أبو طليح» اشتباكات أخرى في «المتمة» و«الشبكات» تكبدت فيها حملة الإنقاذ المزيد من القتلى والجرحى. واشتدت المواجهات مع القوات الإنجليزية بمشاركة رجال الأمير النور عنقرة الذين عُرفوا بإجادتهم لاستعمال السلاح الناري وحسن تدريبهم في هذا المجال. كل ما تقدم ذكره، أدى تحديداً لتحقق أهداف الثورة المهدية بتعطيل حملة الإنقاذ البريطانية التي تأخرت لتلعق جراحها وتدفن قتلاها الذين قُدر أن يكون من ضمنهم لاحقاً السير هيربرت ستيوارت[1] قائد طابور الصحراء نفسه. بيد أن الرماح السودانية التي إنغرست بصدر الجنرال البريطاني لم تُسلمه إلى الموت مباشرة، فبقى يغالب جراحه البالغة حتى أحاط به حتفه بعد بضعة أسابيع، فشيعه الإنجليز بتراتيل صلواتهم الحزينة ليُدفن بالقرب من آبار الجقدول!.

ولَم يمض كثير من الوقت قبل أن تنطبع آثار مقاومة السودانيين العنيدة لتقدم البريطانيين في صحراء الشمال، في المخيلة الإنجليزية فتستحيل إلى قصائد شعرية أثرت بأبياتها المناحية حركة الثقافة والأدب البريطانية. ونعني هنا تحديداً قصيدة«Vitai Lam-pada» الشهيرة والتي رثى فيها شاعرها السير هنري نيوبولت قتلى الجيش البريطاني برماح وسيوف السودانيين في ملحمة «أبو طليح» وفي مقدمتهم الكولونيل برنيبي. كل ذلك اقترن اقتراناً وثيقاً بمراسلات فظة بعثت بها الملكة فيكتوريا للقائد ولسلي مما دفع الأخير للكتابة لزوجته معبراً عما اعتمل بصدره من حنق وإحباط حيال المسار الذي جرت عليه الأحداث الأخيرة[2].

1 **هربرت ستيوارت** (١٨٤٣-١٨٨٥): هو اللواء « **Major–General**» هربرت إدوارد ستيوارت. حفيد السياسي البريطاني المعروف جون ستيوارت والذي شغل منصب الأيرل السابع لجالوي الأسكتلندية. ولد هربرت بهامبشاير في ١٨٤٣ وتلقى تعليمه بكليتي برايتون ووينشستر قبل أن ينضم للجيش البريطاني في ١٨٦٣.. شارك في حروب بريطانيا الاستعمارية بالهند وجنوب أفريقيا في مواجهات البوير والزولو. بعد موقعة التل الكبير التي قاومت فيها الحركة العرابية البريطانيين.، كان هربرت ستيوارت قائداً للقوات التي طوقت مدينة القاهرة لتأمين النفوذ الإنجليزي هناك. تمكن المهدويون من إصابته بجروح بالغة في اشتباكات ما بعد موقعة أبوطليح وتوفي بعدها متأثراً بإصابته تلك ليدفن بالقرب من آبار الجقدول بصحراء بيوضة. قال عنه ولزلي قائد قوات البريطانيين وقتها: «ليس هناك –على الإطلاق – مقاتلاً تشرف بارتداء بزة جيش ملكة بريطانيا، بمثل شجاعة أو براعة ستيوارت في قيادة الرجال». انظر «**موسوعة المعرفة البريطانية**»، الجزء الخامس والعشرين.

2 نيكول: **أوراق اللورد ولسلي**، خطاب بتاريخ يناير ١٨٨٥، مصدر سابق، ص ٢٩٠.

أما على المستوى الشعبي بداخل أراضي المملكة البريطانية، فإن كل ما جرى في «أبو طليح» وما تلاها من مواجهات ضارية قاومت فيها قوات الثورة المهدية تقدم القوات الإنجليزية ببسالة متفردة، لم يكن على مبعدة من المتابعة الشغوفة لدقائق التفاصيل عند عوام الناس هناك. وقد تعرضت لذلك تحديداً صحيفة «Freeman Journal» حين ذكرت أن وقائع المهدية في السودان قد «أسرت الاهتمام» للدرجة التي صار فيها القرّاء «يتطلعون لأحدث الأنباء هناك ساعة بساعة بترقبٍ قلق مشوب بالتشويق»[1]. إلا أن الصحيفة نفسها لم تلبث كثيراً قبل أن تكتب مجدداً عن أصداء انتصارات الثورة المهدية والتي تمددت في بريطانيا حتى صار ذلك الحديث - بحسب كلمات الصحيفة - «هو الموضوع الأوحد الذي يتجادل فيه الناس».. «حتى في أصغر قرية من قرى الصيادين البعيدة»[2].

غردون يقضي ساعاته الأخيرة محاصراً خلف أسوار الخرطوم

أما جنوباً، وتحديداً بداخل أسوار مدينة الخرطوم المحاصرة.. وعندما اشارت عقارب الساعة إلى الحادية عشرة من مساء ٢٥ يناير ١٨٨٥، كانت أنامل الجنرال غردون المرتعشة تختط آخر أسطر مذكراته والتي جاء فيها:

«إذا لم تصل القوات البريطانية علي وجه السرعة، فإن مدينة الخرطوم ستسقط في يد المهدي.. لقد فعلت كل ما بوسعي فعله من أجل شرف وكرامة بريطانيا.. وداعاً.. وداعاً.. مخلصكم تشارلز غردون»[3].

ولكن غردون المحبط لم يلبث قلمه المرتجف أن كتب آخر أسطره التي تنضح بالحنق والرغبة بالانتقام لأولى هزائم بريطانيا المدوية فيما وراء البحار بعدما باتت وشيكة جداً.. فكتب قائلاً:

1 **Journal Freeman**، ٢٣ يناير ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

2 نفس المصدر، عدد ٢٨ يناير ١٨٨٥.

3 **يوميات الميجور جنرال تشارلز غوردون في الخرطوم**، تحقيق الفريد هيك. انظر أيضاً:
Beyond The Reach of The Empire, Colonel Mike Snooke, Fortline Books, 2013, P1558.

«هناك أربعة أشخاص، ستحسن حكومة جلالة الملكة إليّ ان ذبحتهم على قبري وهم: عثمان دقنة الذي أحدث القلاقل في السودان الشرقي وقطع بينه وبين بربر التي لا يكلف السفر منه مشقة كما يكلف عتمور أبوحمد، والثاني محمد الخير الذي لولا قيامه بدعوة المهدية في بربر وسقوطها في يده لاستطعت أنا النزوح إلى مصر متى رأينا الخطر بارزاً من وجه المهدي وأنصاره، وثالثهم الشيخ المضوي عبدالرحمن الذي حرّض القبائل بالضواحي على حصاري وكان هو ومن تابعه أول من أطلق الرصاص على ضواحي الخرطوم وكان يكتب لي الكتب المشحونة بهجائي وهجاء جلالة الملكة خلافاً لمولاه المهدي ورابعهم أمير المهدية الشيخ العبيد ود بدر»[1].

معركة تحرير الخرطوم

وفي تمام الثالثة من صباح ٢٦ يناير ١٨٨٥ عقد الإمام المهدي مجلس شوراه الأخير قبل تحرير الخرطوم مع الخلفاء وكبار الأمراء وخلص الاجتماع إلى ضرورة تحرير الخرطوم بعملية إقتحام واسعة على ضوء إصرار غردون على عدم التسليم وحقن دماء الناس حتى تتفرغ قوات الثورة المهدية لمواجهة حملة الإنقاذ الإنجليزية في الشمال. وكان مشاهير أهل هذا الرأي هم: الأمير محمد ود نوباوي أمير قبيلة بني جرّار، الأمير الياس أم برير من قيادات الجعليين النفيعاب والأمير محمد عبدالكريم من بني عمومة المهدي[2].

وجمعت القوات المقاتلة للمهدي ليخاطبها قبل المعركة. وأورد فيرغس نيكول في سفره «مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون» وصايا المهدي المشددة الأخيرة لجيش الثورة المتأهب لتحرير المدينة والتي قال فيها:

«إذا نصركم الله.. الغردون لا يُقتل.. الفقيه الأمين الضرير لا يُقتل.. كل من استسلم ورمى سلاحه لا تقتلوه.. كل من أغلق باب بيته عليه لا تقتلوه».. ثم كبّر المهدي بسيفه

1 **استقلال السودان بين الواقعية والرومانسية**، للدكتور موسى عبدالله حامد، إصدارة الخرطوم عاصمة الثقافة العربية 2005، مطابع العملة الوطنية، الخرطوم – السودان 2005. انظر أيضاً نقلاً عن مذكرات غردون.. محمد عبدالرحيم: **النداء في دفع الافتراء**، مطبعة البرلمان، القاهرة، بدون تاريخ، ص١٦..

2 **أوراق السيد علي المهدي**، نسخة مودعة بدار الوثائق السودانية بخط يد الشيخ سليمان أديب.

في اتجاه الخرطوم إيذاناً ببدء الهجوم لتحرير عاصمة البلاد[1].

ويتفق ما سبق مع ما ورد في أوراق السيد علي المهدي من وصايا المهدي للجيش الفاتح ومنها ما قال فيه نصاً:

«وعليكم بقتال من في خط النار أولاً حتى يدخلوا البلد ولا تقتلوا من يرفع لكم راية التسليم ولا تقتلوا من يقفل بابه عليه». وقال أيضاً: «الغردون يا إخواننا لا تقتلوه ولو قتل منكم مائة رجل».

وتلى المهدي على جيشه قائمة طويلة ممن أوصى مشدداً بالحفاظ على حياتهم ومنهم فرج باشا الزيني القائد العام والشيخ محمد حتيك قاضي القضاة والشيخ الأمين الضرير والسيد حسين المجيدي والمفتي شاكر الغزاوي والشيخ محمد الخرساني والشيخ محمد السقا والسنجك محمد قرضية وابنه السنجك أحمد وأحمد بك جلاب مدير الخرطوم والشيخ سليمان الدرواي سر تجار الخرطوم والسيد محمد طه الشامي وآخرون[2].

وتقدمت قوات الأمراء «النجومي» و«أبوقرجة» و«محمد ود نوباوي» فاخترقت دفاعات المدينة بتكتيك عسكري متقدم عرُف لاحقاً في علوم الأكاديميات العسكرية بمصطلح «Deliberate Day Attack»[3]. فتم تحرير المدينة في وقت وجيز. وفي خضم هذه اللحظات التي عادة ما يصحبها الكثير من الانفلات الثوري الذي يصعب السيطرة عليه.، قتُل غردون خلافاً لأوامر المهدي الصريحة بالحفاظ على حياته وحدثت العديد من التجاوزات التي نهى عنها القائد وكبار الأمراء. وكان المهدي الذي أكمل سنوات عقده الثالث وازداد عليها ببضعة أشهر، قائماً يصلي في الضفة الأخرى من النهر بشاطئ أم درمان الشرقي، فلما تحقق بعض الأنصار من مقتل غردون أتوه برأسه ليبشروه بالانتصار الحاسم للثورة على القوى المحتلة. واستشاط القائد غضباً عندها قائلاً:

1 نيكول: **مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون**..مصدر سابق، ص ٢١٨.

2 **أوراق علي المهدي**، مصدر سابق، ص ٩٢.

3 ورقة علمية بعنوان: **تحرير الخرطوم جهد ثلاث عبقريات** – اللواء ركن «م» أبو قرون عبد الله أبو قرون، مؤتمر الدراسات المهدوية العلمي الدولي الثاني، الخرطوم، ٢٤ يناير ٢٠١٧.

«ما هذه الأفعال؟ لماذا أنتم دائماً تخالفون أمرنا؟ أما سمعتم أمرنا المتكرر بعدم قتله فلماذا قتلتموه؟ ثم لماذا مثلتم به وقطعتم رأسه؟ وما الفائدة من قطع رأسه وإرساله لي»[1]. والذي لا شك فيه أن المهدي كان يود أن يأخذ غردون أسيراً ليفدي به أحمد عرابي قائد الثورة العرابية الذي كان يرزح تحت ويلات منافي الإنجليز في جزيرة سيرلانكا [2].

ويقول نيكول إنه على الرغم ما مر ذكره، فإن المهدي وود النجومي كانا من الحرص بمكان على حياة المدنيين. وعندما دخل المهدي المدينة ظافراً وجه الأمير أحمد ود سليمان أمين بيت المال بإرجاع كل امرأة من أهل المدينة إلى أهلها أو أي قريب لها قبل غروب الشمس[3]. وقام الأمير علي الأمين الضرير[4] والقوات التي كانت تعمل تحت إمرته بدور

1 على المهدي، مصدر سابق، ص ٩٣.

2 أكد المؤرخ البريطاني بيرنارد. ام. الين أن حرص المهدي على حياة غردون كان مبعثه رغبته في افتداء أحمد عرابي بغردون وقد استند الين عموماً في ورقته التالية على شهادات بعض من استجوبهم من أمراء الثورة المهدية الذين بقوا على قيد الحياة. انظر: كيف سقطت الخرطوم، بيرنارد.ام. الين، مجلة الجمعية الأفريقية الملكية، المجلد رقم ٤٠، العدد ١٦١، الناشر: مطبعة جامعة اكسفورد، ١٩٤١.

3 نيكول: مصدر سابق، ص٢٦٣.

4 **علي الأمين الضرير**(١٨٤٣-١٨٨٩): هو الأميرعلي بن الشيخ الأمين الضرير بن محمد. وهو الابن الأكبر للشيخ الأمين الضرير. وكان الأمين الضرير شاعراً ضمن حلقة جعفر باشا مظهر الأدبية قبل أن يُعين شيخاً لعلماء السودان بالخرطوم في فترة الحكم التركي واستمر بتقلد ذات المنصب بعد تعيين الجنرال البريطاني غردون حاكماً عاماً على السودان. وكان الشيخ الأمين الضرير معارضاً للثورة المهدية. أما ولده علي فقد كان من طلائع فرسان جزيرة توتي الذين انضموا لصفوف الثورة المهدية بمدينة الأبيض قبل عدة أسابيع من موقعة شيكان بالعام ١٨٨٣ والتي شارك فيها الأمير علي مقاتلاً بصحبة جده لأمه. وكانت والدته السيدة الفضلى «أم مريوم» بنت عبدالله من أكثر النساء حماسة في دعم الثورة المهدية فهاجرت مع ابنها علي وأبيها ومجموعة من شقيقاتها للانضمام لصفوف الثورة المهدية بالأبيض مما استدعى المهدي لإصدار منشور في منتصف أكتوبر ١٨٨٣ أثني فيه على بلاء الأمير علي الأمين الضرير ووالدته وشقيقاتها وجده لأمه. وكان المهدي قد أطلق علي الأميرعلي لقب علي «الصادق» فعُرف بهذا الاسم في عدة مراسلات رسمية لاحقة بين أمراء الثورة المهدية. وافلح الأمير في جذب شقيقه محمد الأمين الضرير لصفوف الثورة المهدية فعينه المهدي قاضياً على مدينة بربر. وكان علي الأمين الضرير أميراً على المحس الغردقاب في فترة حصار وتحرير الخرطوم. وبعد وفاة المهدي بقي الأمير علي الضرير من المقربين من خليفته ويتضح ذلك من خلال احدي مراسلاته مع الأمير يونس الدكيم والتي أوضح فيها الخليفة لعامله أن علي الضرير من ثقاة «أولاد البلد» الذين يطمئن هو لولائهم واخلاصهم. انضم الأمير علي الضرير لحملة الأمير النجومي على مصر فشهد موقعة توشكي ضد القوات البريطانية بجنوب مصر في نهايات العقد الثامن من القرن التاسع عشر. وقد ذكر عون الشريف قاسم انه قُتل بالمعركة نفسها وخلفه أخوه عبد الرحمن الضرير في امارة المحس الغردقاب.غير أن مصادر سماعية مغايرة أكدت نجاته من أحداث موقعة توشكي ومشاركته في معركة فركة التي انسحب بعدها مع قوات المهدويين حيث قُتل

كبير في الالتزام بتعليمات المهدي بعدما وجهه الأخير تحديداً بحماية وتأمين أهالي جزيرة توتي ضد أي اعتداءات متفلتة.

وفي سياق وثيق الارتباط بهذا الشأن تحديداً،أصدر المهدي منشوره الشهير بعد تحرير الخرطوم والذي عمل فيه على صون نساء المدينة من تعديات بعض المتفلتين، وفيه قال:

«ان النساء الخارجات من قفرة الخرطوم جميعاً قد أحببنا ان يعطين لازواجهن ولا يجوز لأحد من أصحابنا وأحبابنا ان يتزوج منهن، فذوات الأزواج يسلمن لازواجهن وكل من لا زوج لها تكون لدي امين مأمون(المقصود شخص محرم) ويجري راحتهن، فالحذر من التزويج لأحد من نساء ألقياقر المذكورة صغيرة أو كبيرة، ثيباً أو بكراً ومن تزوج بواحدة من المذكورات بدون نظر حكم الله فهو الجاني على نفسه والسلام»..[1]

ويرى المؤرخ الوطني ضرار صالح ضرار أنه بمجرد ميل كفة المواجهة لصالح الجيش الفاتح فإن أوامر المهدي لم تتأخر كثيراً لوقف القتال وحقن دماء المدنيين، بيد أنه يرى أن ما حدث من تجاوزات كان مبعثه تأخر وصول تلك التعليمات لكل المقاتلين المتفرقين في المدينة وهو أمر متوقع حدوثه في الظروف التي تجتاح فيها الجيوش الكبيرة المدن بإستحكاماتها العديدة.[2] وبوقوع الخرطوم في قبضة الثوار شرع الامام المهدي في تشييد العاصمة الوطنية «أم درمان» وإبتني لنفسه منزلاً طينياً متواضعاً وتبعه الثوار فأعلنت تلك اللحظات ميلاد السودان المستقل الموحد.

ثم بدأت مرحلة مطاردة جيش حملة الإنقاذ البريطاني المنهزم والذي مُني بالمزيد من الخسائر الدامية، فسقط الجنرال الإنجليزي الأبرز «وليام أيرل»[3] قتيلاً في موقعة

بعدها في صفوف قوات محمود ود أحمد التي واجهت البريطانيين في معركة النخيلة بشمال السودان ١٨٩٨. انظر «**موسوعة القبائل والأنساب في السودان**»، للبروفيسور عون الشريف ج ٣، ص١٣٥٧-١٣٥٩انظر أيضاً..أبو سليم: الاثار الكاملة للامام المهدي،دار جامعة الخرطوم للنشر،١٩٩٢،المجلد الأول،ص٣٨٣.

1 أبو سليم: مصدر سابق، ص ٢٨٦-٢٨٧.

2 **تاريخ السودان الحديث**، للأستاذ ضرار صالح ضرار، منشورات دار الحياة بيروت، لبنان، ١٩٦٨، ص١٦٠.

3 **وليام أيرل** (١٨٣٣-١٨٨٥): ضابط إنجليزي مرموق تقلد رتبة لواء « **Major General**» في جيش حملة الإنقاذ البريطانية الذي ابتُعث لمواجهة الثورة المهدية في السودان وإنقاذ الجنرال غردون. ولد الجنرال

«كربكان» والتي دارت رحاها بين القوات الإنجليزية بزعامة الأخير وقوى المقاومة من قوات الثورة المهدية بقيادة الأمير موسى أبوحجل[1] الذي تزعم مائة وواحداً وأربعين فارساً من فرسان «الرباطاب» في مواجهة جسورة جرت في العاشر من فبراير ١٨٨٥.

وكتب «ولزلي» للورد هارينجتون وزير الدفاع البريطاني آنذاك ليصف حملة التعبئة الناجحة للثورة المهدية والتي أدت إلى إشتعال الشعور القومي السوداني ووحدة ابناء الوطن في مواجهة الغزاة: «انهم ينظرون إلينا الآن بكراهية عمياء. فنحن في نظرهم كفار وغزاة جئنا إلى بلادهم تلبية لرغباتنا الانانية ويعتقدون اننا ان انتصرنا عليهم سنأتي بحاكم اجنبي يسومهم عسفاً وظلماً ويفرض عليهم الضرائب الباهظة كما كان يفعل الباشوات المصريون» وعلق نيكول على هذا الخطاب قائلاً: «لقد كانت القوات

وليام أيرل في مدينة ليفربول بالعام ١٨٣٣. والده هو السير هاردمان ايرل رجل الأعمال الشهير الذي ورث بارونية جنوب ليفريول من أسرته. قاتل وليام ايرل في حرب القرم مع خيرة جنرالات جيش الإمبراطورية البريطانية ومُنح نجمة سلاح الفرسان المعروفة باسم «**Companion of the Order of the Bath**». خلدت الإمبراطورية ذكراه بإقامة نصب تذكاري بارز له أمام قاعة سانت جورج الشهيرة بمدينة ليفربول الإنجليزية ما زال قائماً إلى يومنا هذا. ويعد وليام ايرل هو خامس جنرال بريطاني يلقي حتفه بسلاح الثورة المهدية في السودان بذلك الوقت.

1 **موسى أبوحجل**: هو الأمير موسى بن محمد مالك ابوحجل. والده الشيخ محمد مالك ابوحجل هو زعيم الرباطاب الذائع الصيت عند قيام الثورة المهدية. رشح الأمير محمد الخير.. موسي ابوحجل للإمارة وخاطب المهدي بذلك فأثني المهدي على اختياره وباركه في نوفمبر ١٨٨٤. وقد عُرف والده الشيخ محمد مالك ابوحجل بوالد الشهداء الثلاثة نسبة لمقتل ثلاثة من أبنائه في مواجهات الثورة المهدية وتحت راياتها ضد البريطانيين وهم موسى ومحمد وعمر. أما موسى فقد استشهد في معركة كربكان نفسها بعدما قاوم ببسالة فائقة مع رجاله القوات الإنجليزية التي فاقتهم عدة وعتاداً وتسليحاً.. بينما قُتل محمد في توشكي ولقي عمر حتفه شهيداً بعد تصديه مع قوات المهدية في الشمال لقوات كتشنر الإنجليزية الغازية في ١٨٩٧. وقد نُسبت الأبيات التراثية التالية لامرأة من الرباطاب رثته بقافية شعبية حزينة قالت فيها:

حِليل مُوسَى يا حليل مُوسَى
حليل مُوسَى للرُّجال خُوسَة
يوم جانا الحصان مجلوب
في ضَهره السَّرِج مقلوب
أبكنُّه يا بنات حي ووبْ
حليل موسى وسَّدوهُ الطوب.

انظر «**من أبا إلى تسلهاي**» للأستاذ عبدالمحمود أبوشامة،ص٥٦٧-٥٦٨.انظر أيضاً: حليل موسى في (**CNN**)، مقال لعبد المحمود نور الدائم الكرنكي، سودارس:

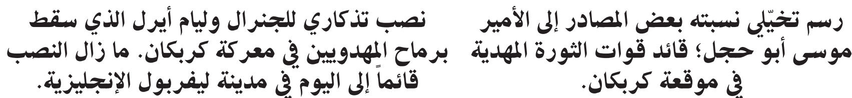
https//:www.sudaress.com/alintibaha.11491/

البريطانية بلا صليح ليقف إلى جانبها في السودان»[1].

وبانسحاب قوات جراهام من شرق السودان تحت ضغط عمليات عثمان دقنة العسكرية الماكرة، تم تحرير معظم أراضي السودان من أي قدم إنجليزية. وفي أواخر أبريل ١٨٨٥ رفع الأمير عثمان دقنة تقريره للإمام المهدي قائلاً: «لقد قذف الله الرعب في قلوب أعداء الله الإنجليز بفضل ثبات الأصحاب وولوا الأدبار هاربين»[2]. وعلق نيكول على تلك الأحداث قائلا: «إن حملة بريطانيا العسكرية في السودان التي فاقت تكلفتها السبعة ملايين من الجنيهات الإسترلينية قد انتهت إلى الفشل التام»![3].







رسم تخيّلي نسبته بعض المصادر إلى الأمير موسى أبو حجل؛ قائد قوات الثورة المهدية في موقعة كربكان.

نصب تذكاري للجنرال وليام أيرل الذي سقط برماح المهدويين في معركة كربكان. ما زال النصب قائماً إلى اليوم في مدينة ليفربول الإنجليزية.

1 نيكول: **غردون وغلادستون وحروب السودان**.. خطاب ولسلي للورد هارينجتون وزير الدفاع البريطاني ١٨٨٥، مصدر سابق، ص٣١٢.

2 نيللاندز: مصدر سابق، ص ١٥٠.

3 نيكول: **مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون**..مصدر سابق، ص٢٦٥.



رسم كاريكاتيري ساخر يصوّر الجنرال الإنجليزي جراهام وهو يعدو منسحباً أمام قوات الأمير عثمان دقنة في ساحل البحر الأحمر المتاخم لشرق السودان. نشرته في ١٨٨٥ صحيفة «أبو نظارة زرقاء» التي كانت تصدر باللغتين العربية والفرنسية من باريس.

وكان لكل ما سبق أصداء مزلزلة بداخل الإمبراطورية البريطانية مما عجل بالإطاحة بحكومة اللبراليين بقيادة غلادستون وتبعاً لذلك، أفلح المحافظون في االتقدم نحو مقر الحكم في 10 داونيننغ ستريت. وقوبلت رجاءات ولزلي - المنسحب بجيشه في صحاري شمال السودان والملاحق بقوات الثورة المهدية - في ان ترسل له بريطانيا المزيد من التعزيزات لاستئناف العمليات الحربية ضد الثورة المهدية بالرفض القاطع، فتقهقر بقواته مجرجراً أذيال الخيبة. ذلك المشهد التراجيدي دفع صحيفة إيرلندية مهمة على نحو «Irishman» لتصوير تلك الوقائع كما أدرك تفاصيلها محرروها.. وفي ذلك قالت:

«لقد قام السودانيون في كل تلك الوقائع بإنزال الهزيمة الساحقة بجنرال إنجلترا

الأوحد (المقصود ولزلي). ويكفيهم من المجد ما حققوه في هذا المجال إلى يومنا هذا. إن سمعة ولزلي العسكرية قد صارت الآن كحُلي مبهرجة كاذبة استُعملت لتزيين كنيستي سانت مايكل وسانت جورج بلندن»[1].

وكتبت الصحيفة ذاتها في سياق مقارب عن المأزق العسكري العميق الذي إنجر إليه الإنجليز بسبب انتصارات السودانيين عليهم، فشجبت بلهجة مشددة نوايا الإنجليز المبيتة للانتقام من الهزائم التي أذاقها لهم رجال الثورة المهدية.. ومن ذلك قولها:

«إن حالة الوهدة المميتة التي أصابت الإنجليز في حروب السودان هي أبسط ما يمكن أن نقرأه من دفاتر الأحداث في الإسبوع الذي سبق. لم يكن المهدي هو الذي إنكسر بل علي العكس تماماً كان أعداؤه الإنجليز هم الذين نالتهم هزائمه الساحقة بعدما تم تحطيم قواهم العسكرية بقدر كبير. إن هذه الحرب صارت بلا هدف بعد انتزاع الخرطوم من أيديهم ومقتل غردون. ولكن إنجلترا بطبيعتها النازعة نحو السلب والإجرام لم تكن تحتاج لأي مبرارات تسوِّغ لها غزو آراضي الشعوب. كان من المفترض إنقاذ غردون ولكن غردون ذهب إلى غير رجعة. الآن تحول هدفهم نحو الانتقام لغردون. والوسيلة التي تحقق تلك المهمة الصليبية هي قتل أكبر عدد من أعراب السودان ممن يمكن أن تطالهم أيديهم أو ممن أمكن أن يكونوا في مرمى نيران مدافعهم»[2].

بموازيين الحسابات العسكرية، ظل تفوق المقاومة الشعبية االعسكرية للسودانيين على القوى البريطانية الغازية يخضع لتمحيص بعض الخبراء العسكريين والأكاديميين في بقاع مختلفة من العالم. ومن ذلك ما سبق وأن أشرنا إليه من تحليل مهم للملكات العسكرية للقيادة الميدانية عند قادة الثورة المهدية بواسطة المؤرخ البريطاني والمحلل العسكري دونالد فيثرستون الذي إستفاض فيه الأخير ليشير للمواهب الفطرية المتأصلة في أمراء ورجال المهدية مما جعل منهم – بحسب كلماته – «مقاتلين على طراز فريد من الروعة»[3]. بيد أن الخبير العسكري الأمريكي «روبرت روسي» بخلفيته الأكاديمية

1 صحيفة **Irishman**، ٢٨ فبراير ١٨٨٥، أرشيف الصحافة الإيرلندية.

2 نفس المصدر.

3 فيثرستون، مصدر سابق، ص٤٠.

المهمة لم يدخر جهداً في سبيل الخوض بعلمية في تكتيكات الثورة المهدية العسكرية في مجابهة القوى الاستعمارية ودورها في تحقيق التفوق الحاسم على تلك القوى إبان السباق لتحرير عاصمة السودان وتعطيل الحملة البريطانية في صحراء الشمال. ويستبين ذلك فيما قاله «روسي»:

«في الميدان العسكري، على الرغم من عدم تلقي المهدي لتعليم نظامي وتدريب عسكري فيما يختص بذلك المجال الا أنه كان ملماً بالمجهودات العسكرية للنبي محمد. ومع ذلك فإن المهدي قد أفلح في أن يؤسس لنفسه في هذا الميدان سجلاً ممتازاً، فكان ذلك كافياً جداً لضمان النجاح لمساعي حركته. لقد كان مدركاً لمفهوم المبادرة العسكرية بما مكنه من تضمين ذلك في إستراتيجيته عن طريق تحركات شكلت تهديداً لأعدائه في كل الأمكنة بالسودان بنسق متزامن التوقيت. كان يتقدم مخترقاً ليصيب عدوه بانعدام التوازن بصورة ثابتة حينما يسعى العدو للرد على تحركاته. كان يلقي بكل تركيزه على الهدف المترائي أمامه ولا يدعه ليفلت من قبضته من دون إكمال المهمة التي كان يبتغيها. لقد أظهر المهدي إحاطته بهذين المفهومين الأساسيين عن طريق إرساله لتعزيزات ميدانية للقادة العاملين تحت امرته ليمكنهم من أخذ المبادرة بالهجوم أو تأخير أي تعزيزات منقذة للعدو»[1].

وبالعودة قليلاً إلى تفاصيل النهايات التي سبق وأن سبرنا أغوارها، وبإلباس ما قال به «روبرت روسي» لبوس ما جرى فعلاً على وقائع الأحداث، فقد أدرك المهدي حينها أن القوات الإنجليزية المترنحة قد صارت هدفاً متراءياً أمام عينيه بشكل أتاح له تنفيذ إستراتيجيته العسكرية المفضلة.. ألا وهي التقدم بقواته للقضاء على عدوه ذي التوازن المنعدم. ومن ذلك أنه قد جهز جيشاً ضخماً من أنصاره بلغ تعداده الـ٢٠,٠٠٠ من الرجال من أجل ملاحقة فلول الإنجليز المنسحبة. وأوكل المهدي قيادة تلك القوات للأمير عبدالرحمن النجومي. وتقدمت صفوف ذلك الجيش رايات لأمراء كبار مع أتباعهم ورجالهم من تشكيلة قبلية سودانية وعشائرية متنوعة ومنها على سبيل المثال:

---

1 روسي، ص ٧٤.

راية الأمير عبد الله بن الشيخ حمد النيل أحمد الريح يوسف أبو شرا، راية الأمير موسى بن الشيخ العبيد ود بدر، راية الأمير عبدالحليم مساعد، راية الأمير عبدالقادر ود أم مريوم، راية الأمير ميرغني سوار الذهب وراية الأمير أحمد بن الشيخ محمد الخير «أستاذ المهدي». وفي فجر الخميس ١٢ فبراير١٨٨٥، اعتلى المهدي صهوة جواده وهو يلقي ببصره على حشد الرايات والكتل البشرية التي انتظمت أمامه فسدّت مواضع الرؤيا من كل الزوايا. وما لبث حينها أن إستل سيفه، فكبر ثلاثاً ثم حمل راية الأمير عبدالرحمن النجومي ليتقدم نحوه ويسلمها إياها وهو يتلو الآية التالية: «و رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً»[1].

وبينما كانت قوات ود النجومي تتقدم براياتها الخفاقة نحو فلول الإنجليز في الشمال، كان عرش الملكة فيكتوريا القابع بالقاعة الملكية بقصر باكينغهام اللندني العريق لا يكاد يحمل سيدته ذات الـ ٦٦ ربيعاً دون أن تعتريه هزة.. وثقتها دواوين الإمبراطورية الملكية نفسها قبل غيرها من صحائف التاريخ.

وهذا ما سنأتي إليه بالتفصيل في الفصول القادمة...

1 أبوشامة، مصدر سابق، ص ٥٢٥-٥٢٦.

الباب السادس

الأصداء العالمية
لموقعة تحرير الخرطوم

الأصداء العالمية لموقعة تحرير الخرطوم

«لقد انتصر المهدي وها نحن نبدو جميعاً.. كالأغبياء!».

«The Mahdi has won, and we all look very foolish.»

من خطاب الجنرال البريطاني «ولزلي».. قائد القوات البريطانية في السودان إلى زوجته الليدي لويزا ولزلي بتاريخ فبراير ١٨٨٥.

بريطانيا.. ليال حالكات من الحزن على الهزيمة..

عندما أوشك يناير من العام ١٨٨٥على الانقضاء، كانت رياحه الشتوية الباردة تملأ رايات الثورة المهدية المنغرسة في تراب العاصمة المحررة للمرة الأولى منذ خمسة وستين عاماً من الاحتلال الأجنبي. وبعيداً عن السودان الذي كان ترابه يغلي كمرجلٍ ملتهب تحت أقدام البريطانيين، أُثقلت الجزيرة البريطانية بوطأةٍ مريرة حين حمل ذات الشهر أنباء انتصارات السودانيين على قواتهم الغازية. وحلت هناك أخبار مقتل غردون المقترنة بالهزيمة المدوية التي تلقتها جيوش الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس كما تحل الصاعقة بوقعها المزلزل على أرض آمنة مطمئنة. واندفع الحزن المنكسر ببأسه الذي لا يُصد ليغزو بوابات قصر باكينغهام رغم أنف حراسه الأشداء، ليزلزل عرش الملكة فيكتوريا التي تعلق قلبها بانتصارات متوقعة لجيشها المبعوث لإنقاذ غردون. وفى السياق ذاته، ليس هناك ما هو أكثر تعبيراً عما سبق بمثل ما دونه اللورد «بونسونبي» سكرتير الملكة الخاص من توثيق لتلك اللحظات التي شهدت تلقي صاحبة الجلالة لأنباء انتصارات المهدويين. فلنترك حيزاً مريحاً للمؤرخ البريطاني «روبن نيلاندز» لينقل لنا المشهد برمته على لسان سكرتير العرش الملكي:

TOO LATE!

«Late Too»..[1]

1 رسم حزين حاكى كلمات ذات العبارة التي وردت على لسان الملكة فيكتوريا: **Too Late**. ورد الرسم بمجلة «ذا بنش» اللندنية بتاريخ ٥ فبراير ١٨٨٥. وعلقت عليه الصحيفة بخبر مقتضب قالت فيه: «بحسب التلغراف الذي جاءنا بصباح الخميس ٥ فبراير ١٨٨٥: انتزع منا المهدي مدينة الخرطوم بينما لا يزال مصير الجنرال غردون غير مؤكد».

«لقد كانت (الملكة) في حالة سيئة تماماً بعد سقوط الخرطوم حتى بدت كالمريض المستلقي على فراشه. وكانت تتأهب للخروج للتو عندما اتانا تلغراف يحمل الأنباء. وعندها توجهت (الملكة) إلى مسكني الخاص، وقد تبدى على محياها الشحوب. هناك وجدت زوجتي التي أفزعها منظر جلالتها وهي بتلك الحالة وقد خاطبتها وهي ترتعش: فات الأوان.. (Too late)!».. ثم يستطرد نيللاندز قائلاً: «لم تكن الملكة وحدها! عندما وصلت أنباء مقتل غردون للندن..عمت حالة الحداد جميع أنحاء بريطانيا ونُكست الاعلام وأعلن ذلك اليوم كيوم حداد قومي وسرعان ما تحولت حالة الحزن العام إلى غضب جارف موجه لرئيس وزراء بريطانيا غلادستون»[1].

وتسيد القلق العميق كلمات صحف بريطانية مهمة على غرار «The Morning Post» اللندنية، فكتبت تلك الصحيفة ذات الصيت الذائع بلهجة موغلة في البكائية.. عن ضرورة الرد على إهانات الثورة المهدية لكرامة بريطانيا في السودان بضربة عسكرية جديدة. وفي سبيل التأكيد على أهمية ما سبق تعرضت الصحيفة لما يمكن أن تشكله انتصارات الثورة السودانية من زعزعة لسيطرة بريطانيا الاستعمارية على بقاع مختلفة من العالم،منوهة في الوقت ذاته إلى أن ذلك الأثر الماحق قد يعصف بحكومة غلادستون نفسها، وفى ذلك قالت:

«إن الكارثة الهائلة التي حلت بِنَا في السودان ستتبعها آثار بعيدة المدى تدفعنا إلى أن لا نصدق أنه من الممكن أن تبقى الحكومة البريطانية الحالية على مكتب الحكم لأبعد من أسبوع بعد اجتماع البرلمان القادم. لا يمكننا أن نتقهقر مديرين ظهورنا للمهدي وجحافله دون أن نضحي بسيطرتنا على مصر ومن دون أن تهتز جراء ذلك الدعائم التي تقوم عليها إمبراطوريتنا في الهند. وبما أننا قد تورطنا في هذا الصراع فإنه يتوجب علينا المضي فيه. وبما أننا قد ذهبنا للسودان بالفعل، فإنه يتعين علينا إذن ألا نغادره إلا ونحن منتصرون»[2].

وظل ما نادت به الصحيفة اللندنية المار ذكرها مندرجاً في سياق ما يمكن وصفه

1 نيللاندز، ص ١٤٣،١٤٢.

2 «The Morning Post»، ٦ فبراير ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

بالأماني العصية على التحقق عطفاً على حقيقة الموقف العسكري في شمال السودان. حيث أن قائد الحملة الإنجليزية المنسحبة بفلولها المثخنة بالجراح، لم يلبث أن تلقى خطاباً مُعباً بالثقة بعث به المهدي –بعد فراغه من تحرير الخرطوم– لكل عساكر الحملة البريطانية مطالباً اياهم بالتسليم كما فعل من قبل مع غردون. وقد جاء في ذلك الخطاب:

«وقد توجهت إليكم جنود الله ولا طاقة لكم بمحاربتهم، ولكن من باب الشفقة عليكم أمرناهم ألا يحاربوكم إلا بعد وصول هذا لكم وتحقق الإباء منكم عن الإجابة وألا يؤذوكم وألا يتعرضوا عليكم في شيء من حقوقكم الخاصة إذا سلمتم ما عدا حق الميري والأسلحة والجباخين. فإن سلمتم عليكم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله» إلى أن يقول:

«وإلا إذا خالفتم فلا نقبل منكم صرفاً ولا عدلاً، وسترون ما يحل بكم» [1].

بيد أن اللورد ولزلي الذي قاتل جاهداً ليُلبس وجهه قناعاً من الكبرياء الزائف إزاء كل ما حدث، لم يستطع بأي حال أن يخبئ ما كان يتصعده من حنقٍ ومرارة،على الأقل في مستوى دائرة مقربيه من الخواص. ذلك أنه لم لبث أن كتب لزوجته «لويزا» بعد أيام قليلة من وصول كتاب المهدي إليه، مقراً بشراك الثورة السودانية الذي أحاط بهم من كل جانب، وفي ذلك هذا:

«لقد انتصر المهدي.. وها نحن نبدو جميعاً.. كالأغبياء!»..

(The Mahdi has won, and we all look very foolish.)[2]

وارتدت على ولزلي تقديراته الأولى المتيقنة بحتمية انتصاره على مقاومة السودانيين في أرضهم حين جزم بأن أي عملية عسكرية بريطانية للتقدم امام قوات الثورة المهدية الآن بغرض إسترداد الخرطوم من سيطرتهم ستكون «أخطر عملية عسكرية في تاريخ بريطانيا منذ موقعة وترلوو الشهيرة ضد الفرنسيين بقيادة نابليون». وطالب ولزلي بتعزيزات عسكرية كبيرة من لندن.. قدر البرلمان البريطاني تكلفتها بما قارب الأربعة

1 أبوشامة: من أبا إلى تسلهاي، المطبعة العسكرية، الخرطوم، ١٩٨٦، ص ٥٢٧.

2 نيكول: مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون، ص ٢٦٤.

ملايين ونصف من الجنيهات الإسترلينية. بيد أن رئيس الوزراء البريطاني «غلادستون» الذي صعقته انتصارات الثورة المهدية، اتجه لوضع حد لهذه المواجهة الخاسرة حين قال مخاطباً البرلمان: «هل يوجد هناك أي مبرر أخلاقي يجعلنا نهدر أرواح هذ العدد الضخم من قواتنا في ظل الوضع الحالي لإمبراطوريتنا وما يكتنفه من حوجة ماسة لتلك القوات. اننا نحارب أمام طبيعة قاسية في السودان كما أنه ليس بوسعي أن أخفي عنكم خشيتي من تورطنا في مقاتلة شعب يسعى نحو التحرر. لقد تم اثبات ذلك بجلاء من خلال ما حدث بهذا البلد» [1].

ولكن بالرجوع إلى ما قالت به الـ «Morning Post» اللندنية، لن يكون من الصعب توقع حجم خيبة الأمل التي تمكنت من أذهان محرريها بفعل تعاقب المصائب العاصفة على البريطانيين في السودان. لعل كل ذلك دفع صحيفة بريطانية مقروءة على غرار «Bury And Norwich Post» لقراءة أكثر واقعية للخارطة الجديدة التي ارتسمت على رمال السودان بفعل انتصارات الثورة المهدية على القوات الإنجليزية هناك. ونعت الصحيفة ذاتها بلهجة مُثقلة بالسخرية.. الأماني الإنجليزية بسحق الثورة السودانية،حين شبهت إحتضار تلك الآمال في عقل الإمبراطورية بسكرة الموت الأخيرة التي سقط على اثرها يوليوس قيصر. وأشارت في الوقت ذاته إلى أن حكومة «غلادستون» بوزرائها هي التي تهاوت بفعل انتصارات المهدي الساحقة وليس العكس. وتم كل ذلك على الرغم مما بذلوه من وعود لشعبهم بالقضاء على حركة المهدي. وفيما يلي فلنترك المجال لبعض كلمات تلك الصحيفة التي شغفت قراء شرق إنجلترا بتحليلاتها السابرة لأغوار قضايا الساعة الإنجليزية المختلفة:

«ليس هناك مراقب واحد ممن اعتادوا على رصد تحركات القوى المسيطرة على قرارات مجلس الوزراء البريطاني.. سيحمل في نفسه أدنى شك على أن مساجلات يوم الاثنين الفائت قد أوضحت بجلاء أن أمر التصميم على سحق المهدي في الخرطوم قد انتهى إلى موت كامل مشابه للموت الذي فرض نفسه على يوليوس قيصر. مهما كان

1 سايمونز، مصدر سلبق، ص ٢٦٧-٢٦٨.

من ضرورة ملحة لدينا لتحطيم قوى المهدي في الشهر الذي سبق، فإن هذه الضرورة قد باتت أعظم ما تكون في هذا اليوم تحديداً. ولكن وزراء الحكومة البريطانية اكتشفوا أن هذه العمليات ضد المهدي ستكون مكلفة وطويلة المدى وبدرجة أكثر أهمية، غير مُجْمَع عليها وسط مسانديهم. وتبعاً لذلك تبخرت كل بطولاتهم. هؤلاء الوزراء الذين قرروا بتهور طائش إلحاق الهزيمة الساحقة بالمهدي في الخرطوم من قبل، ها هم أنفسهم يدرسون بقلقٍ بالغ كيف يمكنهم الهرولة هرباً قبل أن يسحقهم المهدي». وتصاعدت واقعية اللهجة التي انبنى عليها ذلك التقرير تباعاً نحو الإقرار بأن الكلمة القاطعة بخصوص أحداث السودان صارت بيد قائد ثورته وليس بيد الناخب البريطاني وأمانيه، وفي ذلك قالت:

«إذا أخذنا حالة الوضع في السودان. أي فرقٍ سيحدثه الإصغاء إلى الرأي العام البريطاني بما في ذلك الخوض فيما يريد الناس ويكرهون أن يروه من أحداث هناك، عطفاً على حقيقة المسار الذي تجري عليه الوقائع. إن الحكم القاطع الذي سيقرر ما سنتخذه من أفعال في السودان اليوم هو حكم المهدي وليس رأي جمهور الناخبين البريطاني. لقد كان زمام المبادرة المفضي لكل التحركات بيدنا طالما استطاع غردون الحفاظ على الخرطوم. وفي اللحظة التي سقطت فيها المدينة تحول كل شيء مما سبق ليبقى تحت سيطرة يدي المهدي».[1]

وبعيداً عن شرق الجزيرة البريطانية بإطلالته الممتدة على بحر الشمال، إنساقت صحيفة لندنية معروفة على نحو«**The Pall Mall Gazette**» في ذات القراءات الواقعية لما مر من أحداث. وتصدر صفحاتها الأولى تحليل مفصل لما قد يترتب على مشهد تراجع القوات الإنجليزية أمام قوات الثورة المهدية المنتصرة بمنطقة شمال السودان. ومالت الصحيفة العريقة نحو إستهلالية مباشرة لتحليلها المتعمق، اتسمت بالتسليم الكامل بما أحدثته وقائع الثورة السودانية من هزة عنيفة بقلب الإمبراطورية البريطانية وفى ذلك قالت:

1 صحيفة «**Bury And Norwich Post**»، بتاريخ ١٧ مارس ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

«من النادر أن يجتمع البرلمان الإنجليزي تحت سماء أكثر إظلاماً مما هي عليه اليوم». بيد أن تلك البداية الممتلئة بالتشاؤم لم تمنع قلم المحرر من الولوج إلى التفصيل المتدرج فيما أراد ترسيخه من حقائق ارتآها هو وعمل بالتالي على التقدم بها لغزو عقول القرّاء.. وذلك على نحو قوله:

«في اللحظة التي سقطت فيها مدينة الخرطوم كما كان متوقعاً بحسب الإنذارات الكثيرة التي تلقتها الحكومة «البريطانية» منذ الصيف السابق، شهد الوضع هناك تحولاً كبيراً. وتبعاً لذلك تحول المهدي من مجرد متمرد على نفوذنا في أواسط أفريقيا إلى زعيم معترف به لكل القبائل العربية في وادي النيل. علينا أن نتذكر ما خطه الجنرال غردون بيده حين قال: (في اللحظة التي سيبسط فيها المهدي نفوذه على الخرطوم فإن مهمة سحقه ستصبح في غاية الصعوبة. ومع ذلك فإن سلامة مصر قد تدفعكم لتنفيذ هذه المهمة). هاهو المهدي يؤكد بشكل كبير كل مخاوف الجنرال غردون. فبدلاً من الجلوس راضياً في الخرطوم بعدما فُتحت له أبواب المدينة بعامل التواطؤ، هاهو يأخذ زمام المبادرة بالتقدم مهاجماً تجاهنا. وفى هذه اللحظة تحديداً يقال أنه يتقدم تجاه طابور جيشنا الهزيل بستين ألفاً من جحافله المنتصرة المكونة من أعراب السودان وقد برز هو لقيادتها بنفسه. لقد أخذ الوضع برمته شكلاً ثورياً كاملاً».

واستدرج التحليل مخيلة قرائه نحو صورة قاتمة رسمتها كلمات جلية عن طبيعة موقف البريطانيين المتراجع في السودان بفعل ملاحقة قوات الثورة المهدية لفلولهم المنهزمة بصحراء الشمال.. وقد ورد في ذلك تحديداً:

«إن أول الاثار المترتبة على هذا الوضع المتغير في مواقع المقاتلين، قد تم تدوينها في التقارير القادمة من هناك عن طريق التلغراف وهذا ما سنقوم بتلخيصه في مواضع أخرى. إن قواتنا المتقدمة تحت قيادة الجنرال بتلر هي الآن في حالة تراجع كامل بصحراء شمال السودان. المهدي يسيطر بشكل كامل على معسكر قواتنا الذي تراجعنا عنه في منطقة «الشبكات» وفى هذه اللحظة تحديداً من الممكن القول بأنه لا يوجد جندي بريطاني واحد جنوباً لأبعد من آبار الجقدول. تلك هي أولى النتائج المترتبة على تقدم

المهدي نحونا. ويبقى هناك شيء واحد مؤكد الآن ألا هو أن أي فكرة عن شن هجمات مضادة من قبلنا يجب علينا التخلي عنها. إن زمام كل التحركات الممكنة هو بيد المهدي اليوم كما نوَّهنا من قبل وذكرنا أنها ستبقى دوماً كذلك. إن كل ما يمكن علينا عمله سيبقى معتمداً بقدر كلي على ما سيراه هو مناسباً من مسار». ويمضي التقرير قُدماً إلى الأمام وبصورة أكثر إسهاباً:

«هنالك عدد كبير من قوات المقاتلين في المنطقة الطويلة الواقعة بين دنقلا ووادي حلفا سينحاز بكل تأكيد للمهدي حينما يرونه يطرد الإنجليز من بلادهم أمامه. وتبعاً لذلك يتوجب علينا أن نُعد أنفسنا لقطع خطوط التلغراف التي يتم عبرها التواصل بين الجنرال ولزلي والقيادة العسكرية ببريطانيا ساعة بساعة. وفى هذه الحالة يتوجب على الحكومة البريطانية التفكير بدون إبطأ في استدعاء اللورد ولزلي من جبهة القتال».

ولَم يغفل قلم المحرر عن الجزم بأن الواقع يقتضي على البريطانيين البقاء في خندق الدفاع عن مواقعهم ضد قوات الثورة السودانية بدلاً من التفكير في التقدم لمواجهتها. بيد أن ما سبق لم يتم بذله على موائد القرّاء دون التأكيد على أن البريطانيين لم تعد لديهم سطوة على السودان بعدما أفلحت الثورة في إسقاط غردون بداخل المدينة المحررة. وهذا هو ما أكدته الصحيفة المذكورة بقولها:

«علينا أن نقوم بمراجعة كل خطط الحملة البريطانية السابقة وكذلك تحركاتها بحيث لا نندفع لنقدم على تحركات هجومية بل يجب علينا أن نعد أنفسنا الآن لنقاوم تقدم المهدي علينا.. كما يجب علينا العمل على تجنب ثورة معادية لنا في مصر العليا والمنطقة الطولية المفعمة بالمخاطر فيها بين دنقلا ووادي حلفا. علينا أن نقر بأننا أصبحنا لا نمتلك أي سيطرة أو سيادة على الوضع في السودان. ولو أفلح غردون في الحفاظ على الخرطوم لوقتٍ أطول لكان من الممكن إنقاذ كل شيء».

وكعادتها دوماً، ظلت ذكرى غردون حية في أذهان كل محرري صحافة تلك الحقبة من العصر الفيكتوري. لذا مال ذلك التقرير المهم نحو نهاياته للاتفاق مع أراء مسبقة نسبت لغردون تنبأت بوقعٍ مدوي لانتصارات الثورة المهدية في عالم القرن التاسع عشر

وفى ذلك تحديداً ورد ما يلي:

«في كل مدن مصر ستسري موجة من الشعور العام بإمكانية قيامهم بما قام به المهدي في السودان. وكما قام هو بطرد الدخلاء والكفار فقد يكون بوسعهم إنجاز ما قام به من عمل. لقد قام المهدي بإثارة حالة خطرة من الهياج ضدنا في الجزيرة العربية وسوريا. وتم بالفعل توزيع منشورات بهذا الخصوص بداخل دمشق تدعوا إلى الثورة ضد الإتراك سعياً لطردهم من تلك البلاد.و إذا خضع كل شرق السودان للمهدي فإنه من الممكن أن تقوم القبائل العربية بساحلي البحر الأحمر بحمل السلاح لذات الغرض. وإن لم يتم فعل شيء في هذا الخصوص فإنه من الممكن جداً أن يؤدي انتصار المهدي علينا لإعادة فتح مسألة الشرق ككل من جديد»[1].

أصداء انتصارات الثورة المهدية في دواوين الاقتصاد البريطاني:

لا شك أن الخسائر التي تكبدها البريطانيون جراء انتصارات الثورة المهدية عليهم لم تكن على مستوى الميدانين العسكري والسياسي دون غيرهما من الميادين. فقد دونت صحافة بريطانيا تفاصيلاً مستفيضة عن كيف هزت معركة تحرير الخرطوم وما تلاها من أحداث عاصفة..عرش مداولات الأسهم في في أسواق المال البريطانية وما ترتب على ذلك من خسائر اقتصادية امتدت بأثرها لأسواق المال الأخرى الواقعة تحت نفوذهم الاستعماري على نحو مصر على سبيل المثال. نكسات اقتصادية كهذه، لم تكن لتتأخر كثيراً في أعقاب دخول المهدي ظافراً للخرطوم مع توقعات موضوعية اعتملت بباطن الذهن الجمعي الإنجليزي بتقدم قواته شمالاً لدحر فلول القوات البريطانية الغازية ومن ثم التوغل نحو مصر من جنوبها لتهديد مصالحهم الاستعمارية في المنطقة. وفي ذلك تحديداً كتبت صحيفة «London Daily News» قائلة:

«بعد وصول تلك الأنباء المحزنة من الخرطوم، هبطت مؤشرات كل أسواق المال ما عدا مؤسسة (Grand Trunk) التي سجلت هي الوحيدة ارتفاعاً دون غيرها. أسواق المال المصرية تعرضت بالطبع لأثقل الخسائر بينما كان الهبوط في رأس المال الحكومى

1 انظر صحيفة «The Pall Mall Gazette»، الخميس ١٩ فبراير ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

البريطاني من أكثر الملامح العامة خطورة في هذا الشأن. وعلى الرغم من أن الخسائر البريطانية لم تكن بنفس ثقل الخسائر المصرية بحساب النسب المئوية الا أن الهبوط في قيمة السندات البريطانية صار يقدر بما يعادل ثلاثة ملايين من الجنيهات الاسترلينية من حيث قيمة البيع بينما عانت السندات المصرية من هبوط في قيمة البيع بنصف المقدار الذي عانت منه السندات البريطانية. هذه التقديرات الجامحة جداً في هذا الوقت تحديداً جاءت مواكبة للصعوبات الحالية وما صاحبها من تكاليف اقتصادية أثرت بدورها على سعر الفائدة الإنجليزي في الشرق بأكمله»[1].

واتجهت صحيفة «The Morning Post» اللندنية نحو الإشارة إلى فداحة خسائر أسواق المال البريطانية بعد وصول ما أسمته «بالأنباء الكارثية القادمة من السودان حول سقوط الخرطوم» إلا انها ذكرت أن هناك تعافياً ما حدث لاحقاً بهذا الخصوص على الرغم من تأكيدها بأن أسعار المداولات بقيت في حدها الأدني تماماً بأحسن الأحوال. وأشارت الصحيفة ذاتها إلى أن مداولات أسواق المال العالمية الاخرى بقيت ضعيفة المستوى أيضاً بينما ألقت الهزائم البريطانية في السودان بظلالها على مداولات أسهم مؤسسة السكة حديد الإنجليزية في لندن وفي شمال غرب إنجلترا وكذلك بسوق المال الإنجليزية بكريستال بالاس «Crystal Palace B» الذي شهد الخسائر الأثقل مما أدى إلى إيداع ذهباً قيمته مائة الف من الجنيهات الاسترلينية لتغطية تلك الفجوة[2].

و استكمالاً لما يمكن إتباعه من موضوعية لتقدير الخسائر التي كبدتها مقاومة الثورة المهدية للجحافل البريطانية الغازية، يبقى من المهم هنا إفساح المجال واسعاً للغة الأرقام التي تمسك بحقائق الأشياء بما يليق بذلك من الدقة. وفي ذلك السياق نجد أن عدة مصادر إنجليزية قد قدرت المبلغ الكلي الذي صرفته حكومة الملكة «فيكتوريا» ورئيس وزرائها «غلادستون» لتجهيز الجيش البريطاني المبتعث للسودان لمواجهة الثورة المهدية وإنقاذ غردون، قد قفز من ثلاثمائة ألف من الجنيهات الاسترلينية عند بداية الحملة إلى

1 News Daily London، ٦ فبراير ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

2 Post Morning The، ٦ فبراير ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

سبعة ملايين ومائتين وستة وثلاثين جنيهاً إسترلينياً في نهاياتها [1].

واذا علمنا أن الدخل القومي البريطاني لذلك العام ١٨٨٥ كان يناهز الـ ٧٧ مليوناً من الجنيهات الاسترلينية[2]. فإن المعادلة الرقمية هنا تؤكد أن الخسائر التي كبدتها الثورة المهدية للاقتصاد البريطاني برمته في العام ١٨٨٥ قد بلغت رقماً قارب الـ ١٠٪ من الدخل القومي البريطاني بذات السنة. وبحسابات أكثر تحديداً، يستبين جلياً أن إنفاق الحكومة البريطانية على حرب السودان قد فاق الـ٣٧٪ من الميزانية الكلية المخصصة للجيش الملكي البريطاني في العام ١٨٨٥ والبالغ قدرها ١٩ مليوناً وثلاثمائة وخمسة وخمسين ألفاً من الجنيهات[3].

بيد أن تلك المنصرفات الباهظة، لم تكن في حقيقة الأمر عند البعض.. هي كل ما أثخنت به الثورة المهدية جسد الاقتصاد البريطاني من جراح غائرات. وقد تكشفت تلك الإحتمالات مع إطلالة الأسبوع الثاني من شهر مارس ١٨٨٥ حين كتبت صحيفة «The Edinburgh Evening News» الإسكتلندية جازمة بأن الكلفة العالية لحروب الإنجليز في السودان قد تعني فيما تعني: «بأن وزير الخزانة بالحكومة البريطانية الآن عليه مواجهة أثقل عملية إنفاق في تاريخ الاقتصاد البريطاني منذ أيام حرب القرم». وقطعت الصحيفة بأن التوقعات تشير إلى أن الإنفاق العام الذي قد يواجهه هذا الوزير من الممكن أن يصل بسهولة إلى مشارف الـ ٩٠ مليون جنيه إسترليني. وتوقعت ذات الصحيفة أن يُضطر المستر «تشيلدرز» وزير خزانة حكومة غلادستون لفرض ضرائب جديدة على الخمور والتبغ وصناعة التصوير الفوتوغرافي لتغطية العجز المحتمل حدوثه في الموازنة. وأشارت الصحيفة الأسكتلندية إلى جهود التيار الراديكالي لوقف حروب السودان نظراً لفشل قائد القوات البريطانية الجنرال «ولزلي» في تحقيق أي نجاحات ضد قوات المهدي وهو الأمر الذي يتفق معهم فيه بعض المسئولين بطاقم الحكومة الحالية لحد بعيد[4].

1 فيرغس نيكول: **مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون**، هوامش الفصل رقم ١٩. انظر أيضاً نيكول: **غلادستون وغردون وحروب السودان**، ص٢٣٤-٢٣٥.

2 صحيفة «**The Barnsley Chronicle**»، السبت ٩ مارس ١٩٠٧، أرشيف الصحافة البريطانية.

3 ذكر نيكول أن ميزانية الجيش البريطاني للعام ١٨٨٥ كانت ١٩،٣٥٥،٠٠٠ جنيهاً استرلينياً، راجع غلادستون وغردون وحروب السودان، مصدر سابق، ص ٢٣٤.

4 «**The Edinburgh Evening News**»، ١١ مارس ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

الذي لا شك فيه أن كل تلك الأموال الطائلة لم تكن سبباً في جلب أي انتصار حاسم للإمبراطورية التي لم تغرب عنها الشمس في السودان. فقد أفلح قائد الثورة السودانية الذي أكمل عقده الثالث لتوه، في جرجرة تلك الجيوش المُثقلة بالإمكانيات المادية التي تفوق قواته بسنوات ضوئية من حيث الإعداد والتدريب.. نحو إنتكاسات عسكرية تاريخية فارقة، مستعيناً على ذلك بموارد ذاتية محلية موغلة في التواضع. بيد أن كارزمية محمد أحمد المهدي وعزائم الرجال الذين صنعوا معه تلك الثورة كانتا كفيلتين بإهالة ما يكفي من الرمال اللزجة على التشققات القبلية والإثنية التي امتلأ بها الحائط السوداني طويلاً. وتبعاً لذلك توحدت الإرادة الشعبية للسودانيين في لحظة تاريخية معينة كتلك، ليذيقوا البريطانيين لوناً فريداً من الهزيمة امتدت أثارها من ميدان المواجهة العسكرية لتتوغل حتى مشارف القواعد التي قامت عليها مؤسساتهم الاقتصادية العريقة بقلب الجزيرة البريطانية نفسها.

إيرلندا.. القوميون الإيرلنديون يحتفون بتحرير الخرطوم:

في السواحل الأخرى المقابلة لإنجلترا، ظل القوميون الإيرلنديون يتطلعون لأنباء الثورة المهدية بحماسةٍ وثقتها العديد من المصادر المتباينة. وليس من الصعب على العقل البحثي إدراك مبعث ذلك الشغف بأصداء انتصارات السودانيين هناك عطفاً على رزوح الجزيرة الإيرلندية تحت نير الاحتلال البريطاني لما قارب الثمانمائة سنة متتابعة لم تخل من مقاومة شعبية عنيفة للنفوذ الاستعماري دون أن يُكتب لها النجاح الكامل. وجنح القوميون الإيرلنديون الذين تصاعدت أصواتهم الثائرة آنذاك على تاج الملكة فكتوريا،نحو وسائل إبداعية مختلفة للتعبير عن احتفائهم بانتصارات الثورة المهدية على عدو اعتبره جلهم بمثابة العدو المشترك للشعوب المتطلعة للحرية. وبرع الرسامون القوميون الإيرلنديون في توظيف الرسوم الكاريكاتورية الساخرة للتعبير الخلاق – على طريقتهم – عن إعجابهم بما حدث في السودان. ومن ذلك أن صحيفة «Weekly Freeman» ذات الولاء القومي الإيرلندي المعروف قد أقدمت على نشر رسم كاريكاتوري ساخر بتاريخ ٢٣ فبراير ١٨٨٤.. يعبر في مجمله عن غبطة القوميين بتلك

الأحداث ويظهر في الكاريكاتير غلادستون رئيس الوزراء البريطاني وهو ينحني أمام المهدي والذي بدا بدوره شامخاً وهو يحمل رمحاً وراية كُتب عليها «الحكم الوطني» أو (Home Rule)! وأجرى الرسام حواراً قصيراً بين الزعيمين.. خاطب فيه غلادستون من انحناءته تلك قائد الثورة السودانية قائلاً:

«عزيزي المهدي.. ان حجتك التي دفعت بها لاستقلال بلادك كانت من القوة بمكان بحيث انني أصبحت لا أَجِد مبرراً للتدخل في شأنكم الداخلي وبالتالي تقبل قراري بحصولكم على حريتكم».. بيد أن الرسام نفسه أجرى على لسان محمد أحمد المهدي رداً ساخراً لابد أنه تنزل على قراء الصحيفة الإنجليز بما يليق بكلماته الافتراضية من الانقباض.. ورد كما يلي: «احتفظ بقرارك لمن يحتاجه.. فنحن في غني عنه.. الآن أنتم من تحتاجون لكي نقبل حتى نسمح لكم بالمغادرة لأوطانكم!»[1].

و لم يتقادم على نشر ذلك الكاركاتير بـ«Weekly Freeman» سوى أيام خمسة قبل أن يتبعه رسّام الكاركاتير الإيرلندي المعروف جون فيرغس أو هيا «John Fergus O'Hea» برسمٍ آخر بالصحيفة نفسها، غالى فيه من سخريته من نداءات الأوساط الرسمية البريطانية لسحق ثورة المهدي، فإستدعى ما انتهت إليه الأشياء من مفارقات حين أُستدرجت القوات البريطانية نحو تولية الأدبار أمام تعقب قوات الثورة السودانية في صحراء الشمال. وقد تمثل ذلك بوضوح في ذلك الرسم الكاريكاتوري الذي يبدو فيه «ولزلي» قائد حملة الإنقاذ البريطانية وهو يعدو هرباً وقد ترك من خلفه جثث جنرالاته الذين قضى عليهم السودانيين على نحو «ستيوارت» وايرل وقد توسدت جثامينهم رمال الصحراء. وبدا ولسلي مثقلاً بالذعر وقد تعقبه محمد أحمد المهدي بسيفه وكاد أن يهوي به إلى عنقه[2].

وبالصعود لعتبات مختلفة في مراقي حركة الثقافة والفنون الإيرلندية، لن يكون من السهل تجاهل ردود أفعال شخصيات إيرلندية بارزة على انتصارات الثورة المهدية. ونعني هنا تحديداً.. الأديبة والكاتبة المسرحية المعروفة بتوجهها القومي.. الليدي

1 أرشيف الصحافة الإيرلندية،«Weekly Freeman»، عدد بتاريخ ٢٣ فبراير ١٨٨٥.

2 أرشيف الصحافة الإيرلندية، Weekly Freeman.. عدد بتاريخ ٢٨ فبراير ١٨٨٥.

«أوغستا جريجوري» والتي اعتبرت ما قامت به الثورة المهدية في السودان بمثابة الثأر للإيرلنديين عما ذاقوه من ويلات بفعل احتلال البريطانيين لأراضيهم. وأصدرت الليدي جريجوري كتيباً «pamphlet» عن تلك الأحداث.. تصدرته عناوين نارية على غرار «ها نحن نحطم الوحش البريطاني: يد المهدي تأخذ لنا بثأرنا فيها وراء البحار ونحن نحطم ذات الوحش بالديناميت في الداخل»[1].

أما على مستوى الصحافة الإيرلندية، فقد تصدت صحيفة «Irish World» لإجلاء الغبارعن أحداث السودان لتنقل أخبار تحرير مدينة الخرطوم بأيدي سودانية فخصصت صفحاتها الرئيسية بالكامل لأخبار السودان.. وفي ٧ فبراير ١٨٨٥ كتبت ذات الصحيفة: «ان الثورة السودانية الباسلة تستحق التعاطف الكامل من كل أصدقاء الحرية في شتى بقاع العالم»[2]. كل ذلك تزامن مع تقارير متعددة أصدرتها صحف إيرلندية مختلفة على نحو «American Irishman» و«Freeman Journal» و«Irishman» اتفقت معظمها – بحسب كلمات المؤرخ الإيرلندي نايل وليهان – «على أن انتصارات الثورة المهدية على البريطانيين ستضعف الإمبراطورية البريطانية بأسرها»[3].

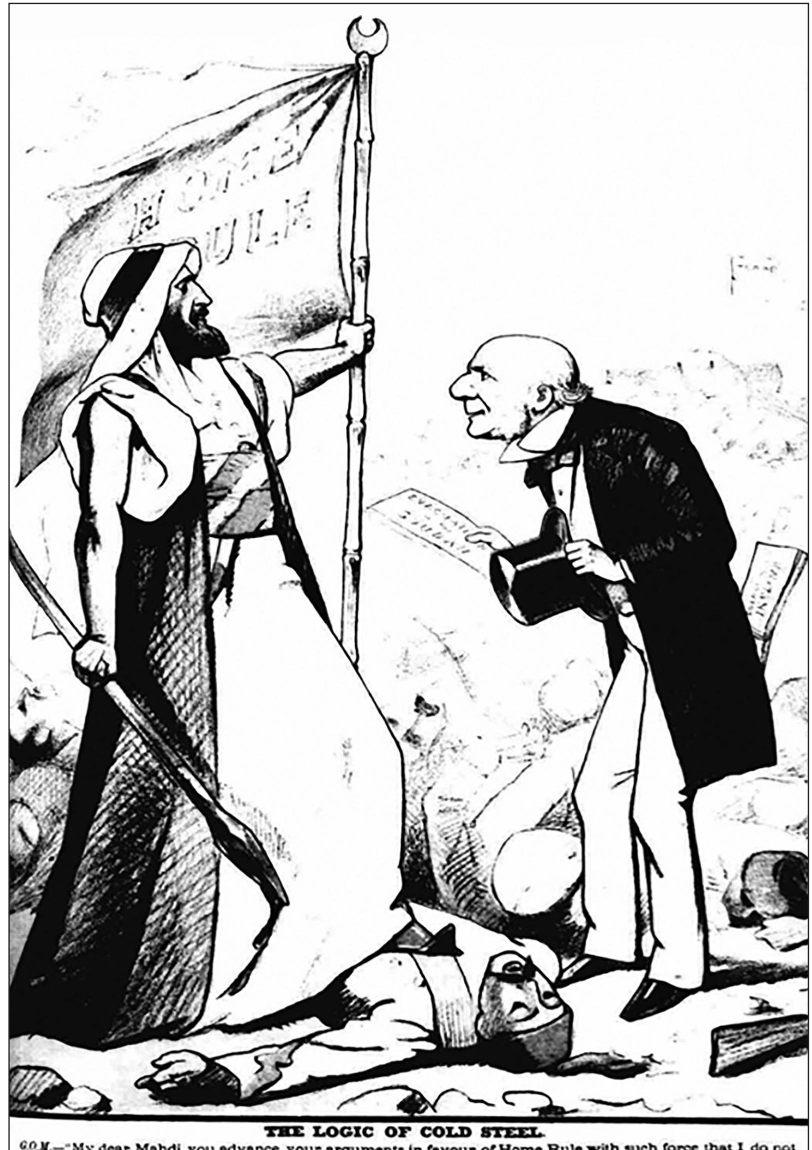


الليدي أوغستا جريجوري

1 **القوميون الإيرلنديون والعنف السياسي ١٨٦٧ – ١٩٠٠**: نايل وليهان **Niall Wehlehan**، مطبعة جامعة كيمبردج، كيمبردج، العام ٢٠١٢، نسخة الكترونية، ص ١٠٩.

2 نايل وليهان، مصدر السابق، ص ٣٢٧.

3 نايل وليهان، ص ٣٢٨.



كاركاتير إيرلندي يحتفي بانتصار المهدي على البريطانيين ويسخر من قلة حيلة رئيس وزراء بريطانيا» غلادستون» حيال انتصارات السودانيين على قواته..صحيفة «ويكلي فريمان«الإيرلندية، ٢٣ فبراير١٨٨٥، أرشيف الصحافة الإيرلندية.

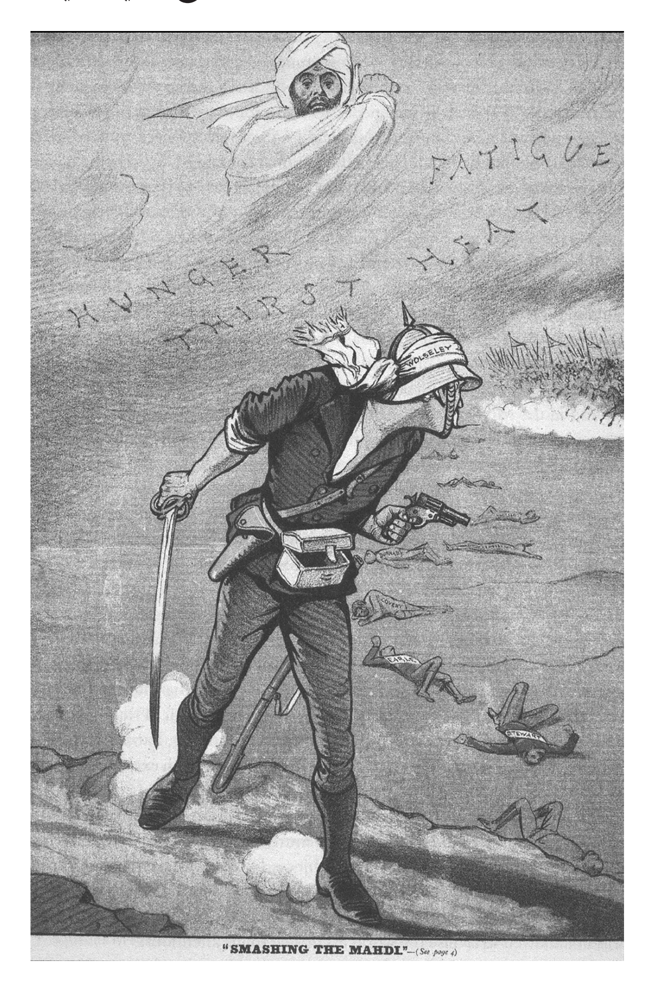
وعلى الرغم من الاهتمام المفعم بالحماسة الذي أولته صحيفة «Irishman» لوقائع حصار الخرطوم، إلا أنها لم تستيقن من خبر اجتياح قوات الثورة المهدية لحصون المدينة قبل ٧ فبراير ١٨٨٥ حينما جاءها تأكيد قاطع بما حدث فعلاً، فأسرعت هيئة تحريرها لتشييع النبأ بصفحتها الأولى رغماً عن مثول الصحيفة للطبع في ذلك الوقت، فقالت في هذا الأمر:

«بينما تستعد الصحيفة للمثول للطبع أتتنا الآن التفاصيل الكاملة لوقوع الخرطوم في قبضة المهدي وما أعقبه من انسحاب سريع لقوات السير تشارلز ولسون (تم إرسالها بواسطة ولزلي لإنقاذ غردون) التي ولت الأدبار وقد طاردها رجال المهدي. يقال أن غردون قد وقع أسيراً في قبضة المهدي. قام ولزلي قائد حملة الإنقاذ الإنجليزية بإرسال تلغراف مفصل حول تلك التفاصيل ولكن وزارة الحربية البريطانية ما زالت لا تمتلك الشجاعة الكافية لنشره.ما زالت وزارة الحربية تلتبسها حالة من الصمت المطبق إزاء تلك الأحداث»[1].

ولم يلبث محررو «Irishman» كثيراً قبل أن ينخرطوا في قراءة تحليلة عميقة لأصداء انتصارات الثورة السودانية على بقاع مختلفة بما في ذلك فرنسا والإمبراطورية البريطانية نفسها. ومن ذلك أن عدد الصحيفة الصادر في صبيحة ١٤ فبراير ١٨٨٥ قد تصدر صفحاته تقرير مطول عن أحداث السودان الأخيرة تحديداً. واستعانت «Irishman» في مقدمة ذاك التحليل الذي اقتربت فيه من تفاصيل الأشياء بقدرٍ متفرد، بأراء متفرقة من صحافة فرنسا.. إحتفت جميعها بلا استثناء بانتصارات الثورة السودانية على الإنجليز. ومن ذلك ما أورده ذات التقرير عما نشرته صحيفة «La Rèpublique Française» من انتقاد لاذع لسياسة البريطانيين الإعلامية التي جعلت إمبراطوريتهم أشبه بنعامة تدس رأسها في الرمل حتى لا تعلم شيئاً مما يمكن أن يسيئها من أنباء. وجنحت الصحيفة الفرنسية إلى تشبيه انتصار المهدية البين على بريطانيا بالنور الساطع الذي لن يجديها تجاهله أو تناسيه وذلك على نحو ما قالت نصاً:

1 صحيفة **Irishman**، ١٤ فبراير ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

«لقد ألقت إنجلترا بنفسها في أتون مغامرة ستكلفها كثيراً وذلك لأنها فضلت أن تُبقي على سعادتها وهى تغمض عينيها تجاه الضوء الساطع الذي تبدي أمامها»[1].



رسم ساخر بريشة الفنان الإيرلندي جون فيرغس أو هيا «John Fergus O'Hea» يجسد انهزام البريطانيين أمام قوات الثورة المهدية في شمال السودان. وفيه يظهر المهدي وهو يهوي بسيفه على الجنرال «ولزلي» قائد قوات الجيش البريطاني المبتعث لإنقاذ غردون في الحملة التي روّج لها البريطانيون تحت عنوان «سحق المهدي..Smashing the Mahdi» فانتهت بعكس عنوانها!. وانتهى كل شيء بفرار جحافل الإنجليز امام قوات الثورة المهدية كما يجسد ذلك الرسم الساخر.. أرشيف الصحافة الإيرلندية، «Weekly Freeman»، ٢٨ فبراير ١٨٨٥.

1 تقرير بعنوان فرنسا وإنجلترا، صحيفة **Irishman** الإيرلندية، السبت، ١٤ فبراير ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

وبدت «Irishman» على قدر من الارتياح وهي تنقل اقتباساً مهماً من صحيفة فرنسية رائجة كصحيفة «Le Temps» والتى تحدثت عن الضربة الموجعة التي وجهتها الثورة المهدية لكبرياء بريطانيا متعرضة لمصير غردون الذي ما زال يلفه الغموض على حسب المعلومات المتوفرة لديهم:

«إن مصير غردون كأسير سيكون من المصاعب التي سيواجهها الإنجليز عطفاً على الوضع الذي سيعقب سقوط الخرطوم من أيديهم. ماذا سيفعل الجنرال ولزلي قائد حملة الإنقاذ؟ ما هو القرار المتوقع صدوره من حكومة بريطانيا رداً على ذلك؟ وقد وقع غردون كرهينة في أيدي أعدائهم. هذا السؤال ستكون إجابته بغاية البساطة. إن واصلت الحملة الإنجليزية زحفها نحو الخرطوم المحاصرة فإن الخطر الداهم سيتهدد حياة غردون. وإن حدث العكس فإن البريطانيين سيضطرون لعقد اتفاق مع المهدي. وفي هذه الحالة قد تقبل القوات الإنجليزية بالنكوص علي أعقابها مقابل تسليمها غردون. ما أقسى ذلك من هزيمة للقوى البريطانية. وما أعظمها من صدمة تلك التي سيترتب عليها دك دعائم نفوذهم في كل أنحاء العالم» [1].

و في السياق نفسه، يندلق تساؤل أساسي على الورق عن مدى إلمام صحف أوروبا بمراسلات المهدي وغردون المطولة والتي بذل فيها قائد الثورة السودانية وعوداً قاطعة لغردون بتسليمه للبريطانيين بلا مقابل إن سلّم الخرطوم وجنّب المدينة ويلات حرب التحرير عندما تضطر الجيوش الكبيرة لاجتياح المدن. وهي ذات المراسلات التي عرض فيها غردون على المهدي فدية مالية بآلاف الجنيهات الإسترلينية.. مما يعضد الفرضية التي ذهبت إليها الصحيفة الفرنسية والتي تحدثت عن تبعات وقوع غردون أسيراً في قبضة المهدي بكل ما سيلي ذلك من تعقيدات بخصوص موقف البريطانيين. وقد يكون من المفيد في هذا الإطار استعراض بعض كلمات خطاب المهدي لغردون والتي تقع في سياق ضمني لذات المشهد المحتشد بالإملاءات التي يمليها المنتصر على عدوه المنهزم الذي لم يتبق أمامه سوى أن يجهد ذهنه بما سيتفضل عليه به صاحب اليد العليا من

1 نفس المصدر السابق.

تعطفٍ رحيم ومن ذلك إيصال المهدويين لغردون سالماً وتسليمه على هذا النحو المهين للقوات الإنجليزية الغازية، إن سلم وأقر بواقعية ما يجري من حوله من أحداث. وهو ذات المشهد الذي يتماهى مع الفرضيات التي أطلقتها «Le Temps».. ويتجلى ذلك فيما ورد بمنشور المهدي لغردون:

«إن الجردة التي تعتمدونها (يقصد حملة الإنقاذ الإنجليزية) ما لها من وجهٍ بوصولها لكم بسبب سدّ الأنصار الطرق. فإن سلّمت فقد عفونا عنك وأكرمناكم وسامحناكم في ما جرى وإن أبيت فلا قدرة لك على نقض ما أراد الله.. وقد بلغني في جوابك الذي أرسلته إلينا أن الإنجليز يريدون أن يفدونك وحدك بعشرين ألف جنيه.. إن أردت أن تجتمع بالإنجليز فبدون خمسة فضة نرسلك إليهم»[1].

ولكن وبالعودة إلى تقرير «Irishman» المار ذكره، فقد نقلت ذات الصحيفة تعليق صحيفة «La Liberté» الباريسية المهمة على انتصار الثورة المهدية وتحريرها لعاصمة البلاد وما سيترتب علي ذلك من حرج لبريطانيا بسبب اعتبارها لانتصار الثورة السودانية الأخير بمثابة اللطمة الموجعة على وجه الإمبراطورية، يستبين ذلك فيما قالت فيه:

«إن هذا الحدث سيفرض على بريطانيا العظمى الاختيار بين أمرين. إما الاعتراف بأن المهدي قد جرّعها كأس الهزيمة وبالتالي يجب عليها أن تتهيأ لفقدان كل هيبتها وكبريائها أمام أعين المسلمين بالعالم أو البقاء بصفة الدولة المحتلة في مصر إلى أجل غير مسمى وبذلك ستهيج عليها حالة من الإستياء بكل بقاع أوروبا. إن كبرياء بريطانيا الآن يتلقى لطمة ستُلقي بأثرها المعنوي على الإنجليز بصورة بالغة المدى»[2].

وبلهجة أكثر احتفاءاً بانتصارت الثورة المهدية المقترنة بمشهد تراجع حملة الإنقاذ الإنجليزية وهي تلعق جراحها بعد تعقب السودانيين لها في صحراء الشمال.. نقلت

---

1 الإستراتيجية العسكرية للإمام المهدي في السودان (١٨٨١-١٨٨٥)، للدكتور أحمد إبراهيم أبو شوك، مجلة أسطور- العدد ٢، بتاريخ يوليو / تموز ٢٠١٥، نسخة إلكترونية بنفس التاريخ.

2 نفسه.

«Irishman» رأي صحيفة «Le Matin» الفرنسية الذي تحدث عن الدرس الذي تلقته بريطانيا على يد قوات الثورة المهدية في السودان حين ورد فيه:

«إن الغرض الإساسي من الحملة البريطانية إنتفى الآن بشكل كلي. بالإشارة إلى الناحية المعنوية المرتبطة بالكارثة التي حلت بالإنجليز في الخرطوم. سيبقى ذلك درساً على بريطانيا أن تعيه لتتعلم كيف تكبح نهمها ومطامحها المصحوبة برغائبها نحو السيطرة والتوسع» [1].

ويبدو أن المُحرر الصحفي الإيرلندي الذي أعد هذا التقرير المُفَصل قد أراد أن يتسع تقريره حتى لا يغفل رأي سياسي فرنسي مبرز على نحو Henri Rochefort. ذلك لم يكن سياسياً معروفاً وحسب بل امتدت اهتماماته لتشمل الكتابة القصصية المسرحية وكذلك الكتابة الصحفية الراتبة بصحيفة «L' Intransigeant» الباريسية التي اشتهرت بتوجهاتها اليسارية المعروفة آنذاك. كتب الأخير بذات الصحيفة معُلقاً على موقعة تحرير الخرطوم وأصدائها العالمية المتوقعة فقال:

«هذه الأنباء التي حملت إلينا هذا الانتصار المفاجئ للمهدي جاءت متزامنة مع ادعاءات الإنجليز أنهم على وشك إسقاطه نهائياً. هذا الانتصار الذي حققه المهدي سيتردد صداه بقوة من دلتا نهر الغانج بالهند إلى دلتا نهر النيل بمصر. ولن يكون من المفاجئ عندها أن نسمع بانتفاض المصريين في القاهرة وكل المسلمين بالهند ضد بريطانيا».

وفي سياق مقارب لحديث الصحيفة السابقة نقلت «Irishman» تعليق صحيفة «La France» الذي أعقب تحرير الخرطوم والذي قدمت له بافتتاحية عاصفة في تأييدها لانتصارات المهدويين:

«هذا الحدث المهم من المؤمل أن يشعل الحماس في صدور كل الشعوب التي ترزح تحت وطأة تسلط الإنجليز. وقد أثار ذلك بالفعل أثراً من الحنق المجنون في العاصمة

---

1 نفس المصدر.

لندن. إن حدث سقوط الخرطوم هذا سيثير ارتياحاً عاماً بالضمير الشعبي في شتى بقاع العالم»[1].

ويسوقنا المحرر في اختتام سياحته الوافية في أصداء انتصارات المهدية على بريطانيا نحو نهايات صبغها برأيه الشخصي الذي لم يخف فيه حبوره بمشهد البريطانيين الحافل برؤوسهم المطأطأة فى أعقاب هزائمهم بالسودان، وذلك على نحو قوله تحديداً:

«إنني أرى تحولاً عظيماً في أواسط الإنجليز هنا. هذا الخيلاء الذي كان ينتظم الإنجليز قبل نحو أسبوع ويدعو الواحد منهم للحديث بزهو عن كونه إنجليزياً لم يعد هناك أحد منهم يشير إليه الآن».

هكذا يتصاعد هذا التحليل المستفيض بقارئه ليخلط ضمناً بين أوراق المقاومة الإيرلندية للبريطانيين في جزيرتهم المجاورة لهم غرباً وبين نضالات الثورة المهدية ضد ذات القوي الاستعمارية في السودان فيكتب بلهجة متعاطفة مع مقاومة السودانيين لتلك القوى وبصورة تقدمية تتجاوز الاختلافات العرقية والدينية التي كانت تنطلق من خندقها الثورة المهدية، ومن ذلك قوله:

«على الرغم من أنهم ليسوا مسيحيين مثلنا، إلا إننا لا نملك إلا أن نشعر بالتعاطف مع هؤلاء الرجال البواسل الذين يقاتلون محتلاً غازياً لا يعرف الرحمة»[2].

وفى الإطار ذاته، يبقى من الممكن الجزم بأن الاهتمام بأنباء مواجهات المهدية مع البريطانيين وما أفضت إليه من نهايات بوقوع الخرطوم في القبضة السودانية لم يكن قاصراً على صحافة إيرلندا القومية دون سواها. ومن ذلك أن البروفيسور «مايكل دي ني»، أستاذ التاريخ المعروف بجامعة «وست جورجيا» الأمريكية، قد خلص في سفره القيم «أسرع أيها المهدي.. الصحافة الإيرلندية وصراع الإمبراطورية في السودان (١٨٨٣-١٨٨٥)».. إلى ما قال فيه:

1 نفسه.

2 صحيفة **Irishman** الإيرلندية، مصدر سابق.

«كل الصحفيين الإيرلنديين من مختلف المدارس السياسية اتفقوا على حقيقة الخطر الإستثنائي الذي كان يشكله المهدي بالنسبة لبريطانيا. ومن ذلك أن حركته قد وُصفت في بعض الأحيان من قبلهم بـ«أعظم قوى إسلامية في العالم». جميعهم بلا استثناء اتفقوا على إبداء الإكبار والاحترام لشجاعة وبسالة المهدويين في ميادين القتال حتى وإن كان مثل هذا الإكبار منتزعاً منهم انتزاعاً في بعض الأحايين».

وبشكل أكثر دقة كتب «مايكل دي ني» عن خلاصة تقييم صحافة التيار القومي الإيرلندي للثورة المهدية وانتصاراتها منوهاً إلى أن محرري تلك الصحف قد دأبوا على رسم لوحة معينة لقائد الثورة السودانية ورجاله في مخيلة القرّاء الإيرلنديين، ومن ذلك قوله:

«تم تقديم المهدي كقائد وطني إتصف بالبطولة في نضاله ضد الإمبراطورية البريطانية، بينما وُصف أنصاره بالتحلي بالروح الوطنية أكثر من كونهم مقاتلين يخوضون حرباً مقدسة ضد أعدائهم»[1].

اليسار العالمي يتفاعل مع الثورة السودانية:

أما عن أصداء الثورة المهدية بين تيار اليسار العالمي والذي كان في مرحلة التخلق آنذاك، فقد استدرجت تلك الأحداث المهمة فردريك انجلز مفكر الاشتراكية الأبرز للكتابة عن «المهدي.. الزعيم السوداني الذي جابه الإنجليز ظافراً في الخرطوم»[2].

وقد أورد الدكتور محمد وقيع الله قولاً منسوباً لكارل ماركس تضمنه خطاب بعث به الأخير لصديقه انجلز في أواخر أيام حياته حين كانت جيوش الثورة المهدية تستعد للزحف من النيل الابيض نحو كردفان في مراحل الثورة الأولى. وجاء فيه ما يلي: «إن الأخبار التي تأتينا من السودان، في هذه الأيام، أخبار مثيرة للفكر، وإنها ستدفع بنا إلى أن نحيل النظر في مجمل بنية المذهب الشيوعي، الذي ندعو إليه، وستجبرنا على

1 مايكل دي ني، مصدر سابق، ص ٩٠٦.

2 انجلز: **مجلة العصور الحديثة**، المجلد ١، العدد ٢٢، ١٨٩٤، انظر أيضاً الأستاذ تاج السر عثمان: **أسباب وطبيعة الثورة المهدية في السودان** (١٨٨١-١٨٨٥)، الحوار المتمدن، ٢٠٠٨.

إعادة التأمل في حديثنا عن أن الدين إنما هو مجرد إفراز للوضع الطبقي،» ثم يستطرد قائلا...«فإن الدين الإسلامي، بهذه الصيغة الثورية المهدوية المتفجرة في السودان، أصبح، وسيضحى وقوداً للثورة العالمية ضد الإمبريالية»[1].

تلك المقولة التي أوردها الدكتور محمد وقيع الله، يبقى الجزم بصحتها الكاملة صعباً على التحقق بحسبان أن الباحث نفسه لم يذيلها بمصدرٍ واضح. بيد أن اهتمام انجلز وماركس بالاقتراب من دراسة الإسلام كدين يسهل الولوج لمعالمه من خلال مسالك التاريخ وعلم الاجتماع ومن ثم ربطه بمسألة الشرق عموماً، لم يكن موضع شك من ناحية تاريخية وهو ما يفتح الباب واسعاً للمزيد من التحقق فيما نُسب لماركس من خلال مراجعة مراسلاته الباكرة مع صديقه إنجلز كمصدر مفتاحي مهم لتأكيد أو نفي ما ذهب إليه الدكتور محمد وقيع الله.

وفي السياق ذاته، أشار المؤرخ البريطاني كلايفورد بوسورث المعروف بتخصصه في علوم الشرق إلى أن «ثورة المهدي السوداني قد ألهمت فريدرك إنجلز في مراحل متقدمة ليكتب مقارناً تلك الهبات الإسلامية مع الثورات المسيحية التي شهدتها القرون الوسطى مشدداً على أن الهبات الإسلامية على غرار المهدية كانت أكثر تقدمية من غيرها من الحركات في الضفة الأخرى من نهر التاريخ» [2].

وبالعودة لما كتبه انجلز عن المهدي، فإن الذي لا يتسرب إليه شك هو إدراك إنجلز الكامل في مرحلة ما، لطبيعة الانتصار الذي حققته الثورة المهدية على أعدائها الاستعماريين في السودان والذي جاء مقترناً بمقدرته الصحيحة على تعريف الإنجليز بالطرف المنهزم في الصراع حول مدينة الخرطوم. وفي هذا الشأن يظل التساؤل قائماً عما اذا كان فردريك انجلز قد اطلع على ما خطه قلم المهدي أو بلغه بعض تفاصيل ما قضى به بخصوص تأميم المشارع والمصالح الحكومية بعد تحرير الخرطوم ومنعه لاحتكار

1 **قراءة عصرية في منشورات المهدية**، الدكتور محمد وقيع الله، نشر بسودانايل وسودارس سبتمبر ٢٠١١: https//:www.sudaress.com/sudanile32911/

2 **The Encyclopedia of Islam**, Volume 6, Fascicules 107 - 108, Author: Clifford Edward Bosworth, Publisher: Brill Archive, 1989, P 586.

الأراضي البور دون زراعتها كما جاء في منشوره للكبابيش مما دفع إنجلز ليقرر – بحسب المؤرخ السوفيتي سميرنوف – بأن: «الثورة المهدية هي حركة نشأت بسبب الصراع بين الأغلبية المُستغَلة (القبائل الرحل) والأغلبية المُستغِلة (أثرياء المدن)..»[1]. وعلى الرغم مما يتبدى في الأمر برمته من فرضيات معقدة، إلا أنه من الممكن القول بأن عبارة إنجلز الأخيرة ستدفعنا مجدداً للرجوع بصورة دائرية لنقطة البداية حول ما نُسب لكارل ماركس من رأي بخصوص الثورة المهدية، وحمله على محملٍ يمنح مقالة ماركس السابق ذكرها - إن صدقت نسبتها إليه - قبساً من الواقعية التي لن تعجز عن استدراج إي ذهن حاذق نحوها.

في سياق مقارب لرؤى مفكري اليسار الآوائل، كتب المؤرخ الروسي البروفسور «سيرجي سمرنوف» مطوراً رؤية «انجلز» الابتدائية للتغيرات الاجتماعية التي صاحبت اندلاع الثورة المهدية وعملية تحرير مدينة الخرطوم نحو تأطير الأمر بأكمله في سياق أكثر تقدماً. ومن ذلك قوله عن النتائج المرتبطة بموقعة تحرير الخرطوم على مستوى العلائق الاجتماعية والطبقية بقوى رأس المال المتصلة بالحركات الاستعمارية في مرحلة ما بعد انتصار الثورة:

«لم تقض الثورة المهدية على مصالح كبار التجار البرجوازيين، وكبار ملاك الآراضي الإقطاعيين الذين كانت تؤيدهم الطبقات الحاكمة في الأقطار الأجنبية فحسب، بل قضت أيضاً على الاحتلال الأجنبي والموظفين التابعين للحكم الاجنبي وكافة أشكال وأدوات الحكم الاستعماري»[2].

ولعل من الموضوعي هنا، الإشارة إلى ما كتبه سياسي ثوري بارز بالتيار القومي الإيرلندي وصحفي مرموق على نحو «جي جي أو كيلي **J.J.O'kelly**» حول ملامح التغيير الاجتماعي التي تطلع الكثيرون لرؤية قسماته تحت رايات ثورة التحرر السودانية. فعلى الرغم من البرازخ التي تفصل بين السودان وإيرلندا إلا أن أخبار الثائر السوداني

1 سمرنوف، ص ١١٨.

2 سمرنوف، ص١١٩.

لم تكن لتتوارى عن صحافة إيرلندا. فكتب «أو كيلي» محيياً جهود محمد أحمد المهدي كمصلح اجتماعي واقتصادي وعبر عن أشواقه بحسب كلماته:

«لتمتد أيدي هذا البطل الإسلامي الجديد لتلتقي مع جهود الاشتراكيين الفرنسيين والألمان، لأنه رجل يتفق قلبه معهم وإن كان هو (أي المهدي) أكثر عمقا منهم في هذا الشأن» [1]. ومع بروز أرهاصات تكون تيار يساري عريض داخل حركة القوميين الإيرلنديين المطالَبة بالاستقلال من بريطانيا، يبقى من العسر بمكان تحديد الدوافع الحقيقية لمساندة تلك الحركة للثورة المهدية في السودان وحملها في إطار تنامي مد الوعي عند النخبة الإيرلندية بنظرية حتمية الصراع الطبقي المرتبطة بفكر اليسار وإعمالها بالتالي – بموضوعية– على خارطة أحداث القرن التاسع عشر. بيد أنه بالعودة لما سبق مما كتبه اوكيلي صراحةً عن الملامح الاشتراكية في فكر المهدي، تظل تلك الفرضية قائمة بأسانيد موضوعية وإن اقترنت ببعض التحفظ حيال النهايات التقريرية التي ساقنا إليها الكاتب والتي لا تنسجم مع طبيعة الخندق الثقافي والفكري المغاير الذي إنطلقت منه المهدية.

وبالاتجاه نحو سبر أعماق مواقف قوى اليسار البريطانية حيال موقعة تحرير الخرطوم تحديداً، لن يكون من السهل عندها تجاوز موقف منظومة سياسية مهمة كحال «الاتحاد الاشتراكي» أو «Socialist League» حول انتصار الثورة المهدية بتحرير العاصمة السودانية. تلك كانت مواقف مبدئية إنساقت تجاهها قوى اليسار البريطانية في ذلك التنظيم تحديداً، إتساقاً مع عدائها المعلن للإمبريالية ومناصرتها لكفاح الشعوب من أجل الحرية. وكان التنظيم المار ذكره والذي عرف اختصاراً باسم الـ«SL» يضم في مواقعه القيادية السياسي البريطاني «وليام موريس»[2] والذي سبق وأن أشرنا لمواقفه المؤيدة للثورة المهدية. ومن ذلك ما عرف عنه من حماسة لحق السودانيين في تقرير مصيرهم بأنفسهم مما دفعه للكتابة لابنته

1 مقال تحت عنوان مفكرة رجل إيرلندي.. لـ **Padraig Yeates**: صحيفة التايمز الإيرلندية، ٢٤ أغسطس ٢٠٠٩.

2 **وليام موريس**: سياسي، شاعر وروائي إنجليزي معروف اكتسب شهرة واسعة بسبب أعماله الأدبية الخالدة كروايتيه.. «**The House of Wolfings**» و«**The Well at the World's End**».

ماي موريس بعد ثلاثة أسابيع من وقوع الخرطوم في القبضة السودانية.. قائلا:

«لقد سقطت الخرطوم في أيدي شعبها الذي تنتمي إليه»..

«Khartoum has fallen into the hands of the people it belongs to»..

وهو ذات الموقف الذي تبناه الاتحاد الاشتراكي في ١٦ فبراير ١٨٨٥ حينما أصدر تقييماً تنظيمياً داخلياً لانتصار الثورة المهدية على القوى الاستعمارية البريطانية تضمنته مجموعة من الأوراق احتشدت بالغبطة المعلنة لنبأ تحرير العاصمة السودانية. وفي أول تعليق رسمي له على انتصارات الثورة المهدية، أشار موريس لأطماع الطبقة الرأسمالية الإنجليزية التي دفعتها لخوض حروب السودان تلبية لرغائب اعتملت في أوساطها لتوسيع دائرة استغلال ثروات الشعوب بآراضي المستعمرات. وتوقف موريس عند انتصار المهدية على البريطانيين بحماسة بائنة ليقول:

«إن النصر الذي حققه السودانيون على بريطانيا هو نصر للحق على الباطل (A triumph of right over wrong) وهو انتصار مستحق إنتزعه شعب يقاتل من أجل حريته»[1]. واستبق المجلس الأعلى المؤقت للاتحاد الاشتراكي البريطاني تصريحات موريس بأيام خمسة حين وزع على صحف «The Standard»، «Pall Mall Gazette» و«St.James Gazette» تقريراً وصف انتصار السودانيين الأخير مرة أخرى بالنصر الذي حققته قوى الحق على قوى الباطل..وهو ذات التقرير الذي جاء فيه:

«إن عملية غزو السودان قد تم تنفيذها بنوايا خفية لاستغلال (ثروات) ذلك البلد لإشباع الجشع التجاري لدى بريطانيا. وبناءاً على ذلك، فإن عملية إحباط تقدم قوى الغزو البريطاني يتوجب أن تواجه بالتحية من كل مساندي الشعب السوداني على أنها نصر للحق على الباطل وعملية دفاع مشروع عن النفس ومبرر من الناحية الأخلاقية في وجه لصوصية متوحشة»[2].

ولَم يكد شهر مارس من العام ١٨٨٥ ليبتدئ حتى أصدر فيه الاتحاد الاشتراكي

1 نيكول: مصدر سابق،ص ٣٤٥-٣٤٦ .

2 صحيفة Gazette Mall Pall، ١١ فبراير ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

البريطاني كتيباً من أوراق أربع أسماه بـ«مانفستو الاتحاد الاشتراكي لحرب السودان» دمغ فيه العمليات الحربية البريطانية الفاشلة ضد الثورة المهدية بصفة «اللصوصية الخبيثة» التي تصب في مصالح الطبقات المخملية بالمجتمع البريطاني دون أن يغفل عن توجيه انتقادات لاذعة للسياسات الخارجية البريطانية[1].

وباستطلاع أصداء انتصارات الثورة المهدية على بريطانيا في معاقل الثقافة والآداب المتمركزة بين منطقة يسار الوسط وأقصى مواقع اليسار على مستوى العالم، تبقى القصيدة التي سطرها الشاعرالأسترالي الشهير المعروف بتوجهاته اليسارية « بانجو باتريسون» تحت عنوان «من المهدي للقوات الأسترالية» أو «El Mahdi to the Australian troops» تبقى هي الأبرز في هذا الشأن. ومن ذلك أن باترسون الذي تخندق بأشعاره بتعاطف جلي في مواقع الثورة المهدية ضد القوات البريطانية الغازية، قد استنكر في أبيات قصيدته مشاركة قوات أسترالية مع حملة إنقاذ غردون لقمع ثورة شعب كشعب السودان كان - بحسب باترسون - شعباً يقاتل من اجل حريته. وفيما يلي بعض أبيات هذه القصيدة:

يا رجال استرليا ماذا اتى بكم إلى هنا؟
لماذا يا أبناء أستراليا العادلة.. الحرة؟
لماذا ترفعون سلاحكم..
في وجه رجال يقاتلون من أجل حريتهم؟
تتحالفون مع الأم (بريطانيا).. لتهزموا الحق!
لماذا تترك أستراليا كنوزها..
للمخاطر فيما وراء البحر؟
لماذا تغادر أرضها الحرة..
لتغرس سيفها في حرب غير مقدسة![2]

---

1 نيكول: غلادستون وغردون وحروب السودان، مصدر سابق، ص ٣٤٠.

2 **بانجو باتريسون**: قصيدة بعنوان: **El Mahdi to the Australian troops**، نشرت بصحيفة **The Bulletin** الأسترالية، بتاريخ ٢٨ فبراير ١٨٨٥. وقد تعرضنا للنص الكامل للقصيدة في الباب المعنون بـ«أصداء الثورة المهدية في حركة الثقافة والأدب العالمي».

والذي لاشك فيه، أن تيار اليسار العالمي العريض قد تكاثف مده بعد ذلك حين قامت الثورة البلشفية. وقام بعدها الاتحاد السوفيتي وجمهوريات شرق أوروبا وما صاحبها من انتشار لحركات التحرر الوطني المرتبطة بإرث اليسار ومدرسته العقلية في الفكر والثقافة وتحليل دقائق التاريخ ووقائعه المختلفة من زاوية غيرية. ومن ذلك ما قال به المؤرخ والبروفيسور السوفيتي «سيرجي سمرنوف» بسفره القيم «دولة المهدية من وجهة نظر مؤرخ سوفيتي»:

«إن الثورة المهدية وإن كانت حركة دينية لدي نشوئها إلا أنها أضحت بعد انتصارها على حملة (هكس واستيلائها) على الأبيض وحصار وتحرير الخرطوم، ثورة وطنية تقدمية ضد الحكم التركي المصري والاستعمار البريطاني وعملائه من كبار الإداريين مثل غردون وبيكر وأمين ولبتون وسلاطين وغيرهم». وتصدى سميرنوف لتحليل أحداث تحرير الخرطوم بذهنية أكاديمية مبعثها المنهج التحليلي اليساري لحقائق الأشياء وذلك حين ذكر أن «عملية حصار وتحرير الخرطوم- المركز الاقتصادي والسياسي للبلاد - جاءت تتويجاً لسلسلة انتصارات الشعب السوداني الساحقة على الإمبرياليين البريطانيين». و وصف سمرنوف حراك الثورة المهدية «بالحركة التقدمية التي وحدت ملايين السودانيين للكفاح من أجل الاستقلال في مواجهة الاستعماريين»[1].

النخب الوطنية والقوى الثورية في مصر تساند الثورة السودانية:

ترددت أصداء تحرير الخرطوم وانتصارات الثورة السودانية على بريطانيا بقوة في شمال الوادي.. فقد كتب أحمد عرابي باشا قائد الثورة العرابية من منفاه في مدينة كلمبو بجزيرة سريلانكا في ٢ مارس ١٨٨٥ خطابا إلى الليدي آن بلنت..(BluntAnne)[2] جاء فيه:

1 سمرنوف، ص ٧٦.

2 **الليدي آن بلنت** (١٨٣٧-١٩١٧): سيدة إنجليزية تنتمي لأسرة بريطانية ارستقراطية اشتهرت بولعها بالخيول العربية وصلاتها الاجتماعية المتعددة مع نساء ورجال النخبة المصرية في مصر الخديوي توفيق. تزوجها الناشط السياسي البريطاني ويلفرد بلنت وترافقا معاً في رحلات شملت العديد من البلدان العربية. عرف وليفرد بلنت بمساندته للثورة العرابية وصلاته الجيدة مع افراد اسرته بالقائد المصري أحمد عرابي. وقادته مواقفه المعادية لإمبرالية بريطانيا لشجب أطماع إنجلترا التوسعية في السودان وانجرارها لمحاربة السودانيين الذين اجتمعوا تحت لواء الثورة المهدية.

«لم تكسب بريطانيا شيئا من محاولتها غزو السودان. لقد خسرت كل شئ.. خسرت اسمها وسمعتها وخسرت كل المسلمين. لقد فقدت بريطانيا غردون وستيوارت وهكس وأيرل وكم وكم غيرهم من الضباط البريطانيين. كما فقدت أيضاً تعاطف كل القلوب بسبب حربها على ثورة التحرر في السودان. إن السودانيين الشجعان أخذوا بالثأر لإخوانهم المصريين وحموا بلادهم ضد الغزاة ومنهم رجال يفضلون أن يتجرّعوا كأس الموت على أن يروا مستعمراً دخيلاً عليهم داخل حدودهم. لقد بايع الشعب السوداني المهدي بالملايين على الموت من أجل الحرية وكلما إزداد العدوان الإنجليزي عليهم كلما إزدادت قوتهم»[1].

وفي ذات السياق، لم يفلح عرابي كثيراً في كبت سيل مندفع من المشاعر الغاضبة التي احترق بها صدره وهو يتجرع مرارات المنفى الإنجليزي في سيريلانكا، فكتب مرة أخرى لليدي بلنت ليؤكد مجدداً أن انتصار الثورة المهدية على القوى الاستعمارية البريطانية في موقعة تحرير الخرطوم هو بمثابة الثأر الذي تصدى لأخذه السودانيون لمصلحة إخوانهم المصريين.. وفي ذلك قال:

«لقد سمع الله نحيب المضطهدين ووقع الدماء التي أراقها البريطانيون. سمع ربنا بكاء الأرامل المختلط بالمرارات وصيحات الأطفال الأيفاع. لقد أخذ الله لنا بثأرنا من الطامعين المغتصبين»[2].

ومما يجدر الإشارة إليه هنا، هو أن تعاطف عرابي وحركته الثورية مع الثورة المهدية لم يكن وليداً لانتصارات المهدويين المدوية على الإنجليز لاحقاً.. فقد أبانت العديد من المصادر عن ثمة صلات تعود للمراحل الباكرة من اندلاع الثورة المهدية. وفي السياق ذاته، أشار المؤرخ البريطاني فيرغس نيكول لعثور البريطانيين على نسخ من منشورات المهدي في خيمة أحمد عرابي نفسه بعد معركة التل الكبير وكانت تلك المنشورات تتحدث عن رؤية المهدية في الكيفية التي يجب أن يتعامل بها المسلمون تجاه القوى الغازية

1 أرشيف الصحافة البريطانية، صحيفة «**The Western Daily Press**»، عدد بتاريخ ٣ أبريل ١٨٨٥.

2 دانيال، ص ٤١٨.

لأراضيهم ممن هم ليسوا على ملّتهم ومسوغات هذا الأمر من ناحية شرعية إسلامية[1].

وتتوافق مواقف عرابي الموثقة تلك مع ما خلص إليه الباحثان الأمريكيان البروفيسور ريتشارد ديكميجيان ومارغريت وزموريسكي حين قالا:

«لقد كان عرابي باشا من أبرز المتضامنين مع الثورة المهدية ضد البريطانيين وحلفائهم من الأتراك العثمانيين. وقد عمل المهدي على مبادلته بغردون قبل مقتل الأخير في الخرطوم.. كما كان ثناء الشيخ محمد عبده على محمد أحمد المهدي وحركته ظاهراً ومعروفاً تماماً كمجاهرة الشيخ المصلح جمال الدين الأفغاني بمساندته للثورة أيضاً. ولو قدر للمهدي أن يعيش أكثر، لكان من الممكن جداً أن تشكل الحركة المهدية تهديداً حقيقياً لسيطرة بريطانيا على مصر»[2].

ومع توالي انتصارات الثورة المهدية في السودان، كتب جمال الدين الأفغاني ثلاثة مقالات نارية باللغة الفرنسية في صحيفة (L intransigent) الفرنسية تعبر في مجملها عن إعجابه بالثورة التحررية السودانية وقائدها.. بل وإنه من فرط إعجابه بالمهدي فقد ادّعى أن المهدي كان تلميذه في الأزهر![3] وأتبع الأفغاني ذلك بمقال مطول عن وصول أنباء انتصارات الثورة المهدية لقارة آسيا القصية.. جاء فيه:

«وردت برقية من تاشكند (طشقند) إلى جريدة الساندر الإنجليزية مفادها أنه حصل اضطراب عظيم في أفكار المسلمين سكنة بخارى عندما سمعوا بانتصار أعراب السودان وظفرهم الأول وظهر فيهم داع جديد وهو الشيخ محمد أحمد صاحب الحركة المهدية يحث على الحرب ومقاتلة الذين ينتهبون الأراضي الإسلامية لتوسيع ممالكهم».. إلى أن يقول «إن الدعوة المهدية في السودان لهذه الأوقات التي قام المسلمين فيها بأشباه الحوادث الماضية ستدعو إلى حركة عامة يصيح منها الشرقي بالغربي ويصعب على الإنجليزي وهو في مجراها أن يتنكب عنها دون ان تعروه هزة من مفزعاتها»..

1 فيرغس نيكول: **مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون**، ص ١٤٤.

2 ديكميجيان ووزموريسكي: مصدر سابق، ص ٢٠٩.

3 د. علي شلش: **جمال الدين الأفغاني بين دارسيه**، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٧، ص ١٢٢.

أما الشيخ محمد عبده فقد جاهر بدوره أيضاً بتأييده للثورة المهدية من دون أن يدخر في سبيل ذلك أدنى جهد. وكان الإنجليز قد حققوا معه بتهمة جمع الأسلحة وإرسالها للثوار في السودان، وتبعاً لذلك تم استدعاؤه لإنجلترا. ولما سُئل عن الخطر الذي من الممكن أن تشكله الثورة المهدية على المصريين، كان الشيخ كدأبه دوماً، حازماً وحاسماً في رده الذي قال فيه:

«لا خطر على مصر من حركة المهدي إنما الخطر على مصر من وجودكم فيها وإنكم إذا غادرتم مصر فإن المهدي لن يرغب في الهجوم عليها ولن يكون في هجومه خطر فهو الآن محبوب من الشعب المصري لأنهم يَرَوْن فيه المخلص لهم من الاعتداء الأوروبي وسينضمون إليه عند قدومه»[1].

واتساقاً مع ما سبق من موقف مساند للثورة المهدية، ذكر الباحث المصري الدكتور محمد أحمد إسماعيل المقدم أن جمال الدين الأفغاني قد فكر في إرسال الشيخ محمد عبده ليعمل مع المهدي في السودان[2].

على المستوى الإبداعي والثقافي، واصل رائد المسرح المصري يعقوب صنوع بنهجه السابق في مساندة الثورة المهدية وتصويرها على أساس انها حركة تحرر قامت لتنتصر دون أن تدفع بها إغراءات البريطانيين للتفكير بالتخلي عن تراب الوطن.ومن ذلك أنه قد اتجه لنشر كاركاتير ساخر بصحيفته «أبو نظارة زرقاء» والتي كان يصدرها من منفاه في باريس باللغتين العربية والفرنسية. وفي ذلك الرسم الكاركاتيري تحديداً، يظهر الجنرال غردون علي هيئة قزم وهو يتسلق على أكتاف مجموعة من عساكر الحملة الإنجليزية التي أتت لإنقاذه في محاولة منه لإقناع المهدي بقبول فدية إنجليزية بلغت خمسين ألفاً من الجنيهات أرسلتها ملكة بريطانيا فيكتوريا. وبدا المهدي أمامه عملاقاً شاخاً وهو يترفع عن عرضه بإباء ليرد عليه بلهجة عامية: «عندي الموت أحسن من ترك الجهاد جنيهات الملكة ما يغونييش لا أنا ولا ظباطي.. توفيق باع لكم مصر أما المهدي لا يبيع لكم

1 شلبي، ص ٩٤-٩٥.

2 **المهدي**، للدكتور محمد أحمد إسماعيل المقدم، الناشر: الدار العالمية، الاسكندرية، مصر،٢٠٠٤، ص ٤٧٢.

السودان»[1]. واللافت للانتباه في هذا الرسم الساخر هو ميل صاحب الصحيفة لإظهار انحياز بعض الجنود المصرين للثورة المهدية – في إشارة لبعض من ناصروا عرابي منهم – وتصويرهم كمقاتلين منحازين لإخوانهم السودانيين ضد البريطانيين في محاولة لترسيخ فكرة الكفاح المشترك ضد القوى الاستعمارية وهي ذات الفكرة التي سعى يعقوب للتأكيد عليها باستمرار في أعداد صحيفته الصادرة في الفترة ما بين ١٨٨٣–١٨٨٨. وفي مطلع العام ١٨٨٥، نشر صاحب الصحيفة ذاتها عدة رسوم تبين التنكيل الذي ألحقه الخديويون بجماهير الشعب المصري مما جعلهم يتطلعون لقدوم قوات المهدي المنتصرة من السودان لمصر وتحريرها لجموعهم من نير الخديوية الواقعة تحت السطوة البريطانية.وقد جسد ذلك بهتاف جموعهم المحتشدة قائلين: «تعال يا مهدي نجينا من إسماعيل»[2].

بيد أن التعاطف مع الثورة السودانية في مصر لم يقف عند صفوة رواد الفكر كالأفغاني ومحمد عبده ولا حملة لواء المسرح والصحافة من أمثال صاحب «أبو نظارة زرقاء» فقط، فقد أشارت بعض التقارير الاستخباراتية التي جمعها وكلاء محليون للإنجليز إلى أن هناك مجموعة مقدرة من النخبويين والسياسيين المصريين ممن كانوا يضمرون تعاطفاً كبيراً مع الثورة المهدية مما جعلهم يتفقون على خلق متاعب كثيرة للبريطانيين ولَمَ يؤخرهم عن الانضمام للثورة إلا تحين اللحظة المناسبة لذلك ومن هؤلاء: رياض باشا، شريف باشا، مصطفى فهمي باشا وسليمان أباظة باشا وآخرون[3].

---

1 **صحف أبونظارة (١٨٨٢–١٨٨٤)**، دار صادر للنشر بيروت، ١٩٠٠، نسخة الكترونية، ص١٣٨.

2 عدد بتاريخ ١٠ يناير ١٨٨٥، صحف أبونظارة (١٨٨٥–١٨٨٨)، دار صادر للنشر بيروت، ١٩٠٠، نسخة الكترونية، ص١.

وبدا جلياً أن الصحيفة كانت تتوجس من تملق الخديوي إسماعيل للإنجليز سعياً لإقناعهم بارجاعه إلى الحكم في محل ابنه توفيق. فالخديوي الأب والإبن هما سواء – في نظر صنوع – من حيث موالاتهما للبريطانيين وعملهما ضد إرادة الشعب المصري.

3 **الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان**، للمؤرخ المصري الدكتور جلال يحي، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٧٨.



زبدة القول، أن موقعة تحرير الخرطوم كان لها أثرها المدوي على مجريات الأحداث بنهايات القرن التاسع عشر مما دفع بها كحدث مفصلي لتحتل موقعاً بارزاً في مقدمة الوقائع المهمة التي شهدها النصف الثاني من ثمانينيات القرن المار ذكره. واقعة كتلك، كانت تفاصيلها محتشدة بما يكفي بأوراق صحافة بريطانيا وغيرها من صحف العالم، فنالت أحداثها ودقائقها الصغيرة اهتماماً بالغاً. وهو ذات الاهتمام الذي لم يحل التفاوت في مستوى مهنيته دون اجتماع تلك الوسائل الإعلامية المختلفة على الجزم بعظم الخسائر الضخمة التي كبدتها الثورة المهدية للقوى البريطانية الغازية وما أعقب ذلك من أثر مرير انطبع لفترة بعيدة بداخل خلايا الذهن الجمعي البريطاني.

الباب السابع

أصداء الثورة المهدية بالجزيرة الإيرلندية..
القوميون الإيرلنديون
ومساندة الثورة السودانية

أصداء الثورة المهدية بالجزيرة الإيرلندية..
القوميون الإيرلنديون ومساندة الثورة السودانية..

«إن أتباع المهدي.. ذلك الزعيم الإفريقي العظيم.. يقاتلون من أجل الذود عن أراضيهم ومن أجل ترابهم الذي لا يستطيع أي مغامر بريطاني أن يدعي لنفسه ملكية فيه. إنهم يقاتلون متسلحين بأخلاقهم وبالمزايا التي توفرها لهم ظروف بلادهم الطبيعية. ومما يبدو جلياً للجميع الآن، فإن كل عاشق مخلص للحرية في العالم يتمنى النجاح لجهود أولئك الرجال الذين يمارسون حقهم المقدس في صد جحافل الغزاة الذين اعتدوا على حدودهم بقواتهم الأجنبية المقيتة! إن قوات المهدي لا تخشى المعارك والمواجهات. وقد دللت الكوارث العديدة التي أذاقوها للإنجليز بأيديهم على خبرة القيادة التي يعملون تحت إمرتها. وبالنظر لإيمانهم الراسخ بالمهمة المقدسة لقائدهم، فإنه من السهل تفهم أن محاولة إخضاع هؤلاء المحاربين النبلاء بواسطة البريطانيين ما هي إلا مهمة أشبه بالمستحيلة تحت وطأة الظروف الحالية. ونحن نتمنى بدورنا أن تبقى تلك الظروف دوماً في صف أولئك الرجال الذين يقاتلون من أجل وطنهم..بقدر ما نتمنى أن تتنزل الهزائم المهينة والكوارث البشعة على القوات الأجنبية الباغية».

صحيفة «Connaught Telegraph» الإيرلندية، ٧ فبراير ١٨٨٥.

عندما اشتعلت الثورة المهدية في السودان ببدايات العقد الثامن من القرن التاسع عشر، كانت نضالات القوميين الإيرلنديين الرامية لانتزاع الاستقلال من قبضة البريطانيين قد بلغت أشدّها بعد ليلٍ امتدّ بهم إلى ما قارب الثمانية قرون من سيطرة التاج الملكي البريطاني على جزيرتهم. الحالة الإيرلندية في تلقي أصداء الثورة المهدية والتفاعل معها كانت تستمد موضوعيتها من إدراك الحركات السياسية المناوئة لبريطانيا هناك بثقل الخسائر الإمبراطورية الاستعمارية التي أحدثتها مقاومة الثورة المهدية الناجحة لجنرالات بريطانيا. فعندما زجت إنجلترا بقادة التيار القومي الإيرلندي المطالب

بالاستقلال في سجن «كيلمينهام» الشهير بدبلن في ١٨٨١، كانت الثورة المهدية قد اندلعت ضد الاحتلال الأجنبي بجزيرة أبا بوسط السودان. وأعقب ذلك مواجهات عسكرية متتالية مع قوى الحكم التركي المصري بالسودان انتقلت فيها الثورة السودانية من نصرٍ إلى آخر حتى وقع إقليم كردفان بأكمله تحت قبضة الثوار وذلك مع اكتمال عملية تحرير مدينة الأبيض في ١٨٨٢. وهو نفس العام الذي شهد إطلاق بريطانيا لسراح المعتقلين السياسيين من قادة التيار القومي الإيرلندي المشاهير على نحو تشارلز بارنيل، جي. جي أوكيلي ووليام أوبراين. إجتذب مسرح الأحداث الملتهبة في السودان اهتمام القوميين الإيرلنديين مع بدايات تورط جنرالات بريطانيا في قيادة القوات المبتعثة لقمع الثورة المهدية.. ولنقل بصورة أكثر تحديداً مع حلول نوفمبر من العام ١٨٨٣ والذي شهد انتصار المهدية المفصلي على قوات الجنرال البريطاني هكس باشا بغابة شيكان الواقعة بضاحية مدينة الأبيض بغرب السودان.

وفى السياق ذاته، من الممكن القول بأن الهزائم التي أذاقتها قوات الثورة المهدية بقيادة الأمير عثمان دقنة لحملة الجنرال البريطاني بيكر بشرق السودان مع حلول نهايات ١٨٨٣.. كانت من أهم الأحداث التي أسرت كتاب الأعمدة والمحررين بصحافة إيرلندا ويتجلى ما سبق بوضوح فيما قاله مايكل دي ني في دراسته المهمة بعنوان «أسرع أيها المهدي.. الصحافة الإيرلندية والإمبراطورية في حروب السودان ١٨٨٣-١٨٨٥» والتي جاء فيها:

«ظهر اسم المهدي بشكل مبرز في التقارير الصحافية الإيرلندية عن مصر والسودان.. وبالأخص بعد الهزيمة المذهلة التي تعرض لها بيكر باشا في نوفمبر ١٨٨٣. ومال كبار الصحافيين والمحررين الإيرلنديين لتخصيص أعمدتهم للإجابة على أربعة أسئلة أساسية: من هو المهدي، وما هي أهدافه، وما هو الخطر الذي كان يشكله للأطماع البريطانية، وأخيراً لماذا كان رجاله يقاتلون تحت راياته» [1].

تساؤلات جوهرية كتلك، تصدت لإجلاء ما أكتنفها من غموض في ذهن القارئ

1 مايكل دي ني، ص ٨٩٠.

الإيرلندي صحف إيرلندية مقروءة على نطاق واسع بما عُرف عنها من التزام بالخط التحرري للقوميين الإيرلنديين على نحو «Irishman» و«United Ireland». وقد يكون من الموضوعي هنا ايراد ما كتبته صحيفة «Irishman» في تقريرها المنشور ببدايات ١٨٨٤ بما إحتواه من إجابات ضمنية لمسألة الثورة المهدية، تقدمت في مضمونها نحو تحليل عميق لصراع الثورة السودانية مع الإمبراطورية البريطانية ووكلائها المحليين على نحو الخديوي توفيق وما ترتب على ذلك من مواجهات عسكرية محتدمة بين الجانبين.. جنحت فيها الصحيفة لتعريف المهدية كحركة تحرر وطنى تحارب احتلالاً أجنبياً مخادعاً. وفي ذلك قالت:

«إن الحق يقف مع المهدي في حربه العادلة التي يسعى فيها لإستئصال شأفة هؤلاء الغزاة الذين يسعون لتدمير وتحطيم مواطني شعبه. وفي سبيل حماية حركته من هذه الأخطار يتوجب عليه إلحاق الدمار بأي غازٍ من الغزاة ممن أتوا إلى هنا وهم يأتمرون بأوامر الخديوي المخادع. هذا الخائن ما زال متحصناً بكل ادعاءاته الممكنة التي تكفل له سيادته المدعاة على السودان. إن الرفض الذي أبداه المهدي للخضوع لسطان الخديوي جعل منه قائداً يعمل على تحقيق العدالة الغائبة بكل مبادئها الصارمة. إن مقاومة المهدي لسلطة الخديوي التي كانت تعمل على نهب وإستعباد السودانيين توضح ان المهدي يلعب دور القائد الوطني في هذا الشأن. إن إلصاق تجارة الرقيق به كذريعة تُستخدم ضده هي العار بعينه. عندما تشجب إنجلترا تلك التجارة في الهند وإيرلندا وأماكن أخرى أولاً حينئذ يمكن لها أن تتحدث بحرية عن تجارة الرقيق في السودان من دون أن تهاب أن يجادلها الناس بحجج معاكسة». ثم استرسلت الصحيفة في تقريرها الذي وصفت فيه الإنجليز بـ«المذنبين أمام الله والإنسانية»، فقالت فيما يلي ذلك:

«إن النار التي أضرمها الإنجليز في دلتا النيل ها هي الآن تمتد إلى السودان. الأمر الوحيد الذي يمكننا التأسف عليه هو أن ضحايا جشع إنجلترا هم الذين يحترقون بتلك النار، وليس الإنجليز الذين ثبت أنهم هم المذنبون أمام الله والإنسانية. لقد قاد القائد البريطاني بيكر باشا جيشاً يتكون مما يقارب الأربعة الآلاف من المصريين نحو

الفناء الكامل بأيدي قوات المهدي. ولكنه (أي بيكر) أفلح في استغلال الوقت المناسب للفرار من تلك المذبحة. ذلك لم يكن نفس المصير الذي نال بعض ضباط جيشه الإنجليز الذين تحلوا بشجاعة أكبر أو بمهارة أقل في تولية الأدبار من قائدهم. هؤلاء اخترقت أجسادهم جميعاً رماح أعراب السودان. إننا لا نشعر بأي شفقة نحو هؤلاء المغامرين سوى أن كانوا إنجليز أو إيرلنديين. دعهم ينزفون حتى الموت وهم يتمرمغون في أموال الخديوي الملعون. ذلك الخديوي كان يجب تعليقه على مشنقة الإعدام قبل أن تطلق أي رصاصة في الإسكندرية». ومالت «Irishman» نحو قراءة موضوعية لإحتمال تصاعد وتيرة الصدام بين الثورة المهدية والقوى الاستعمارية حين تنبأت بحدسٍ مبكّر بانجراف الإنجليز نحو إرسال المزيد من القوات لمواجهة الثورة المهدية في السودان سعياً لإخضاعها كما فعلوا من قبل مع الثورة العرابية في موقعة التل الكبير.. وذلك على نحو ما قالت في ختام تقريرها:

«تم إرسال بضعة الآلاف من القوات البريطانية لإنقاذ طوكر. المدينة ستسقط على الأرجح في أيدي عثمان دقنة قبل أن تنال أنصال أعراب السودان الفولاذية من هؤلاء القتلة الإنجليز المأجورين. إن المهدي أو عثمان دقنة بما هو منسوب إليهما من نجاح قد يدفعا الإنجليز لإرسال المزيد من التعزيرات العسكرية الإنجليزية استجابة لذلك التحدي الذي سيحاولون معه إعادة ما حدث في معركة التل الكبير» [1].

أدرك الإيرلنديون - بخبراتهم العريقة في التعامل مع التكتيكات الإمبريالية البريطانية - الأثر الكبير لانتصارات المهدية في السودان على الخارطة السياسية البريطانية وتداعياتها على حركة اللبراليين الإنجليز واتجاهات حكومة غلادستون السياسية. وبالتالي لم يغب عن إدراكهم أيضاً ما قد يتبع كل ذلك من مزايدات سياسية في مزادات وطنية مفتوحة أضطرت لخوضها جهات حزبية بريطانية عديدة للتأكيد على ولائها للإمبراطورية التي أثخنت جسدها هزائم السودان. تلك الإنتكاسات العسكرية التي سببتها مقاومة الثورة المهدية الضارية للآلة الحربية البريطانية كانت- بحسب بعض

1 صحيفة **Irishman**، السبت ١٦ فبراير ١٨٨٤، أرشيف الصحافة البريطانية.

المؤرخين – عاملاً مهماً في اتجاه رئيس الوزراء البريطاني «غلادستون» لمنح الإيرلنديين حق الحكم الذاتي، وفي ذلك يقول البروفيسور «بول ب. تاونيند» – أستاذ التاريخ البريطاني والإيرلندي بجامعة كارولينا الأمريكية –في مؤلفه القيم «الطريق إلى الحكم الذاتي.. مقاومة الإمبريالية والحركة القومية الإيرلندية»:

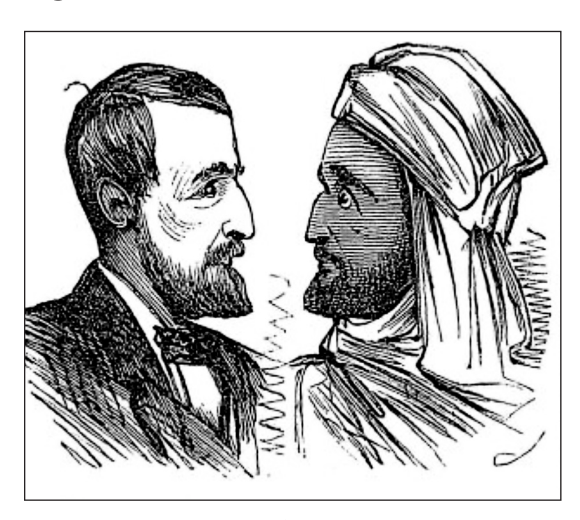
«أثار الفشل الدامي الذي انتهى إليه غردون وجيش الإنقاذ البريطاني في السودان حالة من السخط أفضت بدورها إلى حالة من الغلو المفرط في الوطنية عند البريطانيين، فتبدت معالم ذلك بوضوح في الرأي العام الإنجليزي. إحتفرت تلك الأزمة أخاديداً عديدة بين اللبراليين الإنجليز مما أدى للتعجيل بحالة من عدم الثقة في قيادة غلادستون لحكومته وبالتالي تعطيلها عن أداء مهامها. كل ذلك ساهم في مساندة غلادستون الراديكالية لمنح الحكم الذاتي للإيرلنديين طامحاً بذلك للتأكيد على سلطته السياسية وإستعادة بعض المكاسب الأخلاقية في ميدان السياسة البريطانية»[1].

ويرى تاونيند أن القوميين الإيرلنديين قد سعوا لتشكيل الرأي العام بإيرلندا لترسيخ فكرة تقوم على اعتبار الثورة المهدية وانتصاراتها كنموذج لحركة ملهمة للشعب الإيرلندي دفعاً به نحو المزيد من الاصطفاف الوطني ضد البريطانيين وبنفس القدر تم تشكيل ذات الرأي العام نحو تقييم ردود الأفعال البريطانية ضد الثورة السودانية كأعمال خرقاء تعبر عن حالة الضعف المسيطرة عليهم حيالها[2].وتبعاً لذلك صار الهتاف بإسم المهدي أمراً مألوفاً لا يخلو منه أحد اللقاءات الجماهيرية للقوميين الإيرلنديين. وقبل أن يمضي أكثر من يوم على تحرير قوات الثورة المهدية لمدينة الخرطوم من قبضة الجنرال البريطاني غردون، عقد القوميون الإيرلنديون لقاءً حاشداً بحضور زعيمهم التاريخي «بارنيل» بمدينة ميلتاون بجنوب إيرلندا وفيه نهض القيادي القومي الإيرلندي المعروف جون ديسي ليخاطب الحضور بحماسة ملتهبة وهو يتندر ساخراً من خسائر القوات الإنجليزية في السودان فقال في ذلك:

1 **The Road to Home Rule: Anti-imperialism and the Irish National Movement**, by Paul A. Townend. Publisher: University of Wisconsin Press; 1st edition 2016, United States, p.201.

2 تاونيند، مصدر سابق، ص ٢٠٥.

«ان المهدي قد حول جزءاً كبيراً من الجيش الإنجليزي لمجموعة من الطحالب التي تتوق إلى أن يُفتك بها». وقبل أن يمر أكثر من شهر على تلك الواقعة، كانت قوات الثورة المهدية تتعقب فلول القوات الإنجليزية المنسحبة في صحراء شمال السودان القاحلة. ولما لم تكن تلك الأنباء بمعزل عن مسامع الإيرلنديين، تصدى ديسي مجدداً لمخاطبة لقاء آخر احتشد فيه القوميون الإيرلنديون ببلدة نيوبريدج القريبة من العاصمة دبلن وقام كدأبه من قبل بكيل الثناء والمدح لصمود السودانيين في مواجهة الإنجليز قائلاً: «هذا شعب يقاتل للذود عن تراب وطنه ومن أجل تحقيق استقلاله»[1]. ويبدو أن شغف جون ديسي بانتصارات الثورة السودانية على البريطانيين قد استبدّ بصاحبه حتى دفعه للزعم بأن المهدي السوداني يتحدر في الأصل من عائلة إيرلندية في مدينة «كورك» تحمل اسم «أوسلوفن»! وقاطعته عندها الجماهير الإيرلندية بالهتاف الداوي باسم المهدي. واستغل القيادي القومي الإيرلندي تلك السانحة للتأكيد على إصرار وتصميم ذوي الأصول الإيرلندية على مقاومة البريطانيين بكل بقاع الأرض![2].



لوحة بريشة فنان بريطاني
تطابق بين ملامح المهدي السوداني والزعيم القومي الإيرلندي جون ديلان.

1 تاونيند، مصدر سابق، ص ٢١٨..ص٢٨٥.

2 صحيفة سانت جميس غازيت البريطانية، الثلاثاء ٢٧ يناير ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

قابلت عدة صحف بريطانية– مع بعض صحف إيرلندا الموالية لسيطرة البريطانيين – ما ذهب إليه ديسي بلهجة ظاهرها الحنق وباطنها السخرية، حين أشارت بعضها إلى أن القوميين الإيرلنديين من رفاق بارنيل ما زالوا لا يستنكفون المجاهرة بمساندتهم للمهدويين في السودان ويحتفون كلما لاحت لهم سانحة بهزائم البريطانيين هناك. وتناقلت عدد من الصحف البريطانية حينها، رسماً يشبه القيادي القومي الإيرلندي «جون ديلان»[1] بالإمام محمد أحمد المهدي من ناحية الملامح المورفولوجية دون أن تغفل عن الإشارة لحديث ديسي عن أصول المهدي الإيرلندية. وهو ما يمهد الطريق نحو صورة ذهنية مشتركة لهذين القائدين تجعلهما في مربع واحد يسهل وسمه بالعتو في مجابهة الإنجليز.

بَيد أن شهر فبراير الذي إستقلت وطِئته أروقة الإمبراطورية البريطانية بما حفل به من انتصارات المهدويين على قواتهم، لم ينقض دون أن يظهر فيه القوميون الإيرلنديون المزيد من تضامنهم الحميس مع الثورة السودانية. وكانت التظاهرات الحاشدة هي أسلوبهم الذي اتبعوه في المجاهرة بتأييدهم المتصاعد، فامتدت تلك الموجة لتشمل العاصمة الإيرلندية «دبلن». وقامت بنقل الأحداث في هذه المرة، صحيفة «Bury Free Press» الإنجليزية والتي نشرت تغطية كاملة للتظاهرة تحت عنوان «Irish cheers for the Mahdi» بتاريخ ١٤ فبراير ١٨٨٥. وتقول الصحيفة أن الجموع المحتشدة قد خوطبت من قبل عضو البرلمان الشهير آنذاك «Mr.T.P.O'Connor» والذي اتهم رئيس الوزراء البريطاني غلادستون بإرسال قواته لمقاتلة السودانيين – على الرغم من إقراره أي

1 **جون ديلان** (١٨٥١–١٩٢٧): زعيم سياسي إيرلندي اشتهر بإنتمائه للتيار القومي الإيرلندي ومساندته الحميسة لقضية حق الحكم الذاتي الإيرلندية. ولد بمدينة دبلن في ١٨٥١. والده هو الكاتب والسياسي الإيرلندي المعروف جون بليك ديلان أحد أهم أعضاء ومؤسسي حركة «**Young Ireland**». درس جون ديلون الطب بالكلية الملكية للجراحين الإيرلنديين بيد أنه ما لبث أن انخرط في السياسة من خلال العمل تحت مظلة القوميين الإيرلنديين.كان من أبرز من زجت بهم بريطانيا في العام ١٨٨١ بسجن كيلمينهام بأسواره الكائنة بمدينة دبلن مع بارنيل واوبراين وغيرهم من قادة حركة التحرر الإيرلندية. ظل نائباً عن مقاطعة «**Tipperary**» الإيرلندية بمجلس العموم البريطاني حيث ارتفع صوته هناك بإدانة وشجب انتهاكات البريطانيين واستباحة أمدرمان عقب معركة كرري في ١٨٩٨. خلدته الذاكرة الجماعية للإيرلنديين بشارع حمل اسمه ومازال باقياً إلى اليوم بالعاصمة دبلن.

«غلادستون» على رؤوس الأشهاد – في مجلس العموم البريطاني بأن الشعب السوداني هو شعب يقاتل من أجل حقه في الحرية! وتذكر الصحيفة أن الجموع المتظاهرة هتفت عندها بحياة المهدي لثلاث مرات متتابعة. وفي تظاهرة شعبية مماثلة نقلتها الصحيفة نفسها، إنبرى السياسي القومي الإيرلندي البارز وليام أوبراين مخاطباً الفعالية ومشيراً إلى أن تحرير الخرطوم من أيدي البريطانيين بواسطة قوات الثورة المهدية قد تم استقباله بالفرح والابتهاج في كل عواصم أوروبا– وقد تم ذلك كله على حسب قول المتحدث– مصحوباً بالصلوات والدعوات السرية من الجميع ليعطي الرب.. المهدي ورجاله المزيد من القوة والمنعة في مقاومة بريطانيا. وتذكر الصحيفة أن المكان قد ضج حينها بالهتاف الحماسي المتواصل باسم المهدي.. Cheers for the Mahdi [1].

وانعقد لقاء جماهيري آخر للقوميين الإيرلنديين ببلدة «Mallow» التي لا تبعد كثيراً عن مدينة كورك بجنوب إيرلندا. وتقدم لمخاطبة الجمع المحتشد وليام أوبراين لمرة ثانية مبتدراً حديثه بإزجاء التحايا للمهدي والذي وصفه بالزعيم الأفريقي المثير للاهتمام. ومما يجدر الإشارة إليه هنا، أن وليام أوبراين الذي شهد له مجلس العموم البريطاني العديد من المساجلات الصلبة في إطار دعم قضية استقلال إيرلندا عن التاج البريطاني.. لم يُعرف بحماسته للحكم الذاتي الإيرلندي فقط.. بل امتدت نضالاته لتشمل الدعوة الجريئة للتغيير الاجتماعي من خلال تأسيسه لاحقاً لحزب الرابطة الإيرلندية المتحدة الداعي لإصلاحات جوهرية في نظام تملك الآراضي الزراعية في إيرلندا. تلك الروح الثورية المتوهجة عند أوبراين دفعت بالقوميين الإيرلنديين لإطلاق لقب «مهدي مدينة ويستبورت.. Mahdi of Westport» عليه وذلك حين جنح للاستقرار في مدينة «ويستبورت» مع بدايات تأسيسه لذلك الحزب السياسي المار ذكره[2].

وتصاعد افتتان الإيرلنديين بانتصارات الثورة المهدية على الإمبراطورية البريطانية ليبلغ شأناً بعيداً مع قرب إجلاء الثوار السودانيين لآخر قدم عسكرية بريطانية من

1 صحيفة Press Free Bury الإنجليزية، أرشيف الصحافة الإنجليزية، بتاريخ ١٤ فبراير ١٨٨٥.
2 صحيفة Constitution Tyrone، الجمعة ٢٢ يونيو ١٩٠٠، أرشيف الصحافة الإنجليزية.

التراب السوداني. واتجه خطباء التيار القومي الإيرلندي للترسيخ لرمزية الثورة المهدية في مقاومة البريطانيين من خلال إطلاق لقب «المهدي الإيرلندي».. «Irish Mahdi» على أبرز زعماء حركات التحرر الإيرلندية.. تشارلز ستيوارت بارنيل[1]. وقد وثقت لهذه الحادثة تحديداً صحيفة (Freeman's Journal) من خلال تغطيتها للتظاهرة الشعبية القومية الإيرلندية الحاشدة التي شهدتها مقاطعة تبريري بجنوب إيرلندا- «County Tipperary». وأشارت الصحيفة لمقاطعة الحضور للمتحدثين في أكثر من مناسبة بهتاف.. Cheers for the Mahdi.. بعدما تم عمل استعراض تقدم فيه رجلٌ عُلّقت على صدره شارة تقول: (Our Mahdi) وقد اعتمّ ذات الرجل بعمامة وتزيّا بالزي الأبيض الكامل وهو يمتطي جواداً ليقود مجموعة من الجماهير بينما كان جواده يتوثب عالياً وسط صيحات أُطلقتها الجماهير الإيرلندية وصفتها الصحيفة ذاتها بـ «صيحات متقطعة سودانية الطابع» أو (Interval yells of Soudanese character). وقابل الحضور ذلك المشهد بالتحية والابتهاج أينما حل صاحب الحصان.

وفي المظاهرة ذاتها، أثنى السياسي القومي الإيرلندي البارز «Mr.P.O'Ryan» على «بارنيل» ووصفه بالمهدي الإيرلندي «Irish Mahdi» الذي سيمضي على خطى سميه

1 بارنيل (١٨٤٧-١٨٩١): هو تشارلز ستيورات بارنيل، زعيم قومي تاريخي عُرف بقيادة التيار المنادي بحق الحكم الذاتي للشعب الإيرلندي.. وهي الحملة التي عُرفت في أدبيات تاريخ حركة التحرر الإيرلندية بحملة «Home rule ». ولد بمقاطعة «ويكلو» الواقعة بشرق الجزيرة الإيرلندية بمحاذاة الحدود الجنوبية للعاصمة دبلن. إنتمى في وقت مبكر لحركة القوميين الإيرلنديين على الرغم من من انتمائه اجتماعياً لأسرة انجلو- إيرلندية يمكن تصنيفها بسهولة كواحدة من الأسر النافذة بطبقة ملاك الآراضي في الجزيرة الإيرلندية.كان عضواً قيادياً بمجلس العموم البريطاني من حيث تزعمه لكتلة نواب الحكم الذاتي الإيرلنديين بالمجلس نفسه منذ ١٨٨٠. زج به الإنجليز في سجن كيلمينهام بدبلن في أكتوبر ١٨٨١وحدث ذلك في أعقاب الجدل الذي انتظم إيرلندا بخصوص تمرير قانون إيجارات الآراضي الذي تبنته حكومة اللبراليين البريطانية برئاسة غلادستون. كل ذلك أدى لتنامي شعبية جارفة لبارنيل بأواسط الإيرلنديين مما أجبر البريطانيين على التفاوض معه وهو حبيس وراء قضبانهم، فخرج منتصراً بعدما أُجبرت السطات الإنجليزية على توقيع اتفاقية «كليمينهام» الشهيرة معه في مايو ١٨٨٢. وصفه عدد من المؤرخين بالقائد المتخم بالمواهب السياسية والكاريزمية كرقم يصعب تجاوزه لأي مهتم بتاريخ إيرلندا وبريطانيا على حد السواء. توفي بارنيل في ١٨٩١ مخلفاً من ورائه الركائز الأساسية التي إنبنت عليها حركات القوميين الإيرلنديين التحررية والتي انتهت بجزيرتهم عند الاستقلال عن بريطانيا واعلان جمهورية إيرلندا قبل انقضاء العقد الثاني من القرن العشرين. ما زال هناك ميدان فسيح باسمه في قلب العاصمة الإيرلندية «دبلن «يقود إلى شارع يحمل اسم ذات الزعيم التحرري الإيرلندي.

الأصلي في السودان والذي سينتصر وسيسخر في النهاية من مخططات أعدائه الإنجليز البائسة[1]. هذا الاتجاه لإلحاق لقب «المهدي الإيرلندي» ببارنيل، سارت عليه صحف إنجليزية عديدة فأبقت- سواء أن بقصد أو بغير عمد - على انتصارات الثورة السودانية لتسكن بحرزٍ أمين في قلب الذاكرة الصحافية البريطانية حتى حينما كانت تلك الصحف تتصدى لمناقشة قضايا مختلفة على نحو المسألة الإيرلندية[2].

وعلى الرغم من صعوبة الجزم بتوحد كل تيارات القوميين الإيرلنديين خلف بارنيل كقائد تاريخي للحركة الوطنية الإيرلندية.. إلا أنه من الممكن القول باتفاق معظم التيارات القومية - بما في ذلك القوميين الإيرلنديين الذي كانوا على خلاف مع بارنيل- على مساندة الثورة المهدية. وليس أدل على ذلك من شيء مثل إيغال صحيفة شعبية مهمة عرُفت بخطها التحريري المعادي لبارنيل كصحيفة «Connaught Telegraph»[3]، نحو تناول أنباء الثورة السودانية باهتمام متعاظم وسياسة تحريرية رسخت صورة المهدية في ذواكر قرائها كحركة تحرر وطني تقاوم قوى استعمارية غازية.. ففي ٧ فبراير ١٨٨٥ كتبت الصحيفة ذات التوجه القومي المار ذكرها والتي كانت تصدر من مقاطعة «Mayo» بغرب إيرلندا.. مقالاً نارياً أشارت فيه لعدالة القضية التي يقاتل من أجلها السودانيون جحافل بريطانيا الغازية تحت رايات الثورة المهدية، منوهة في الوقت نفسه لضرورة التعاطي بحذر مع المعلومات التي يوفرها البريطانيون عن مواجهاتهم مع قوات المهدية حين يجنح اعلامهم الحربي دائماً للتقليل من خسائرهم وتضخيم خسائر الخصم، وفى ذلك تحديداً قالت:

«عندما نتعامل مع تلك الحسابات، قد يكون من الأسلم دائماً ضرب عدد ضحايا البريطانيين على الأقل بالرقم ٥ وقسمة العدد الكلى لخسائر اعدائهم السودانيين على

1 أرشيف الصحف الإيرلندية.. صحيفة **Freeman's Journal**، عدد ١٣ أبريل ١٨٨٥.

2 ورد وصف بارنيل بالمهدي الإيرلندي في عدد من الصحف البريطانية المهمة على نحو.. شيفيلد ديلي تليغراف في عددها الصادر بالخميس ٢٦ فبراير ١٨٨٥، **Dundee Courier** في عددها الصادر بالجمعة ٢٧ فبراير ١٨٨٥، وسترن ديلي بريس.. فبراير ١٨٨٥.

3 صحيفة قومية إيرلندية لم تكن على وفاق مع بارنيل.. أشتهرت بشعبيتها وسط المزارعين واصحاب المتاجر الصغيرة، انظر مايكل دي ني، مصدر سابق، ص٨٩٣.

نفس الرقم للوصول إلى تخمين موضوعي للخسائر الحقيقية من الجانبين».

وسخرت الصحيفة من ادعاءات البريطانيين بمقدرة غردون على الصمود داخل الخرطوم المحاصرة لسنة أخرى ومزاعم الإنجليز التي كانت تؤكد على القدرات المهولة لجيش حملة الإنقاذ في فعل ما خطط له في السودان وفي ذلك قالت:

«في يوم الخميس الفائت، حمل التلغراف انباءً مريعة للبريطانيين مفادها انه قبل أن يصل ويلسون إلى الخرطوم.. كانت المدينة المحاصرة ترقد بسلام في قبضة مقاتلي المهدي الحازمين. ولم يعد بوسع أحد التحقق من مصير غردون أو أي جندي بريطاني أو مصري بداخل أسوار مدينة الخرطوم المحررة».

ويبدو جلياً ان الصحيفة أرادت أن تقود قراءها نحو نهايات عبرت فيها بشكل واضح عن إصطفافها بخندق الثورة المهدية في حربها ضد البريطانيين حين أشادت بصمود السودانيين في صد تقدم القوات البريطانية بآراضيهم.. وفي ذلك قالت:

«إن أتباع المهدي.. ذلك الزعيم الإفريقي العظيم.. يقاتلون من أجل الذود عن أراضيهم ومن أجل ترابهم الذي لا يستطيع أي مغامر بريطاني أن يدعي لنفسه ملكية فيه. إنهم يقاتلون متسلحين بأخلاقهم وبالمزايا التي توفرها لهم ظروف بلادهم الطبيعية. ومما يبدو جلياً للجميع الآن، فإن كل عاشق مخلص للحرية في العالم يتمنى النجاح لجهود أولئك الرجال الذين يمارسون حقهم المقدس في صد جحافل الغزاة الذين اعتدوا على حدودهم بقواتهم الأجنبية المقيتة! إن قوات المهدي لا تخشى المعارك والمواجهات.. وقد دللت الكوارث العديدة التي أذاقوها للإنجليز بأيديهم على خبرة القيادة التي يعملون تحت إمرتها. وبالنظر لإيمانهم الراسخ بالمهمة المقدسة لقائدهم، فإنه من السهل تفهم أن محاولة إخضاع هؤلاء المحاربين النبلاء بواسطة البريطانيين ما هي إلا مهمة أشبه بالمستحيلة تحت وطأة الظروف الحالية. ونحن نتمنى بدورنا أن تبقى تلك الظروف دوماً في صف أولئك الرجال الذين يقاتلون من أجل وطنهم بقدر ما نتمنى أن تتنزل الهزائم المهينة والكوارث البشعة على القوات الأجنبية الباغية»[1].

1 صحيفة «**Connaught Telegraph**»، ٧ فبراير ١٨٨٥، أرشيف الصحافة الإيرلندية.

شهدت بدايات العام ١٨٨٥ تساقط المزيد من جنرالات بريطانيا بسلاح الثورة المهدية مع تصاعد الاشتباكات العسكرية بين حملة الإنقاذ الإنجليزية الغازية وقوات أصحاب الأرض في صحراء الشمال. واستثارت تلك الوقائع ما يكفي من الحنق في صفحات الإعلام البريطاني المقروء مما أدى إلى انغماس بعض الصحف البريطانية حتى أخمص القدمين في سياسة دعائية معادية للثورة المهدية درجت على وصف محمد أحمد المهدي بالنبي الكاذب أو «False Prophet». والتقطت القفاز صحيفة إيرلندية مهمة على نحو «United Ireland» حينما أبانت عن قراءة متقدمة لوقائع الأحداث تجاوزت طبيعة الخندق الديني والفكري المختلف الذي انطلقت منه الثورة المهدية نحو الدعوة الضمنية لوحدة مستضعفي الإمبراطورية وتمترسهم في خندق واحد ضد أعداء الحرية «الإنجليز» وفي سبيل ذلك جنحت لتصوير قائد الثورة السودانية في قالب نمطي محبب لوجدان الإيرلنديين بالتزامهم الكاثوليكي الصارم، فكتبت بلهجة حماسية رداً على تلك السياسة الدعائية الإنجليزية:

«بالنسبة لنا هو ليس بنبي كاذب.. بل إننا نعتبره أحد قراء تعاليم المسيح ممن أرسلتهم السماء.. فهو جدير بثقتنا فيه لأنه هبة لكل الشعوب التي ترزح تحت وطأة المعاناة»[1].

واستبقت صحيفة «Irishman» تلك الصحيفة المار ذكرها في تصدّيها لدعائيات البريطانيين ضد المهدية حين تناولت بأسلوب موغل في السخرية المتفردة هذا المنطق البريطاني المضطرب فيما يختص بمسألة النبوة الكاذبة التي سعوا لإلصاقها بقائد الثورة السودانية، متخذة فيما احتواه من مسلمات ساذجة تفسيراً يهزم الحجة ذاتها في مهدها الباكر، فقالت فيما يلي ذلك:

«يجب علينا ألا نشجب النبي لأن أعداءه يعلنون أنه كاذب. حتى هذه اللحظة يمكن القول بأنه حقيقي كما الفولاذ. والحقيقة التي تفرض نفسها كسيف من الحديد هي التي تكون مقنعة على الدوام. إنها الشيء الوحيد الذي يجعل الحق يتوهج في العقل

1 صحيفة «Ireland United»، ٢٦ يناير ١٨٨٥.

الإنجليزي. لو قصر المهدي نشاطه على الصلوات وإلقاء المواعظ لوقع في الشباك التي نصبها له أعداؤه. إن الرجل المنتصر هو النبي الحقيقي. وها هو المهدي ينتصر ويقدر على أخذ الثأر من أعدائه»[1].

ولم تكن وقائع شهر فبراير من العام ١٨٨٤ بأقل كارثية على جنرالات بريطانيا في السودان من فبراير الذي تلاه، وذلك أنه بحلول طلائع فبراير ١٨٨٤.. أسفرت مواجهات قوات الأمير عثمان دقنة مع قوات الجنرال الإنجليزي فالنتاين بيكر عن هزائم ثقيلة تكبدها الأخير في معارك شرق السودان. كل ذلك تزامن مع استدارة عجلات قطار ما على سكك حديد مدينة القاهرة، كان يقل الجنرال غردون في رحلة تتجه جنوباً إلى الخرطوم كحاكم عام على السودان، وهي ذات الرحلة التي إنتقشت على صحائف التاريخ كقافلة قدُر لها أن تتخذ مسار ذهاب بلا عودة.

أنباء مهمة كتلك، طارت أصداؤها لأرجاء العالم القصية مما استدراج قلم التحرير بصحيفة «United Ireland» لكتابة مقال عاصف بعنوان «أسرع أيها المهدي» تصدر افتتاحيتها في فبراير ١٨٨٤، فأزجت فيه ما يكفي من الثناء على نضالات السودانيين ضد البريطانيين ووصفت فيه قائد الثورة المهدية بالقائد الوطني الذي هزت انتصاراته نظام القهر البريطاني الذي كانت ترزح تحته إيرلندا. وأُختتم المقال بعبارة موجعة نالت ببأسها من إصطبار البريطانيين على تأييد الإيرلنديين المتعاظم للثورة المهدية.. حين تمنى المحرر بصدق مصيراً نهائياً لغردون يشابه مصير بيكر الذي لاقاه في مواجهاته مع الثورة السودانية. وفيما يلي نص المقال:

«فلتصفق أكفنا جميعاً للمهدي.هذا المسلم الذي نعده من أميز المسلمين. كلما سمعنا من أخباره المزيد كلما زاد حبنا وميلنا له. في هذه الأيام أسفرت مواجهاته في مدينة طوكر مع الجنرال الإنجليزي بيكر عن مقتل ألفين من أعدائه كما غنم منهم أربعة مدافع كروب ومدفعين رشاشين من نوع Gatling مع عدد لا حصر له من الجمال والغنائم مما أتى به قطار بيكر المحمل بكل تلك الأشياء إلى السودان. والذي لا ريب

1 «صحيفة Irishman»، ١٥ ديسمبر ١٨٨٣، أرشيف الصحافة البريطانية.

فيه، أن جميع ما حدث ما هو إلا جزء من كلٍّ أكبر من ذلك. والأفضل من ذلك كله، هو أن الإنجليز الآن صار مستحيلاً عليهم تماماً إنقاذ سنكات أو الخرطوم. ولا يستطيعون عمل شيء حيال تلك الانتصارات التي هزت نظام القهر البريطاني الذي نرزح تحته في بلادنا. هذا الزعيم الوطني «أي المهدي» قد ينجح في طرد الغزاة الذين هاجموه إلى شواطئ البحر الأحمر محققاً بذلك رغبة كل محب للحرية. إننا نثق أن الأنباء التي ستلي ذلك ستكون عن مصير مشابه لغردون كمصير بيكر تماماً عندما يتقدم غردون نحو الخرطوم وهو محمل بالأموال. ليس هناك من شيء سيمنحنا ارتياحاً أكبر من تدوين التاريخ الذي يسجل للمهدي انتصاره الكامل في السودان ومن ثم وصول جحافله المنتصرة إلى مشارف أسوار مدينة القاهرة. من المرجح أن الإنجليز سيرسلون المزيد من القوات للدفاع عن موقعهم بمصر. إن يد العناية الإلهية ستسقط بقوة على البريطانيين الآن جزاءً وفاقاً على حروبهم الآثمة واحتلالهم لآراضي الشعوب. وسيحتفل جراء ذلك كل قلب صادق في القارة الأوروبية بتلك الأحداث».

هذا المقال الممجد للثورة المهدية وقائدها قُدر له أن يثير ما يليق بكلماته الملتهبة من زلزلة عميقة في الأوساط النخبوية السياسية بإنجلترا وإيرلندا. ففي الجزيرة الإيرلندية، انتشر المقال كالعدوى التى لا يجد الجسد فكاكاً منها وذلك حين تناقلته أو أشارت إليه أكثر من ستة صحف إيرلندية معروفة بانتشارها الواسع[1]. وفي الشواطئ المقابلة للبحر الإيرلندي، اندفعت صحف بريطانية عديدة لاستدراج قرائها نحو الإطلاع على ذات المقال من دون أن تغفل عن التلويح باستنكارها لتجاسر القوميين الإيرلنديين على هذا التأييد السافر للثورة المهدية من داخل أسوار الإمبراطورية البريطانية [2].

1 انظر أرشيف الصحافة الإيرلندية.. الصحف هي **Flag of Ireland** – ٩ فبراير ١٨٨٤، **Northern Echo** – ٩ فبراير ١٨٨٤، **Cork Constitution** – ٩ فبراير ١٨٨٤، **Dublin Daily Express** – ٨ فبراير ١٨٨٤، **Kerry Evening Post** – ١٣ فبراير ١٨٨٤، **Irishman** – ١٦ فبراير ١٨٨٤.

2 بعض الصحف البريطانية التي نشرت مقال **Speed the Mahdi** أو أشارت إليه هي: **London Daily News** –٩ فبراير ١٨٨٤، **Londonderry Sentinel** – ٩ فبراير ١٨٨٤، **York Herald** – ٩ فبراير ١٨٨٤، **Nottingham Journal**، ٩ فبراير ١٨٨٤، **Inverness Courier** –٩ فبراير ١٨٨٤، **Dundee Courier** – ٩ فبراير ١٨٨٤، **Western Morning News** – ٩ فبراير ١٨٨٤، **Dundee Advertiser** –١٢ فبراير ١٨٨٤، انظر أرشيف الصحافة البريطانية.

وبينما كانت قوات الثورة المهدية تزحف من كردفان نحو مدينة الخرطوم سعياً لكسب معركة التحرير النهائية ضد القوى الاستعمارية، كانت مساجلات النواب في البرلمان البريطاني قد بدأت في الانجراف نحو مسارٍ اتسم بالحدة والمواجهة السافرة بخصوص شئوون السودان. مستغلاً ما أثاره مقال صحيفة «United Ireland» المار ذكره من مناخ حانق ببريطانيا، تقدم النائب القومي الإيرلندي عن مقاطعة ويكلو «ماكون» بمسائلة برلمانية لرئيس الوزراء البريطاني غلادستون عن مقال «أسرع أيها المهدي»، استلزمت قراءته للمقال كاملاً من منبر البرلمان البريطاني. وتعمد «ماكون» استدراج غلادستون نحو شراك منبسطة من الحرج المنصوب بحذاقة حين تساءل بمكر إن كانت حكومته تنتوي اتخاذ أي إجراء بخصوص الجهة الناشرة للمقال المؤيد للثورة السودانية. ولم يجد غلادستون الذي بوغت بإثارة تلك المسألة، مناصاً من التقدم ليدلي بكلمات فضفاضة رداً على ذلك حين قال:

«مع احترامي لهذا المقال، فإنني أجده يجتذب بقوة اهتمام كل قارئ يطلع عليه. المقال يحتوي على تعبير واضح عن رأي معين يصف المهدي بالمناضل الذي يكافح من أجل حرية وطنه – صيحات استحسان مقاطعة من مناصري بارنيل في البرلمان – مثل هذا الموضوع، لا أستشعر حياله مسئولية تدفعني لصياغة أي أجابة عليه الآن. كما لا أعتقد أنني بحاجة لإبداء أي رأي معين بخصوص ما قاله العضو الموقر في ذات السياق». وفي ختام حديثه، أكد غلادستون أن حكومته لن تقوم بأي إجراء تجاه الجهة الناشرة للمقال [1]. ويبدو جلياً هنا، أن تحفظ رئيس الوزراء البريطاني عن التورط بأي إجراءات مسائلة في هذا الإطار كان يستمد مبعثه مما نُسب إليه من تصريحات وصفت الشعب السوداني بالشعب الذي يقاتل من أجل حريته. ولابد أن وليام أوبراين رئيس تحرير صحيفة «United Ireland» التي نشرت المقال والنائب القومي الإيرلندي عن منطقة «Mallow» بجنوب إيرلندا، قد تململ في مقعده كثيراً وهي يشهد نظرات البرلمانيين الإنجليز الموغلة في الغضب وهي تُسدد نحوه كطلقات لا تخطئ هدفها أبداً. بيد أن

1 صحيفة «Scotsman»، ٩ فبراير ١٨٨٤، أرشيف الصحافة البريطانية.

أوبراين الذي عُرف بصلابته في مجابهة الإنجليز تقدم ليجاهر برأيه الذي أكد فيه تبنيه وإيمانه الكامل بكل كلمة جاءت بذلك المقال من تأييد للثورة المهدية وقائدها ما عدا الجزئية التي تتحدث عن مصير غردون، عطفاً على موقف غردون المتعاطف مع القضية الإيرلندية[1].

وأبقت صحيفة «Flag of Ireland» على تلك المساجلات البرلمانية الساخنة بخصوص الثورة المهدية على سطح الأحداث التي أسرت اهتمام القراء حين نشرت في يوم السبت ١٦ فبراير ١٨٨٤ تقريراً أعاد استقراء الوقائع التي سبقت قبل أن يخلص إلى دمغ القوات البريطانية التي تحارب الثورة المهدية.. بصفة» قطاع الطرق الذين يستحقون قَص الرقاب». وذلك على نحو ما جاء في الصحيفة ذاتها:

«إن الغزاة الذين قدموا إلى السودان من الإنجليز والمصريين ليس لهم أي حق يسوّغه أي قانون في هذا البلد». ونبهت الصحيفة مجدداً إلى أن رئيس الوزراء البريطاني الذي كان حاضراً بدا وكأنه لم يكن مهيئاً لسجال النائب القومي الإيرلندي ماكون وهو ما أرجعته ضمناً إلى تنامي قناعات عند غلادستون نفسه جعلته يُؤْمِن بضرورة أن يُترك السودان للسودانيين والذين بحسب وصف الصحيفة.. «أثبتوا كفاءتهم في الذود عن وطنهم برماحهم المرتفعة وقلوبهم الباسلة». وفي ختام تقريرها قالت الصحيفة:

«إن إعلان الحكومة البريطانية بأنها أرسلت غردون إلى السودان بلا عتاد عسكري في يديه، لم يكن سوى ترتيب منها لتسليم السودان للمهدي المنتصر. وذلك يؤكد مرة أخرى أن أي عدو لا يكون على حق في عيني إنجلترا إلا حين ينتصر في أرض المعركة»[2].

بيد أن ذاكرة البريطانيين التي تتأبّى أن تجد الأحداث العاصفة إلى حصونها المنيعة سبيلاً لم تكن قادرة على تناسي ذلك المقال اللاهب والذي اقترن بأوج انتصارات الثورة المهدية عليهم.. حتى بعد مرور خمسين عاماً على صدوره.. فكتبت صحيفة «Western Daily Press» البريطانية في ١٠ فبراير ١٩٣٤ منوهة إلى انقضاء خمسين

1 «Scotsman»، نفس المصدر بذات التاريخ.

2 صحيفة «Flag of Ireland»، ١٦ فبراير ١٨٨٤ ،أرشيف الصحافة الإيرلندية.

عاماً على ذلك المقال الذي نسبته للقيادي القومي الإيرلندي وليام أوبراين ومذكرة بتأييده السافر للمهدويين ضد البريطانيين وأمنياته في أن يلقى غردون مصيره الذي انتهى إليه بالفعل[1]. مما يجدر ذكره هنا، أن وليام أوبراين أو «مهدي مدينة ويستبورت» كما عُرف لاحقاً بين زملائه من القوميين الإيرلنديين، كان جثمانه يرقد بسلام تحت ثرى الجزيرة الإيرلندية بفترة سبقت صدور تلك النسخة من صحيفة «Western Daily Press» بست سنوات بالتمام والكمال! ذلك الزعيم الإيرلندي الثائر الذي كان مستلقياً على ظهره بعينيه المغمضتين.. لعله لم يكن يدري حين أقدم على نشر ذلك المقال الملتهب بصفحات «United Ireland» بأنه قد اتى فعلاً يشابه صب الزيت على نار خامدة بصدور رفاقه من القوميين الإيرلنديين، فما لبث أن دفعهم ذاك الوهج المنبعث من أوارها نحو تكأكؤ أقلام صحافتهم من بعد، للمجاهرة بمساندة الثورة المهدية وسوق الأماني الغاليات نحو انتصارها الساحق على القوى العسكرية البريطانية. ولم تكن النهايات المغالية التي اتجهت لها أماناهم لتتنزل على الوجدان الجماعي للبريطانيين بأي قدرٍ من القبول أو التسامح مع طبيعته المشتطة. ومن ذلك أنه ليس هناك بنموذج أكثر تعبيراً عما سبق بمثل ما كتبته صحيفة «The Nation» الإيرلندية في ١٨٨٥ واصفة تورط البريطانيين في حروب السودان لإخضاع الثوار المهدويين بأنه أشبه بـ «تخليط معتوه فاسد حتى أنه يمكن أن يقال.. إن انتصر المهدي على الجنرال البريطاني ولزلي ونصب مشنقة عالية لغردون وباع كل الجنود البريطانيين كأرقاء، فإن كل شعوب العالم المتحضر ستحييه قائلة له: أحسنت الفعل». هذا المصير المأساوي الذي أحب محرر الصحيفة أن ينتهي إليه الإنجليز، لم يعجز أن يمهد له بقلمه الحاذق حين تحدث عن مواجهاتهم مع المهدويين قائلاً:

«على الرغم من إمكانية إفلات إنجلترا من مخاطر كثيرة تتهددها إلا أنها لن تكسب شرفاً ولا بعضاً من المجد من هذا الصراع». ونوه المحرر إلى أن هؤلاء السودانيين الذين أعملت فيهم بريطانيا آلتها الحربية هم ذات الرجال الذي أقر رئيس وزراء بريطانيا

1 «**Western Daily Press**»، ١٠ فبراير ١٩٣٤، أرشيف الصحافة البريطانية.

بأنهم «رجال يقاتلون من أجل حريتهم» مما يوضح حجم التناقض المأزقي الذي انجرّت نحوه الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس[1]. وفي السياق ذاته، جنحت صحيفة «Tipperary Leader» لتناول وقائع تحرير الخرطوم بواسطة قوات الثورة المهدية بلهجة شاجبة للمناحات الإنجليزية على مقتل غردون بسلاح الثورة السودانية داخل أسوار المدينة مشيرة إلى أن الأخير قد لقي النهاية التي يستحقها.. فقالت في ذلك تحديداً:

«ليس هناك صاحب عقل سليم يتغشاه الأسف على مقتل هذا البطل المسيحي كما يحلو للبريطانيين مناداته من دون أن يملوا من ذلك». ونوهت الصحيفة إلى أن غردون هو الذي اختار الحرب لذا يجب عليه تحمل تبعاتها وذلك أنه «قد تورط في مجازر تعسفية بحق الآخرين. لذا فإن تعرضه لتلك المجازر لن يسيء للعدالة بأي شيء»[2]. وسخرت «Freeman Journal» بدورها من صفات النبل اللامتناهية التي أسبغها البريطانيون على بطلهم الذي سقط مضرجاً بدمائه على عتبات قصره فأشارت إلى أن هذه الشمائل الموغلة في النبل.. لا تمت بأي صلة للإنجليز تحديداً[3].

ويُعد «جي جي أوكيلي» السياسي القومي الإيرلندي البارز ووالعضو البرلماني عن دائرة بلدة روسكمون بغرب الجزيرة الإيرلندية، من أوائل السياسيين الذين أبدوا اهتماماً وحماساً بالغاً للوقوف على الثورة المهدية باعتبارها حركة مقاومة وطنية للسيطرة البريطانية في المنطقة مما يتوافق مع أجندة التيار القومي الإيرلندي المعادية للإمبريالية. وحمل حماس الاستكشاف اوكيلي لاستصحاب أخيه الرسام الشهير الويساس اوكيلي للسفر إلى السودان بهدف مقابلة المهدي بعد انتصاره على حملة الجنرال الإنجليزي وليم هكس في شيكان في ١٨٨٣. ويقول فيرغس نيكول في كتابه بعنوان «غلادستون وغردون وحروب السودان» أن مصطفى ياور حاكم دنقلا التركي آنذاك قد منع اوكيلي من التقدم لأكثر من الحدود الجنوبية لمدينته. تلك الرحلة التي مُنع أوكيلي عن الوصول إلى نهاياتها أثارت جدلاً كثيفاً دفع اللورد فيتزموريس وكيل وزارة الخارجية

1 «The Nation»، ٣١ يناير ١٨٨٥، أرشيف الصحافة الإيرلندية.

2 «Tipperary Leader»، ١٣ فبراير ١٨٨٥.. انظر تاوننده، مصدر سابق.

3 « Freeman Journal »، ١٤ فبراير ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.



رسم كاريكاتوري إيرلندي يشير إلى إذعان جنرالات بريطانيا للمهدي المنتصر، ويظهر أحدهم في الصورة وهو يتوّج المهدي بتاج الإمبراطورية.
صحيفة «United Ireland»، ٢٢ مارس ١٨٨٤.

البريطانية لتبرير إجهاضها بسبب تعارضها مع سياسات بلاده العامة. كل ذلك لم يمنع اوكيلي من التعاطف الصريح والمعلن مع أهداف المهدي الثورية وتحدث عنه كبطل إسلامي جديد[1]. وعُرف عن أوكيلي تقييمه الشخصي للمهدي كقائد سياسي ذي رؤي إصلاحية اجتماعية واقتصادية الطابع. ويبدو أن حماسته في مساندة المهدية ذهبت به إلى أبعد من ذلك بكثير حين جاهر بمساندة أهدافها كثورة تحرر في مجلس العموم وعبر

1 نيكول: غلادستون وغردون وحروب السودان، Publisher: Pen &Sword، Souh Yorkshire، نسخة الكترونية، نسخة العام ٢٠١٣، ص ١١٠.

عن أشواقه: «لتمتد أيدي هذا البطل الإسلامي الجديد لتلتقي مع جهود الاشتراكيين الفرنسيين والالمان.. لأنه رجل يتفق قلبه معهم وان كان هو (أي المهدي) أكثر عمقاً منهم في هذا الشأن»[1]. وشهدت صفحات صحيفة «Freeman» الإيرلندية تحليلات راتبة بقلم أوكيلي لوقائع مواجهات حملة الإنقاذ الإنجليزية مع قوات الثورة المهدية في صحراء شمال السودان. وفي هذا الشأن تحديداً، كتب أوكيلي مقالاً عميق المضمون قبل وصول أنباء معركة «أبو طليح» الشهيرة لصحافة بريطانيا، تنبأ فيه بالصعوبات التي ستكتنف مسار القوات البريطانية الغازية بسبب تصميم السودانيين على المقاومة تحت رايات الثورة المهدية.. وذلك على نحو قوله:

«في رأيي الشخصي، أعتقد أن الجنرال ولزلي (قائد الجيش الإنجليزي) ومصطفى باشا (حاكم دنقلا) كليهما مازالا في حالة عجز كامل عن زعزعة سيطرة المهدي على القبائل هناك والتي كان مبعثها إنتقاله من نصر إلى اخر في فترة امتدت إلى ثلاث سنوات».

وأبان أوكيلي من خلال مقاله المار ذكره عن معرفة وثيقة بتفاصيل الجغرافيا المناطقية والقبلية بمنطقة شمال السودان. ذلك النوع من الإحاطة بالدقائق الخليق برجلٍ مثله خبر تلك الأقاصي من خلال التجوال بقدمين مغبرتين بتراب السودان من قبل، دفعه للجزم بمقدرة المهدويين على الاستفادة من أخطاء البريطانيين العسكرية هناك. لذا فقد كتب أوكيلي منتقداً تأخر القوة البريطانية التي أرسلها ولزلي من كورتي نحو المتمة بقيادة ستيوارت بسبب تسكعها بين آبار جقدول والمتمة..ومبيناً في الوقت نفسه تلك السانحة المهمة التي سيفلح في استغلالها السودانيون بخنادق المقاومة لقلب الطاولة لصالحهم.. وذلك على نحو قوله:

«لقد انقضى أسبوعان منذ وصول أول طابور عسكري للجنرال ستيوارت بآبار جقدول وظهور تلك القوة بأبي طليح. هذه الحقائق، ستتيح للمهدي ومجلس شوراه

1 مقال تحت عنوان مفكرة رجل إيرلندي.. ل **Padraig Yeates**: صحيفة التايمز الإيرلندية 24 أغسطس 2009.

العسكري فسحة زمنية وافرة لوضع خطة متكاملة للمقاومة وتركيز قوات عسكرية مقدرة بتلك البقعة التي وقع الاختيار عليها كأرض للمعركة. كل الاعتبارات السياسية والعسكرية والدينية ستدفع المهدي لبذل مجهودات فائقة لسحق أول قوة غازية من الكفار تلاقيه هناك»[1].

ولم تمض سوى أيام قليلة قبل أن تتوارد وقائع ملحمة «أبو طليح» لأصقاع أوروبا بما تناقلته ألسنة الرواة من بسالة حديدية أظهرها السودانيون في مواجهة جحافل بريطانيا حين تمكن المهدويون في تلك الملحمة من كسر المربع العسكري البريطاني فصالوا بخيلهم ورماحهم بداخله وغرسوا راياتهم في موضع القلب منه. أحداث مهمة كتلك، دفعت أوكيلي مجدداً للكتابة بإعجاب بيّن عن شجاعة السودانيين الذين حطموا أسطورة المربع الإنجليزي واصفاً اياهم بالرجال الذين يخوضون المعارك من أجل نصرٍ لن يثنيهم عن تحقيقه إلا الموت، وفي ذلك قال:

«هذا الافتراض بأن المربع العسكري الإنجليزي لا يمكن قهره ما هو إلا مجرد أسطورة أُثبت زيفها حين واجهها مدٌّ من الرماح التي حملها رجال لن يثنيهم عن النصر سوى الموت، حتى باستعمال أحدث الأسلحة النارية[2] لا يوجد ضمان للانتصار عليهم»[3].

ويبدو أن اهتمام الإيرلنديين بأنباء مقاومة الثورة المهدية للنفوذ البريطاني قد ساق صحافتهم نحو تغطية كل تلك التفاصيل بذائقة مختلفة حملتهم على اقتراب موضوعي من الحقائق بعيداً عما كانت تروج له بعض صحف بريطانيا من مسلّمات يمكن إدراجها بيسر في إطار الدعائيات الحربية الشائعة بذاك الوقت. وفي السياق ذاته، نشرت صحيفة «Irish Examiner» الإيرلندية الذائعة الصيت موضوعاً تحت عنوان «مقابلة مع المهدي» قام فيه المراسل الصحفي الفرنسي الأصل «أوليفر باين» بوصف وقائع مقابلته لقائد

1 صحيفة «Freeman Journal»، ٢٢ يناير ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

2 ذكر أوكيلي تحديداً سلاحاً نارياً يسمي «Breechloader».. وذلك كان من أحدث الأسلحة النارية أنذاك لسهولة تعبئته بالذخيرة.

3 تاونيند، مصدر سابق،ص٢١٩.

الثورة السودانية حيث ذكر أن اللقاء قد تم بقرب مدينة الأُبيّض بغرب السودان. وفي بداية اللقاء يقول «باين» إن المهدي قد حيّاه بابتسامة عذبة وصافحه بود وترحاب. ثم يذكر باين أنه أشار إلى أنه ليس مسيحياً وذكر أنه أسلم واستبدل اسمه الأصلي باسم من أسماء المسلمين ولكن المهدي علق على ذلك قائلاً:

«إن كان اعتناقك الإسلام بغرض أن تصلنا وتبقى بيننا سالماً دون أن يصيبك مكروه فإننا نفضّل أن تبقى على دينك الأصلي، فنحن لا نُكره الناس حتى يكونوا مسلمين». ويقول «باين» أنه أوضح للمهدي أن عدداً من الأوروبيين يعرفونه كقائد يقاتل من أجل حرية شعبه واستقلال بلاده بينما يرى الإنجليز عكس ذلك. لقد عكست هذه المقابلة إلمام محمد أحمد المهدي التام بالعلاقات الدولية في حينها حيث أظهر – بحسب الصحيفة ذاتها– تفهماً لطبيعة الصراع بين قوى عالمية أساسية على نحو بريطانيا وفرنسا ووعياً مقدراً بتداعياته على عالم القرن التاسع عشر. كما أبان عن إحاطة كاملة بالثورة العرابية وتفاصيلها وأظهر تعجبه للصحفي الفرنسي من عدم مساندة فرنسا لعرابي على الرغم من معارضته للوجود البريطاني في المنطقة[1].

وانتحت صحيفة إيرلندية أخرى مهمة على نحو «Freeman Journal» منحى أبعد من ذلك، حين تحدثت عن تنسيق مسبق بين القوميين الإيرلنديين والفرنسي أوليفر باين من خلال اجتماع سري عُقد بالعاصمة الفرنسية باريس قبل وصول باين إلى السودان فعمدت الصحيفة لنشر تفاصيله بأثر رجعي. وفي ذلك الاجتماع، أقر المجتمعون برمزية المهدي كزعيم يعمل على تحرير شعبه من ربق الاحتلال الأجنبي وعدوا الأمر برمته كحملة واسعة للأخذ بالثأر من العدو المشترك لأحرار العالم «الإمبراطورية البريطانية». وتتحدث وقائع المقابلة عن عرض القوميين الإيرلنديين لمساندة المهدية من خلال الصحفي الفرنسي – حيث عرضوا مساعدة ٥٠٠ ضابط إيرلندي من خيرة الجنرالات الذين خاضوا حروب التحرير في الثورة الأمريكية وتحدثوا عن استعداد هؤلاء للسفر فوراً للسودان للمحاربة تحت إمرة الثورة المهدية ضد البريطانيين. كما تحدثت الصحيفة

1 صحيفة Irish Examiner، ١٧ ديسمبر ١٨٨٤، أرشيف الصحافة الإيرلندية.

عن استعداد القوميين الإيرلنديين لتزويد الثوار السودانيين بتكنولوجيا الديناميت الحربية لاستعمالها ضد البريطانيين[1].

وبالعبور إلى الضفة الأخرى من النهر يبقى من العسير على كل ذهن حاذق إغفال ما فرضته انتصارات الثورة المهدية على البريطانيين من تحول طرأ على مواقف بعض الصحف الإيرلندية المحسوبة على التيارات الموالية لاستمرار إيرلندا تحت التاج البريطاني. ومن ذلك أن بعضها قد بدأت تنساق ضمنياً في اتجاه شرعنة مقاومة المهدويين للاحتلال الأجنبي وما قد يترتب على ذلك من إستحقاقات تقتضي الإقرار بأن المجد قد يكمن في خنادق المقاومين وليس المحتلين. وما أدل على ذلك من شيء بمثل ما جاء بصحيفة «Munster News» الليبرالية اليمينية الشهيرة.. حين كتبت بتاريخ ١٤ فبراير ١٨٨٥ مبتدأة حديثها بالثناء على الجنود البريطانيين قبل أن تقول: «ولكن لابد لنا أن نتعاطف مع هؤلاء السودانيين الذين يقاومونهم.. لأنهم يدافعون عن حمى وطنهم الذي ينتمون إليه حيث أرض آبائهم وأجدادهم.. إن إنجلترا لن تكسب كثيراً من المجد في هذا الإطار»[2].

وفي ذات السياق، كتبت صحيفة يمينية أخرى عُرفت بكاثوليكيتها البائنة المقترنة بإنتمائها لتيار القوميين الإيرلنديين على نحو «Western News»، مقرة بأحقية السودانيين في نيل الحرية التي قاتلوا من أجلها ببسالة. وفي ذلك تحديداً قالت.. بأن السودانيين: «يمتلكون حقاً كاملاً في أعين شعوب العالم أجمع.. في تسنم الحرية تماماً كتلك الرياح الحارة التي تضرب الصحراء وبذات القدر من الحرية التي تنساب بها مياه نهر النيل الخالد بين ضفتيه»[3].

لم يبق التضامن مع الثورة المهدية حبيساً لأدراج صحف النخبة المثقفة الإيرلندية فقط! فقد كان الأثر الشعبي لانتصاراتها على وجدان الإيرلنديين البسطاء باقياً ومدوناً

1 مقال بعنوان: الإيرلنديون والمهدي وأوليفر باين – صحيفة «Freeman Journal» أغسطس ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

2 صحيفة «Munster News»، ١٤ فبراير ١٨٨٥، أرشيف الصحافة الإيرلندية.

3 «Western News»، ٧ فبراير ١٨٨٥، مايكل دي ني، مصدر سابق، ص ٨٩٧.

ايضاً. في ربيع العام ١٨٨٥ زار أمير ويلز- والذي أصبح فيما بعد الملك ادورد السابع.. ملك بريطانيا- زار مع زوجته أميرة ويلز بلدة ليستويل بأقصى جنوب إيرلندا. وعمل دوق المدينة (Earl of Listowel) على حشد الجموع الشعبية لتحية الأسرة الملكية الزائرة. ولكن كانت المفاجأة الصادمة أنه بمجرد وصولهم لمكان الاحتفال، انشقت حناجر الشباب الإيرلندي عن هتاف عالٍ موحد.. بحياة المهدي نصه بالإنجليزية: «Up the Mahdi.. Up the Mahdi» في إشارة لانتصارات الثورة المهدية في الخرطوم ومقتل الجنرال غردون والذي مضت عليه بضعة أسابيع. وسرى-تبعاً لذلك- ارتباكٌ واضح وسط الجميع. أثار ذلك الموقف العدائي المزيد من المواقف المشابهة في خلال زيارة أمير وأميرة ويلز لإيرلندا. وفي ١٥ أبريل كتب «آرثر أليس» -المسئول الملكي ومرافق الأمير الإدوارد - تقريراً حانقاً للملكة فيكتوريا عن تلك الزيارة جاء فيه قوله: «لا توجد أي كلمات مناسبة لوصف مدى هذا السلوك العدائي»[1].

وبينما كانت القوات البريطانية تجرجر أذيال الخيبة وهي تتقهقر منسحبة أمام قوات الثورة المهدية المنتصرة بصحراء الشمال، لم يجد القيادي القومي الإيرلندي والقانوني الأشهر ويلي ريدموند أي حائل يصده عن إعتلاء منبر البرلمان البريطاني ليقدم مرافعة متماسكة الحيثيات عن عدالة قضية الثورة المهدية في مواجهة الاحتلال البريطاني منوهاً إلى أن المهدي كزعيم ينتمي لتراب السودان. لذا فهو القيادة الأقدر على توطين السلام وجلب الحرية والتحرر لشعبه بدلاً عن حفنة من العساكر الإنجليزية. وهو ذات المجال الذي يتفوق فيه هذا القائد الوطني على غردون نفسه.وانتقد ريدموند أحداث السودان مرجعاً نتائجها للغطرسة والاستبداد الإنجليزيين. وأكد أنه يستطيع الجزم من خلال عدد من اللقاءات الجماهيرية التي حضرها بإيرلندا بأن تسعة من كل عشرة أشخاص إيرلنديين يتمنون أن يروا المهدي ظافراً منتصراً وهو نفس الاتجاه الذي تشكل عليه المزاج العام للشعب الإيرلندي. ورأى ريدموند أن المراقبين الإيرلندين يَرَوْن في

1 **The Dacres Dixon Family: 1630 - 2013** (with sub-chapters on the Earls of Listowel, the Earls of Yarborough & the Bevans).

http://www.turtlebunbury.com/history/history_family/hist_family_dacres.html

المهدي: «رجلاً ينتمي لشعب مميز بعقيدته المختلفة عن أعدائه وهو يقاتل للذود عن وطنه ودينه ضد أمة أخرى معادية لهم- يقصد البريطانيين - لذا فهو قائد وطني يحارب من أجل الحرية.. شعب كهذا سيلقى في نظر الشعب الإيرلندي كل الأماني الطيبة بالنجاح في مساعيه». وتوغل ريدموند بمرافعته النارية نحو أعماق سحيقة حين ختمها بنهاية تقريرية تسعى جاهدة لتأسيس وشائج ثورية تنطلق من مربعها المشترك نضالات الشعبين السوداني والإيرلندي ضد القوى الاستعمارية البريطانية - بتجاوز متعمد وموغل في الوعي - لمتاريس الدين والمعتقد الأيدولوجي المختلف. وقد تجسد ذلك جلياً في توظيف ما هو أشبه بالترانيم المسيحية الكاثوليكية لنصرة قائد مسلم رأى الإيرلنديون في حركته أيقونة من أيقونات حركات التحرر الإنساني بجنوب الكرة الأرضية التي يطمحون في يوم من الأيام لمد أياديهم بالمصافحة الصديقة تجاهها.. وفي ذلك تحديداً قال:

«يتوجب على الحكومة البريطانية أن تذعن لرغبة السودانيين لحكم أنفسهم وفقاً لأعرافهم وتقاليدهم الخاصة. وهي ذات الرغبة التي تتوافق مع أماني الشعب الإيرلندي ايضاً. ولطالما أبقت الأمة الإنجليزية على قبضتها المتحكمة في أحوال السودان لقهر شعبه، فإن حماسة الإيرلنديين وصلواتهم المستميتة ستبقى موجهة دوماً للدعاء بالنصر للمهدي حتى ينجح في طرد القوات البريطانية من مصر. ذلك الآوان الذي من الممكن ألا يكون بعيداً.. قد يشهد تلاقي يد المهدي مع يد الشعب الإيرلندي بالتهنئة المتبادلة على تحقيق هدفهما المشترك ألا وهو التحرر من الطغيان البريطاني»[1].

إن بين السودان والجزيرة الإيرلندية برازخ شاسعات من المساحات التي ترتمي في رحابها بحار وأديم منبسط من اليابسة تتراوح تضاريسه بين الجزر الصغيرة إلى القارات الكبيرة. حقائق جوهرية كتلك التي اشتملت عليها صحائف علوم الطبيعة والجغرافيا، كانت كافية تماماً لجعل السودان بلداً خامل الصيت في ذاكرة شعوب ما وراء البحار! بيد أن كل ما سبق لم يحل دون أن تدون دفاتر التاريخ مساندة القوميين الإيرلنديين

1 تاونيند، مصدر سابق، ص ٢٢٥-٢٢٦.

الصلبة للثورة المهدية في السودان. وعلى الرغم من تفاوت طبيعة هذا التأييد المتعاطف للمقاومة السودانية ضد القوى الاستعمارية، إلا أن جمهرة عريضة منهم كانت ترى في المهدية حركة تحرر وطني وديني، أفلحت في انتزاع انتصارات موجعة من جحافل الإمبراطورية البريطانية، فزلزلت نظام القهر الاستعماري المماثل الذي كانت ترزح تحته إيرلندا - بحسب قول إحدى صحفهم- مما أدى لمواقف نخبوية وشعبية مصطفة إلى حد كبير في خندق المقاومة مع الثورة السودانية ضد أعدائها.

الباب الثامن

أصداء الثورة المهدية
في حركة الثقافة والأدب العالمي

أصداء الثورة المهدية
في حركة الثقافة والأدب العالمي

«كانت هناك مجموعتان عرقيتان تقبع بينهما مساحة شاسعة كتلك التي تقبع بين قطبي الكرة الأرضية.. العربي بشفتيه الدقيقتين وشعره السبيبي والزنجي بشفتيه الغليظتين وشعره المجعد، ومع ذلك ربط بينهما الاعتقاد الموحد وقربهما لبعضهما بعضاً بدرجة فاقت روابط الدم».

الروائي البريطاني آرثر كونان دويل يصف مقاتلي جيش الثورة المهدية في إحدى المواجهات مع القوات البريطانية. مجموعة قصصية بعنوان «الراية الخضراء».

ظلت حركات التغير باختلاف دوافعها وبواعثها منذ غابر الأزمان، قادرة على تأسيس وشائج متينة مع الكلمة المكتوبة وما يلوح وراءها من تداعيات تعبث بأذهان الناس دفعاً نحو التخندق بعواطفهم بإحدى ضفتي النهر المعتركتين. تلك الصلة القدرية العجيبة التي توطد للثورات أكنافاً ممتدة بخارطة أحداث التاريخ لها ما لها من الأدوار المفتاحية في توثيق الوقائع وتدوين ما جادت به الذواكر المختلفة من خباياها الحصينة. إن الرصيد الإنساني الحقيقي المتبقي بمقاومة مستمرة لظاهرة الفناء الكوني ليس هو انتصار حركات التغيير في حلبات الصراع المسلح، فتلك المكاسب قد تظل – في كثيرٍ من الأحيان – مكبلة بقيود الأزمنة والأمكنة وما يكتنفها من ظروف جيوسياسية معينة ومحددة. الذي لا مراء فيه أن القوة الكامنة في النص المكتوب الذي يعقب الفعل الثوري كانت دوماً هي التي تمنح ذلك الفعل بعضاً من وهج الوجود والكثير من إكسير البقاء. فالتغيير الذي توثقه قوافي الشعر وفن القصة والكتابة قبل دفاتر المؤرخين، يبقى – وإن إختلف الناس حول تقييم احداثه بمعسكراتهم المتباينة – خالداً في الضمير الإنساني

الحي.. تماماً كما الأثر الراسخ الذي تحدثه قدمٌ ما فلا يزول بعوامل الطبيعة.

من هذا المنفذ تحديداً، يسهل التقدم لدراسة الأدبيات المهمة التي خلفتها الثورة المهدية السودانية في حركة الثقافة والأدب بعالم القرن التاسع العشر وما أعقب ذلك من امتدادات تركت تلك الوقائع حية بتداعياتها في خلايا العقل البشري المبدع إلى يومنا هذا. ولما كانت بريطانيا القرن التاسع عشر حافلة بأقلام شعراء خالدين على نحو كيبلينغ ونيوبولت وأدباء أعلام على نحو وليام موريس وروبرت لويس ستيفنسون صاحب «جزيرة الكنز»، إرتأينا أن من الأصوب هنا المبادأة بما دُون عن المهدية من أدبيات في دفاتر الحركة الثقافية بداخل الإمبراطورية البريطانية نفسها باعتبار المواجهات الضارية التي اندلعت بين جنرالاتها وقوات الثورة المهدية في حروب السودان المختلفة. أدبيات كتلك المتقدم ذكرها، لم يكن غريباً تباين طبيعتها بين المدرسة الفكرية «الكولونيالية» المتحجرة التي لا ترى في شعوب ما وراء البحار سوى قوميات متخلفة خُلقت لتُحكم وتستعمر إلى المدرسة «المناحية» التي أجادت استخدام ريشتها لرسم لوحة قاتمة من البكائيات على كبرياء الإمبراطورية الجريحة. وقد استبان ذلك جلياً حينما تفاجأ العقل الجمعي البريطاني بأن لتلك الشعوب عزيمة مثلها مثلهم تماماً ولها المقدرة على الانتصار لإرادتها القومية ووجدانها المشترك» كما في حالة الثورة المهدية». وبين هذه وتلك، تجد مدرسة إنسانية صرفة تتعاطف تعاطفاً فطرياً مع الميل الطبعي للحرية والانعتاق من عسف الاستعمار الكامن في إنسانية بعض بني الانسان. تلك المدرسة التي بسطت أفكارها على أذهان مثقفين كثر في بقاع شتيتة من أنحاء العالم، سنحاول تقديم ما تيسر من نماذجها استكمالاً لما ابتدأناه من محاولة لاستقصاء الأثر الثقافي العالمي للثورة المهدية متوخين ما استطعنا موضوعية الطرح المتكئ على المصادر والأسانيد المتوفرة في هذا المجال.

في ١٧ يناير ١٨٨٥ دارت معركة «أبو طليح» التاريخية بصحراء شمال السودان بين قوات الثورة المهدية بقيادة الأمير موسى ود حلو والأمير علي ود سعد والجيش البريطاني الغازي بقيادة اللورد ولزلي. شهدت «أبو طليح» تمازجاً قبلياً واثنياً رائعاً.

وتدافعت جموع قبائل «كنانة» و«دغيم» و«الحسنات» و«الشانخاب» من وسط السودان و«بني جرّار» و«الحمر» و«الجمع» من كردفان جنباً إلى جنب مع فرسان قبيلة «البرقد» من أقاصي دارفور. كما تنادت قبائل «بني سليم» من أقاصي النيل الأزرق. إلتحم كل هؤلاء مع قوات قبائل «الجعليين» في معقلهم وتحت ضيافتهم بشمال السودان تلبية لنداء الإمام محمد أحمد المهدي لصد قوات الغزو البريطاني. وفي الوقت ذاته، بعث قائد الثورة – بكارزميته الجارفة – بكلماتٍ مطمئنة لأمير الشرق عثمان دقنة المنشغل بمجابهة القوات الإنجليزية الغازية حول ميناء سواكن، مؤكداً على اتفاق كلمة السودانيين في مقاومة الإنجليز وذلك من خلال خطابه المؤرخ بتاريخ ١٤ يناير ١٨٨٥ والذي سبق المعركة بأيامٍ ثلاثة.. وجاء فيه: «وقد بلغنا أن بعضاً من أعداء الله الإنجليز حضروا بدنقلا وأرسلوا منهم جانباً إلى جهة المتمة لكي يدخلوا الخرطوم من قبلها وإلى الآن ما تم وصولهم بها. وقد وجهنا لهم من طرفنا أحد عشر ألفاً. والبشائر متواترة علينا بهلاك هؤلاء المخذولين وإن بلغوا في الكثرة عدد الشجر والمدر وزبد البحر»[1]. لذلك تعتبر «أبو طليح» أول معركة في القرن التاسع عشر تتحد فيها كل هذه الأشتات القبلية السودانية وتنصهر لمواجهة قوات غازية في منطقة شمال السودان تحديداً.. حيث جرت العادة قبل ذلك ومنذ قدوم حملة إسماعيل باشا الغازية للسودان في ١٨٢١، على أن تقوم كل قبيلة بمقاومة المحتل بمفردها مما سهل مهام القوات الغازية على الدوام. مثل هذا النوع من الإنصهار القبلي السوداني الملحمي لم يغب عن عوالم السرد الروائي البريطاني المعاصر للثورة المهدية. وفي المعنى نفسه، وظف القاص البريطاني آرثر كونان دويل كلمات الرواي العليم في قصته القصيرة بعنوان «الراية الخضراء» لوصف هذا التمازج الإثني الذي تبدى على سحنات المقاتلين المهدويين المختلفة عندما تراصت صفوفهم في إحدى مواجهاتهم مع القوات الإنجليزية وذلك على نحو قوله:

«كانت هناك مجموعتان عرقيتان تقبع بينهما مساحة شاسعة كتلك التي تقبع بين قطبي الكرة الأرضية.. العربي بشفتيه الدقيقتين وشعره السبيبي والزنجي بشفتيه

1 أبوشامة: من أبا إلى تسلهاي، الخرطوم، 1986، ص ٣٧٧.

الغليظتين وشعره المجعد، ومع ذلك ربط بينهما الاعتقاد الموحد وقربهم لبعضهما بعضاً بدرجة فاقت روابط الدم»[1].

شهدت ملحمة «أبو طليح» اختراق التشكيل العسكري للمربع الإنجليزي للمرة الثانية على التوالي بواسطة قوات المهدية (قام بالاختراق الأول الأمير عثمان دقنة قائد قوات المهدية في شرق السودان بمعركة طماي ١٨٨٤). قام السودانيون في «أبو طليح» بغرس راياتهم في منتصف المربع وسط ذهول أعدائهم الذين لم يصدقوا ما كان يحدث أمام أعينهم. وفي تلك المعركة جرى اشتباك دامٍ بالرماح والسيوف مما قلل من فعالية النيران الإنجليزية ونتيجة لذلك خّر الكولونيل البريطاني «برنيبي» صريعاً برمح الأمير البشير عجب الفيا مع ١٧ من خيرة ضباط الحملة وقُتل ما يقارب الـ ٣٦٨ من الجنود البريطانيين وسقط ١٠٦٩ جريحاً منهم. وفي الجانب الآخر استشهد من قوات المهدية عدد مقدر وكان أبرزهم الأمير الشجاع موسى ود حلو والذي أبر بوعده للإمام المهدي بغرس راية الثورة المهدية الخضراء في قلب المربع الإنجليزي! واستشهد أيضاً الفارس الباسل محمد بن أخ الامير على ود سعد والذي لم يبلغ العشرين بعد بينما جرح عمه الأمير على ود سعد في كتفه[2].

وبعيداً عن عن صحراء «أبو طليح» وبالتحديد قريباً من شواطئ بريطانيا المطلة على بحر الشمال البارد، حلت أنباء المعركة على البريطانيين تماماً ككارثية ثلوج شتاء يناير المتساقطة بكثافة آنذاك. لقد كان ثبات السودانيين في «أبو طليح» ملهماً للشاعر البريطاني السير «هنري نيوبولت»[3]، فنظم قصيدته الشهيرة بعنوان «**Vitai Lampada**»

---

1 **The Green Flag**, By Arthur Conan Doyle. Publisher: Andrews Uk Limited, Electronic Book, 2012,P.12.

2 أبوشامة: مصدر سابق.

3 **هنري نيوبولت** (١٨٦٢-١٩٣٨): هو السير هنري جون نيوبولت. شاعر بريطاني مرموق عُرف باهتماماته الأدبية الأخرى على غرار كتابة القصة والرواية وملكة كتابة التاريخ.ولد في وليفرهامبتون بالعام ١٨٦٢ . استبانت موهبته الشعرية منذ وقت مبكر وبلغ ذروة نجاحاته بإصدار ديوانيين شعريين مهمين علي نحو.. «**Taken from the enemy**» و«**Admirals All**». والديوان الأخير هو الذي احتوى على اشهر قصائده بعنوان « شعلة الحياة». وهي ذات القصيدة التي رثت قتلى القوات الإنجليزية الغازية بسلاح فرسان الثورة المهدية بصحراء أبو طليح في العام ١٨٨٥. وقد مال عدد من النقاد البريطانيين

التي ترثي أبياتها الحزينة قتل الجيش البريطاني وفي مقدمتهم الكولونيل برنيبي، وجاء فيها:

ها هي رمال الصحراء قد تخضّبت باللون الأحمر..
حمراء هي.. بلون حطام المربع الإنجليزي المنكسر!
لقد صمت المدفع.. وقُتِلَ الكولونيل!
قُتل الكولونيل!
وها هو فيلقنا.. تحجب أبصاره..
سحائب الغبار والدخان
ونهر الموت قد فاض..
حتى غمر ضفتيه..[1]

وفي تلك القصيدة يستخدم «نيوبولت» الشعر الرمزي لاستنهاض كبرياء بريطانيا الجريحة. وتبدى ذلك حينما يخاطب من خلال بعض أبياتها مباراة افتراضية للكريكيت بين طلاب مدارس بريطانيا، يحثهم على الثبات عند صعاب اللعبة ومواصلة المشوار. وتتنقل أبيات القصيدة من ملعب الكريكت إلى «أبو طليح» ومن ثم إلى ملعب الكريكت مرة أخرى في توظيف إبداعي رائع لما يعرف بالمدرسة الاستدعائية في كلاسيكيات الشعر الإنجليزي. ويردد الشاعر في ختام قصيدته وصيته للصبية الصغار بأن يمضوا في الحياة متوهجين كما المصباح المشتعل و«Vitai Lampada» نفسها عبارة لاتينية ترجمتها هي «شعلة الحياة». ولعل الشاعر استدعى هذا العنوان لقصيدته ليُذكّر بأن كسر أسطورة المربع الإنجليزي بأرض «أبو طليح» لهو أمر يستدعي التصميم والعزيمة للثأر لهؤلاء

لاعتبار القصيدة نفسها من أهم نفائس الشعر الكلاسيكي الإنجليزي في العصر الفيكتوري. وما زالت قصيدة **Vitai Lampada** تُدرس كواحدة من قصائد الشعر الفيكتوري للطلاب على مستوى الإمتحانات المفضية للدخول إلى الجامعة في بريطانيا «**A Level**». عُرف السير نيوبولت بكونه أحد الكتاب االبريطانيين العشرين الذين قامت على كتاباتهم أعمال مكتب الدعاية الحربية البريطانية في الحرب العالمية الأولى.

1 **Admirals All and Other Verses** by Sir Henry Newbolt. Publisher: Bibliolife 2009, South Carolina, USA.

القتلى وأن هؤلاء الصبية البريطانيين لابد أن يتقنوا الجلد والصبر على الشدائد ليأخذوا بالثأر مستقبلاً لبريطانيا من هؤلاء السودانيين ويبقوا على شعلة كبريائها متقدة ومفعمة بالحياة. وفي ذات السياق، يؤكد الباحث البريطاني المختص في مجال الأدب الإنجليزي «جون بيك.. John Peck» في سفره القيم «الحرب، الجيش والأدب الفيكتوري».. يؤكد جازماً بأن قصيدة «Vitai Lampada» قد «احتلت موقعاً مركزياً في خلق وتوجيه رأي عام بريطاني جديد حيال حالة (العسكرة) التي انجرّت لها إمبراطوريتهم بنهايات القرن التاسع عشر»[1].

وفي إطار تحليل بيك للظروف التاريخية التي تولدت فيها أبيات نيوبولت، يرى في ذلك أن المقاومة الضارية التي واجهت بها قوات الثورة المهدية تقدم جيش حملة الإنقاذ الإنجليزي قد أدت لتحويل طبيعة تلك المواجهات في أذهان البريطانيين إلى مربع المواجهة بين الإسلام والمسيحية وتبعاً لتلك المتلازمة تم استدراج العقل الجمعي البريطاني نحو تنميط ذات الصراع في سياق المواجهات بين العالم المتحضر والعالم المتخلف. ويظهر ذلك التوظيف الموثق لعامل الدين بباطن المخيلة الشعبية للبريطانيين في صراع الإمبراطورية مع قوات الثورة المهدية بجلاء أكبر فيما قاله السير ريتشارد تمبل، الحاكم البريطاني الأسبق لبومباي الهندية مستقرئاً تداعيات مقاومة المهدويين للبريطانيين من خلال أصوات شعبية متعجلة تصاعدت بإنجلترا قائلاً: «ما لم تحقق قواتنا انتصارات تكفل لها التقدم نحو الخرطوم في الحال، فإن الهند قد تنجرف لحالة من الهياج ضدنا وسيعتقد كل المسلمين أن الصليب قد خضع للهلال، وما إلى ذلك من مقولات»[2].

وفي الاتجاه نفسه يستبين لنا بشكل أوضح، أن نكبات البريطانيين في مواجهاتهم المسلحة مع الثورة المهدية بالسودان قد أسهمت في تصاعد روح الغلو المسيحي التي تقمصها الكثيرون منهم في تعاطيهم مع الأمر برمته واقترن كل ذلك مع هلع انتاب

1 **War, the Army and Victorian Literature** by John Peck.Publisher: Palgrave Macmillan 1998, United Kingdom, p.131.

2 Richard Temple: **The Contemporary review**, 1866-1900; March 1885, 47, British Periodicals, PG 305

أوساطهم الشعبية والسياسية مبعثه أن تلك المواجهات الخاسرة قد تقود تدريجياً لتراجع سطوتهم الاستعمارية على مستوى العالم. وتوافقاً مع ذات المضمون يقول جون بيك:

«لقد تحولت بريطانيا بناءاً على ذلك لدور جديد اكتسب طابعاً غلبت عليه حالة مماثلة لدور الحملات الصليبية. على أن ما يمكن اعتباره أكثر أهمية هنا هو ذلك الشعور العام التي تفشى عن حالة ما لا يمكن السيطرة عليها، وذلك أن الإنجليز لم يتمكنوا من تحقيق انتصاراتهم السريعة التي اعتادوا عليها في حروب المستعمرات»[1]. وينساق «بيك» في تحليله الوافي لعقد مقارنة بين ما أحدثته الثورة الهندية التي سبقت المهدية بما قارب العقدين من السنوات، من أثرٍ محدود في ذاكرة البريطانيين بفعل مقدرتهم السريعة على قمعها في مهدها وبين مقاومة الثورة المهدية للتوسع الاستعماري البريطاني وما ترتب على ذلك من زلزلة لقناعاتهم الراسخة بتفوقهم العسكري الذي إنبنت عليه سيطرتهم الفعلية على مقاليد الأمور في عالم القرن التاسع عشر، وفى ذلك يقول:

«رغم ذلك نجد على النقيض من كل هذا، أن حالة من الجدل استمرت بخصوص مواجهات السودان مما أدى للوهلة الأولى منذ أزمان بعيدة إلى تنامي شعور عام عند البريطانيين يوحي بأن العالم أخذ يشكل نفسه في نظام جديد لم تعد بريطانيا تعتبر هي القوى المهيمنة عليه». ثم يستطرد في ذات السياق بصورة أكثر مباشرة ليشير إلى أنه على الرغم من عدم أهمية السودان من ناحية إستراتيجية للبريطانيين إلا أن وجود قوى وطنية مهابة على نحو المهدية بتمنعها على الانكسار أمام الإنجليز لم يكن بمعزل عما يمكن أن يتبع ذلك من أثر بداخل الإمبراطورية البريطانية نفسها. ذلك الأثر الذي تحدث عنه بيك بكلماته قائلاً:

«المهم في الأمر كله هو البعد الرمزي لتلك الأحداث والطريقة التي بدأ بها هذا الصراع يستدرج البريطانيين لإظهار حالة من الزعزعة في خاصية الثقة بالنفس عندهم (Britain's Self doubt). ولابد أن سيادة الأحاديث المنمقة المرتبطة بالغلو في الوطنية تعبر –على الأقل في جزء منها – عن إحساس عام انتظم الجميع بالافتقاد لحالة الشعور

1 جون بيك، مصدر سابق، ص ١٣٢.

بالأمان التي اعتادوا عليها»[1].

بيد أن ما صنعته الثورة المهدية في السودان من حالة اصطلح «جون بيك» على تسميتها بـ (Britain's Self doubt)، لم تبق حبيسة لمحتوى تلك الأوراق النقدية التي جمعها «بيك» في سفره القيم المار ذكره. اتجاهات كتلك، بقيت متمنعة على الإنزواء في دهاليز العقل النخبوي البريطاني لترتمي بظلالها المبعثرة على وقائع أعمال روائية متعددة ومشتركة في سمة المعاصرة من حيث المضمون لأحداث تلك الفترة. ومن ذلك ما ورد بإحدى أهم كلاسكيات «آرثر كونان دويل»[2] المتمثلة في روايته المعروفة «The Tragedy Of Korosko» على لسان الراوي العليم فيها حين أجرى الروائي البريطاني الشهير على لسانه سيلاً من التساؤلات المندرجة في سياق مدى صلابة إيمان المهدويين بقضاياهم وما قد يترتب على ذلك من خسائر محتملة للقوى الأوروبية المناوئة لهم – والتي يعوزها ذلك القدر من الإيمان – بشكل قد يعيد عقارب الساعة الكونية لمشهد حشود المسلمين

1 نفس المصدر.

2 **السير آرثر كونان دويل** (١٨٥٩-١٩٣٠): طبيب وروائي بريطاني مرموق. وُلد بمدينة أدنبرة الاسكتلندية في العام ١٨٥٩. تخرج من كلية الطب بجامعة ادنبرة في العام ١٨٨١. وقد بدأ دويل في كتابة القصة القصيرة منذ أن كان طالباً بكلية الطب. تفتقت مواهبه الروائية لاحقاً في أعمال روائية عديدة منها «تراجيديا كورسوكو» وأعمال رائدة في مجال الأدب البوليسي الإنجليزي على نحو مغامرات شارلوك هولمز في مجابهة قوات الثورة المهدية في السودان وغيرها من بقاع الدنيا. وعلى الرغم من ميل الكثير من النقاد لتصنيف أعماله الروائية في خندق الأدب الدعائي الاستعماري والهوس الإبداعي الذي اكتنف العصر الفيكتوري من حيث اسباغ الشر المطلق على خصوم الإمبراطورية البريطانية، إلا أن رواياته قد اشتملت في عدد غير قليل من الأحيان على اعتراف ضمني بالشراسة والإباء المفعم بالتصميم الذي واجه بها المهدويون القوى البريطانية الغازية. وتجلى سبر عميق لطبيعة الالتحام القبائلي المشترك للسودانيين بوحدة سلاح المقاومة المهدوي ضد القوات البريطانية في أعمال مهمة لدويل. ومن ذلك رواية الراية الخضراء التي تحدثنا في افتتاحيتها عن التحام أمراء مهدويين ثلاثة من بقاع شتيتة بكل أنحاء السودان للقتال تحت راية الثورة المهدية ضد القوات البريطانية بشرق السودان. وأمراء المهدية الذين ارتكزت عليهم النسائج المشهدية الأولى من روايته تلك كانوا.. كدرا من شيوخ الهدندوة وحسين ود ابورغيل من أمراء المهدية ببربر وحامد ود حسين من أمراء البقارة الذين قطعوا مسافات بعيدة من ديارهم لمجابهة الغزاة البريطانيين مع نظرائهم السودانيين الأخرين. وتبقى اعمال دويل بالرغم من ايغالها في الطابع الامبريالي المتعالي على خصوم بريطانيا ودعائيتها اللاذعة في الكثير من الإحيان.. تبقى أعمالاً مهمة من حيث مقدرتها على تصوير الرسم التخيلي الذي تكونت عليه طبيعة الشخصية الشرقية والمسلمة والتي جسدها الكاتب في بعض الشخصيات المهدوية بأعماله. كل ذلك جعلها تأخذ شكل صورة حية تبدت بكل تناقضاتها وتبايناتها التقديرية في موقع يحتل قلب مرآة العقل السردي الجمعي لبريطانيا العصر الفيكتوري.

وهي تتقدم لفتح الأندلس من نواحي شواطيء أوروبا الجنوبية. ومن ذلك قوله تحديداً:

«عندما يرى أحدكم تفاني هؤلاء المهدويين وهم يستوون للصلاة بقلوب ملؤها الخشوع والإخبات، من منكم بوسعه أن تواتيه الجرأة على التشكيك في أن هؤلاء هم تجسيد لقوي عظمى تحيا معنا في هذا الكوكب. على الرغم مما يمكن وصفه بها من رجعية، إلا أنها جبارة في بأسها. ملايين من البشر لا يمكن حصرها تنتشر بين رأس جوبي بالمغرب إلى أقاصي حدود الصين. هبْ أن موجة مشتركة -كهذه- مرت فوق رؤوسهم، هبْ أن مقاتلاً عظيماً أو قائداً فذاً نهض ينظم جموعهم ليشكل صلصالهم الرائع بيديه كما يريد. من منكم سيجترىء حينها على القول بأن هؤلاء لن يكونوا المكنسة التي ستجرف بها القدرة الإلهية.. أوروبا الجنوبية بمجتمعاتها المُثقلة بالفساد والتآكل وهي تحيا بحماسة فاترة وكأنها رجل يشتمل جسده على نصف قلب. من منكم سيجترئ على القول بأن هؤلاء ليس من الممكن أن يفعلوا مثلما فعل أسلافهم من قبل.. في بحر ألف سنة خلت..حتى يُفسحوا المجال أمام أمة أقوى وأكثر تعافياً»[1].

ذلك النص المتخم بالإسقاطات الخفية التي عادةً ما يجيِّشُ بها الأديب خواطر الراوي العليم المبذولة على الورق، لم يغب ما احتواه من فكرة عن ذهنية الباحث والناقد البريطاني «روسيل ميلر» حين تقدم لسبر أغوار الأمر برمته مشيراً إلى محاولات «دويل» المتعددة للانضمام للقوات البريطانية التي ابتعثت لمواجهة الثورة المهدية بالسودان ومنها حملة الاحتلال البريطاني بقيادة كتشنر. ومن ذلك أن «دويل» الذي تغبرت قدماه بتراب وادي حلفا كأقصى نقطة زارها بجنوب مصر في تسعينيات القرن التاسع عشر، قد استلهم مما وقعت عليه عيناه من سحر المكان.. السياقات الروائية «المؤسطرة» لصلابة إيمان المهدويين بقضاياهم. وهو ما أقر «ميلر» ببصماته على قلم «دويل» الروائي على الرغم من استعداد الأخير الطبعي لـ«إقصاء أي نمط للدين من حياته الخاصة منذ سنواته الأولى التي قضاها في المدرسة اليسوعية بمنطقة (ستوني هيرست) بإنجلترا»[2].

1 **The Tragedy Of Korosko** by Arthur Conan Doyle, Electronic Book, Page 154.

2 **The Adventures of Arthur Conan Doyle** By Russel Miller, Electronic Book, Page 288289-.

وبالرجوع إلى مسرح المواجهات العسكرية بين قوات الثورة المهدية والقوات البريطانية بصحراء الشمال، لن يكون من الصعب استدراج أي ذهن باحث في الأمر ذاته نحو ساحات قوافي الشاعر الأسكتلندي «وليام ماكونغال» بذائقته الشعرية المختلفة والتي تبدت من خلال قصيدته المعنونة بإسم معركة «أبوطليح» أو «The battle of Abu klea». تلك قصيدة، على الرغم من إحتواء أبياتها على صورة أسطورية القالب مما نسب لجيشهم في مواجهة الأنصار بتلك الواقعة من شجاعة وبلاء، إلا أن شاعرها لم يعجزه أن يوثق بكلماتها لتلك المهابة التي كللت حسن تنظيم المهدويين وإصطفافهم براياتهم البديعة تأهباً للانقضاض على جحافل الغزاة.. وفي ذلك يقول «ماكونغال»:

في تمام الثامنة كانت قوات العدو بادية البأس..
هاهي راياتهم تخفق أمامنا بجمال آسر وامتداد عظيم..
زحفوا بتساوٍ منتظم نحو الطريق..
المحتشد بالحشائش..المفضي للآبار..
تحداهم البريطانيون مسرعين بوابلٍ من القذائف..

ذلك المشهد المهيب الذي سبق ذكره، شاءت له الأقدار ألا يبقى حبيساً لأبيات ماكونغال وحدها..حين تقدم أديب إنجليزي معروف وهو جوليان سايمونز لإعمال خياله الذي إختلط بإفادات بعض الإنجليز ممن بقوا على قيد الحياة بعد معركة «أبوطليح» لاستدعاء صورة قد تطابق الحقائق على الأرض لحد بعيد. فلنترك له المجال إذن لينقل لنا مشهد تقدم قوات المهدية نحو ميدان الموقعة:

«إن هؤلاء ليسوا حملة بنادق الرمنتقون الدقيقي التصويب، ولكنهم المحاربون الذين اختيروا للقضاء على الدخلاء، كما كان الحال مع هكس ورجاله، ولكن الإنجليز قد ذهلوا أكثر من أي شيء آخر، بنظامهم المحكم الذي تحركوا به، بسرعتهم وحسن إصطفافهم وكأنهم في استعراض عسكري»[1].

وكشأن نيوبولت في «Vitai Lampada»، اتجه ماكونغال للتوثيق لمقتل الكولونيل

1 سايمونز، مصدر سابق.

«برينبي» برماح السودانيين في تلك الملحمة في أبيات قال فيها:

يا له من مشهدٍ حافل بالإثارة المفزعة..
ذلك الذي تبدى فيه الكولونيل منهمكاً في القتال..
ممسكاً بالسيف.. مقاتلاً بتصميم وإرادة..
حتى سقط قتيلاً برمحٍ إنتاش منه أوردة الرقبة..

وبعيداً عن قصيدة أبو طليح المار ذكرها والتي قال عنها الباحث الإنجليزي سايمون كريغ، أنها وصفت ما حدث ببعضٍ من الدقة، رسم المؤرخ الوطني الأستاذ عبدالمحمود ابو شامة وقائع مقتل الضابط البريطاني «بيرنبي» برمح الأمير البشير عجب الفيا وتفاصيل الالتحام المباشر بين مشاة وفرسان الثورة المهدية وقوات حملة الإنقاذ الإنجليزية. تلك اللوحة الدامية التي أثارت بروعها قوافي شعراء بريطانيا الموغلة في البكائيات المناحية، وهنا ما خطه قلم» أبوشامة» واصفاً صورة أكثر تفصيلاً لحقيقة ما جرى وفي ذلك يقول:

«فتح الأمير البشير عجب الفيا جناح محور الأمير موسى ود حلو من ناحيته اليمنى وهجم على المربع الإنجليزي رقم ٣، الذي كان خلف المربع رقم ٢. أضخم شخص في هذا المربع هو قائده الكولونيل بيرنبي الذي شعر بأنه مقضي عليه. أمسك الكولونيل برمح من رماح لواء الرماحة وأراد أن يضرب به الأمير البشير عجب الفيا ولكن حربة الأمير كانت أسرع إنجازاً، فإستقرت في حلق الكولونيل البريطاني، وعاجله أنصاري آخر بسيف على كتفه. أخذ هذا الهيكل البشري الضخم وقتاً قبل السقوط ميتاً. إن الحربة قد قطعت حبل وريده (وهو الوريد الذي يحمل الدم إلى المخ، وهو بحجم إصبع يده الأوسط). وبعد مقتل قائد المربع الثالث لم يجد الثوار مشكلة في القضاء على كل من لم يستطع الهرب من المربع»[1]. ويتفق مع «أبوشامة»..المؤرخ الإنجليزي «سايمون كريغ» في تحليله الوافي لأحداث «أبو طليح» حين أشار للمأزق الذي ترتب على خروج برينبي من تشكيل المربع الإنجليزي وما انتهى إليه من مصير حين اصطاده رمح الأمير

1 أبوشامة: مصدر سابق، ص ٤٠٤.

عجب الفيا، فعلق على ذلك قائلاً:

«كما جرت العادة، تقدم عدد كبير من المهدويين نحو قبول ذلك التحدي والتقدم لمنازلة الكولونيل، وتبعاً لذلك أُثخن الرجل بجرح مميت بفعل رمح انغرس في حلقه. لقد نال رجال المهدي من رأس واحد من أعظم أبطال إنجلترا في عصرها الفيكتوري»[1].

الذي لا شك فيه أن رماح وسيوف قوات الثورة المهدية التي أردت الكولونيل» برنيبي» قتيلاً مع ثلة من رفاقه كان لها دورها الحاسم في جر الروح المعنوية للحملة الإنجليزية بأكملها نحو الحضيض. وذلك أن اللورد ولزلي قائد الحملة، كان قد رسم خطة تقوم على تنصيب «برنيبي» ليصبح قمنداناً على المتمة بعد احتلالها ومن ثم كان منوطاً به – بحسب تعليمات سيده – طرد سكانها لتصبح قاعدة عسكرية تنطلق منها العمليات الحربية نحو فك الحصار عن الخرطوم التي كان يقبع خلف أسوارها غردون أسيراً. كل تلك الأماني ذهبت أدراج الرياح حينما أمضى الجيش البريطاني ليلته تلك بصحراء» أبو طليح» وقد أعجزه الاقتراب من «المتمة» العصية على التسليم. وإنهمك جنوده في دفن ضحايا المعركة وفي مقدمتهم بيرنبي الذي دلق مصرعه المأساوي قوافي غاليات على صحائف الشعر الفيكتوري المعاصر لتلك الملحمة.

ومع انشغال الأوساط الأدبية في بريطانيا بتلك الوقائع التي خرجت من تفاصيلها تلك النصوص الإبداعية المهمة، تصاعدت مقياس التوتر في الأجواء السياسية ببريطانيا واقترن ذلك بمراسلات خشنة بين الملكة فكتوريا وقائد حملة إنقاذ غردون العسكرية البريطانية.. اللورد ولزلي. فأبدت الملكة من خلال تلك المراسلات قلقها على مصير جيش انفقت عليه خزانة حكومتها ما يقارب السبعة ملايين من الجنيهات الاسترلينية، كانت قد عقدت عليه ما يليق ببذلها السخي من آمال لسحق الثورة المهدية بالسودان وإنقاذ الجنرال تشارلز غردون من بأس تلك القبضة. وعلى أثر ذلك كتب ولزلي لزوجته الليدي لويز ولزلي قائلا: «انني اشعر بغاية الحنق والضيق من خطاب

1 Simon Craig: **Breaking the Square: Britain Takes on Mahdi at the Battle of Abu Klea**, October 8, 2015, War Fair History Network, http://warfarehistorynetwork.com/daily/military-history/breaking-the-square-britain-takes-on-mahdi-at-the-battle-of-abu-klea/.

جلالة الملكة (والذي أرفقه لك في هذه الرسالة)، فمن النادر جداً ان تكتب الملكة خطاباً مؤذياً كهذا لقائد عسكري مثلي في الميدان. لقد كانت كلماتها تعبر عن منتهى الفظاظة وعدم التقدير! ولكن بما انها ملكة بريطانيا فإنني لا أستطيع ان أجادل جلالتها لذلك قررت ان أتوقف عن الكتابة والرد عليها»[1].

أما على مستوى الشعر الشعبي البريطاني الذي تناول تلك الملاحم السودانية، فقد راجت تلك الأغنية الشعبية الحزينة عن مقتل غردون وهزيمة القوات البريطانية علي يد قوات الثورة المهدية بعنوان «Too late to save him» فصارت لحناً شعبياً معروفاً يعزف في حانات لندن القرن التاسع عشر بأمسيات الانس أواخر الأسبوع. وتقول بعض كلماتها:

هناك في السودان غاب عنا.. غاب عنا
هناك.. طأطأت إنجلترا رأسها.. وانكسرت
من هناك.. من هناك..
تفشى نبأ ارتعشت له قلوب البريطانيين..
قُتِلَ بطلنا العظيم.. قُتِلَ بطلنا العظيم[2].

وبينما كانت حانات لندن تضجّ بصخب الساخطين والمحبطين، كانت جيوش الغزو البريطاني المنهزمة تعاني من ملاحقات قوات المهدية التي تعقبت فلولها في صحراء الشمال. ونفذت طلائع الأمراء «حمدان أبوعنجة» و«عبدالرحمن النجومي» و«النور عنقرة» سلسلة من الاشتباكات الخاطفة مع تلك الفلول المنسحبة، فسقط الجنرال البريطاني وليم أيرل صريعاً في موقعة «كربكان» التي واجهته فيها قوات الأمير المهدوي «موسى أبوحجل». ودفعت تلك الأجواء المحبطة ولزلي للكتابة بمرارة لزوجته مجدداً في فبراير ١٨٨٥ قائلا:

1 نيكول: أوراق اللورد ولسلي، خطاب بتاريخ يناير ١٨٨٥، **مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون**، مصدر سابق، ص ٢٩٠.

2 من أرشيف الأغاني الشعبية البريطانية، **National Library of Scotland**، أدنبرة، نسخة الكترونية ٢٠١٢.

«هذه الضربات التي تلقيناها هنا، من الممكن أن يكون وقع أخبارها مُهلكاً بما يكفي على رجل مسن كرئيس وزرائنا غلادستون»[1].

لقد كان تتابع انتصارات الثورة السودانية على قوات الغزو البريطاني مدعاة لمناحة وطنية كبيرة داخل بريطانيا. فمع رجوع طلائع الحملة البريطانية وهي تجرجر اذيال خيبتها إلى شواطئ بريطانيا في ربيع ١٨٨٥، أصدر الشاعر البريطاني الشهير وليام واتسون[2] ديواناً شعرياً التحف برداء الحزن، حتى بدا كل شيء متسقاً مع عنوانه: «Gloomy Spring» أو «الربيع القاتم». وعلق في مقدمة ذات المجموعة القصائدية على انتصارات المهدية في السودان ومقتل غردون قائلاً: «لقد تحولت الأمجاد البريطانية إلى ما يشابه العار التاريخي». كما سلق وزراء حكومة جلالة الملكة بألسنة حداد حينما وصفهم بالقادة المتبلدي الذهن. لم يخف واتسون إعجابه بشجاعة السودانيين في التصدي لقوات الغزو البريطاني بل وخصص لذلك قصيدة رئيسية في إصدارته بعنوان «السودانيون». وقد نظمت تلك القصيدة على نسق عرف في أدبيات الشعر الإنجليزي آنذاك باسم «Sonnet» وهي قصيدة مكونة من أربعة عشر بيتاً شعرياً. وجاء في مطلعها:

السودانيون..
لم يخطئوا بحقنا..
لم يقاتلونا لأجر..
ولا مال يترجونه من أحد..
في تلك المعركة المريرة..
بإسم ربهم.. ارتفعت حناجرهم بالهتاف..
طلباً لعونه.. سعوا لتحقيق العدالة الغائبة..
في الجنة سيرقدون..
إن تم نفيهم من الأرض بلا انتصار..

1 نيكول، مصدر سابق، ص ٢٦٤.

2 **وليام واتسون** (١٨٥٨–١٩٣٥): هو السير جون وليام واتسون. شاعر بريطاني مهم ولد بمنطقة يوركشاير الإنجليزية. كانت قصائده ذات صلة وثيقة بأدبيات العصر الفيكتوري وأزماته السياسية مما شحن كلماتها بذائقة كولونيالية مميزة. من أشهر أعماله **Wordsworth's Grave** و**Gloomy Spring** أو الربيع القاتم.



الشاعر البريطاني وليام واتسون

ثم يمضي في بقية الأبيات ليصف ضراوة الاشتباكات المحتدمة بين قوات الثورة المهدية والجيش البريطاني في المعارك المختلفة ويوجه قدراً هائلاً من التمجيد لشجاعة البريطانيين وبلائهم أيضاً. وهو ذات التمجيد الذي لم يكن كافياً لجعل صاحبه بمأمن من انتقادات مؤرخ إنجليزي معاصر كفيرغس نيكول والذي وصف مقدمة قصيدته وأبياتها التي تمجد الشعب السوداني وعدالة قضيته في مواجهة الاحتلال البريطاني.. بأنها تلسع قارئها كما السم الزعاف! لقد سبق واتسون فيما ذهب إليه من قبل رئيس وزراء بريطانيا غلادستون حينما ارتجل في مارس ١٨٨٤ خطبة عصماء في مجلس العموم البريطاني ملخصاً الوضع في السودان كما يراه هو، فقال: «إن هذا الشعب يناضل من أجل حريته.. ومن حق هؤلاء أن يناضلوا من اجل حريتهم!»[1].

ومع تصاعد انتصارات الثورة المهدية في السودان على جنرالات بريطانيا، حدثت هزه عنيفة في الأواسط النخبوية البريطانية..مما دعا المؤرخ والصحفي البريطاني فيرغس نيكول لوصف فترة تورط بريطانيا في حروب السودان بأنها «من أبرز اللحظات التي التقى فيها أدب بريطانيا بسياستها».. «Where Art met politics». ويتجلى ذلك بوضوح تام من خلال كتابات الروائي البريطاني الأشهر آنذاك «روبرت لويس

1 نيكول: مصدر سابق، ص ٢٢٤ و٢٢٥.

ستيفنسون» صاحب الرواية الأكثر رواجاً من بين الأعمال الروائية البريطانية في القرنين الأخيرين بعنوان «جزيرة الكنز». فعلى الرغم من صحته المعتلة والتي جعلته على مشارف الموت آنذاك، إلا أن ذلك لم يمنع ستيفنسون من متابعة أحداث الثورة السودانية عن كثب، فكتب لصديقه جون سايمندز في أعقاب تحرير الخرطوم قائلاً:

«إن هذه أيام سوداء مليئة بالخزي لكرامة بريطانيا». ويبدو أن مرارة الهزيمة البريطانية بمقتل غردون قد دفعته للمضي أبعد من ذلك، فجنح قلمه لرسم لوحة قاتمة لها بكلمات بليغة وهو الأديب المتمكن قائلاً: «إن الإمبراطورية البريطانية تقف أمام العالم الآن والدماء تقطر منها وقد غمرها الخِزْي والعار»[1].

ومن المدهش حقاً أن أحداث الثورة المهدية في السودان قد حملت بعض أدباء بريطانيا على الإصطفاف الصريح في جانب الثورة. ونذكر منهم على سبيل المثال، الشاعر والروائي الإنجليزي وليام موريس والذي اكتسب شهرة واسعة بسبب أعماله الأدبية الخالدة كروايتيه «The House of Wolfings» و«The Well at the World's End». كان موريس قيادياً بارزاً بتنظيم الرابطة الاشتراكية البريطانية أو «Socialist League» والذي عرف اختصاراً بـ «SL». وقد عرف ال«SL» بعدائه للإمبريالية ومناصرته لكفاح الشعوب من أجل الحرية.و كان موريس مجاهراً منذ البداية بمعارضته لإرسال جيش بريطاني للسودان لإنقاذ غردون وعرف عنه حماسته لحق السودانيين في تقرير مصيرهم بأنفسهم وعندما حررت قوات الثورة المهدية عاصمة البلاد، كتب موريس لابنته ماي موريس بتاريخ ٢٠ فبراير ١٨٨٥ قائلاً:

«لقد سقطت الخرطوم في أيدي شعبها الذي تنتمي إليه»..

«Khartoum has fallen into the hands of the people it belongs to»..

وهو ذات الموقف الذي تبناه الاتحاد الاشتراكي. وفي أول تعليق رسمي له على انتصارات الثورة المهدية، قال موريس:

1 نيكول: مصدر سابق، ص ٣٤١-٣٤٢.

«إن النصر الذي حققه السودانيون على بريطانيا هو في المقام الأول نصرٌ للحق على الباطل (A triumph of right over wrong)..وهو انتصار مستحق انتزعه شعب يقاتل من أجل حريته».. أما عن غردون، فقد لخص موريس رأيه الصريح فيه في كلمات قصار موجزات:

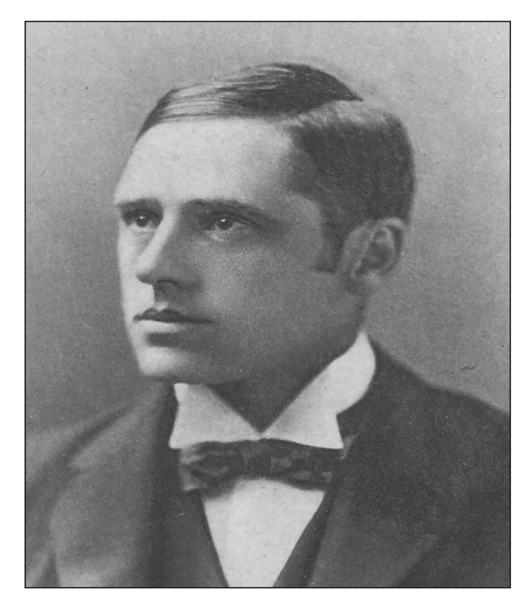
«لقد استعمل غردون قدراته الإدارية والعسكرية ليجلب الشعب السوداني تحت وطأة نظام استعماري مستبد ومنحط.. إن محاولة البعض صناعة بطل من رجل كهذا تعد بمثابة الإساءة للقيم الأخلاقية للشعب البريطاني». أما القوات البريطانية التي أرسلتها الإمبراطورية لقمع الثورة السودانية بقيادة الجنرال ولزلي، فقد قال عنها موريس: «إنهم مجموعة من اللصوص الذين يسعون لنشر حضارتهم الزائفة.. Shoddy civilization»[1].

وبالإيغال أكثر في استطلاع أصداء الثورة السودانية في معاقل الثقافة بيسار الوسط، وبصورة أكثر تحديداً على صعيدٍ يشمل بمداه شعراء الإمبراطورية ذوي الميول الاشتراكية، يستبين بوضوح أكثر جلاءاً أن مقاومة الثورة المهدية للغزو البريطاني.. قد ألهمت فيمن ألهمت شاعراً أسترالياً مجيداً بقامة «بانجو باتريسون» والذي اشتهر بأنه صاحب كلمات الأهزوجة الشعبية الأسترالية الأكثر رواجاً منذ القرن التاسع عشر وحتى اليوم ألا وهي قصيدة «Waltzing Matilda». وهي ذات القصيدة التي عدها الأستراليون بمثابة النشيد الوطني الموازي لأستراليا لكلماتها الأقرب لوجدانهم الشعبي. وحينما قررت حكومة الملكة فكتوريا استجلاب قوات أسترالية إلى ميناء «سواكن» لتعزيز قوات الجنرال جراهام ومحاصرة تقدم الأمير عثمان دقنة عليه في تلال البحر الأحمر.و عندها لم يستنكف باتريسون من أن يظهر تعاطفه الصارخ مع الثورة المهدية بل تنبأ بانتصار الثورة على الغزاة البريطانيين..لأن الحرية حتماً ستنتصر - على حد كلماته- وهنا بعض أبيات قصيدته بعنوان «رسالة من المهدي للقوات الأسترالية»..

«El Mahdi to the Australian troops»:

---

1 نيكول: مصدر سابق،ص ٣٤٥-٣٤٦.



الشاعر الأسترالي بانجو باتريسون

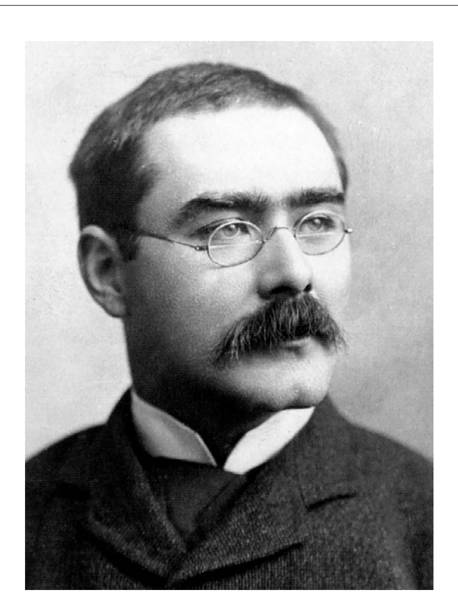
يا رجال استرليا ماذا أتى بكم إلى هنا؟
لماذا يا أبناء أستراليا العادلة.. الحرة؟
لماذا ترفعون سلاحكم..
في وجه رجال يحاربون من أجل حريتهم؟
تتحالفون مع الأم (بريطانيا).. لتهزموا الحق!
لماذا أستراليا تترك كنوزها للمخاطر فيما وراء البحر؟
لماذا تغادر أرضها الحرة..
لتغرس سيفها في حرب غير مقدسة!
كفى.. كفى..
إن الرب لن يبارك هذه المغامرات البائسة..
جنرالات إنجلترا الفاسدون..
حتماً سيندمون..
ضحوا به لم تسعفه شجاعةٌ.. غردون

قريباً.. يشهدون..
فتية السودان في صحرائه..
بالآلاف.. ضدهم ينتفضون
يعصفونهم.. كرملٍ بحباته
تذروه رياح من منون،
باسم الرب والرسول..
للحرية ينتصرون..
باسم الرب والرسول..
للحرية ينتصرون..[1]

وبالرجوع قليلاً إلى الوراء، وتحديداً عندما وطِئت قدما غردون أرض مدينة الخرطوم في ١٨ فبراير ١٨٨٤.. لابد أن «كبلينج» شاعر الإمبراطورية البريطانية لم يكن يعرف عن السودان أكثر من أنه بلد خامل الصيت يقبع في الحديقة الخلفية لبلد يسمى مصر! لعله قد سمع بتمرد يقوده مجموعة من العصاة المحليين ولكن لابد أن نفسه حدثته بأن هؤلاء لن يقدروا على الصمود أمام بطل الإمبراطورية البريطانية وخبير قمع ثورات الشعوب «The Ever Victorious Gordon» كما كان يحلو للإنجليز أن يلقبونه، فالأمر لا يعدو ان يكون نزهة في واحدة من تلك الدرر التي ترصع التاج البريطاني!

وبينما كان كبلينج سابحاً في خواطره العابرة تلك، كانت توجيهات الإمام محمد أحمد المهدي قد سبقت للأمير عثمان دقنة في شرق السودان بالإسراع في عملية تحرير مدن الشرق وقطع الطريق أمام أي تعزيزات بريطانية عن طريق البحر الأحمر. وهو ذات الغرض الذي وجه المهدي لأجله الأمير عبدالله حامد المحمودابي حاثاً على اتفاق كلمة قبائل الشرق لتحقيقه هناك. وتبعاً لما تقدم، تمكن عثمان دقنة من تحقيق انتصارات باهرة على قوات الجنرال البريطاني فالنتاين بيكر وجراهام وتم تحرير مدينتي طوكر وسنكات في زمن قياسي. وحطم الأمير دقنة أسطورة المربع الإنجليزي الذي لا يقهر تماماً، فاخترقه

1 **بانجو باتريسون**: قصيدة بعنوان: **El Mahdi to the Australian troops**، نشرت بصحيفة **The Bulletin** الأسترالية، بتاريخ ٢٨ فبراير ١٨٨٥.



الشاعر البريطاني كبلينج

فرسان البجا البواسل من قبائل الهدندوة والأرتيقة والحباب لمرات عدة. وطارت أصداء انتصارات الثورة المهدية على القوات البريطانية في شرق السودان لأصقاع أوروبا البعيدة، فألهبت خيال «كبلينج» لتستحثه على تسطير أروع قصائده عن ملاحم المهدية مع القوات البريطانية في شرق السودان والتي جاءت تحت عنوان «**Fuzzy Wuzzy**».

في ما وراء البحار جالدنا أقواماً شتى
بعضهم كان باسلاً.. وبعضهم لم يكن
باتان، وزولو، وبورميين
لكن الأشعث كان أعجبهم
لم يمنحنا معشار فرصة
بل لبد راصداً في الحرش.. ثم عقر خيلنا!
مزق أرصادنا في سواكن
ولاعبنا لعبة القطة والفأر

يا أيها الأشعث الثائر في وطنك السودان
يا لك من فارس لعين ومقاتل من النخب الأول
ولو شئت أعطيناك بذلك شهادة إقرار
ولو شئت أتيناك لنحتفل سويا بالإقرار..

وتمضي كلمات كبلينج لتصف خوارق الشجاعة التي أبداها السودانيون من قبائل البجا بشرق البلاد في مقاومة البريطانيين، ليختم قصيدته بتلك الأبيات الأروع:

أخيراً إليك يا أشعث في وطنك السودان
أيها الفارس اللعين والمقاتل المصطفى
إليك يا ذا الشعر الثائر..
تهانينا يا أحمق يا مغوار فقد كسرت المربع البريطاني![1]

وفي أواخر أبريل ١٨٨٥، رست السفن الإنجليزية قبالة شواطئ سواكن لتقل فلول الجنرال الإنجليزي جراهام المثخنة بالجراح في رحلة الأوبة إلى إنجلترا. وعندها أسرع الأمير المنتصر عثمان دقنة برفع تقريره للإمام المهدي قائلاً: «لقد قذف الله الرعب في قلوب أعداء الله الإنجليز بفضل ثبات الانصار فولّوا الأدبار هاربين». وتبعاً لذلك سال مداد القصيد الموشح بالحزن والانكسار الكولونيالي البريطاني.وقام حينها الشاعر الإسكتلندي الشهير «جورج أبيل» بإصدر روائعه في ديوان شعري بعنوان «غردون وقصائد أخرى». تضمنت تلك المجموعة الشعرية أجود قصائده التي قال في بعض أبياتها:

ثم أتى «هكس» ليقضي نحبه عطشاً في السودان..
في ساحة القتال ضد المهدي..
خرّ صريعاً.. عاجزاً..
رباه.. كيف عجزت بريطانيا عن عونه؟

1 **Barrack Room Ballads** by Rudyard Kipling, University of Oxford Text Archive 2012,e-Book,p.14.
ترجم النص للعربية: الدكتور غازي صلاح الدين.

و «بيكر» في إثره.. سقط في الجبّ المميت
قاد جيشاً ممن لا شجاعة لهم..
فسقطوا..
اصطادنا أعراب السودان بسهامهم..
تعزيزاتنا طال انتظارها.. تأخرنا كثيراً
رجالنا النبلاء في سواكن لقوا حتفهم لآخر رجل فيهم..
ثم أرسلنا الحملة البريطانية..
فضاعت.. هباءاً منثوراً في الصحراء
رباه.. وقعوا جميعاً في قبضة رجال عثمان دقنة السمر![1]

وفي عام ١٩٤٢، زار السودان وتحديداً مدينة «سواكن» الشاعر الإنجليزي الشاب «جلنكارين بالفور بول».. والذي سيُصبِح فيما بعد دبلوماسياً بارزاً وسفيراً للمملكة المتحدة في بقاع شتى من أنحاء العالم. تحت وطأة انبهاره بشجاعة المهدويين، كتب بالفور بول أبياته التي قدم لها بإنجليزية مبسطة:

«A reference to the bravery of the Mahdist Osman Digna and his followers who fought the British here in 1891».

وترجمتها: «بالإشارة لشجاعة القائد المهدوي عثمان دقنة وأنصاره الذين قاتلوا البريطانيين هنا في ١٨٩١».

وتقول بعض أبيات القصيدة التي نظَمها الشاعر والدبلوماسي البريطاني:

بينما النوارس تحط رحلها على الصخر..
تراقب أمواج الشاطئ المتلاطمة
تنشد رحلة الخلاص للساحل
ها أنا ذا اجلس قبالة تلك الصخور..
حيث يرقد الرجال السودانيون البواسل..

1 جورج ابيل، مصدر سابق.

الذين لا تهاب رماحهم.. رصاصنا المنهمر![1]

بيد أن ملاحم فرسان الثورة المهدية لم تكن لتستثير شعراء بريطانيا دون غيرهم. ومن ذلك أن المبدع المصري يعقوب صنوع[2] الذي عُرف بتأليف اللعبات التياترية المسرحية في مسارح مصر الخديوية آنذاك قد اتجه لتوجيه ذلك الفن المهم لتمجيد انتصارات المهدية على البريطانيين. وفي أحيان عدة، كان ينظم بعض القصائد بالعامية المصرية لينشرها في مجلة «أبو نظارة زرقاء» التي كان يصدرها من العاصمة الفرنسية باريس. ومنها قصيدته بعنوان «غنوة» والتي امتدح فيها مقاومة الأمير عثمان دقنة للبريطانيين قائلاً بعامية شعبية مبسطة:

فأهُـو قائـد الأسـود.. في الإنجليـز نـازل ضرب
مـا خلاش لهم جنود..عشرين ألف قتيل في الحرب
يـا عثمان أمـوت فداك.. بس عيـش انت يا ضرغام
يا بخت من جاهد وايـاك.. يحظى بضرب الظُلاّم[3]

1 **Bagpipes in Babylon: A Lifetime in the Arab World and Beyond** by Glencairn Balfour Paul. Publisher: I.B. Tauris 2006, United Kingdom,p. 91.

2 **يعقوب صنوع:** صحفي ومسرحي مصري ولد بالقاهرة في العام ١٨٣٩. درس الفنون بإيطاليا وتعلق قلبه بالمسرح. يعتبر في نظر الكثيرين من أهم رواد المسرح المصري في نهايات القرن التاسع عشر وعرف أيضاً بلقب« موليير» مصر. نشر مسرحياته أو لعباته التياترية بعدة صحف أصدرها بنفسه على نحو «أبو نظارة زرقا». غضب منه الخديوي للمحتوى الساخر لإحدى مسرحياته «الوطن والحرية» وهي تتعرض لفساد القصر عنده ونفي إلى فرنسا حيث واصل عمله كصحفي متخصص في أعمال التياترو. هناك اتصل بجمال الدين الأفغاني. وقد كتب الدكتور إبراهيم حمادة كتاباً عن يعقوب صنوع عام 1955م واسماه (الصحفي الثائر) كما جاء في المقدمة: (في هذا الكتاب سيرة لصحفي ثائر نادر المثال في تاريخ الصحافة المصرية. كان مؤرخاً دقيقاً لفضائح العصر ومباذل القصر. يمتاز يعقوب صنوع أو أبو نظارة كما عرف في التاريخ بأنه كان أول من انشأ مسرحاً في مصر، وأول من أصدر صحيفة هزلية كاريكاتورية في الشرق قاصيه ودانيه وأول من أخرج مجلة بالألوان، وأول من نفى من أصحاب الأقلام، وأول من جاهد في مصر والسودان ضد الاستعمار في كل مكان أربعة وثلاثين سنة وبطريقة لم يسبقه إليها إنسان. أما الدكتور سيد على إسماعيل فقد شكك في ريادته للمسرح المصري وساق في ذلك ما دعم حجته من الأدلة.

3 **صحف أبونظارة (١٨٨٥–١٨٨٨)**، دار صادر للنشر بيروت، ١٩٠٠،نسخة الكترونية، ص٦٠.



غلاف صحيفة «أبو نظارة زرقاء».



الأديب والصحفي اللبناني لويس صابونجي

وبذائقة أدبية مختلفة، كتب الأديب والصحفي اللبناني المرموق لويس صابونجي[1] مقالة نثرية عنونها بـ «عثمان دقنة بطل السودان» فأثنى فيها على أمير الشرق في المهدية.. الأمير عثمان دقنة وثبات رجاله في مجابهة الإنجليز. ومن ذلك قوله:

«إذا ذبَّ المرء عن دينه وعرضه ووطنه كان أشد الناس ورعاً وشرفاً ومروءة. فالبطل الهمام عثمان دقنة الذي أضحى على الإنجليز أشد نقمة قد تفرد بين قواد السودان بالبسالة والغيرة على حرية وطنه وقومه فلا لوم عليه اذا قاوم الانكليز والأجانب الذين حاولوا غزو بلاد نشأ فيها. ولذلك لا ندري بأي حق يصفه الإنجليز بصفة عاصي. لأن العاصي من شق عصا الطاعة وعقَّ حاكم أمره الشرعي. فالإنكليز لم يستولوا على السودان ولم يحكموا فيه بل حملوا عليها بغياً وعدواناً ثم نكصوا على أعقابهم منها يجرجرون ذيل الخجلة. فكانوا هم البغاة وليس عثمان دقنة بعاصٍ بل مدافع عن دينه وعرضه وبلاده ولو كان انكليزياً لرفع الانكليز مقامه إلى السهى ونصبوا له تمثال الشرف في قلب عاصمة بلادهم»[2].

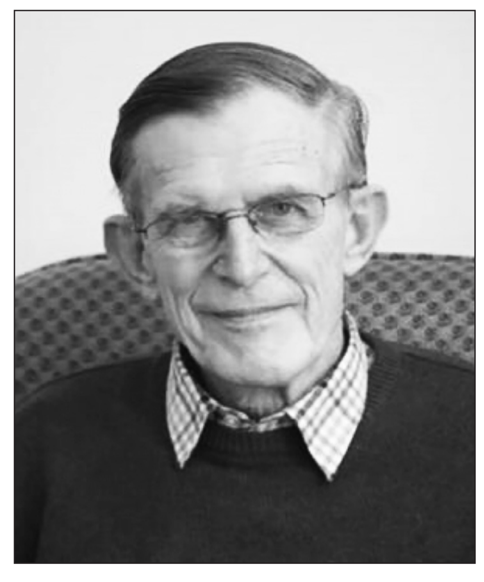
وبالعودة للقوافي الإنجليزية عن الثورة المهدية، سنستبين أن تلك الملاحم السودانية الخالدة ظلت حية في ضمير شعراء بريطانيا جيلاً بعد جيل. في ١٩٨٢ نظم الشاعر والمعلم البريطاني بيتر إفيرنجتون (Peter Everington) قصيدة بعنوان «Aba Island» أو «جزيرة أبا». وهي ذات القصيدة التي سرد فيها بدايات الثورة المهدية وكيف أنها

1 **لويس صابونجي** (١٨٣٨-١٩٠٩): هو يوحنا لويس بن يوسف صابونجي. أديب وكاتب صحفي لبناني اشتهر باهتمامه السياسية بجانب كتاباته في مجالي الفلسفة وعلم اللاهوت الذي نال فيه درجة الدكتوراة من روما الإيطالية. كان علماً من أعلام الاستنارة والفكر ببلاد الشام..وأنشأ في حياته العامرة ثلاث صحف منها «النحلة»، «الاتحاد العربي» و«الخلافة» فكان طابع كتابته متحلياً بروح محاربة الاستبداد في الدولة العثمانية والدعوة للتحرر والانعتاق. ومعظم مؤلفاته بالعربية تتناول مواضيع الفلسفة والأخلاق وعلم الجمال والقانون والأديان والمذاهب. ولكن بوصفه واحداً من كبار رعاة العروبة، اهتم صابونجي بالأحداث المصيرية والوقائع الدائرة في حياة عرب المشرق، نشر آراءه في الإصلاح ومحاربة الاستبداد في الدولة العثمانية. وليس مصادفة أبدا أنه عالج في أبحاثه التاريخية قضايا آنية وخطيرة، مثل «**تاريخ فتنة حلب عام 1850**» و«**تاريخ فتنة لبنان وسورية سنة 1860**» ولاحقاً «**تاريخ الثورة العرابية في الديار المصرية سنة 1882**» وكتب مؤيداً للثورة المهدية ومقاومة الأمير عثمان دقنة لجحافل الإنجليز في شرق السودان.

2 نفس المصدر السابق.

وحّدت الشعب السوداني من أجل التحرر من الاستعمار. بيد أن ما يميزها بصورة أكبر هو إمكانية وصفها بإحدى قلائل القصائد في الأدب البريطاني التي تعرضت لسنوات المهدي المبكرة في الجزيرة أبا.. نقطة اندلاع الثورة المهدية الأولى. وبيتر إفيرنجتون لمن لا يعرفونه هو شاعر بريطاني مجيد عمل معلماً في وزارة التربية والتعليم بالسودان بين ١٩٥٨-١٩٦٦، فأحبّ تلك البلاد وعشق شعبها وتاريخها وزار كل بقاعها. وتقول بعض كلمات قصيدته:

It is the Mahdi who is in Aba cave.
For years has pondered, disciplined and remained calm.
How best he inspired the weak, united the brave..
The dawn of later years and Island shows..
Where all the tribes live prosperous and free..
O may this Sudanese generation in their age..
Reaping the fruits of freedom from his grave..
Read their land's success from history's page..
Remember that it all started in this cave..
Remember that it all started in this cave..



الشاعر البريطاني بيتر إفيرنجتون

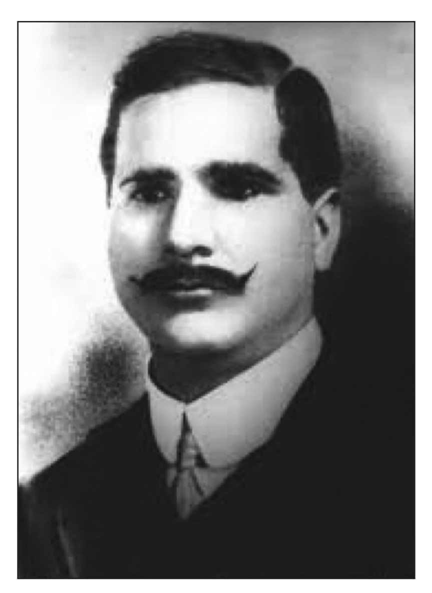
وترجمتها:

إنه المهدي.. في كهفه بجزيرة أبا!
لسنوات.. قضى وقته متأمّلاً..
هادئاً.. يهذّب ذاته
كيف ألهم الضعفاء.. ووحّد الشجعان..
بفجر السنوات القادمات والجزيرة تلك.. ترى
كيف عاشت تلك القبائل.. أجواء الحرية
فلتعلم أجيال السودان اليوم..
ولتقطف ثمار الحرية من ضريح المهدي..
ولتقرأ نجاحات الوطن من أوراق التاريخ..
ولتذكر دوماً أن كل شيء بدأ من هنا.. من هذا الكهف!
ولتذكر دوماً أن كل شيء بدأ من هنا.. من هذا الكهف![1]

وبإعمال المزيد من الجهد لاستجلاء أصداء الثورة المهدية على المنتوج الثقافي لشعوب العالم، يتبدى لنا أن من الخطل المفضي للابتسار قصر ذلك الأثر على الحراك الثقافي الناطق باللغة السكسونية دون غيرها من لغات العالم. حقائق كتلك، ليس من العسر إيجاد أوتاد عديدة يسهل البناء عليها حين نتحدث عن أثر الثورة المهدية بمنطقة شبه القارة الهندية، وما ترتب على ذلك من أصداء جلية في قصائد الشاعر الباكستاني الشهير محمد إقبال والذي يعتبره الكثيرون هناك.. الأب الروحي الحقيقي لحركة استقلال باكستان. غير أن الميدان الفكري والثقافي كان بلاشك هو الساحة التي عُرف فيها إقبال بصولات خلدتها صحائف الكتاب والنقاد الذين أقبلوا على أعماله باهتمام شغوف. وشغل إقبال موقع عميد كلية الدراسات الشرقية بلاهور لسنوات متتاليات على الرغم من أن تأهيله الأساسي كان في مجال القانون والمحاماة. وكانت لإقبال قراءات عميقة في الفلسفة والتصوف ومحاولات عبقرية لاستلهام التاريخ وتوظيفه لمصلحة عالمه المعاصر الذي

1 **Watch Your Step, Khawaja – A British Teacher In Sudan** 1958 - 1966, Peter Everington, Page 243.

كان فيه المسلمون أسرى لحالة مقيتة من التراجع الحضاري والتقهقر المعرفي. وتصف العديد من المصادر محمد إقبال بأنه أحد ابرز قامات الأدب المنسوب للغة الأوردية الشائعة في باكستان. وليس أدل عن ذلك من شيء بمثل ما قاله عنه طاغور شاعر الهند الأشهر: «لا ريب عندي أن ما ناله شعر إقبال من قبول وصيت يرجع إلى ما فيه من نور الأدب الخالد وعظمته». وقال عنه المستشرق الإنجليزي رينولد نيكلسون: «لقد جاء إقبال كرسول، إن لم يكن لعصره فلسائر العصور»[1].



الشاعر الباكستاني محمد إقبال

إقبال الذي عاصر أحداث الثورة المهدية وهو صبي يافع، تمكن من توظيف أشعاره لاحقاً لرسم صورة زاهية لها كحركة مقاومة ناجحة ألهمت بصمودها في مجابهة الاستعمار حركات التحرر الأخرى في بلاد المسلمين. من أهم تلك الأعمال الشعرية المار ذكرها، مجموعة قصائدية صدرت بديوانه الذي حمل عنوان (جاويد نامة).. أو (Javid Nama). على الرغم من صدور هذا الديوان باللغة الفارسية لأول مرة إلا أن جودة هذا العمل قد إجتذبت نحوه اهتماماً عالمياً مقدراً ونشطت تبعاً لذلك حركة ثقافية واسعة لترجمة تلك

1 محمد إقبال كما لم تعرفه من قبل، مقال لفارس الصغير، موقع مصر العربية الإلكتروني، ٢٠١٥.

الروائع إلى لغات العالم المختلفة، فصدرت ترجمة إنجليزية لآرثر جي أربري وألمانية بقلم آن ماري شميل وأخرى إيطالية بقلم ألسياندرو باوساني. ويتقمص الشاعر في معظم أبياته بذلك الديوان شخصية صوفي مرافق لشيخه الذي يسميه بإسم «رومي» يريد بذلك الشيخ جلال الدين الرومي العالم والمتصوف الشهير بأشعاره الموغلة في عوالم تدعو لثقافة بناء الذات الإنسانية من خلال تقديم نماذج معرفية وسلوكية تتمثل معاني الحكمة ومجاهدة النفس والزهد المستبصر في الدنيا. وفي ديوان **Javid Nama** يجنح إقبال لاستكمال انتصارات الإمام محمد أحمد المهدي على القوى الاستعمارية البريطانية في حياته القصيرة بانتصارات اخروية متممة لما ابتداه من عمل على مستوى الدنيا. وذلك أن الشاعر في رحلته الافتراضية مع شيخه «جلال الدين الرومي» قد اخترق البرزخ الفاصل بين الدنيا والآخرة فرأى روح المهدي السوداني وقد حفها النور الوهاج وهي ترفل في الجنة راضية مرضية. وينشأ هناك حوار فنتازي تخاطب فيه روح المهدي الثائر.. روح الجنرال كتشنر الذي قاد جيش الغزو البريطاني لإعادة احتلال السودان في ١٨٩٨.. بلهجة مترفعة منتصرة تذكر الأخير بمصيره المآساوي حين قضي غرقاً بعدما تهاوت الباخرة التي كانت تقله نحو أعماق بحر الشمال بعد عقد وبضع سنوات من معركة كرري التي حفلت بانتهاكات إنسانية مختلفة دعت برلمانيين بريطانيين لتسمية كتشنر بجزار أم درمان. ويعقد «إقبال» مقاربة بين حالة نبي الله موسى عليه السلام وحالة المهدي السوداني من حيث أن خصميهما فرعون مصر وكتشنر بريطانيا قد جوزيا بمصير موحد وهو الغرق في جوف البحر المالح دون أن يعثر لجسديهما على أي أثر. وفي القصيدة نفسها، يظهر المهدي عدم رضاه عما آل إليه حال الأمة من وهن وتشتت وانقسام. وتبعاً لذلك يجري إقبال على لسانه نداءات عميقة لقادة المسلمين فيما تلاه من عصور حاثاً على الثورة واتفاق الكلمة نحو البقاء في خندق المقاومة للتحديات الاستعمارية المحدقة بشعوبهم.[1] والذي لا شك فيه أن الخيال الخلاق الذي تناول به

1 انظر شرح القصيدة بعنوان المهدي والطغاة، **The Tyrants and the Mahdi**، مقال بتاريخ ١٩ مارس ٢٠١٦، مجلة **Ravi Magazine** الإلكترونية:
https: / /www.ravimagazine.com /chapter– 3 –the–perils–of–venus /

إقبال مصير قائد الثورة المهدية بعوالم «الما وراء» في قصائده تلك يعبر عن إعجاب مستفيض بالثورة السودانية وما شكلته من رمزية للمقاومة بالوجدان الجمعي المسلم المهموم بمجابهة التكالب الاستعماري بكل أشكاله. وفيما يلي بعض أبيات قصيدته:

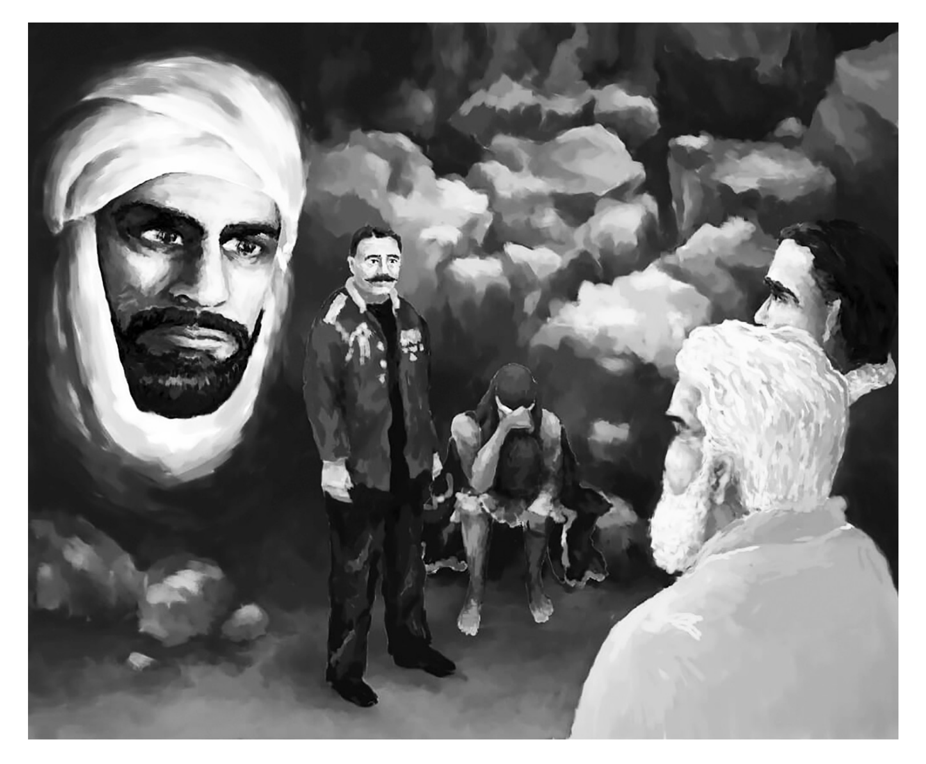
الضوء الهائج يبرق من فوق مياه..
الموج الصاخب يتلوى هداراً نحو مداه..
الفوح العاطر يضوع شذاه..
من زهرٍ يملأ جنات الله..
تبدت روح المهدي..
وهجٌ منه..
أذاب لؤلؤةً سكنت بجوف محارة..
بدد ثقلاً.. أوطأ كتشنر ببأس حجارة..
هتف المهدي..
كتشنر.. لو كان لك عينان تبصر بهما..
فلتنظر عاقبة الانتقام من أشلاء درويش..
الجنة لا تمنح قبراً لأشلاء رجلٍ مثلك..
لم يعد لجسدك متكأ..
سوى جوف البحر المالح..
ثم تهدجت بحلقه كلمات..
وإنفلتت من شفتيه تنهيدة ينفطر لها القلب..
يا روح أمة العرب.. إني أناديك..
صاح قائلاً..
انهضوا مثل أسلافكم.. اصنعوا العصور القادمة..
فؤاد، فيصل، ابن سعود..
إلى متى تنكفئون على أنفسكم..

مثل ألسنة من دخان..
اعيدوا إلى الدنيا.. ذلك اليوم الذي انقضى..
امنحينا يا أرض.. خالداً آخر..
انشدونا ترانيم الوحدة تحت رايات الله..
هذه السهول.. ألا ترون فيها النخل يمتشق شامخاً
ألم يعد فيكم فاروق آخر لينهض فينا ثائراً؟[1]

وقد سايرت الأديبة الباكستانية «هنا تانفير» تلك القصيدة تحديداً بقطعة نثرية انثالت كلماتها من بين ثنايا قلمها لتتراص بقدر كبير من التوازي مع ما كتبه إقبال في رسم نهايات آخروية تنتصر انتصاراً قاطعاً للمهدي السوداني في مواجهاته مع البريطانيين. وهي ذات القطعة النثرية التي تقمصت فيها الكاتبة دور جلال الدين الرومي- تماماً كحال إقبال في قصيدته- فرأت بعينيه ما سيحدث في العالم الآخر. وتقول الكاتبة بلسان الرومي: «هناك رأيت بعيني فرعون مصر وقد ترافق معه أحدهم في العالم الآخر. لم يكن ذلك سوى اللورد كتشنر الذي كان في يوم ما قائداً للقوات البريطانية. لقد تنامى إلى علمي أن كتشنر الذي احتل السودان من قبل قد اجترأ على أن تمتد يداه لضريح المهدي السوداني.. ذلك القائد الذي قاتل من أجل الحرية وتحدى القوى الاستعمارية الغربية». ثم تستطرد تانفير بلسان الرومي مجدداً لتقول: «وبعد سنوات عدة، تمكن بعض الأعداء من نسف سفينة كانت تقلّ كتشنر ليلقى حتفه غرقاً في أعماق المحيط. وبدا كتشنر في هذه اللحظة عاجزاً عن الصمت حيال تضجر رفيقه فرعون مصر من لصوص الآثار الذين أدمنوا الاعتداء على مراقد الفراعنة بحثاً عن النفائس والحلي، فقال مخاطباً الفرعون:

– لا.. مكتشفو الأهرامات ليسوا لصوصاً. هؤلاء علماء آثار ينبشون القبور أملاً في التعلم من وقائع الماضي.

1 **Javid Nama** لمحمد إقبال، ترجمه للإنجليزية آرثر جي أربري، أعادت نشره **Kazi Publication**، الولايات المتحدة، ٢٠٠٧.



لوحة بريشة الفنان «جيمي انجنير» تجسد روح المهدي المنتصرة وهي ترفرف فوق كل من كتشنر وفرعون مصر الذين لقيا حتفهما غرقاً في البحر.. الصورة جاءت مصاحبة لمقال «المهدي والطغاة» المنشور مجلة «رافي ماغازين» بتاريخ بتاريخ ١٩ مارس ٢٠١٦.

ورد الفرعون بلهجة متهكمة:

- إن كنتم قد نبشتم قبورنا بحثاً عن الحكمة، فماذا كنتم ترمون من وراء نبش قبر المهدي؟

وهنا يقول الرومي: بمجرد ذكر اسم المهدي السوداني، سرى برق خاطف بلُجّة من الماء أمامي وكأنه تيار من الكهرباء. وتعالى الموج وتقافز مده بعرض البحر. وبدا عندها المهدي بنفسه وقد حفّته هالة اتخذت شكل نسمة رطبة معطرة بهواء الجنة، فأسرع بمخاطبة كتشنر قائلاً:

-كتشنر! الآن.. هل أدركت كيف كان انتقامي شديداً كما ترى بأم عينيك في هذه

اللحظة؟ لقد حُرم جسدك من أن يواريه قبر. وها هو الآن يقبع بأسفل قاع البحر متوسداً مياهه المالحة!

ورأيت الانزعاج بادياً على روح المهدي السوداني وهو ينادي على القادة العرب ونظرائهم بإفريقيا مستحثاً إياهم جميعاً على توحيد الكلمة من أجل المقاومة والتحرر، قبل أن يقول بغبطة: أنت يا من تقود النوق في قافلتنا.. فلتعلم أن بعض أصدقائنا قد وصلوا بالفعل لمدينة نبي الله. وها نحن نقتفي أثرهم متلمسين الطريق إلى هناك. هلا أنشدتنا أنشودة تستحث دوابنا حتى تسرع الخطى نحو المبتغى»[1].

صفوة القول أن بريطانيا القرن التاسع عشر كانت قد خاضت حروباً لا هوادة فيها لتوسيع أراضي إمبراطوريتها التي زعمت أن شمساً لن تغرب عنها قط! لقد جالد الإنجليز «فيما وراء البحار أقواما شتى» كما قال كبلينج شاعرهم الاول. ومِمَّا لا شك فيه ان هؤلاء قد جوبهوا ببسالة منقطعة النظير حينما تصدى لهم السودانيون تحت رايات الثورة المهدية. وهي ذات البسالة التي خلدت فصول ملاحمها روائع وعيون شعر الأعداء قبل الأصدقاء. إن الإنجليز بطبعهم قوم جُبلوا على الإعتزاز بأنفسهم إلى حدٍ دعا البعض لوصفهم بالشعوب المتعجرفة. وجل ما دونته أقلامهم من أدب بأشكاله التعبيرية المختلفة كان يستهدف في المقام الأول تمجيد وتوثيق بطولاتهم التي حرصوا على إحاطتها بما يليق بها من هالة. كل ذلك لم يمنعهم من الإنبهار بثبات المهدويين وتصميمهم على المقاومة حتى آخر شهقة تغشت منهم الصدور بالأنفاس وبعزيمة من فولاذ لا تعرف التزحزح قيد أنملة عن مبادئهم التي آمنوا بها.. ومن دون التراجع عن آراضيهم التي ذادوا عنها بالخيل والدم والرجال. وبذات القدر، يمكن القول بأن صدامات الثورة المهدية المسلحة مع الإنجليز وما أظهرته من مقدرة السودانيين على الصمود أمام جحافل المستعمرين بإمكانيات ذاتية متواضعة ومن ثم التقدم لتحقيق انتصارات مفصلية على تلك القوى في لحظات تاريخية حاسمة ومتعددة، كل ذلك عبّد للثورة المهدية طريقاً سهلاً نحو الاحتفاء بأحداثها في باطن العقل الإنساني المبدع الذي

1 مجلة **Ravi Magazine** الإلكترونية، **Written by Hina Tanvir. Edited by Khurram Ali**، مصدر سابق.

حفلت به مدارس فكرية وهويات ثقافية شتى على مستوى العالم ومن ذلك ما أثارته من أصداء وثقتها دفاتر الأدب والقوافي في أماكن تبعد عن السودان بآلاف الأميال على نحو باكستان وأستراليا دون أن تتوارى ذات الأصداء عن بقاع أقرب كما في حال مصر ولبنان.

الباب التاسع

أصداء الثورة المهدية بشبه القارة الهندية

أصداء الثورة المهدية بشبه القارة الهندية..

«إن انتفاض الهند على الإنجليز في هذه الايام أقرب، فإن خواطر المسلمين من سكانه في حالة هياج شديد بسبب ما شاع بينهم من دعوة محمد أحمد «المهدي» السوداني وما يكمن في أهوائهم من الميل إلى تصديقه وتريد دولة إنجلترا أن تصد المسلمين عن حج بيت الله الحرام حتى لا تصل أخبار محمد أحمد وتورط الإنجليز في مقاومته إلى مسامع الهنديين، ولكن سيحمل تلك الأخبار حجاج الأفغانيين والبلوجيين الذي يسلكون إلى الحج طريق البصرة بل يبلغونها على وجه أبلغ مما لو سمعوها بآذانهم».

«جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده:
صحيفة العروة الوثقى، ١٨٨٤-١٨٨٥».

الذي لا شك فيه أن عالم القرن التاسع عشر كان عالماً حافلاً بالعديد من مظاهر التململ وعدم الرضا النوعي بالنتائج المترتبة على سيطرة شمال الكرة الأرضيّة على جنوبها تحت ستار حق الاحتلال الذي كان أمراً مشروعاً بمانفستو غير مكتوب بصحائف القوى الاستعمارية العالمية العظمى آنذاك. وكان لابد لهذا التكالب الاستعماري المستعر من ردة فعل.. إن لم تساويه في المقدار فلن يعجزها أبداً أن تعاكسه في الاتجاه. وتبعاً لما سبق، فقد تصاعدت حالة من التململ بوسط شعوب آسيا القصية حتى أضحت بقاع كثيرة منها مسرحاً متقداً بلهب ثوري متتابع ضد أطماع التوسع البريطانية التي اجتاحتها بالتزامن مع تزاحم فرنسي وهولندي استعماري مماثل على مستعمرات القارة الغنية بمواردها البشرية والطبيعية المختلفة.

ولعل من أبرز المفارقات التي يجدر إحاطتها بعين التمحيص اللازم هنا.. هي أن جنرالين من أهم جنرالات بريطانيا من الذين تلألأت أنجمهم في تلك الحملات

الإمبرالية الناجحة لأخماد هذه الهبات.. قد لقيا حتفهما لاحقاً بسلاح الثورة المهدية في السودان. ونعني هنا تحديداً الجنرالين البريطانيين الذائعي الصيت «وليم هكس» و«تشارلز غردون» ودورهما بالتتابع في إخماد الثورة الهندية بعام ١٨٥٧ وثورة (التايبينغ) الصينية بالعام ١٨٥٠. تلك العلاقة الاستباقية التي نسجتها الأقدار بين جيوب المقاومة الآسيوية المتفرقة للبريطانيين والثورة المهدية في السودان لاحقاً.. كانت كافية تماماً لخلق مساحة وجدانية موضوعية بالضمير الجمعي لتلك القوميات للاحتفاء بهزائم البريطانيين التي ستلي في السودان بما يدفع بهم لخانة التعاطف الصريح مع الثورة المهدية.

في منتصف القرن التاسع عشر اندلعت أول حركة مقاومة للوجود البريطاني بشبه القارة الهندية فواجهها البريطانيون كدأبهم دوماً بما يكفي من القمع والتنكيل. وكان الجنرال وليام هكس الذي خدم بقوات الجيش البريطاني بمدينة بومباي الهندية من أبرز الضباط الذين اسهموا في القضاء على الثورة الهندية[1]. ولم يلبث الجنرال هكس أن كُلف بمهمة تالية بقيادة قوى بريطانية أخرى لقمع التمرد الاثيوبي والذي انتهى إلى هزيمة الأحباش في موقعة «ماجدالا» الشهيرة والتي جرت في نهاية ستينيات القرن التاسع العشر. تلك النجاحات الإمبريالية العسكرية المتتالية عبدت طريقاً سهلاً تحت أقدام هكس ليتسنم قيادة حملة الخديوي المصرية ذات المراتب العسكرية المتقدمة من ضباط إنجليز وآخرين أروبيين لقمع الثورة المهدية في سهول كردفان. وهي ذات الحملة التي انتهت إلى مصيرها المعروف بانتصار قوات الثورة السودانية ومقتل معظم قادتها من الجنرالات الأوروبيين.

ولعل أنباء مصرع هكس المأساوي وفناء قواته بغابة شيكان لم تغب عن مدارك الشعب الهندي بقومياته المختلفة آنذاك..نظراً لكثافة التغطية الإعلامية البريطانية لوقائع الحملة من خلال صحافة لم تدخر أي جهد لتدوين أنباء نزالات جنرالات بريطانيا الكولونيالية فيما وراء البحار ومن ثم نقلها لقرائها بمستعمراتها المختلفة. ولكن خيبة

1 **A History of The Indian Mutiny**: Rivived And Illustrated From Original Documents. Author: G.w Forset.publisher:william Blackwood And Sons, 1904, Uk.

حملة هكس المدوية في القضاء على الثورة المهدية دفعت صحافة بريطانيا للتقهقر عن مربعات التسويق لانتصارات جنرالاتها إلى مربعات حافلة بالقلق والتوجس من انتشار أصداء انتصارات المهدية بين مسلمي الهند بكل ما يمكن يتبع ذلك من فرضيات تعزز من ثقة القوميات المحلية الهندية في إمكانية قيامهم بحركة مقاومة وطنية متجددة لإنهاء سيطرة بريطانيا على بلادهم. وفي هذا الشأن تحديداً نشرت صحيفة بريطانية مهمة كصحيفة «بيرمنغهام ديلي بوست» تقريراً وافياً نقلاً عن مراسلها في مدينة «كلكتا» الهندية أشارت فيه لانتشار منشورات الثورة المهدية بين مسلمي المدينة وبالأخص ذلك المنشور الذي يعين فيه المهدي عثمان دقنة أميراً علي قبائل شرق السودان ويحثهم فيه على معاونته لمقاومة القوات الإنجليزية بجهات مدينة سواكن[1] أنباءٌ مهمة كهذه، لم يكن من المستغرب أن تتوارد وقائعها لأقاصي تبعد عن السودان بملايين الاميال على نحو القارة الأسترالية والتي كانت جوهرة غالية ترصع تاج ملكة بريطانيا حينها. ففي السياق نفسه، نشرت صحيفة أسترالية مقروءة كصحيفة «Darling Downs Gazzette» خبراً تحت عنوان: «المهدي يثير الاهتمام بالهند» أو.. «The Mahdi intriguing in India» وفيه أشارت إلى أن الشرطة الاستعمارية في الهند قد وضعت يدها على ما قدرته بـ«الكميات الهائلة» من الوثائق المثيرة للشكوك والتي اتضح للسلطات بعد فحصها أنها منشورات متعلقة بالثورة المهدية وجدت طريقة بصورة ما أو بأخرى إلى الهند[2].

ولكن بالعودة إلى تقرير «بيرمنغهام ديلي بوست» الذي سبق، يتضح أنه قد تم إعداده بعد هزيمة حملة هكس في شيكان بما يقارب الستة أشهر على أقل تقدير.. أي أن منشورات الثورة المهدية قد وجدت طريقها إلى الهند في الفترة ما بين تحرير مدينة الابيض في ١٨٨٣ إلى واقعة تحرير الخرطوم في ١٨٨٥. تلك هي ذات الفترة التي تعرضت فيها جريدة العروة الوثقى لسان حال الصحافة العربية المناوئة للقوى الاستعمارية في أواخر القرن التاسع عشر لتفاصيل تعاطف مسلمي الهند مع الثورة المهدية بقدرٍ مستفيض. وكانت الصحيفة التي يصدرها كلٌ من المفكرين الإسلاميين البارزين.. جمال الدين

1 بيرمنغهام ديلي بوست، ٢٨ مايو ١٨٨٤، أرشيف الصحافة البريطانية.

2 Gazzette Downs Darling، ٢٢ أبريل ١٨٨٤، أرشيف الصحف الأسترالية.

الأفغاني ومحمد عبده من باريس قد تعرضت في أحد أعدادها الصادرة في ١٨٨٤ للهزة العظيمة التي أحدثتها انتصارات المهدية على الآلة العسكرية البريطانية في نفوس الشعوب الهندية وما أحيته في قلوبهم بما أسمته بـ«الأمل بقرب الخلاص من ضيق الاستعباد» فمضت لتسرد تلك التفاصيل:

«إنتشرت أخبار المصائب التي حلت بالجيوش الإنجليزية من مصيبة هكس إلى ما بعدها في جميع ارجاء الهند وترى الناس زرافات وفرادى يتناجون في هذه المسألة ويرجعون على أنفسهم باللائمة فيما فرطوا من قبل وهم على ربوة الأمل يستطلعون سوانح الفرص وخصوصاً المسلمين فيهم كما أنبأتنا به الرسائل الواردة إلينا من أقطار مختلفة من البلاد الهندية». وتستمر الصحيفة في وصف حالة التأييد الواضح التي انتظمت وسط الشعوب الهندية للثورة المهدية في السودان لتقول:

«إن الاعتقاد بمحمد أحمد المهدي أخذ سبيلاً في قلوب الهنديين حتى كتب إلينا أحد أصدقائنا في لاهور أن محمد أحمد لو كان دجالاً لأوجبت علينا الضرورة ان نعتقده مهدياً وأن لا نفرط في شيء مما يؤيده».وفي ذات المقال المفصل اتجهت العروة الوثقى لامتداح الأثر الذي أحدثته انتصارات الأمير عثمان دقنة على البريطانيين في شرق السودان والذي إستبان فيما أبداه السودانيون من بسالة واتحاد كلمة في مواجهة القوات الغازية حيث قالت فيما يلي ذلك:

«ماذا أثارت هذه الغلبة العجيبة في نفوس السودانيين؟ ثبتت أقدامهم وقوّت جأشهم وجمعت كلمتهم وذهبت بما كان يخامر قلوبهم من الهيبة والرعب فجمعوا قواهم واستعدّوا للقتال للمرة الثالثة فحُرموا لسوء البخت أو حسن الحظ من مجابهة خصومهم لأن شدة الحر كانت من أعدائهم أو نصرائهم حين ألجأت العساكر الإنجليزية إلى الجلاء من تلك الديار فأسرعت إلى البحر لا يستقر لهم قدم إلا في مصر أو إنجلترا»[1].

---

1 جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده: **العروة الوثقى**، الناشر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢، ص ٢٤٦-٢٤٧.

ويبدو بجلاء أن العروة الوثقى كانت لها مصادرها المتعددة للأنباء المتعلقة بتعاطف القوميات الهندية مع الثورة المهدية في السودان ولعل من الممكن القول أنه كان لها شبكة مراسلين يبرِقون مكاتبها ببرقيات عاجلة فيما يختص بذلك ويتضح ذلك من خلال تقريرها المعنون بعنوان «المسألة المصرية والإنجليزية» والذي جاء فيه:

«ففي الأخبار البرقية أن رجال الشرطة في سملا وجدوا إعلانات ملصقة على جدران المدينة مما كُتب فيه إغراء للمسلمين بإجابة دعوة محمد أحمد المهدي والقيام بنصرته، وسملا هي آخر الممالك الهندية الإنجليزية بجهة الشمال الشرقي على القرب من لاهور». وتصف الصحيفة الاضطراب الذي يمكن أن تحدثه مثل هذه الوقائع على سطوة الإنجليز في الهند حينما تمضي لتقول: «وربما تكون هذه الصدمات الشديدة التي صدّعت إنجلترا بعد استفحال أمر محمد أحمد المهدي كافية في إذعانها بأن عاقبة الثورة السودانية أشد خطراً عليها من عاقبة الثورة التي أسموها عرابية».. ثم تسترسل الصحيفة لتتوقع هبات شعبية هندية ضد الإنجليز بالتزامن مع انتصارات المهدية وتقدمها المحتمل نحو مصر، فتجنح لأسلوب التساؤل التقريري الذي يرسخ ما يليه من الحقائق في ذهن القارئ:

«وأي قوة تصون لهم الهند من فتنة إذا امتد زمن الاضطراب في مصر؟! وقد جاءنا من أخبار الهند أن عموم المسلمين في هياج شديد ويُخشى أن تثور فيهم ثائرة عندما يتقدم محمد أحمد «المهدي» خطوة أخرى».

وفي التقرير نفسه، تتعرض الصحيفة للإجراءات الأمنية المشددة التي اتخذها الإنجليز بجنوب مصر منعاً لتعاطف القبائل المحتمل هناك مع تحركات الثورة المهدية في شمال السودان فخلصت إلى أن هذا الأمر برمته يوضح هلع البريطانيين مما يمكن أن تحدثه انتصارات المهدية من أثر في مستعمرتهم بشبه القارة الهندية، وذلك على نحو ما ذكرت:

«قصدوا بكل ذلك حماية طريق الهند خوفاً على الهند، فبعدما ورد إلينا من أصدقائنا في لاهور أن لدعوة محمد أحمد في قلوب الهنديين منزلة، وأنه لو لم يكن مهدياً فإن

الضرورة قاضية عليهم باعتقاده كذلك عسى أن يكون ذلك الاعتقاد جمعاً لكلمتهم على التخلص من رِق الإنجليز وجاءت البرقيات شاهدة على صدق ما كُتب إلينا»[1].

ولَم تكن تلك الأخبار المقلقة للبريطانيين والتي نقلتها العروة الوثقى بمعزل عن اهتمام صحافة بريطانيا التي مالت بدورها لتأكيد تلك الأنباء. وتزامن كل ذلك مع إنتصاف شهر أبريل من العام ١٨٨٤ حينما كانت قوات الثورة المهدية تحكم حصارها على مدينة الخرطوم التي إستعصم الجنرال تشارلز غردون خلف أسوارها ببصرٍ شاخص نحو طلائع جيش الإنقاذ البريطاني الذي بعثت به الملكة فيكتوريا لنجدة قائدها الأثير لديها.. ذاك الجنرال الذي طالما وُصف بأروقة سجلات البلاط الملكي البريطاني بالقائد المنتصر دوماً (The Ever Victorious Gordon). في ظل تلك المواجهات المحتدمة بين قوات الثورة المهدية والقوات البريطانية الغازية نشرت صحيفة (Morning Post) اللندنية الذائعة الصيت خبراً مهماً أكدت فيه ما ذهبت إليه العروة الوثقى من تعاطف وثيق مع انتصارات المهدية في أقاصي الهند وذلك تحت عنوان «الهند.. والمهدي».. (India and the Mahdi).. أشارت فيه إلى أن الشرطة الاستعمارية في الهند قد قامت بعمليات مصادرة واسعة لمنشورات الثورة المهدية بمدينة سملا الهندية في خبر يتوافق ضمناً وشكلاً مع ما قام بإعداده جمال الدين الأفغاني مع صديقه محمد عبده من تقارير بخصوص ما سبق[2].

ويبدو أن القلق الإنجليزي من تصاعد الاهتمام بأنباء الثورة المهدية في الهند قد بلغ أشده بعد مقتل الجنرال غردون الذي أعقبه تحرير الخرطوم ومعارك أخرى محتدمة في شمال السودان عندما كانت قوات الثورة تتعقب فلول حملة إنقاذ غردون الإنجليزية المنسحبة، ففي ٨ أبريل ١٨٨٥ نشرت صحيفة «The Globe» اللندنية خبراً عن أنباء تؤكد وصول عملاء للمهدي بمدينة كلكتا الهندية مما يؤكد فرضية توطئ لنفسها كنفاً بالأذهان يؤيد إمكانية وجود صلات حقيقية بين مسلمي الهند والثورة المهدية في

1 جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده: **العروة الوثقى**، مصدر سابق، ص ٢٨٣-٢٨٦.

2 **Post Morning**، أبريل ١٨٨٤، أرشيف الصحافة البريطانية.

السودان. وفي ذات السياق، يسرد المؤرخ البريطاني بيتر هاردي صاحب كتاب «مسلمو الهند البريطانية» واقعة تؤكد الاحتفاء الشعبي لمسلمي الهند بانتصارات المهدية وتطلعهم لأنبائها في سياق متفق مع ما أوردته الصحيفة اللندنية المعروفة وما يمكن أن يترتب على ذلك من نسق موضوعي لتسلسل الأحداث. وحدثت تلك الواقعة في مدينة كلكتا تحديداً إبان رحلة الناشط والكاتب البريطاني المعروف بتوجهاته المعادية لإمبريالية بريطانيا «وليفرد بلنت» للهند في ١٨٨٤ والتي زار فيها «كلكتا» ودُعي كضيف لتناول العشاء على موائد أحد علماء المدينة المسلمين احتفاءً بمقدمه. وأكد بلنت أن الشيخ وتلامذته عبروا له صراحة عن آمالهم المعلقة في حركة مهدي السودان وتقدمها لتحقيق المزيد من الانتصارات حتى يتم طرد الإنجليز من مصر ويجزم الضيف أن مضيفيه لم يجتهدوا كثيراً في إخفاء مقتهم لبريطانيا وسياساتها[1].

وبأخذ ما سبق على محمل الجد الذي يليق بذلك الأثر الشعبي الموثق الذي أحدثته الثورة المهدية في الهند، يبقى العقل البحثي أسيراً لجدلية معقدة تجد طريقاً مُعبّداً أمامها لفرض نفسها على المشهد بحثاً عن جذور تلك الوشائج المبكرة بين الثورة السودانية والهند وأيهما كان سباقاً نحو الاتصال بالآخر. فالذي لا جدال فيه..أن الثورة المهدية التي كانت منشغلة بالأعمال الحربية وما يصاحبها عادة من حشد وتعبئة جماهيرية لتحرير السودان من الاستعمار التركي المصري، ما لبثت أن وجدت نفسها في مواجهة أعنف مع بريطانيا حين قذفت الأخيرة بجنرالاتها لأتون حروب السودان. فعلى الرغم مما أحتوته أيدولوجية الثورة المهدية المبكرة من أدبيات تتحدث عن تحرير بلاد المسلمين من قبضة القوى الاستعمارية إلا أن اهتمامها المرحلي كان منصباً بقدر أكبر نحو إنتاج خطاب محلي قادر على خلق حالة متواصلة من الحشد والتأييد الشعبي الذي يتجاوز التفاصيل المحلية القبلية الشائكة إلى حالة من الإنصهار الوطني الذي يمكنها من إدراك أهدافها المرحلية. تلك الفرضية السابقة ليس من المستبعد أبداً ان يكون المؤرخ الأمريكي البروفيسور كيم سيرسي– أستاذ كرسي التاريخ بجامعة Layola University Chicago الأمريكية – قد

1 **The Muslims of British India** by P. Hardy. Publisher: Cambridge University Press 1973, United Kingdom,p.120.

إستصحبها حين قرر متوافقاً مع رؤية المؤرخ البريطاني البروفيسور هولت أن انتصارات المهدية في كردفان قد وجدت طريقها للعالم الخارجي مبكراً مما دفع بعض الشعوب لجعلها كالأمل الذي يمكن التعلق به للخلاص من ربق الاستعمار. وبمعنى متضمن في كل ذلك يمكن القول أن السابقة كانت للعالم الخارجي- وبالأخص مسلميه - في تأسيس تواصل حقيقي مع الحركة المهدية في السودان، وذلك أمر يسهل تفسيره في إطار مناخ التكالب الاستعماري العالمي الذي أحيا في نفوس الشعوب المسلمة تطلعاً موضوعياً نحو الحرية والانعتاق. وفي سبيل ذلك، يجزم سيرسي أن وفوداً من العالم الخارجي بما في ذلك الهند تحديداً قد تقاطرت على المهدي ووقفت على حاله بكردفان وسمعت تعاليمه وذلك حين يقول:

«بات اسمُ المهدي مُهاباً واتسم بتنامٍ متزايد ليس على مستوى السودان وحده، بل امتد ذلك ليشمل كل بلاد المسلمين. وتقاطرت عليه الوفود من الحجاز والهند وتونس والمغرب لزيارته وسماع تعاليمه»[1].

ولعل تلك الأخبار المار من قبل ذكرها عبر ما نشرته «**The Globe**»، تُعد من شاكلة الأنباء التي لا يمكن أن تستقبلها الإدارة الاستعمارية فيما كان يُعرف بالهند البريطانية بأي قدر من الارتياح.. مما استدعى رداً سريعاً لم يستغرق استصداره سوى يوم واحد من صحيفة «**Bombay Gazette**» رائدة الصحافة الكولونيالية الناطقة بالإنجليزية بتقرير جاء تحت عنوان «مسلمو الهند والمهدي».. (**The Indian Mohamedans and the Mahdi**).. سارعت فيه لرسم صورة مغايرة للعلاقة بين الثورة المهدية وشبه القارة الهندية حين تحدثت عما أسمته بإخلاص ومحبة القوميات الهندية بما فيها (مسلمي الهند) للحكم البريطاني وشددت على أن الإنجليز هم من جلبوا مبادئ الانسانية والعدل للهند وحشدت الصحيفة تقريرها بعبارات تقريرية موغلة في الغضب الذي يوضح

1 **The Formation of the Sudanese Mahdist State: Ceremony and Symbols of Authority: 1882 - 1898** by Kim Searcy. Publisher: Brill 2011, Leiden, Netherlands,p.34.

انظر أيضاً:

P. M. Holt, **The Mahdist State in the Sudan, 1881 - 1898. A Study of its Origins, Development and Overthrow**. Publisher:Oxford: Clarendon Press, 1958. United Kingdom,p.64.

بجلاء أن للأكمة ما وراءها..على نحو:

«أنه من الكذب والزور الصراح (downright falsehood) القول بأن المسلمين هنا متعاطفون مع المهدي».

وتحدث التقرير في نهايته عن الأحلام الروسية الواهمة التي تعتقد أن الهنود «ربما بإيعاز من نجاحات المهدي في مجابهة القوات البريطانية بالسودان» قد يسعون لإزالة الحكم البريطاني بالهند وإختتمت الصحيفة تقريرها الذي اتسم محتواه بالحدة البائنة قائلة: «إن أي مواطن هندي قادر على حمل السلاح سيقاتل من أجل الإنجليز حتى آخر لحظة»[1].

ولعل من نافلة القول الإشارة إلى أن ذلك النهج الذي يفترض الولاء الأعمى لبريطانيا بأواسط مواطني مستعمراتها لم يكن على أي قدر من التوافق مع اتجاهات الصحافة المحلية في الهند وبالأخص فيما ارتبط بأثر الثورة المهدية على قومياتها المختلفة وليس أدل على ذلك من شيء كاتجاهات صحيفة محلية مهمة على نحو صحيفة «أخبار عام» في هذا الشأن تحديداً. ولَم يكن غريباً توافق سياسة «اخبار عام» التحريرية مع صحيفة أخرى ثورية الطابع كالعروة الوثقى لصاحبيها الشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده عطفاً علي إنطلاقهما من ذات الإرث المقاوم لمد بريطانيا الاستعماري في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية. ويستبين ما سبق جلياً في تضمين العروة الوثقى لصحيفة «أخبار عام» كمصدر لأخبارها عن الهند في عدد من مقالاتها وإشاراتها المتكررة لتقارب خطها التحريري مع صحف هندية محلية أخرى على نحو صحيفة «دارالسلطنة» التي كانت تصدر من مدينة «كلكتا» وصحيفة «مشير قيصر» التي كانت تصدر من «لكهنو» وقد قامت كل تلك الصحف بترجمة مقالات العروة الوثقى عن الثورة المهدية في السودان للغات الهندية المحلية ومن ثم نشرها بصفحاتها[2].

وقد أخذ هذا المسار التحريري المشترك معلماً أكبر من حيث الإستبانة في أعقاب

1 بومباي غازيت، ٩ أبريل ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

2 جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده: **العروة الوثقى**، مصدر سابق، ص ٣٢٤.

تحرير العاصمة السودانية الخرطوم بواسطة قوات الثورة المهدية. وتجلى ذلك حينما كتبت صحيفة «العروة الوثقى» مقالاً تحت عنوان «حيلة إنجليزية» أشارت فيه نقلاً عن صحيفة «اخبار عام» السابق ذكرها لمكائد إنجليزية جديدة تعمل بريطانيا على إنفاذها بين مسلمي الهند وقد شكلت -بحسب رأي الصحيفة - مخاوف الإنجليز من تعاطف الهنود مع انتصارات الثورة المهدية في السودان دافعاً أساسياً وراء تلك المخططات وذكرت الصحيفة ان كل ذلك:

«إنما القصد منه أن يخدعوا المسلمين بمشكلاتهم ليركنوا إليهم ويحسنوا الظن بهم فيبيحوا لهم بما تكنه صدورهم من خواطر الميل إلى دعوة محمد أحمد المهدي السوداني. وهذا يدل على أن هذه الدعوة أخذت من قلوب الهنديين، وعظمت منزلتها فيهم، وتوقع الإنجليز شراً من فشوها فيهم، وامتداد شهرتها بين مسلمي الهند وطلبوا للإحتياط هذه الوسائل».

ثم يمضي المقال بقارئه نحو التسليم بأن ذيوع انتصارات الثورة المهدية في الهند بالتزامن مع أطماع روسيا التوسعية فيها، هما من أكبر التحديات التي يتوجب على الإدارة الاستعمارية البريطانية مواجهتها الآن وذلك بإظهار ما يلزم من الود والتوادد للمسلمين وقضاياهم (ولو اقتضى ذلك أن يتظاهر بعضهم باعتناق الإسلام) لحين انقضاء تلك العواصف.. ويستبين ذلك من سياق النص التالي الذي تضمنه المقال:

«وقالت بعض الجرائد أن الخشية من الإذعان لدعوة السوداني قد انضم إليها الرهبة من قرب الروس من تخوم الهند، فكان من مجموعها فزع شديد، حمل الإنجليز على التودد للمسلمين، والظهور في مظاهر العدول المنصفين، بل الأصفياء المخلصين حتى أن الإخلاص والعدالة تحمل الكثير منهم على التدين بالدِين الإسلامي ليملكوا بذلك قلوب السذج، ويمحصوا بعض الصدور من الحقد عليهم ويثقوا بهم عاجلاً أم آجلاً»[1].

ويتجه المؤرخ السوفيتي سيرجي سمرنوف -بما توفر لديه من مصادر تاريخية روسية- للتأكيد على أن المهدية كثورة قد شكلت خطراً مقلقاً أصدع رؤوس البريطانيين

1 جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده: **العروة الوثقى**، مصدر سابق، ص ٤١١.

وإدارتهم الاستعمارية بالهند فيقول استناداً على ما نُشر ببعض الصحف الروسية آنذاك:

«وترددت أصداء المهدية حتى امتدت إلى الهند. وظهر فقير في الهند وشرع في المناداة بانتصار الإسلام عالمياً ونجاح حركة المهدي وأن لواء الإسلام سيرتفع عالياً خفاقاً فوق الصليب المسيحي».. ثم يجزم سمرنوف بناءً على مصادره الصحفية الروسية أن الحركة المهدية السودانية كان لها مساندين حقيقيين بالهند بدأوا بالفعل في تنظيم أنفسهم للقيام بعمل ثوري ضد الإنجليز وذلك حين يقول:

«إن أتباع دولة المهدية في الهند شرعوا في نشر وجهة نظرهم في الجرائد والمنشورات، مما حدا بحكومة الهند إلى أن تعلق أهمية كبرى على ذلك ورأت أن من الضروري مصادرة المنشورات»[1].

تلك الحقائق المتتابعة عن افتتان مسلمي الهند بانتصارات الثورة المهدية مع أنباء أخرى عن غيرها من الحركات المناوئة لسيطرة البريطانيين في الشرق والتي اجتمعت للقراء على صفحات «العروة الوثقى» بانتظام كما اجتمعت لدي غيرها من الصحف الأخرى المهتمة بالشؤون العالمية، لم يجد الإنجليز إزاءها من أي رادع سوى مصادرة أعداد «العروة الوثقى» القادمة إلى الهند ومصر وفرض غرامة مالية على قرائها كما أكدت الصحيفة نفسها في أحد اعدادها بمقال عنونته تحت عنوان: «العروة الوثقى: مصادرتها في مصر والهند وفرض غرامة على قرائها» وقد استخدم كاتبه – الذي يرجح ان يكون الشيخ جمال الدين الأفغاني – لهجة نقدية لاسعة نحو سياسة ضيق البريطانيين بأي صحافة مناوئة لهم في مستعمراتهم تُري الناس ما لا يَرَوْنه هم.. وقد جاء في ذلك المقال:

«فدولة الإنجليز التي تحاسب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم وما يمكن أن يهجس في حديث نفوسهم ؛ لا ريب أنها تعد وجود لفظ الإسلام في جريدة كافياً على منعها من الدخول إلى بلاد لها فيها قدم ثابتة أو تسعى إلى تثبيتها بل تحسب أن من ألد أعدائها شخصاً علق هذا الإسم من أي جسم كان، فلا غرابة من صدور هذا الجور

1 سمرنوف، ص 208، 209.

منها غير أننا نعلن لها أن هممنا لا تُقعدها أمثال هذه المظالم وليس يعجزنا إدخال هذه الجريدة في كل بقعة تحوطها السلطة الإنجليزية الظالمة»[1].

الذي لا شك فيه أن العروة الوثقى لم تكن تبالغ في نقل الأثر الذي أحدثته انتصارات المهدية في زعزعة ثقة بريطانيا بسيطرتها المطلقة سطوة على مقاليد الامور بمستعمراتها الهندية وما قد يتبع ذلك من نتائج مقلقة لهم، فحتى الجنرال غردون نفسه في غمرة توقه لتسنم رياح النجاة من قبضة حصار قوات المهدية وهو في عزلته القاتلة بداخل أسوار مدينة الخرطوم، لم يكن ليغفل الأثر المحتمل لتلك الوقائع على الهند وغيرها من بقاع الشرق عموماً فكتب بأوراقه ما يلي بتاريخ ١٧ سبتمبر ١٨٨٤ :

(إن سياسة الانسحاب البريطاني لن تلقي بكل السودان في أيادي المهدي فحسب، بل إن من شأنها أن تجرئ علينا كل المسلمين الذين يحملون أفكاراً مماثلة له وتدفعهم نحو الثورة ضدنا في مصر والمناطق الواقعة تحت النفوذ العثماني وبمستعمراتنا البريطانية في الهند). ويعرب غردون عن مخاوفه بصورة أوضح حين يقول: «إن ما يجب أن يثير مخاوفنا ليس قوة المهدي العسكرية بقدر ما يمكن أن يترتب على حركته من قيام انتفاضات شعبية «بتلك المناطق» بواسطة عملائه ومبعوثيه»[2].

وقد ظلت تلك المخاوف التي اعتملت في صدر غردون حية حتى بعد مقتله وتحرير مدينة الخرطوم في ٢٦ يناير ١٨٨٥، فبعد اقل من شهرين من مصرعه شهدت مدينة «درم» البريطانية اجتماعاً نخبوياً بريطانياً إحياءً لذكرى غردون، أمته قيادات نخبوية بريطانية متعددة، وفيهم من اشتهر بخبراته العملية في أروقة الإدارة الكولونيالية البريطانية بالهند على نحو السير» رتشارد تمبل» والذي عمل بوظائف متقدمة كان من أبرزها شغله منصب حاكم عام بومباي الهندية في أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر. وما كان لاجتماع صفوي كذاك أن يمر دون أن تتجدد من خلاله تلك المخاوف من صدى انتصارات الثورة المهدية على الهند وفي هذا الشأن تحديداً يصف المؤرخ البريطاني

1 العروة الوثقى، مصدر سابق، ص ٣٣٥-٣٣٦.

2 فيرغس نيكول: جلادستون وغردون وحروب السودان، ص ١٥٢.

فيرغس نيكول سيطرة تلك الروح على التجمع السابق ذكره حين يقول:

(أسرع عدد كبير من الحاضرين من الذين يمكن وصفهم بالأشخاص المحترمين «Respected individuals» للتعبير عن قلقهم من الأثر المرتقب لنجاحات المهدي على مستعمرات بريطانيا في الهند). وخاطب السير «تمبل» الحضور بحديث العارف المحيط بحكم خبراته الهندية السابقة محذراً من إشتعال الهند ومستعمرات بريطانيا الشرقية الأخرى بثورات مماثلة تحاكي نجاحات المهدية في السودان، فقال فيما قال:

«إن سقوط الخرطوم ومصير غردون سيكون له بالتأكيد أثر سئ على الهند والشرق عموماً». ودعا السير تمبل في ختام حديثه لضرورة إستعادة الخرطوم والعمل على هزيمة المهدويين درءً للأصداء المُحتملة لانتصاراتهم على الهند وغيرها من المستعمرات البريطانية 1. وقامت مجلة نخبوية بريطانية مهمة تعني بالقضايا الفكرية والمعرفية من خلال إسهاماتها المعروفة في حركة التنوير بشقيها السياسي والاجتماعي على مستوى بريطانيا على نحو مجلة «Contemporary review» بنشر ورقة مفصلة بقلم السير «تمبل» حول أثر الثورة المهدية علي مستعمرات بريطانيا في الهند تحت عنوان «المهدي والهند البريطانية» فأخذت موقعاً مميزاً بعددها الصادر في مارس ١٨٨٥.

وفي افتتاحية دارسة تمبل العميقة، أقر السير البريطاني بمقدرة المهدي على إبقاء جذوة المقاومة مشتعلة بصدور السودانيين الذين تجاوزوا تحت قيادته تناقضاتهم القبلية نحو نسيج متماسك لن يسهل على العدو اختراقه بالانكسارات والهزائم، وذلك على نحو ما ذكر تحديداً:

«لابد علينا أن نعترف بأن مصير الخرطوم وغردون كان حدثاً سئ الطالع علينا ومن المحتمل أن تهتز لمثل هذا الحدث عقول الشرقيين فتنفذ آثاره لأعماق قلوب المسلمين فتؤججها علينا تبعاً لذلك. لقد قاتلنا أعراب السودان بتفانٍ مبعثه غضب ماحق نحونا مسترجعين بذلك ذكرى الخلافة الإسلامية الأولى. ما زال المهدي لعدة أشهر ثابتاً على موقفه في المقاومة. لقد أفلحت منظومته التي صنعها من قبائل السودان في الصمود بقوة

1 نفس المصدر،ص 161.

أمام ما يمكن أن تحدثه عدد من الهزائم الدامية فيهم من إخماد للهمم وتثبيط للعزائم»[1].

ثم يسترسل السير تمبل ليشبه حماسة الأنصار تحت رايات الثورة المهدية بحماسة المسلمين الأوائل مع نبي الإسلام محمد (ص) من دون أن يغفل عن دمغهم جميعاً بصفة التعصب الذي كان نعتاً معباً جاهزاً عند ساسة بريطانيا يتم إلصاقه بخصوم الإمبراطورية بحسب درجات مقاومتهم لجحافلها.

ويمضي تمبل ليلخص تبعات كل ما سبق مُقراً بقدرة الثورة المهدية على إلحاق الهزيمة بقوى استعمارية تفوقها تدريباً وعتاداً حين يشير تحديداً لمقتل غردون وفشل حملة الإنقاذ البريطانية بقيادة ولزلي في تحقيق أهدافها ومآلات ذلك المشهد بكل ما يمكن يُحدثه من إستحسان في نفوس شعوب مستعمرات بريطانيا الشرقية، فيقول:

(إن النتائج المترتبة على تلك العوامل مجتمعة.. تمثلت في إلحاق الهزيمة بجحافل إنجلترا العسكرية الجيدة التدريب. هذه الجرأة التي اكتسبها هؤلاء ليس من المتوقع هزيمتها بصورة فورية. إن صحراء «السودان» الآن هي حليف خبره -في أحايين كثيرة أهلها -من المسلمين الذين إحترقت جلودهم بشمسها القائظة. هذا المشهد غير المألوف والذي تلقى فيه جيوش بيضاء غازية كل هذا العنت والمشقة وهي تتقدم على رمال الصحراء محاصرة بالظمأ لهو مشهد مثير للإعجاب والارتياح بنفوس كل الناس وبالأخص المسلمين منهم)[2].

ويرى تمبل أن حدث مقتل غردون التراجيدي على عتبات قصره الذي كان يتوسط مدينة الخرطوم المحاصرة بقوات الثورة المهدية، لم يكن في جوهره سوى إهانة متعمدة لكبرياء بريطانيا سيكون له ما بعده من التبعات التي ستسهم في إهتزاز هيبة الإمبراطورية وسطوتها في نفوس الهنود والشرقيين عموماً وذلك حين يقول:

«من ناحية أخرى فإن المنصب الذي كان يتقلده غردون كان بمكانةٍ من العلو في نفوس الهنود والشرقيين عموماً بما يجعله بأعلي موضع من الوطنية يمكن أن يتمتع به

1 Temple,Richard: **The Contemporary review**, 1866-1900; March 1885, 47, British Periodicals, p.305.

2 المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

رجل إنجليزي في نظرهم. إنهم ينظرون إليه كمبعوث مفوض من إنجلترا يرتدي بزة السلطات الرسمية الإنجليزية. إن مصيره الذي لاقاه سيظل في أعين هؤلاء «الهنود والشرقيين» تمثيلاً لجرحٍ عميق لكرامة إنجلترا **Laesa Majestas**.هذا الوضع محرج للغاية لإنجلترا لكونها من أكبر القوى العالمية التي يخضع لسلطانها أكبر عدد من المسلمين في «مستعمراتها»»[1].

ثم يستطرد السير تمبل ليوضح ما سبق بصورة أكثر تفصيلاً حين يتحدث بإسهاب عما يمكن أن تُحدثه انتصارات المهدية في السودان من أصداء في نفوس المسلمين الخاضعين لسيطرة بريطانيا في مستعمراتها المختلفة في شتي جهات العالم من جنوح للثورة علي القبضة البريطانية إستيحاءً لنجاحات الثورة المهدية في المقاومة الناجحة للأطماع الاستعمارية وذلك حين يقرر بحزم:

«بالنسبة لإنجلترا وباعتبار ما تتمتع به الآن من سلطة سياسية عليا في العالم الإسلامي، فإن أمر اصطدامها بمقاومة مسلحة ناجحة «من قبل المهدويين في السودان» وما ترتب عليه من تحجيم لفعالية حملة الإنقاذ الإنجليزية بتلك الكيفية في منطقة وسط وادي النيل، لهو أمر يمكن تقييمه كمسألة في غاية الخطورة».

ويتوغل السير تمبل بمخاوفه لمسافات أبعد حين يستكشف الروح الوطنية التي أثارتها الثورة المهدية في نفوس السودانيين ويقر بإمكانية الإحتذاء بذلك النموذج من المقاومة الناجحة حتى من قبل القوميات الهندية الغير مسلمة التي لم يستبعد تمبل تأثرها بهزائم بريطانيا في السودان، فيقول في هذا الشأن:

«ليس المسلمون الخاضعة بلدانهم لسيطرة بريطانيا هم وحدهم المتوقع تأثرهم بهذا الهياج السياسي المترتب على مشهد التراجع «العسكري» البريطاني. إن قومية بأكملها كقومية الهندوس بما تشكله من أغلبية سكانية في الإمبراطورية البريطانية ستظل ترقب سماءنا تربصاً لترى إن كان نجمنا في حالة صعود، شأنهم في ذلك شأن مجموعات عرقية أخرى، وبتحديد أكثر يمكن القول أن قوميات الماهاراتا، السيخ والغوركا هم الأكثر

1 نفسه.

عرُضة للتأثر بمثل هذه هذه المشاعر الوطنية المتأججة»[1].

حقائق مدوية كتلك التي سبقت، ربما دفعت تمبل - بخبراته الكولونيالية الإدارية العريقة في تسيير شئوون مستعمرة الهند البريطانية - إلى تسكين هدأة مخاوف النخبة البريطانية على الجوهرة الهندية الغالية بتاج الملكة فيكتوريا أنذاك وذلك بالجنوح للتأكيد على متانة القواعد التي يقوم على أوتادها بناؤهم الاستعماري في الهند بصورة حازمة. ذلك التأكيد الذي لم يخل من طمأنة موضوعية أوقعه في شراكٍ من التناقض البين حين تحدث في موضع اخر عما يمكن أن تُحدثه انتصارات المهدية من زلزلة بأركان هذا البناء الاستعماري الذي سبق وصفه بالمتانة العصية على الإرتجاج، وكأنه ينقض غزلاً من القناعات التي لم تلبث كثيراً في أذهان قرائه قبل أن يتخطفها التناكث العجول، وذلك على نحو قوله:

«على الرغم من كل ما سبق، فإن هذه الجرأة التي اتسم بها المهدويون في مواجهتنا بالخرطوم والسودان عموماً، يمكن اعتبارها كواحدة من تلك الأحداث التي ما لم نقم بتصحيحها، فستؤدي مجتمعة - مع سلسلة من الملابسات الأخرى- إلى جر الإمبراطورية البريطانية في الشرق نحو الإنهيار»[2].

ويسترسل تمبل مطلقاً العنان لسلسلة متتابعة من الانطباعات التي يمكن أن تحتفر بأذهان الشرقيين عموماً والقوميات الهندية بوجه أخص جراء صمود المهدية في مواجهاتها العسكرية مع بريطانيا في السودان وتراجعات البريطانيين أمام تقدم قوات الثورة المهدية على الرغم من مثالية تجهيز القوات الإنجليزية التي بُعثت من أجل حسم تلك المواجهات.. ممهداً بذلك لمطالبته بعمل عسكري واسع متجدد تستعيد به الإمبراطورية هيبتها السليبة التي تمرمغت على أراضي السودان، فيقول:

«دعوا أي شخص له إلمام بأحوال الشرق بتحررٍ كامل من أي إنحياز سياسي بصورة أو بأخرى، يحدثكم بهدوء عما سيظنه الهنود بنا إن ترددنا الآن. وبماذا ستحدثهم

1 المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

2 المصدر نفسه، ص ٣٠٧.

أنفسهم، بعد ما قمنا به من عمل كبير لإنقاذ غردون ومشايعيه الأوفياء في الخرطوم، بعدما جيشنا حملة عسكرية لمئات الأميال بمحاذاة النيل بكل ما ميزها من الجودة من حيث التجهيز والعتاد بعناصر من أشجع رجالنا بقيادة جنرال بريطاني شهير على نحو الجنرال ولزلي، بعدما جمعنا كل تلك الموارد أو الإمكانيات المرتبطة بسلاح البحرية البريطانية من جهات بعيدة لتسهيل عمليات الملاحة بالنسبة لقواتنا بنهر النيل لعبور شلالاته المتكررة التي إعتقد البعض حتى يومنا هذا بإستحالة تجاوزها. أبعد كل هذا نجفل في مواجهتهم بهذا الشكل الذي يجعل الوضع برمته يندرج تحت ما يمكن تسميته بالنهايات المأزومة؟»[1].

و يواصل تمبل قراءاته التحليلية لأثر ذلك المشهد الممتلئ بمعالم الفشل العسكري البريطاني أمام قوات المهدية وإنعكاساته على مرآة الوعي القابعة بأعماق عقول الشرقيين حتى حين يتفاني البريطانيون بمصانع القرار السياسي لإيجاد ما يليق بذلك من المبررات التي سيستثمرونها في التخفيف من وقع إنتكاستهم العسكرية على أذهان الناس في مستعمراتهم القصية، فيقول:

«سيتساءل الشرقيون عما إذا كانت الصعوبات التي واجهناها كافية لصدنا عن الوصول لأهداف الحملة، وعما إذا كانت مقاومة المهدويين لنا بذلك القدر من الصلابة القادرة على ردنا، أم أنه كلما توغلت قواتنا في آراضيهم كلما تكشف لدينا ضعفنا في مواجهتهم. لن تكون هناك فائدة لتبرير ذلك من خلال إعلامهم بمحدودية أهداف الحملة العسكرية أو القول بأن القصد من جيوشنا التي أرسلناها هو إنقاذ غردون وحاميته إن وجدناهم أحياء. لن يتفهموا ذلك بل عوضاً عن ذلك سيقولون بأننا ذهبنا لاحتلال الخرطوم التي تحصن غردون خلف أسوارها مدافعاً لفترة طويلة».

وفي موضع آخر، يواصل تمبل قراءاته فيما يختص بتقييم العقل الجمعي لقوميات شبه القارة الهندية لأحداث الثورة المهدية فيما بعد تحرير الخرطوم وقد بدا مشهد تراجع فلول حملة الإنقاذ ملقياً بظلاله القاتمة علي أسلوب إستقرائه للتفاصيل كما قدرها قلمه:

1 المصدر نفسه، ص ٣٠٩.

«هذا الانسحاب المبكر الذي أقدمت عليه قواتنا سيزعزع من قناعات الشرقيين بعدد من العوامل التي تشكل الدعائم المعنوية التي يقوم عليها نفوذنا الاستعماري في الشرق. سيبدأ الشرقيون بالتشكيك فيما إذا كانت هناك أي عقوبات يمكن أن تطال الذين قتلوا الأوروبيين أو معاونيهم في تلك المواجهات. سيشككون فيما إذا كانت إنجلترا نفسها متحدة لمواجهة تلك المصاعب كما كانت من قبل. سيشككون فيما إذا كانت بريطانيا متماسكة كما كانت قديماً حينما يحتل العدو مواقعاً تابعة لها. سيشككون فيما إذا كانت مواقعنا القيادية بمراكز صناعة القرار الإمبريالي البريطاني ما زالت تمتلك الدهاء اللازم للتعامل مع تلك الأزمة بذلك القدر الذي كفل لها أن تظل مركزاً للإشعاع السلطوي الاستعماري الذي عم جميع أنحاء العالم من قبل. لو أبقينا على الباب مواربـاً لتلك الشكوك لتزحف بحرية نحو العقل الجمعي الهندي، فسيؤدي ذلك لتسرب الوهن لمقربة كافية من أساس الحكم الاستعماري البريطاني هناك. هذا الوهن الذي سيتسرب إلى تلك المكامن..من الممكن أن يكون إيقاعه بطيئاً ولكنه حدوثه سيكون في حكم الشيء المؤكد»[1].

ويتجه السير تمبل إلى اختتام ورقته المهمة بخلاصة جازمة حين ينادي بحزم بضرورة أن تعمل بريطانيا على هزيمة الثورة المهدية وإستعادة الخرطوم إخماداً لأي أثر سيء متوقع من أصداء انتصارات المهدية بشبه القارة الهندية والشرق الأقصي وما يحتمل أن يتبعه من إرتخاء في القبضة الكولونيالية الإنجليزية على مستعمراتها هناك، فيقول:

«إن خلاصة ما سبق تتمثل في أنه إذا تم الإقرار بكل تلك الاعتبارات المختلفة التي أوردنا ما يسندها من الدلائل، فإن سقوط الخرطوم ومصير غردون سيكون له أثره البالغ السوء - بالنسبة لنا - على الهنود والشرق عموماً ما لم يتم إخماد هذا الأثر بإسترجاع المدينة. وعليه ومن هذا المنطلق تحديداً فإن إعادة احتلال هذا المكان هو عمل مرغوب فيه بشدة تُحتم علينا القيام به الآن. هذه الرغبة الملحة التي يجب أن تدفعنا لاحتلال هذه المدينة ستظل بذلك القدر من الإلحاح الذي يصعب معه التمييز بين

1 المصدر نفسه، ص ٣٠٩-٣١٠.

حوجتنا الماسة لتحقيقها ومنفعتنا التي سنجنيها منها حتى ولو كانت غير مقبولة من الناحية الأخلاقية»[1].

مما تقدم سرده يتضح بجلاء أن الدوائر الرسمية البريطانية ووسائل الإعلام المقروءة في إمبراطوريتهم المترامية الأطراف قد انشغلت بتتبعات انتصارات الثورة المهدية على القوى الاستعمارية في السودان بما يكفي من الشغف. كما شكل توارد أصداء مواجهات المهدية المحتدمة مع الإنجليز إلى العالم الخارجي، مخاوفاً موضوعية عند البريطانيين من هبات شعبية مماثلة في مناطق نفوذهم الاستعمارية بشبه القارة الهندية. وليس أدل على موضوعية تلك المخاوف من شيء مثل اقترانها الموثق بتجاوب شعبي محلي مع انتصارات المهدية من خلال حديث البريطانيين المتكرر عن عملاء محليين للمهدي في تلك المناطق وانتشار منشوراته المحرضة على الثورة بين مسلمي الهند على نحو منشوره لقبائل شرق السودان الذي يدعوها فيه للإلتفاف حول الأمير عثمان دقنة ومجاهدة الغزاة. كل ما سبق يؤكد على أن السياسة الرسمية البريطانية كان عليها التعامل بواقعية لا تخلو من جدية مع كل الإحتمالات المترتبة على انتشار أصداء انتصارات الثورة المهدية في تلك الأصقاع ومن بين ذلك التعامل بأقصى درجات الحيطة مع المهدية كحركة ثورية من الممكن أن تكون لها امتداداتها الخارجية المؤثرة على أفكار قوميات مستعمراتها الهندية مما قد يسهم في تهيئة مسرح ثوري هندي يستنسخ أحداث السودان بنتائج قد لا تقل على مستوى كارثيتها عما حل بجنرالات بريطانيا إبان مواجهاتهم مع الثورة المهدية.

1 المصدر نفسه، ص ٣١٤.

الباب العاشر

أصداء الثورة المهدية بجنوب شرق آسيا

أصداء الثورة المهدية بجنوب شرق آسيا

«ما يتوقع أن يفعله العرب أنهم سيسلكون نفس مسلك الثوار السودانيين الذين استحوذوا على تعاطف كل عربي مسلم حقيقي، وسينهضون لمقاتلة القوات الأجنبية. إن ما يترامى إلى مسامعنا من كل الأنحاء يفيد بأن رجال القبائل العربية الذين لا تنقصهم الجسارة قد أعربوا عن تعاطفهم مع المهدية وأنهم يتطلعون ليفعلوا مثلما فعل رصفاؤهم في السودان تحت قيادة المهدي».

صحيفة «Straits Times» السنغافورية، ١٩ نوفمبر ١٨٨٧.

تفصل بين سنغافورة وجزر جنوب شرق آسيا من جهة والسودان من جهة أخرى، أميال شاسعات مغطاة ببحار لُجية تُخرج الأمواج من جوفها ما يكفي من الماء الأُجاج المنبسط على ملايين الأميال من مساحة الكرة الأرضية. بديهيات كتلك وما قد يترتب عليها من حقائق بحسابات الأمكنة ومعادلات الجغرافيا لم تكن كافية لحجب سيل تدفق أنباء مواجهات الثورة المهدية مع القوات الانجلو- تركية عن مسامع الصحافة المحلية هناك. فما يتوفر لدينا من الوثائق يؤكد أن وقائع الثورة المهدية في السودان قد وجدت نصيبها من الاهتمام والتدوين بأرشيف صحافة سنغافورة الصادرة في ثمانينيات القرن التاسع عشر بقدر يتوفر على الإسهاب والإحاطة.

ولعل من نافلة القول هنا الإشارة إلى أن الاقتراب من الحقائق الجيو - سياسية في تلك المنطقة تحديداً يعد مدخلاً اساسياً يسهل من خلاله التقدم لتفهم طبيعة الاهتمام الذي وجدته الثورة المهدية بصفحات صحافة ناطقة بلغات متعددة منها الإنجليزية ومنها لغات محلية لقوميات مهاجرة لتلك الأقاصي الآسيوية النائية كصحافة قوميات

«التاميل» و«الملايو» التي كانت لسان حال تلك المجموعات العرقية بسنغافورة وما جاورها من جزائر جنوب شرق آسيا.

ويتجه المؤرخ الألماني «تورستين تشاخر» - البرفيسور المختص بدراسات الإسلام بجنوب آسيا بجامعة برلين الألمانية إلى الحديث عن الدوافع الموضوعية التي تفسر في رأيه.. أسباب اهتمام صحافة سنغافورة بالثورة المهدية في السودان فيبين بكلماته ما قد يصعب على البعض وضعه في إطاره المنهجي، ومن ذلك قوله:

«إن الثورة المهدية التي قامت ببدايات العقد الثامن من القرن التاسع عشر في السودان أبقت الآلة العسكرية البريطانية والمصرية منشغلة بها حتى العام ١٨٩٨. إن المهدية باعتبارها حركة صحوة إسلامية نشأت في إطار خلفية اتسمت بالاستغلال المصحوب بالهيمنة على السودان من قبل مصر وسادتها الاروبيين.. كانت لها القدرة على إنتاج ردود أفعال مختلفة في سنغافورة بمجتمعاتها المهاجرة وأعراقها المتنوعة»[1].

ويبدو جلياً أن صحيفة «Singai Nesan» السنغافورية الناطقة بلغة «التاميل»، كانت أكثر صحف سنغافورة اهتماماً بتقصي أنباء مواجهات الثورة المهدية مع القوي الاستعمارية في السودان. ولم يكن ذات الاهتمام غائباً عن الصحافة السنغافورية الأخرى كصحيفة «Straits Times» الناطقة باللغة الإنجليزية و«Jawi Peranakkan» لسان حال قوميات الملايو.. وإن اتسمت كثافة تغطية الصحيفتين الأخيرتين بمقدار أقل من «Singai Nesan» من حيث عمق المضمون وتعدد المصادر ودرجة اللهجة المتعاطفة.

ويرى تشاخر أن هناك عدة عوامل أساسية أفلحت في إجتذاب القلم التحريري لصحيفة «Singai Nesan» نحو مساحات أكثر قرباً من أحداث الثورة المهدية.. فقد شكل قدوم «أحمد عرابي» منفياً بواسطة الإنجليز إلى جزيرة سيلان «سيرلانكا حالياً» مصدراً مهماً للحصول على المعلومات بخصوص مقاومة المهدويين لبريطانيا وبالتالي توفيرها للصحافة المحلية الناطقة بلغة التاميل على نحو صحيفة «Muslim Nesan»

1 **سنغافورة في التاريخ العالمي**: تم تحريره بواسطة ديريك هينغ وسيد محمد خير الدين، الفصل الرابع بعنوان **جدران الخديعة** للبروفسور تورستين تشاخر. الناشر: دار جامعة أمستردام للنشر، أمستردام، هولندا ٢٠١١، ص ٦٨.

التي كان رئيس تحريرها «سيدي ليبي» على معرفة شخصية بعرابي[1]. وبما أن عرابي نفسه لم يخف احتفاءه بصمود الثورة المهدية في مواجهة الإنجليز من خلال تصريحات صحفية متفرقة لصحافة بريطانيا، فالذي لاشك فيه أن «Singai Nesan» قد إستعملت صلاتها التاميلية في إستقاء مصادرها من «Muslim Nesan» ذات الارتباط الوثيق بقائد الثورة المصرية بمنفاه الإجباري. ولم تكن مصداقية عرابي كمصدر للمعلومات عن الثورة المهدية ترتقي لأي شك حتى لدى صحيفة سنغافورية عُرفت باعتمادها المتعاظم على مصادر إنجليزية الهوى في صياغة أخبار الثورة المهدية على نحو «Straits Times». وليس أدل على ذلك من شيء سوى جزم تلك الصحيفة بعددها المؤرخ بـ٧ يناير ١٨٨٩: «بأن عرابي باشا كان على معرفة شخصية تامة بالقائد المهدوي عثمان دقنة»[2]. مثل تلك الإفادات بغض النظر عن مدى تطابقها مع وقائع الأمور، إلا أنها تُلقي بثقلٍ معقول على ما سيجهر به عرابي من أراء بخصوص المهدية مما يكسب إفاداته موضوعية لن تخطئها عين أي قارئ لبيب من جمهرة قراء تلك الصحف.

ولكن بالرجوع لما سبق من أمر صحيفة «Singai Nesan» نجد أن سياستها التحريرية القائمة على تعدد المصادر واستقلالية رئاسة التحرير عن هيمنة الناشرين.. كانت أمراً مفصلياً في تنامي اهتمامها بوقائع المهدية وبالتالي اقترابها من أحداث السودان بعدسة أكثر تمحيصاً. ويدلل تشاخر على تلك الفرضية السابقة بإشارته إلى وجود جهة واحدة تقوم بمهام التحرير والنشر والطباعة في حالة «Singai Nesan» بينما لم يكن محرر «Straits Times» سوى موظف يتقاضى أجره من ناشر الصحيفة. وفي ذلك ما من شأنه أن يقيد المحررين بأجندة الناشر التي لن يُسهل على هيئة التحرير الاجتراء على مخالفتها. تلك القراءات التفصيلية للمشهد الصحافي في سنغافورة إبان اندلاع الثورة المهدية في السودان.. استبانت بجلاء في حالة «Singai Nesan» والتي طبقاً لتشاخر قامت بنشر أكثر من خمسين موضوعاً عن الثورة المهدية في الفترة ما بين ١٨٨٧ إلى ١٨٨٩ اتسمت

1 تشاخر: مصدر سابق، ص ٧٤.

2 نفسه.

بعضها بالاستطالة والإسهاب مما أهّلها لاحتلال صفحة كاملة من أوراق الصحيفة[1].

بيد أن التسليم بهذا القول على المستوى المطلق قد لا ينفذ من دون مراجعات تقيم حججاً مختلفة على ما إعتراه من نهايات جازمة. فبينما كانت الثورة المهدية تُحكم قبضتها على إقليم كردفان بغرب السودان، اتجهت «Straits Times» في مارس ١٨٨٣ نحو نشر ما أسمته بـ «السرد التفصيلي الممتاز» لقصة الشيخ محمد أحمد المهدي وتقدمه لقيادة حركة المقاومة ضد القوى الاستعمارية بالسودان. واقترن كل ذلك بالمقدرة الصحيحة على ايراد تفاصيل المنطقة التي ولد فيها محمد أحمد «دنقلا» والإشارة بدقة إلى عدد أشقائه الذكور وشقيقته الصغرى الوحيدة (ثلاثة أشقاء وشقيقة واحدة). كما سردت الصحيفة مسيرته مع التعليم الديني منذ مجيئه لبربر وانخراطه في رواق تعليم خلاوي الغبش ومن ثم انضمامه لحلقة تلاميذ الشيخ محمد شريف نورالدائم في منطقة «العراديب» بالنيل الأبيض والتي أوردتها مرة أخرى بشكل صحيح تماماً. وتحدثت الصحيفة ذاتها عن مصاهرات قام بها المهدي مع مشايخ القبائل المحليين هناك[2].

وتصاعد اهتمام «Straits Times» بالثورة المهدية عقب قضائها على قوات الجنرال البريطاني هكس في نوفمبر ١٨٨٣. ومن ذلك أن الصحيفة ذاتها نشرت مقالاً بعنوان «قوات هندية إلى مصر» وقالت فيه:

«ليس من المستبعد إرسال قوات من الهند نحو مصر في أعقاب الكارثة التي حلت بقوات الجنرال هكس على يدي المهدي. ما زال هناك حيز يسمح بالتشكيك فيما انتهت إليه تلك القوات من عملية إبادة كاملة. بيد أن ذلك يجب أن لا يثنينا أبداً عن توقع أسوأ الإحتمالات. وقد أفادت مصادرنا الإنجليزية بأن الضباط الذين إصطحبوا الجنرال هكس إلى السودان هم: الميجور كولبورن، النقيب مارتن، الملازم وارنر، والكر من الفرقة الرابعة المنتمية لقوات إيست كنت بالجيش البريطاني، الضابط ميسي من الفرقة الرابعة بقوات إيست ميدلسيكس بالإضافة إلى ضابطين ألمانيين».

1 تشاخر: مصدر سابق، ص ٧١، ص٧٣.

2 صحيفة **Times Straits**، ٣ مارس ١٨٨٣، الأرشيف الإلكتروني لصحافة سنغافورة.

ويستطرد المقال ليحدثنا عن قراءة استباقية للمشهد في السودان:

«اتضح بشكل جلي أن المهدي الذي أبادت قواته- البالغ قدرها ٣٠٠ ألف مقاتل- جيش الجنرال البريطاني هكس، لن يتأخر عن السعي لإجتياح مصر كلها. مثل هذا النوع من المحاولات قد يصاحبه نجاح مؤكد. لن يكون هناك ما يمكن أن يمنعه من فعل ذلك ما لم تتدخل إنجلترا وهو ما ستفعله مرغمة في آخر المطاف. هذا التدخل قد يكون أكثر فعالية عن طريق إرسال قوات لمدينة سواكن المطلة على البحر الأحمر ومن ثم محاصرة قوات المهدي من ناحية الميمنة وهي تتقدم شمالاً نحو القاهرة».

وبدت الصحيفة ذاتها في حالة هوس شديد بإمكانية تحرير الثورة المهدية لكل أراضي السودان ومن ثم الاتجاه شمالاً لتحرير مصر من قبضة البريطانيين. ولم يغفل المقال هنا عن التلميح لإمكانية تحالف القوى الوطنية المصرية مع المهدي ضد البريطانيين.. محذراً في الوقت ذاته من السماح للثورة المهدية بالاستثمار في مثل هذه الظروف المضطربة.و جاء في ذلك تحديداً:

«إن القوى الوطنية المصرية في مصر هي الآن أبعد ما تكون عن الفناء. فهم الآن يعيشون حالة تعافٍ كامل من الغيبوبة التي أصابتهم بعد هزيمة التل الكبير. هنالك خطر داهم تتبدى معالمه في السماح للمهدي بالعمل والاستفادة من حالة الارتباك التي ترتبت على سلطة الخديوي العليا المتوارثة في مصر. مثل هذا النوع من الأخطار سيصبح من الصعب علينا تجاهله»[3].

ومع ابتعاث الجنرال البريطاني غردون للسودان، تنامت مخاوف «Straits Times» بلهجتها الكولونيالية الحادبة على مصالح الإمبراطورية بشكل مضطرد. كل ذلك دفعها لنقل تصريحات غردون لصحافة بريطانيا عما يمكن أن تشكله انتصارت الثورة المهدية من أخطار على مصالح بريطانيا الاستعمارية. ومن ذلك تلخيصه للنتائج المترتبة على تقدم المهدويين بقوله:

3 صحيفة Times Straits، ١٤ ديسمبر ١٨٨٣، المصدر نفسه.

«لن يكون على بريطانيا وحدها مواجهة خطره عندها. إن النجاحات التي حققها المهدي قد هيجت علينا الأوضاع بالفعل في الجزيرة العربية وفي سوريا. ففي هذه الأثناء، انتشرت الملصقات الإعلانية في مدينة دمشق وهي تدعو لطرد المستعمرين الأتراك من هناك. وفي حالة استسلام شرق السودان كله للمهدي، ستتجه القبائل العربية المتمركزة على جانبي البحر الأحمر لحمل السلاح ضدنا. لقد سمعت اقتراحات تدعونا للتحصن بمنطقة وادي حلفا والاستعداد هناك تحسباً لهجوم المهدي. هذا النوع من التحسب أعتقد أنه يشبه التحصن في مكان ما ضد مرض الحمى»[1].

بيد أن (Straits Times) لم تكن لتخفي شغفها عن تفاصيل الصراع المميت بمنطقة جبال البحر الأحمر. ومن ذلك أن وقائع مواجهات قوات المهدية بقيادة الأمير عثمان دقنة ضد الإنجليز في شرق السودان قد ساقت «Straits Times» نحو تناول تلك الأنباء بلهجة مُسّلِمة بنبوغ مقدراته العسكرية وموهبته في إعادة تنظيم صفوف الثوار للمزيد من المقاومة، فقالت في هذا الإطار:

«إن للمهدويين موهبة، مهما تعددت هزائمهم فإنهم سينظمون صفوفهم للهجوم مجدداً»[2].

وإلتقطت القفاز صحيفة «Singai Nesan» فترجمت المقال المار ذكره للغة التاميلية وإختتمته بعقد مقارنة بين مقاومة الثورة المهدية للبريطانيين في السودان ومقاومة الملايو للهولنديين بمنطقة «Aceh» بجنوب شرق اسيا.. مما مهد للمقاربة بين مواقفهما الصامدة ضد قوات الغزو الاستعماري في أذهان القرّاء.

ومضى تشاخر لينوه إلى أن مقاومة مسلمي الملايو للآلة العسكرية الهولندية في Aceh«» قد نالت اهتمام صحيفة سينغافورية أخرى كصحيفة «Sarvagana Nesan» حين أبدت تعاطفاً واضحاً مع تلك الحركة فوصفت ثباتها في مقاومة تقدم الغزاة بالأمر المثير للإعجاب. وفي نفس السياق، يؤكد تشاخر مجدداً أن تغطية «Singai Nesan»

1 صحيفة Times Straits، ١٦ فبراير ١٨٨٤، نفسه.

2 تشاخر: مصدر سابق، ص ٨١.

لمواجهات المهدية مع البريطانيين اتسمت بنفس النسق المتعاطف مع بلاء المهدويين في تلك الوقائع. وتقدم تشاخر بما سبق عن تغطية «Singai Nesan» لأحداث المهدية ليرسم صورة مفصلة لنتائج تلك الإستراتيجية الإعلامية على العقل الجمعي للقوميات المسلمة بجنوب شرق آسيا حين يخلص إلى أن فرضية تعدد المصادر المعلوماتية التي أُتيحت للصحافة التاميلية في هذا الشأن:

«قد أتاحت للمسلمين التاميليين في جنوب شرق آسيا التعبير عن تعاطفهم الجرئ مع مواجهات المسلمين ضد الهيمنة الاستعمارية مما مكنهم من رسم خطوط تجعل تلك الحركات المقاومة في حالة توازي مع بعضها بعضاً»[1].

هذا الاتجاه لخلق انطباع عام لاعتبار الثورة المهدية كقوة وطنية إسلامية لها المقدرة على التأثير على موازين الأطماع الاستعمارية في المنطقة بأكملها أكثر من كونها حركة مقاومة محدودة على نطاقها المحلي، لم يغب حتى عن صحيفة «Strait Times» السنغافورية ذات التوجهات المتوافقة مع سياسات بريطانيا الإمبريالية في جنوب شرق اسيا. وتبدى ذلك حين إندفعت الصحيفة ذاتها لرسم صورة معقدة لسيناريو طالما أقلقت فرضية إستحالته إلى واقع ممكن عقول البريطانيين، فكتبت في ١٩ نوفمبر ١٨٨٧:

«ما يتوقع أن يفعله العرب أنهم سيسلكون نفس مسلك الثوار السودانيين الذين استحوذوا على تعاطف كل عربي مسلم حقيقي، وسينهضون لمقاتلة القوات الأجنبية. إن ما يترامى إلى مسامعنا من كل الأنحاء يفيد بأن رجال القبائل العربية الذين لا تنقصهم الجسارة قد أعربوا عن تعاطفهم مع المهدية وأنهم يتطلعون ليفعلوا مثلما فعل رصفاؤهم في السودان تحت قيادة المهدي»[2].

وعندما كانت قوات الغزو الاستعماري البريطاني بقيادة كتشنر تتقدم في شمال السودان نحو «أم درمان» العاصمة الوطنية للدولة المهدية، قامت صحيفة «Singai Nesan» بنشر موضوع مطول أرجعت فيه عقارب الساعة إلى الوراء حين تعرضت

1 تشاخر، ص ٨٣.

2 تشاخر، ص ٧٦.

للدوافع الموضوعية لقيام الثورة المهدية وتحدثت بإلمام دقيق يعبر عن قراءة متقدمة لطبيعة الثورة المهدية بما في ذلك التعرض لكاريزما القيادة عند المهدي ودورها المهم في حشد الجماهير خلف أهداف الثورة الذي ترتب عليه إنهزام القوي الاستعمارية التي إنجرت إلى مواجهتها بالتتابع، وذلك على نحو ما قالت فيه:

«المشكلة بدأت بأطماع الخديوي في ثروات السودان ولكن عجزه عن تحقيق النصر على عناد السودانيين دفعه للاستعانة بالإنجليز لمساعدته. لقد قام الجنرال غردون بكبت السودانيين واتجه لفرض فرض قوانين اتسمت بالقسوة البالغة».

وثم تعرج الصحيفة لتمر مروراً خفيفاً على التشريعات الاستعمارية القاسية «ولعلها تشير هنا إلى المغالاة في فرض الضرائب التي اتسم بها العهد الاستعماري الأول في السودان وإن كان يبدو من سياق الحديث أنها تحمل غردون مسئولية تلك التشريعات»..فتشير إلى أن البلاد كانت تئن من وقع الألم المترتب على ذلك ولكن ما لبثت الأحوال أن هدأت ببعض أجزائها وتغشاها نوعٌ من الاستقرار.

ثم تُقَلب الصحيفة صحائف التاريخ قهقرةً إلى الوراء.. فتستحضر مشاهد انتصارات الثورة المهدية في الأبيض وكردفان وما أعقبها من مواجهات مع جنرالات بريطانيا والخديوية المصرية تكبد فيها هؤلاء خسائر نوعية عالية، وفي ذلك قالت Singai Nesan ما يلي:

«عندما ظهر المهدي في الأُبيض إجتذب الجماهير نحوه كقائد لما عرُف به من علمٍ وورع فأثار ذلك مكامن القلق عند السلطات المصرية.وتبعاً لذلك جمع المصريون جيوشهم ولكنهم عجزوا عن هزيمة المهدي وأنصاره. وبعدهم جاء الإنجليز الذين تمكنوا من السيطرة على الخديوي فانتصر عليهم المهدويون وأذاقوهم حظهم من الهزيمة أيضاً (were similarly roundly defeated). إن من السهولة بمكان على قراء صحيفتنا تخيل ذلك الكم الهائل من الدماء الإنجليزية التي أريقت لتذهب سدى بفيافي السودان. هنالك عدد كبير من مشاهير القادة العسكريين البريطانيين لقوا حتفهم هناك»[1].

1 تشاخر: مصدر سابق، ص ٧٨.

وعلى مستوى الأثر الذي أحدثته الدعاية الحربية البريطانية في اتجاهات صحافة سنغافورة وهي تتصدى لتغطية أحداث الثورة المهدية، يرى تشاخر أن صحيفة «Straits Times» التي تبنت سياسة إعلامية مسايرة للحملة الدعائية البريطانية وتفوقها العسكري الحتمي قد إستعارت- من صحافة بريطانيا- الكثير من التعابير التي تقولب المهدية وتسعى إلى تنميطها لتبدو للآخرين بذات المنظار الذي يود الإنجليز أن يراه بها العالم. صحيفة كهذه، وجدت نفسها- في الكثير من الأحيان بحسب تشاخر - في موقع المضطر للإقرار بالمقدرات العسكرية الفذة لأمراء المهدية على غرار الأميرعثمان دقنة. ويستبين ذلك بصورة أكثر وضوحاً مع توارد الشائعات المتتالية لصحافة بريطانيا والتي كانت في جوهرها تلبي أشواق البريطانيين من حيث تعرضها بلا استثناء لمقتل عثمان دقنة بينما كان الأخير ما زال صامداً بقواته مسبباً ما يكفي من المتاعب للإنجليز بجبال البحر الأحمر ووديانها الوعرة، وجدت «Straits Times» نفسها مضطرة مجدداً - ربما بدافع الضجر من خذلان مصادرها لها - للإعلان بوضوح عن أن:

«عثمان دقنة ما زال على قيد الحياة، يسبب المتاعب للبريطانيين على الرغم من الشائعات المتعددة التي تتحدث عن مقتله»[1].

وتصدت صحيفة سنغافورية أخرى كصحيفة «Sarvajana Nesan» لتكذيب التقارير التي نشرتها الصحف الإنجليزية والمصرية التي كانت تتحدث عن هزيمة عثمان دقنة بواسطة البريطانيين في شرق السودان وذلك في تقريرها الصادر بتاريخ ١٦ يناير ١٨٨٩، فنصحت قراءها بعدم تصديق تلك الادعاءات وشبهت حال الإنجليز البائس بحال الجنرال الروسي الذي سعي لمداراة هزائمه بادعاء انتصارات كاذبة لصالحه إبان حرب القرم التي دارت رحاها بالقرن التاسع عشر. فسجلت بذلك «Sarvajana Nesan» - في هذا المقال تحديدا- موقفاً واضح المعالم تقدم بها نحو الإصطفاف إلى جانب المهدية ضد القوى الاستعمارية المعادية لها[2].

1 تشاخر، ص ٨٢.

2 تشاخر، ص٨٥.

وبإلقاء نظرة سريعة على ذات ضفة النهر التي اتخذت «Sarvajana Nesan» لنفسها موقعاً فيها، نجد أن «Singai Nesan» بطبيعتها المتعاطفة مع الثورة المهدية، كانت الأعلى صوتاً في الجهر بتشككها بمصادر المعلومات البريطانية حول تفاصيل صداماتها مع الثورة المهدية في السودان ومدى إمكانية الاعتماد على ذلك لاستصدار تقييم عادل لوقائعها، فدللت على عدم مصداقية تلك الأنباء بكثرة الأخبار الناسخة لما قبلها من المروي على لسان الإنجليز وذلك يتبين فيما قالته بتاريخ مايو ١٨٨٩ :

«إن السودان يعتبر في مقدمة تلك البلدان التي لا يستطيع المرء أن يلج لها أرضاً أو يجمع منها أنباءاً حقيقية. عندما نرى في كل يوم على أي حالة تصلنا الأخبار عن السودان، ندرك بوضوح أن الأشياء التي تحدث هناك لا يتم إيصالها إلى العالم على وجهها الحقيقي. منذ اليوم الذي إشتعلت فيه ثورة المهدي، لم يمر خبر عن السودان دون أن يتم تصحيحه أو مخالفة نصه بخبر آخر».

وتسوق كلمات المقال قارئه نحو نهاياته الموضوعية التي أراد له كاتبه أن ينتهي عندها.. حين يلقي باللائمة بلا مواربة على تدليس البريطانيين فيما يختص بتزوير وتغيير أنباء نتائج مواجهاتهم مع المهدية و«فبركة» بعضها على حسب ما تقتضيه مصالحهم فيقول:

«منذ أول يوم تورط فيه الإنجليز في الحرب بين المهدي والحكومة المصرية، فإننا نعلم جيداً أن كل الأنباء التي تأتي عن اضطراب الأحوال في السودان يتم فحصها في أماكن متعددة وعندما تصلنا تلك الأخبار تكون قد نالت حظها من التصويب. (بواسطة البريطانيين) عندما تقتضي الحوجة إلى ذلك».

وفي ذات السياق كتبت صحيفة «Muslim Nesan» السيلانية بلهجة موغلة في التشكيك في نزاهة المصادر الإنجليزية الناقلة لأنباء صدامات البريطانيين مع قوات الثورة المهدية.. قائلة:

«لقد أقام الإنجليز بيننا وبين ما يمكن أن نراه من الأشياء جداراً من الخديعة. إننا نجهل تماماً حقيقة ما يجري في السودان»[1].

1 تشاخر، مصدر سابق، ص٨٤-٨٥.

تلك الثقة المهتزة بمصادر الأنباء الإنجليزية حول أخبار الثورة المهدية التي تميزت بها قراءات «Nesan Sengai» لواقع الأحوال في السودان- مع غيرها من الصحف ذات التوجهات المشابهة - قابلتها حسرة صادقة لدى «Times Straits» على تراجع سمعة بريطانيا كقوى إمبريالية عالمية جراء انكساراتها في السودان..فكتبت بلهجة متعاطفة مع البريطانيين في ١١ ديسمبر ١٨٨٨، محذرة بأسلوب مبطن - لا يخلو من تقمص شخصية الحادب على مصالح بريطانيا- من تبعات تصدير الثورة السودانية إلى مستعمرات بريطانيا الأخرى..وذلك حين قالت:

«لما حدث الانسحاب المخزي للقوات البريطانية من السودان والذي تم بإدارة حكومة غلادستون الثانية، كان مبلغ أمانينا أن يستريح المهدي من تبعات العمل الشاق الذي قام به وأن يكون شاكراً لأنه يستطيع الان أن يسيطر على شئوونه الداخلية بالطريقة التي تناسبه».. وفي مقال آخر بنفس الصحيفة بتاريخ يوليو ١٨٨٩ تعرض محرر «Straits Times» بصورة متكررة لفشل القوات البريطانية في تحقيق تقدم تخترق به صفوف المهدية عندما بلغتها تفاصيل مقتل غردون الذي أعقبه تحرير الخرطوم في يناير ١٨٨٥ ممهداً بذلك للولوج بحديثه نحو تأكيد وتعديد المخاطر الحقيقية التي تشكلها الثورة المهدية على السيطرة البريطانية على مصر[1].

وعندما لاحت على الأفق البعيد بوادر مواجهات محتملة في نهاية ثمانينيات القرن التاسع عشر بين الأمير كرم الله كركساوي[2] عامل المهدية على الاستوائية وأمين باشا[3]

1 تشاخر: مصدر سابق، ص ٧٩.

2 **الأمير كرم الله كركساوي** (١٨٥٨-١٩١٥): هو كرم الله بن محمد كركساوي. ينتمي بنسبه لعشائر الدناقلة الذين ترجع أصولهم لجزيرة تسمي «كركوس» بمحاذاة مدينة دنقلا بشمال السودان. انضم مع أخيه محمد كركساوي لصفوف الثورة المهدية واشتركا معاً في موقعة شيكان التي انتصر فيها المهدويون على قوات الجنرال البريطاني وليام هكس في نهايات ١٨٨٣. وقلد المهدي كرم الله كركساوي إمارة بحر الغزال والإستوائية بجنوب السودان. وافلح كرم الله في محاصرة الجنرال البريطاني ليبتون بتلك النواحي وحمله على الإستسلام بقواته لجيش المهدية. بعد وفاة المهدي، منح كرم الله ولاءاً كاملاً للخليفة عبدالله وابتعثه الأخير لمقاتلة قوات الغزو الإيطالي في مدينة كسلا بشرق السودان. حضر كركساوي موقعة كرري بالعام ١٨٩٨ حين قاتل في صفوف المهدويين ضد البريطانيين. بيد أنه عمر بعدها بما يفوق العقد ونصف من السنوات. كان الخليفة عبدالله صهراً له حيث تزوج من شقيقته آمنة كركساوي وانجب منها ابنته مريم.

3 **أمين باشا** (١٨٤٠-١٨٩٣): هو ايزاك ادورد شنيتزر. إداري استعماري ألماني عمل بالسودان في أواخر

الإداري الاستعماري الألماني الذي عينه غردون مديراً للإستوائية بجنوب السودان، تصدت صحافة سنغافورة لتغطية تلك الوقائع بحماسٍ عال. فبينما أقرت «Straits Times» باستمرار توارد الشائعات حول نتائج تلك المواجهات المُحتملة بما فيها أنباء عن تقدم أمين باشا شمالاً على حساب قوات المهدية المصحوبة بتوغل حملة «إنقاذ امين باشا» البريطانية بقيادة ستانلي من الجنوب باتجاه الشمال نحو ذات الهدف، أكدت «Sin-Nesan gai» بسياستها التحريرية المتعاطفة مع المهدية أن أمين وستانلي قد وقعا سوياً في قبضة المهدية. وإستندت الصحيفة على ما توفر لديها من معلومات واردة من تلك الجهات وما اجتمع لديها من أخبار أعراب تلك المنطقة (لعل كاتب المقال يقصد عرب البقارة)[1]. والذي لا شك فيه أن «Nesan Singai» كانت أكثر واقعية في قراءتها لحقيقة ما جرى لأن أمين باشا لم تكن له أي نوايا للتقدم شمالاً بل إن مخاوفه من تقدم كرم الله تجاهه دفعته للانسحاب من «لادو» والإنكماش بقواته على شريط ضيق بشاطئ النيل امتد من درفيلي حتى بحيرة ألبرت نيازا. والأهم من ذلك كله، أن أمين باشا كان على وشك التسليم الكامل لعامل المهدية الأمير كركساوي وبالأخص في الفترة التي سبقت تحرير الخرطوم ومقتل غردون[2].

وعندما أعاد البريطانيون الكرة مرة أخرى سعياً لإعادة احتلال السودان في ١٨٩٨، تقدم السودانيون تحت رايات جيش المهدية لمواجهة قوات الجنرال كتشنر خارج أسوار العاصمة الوطنية «أم درمان» في سفح جبل كرري الشهير. وانبرت صحيفة سنغافورية أخرى على نحو «The Singapore free press and mercantile advertiser»[3]، لرسم

سبعينيات القرن التاسع عشر. كان طبيباً قبل إلتحاقه بالإدارة الاستعمارية. عينه الجنرال البريطاني تشارلز غردون حاكماً على منطقة الإستوائية ومنحته الخديوية المصرية لقب الباشوية في ثمانينيات القرن التاسع عشر.

1 تشاخر: مصدر سابق، ص ٨٣.

2 سمرنوف: **دولة المهدية من وجهة نظر مؤرخ سوفيتي**، ترجمة هنري رياض، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٤، ص٩٦، ص١٠٠.

3 صحيفة سنغافورية عريقة كانت تصدر باللغة الإنجليزية. تأسست منذ العام ١٨٣٥ وظلت تصدر باستمرار حتى ستينيات القرن السابق. اشترت صحيفة «Times Straits» معظم أسهمها في أربعينيات القرن العشرين.

مشهد متفرد للمواجهة الأخيرة بين أصحاب الأرض والقوى الغازية. واستعانت الصحيفة ذاتها بمصادرها الإنجليزية الغنية بشهادات المراسلين الحربيين لوصف المهابة التي كللت تقدم الجيش المهدوي نحو الغزاة. ومن ذلك قولها على لسان شاهد عيان من هناك:

«تراءينا مع قوات العدو وهي تتقدم نحونا مجتمعة. امتدت مواجهة جيشهم لمساحة ثلاثة أميال كاملة وقد اكتنف ذلك المشهد زخم راياتهم التي يعجز البصر عن إحصائها. من على ذلك البعد، إلتعمت أسلحتهم الفولاذية ببريق متلألئ. نظراً لذلك كله، يمكننا القول بأن هؤلاء الرجال قد شكلوا أروع مشهد يمكن أن يتخيله الذهن وهم يتقدمون على أرض المعركة المتموجة السطح. وجال الأمراء منهم وهم ينتشرون على صهوات جيادهم في مقدمة الجيش ومن خلفهم الفرسان من أعراب البقارة. كانت راية الخليفة ذات اللون الأزرق الداكن تتوسط الوحدات الخمس التي تشكل عليها الجيش المهدوي. وهو ذات الجيش الذي تبدى لنا على درجة عالية من التنظيم وبمستوى من القيادة يجدر بنا وصفه بالروعة. والحق أن هذا الجيش كان يضاهي بحسن تنظيمه جيشاً أوروبياً محكم التدريب. أما ميسرة جيشهم فقد كللها مشهد مدفعيتهم المقترن بالرايات الزرقاء والبيضاء التي حملتها سواعد رجال القوات المؤتمرة بإمرة شيخ الدين بن الخليفة. هناك في الميمنة، بدا شقيق الخليفة يعقوب الذي انتهت قواته إلى وضع مواجهة مع القوات البريطانية. وقبل أن يسمح لنا تباين إرتفاع أرض المعركة برؤية المشهد بأكمله، أصدرت حناجرهم زئيراً وكأنه هدير قادم من موجة عاتية لطمت ببأسها شاطئ اليابسة».

وانخرطت الصحيفة بعدها في وصف تفصيلي دقيق لمجريات المعركة حتى النهايات. ومن ذلك نقلها لتفاني مقاتلي الراية الزرقاء مواجهة البريطانيين. وفي ذلك قالت:

«كانت الراية الزرقاء المنسوبة للخليفة مغروسة على بعد ١٢٠٠ ياردة من صفوفنا الأمامية. بدت لأنظارنا من هناك وهي تخفق مرتفعة وقد داعبها الهواء. وبدا واضحاً أن رجالهم قد راكموا الحجارة حول ساريتها الخشبية السامقة لتثبيتها على الأرض. فيما عدا القليل من مقاتليهم الذين أحرجوا بصمودهم جحافل الموت، لم يبق غير أجساد

القتلى والجرحى هناك. بيد أن الرصاص قد شق طريقه ليخترق الراية نفسها وحوالي خمسين من جثامين مقاتليهم التي تراكمت حولها بما في ذلك جسد الأمير يعقوب شقيق الخليفة»[1].

لعل صفوة ما سبق ذكره من وقائع يمكن إجمالها في أن أضابير صحافة سنغافورة القرن التاسع عشر قد انشغلت بأحداث الثورة المهدية في السودان ومالت إلى نشر تحقيقات ومقالات بصورة منتظمة عن مواجهات المهدية العسكرية المتصاعدة مع بريطانيا. وفي ظل الأجواء والمشاعر التي إستثارتها سيطرة بريطانيا الاستعمارية على سنغافورة كان من الطبيعي أن تتجه صحف سنغافورية عُرفت بتوجهاتها المتعاطفة مع حركات التحرر الوطنية ضد الهيمنة الاستعمارية على غرار «Singai Nesan» و«Sarvajana Nesan» نحو إظهار التعاطف والتأييد لصمود الثورة المهدية ودولتها في مواجهة التوسع الكولونيالي مما أدى إلى رسم خطوط توازي بين المهدية وحركات التحرر الإقليمية الأخرى - كحركة الملايو التحررية ضد الهولنديين في Aceh - في المخيلة الشعبية لقاعدة قرائها. ذلك الوعي المبكر الذي تقدمت من مربعاته تلك القراءات الصحفية لهذا الاتجاه عززته سياسة تعتمد تعدد المصادر(بما في ذلك أنباء وكالة رويتزر وما نشر في صحافة التاميل السيرلانكية من إفادات عرابي حول المهدية) وتناول مصادر الدعاية الحربية البريطانية ضد المهدية بحذر شديد دون الجزم التقريري بصحتها. كما أدى قيام جهة واحدة بمهمتي النشر والتحرير في حالة «Singai Nesan» إلى المزيد من الآراء الحرة المساندة للمهدية.. مما جنب الصحيفة تبعات تقيد هيئة التحرير بهيمنة سياسات الناشر على توجهاتها. وبإلقاء نظرة سريعة على المعسكر الإعلامي الآخر في الصحافة السينغافورية والذي تزعمته «Strait Times» ذات التوجهات الموالية للسياسة الإمبرالية البريطانية، فعلى الرغم من تبني الصحيفة لتأطير المهدية كحركة متطرفة ووصف مسانديها من السودانيين في بعض الأحيان بالهمجية والوحشية - في توافق موضوعي مع الآلة الدعائية البريطانية ضد الثورة المهدية وآراء

1 صحيفة «The Singapore Free Press & Mercantile Advertiser»، ٦ أكتوبر ١٨٩٨،الأرشيف الإلكتروني لصحافة سنغافورة.

أخرى مماثلة في المضمون - إلا أنها وجدت نفسها في الكثير من الأحيان في موقع المضطر للإشادة بالقدرات القيادية للإمام المهدي وأمرائه كعثمان دقنة على وجه التحديد. واقترن كل ذلك مع التنويه المتكرر بالبسالة التي أظهرها السودانيون في المواجهات العسكرية مع الإنجليز تحت رايات المهدية وما شكله بقاء المهدية من خطر داهم على مصالح بريطانيا الاستعمارية في المنطقة والشرق الأدنى بأكمله.

الباب الحادي عشر

الأصداء العالمية لكاريزما القيادة عند المهدي

الأصداء العالمية لكاريزما القيادة عند المهدي

«في كل مرحلة من حياة المهدي.. منذ أن كان مريداً أو حوارياً لمشائخه المختلفين إلى أن أصبح شيخاً متصوفاً مستقلاً ومن بعدها مهدياً متوقعاً.. كانت عناصر الفعل القيادي عنده تسير جنباً إلى جنب مع دعوته.. بصورة متبادلة ومعززة للتفاعل بين هذين الأمرين. إن التماثل بين المعتقد والممارسة عند المهدي شكّل واحداً من أهم سمات القوة في الخصائص القيادية لهذا الزعيم الجديد. أما جاذبية المشروع الذي دعا إليه المهدي فقد تم تعزيزها بدرجة أكثر قوة من خلال نموذج حياته الشخصية الذي لم يقبل فيه أي مساومة فيما يختص بقيم الزهد والتضحية التي وسمت مسلكه».

البروفيسور كيم سيرسي.. أستاذ الدراسات الإفريقية والإسلامية بجامعة «Layola University Chicago» الأمريكية.. نقلا عن «تكوين دولة المهدية السودانية: مراسم ورموز السلطة».

إن الخارطة التي إنبنت على إثرها تراتبية الأحداث في مواجهات الثورة المهدية مع القوى الاستعمارية في عالم القرن التاسع عشر.. لا يمكن سبر أعماقها دون إستثارة العقل البحثي لاستدراج خلاياه نحو التمحيص الموضوعي لدور محمد أحمد المهدي الكاريزمي كقائد وضعته مقدراته الإستثنائية في موقع مركزي دارت حوله قوى تلك الثورة السودانية بأسرها. لقد ظلت حركات التغيير منذ عهد الإنسانية الأول تعتمل بصدور الجماهير فتبقى أسيرة لمكامنها الحصينة حتى تنجلي الأقدار فتصقل بأناملها الخبيئة أحد خلق الله.. لتخلع عليه عباءة القيادة وتتفق - تبعاً لذلك - عليه قلوب مَنْ وراءه من المتحرقين شوقاً نحو الانعتاق والتحرر مما ضُرب على أعناقهم من سلاسل وأغلال. من هنا.. ومن هذا المسلك تحديداً، لن يقوى أي ذهن حاذق على الإعراض تجاوزاً عما قام به عالم التاريخ الاجتماعي الألماني العظيم ماكس فيبر بإرسائه للنظرية الأكاديمية المركزية المفسرة لظاهرة السلطة الكاريزمية في إطار مثيلاتها من ضروب السلطة على نحو السلطة

التقليدية المتوارثة والسلطة العقلانية القانونية عبر تاريخ الإنسانية الاجتماعي والسياسي. والذي لا شك فيه أن الأوساط الأكاديمية بمؤسسات العالم الغربي ظلت منشغلة منذ ذلك الحين بحركة بحثية مستمرة عن دور قيادات تاريخية ببقاع مختلفة من الأرض في تشكيل الأحداث فوق أديمها المنبسط بين فراغات اليابسة. وكان الثقل الأساسي لتلك الحركات البحثية يرتمي بقدر كبير على أوتاد نظرية السلطة الكاريزمية التي غرسها «فيبر» وجاء الآخرون ليبتنوا عليها بناءاتهم المماثلة في الشأن ذاته.

ولَم يكن البروفيسور «كيم سيرسي» أستاذ الدراسات الإفريقية والإسلامية بجامعة «Layola University Chicago» بأول الذين جردوا أقلامهم من بعد جهودهم الأكاديمية الموغلة في الموضوعية لعرض كاريزما القيادة عند المهدي السوداني على مقياس فيبر المعياري وبالتالي إعمال مقدراته القيادية على موازينه الدقيقة. قام سيرسي بجهد مقدر حين حلل شخصية المهدي كمركز للقوى والسلطة في الثورة المهدية.. وابتدا أستاذ التاريخ الأمريكي دراسته المستفيضة بمناقشة مفهوم ماكس فيبر للسلطة الكاريزمية ممهداً الطريق بذلك نحو استكشاف شخصية المهدي كقائد كاريزمي ومدى تواؤم خصائصها القيادية مع هذا النموذج من عدمه. كل ذلك استدرج سيرسي ليقول:

«إن سلطة المهدي الكاريزمية قد تم بناؤها استناداً على ما يسميه فيبر بـ (الأساس الكاريزمي) والذي يمكن تعريفه بالإخلاص والتفاني من قبل الأتباع لخواص محددة في القائد على نحو الورع الإستثنائي، البطولة والشخصية المثالية وغيرها من الأشياء كالنسق المعياري أو النظام الجديد الذي آتت به الشخصية الكاريزمية. ويمكن القول بأن تعريف فيبر للسلطة الكاريزمية يناسب المهدي تماماً لأن شرعيته كقائد وتطلعه للسلطة جاءا نتاجاً لمقدرته على إحداث حالة من الثقة في شخصه وسط الجماهير السودانية. إن الشرعية المرتبطة مع التطلع للسلطة عند المهدي لم تكن تنتمي بالبنوة لمنصب أو وظيفة معينة. لقد كان المهدي على قمة المنظومة التراتبية التي أسست للجميع من حوله مواقع ذات صلة بسلطته الكاريزمية بل ومعتمدة عليها لحد كبير»[1].

1 كيم سيرسي، ص ٦٦.

ويقرر «سيرسي» أن «فيبر» قد بنى جزءاً مهماً من نظريته حول كاريزمية القادة التاريخيين على أساس التقييم الذي يعتمل في مخيلة اتباعه لما قام به من أعمال.. ويبقى ذلك بدروه عاملاً جوهرياً في تحديد صلاحية كاريزما القائد نفسها. وفي السياق ذاته، يجنح سيرسي للاستشهاد بما كتبه بعض من عاصروا المهدي واقتربوا منه بقدر كبير للتأكيد على حضوره الكاريزمي الجارف كقائد في ذهن اتباعه.. ولا غرو أن اختياره للشيخ بابكر بدري وشهادته التي أدلى بها عن المهدي.. لم يكن اعتباطاً بحسبان أن بدري كان شاهداً على عصور مختلفة.. حين حضر المهدية الثورة مجاهداً شاباً في صفوفها ثم رجلاً ذَا تجارة في دولتها.. ومعلماً ورائداً للتعليم النسوي فيما تلاها من عهد استعمرت فيه بريطانيا السودان لفترة قاربت الستين سنة. وفيما سبق يقول سيرسي:

«من الممكن رؤية مثال واضح للنقطة السابقة فيما دونه أتباع المهدي من ملاحظات. بعد سقوط الخرطوم، لمح أحد أنصار المهدية الأوائل وهو الشيخ بابكر بدري.. لمح المهدي وهو يترجل من فرس أسمر لفت أنظار الناس إليه بسرجه ولجامه المزركشين.. فقد كان المهدي في طريقه للولوج لخزانة أموال السلطة التركية في الخرطوم. وعندما وقعت عيناه على الذهب والجواهر التي احتشدت بها تلك الخزانة.. قال بدري أن المهدي عليه السلام أدار ظهره لتلك الكنوز بسرعة تعدل تلك السرعة التي يبرق فيها الضوء. إن بابكر بدري هنا يبدو مأخوذاً بما رآه من ترفع أبداه المهدي تجاه هذه النفائس الدنيوية.. وفي نفس الوقت تجده يصف لنا كيف ترجل المهدي عن فرسه الأسمر ذي السرج المزين.. وما قد يترتب على ذلك المشهد من رمزية للقوة الدنيوية (Earthy might). وبالتالي يبقى جلياً أن أطروحة فيبر حول كاريزما القيادة التي تكمن في مخيلة الاتباع.. ذات صلة وثيقة بحالة المهدي هنا. فالتناقض الواضح هنا بين هذين الأمرين قد تم تجاوزه في حالة بابكر بدري لمصلحة ما يراه هو.. خلقاً أساسياً من أخلاق المهدي وطبائعه ألا وهو مسلكه المطبوع بالتقوى والإخبات»[1].

وفي سياق مقارب لما مر ذكره، حملت كاريزما القيادة الأخلاقية عند المهدي وما

1 سيرسي: مصدر سابق، ص ٦٦.

صاحبها من سلوك طبعه الصدق والتجرد فيما كان هو بصدده.. حمل ذلك كله البروفيسور عبدالله على إبراهيم للاقتراب مما قد يعقب ذلك من سطوة للقائد على مستوى مناصريه من خلال دراسة متعمقة لما خطه قلم بابكر بدري الذي دلق حبره تفاصيلاً دقيقة على الورق في هذا الشأن من خلال مؤلفه الشهير «حياتي».. وفي ذلك تحديداً.. قال عبدالله على إبراهيم:

«لم يبايع بابكر الإمام المهدي لأنه (الموضة). كان بابكر قد رأى المهدي حين كان يزور بلدته رفاعة في جماعة من تلاميذه. ووصفهم بأنهم كانوا ذوي وجوه مشرقة وثياب نظيفة وأذكارهم نسيقة. وكان يشغف بأداء صلاة المغرب خلفه. وقال بابكر إن المهدي قرأ مرة سورة القارعة في الركعة الأولى فلما بلغ «يوم يكون الناس كالفراش المبثوث» صعق وخر مغشياً عليه. فتقدم أحد حيرانه وأتم الصلاة بالناس. وظل المهدي في صعقته حتى انفض الجمع. وقال إنه كان ملتصقاً بصفحة المهدي حين جاء الخرطوم بعد سقوطها في يناير ١٨٨٥ يتفقد بيت المال. فرأى حلي الذهب وسبائكه فالتفت عنها بسرعة البرق وصد عنها راجعاً. فخطر لبابكر في الساعة بيت البصيري: «فراودته الجبال الشم من ذهب.» وصلى بابكر في يوم آخر مع المهدي فلما قرأ: «وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها» انحنى المهدي حتى ظنوا أنه سيموت ولكنه لما رفع راسه فإذا لحيته كلها تقطر دموعاً. لقد عاش بابكر عصر المهدي.. عصر الرجل تصرعه المعاني ويستسخف الزينة البلهاء»[1].

بيد أن الشيخ بابكر بدري لم يكن الأوحد من بين من كتبوا عن محمد أحمد المهدي من دائرة معاصريه..ولعل إسماعيل الكردفاني كان من أبرز من سبقوه في ذلك المضمار من خلال سفره القيم «سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي». إن نفائسية ما كتبه الكردفاني لا تتجسد فقط في كلماته التي عبرت عن رأي نخبوي يتفق مع الفسطاط الثقافي الذي إنطلق منه الكاتب بخلفية تعليمه الأزهري المتقدم بحسابات سودان القرن التاسع عشر. لعل القيمة الحقيقية فيما كتبه،تكمن في أن كتاباته وفرت لنا ذائقة رأي مختلفة تمثل ذهنية رجل حاز على معارف أكاديمية ودينية عالية بالمقارنة مع شاب محدود التعليم آنذاك على

1 عبدالله على إبراهيم، مقال بعنوان: بابكر بدري.. الله يعزك يا ود النجومي بعد هذا الذل، صحيفة الراكوبة الالكترونية.. بتاريخ ١٨ مايو ٢٠١٨.

نحو بابكر بدري. بيد أن الأكثر أهمية من ذلك كله، أن وصف الكردفاني هنا يتماهى بقدرٍ كبير مع سطوة السلطة الكاريزمية على مخيلة الأتباع التي تحدث عنها المؤرخ الأمريكي سيرسي مبتنياً ما إبتناه من بناء على الأساس الذي وضعه ماكس فيبر. وهنا ننقل بعض ما قاله الكردفاني في وصف المهدي:

«يصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على النوائب. قد وسع الناس بسطه فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء. أوسع الناس صدراً وأضيقهم لهجة وألينهم طبيعة وأكرمهم عشرة. لا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصلح. متخلقاً بالقرآن المجيد وعاملاً به في الاجتهاد في طاعة الله والخضوع له والانقياد لأمره».. وقال عنه أيضاً: «يركب الحمار ويُردف خلفه ويجلس على الأرض ويأكل مع الخادم ويحمل حوائجه بنفسه من السوق. يحب الطيب ويستعمله. ويحب في الثياب ما خشن، ومن الطعام ما خشن»[1].

ولَم يبتعد الضابط الأمريكي روبرت روسي الحائز على ماجستير العلوم العسكرية من كلية القادة والأركان الأمريكية عن أطروحته بعنوان «الثورة المهدية».. لم يبتعد كثيراً عن إزاحة المزيد من الغبار عن مثالية الفكرة التي تتحدث عن إتساق المسلك الشخصي للقائد الكاريزمي مع ما كان يسعى لبثه من أفكار. ويبدو جلياً أن ذلك المبحث قد إستمال نحوه الدارسين بشغف العقل العلمي المتطلع لإستبانة حقائق الأشياء دون إغفال دقائق الأمور المتعلقة به، وفي ذات المعنى كتب روسي قائلاً:

«لقد قام المهدي بتحديد السلوك الخُلقي المثالي والملائم لما كان يسعى لتحقيقه من رؤية. لا شيء عنده كان له أولوية أكبر من بلوغ تلك الغايات. وفي سبيل ذلك، تطابق مظهره مع مظهر أدنى جندي من جنوده وهو يتزيا بذات الملبس البسيط الذي كانوا يرتدونه. حتى مأكله كان مبسطاً للغاية وكذلك كان مسكنه موسوماً بالتواضع، مما جعله لا يتبدى للناس إلا في حُلّة مبسطة لا تفوق تلك التي كان عليها أحد أنصاره. كان للمهدي حضورٌ مؤثرٌ على المستوى الرسمي. حتى سلاطين قال عنه: «كان يقف

1 إسماعيل عبدالقادر الكردفاني، **سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي**، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبوسليم، الناشر: دار الجيل، بيروت، ١٩٨٢،ص ٨٠.

أمام أنصاره بكل تواضع وانكسار». إن مقدرته على التأثير على شخص متعلم كان يمثل عدواً سابقاً له كسلاطين على هذا النحو العميق لا يمكن وصفها بشئ سوى أنها أقرب للمقدرات الإستثنائية في هذا الشأن. وفي ذات السياق، ليس من الصعب القول بأن تأثير المهدي كقائد على المستضعفين من شعبه والأميين منهم وغيرهم ممن كانوا مهيئين لتلقي نداءاته، كان أقرب إلى وقع السحر. لقد كان المهدي قائداً كاريزمياً بحق لدى اتباعه. لقد ظل عثمان دقنة وبابكر بدري أسرى لحالة ممتدة من التأثر بالمهدي طوال حياتهما وحتى بعد وفاته بسنوات طويلة. لذا حفلت كتابات هذين الرجلين فيما بعد بتقريظ مستمر لسيرته وما قام به من أعمال. وهنا يتضح أن رؤية المهدي الثورية وتصميمه اللامحدود لإنفاذها كان سبباً أساسياً في انتصار الثورة»[1].

وفي السياق ذاته، تقدم المؤرخ الفرنسي «L.J.Morie» ليقول:

«لم يلجأ المهدي لإتباع مسلك الملوك في حياته الخاصة قط. ولم يسمح لأتباعه بإطلاق أي ألقاب تافهة عليه على نحو أمير كردفان ولا حتى سلطان الخرطوم. واحتفظ المهدي – حتى وهو في قمة ارتفاع نجمه في السلطة – بذات ملابسه المتواضعة ونهج حياته المبسط. وظل حتى مماته مثالاً حياً للصوفي الزاهد المتقشف،فاستمر على ذات الحال الذي كان عليه من قبل.. مُعدماً فقيراً، متصفاً بالورع ودقيقاً فيما كان يقوم به من أعمال»[2].

ولكن بالعودة إلى سراديب التاريخ المهدوي التي ساح فيها المؤرخ الأمريكي «كيم سيرسي» بأكاديمية موغلة في الدقة، سنلحظ بجلاء ميله نحو تتبع الخصائص القيادية لشخصية المهدي منذ مراحلها الباكرة، مشدداً على أن مقدرته على التأثير في الجماهير لم تكن وليدة للحظة التي إعتلى فيها قيادة حركته بقدر ما كانت مقدرات تراكمية تصاعد مقياسها بصورة مطردة مع قرب اندلاع الثورة. ويرى سيرسي أن التماثل بين ثنائية المعتقد والممارسة الحياتية عند المهدي قد سار جنباً إلى جنب مع التوافق بين سماته القيادية

1 روسي، ص٧١-٧٢.

2 **World's Great Men of Color**, Volume I,By J. A. Rogers. Publisher: Scribner; Touchstone Ed edition 1996, United State, p.302.

المعضدة لجاذبية مشروع التغيير الذي دعا له. وذلك على نحو ما قال فيه:

«في كل مرحلة من حياة المهدي.. منذ أن كان مريداً أو حوارايا لمشائخه المختلفين إلى أن أصبح شيخاً متصوفاً مستقلاً ومن بعدها مهدياً متوقعاً، كانت عناصر الفعل القيادي عنده تسير جنباً إلى جنب مع دعوته بصورة متبادلة ومعززة للتفاعل بين هذين الأمرين. إن التماثل بين المعتقد والممارسة عند المهدي شكل واحداً من أهم سمات القوة في الخصائص القيادية لهذا الزعيم الجديد. أما جاذبية المشروع الذي دعا إليه المهدي فقد تم تعزيزها بدرجة أكثر قوة من خلال نموذج حياته الشخصية الذي لم يقبل فيه أي مساومة فيما يختص بقيم الزهد والتضحية التي وسمت مسلكه» [1].

ويمضي سيرسي في تحليله باستفاضة أوسع ليتحدث عن النفوذ الشعبي العميق الذي إرتبط بحضور المهدي المبكر على المستوى الاجتماعي السوداني في مدينة وسمت بتعدد الأطياف المجتمعية والقبلية على نحو مدينة الأبيض. ويوظف سيرسي هنا كلمات القبطي يوسف ميخائيل برؤيته الغيرية المرتبطة باختلاف العرق الإثني والمعتقد الديني ليدعم بها حجته عن إنبساط كاريزما القيادة عند المهدي وتمددها بفسيفساء مجتمع سودان القرن التاسع عشر وأثر كل ذلك على تماسك المزيج الثوري الذي تقدم هو لقيادته، وذلك على نحو قوله:

«ويبدو جلياً هنا أن السمات الشخصية للمهدي كقائد هي التي أقنعت أتباعه بصدق ما كان يدعو إليه (The truth of his message). ويمكن القول بأن الأمرين عززا بعضهما بصورة متبادلة. تلك السمات التي ميزت شخصية المهدي وما ترتب عليها من نفوذ مؤثر على شعبه،إستبانت بوضوح في كتابات يوسف ميخائيل وهو يستذكر المرة الأولى التي سمع فيها عن المهدي ابان زيارته لمدينة الابيض وقبل ظهوره مهدياً».2
وقد يكون من الصواب هنا الاستشهاد بما قاله ميخائيل من مصدره الأصلي بالعربية والذي أورد بعضه سيرسي مترجماً للإنجليزية:

1 كيم سيرسي، مصدر سابق، ص ٦٩.

2 نفس المصدر،٦٩ص.

«ولما بلغنا الخبر من الناس الكبار أنه حضر درويش من أهل البحر أسمه محمد أحمد ومعه الحيران التلامذة بكثرة ونازل عند السيد المكي. ومن يقول أنا شفته عند ولد سوار الدهب ويقولوا عليه رجل صالح من صلاح البحر، ويزور كافة المنازل الكبيرة من أهل الدين، وفي نصف الليل يقوم مع جماعته الحيران ويطوف بالبلد مرة واحدة حتى يطلع الفجر وأوان الصلاة يبطل الذكر. وعند طوافه بالليل يذكر يقول: الدايم هو الدايم الله هو الدايم. ومن يقول ايوة هو رجل صالح من أهل البحر وصارت كردفان تزوره في إقامته لأجل أخذ البركة من هذا الدرويش الصالح».. ويقول ميخائيل عن المهدي أيضاً:

«وكان الشيخ محمد أحمد جميل الصورة، حلو اللسان، فصيح في الكلام له جاذبية في الناس».. وقال ايضاً:

«كان الشيخ محمد أحمد لما وجد القبول من أهالي كوردفان وتراكم الناس عليه لأجل أخذ البركة منه صار اسمه كبير ومشهور وزاد فرحه خصوصا عند أهل الدين وأكابر عموم أهل المدينة بالمناشدة معهم في المذاكرة بالدِّين وبالتنفير من الدنيا الخسيسة وبالإقبال على الآخرة لقاء رب العالمين. والرجل عالم صاحب علم زادت محبته في قلوبهم وفرحوا به فرح شديد من شدة تواضعه وحلاوة مقاله كأنه يسقي الأرض عطشانة حتى غرس محبته في قلوبهم، وجذبهم بمذاكرته، وسحرهم بحسن مقاله وما ترك أي بيت كبير ومن له اسم مشهور الا زاره كمثل حاج خالد العمرابي، وأولاد ولد العريق، وأولاد عربي والفكي مكاوي الركابي وأهل ولد أبو صفية، وخصوصاً الياس باشا أم برير وبانقا الرازقي. وليس ترك إنسان مسمى الا زاره في بيته، ويلقي عليهم بالمذاكرة في الدين، ورغب فيه الرفيع والوضيع كبير وصغير. حفر الأساس في كوردفان وتوجه لمحل إقامته وعندما يعود يرمي البناء على الأساس»[1].

وانساق سيرسي في المسار الذي اندلقت عليه كلمات يوسف ميخائيل ليستخدم بعضها كتربة خصبة سيغرس عليها غرسه الذي أحسن سقياه بما حشد له من أدلة موضوعية. وذلك على نحو قوله:

1 مذكرات يوسف ميخائيل تحقيق الدكتور أحمد إبراهيم أبوشوك، ص ٣٤-٣٧.

«وبالتالي يبدو واضحاً هنا أن كثيراً من الناس كانوا مأخوذين بشخصية المهدي حتى قبل أن يبدأ بنشر دعوته الآخروية. ويمكن القول بأن دعوة المهدي وحدها دون شخصيته النموذجية كان من الممكن أن تجتذب إليها عدداً قليلاً من الساخطين على الوضع آنذاك من دون أن تتمتع بالجاذبية الواسعة التي كفلتها شخصيته ذات السمات المثالية للدعوة ذاتها. لذا، فإن شخصية المهدي المثالية (Exemplary character) كانت سبباً أساسياً وملهماً لتوثيق الصِّلة بين القيادة الكاريزمية والسلطة المصاحبة لها عنده. ولو كان فيبر محقاً فيما ذهب إليه حينما أشار إلى أن هوس الجماهير بتبجيل الرجال الصالحين يعبر عن احتياجات معينة بأوساط الحركة الجماهيرية.. فإن ذلك من شأنه أن يفسر بوضوح تام مقدار الاهتمام الدقيق الذي أولاه الناس لسلوك المهدي الاجتماعي. كانت الجماهير السودانية تتوق بأشواقها لقدرٍ من قيم الكرامة والاحترام نحوها. لذا ساد بينهم تطلع كبير نحو رؤية تطابق في أسلوب الممارسات الحياتية اليومية بين قيادتهم وبين القيم الكونية التي دعا إليها الإسلام والتي جسدها النبي محمد. فالنبي محمد كان مثالاً نموذجياً (Archetype) لقيم الفضيلة العليا من خلال جمعه لسمات الكرم والتواضع واختلاط كل ذلك عنده بالمتطلبات الدينية الشرعية على نحو الصلاة وبسط الصدقات والصيام. وكان المهدي بحسب ما رأى أتباعه.. قائداً تتوافق ممارساته الحياتية اليومية مع قواعد الإسلام. من ذلك أنه قد انهمك في تأدية واجباته الدينية بنفس القدر من الحماسة الذي أولاه لتأدية واجباته الاجتماعية. وقد إستذكر بابكر بدري في مذكراته تفاصيل حضوره لمخاطبات المهدي الجماهيرية في مراحل مبكرة من حركته الثورية ليقرر جازماً بأنه حتى في تلك المراحل المبكرة.. تبدى المهدي للكثيرين كشخص أحاطت به حالة من التفرد. وقد ذكر بدري أنه قد قرر الانضمام للثورة المهدية بعد سماعه لتلك المخاطبات الأولى. وهنا تستبين في هذه الحالة تحديداً واحدة من أهم السمات المتفردة لطبيعة السلطة الكاريزمية والتي تميزها بجلاء عن ضروب السلطة الأخرى المستندة على ركائز تقليدية أو أسس قانونية خاضعة للمنطق (Legal –rational). إن سلطة المهدي الكاريزمية هنا تتمثل في مقدرة القائد على خلق حالة من الوحدة الروحية (Spiritual Union) بينه وبين أنصاره. وهو يبدو قادراً على تحقيق تلك الحالة المار ذكرها من خلال نزوعه نحو

بسط حالة مزاجية عامة سرت بأواسط أتباعه المخلصين تراوحت بين الشعور بالارتياح والمواساة إلى الإحساس بالانتماء»[1].

هذا المستوى من الكاريزما الذي أشار إليه سيرسي، كان لابد له من مقابل موضوعي في السياق المظهري حتى تكتمل بناءات الكاريزما على مستوى الذهن الشعبي التقليدي لأن النمط القيادي الذي لا يتسق مع المخيلة الجماعية للمجتمعات بكل أركانها قد يقف حجر عثرة أمام القبول الشعبي في بنية مجتمعية اتسمت بالبساطة المطلقة على نحو تلك التي تشكل عليها سودان القرن التاسع عشر. كل ذلك دفع الباحثة الأستاذة رحاب جلال خالد شيخ الدين للتطرق لما أسمته بـ«الكاريزما المظهرية» مستندة على بعض شهادات من إستجوبهم المؤرخ الوطني الراحل عصمت زلفو ممن شاهدوا المهدي وعاصروه.. وفي ذلك قالت:

«وتجلت الكاريزما القيادية للإمام المهدي، من خلال المواهب الفطرية، والسمات الذاتية، والكاريزما المظهرية، الشخصية الاجتماعية الشعبية أو الجماهيرية، بالإضافة للشخصية الدينية.. القدرة على التأثير على الأتباع. وقد كتب في ذلك عصمت زلفو: «فقد أجمع كل من عاصر الإمام المهدي في تلك الأيام أنه كان يتمتع بقدر كبير من المغناطيسية أو القدرة على التأثير على الجموع (Charisma) يعززها قدر كبير جداً من الوسامة الجسدية تحيطه هالة من الجلال والمهابة. وأضاف زلفو الذي استجوب عدداً من المعمرين الذين شاهدوا المهدي أو تحدثوا إليه.. بقوله: (لم تفلح هذه السنين الطوال في مسح الأثر الغريب الذي كانوا يحسون به في وجود المهدي. والإجابة العامة التي تظفر بها هي اجماعهم على أنه «ما بتوصف». وأن الفشل هو نصيب كل من يحاول أن يستخلص وصفاً له)»[2].

مثل هذه الكاريزما المرتبطة بالمظهر و«المورفولوجيا» عند المهدي، لم تكن ملامحها منحبسة بداخل أسوار المخيلة الشعبية بطابعها المحلي المنعزل عن طرائق التفكير التي

1 كيم سيرسي، مصدر سابق، ص ٧٠.

2 رحاب جلال خالد شيخ الدين.. **النمط القيادي للإمام المهدي في تحرير الخرطوم**.. ورقة علمية قدمت بمؤتمر الدراسات المهدوية الثاني المنعقد بمناسبة ذكرى تحرير الخرطوم.. السودان ٢٠١٧.

استدرجت نحوها العقل المبدع فيما وراء السودان وحدوده. ومن ذلك، أن النمط الذي تشكل عليه المعمار الفنتازي في بعض السرديات الروائية العالمية لم يبتعد عن تجسيد تلك الكاريزما المظهرية للمهدي وإخضاعها لعملية «أسطرة» تعزز من مركزية الفكرة نفسها وموقعها من المواهب القيادية لزعيم الثورة المهدية. اتجاهات كتلك، اتخذها الروائي البريطاني الأصل والزامبي المولد «ويلبر سميث» في روايته «The Triumph Of The Sun» والتي تناولت وقائع تحرير الخرطوم في ١٨٨٥ من خلال تتبع سيرة عائلتين بريطانيتين توثقت صلتهما بالجنرال البريطاني غردون وما تخلل تلك الأحداث من أقاصيص مفعمة بالرومانسية والتراجيديا معاً. وقد نقل «سميث» -على لسان راويه العليم - وصفاً دقيقاً للكاريزما المظهرية للمهدي كما تبدت لرجل أعمال استعماري بريطاني مثل «رايدر كورتني» حين تصدى لأسئلة الفتاة الحالمة «ريبيكا بينبروك».. وهو ذات النص الذي جاء فيه:

«ألقى الصمت بسطوته على الجميع حتى بددته (ريبيكا) حينما ابتدرت حديثها وهي تدفع بسؤالٍ لا يصدر إلا من أنثى مثلها. لم تُظهر اهتماماً كبيراً بالتجليات السياسية للمهدي السوداني وتاريخه وما صحبها من جوانب عسكرية ودينية.. وهي تتساءل:

- ولكن كيف يبدو المهدي يا سيد «كورتني»؟ على أي حالة يبدو مظهره؟ هل لك أن تحدثنا عما عُرف به من مسلك. فضلاً، حدثنا عن صوته كيف يبدو كما سمعته. حدثنا لو سمحت عن أسنانه المفلجة كيف يمكنك أن تصفها كما بدت لك؟

فرد (كورتني) قائلاً:

- المهدي.. أنه يمتلك ذات الكاريزما الضخمة التي يتمتع بها غردون، فقد كان ذلك شيئاً آخراً ومهماً اشتركا فيه. بوسعي أن أقول لك أنه رجل مربوع القامة وناحل الجسد. يرتدي دوماً جبة بيضاء ناصعة لا تشوبها أدنى شائبة من الكدر. هكذا ظل حتى حين كان يتعبد في غاره المحفور بباطن الأرض.على خده الأيمن علامة يسمونها الخال قيل أنها انطبعت عليه منذ مولده، بدت لي على شكل طائر أو ملك سماوي. بيد أن أنصاره يعتقدون أنها من سمات القداسة. تفلج أسنانه يستولي على انتباهك استيلاءاً حينما يشرع

في الحديث. وحينها ستدركين أنه خطيب مفوه آسر الأسلوب. أما صوته، فبوسعك أن تقولين أنه صوت طري مترفق.. هكذا يبقى حتى إذا أُستثير غضبه، وعندها سرعان ما يتحول لصوت يقع على مسامع محدثه كما يتنزل الرعد. سيتبدى لك حينها وكأنه صوت لأحد أنبياء الله الذين سرد الكتاب المقدس عنهم السير.. بيد أن الابتسامة لم تكن لتفارق وجهه حتى حين يستولي عليه الغضب»[1].

والذي لا يدانيه شك من وقائع الأحوال، هو أن الحضور الكاريزمي لمحمد أحمد المهدي كقائد لم يكن قاصراً على محيط أتباعه ومعاصريه فقط.. سواء أن كانوا معاصرين حقيقيين أم مجموعة من الشخصيات «الفنتازية» التي صنعتها أخيلة الروائيين بعبقرياتهم المختلفة. ومن ذلك أن هذا الأثر الموثق قد شمل فيما شمل قوى معاصرة ناصبته العداء واصطدمت معه تبعاً لذلك لما رأت في حركته من مطامح قد تتصادم مع رغائبها الاستعمارية. وعلى مستوى النخبويين الإنجليز تحديداً يبرز اسم «ونستون تشرتشل» رئيس الوزراء البريطاني الأسبق كأحد أهم الرموز السياسية الإنجليزية التي دونت رأيها المكتوب فيما سبق. وفي معرض تقييمه لأحداث الثورة المهدية والتي عاصر أحداثها كمراسل حربي شاب.. دفعته بسالة خصومه في ميدان القتال نحو التحول لاحقاً إلى مؤرخ من خلال كتابه المهم «حرب النهر»، كتب تشرتشيل معلقاً على إنجازات المهدي قبل وفاته:

«مهما قيل عن المهدي، فيجب ان لا ننسى أنه القائد الذي بث روح الحياة والأمل في قلوب بني وطنه. لقد كان هو الزعيم الذي حرر بلاده من الحكم الأجنبي وحول شعبه من حياة بائسة بلا أمل إلى حياة مفعمة ومليئة بالروعة. لقد أشعلت روح المهدي بين صدور السودانيين المتواضعة شعلة الوطنية والانتماء للدين. وصارت الحياة مليئة بالمخاطر المبهجة والمثيرة.فعاش السودانيون في عالم جديد رائع ألهب خيالهم.. فهم إن عاشوا في هذه الدنيا، فسيقومون بجلائل الاعمال.. وإن لقوا حتفهم في أثناء اشتباكاتهم مع مربعات الجيش البريطاني أو القوات المصرية الغازية، فمصيرهم جنة السماوات

1 **The Triumph of The Sun- A Novel of African Adventure** by Wilbur Smith,Publisher: MACMILLAN, London 2005, PAGE 20.

عندها». ويرى تشرتشيل أن الثورة المهدية لم تواجه نظما اجتماعية وسياسية متآكلة وحسب بل امتدت مواجهاتها لتصطدم بعالم متطور ومتسلح بعلوم الآلة العسكرية ومن ثم انتصرت عليه. وساق تشرتشل خلاصة تعليقه إلى منتهاها حين قال:

«ولذلك فإنني أعتقد أنه في سنوات المستقبل القريب إن هبت رياح التقدم والازدهار وأعقبها قطار الوعي والتعليم في ذات المسار لشعب وادي النيل فعندها لن ينسى أول مؤرخ عربي يود أن يوثق لتاريخ تلك الأمة.. لن ينسى أن يكتب اسم محمد أحمد المهدي في مقدمة أبطال شعبه»[1].

وفي سياق متفق مع ما قاله تشرتشيل، كتب أستاذ التاريخ البريطاني البروفيسور ثيوبولد **A.B.Theobold** معلقاً على وفاة المهدي وانجازاته في حياته القصيرة من خلال سفره القيم «**The Mahdiya**» فقال:

«كانت شهرة محمد أحمد المهدي كفيلة بأن تحفظ إسمه للأجيال القادمة من بني وطنه. في خلال أربع سنوات، صنع مجده من العدم وانتصر انتصاراً كبيرا على قوتين دوليتين تفوقانه عدة وعتاداً (بريطانيا وتركيا). قام بوضع أسس الدولة الوطنية الجديدة.. كما قام بدعوة إصلاحية استهدفت إصلاح ما فسد من دين شعبه.وحّد السودانيين وغير طريقة وأسلوب حياتهم للأفضل ومنحهم ثقة وإيمانا اكبر بمقدراتهم وبأنفسهم.. وقادهم نحو الحرية والانعتاق. ومع كل هذا، اكتسب طاعة شعبه الكاملة واحترامهم وتقديرهم اللامحدود. هنالك عدد محدود من الرجال على مر التاريخ الإنساني ممن يستطيعون ان يفعلوا مثلما فعل المهدي في السودان»[2].

بيد أن كل ما قام به المهدي في حياته القصيرة لم يكن ليقيم بينه وبين سهام القادحين حاجزاً مرتفع الأسوار. كغيره من رموز التاريخ الوطني والديني ومن قبلها الإنساني عموماً.. لم يكن من السهل الإبقاء على كل ما لديه من صحائف مسربلة بالبياض لا

1 تشرتشل: حرب النهر، ص ٧٠-٧٢.

2 **The Mahdiya: A History of the Anglo-Egyptian Sudan 1881 - 1899** by A.B. Theobald. Publisher: Longman & Green 1965, United Kingdom,p.130.

يأتيها من قِبلها ولا من خلفها سوءٌ ودون أن يحوم بين أسطرها حائم بقلمه الناقد أو المستصغر من قدر الرجل. وقد يقتضي الإنحياز للمنهج الموضوعي هنا.. الميل لتناول سيرة المهدي باستخدام منهجية أكاديمية تأخذ بالاعتبار الحملة الدعائية البريطانية التي استهدفته من خلال كيل الإتهامات الجزافية التي لم تكن لتبتدئ بادعاء النبوة أو لتنتهي بشغف مزعوم بالنساء اعتمل بقلب ذلك القائد الكاريزمي. وهي ذات المنهجية التي يجب أن يوازيها التأهب المنفتح للأخذ بأي دراسات موضوعية تتناول تفاصيل ما قام به المهدي سواء ان كان بالسلب المطلق أو الإيجاب القتور.

وفي هذا الإطار تحديداً، برز تيار تصاعد مّده المتدرج لمراجعة الأسلوب الدعائي الرامي لتشويه تاريخ الثورة المهدية والذي أرست دعائمه كتابات سلاطين واوهرولدر تحت إشراف وهندسة الضابط الاستخباراتي البريطاني ريجنالد ونجت لخلقنة وتبرير عملية إعادة احتلال السودان بواسطة بريطانيا. ولعل تقادم الزمن قد أسهم كثيراً في الإنتقال بمرارات البريطانيين من بقعة هزائمهم الأولى أمام الثورة المهدية إلى مربع يدعو لعقلنة ومراجعة التقييم السابق لجوانب عديدة من حياة المهدي - وبالأخص بعد وفاته - من خلال التمحيص الحيادي فيما كتب من منشورات وما كُتب عنه بأقلام معاصريه وخواص مقربيه ومن ثم وضع ذلك كله بميزانٍ يستصحب معه اختلاف القيم الثقافية والحضارية والسياقات الزمانية والمكانية.. إيفاءاً للكيل وتحرياً لاستقامة قسطاس التاريخ. وفي المضمون نفسه قال البروفسور بيتر هولت أستاذ التاريخ البريطاني المرموق:

«يجب أن لا نغفل الكيفية التي نمت بها ونضجت الأفكار المتواترة عن المهدية، إذ انها لم تكن مجرد أفكار محلية أو متوارثة بل جاءت نتيجة تأثرها بالحكم الإنجليزي وما نشره من اتجاهات على مدى خمسين عاماً أو يزيد. وقد هاجم معظم الكتاب الأوائل من الأوروبيين المهدي ولكن الموقف تغير عقب وفاته إذ دوفع عن ذكراه حتى من أعدائه وتغيرت النظرة إليه باعتباره رجلاً تعالى في تدينه وتفانى من أجل عقيدته»[1].

1 الغـالي: المهديـة: قـراءة في أطروحـة شـوق الدرويـش، ص٥١. انظـر أيضا..بيـتر هولـت: المهديـة في السـودان ترجمـة د. جميـل عبيـد، دا الفكـر العـربي للنـشر، القاهـرة، ١٩٧٨.

ولكن كل ما سبق، يجب أن لا يثني رغائب البحث العقلي عن التقدم – بصورة أكثر إسهاباً - نحو تفكيك بعض حزم تلك الإتهامات التي وِجهت نحو أسلوب حياة المهدي نفسه ومن ثم الاتجاه بخطوات ثابتة نحو حمل ما أورده أوهروالدر وسلاطين ومجموعة إصدارات ونجت المخابراتية على محمل الجدية من باب تحليل محتواها القابل للأخذ والرد متى ما أتفقت تفاصيلها مع الموضوعية الاكاديمية في قراءة دقائق التاريخ. قراءات عقلانية كتلك، قد يتعين علينا تعبيد منافذها ومسالكها الذهنية التي تقود المخيلة لتصور طبيعة المزاج الثقافي الذي تواترت في كنفه تلك الكتابات. ولن يكون هناك ما هو أجدر بكل من يسعى إلى سبر أغوار الأمر برمته.. من الوقوف عند ما كتبه المؤرخ البريطاني «نورمان دانيال» في هذا الشأن. ومن ذلك أن «نورمان» يرى ضمناً أن الحملة الدعائية البريطانية ضد المهدي قد تعثرت بجلاء في شراك من الاعتقادات القديمة التي إنتصبت منذ زمن سحيق بخلايا الذهن النخبوي الغربي عن الإسلام تحديداً. وليس هناك من نص أكثر تعبيراً عما سبق مثلما ورد بافتتاحية حديثه عن الثورة المهدية والذي قال فيه:

«كان قطار الأحداث الذي إنطلقت عجلاته فوق قضبان السودان بقيادة محمد أحمد المهدي مشابهاً في مساراته للأقاصيص القديمة التي رسخت بالأذهان عن إنبلاج فجر الإسلام الأول. وأسهم ذلك كثيراً في استدعاء مشاهد غرائبية من مكامن الذاكرة لدى العقل الجمعي البريطاني عن ذلك العالم القديم»[1].

و يرى نورمان أن المخيلة الغربية قد رسمت خطوطاً متوازية بين شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومحمد أحمد المهدي.. مما جعلها تستدعي ذات التخيلات القديمة للمستشرقين بخصوص التعلق بالنساء وإعادة حياكة نفس الجبة الافتراضية بهذا الشأن لإلصاقها بقائد الثورة المهدية. واستشهد نورمان بإحدى تلك الوقائع المدعاة فيما يُشاع عن شغف المهدي بالنساء معلقاً على ذلك بقوله:

«هذه القصص هي أقرب ما تكون للخرافات التي نُسجت في مخيلة المسيحيين

1 دانيال: الإسلام، أوروبا والإمبراطورية، ص ٤١٦.

الجماعية عن النبي محمد للدرجة التي تمكننا من القول بأنها مستوحاة – في حالة المهدي- من ذات الأقاصيص الخيالية عن النبي محمد [1]. ويمضي نورمان ليستعرض «البروبغاندا» البريطانية التي صوبت مدفعيتها نحو هدفها ببراعة لاغتيال شخصية المهدي من خلال مجهودات الجنرال الاستخباراتي البريطاني ريجنالد ونجت ومجموعة الكتب التي سعى جاهدا لنشرها بأقلام أسرى أوروبيين. بيد أن تلك المجهودات التي قام بها ونجت لم تفلح في محو اثار قلمه المصحح والمعدل لتلك الروايات لتتفق مع ما أراد لها من دعاية اعلامية دمغت الحركة المهدية بصفات البربرية والوحشية حتى اتجه بعض المؤرخين المعاصرين للقول بأن ونجت كان هو المؤلف الحقيقي لكل ما سبق. ولكن بالرجوع إلى ما خلص إليه نورمان في هذا الشأن تحديداً، ليس هناك ما هو أفضل من نقل كلماته التي قال فيها:

«ومهما كانت الأرضية التي استندت عليها تلك الإتهامات فإن الحقيقة الباقية هنا أنه حتى واقعة وفاة المهدي قد تم تغليفها مرة أخرى بذات العدوانية القديمة تجاه سيرة النبي محمد. وتمت بالتالي عملية إعادة إنتاج الفكرة مجدداً في حالة محمد أحمد المهدي. ها هي إذن ذات الجدلية العنيفة التي سكنت بأذهان مسيحيي القرون الوسطى تجد طريقها إلى الحياة مجدداً»[2].

مثل تلك الجدليات لم تكن بمنأى عن مجهودات أكاديمي أمريكي آخر سبق وأن أشرنا إلى دراسته القيمة حول الثورة المهدية مما جعلها تستوفي شروط الإجازة من مؤسسة القادة والأركان الأمريكية كأطروحة لنيل ماجستير العلوم العسكرية. فلنترك ما يلي من مساحة لروبرت روسي الذي لم يدخر جهداً لتبيين حقائق الأشياء كما تبدت له:

«على الرغم من وجود مصادر تنتقص من سلوك المهدي على المستوى الشخصي بصورة سلبية إلا أن الأغلبية الساحقة لتلك المصادر تحتوي على تعليقات منسوبة لأعدائه مما يبقي الباب مواربا ًلتفسيرها في سياق الدعاية السياسية التي استخدمتها

1 دانيال، مصدر سابق ص ٤٣١.

2 دانيال، ص ٤٣٢.

تلك المجموعات ضده. إن أكثر الإشارات التي كانت تنتقص من مسلك المهدي بتلك المصادر بصورة مكررة انصبت حول جدلية مرتبطة بتعلق المهدي بالنساء.تلك الادعاءات لم تكن منبنية على خبرات قائمة على ما شاهده معاصروه بما في ذلك أسراه الأوروبيون وأنصاره. لا جدال في أن المهدي كان له عدد من السراري ولكن ليس هناك ما يشير إلى تجاوز عدد زوجاته للرقم أربعة وهو المسموح به في القرآن. في سياق تقاليد المجتمعات بالعالم العربي، كانت الزيجات تستخدم كوسيلة لتوثيق عرى الولاء بين القائد وأتباعه. من المرجح أن المهدي استخدم الزواج والمصاهرة لتمتين مكانته كقائد وتوثيق الروابط مع أنصاره سعياً لجعلهم أكثر اقتراباً منه. إن الصدق الذي تحفل به كتاباته ومراسلاته مع أصدقائه وأعدائه على السواء بالإضافة لأسلوب حياته الموغل في التواضع يعضدان من هذه الخلاصة. إن أتباعه الذين نُشرت بعض كتاباتهم عما كان يقوم به المهدي من أنشطة حياتية يومية يتفقون بصورة مؤكدة مع ما سبق من رؤية، بينما تمثل شهاداتهم في هذا المجال دليلاً مشرقاً على ما أصابه المهدي من نجاح رائع في بناء شبكة من الأتباع الأوفياء والمتحمسين لدعوته»[1].

ويتفق المؤرخ الأمريكي روبرت كرامر البروفيسور بقسم التاريخ في كلية «St. Norbert» بالولايات المتحدة مع ما ذهب إليه روسي حين اتجه لسبر أغوار هذا الشأن بذهنيته الأكاديمية المتعمقة في علم التاريخ الاجتماعي والتي تبدت ذائقتها بجلاء في سفره القيم «المدينة المقدسة على ضفاف النيل - أم درمان في فترة المهدية ١٨٨٥-١٨٩٨» والذي قال فيه:

«إن عدداً من أنصار المهدي المخلصين وهبوا بناتهم للمهدي طمعاً في أن تغشاهم بركته من خلال الاقتران بكريماتهم. كما أن المهدي نفسه تطلع كثيراً لدمج أشتات المجتمع السوداني مع بعضها بعضاً عن طريق ما سبق وذلك من خلال جعل أسرته الخاصة نموذجاً لمثل هذا التمازج. وكان اقترانه ببعض أرامل رجال النظام التركي المصري البائد محاولة منه لتشكيل قدوة لأنصاره لحذو حذوه بغرض حل المشكلات

1 روبرت روسي، مصدر سابق، ص ٥٥-٥٦.

(الاجتماعية) الناجمة عن ويلات الحروب.. هذه الزيجات أيضاً كان لها أثرها في تفتيت النظام (الاستعماري) القديم. وقد ذكر المؤرخ البريطاني هولت أن زيجات المهدي كانت في جوهرها محاولة منه لإعادة الاستقرار للمجتمع السوداني الذي كان حينها يرزح تحت وطأة التحلل. وهذا هو السياق الذي يجب أن يتم من خلاله رؤية عدد كبير من زيجات المهدي.. وفي الوقت ذاته يتوجب علينا اعتبار أن المزايا المتعددة من تلك الزيجات على المستويين الديني، الاقتصادي وفي إطار السلطة القبلية.. لم تجاف المنطق في ذاك السياق»[1].

وفي السياق نفسه، بدا المؤرخ الوطني الدكتور أحمد محمد البدوي متفقاً مع ما انتهى إليه كل من كرامر وروسي بخصوص إتباع المهدي لسياسة المصاهرة مع القبائل السودانية المختلفة سعياً لإسترضاء أنصاره وتقريب الأبعدين منهم بحسابات العرق والجغرافيا.. وفي ذلك قال: «و(زوجاته) هن ينتمين إلى قبائل شتى وأماكن مختلفة من السودان، وكان زواجه من معظم نسائه استجابة لطلب ملح من آبائهن وأولياء أمورهن الأقربين، ولم يكن ذلك الزواج يستمر لفترة طويلة ولكن الزوجة السابقة من بعد الطلاق تظل مكرمة بوصفها واحدة من زوجات المهدي وتبقى في منزله. وكان المهدي يؤثر دائماً أن يحتفظ بأربع زوجات فقط في عصمته»[2].

ولكن بالرجوع إلى حادثة وفاة المهدي المبكرة نسبياً.. نظراً لحدوثها بعد فترة وجيزة من بلوغ انتصاراته على الإنجليز لذروة النجاح الذي تطمح إليه حركات المقاومة في مجابهة القوى الاستعمارية.. يبقى من المهم هنا تمحيص الظروف التي اكتنفت وفاته دون الوقوع في فخ الإرث العدواني الغربي في التعامل مع وقائع الحركات المناهضة لسيطرة الغرب المسيحي بحسب ما أشار إليه المؤرخ البريطاني نورمان دانيال. في السياق ذاته، يبقى من السهل على أي مراقب حصيف أن يشير إلى غفلة عين البحث العلمي المستند على الوثائق المكتوبة بخط يد المهدي نفسه ومن عاصره من مفجري الثورة المهدية.. وما

---

1 **Holy City on the Nile: Omdurman During the Mahdiyya, 1885 - 1898** by Robert S. Kramer. Publisher: Markus Wiener Publishers 2010, United States,p.151.

2 **مسكين من دنقلا.. سيرة الإمام المهدي السوداني**، للدكتور أحمد محمد البدوي، دار البيان للطباعة والنشر، القاهرة،١٩٩٢، ص٩٢-٩٣.

قد يترتب على ذلك من إسقاط لبعض التفاصيل المهمة المتعلقة بهذا الأمر. كل ذلك أدى إلى تراكم قدر كبير من تاريخ تلك الفترة المفصلية بصدور الرجال الذين شهدوا وقائعها المختلفة. فعلى الرغم مما دونه الأستاذ محمد عبدالرحيم في سفره القيم «نفثات اليراع في الأدب والتاريخ والاجتماع» والسيد علي المهدي في «أوراقه» من شهادات وإفادات الرواة الذين شهدوا تلك الاحداث إلا أن ما سطروه بقي قابعاً في أضابير الوثائق التاريخية دون أن يتعرض لمضمونه الكثيرون.. مما يوضح افتقار الذاكرة التاريخية الوطنية والإقليمية لهذا المخزون المعرفي البالغ الأهمية. كما يحفل أرشيف الصحافة البريطانية والعالمية بالعديد من الأدبيات المتعلقة بوفاة المهدي.. تبايناً في المحتوى واتفاقاً في المتن الذي يؤكد مفصلية تلك الواقعة على تاريخ السودان وأثرها على توسع بريطانيا في مستعمرات ما وراء البحار.

بعد تحرير الخرطوم وتحديداً في مايو ١٨٨٥ الموافق شعبان ١٣٠٢ هجرية (أي قبل أقل من شهرين من تاريخ وفاته)، كتب الإمام المهدي لأحمد ود سليمان أمير بيت المال معزياً في وفاة الأمير العبيد محمد سعيد.. وذكر نصاً: «شوقه (اي المهدي) للقاء ربه الرحمن في كل آن حتى نجد المقصود عند انقضاء الأحيان».و ختم خطابه مؤكداً على مضمون الرسالة بقوله «ان موت أعز الاحباب داعٍ إلى الوثوق بالوهاب والفرار من دار السراب ولاشك أن إنتقال الحبيب العبيد شوقنا إلى لقاء الله الحميد والسلام»[1]. وبعدها ببضعة أيام خاطب المهدي الأمير أحمد ود سليمان بالإسراع في تجهيز الجيش المتجه لتحرير سنار وذكر عدم تمكنه من الحضور بنفسه لتوديع الجيش نسبة لمرضه.. ولعلها أولى الوثائق التي تحدث فيها المهدي عن مرضه بإشارة واضخة مباشرة.. وأشار المهدي مجدداً لـ(اشتياقه للقاء ربه.. وأن أيامه قد تقاصرت) في رسالة بعث بها إلى الخليفة عبدالله ودار مضمونها حول تجهيز جيش الثورة المتجه لتحرير مدينة سنار أيضاً وهي ذات الرسالة التي جاء في صدرها:

«حبيبي، حيث أن الأيام قاصرت والإشتياق إلى الله قد اشتد والبلدان إلى الآن ما

1 أبوسليم: **الآثار الكاملة للإمام المهدي**، دار جامعة الخرطوم للنشر ١٩٩٢، المجلد الخامس.. ص ١٨٦.

فُتحت وعدم الفتح تعطيل عن المقصد».[1]. ثم أتبع ذلك بخطاب آخر لأحمد ود سليمان معزياً في وفاة الأمير إسماعيل الدود منوهاً إلى أن اشتداد المرض عليه منعه من الحضور بنفسه للصلاة على جثمان المتوفي[2].

وعلى الرغم من سطوة المرض على جسد المهدي إلا أن المصري إبراهيم فوزي باشا.. أبرز معاوني غردون على أيام حصار الخرطوم والذي وقع في أسر الثوار بعد تحرير المدينة.. يذكر ما يفهم منه انه صلى خلف المهدي صلاة ليلة النصف من شعبان حين يقول: «وصلى المهدي بالناس في ليلة النصف من شعبان مائة ركعة بالقرآن كله رافعاً صوته بالقراءة باكياً»[3].

وفي اليوم الأخير من شعبان ١٣٠٢ هجرية عاد المهدي عودته الأخيرة إلى مدينة أم درمان من الخرطوم االتي زارها لتفقد أحوالها فأزعجه ميل بعض الانصار عن التقشف والزهد وإيثارهم لحب الدنيا وسكناهم في قصور أعيان الخرطوم وباشواتها من المستعمرين.. فخطب خطبة الجمعة الاخيرة في مسجدها وقرع ذلك المسلك تقريعاً عنيفاً.. وتلى قوله تعالي (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم)[4]. وستكون تلك اخر صلاة له بمسجد مدينة الخرطوم قبل وفاته[5].

عند ثبوت هلال رمضان ١٣٠٢ وبعد صلاة المغرب تحديداً، قام الإمام محمد أحمد المهدي خطيباً في جموع المصلين من خلفه فطلب منهم العفو وذاكرهم في فناء الدنيا وخير الآخرة وقال «إن هذا شهر رمضان وهو شهر عظيم نريد أن نقبل فيه على الله فلا تشغلونا فيه بأشغال دنيوية وقد عينا لكم خلفاء وقضاة ونواب وأمراء فمن كان

---

1 خطاب بتاريخ شعبان ١٣٠٢ هجرية، أبوسليم: **الآثار الكاملة للإمام المهدي**، المجلد الخامس، ص رقم ٢١٧.

2 خطابات المهدي لأحمد ود سليمان بتاريخ شعبان ١٣٠٢ الموافق مايو ١٨٨٥، أبوسليم: مصدر سابق ص ١٨٣، ٢٠١٣.

3 إبراهيم فوزي: **السودان بين يدي غردون وكتشنر**، مطبعة الآداب والمؤيد، العام ١٣١٩ بالتاريخ الهجري.. القاهرة، ص ٢٦.

4 الآية ٤٥ سورة إبراهيم.

5 **أوراق السيد علي المهدي**، نسخة بخط يد الشيخ سليمان اديب، دار الوثائق السودانية.

عنده قضية أو أمر فليرفعه لجهة اختصاصه، أما المظالم والحاجيات التي تخص بيت المال فأرفعوها إلى أمين بيت المال»[1].

ويتوافق ما تقدم ذكره تماماً مع مضمون اخر منشور للمهدي والذي صدر في اخر شعبان ١٣٠٢ هجرية الموافق بالتقريب ١٤ يونيو ١٨٨٥ وعُلق على حائط المسجد.. يذّكر فيه بقدوم شهر رمضان ويذكر أنه شهر الاشتياق إلى الرحمن ويطلب أن لا يشغله أحد بقضاء حاجة من حوائج الدنيا لأنه سينقطع للذكر والعبادة ويحيل كل أصحاب الحوائج للأمراء والخلفاء لقضاء حوائجهم.. ومن ذلك قوله:

«فتحققوا بذلك أيها الاحباب وأوصلوا أنفسكم لله وأرفعوا حوائجكم إليه فكلنا عبيد الله والأمور بيده فلا تشغلونا بقضايا ولا بحوائج في هذا الشهر وخلونا للذكر والتذكار والصلوات والدعوات فها هم الخلفاء نيابة عني والأمناء المعنيين»[2].

ولما ابتدا شهر رمضان من العام الهجري ذاته، ألقت الحمى ببأسها على جسد المهدي فكابد كثيراً وهو يتقدم للصلوات الخمس بالمسجد الملاصق لداره. بيد أن محمود آدم حلو الذي شهد مع الإمام المهدي وقائع مختلفة منذ انضمامه مقاتلاً بصفوف الثورة.. قال أنه على الرغم من ذلك كله.. فإن المهدي لم يتأخر عن صلاتي العشاء والتراويح اللتين أم أنصاره فيهما لخمس ليالٍ متتالية إلى أن تمكنت منه الحمى في الليالي الثلاث التي أعقبتها.. فانتقل إلى رحمة مولاه في ثامن أيام رمضان ١٣٠٢ هجرية الموافق ٢٢ يونيو ١٨٨٥م[3].

ودُفن المهدي في ذات الحجرة التي توفي فيها وهي ذات المكان الذي يوجد عليه ضريحه الحالي.. ولم يتخط عمره آنذاك الثانية والاربعين بعد. وتقدم الخليفة علي ود حلو فبايع الخليفة عبدالله وتبعه الخليفة محمد شريف وبقية الأمراء.. وتحولت المهدية من ثورة إلى دولة فقدت قائدها في أحلك الظروف.

---

1 علي المهدي: مصدر سابق ص ٨٩.

2 أبوسليم: **الآثار الكاملة للإمام المهدي**، المجلد الخامس..ص ٢٠٧.

3 محمود آدم حلو: **الفتوحات الربانية بالأسرار الإلهية على ما وقع في زمان المهدية**، مخطوطة مودعة بدار الوثائق السودانية.

واستكمالاً لما إنتحينا نحو إستقصائه من أصداء عالمية لوقائع الثورة المهدية، يبقى من المهم تعريف حادثة وفاة المهدي بإحدى الوقائع البارزة على رزنامة أحداث القرن التاسع عشر. ومن ذلك ما جاء بصحيفة «Shefield Daily Telegraph» البريطانية بعد وفاة المهدي من تحقيق صحفي مهم تحت عنوان «How the Mahdi died» أو «كيف توفي المهدي».. وخلصت فيه الصحيفة إلى أنه توفي بالحمى «مرجحة أنها حمى مرتبطة بمرض الجدري» والذي اشتد عليه منذ ١٩ يونيو حتى توفي في ٢٢ يونيو ١٨٨٥ [1]. كما ذكرت أن آخر وصايا المهدي كانت مواصلة حرب التحرير ضد الغزاة وأشارت إلى أن الخليفة عبدالله قد خلفه في إدارة الدولة. وفي نهاية التحقيق أشارت الصحيفة نفسها إلى أن خبر وفاة المهدي قد تناولته عدد من أبرز صحف العاصمة النمساوية «فيينا» ونقلت بدورها تهانيها الحارة عن خبر موت المهدي للحكومة البريطانية[2].

أما صحيفة «Hartlepool Mail» البريطانية والتي تصدر من مدينة درم بأقصى شمال إنجلترا فقد نشرت تحقيقا بعنوان «Russia and the Mahdi's death» أو «روسيا ووفاة المهدي».. نوهت فيه إلى اهتمام الصحف الروسية بخبر وفاة المهدي وذكرت تحديداً صحيفة «Novo Vermya» الروسية الشهيرة واهتمامها بنشر هذا النبأ. كما اشارت لقلق روسيا من النتائج المترتبة على ذلك لأنها ستعطي بريطانيا شعوراً بالراحة من خطر الثورة المهدية على مستعمراتها مما سيطلق يدها في منطقة اسيا الوسطى وهو ما تخشاه روسيا[3].

وفي الشأن ذاته، لم تغب أنباء وفاة المهدي عن صفحات صحيفة بريطانية مهمة على نحو صحيفة «Western Daily Press» بعدما وافاها بتلك الأخبار مراسلها من مدينة سواكن المطلة على ساحل البحر الأحمر بمينائها الذي لم يتحرر بعد من قبضة

---

1 يتضح هنا بجلاء اتفاق نبأ تلك الصحيفة البريطانية عن تفاصيل مرض المهدي مع إفادات محمود آدم حلو والذي ذكر اشتداد الحمى عليه منذ خامس أيام رمضان إلى اليوم الثامن منه وهو ذات تاريخ وفاته وتوافق تلك الأيام بالضبط ما بين ١٩-٢٢ يونيو من العام ١٨٨٥.

2 **Shefield Daily Telegraph**ّ عدد السبت ١ أغسطس ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

3 **Hartlepool Mail**، عدد ٣٠ يوليو ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

البريطانيين. وقام ذلك المراسل بتغطية وقع وفاة المهدي على السودانيين هناك. ونوهت الصحيفة فيما نقلته إلى أنه من الصعب تماماً تحديد أثر وفاة المهدي على الناس بقدر دقيق. وذكرت أن مشائخ القبائل والأمراء قد عمهم الحزن والكرب لموت قائدهم ولكن ذلك لم يفت من عضدهم بل يبدو انه زادهم تصميماً، فهم يصلون صباحاً ومساءً للموت والجنة «**praying night and day for death and heaven**»[1].

وتعرضت صحيفة إنجليزية أخرى لأنباء وفاة المهدي من خلال أحد مراسليها بشرق السودان حيث كانت القوات البريطانية في حالة متواصلة من الاشتباكات الملتهبة مع قوات المقاومة المهدوية هناك بقيادة الأمير عثمان دقنة. ووصفت الصحيفة ذاتها الأمير عثمان دقنة بالقائد الرائع «**Wonderful man**» الذي استطاع تثبيت قلوب المئات من أتباعه وعلى الرغم من التعداد المحدود نسبياً لمقاتليه الا انه كان قادراً تماماً على محاصرة ١٠ الآلاف من القوات البريطانية في أماكنهم[2].

ويبدو أن رحيل المهدي لم يكن من السهل تصنيفه بالحدث الذي يمكن أن يتقادم على صحافة بريطانيا من دون أن تغزو أصداؤه المتكررة معاقل ذواكرهم المتمنعة على سطوة النسيان. في الذكرى الخامسة عشر لوفاة المهدي، كتبت صحيفة «**York Herald**» البريطانية تحت عنوان «**The Sudanese Views of the Mahdi**» خلصت فيه إلى أنه كان رجلاً عظيماً «**He was a great man**». كما أشارت إلى أنه لم يُهزم في معركة قط طوال حياته «**He never saw a defeat**» ويذكر صاحب المقال البريطاني أن هذه الحقيقة قد جابهه بها أحد الذين استطلعهم من السودانيين وقد أوقعته صحة المعلومة التي كان يعرفها سلفاً في حرج بالغ اضطر معه إلى تغيير الموضوع مع الشخص المستطلع رأيه معبرا عن ذلك بقوله:

«**This was so true that I changed the subject**»[3].

1 صحيفة **Western Daily Press**، عدد الإربعاء ١٩ أغسطس ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

2 صحيفة « **The Shields Daily Gazette**»، عدد الأربعاء ١٩ أغسطس ١٨٨٥، أرشيف الصحافة البريطانية.

3 صحيفة **Herald York**، ٣٠ يونيو ١٨٩٩، أرشيف الصحافة البريطانية.

و وصلاً لما سبق بما حاولنا تتبعه من ترابط موضوعي يكسب الحجة التي سنسوقها فيما يلي بعضاً من التماسك المطلوب، يتعين على الذهن البحثي هنا التعامل بتيقظٍ حذّر مع ما أورده رائد نظرية السلطة الكاريزمية في علم الاجتماع السياسي «ماكس فيبر» عن ميل ذلك النوع من أنواع السلطة نحو التلاشي بعد وفاة القائد الكاريزمي.. وهو ما جعل فيبر يصف السلطة الكاريزمية هنا بالسلطة الغير مستقرة لارتباطها بقائد واحد ملهم. فرضية كتلك، ليس من السهل التعاطي معها دون إبقاء الباب مواربا أمام إحتمالية تلاشي النفوذ الكاريزمي للقائد على أتباعه ومناصريه بعد وفاته مباشرة. ولابد أن كل ما سبق كان يعتمل بذهن المؤرخ الأمريكي البروفيسور ريتشارد دكيمجيان وزميلته الباحثة مارغريت وزروميسكي حينما تقدما بسفرهما القيم تحت عنوان «كاريزما القيادة في الإسلام: مهدي السودان» نحو تحدي ذلك المفهوم الذي يقلل من ديمومة الكاريزما بعد فناء القائد.. متخذين في الوقت ذاته، من المهدي السوداني نموذجاً أقاموا عليه ما أنتوا صياغته من أسانيد. قام الباحثان بإجراء دراسة أكاديمية اشتملت على ١٤٠ من القادة والأمراء الذين ساندوا المهدي. وبالوقوف على مصادر تاريخية متعددة ومتنوعة، خلصا إلى أنه على الرغم من وفاة المهدي المبكرة إلا أن ١٢٦ منهم.. أي ما يعادل ٩٠ ٪ منهم قد واصلوا على ولائهم واخلاصهم لمبادئه حتى النهاية. بينما تراجع عن مبادئ الثورة ١٠٪ فقط من قادتها. ووفقاً لدراستهما، فقد استسلم معظم هؤلاء أو تراجعوا عن المقاومة حينما صارت الهزيمة وشيكة.. بينما بقيت النواة الداخلية من أمرائه البارزين عصية تماماً على الانكسار أو التراجع عن مبادئ القائد الراحل. ويقرر ديكميجيان ووزرميسكي أن تلك النسبة تعبر بوضوح عن استمرار كاريزما القائد في تحريك الجماهير حتى بعد وفاته.. بل ويذكران أن المهدي لو عاش قليلاً لشكل تهديداً حقيقياً على السيطرة البريطانية المنبسطة على مصر ومستعمراتها في أفريقيا[1].

صفوة القول أن الإمام المهدي قد عاش حياة قصيرة بحساب الزمن والأرقام. لم تتعد فترته في قيادة حركة المقاومة ضد القوى الاستعمارية الأربع سنوات إلا أنها كانت

1 ديكميجيان ووزموريسكي، مصدر سابق، ص ٢١٠-٢١٢.

حياة حافلة بالعديد من الوقائع والأحداث التي أسهمت بقدر كبير في تشكيل ملامح السودان الحديث. ولم يخلف من ورائه إرثا هائلاً من الأدبيات المكتوبة في الذاكرة الوطنية والغربية وحسب، بل خلف من ورائه دولة وطنية متكاملة الأركان.. كانت الدولة الوحيدة المستقلة في إفريقيا القرن التاسع عشر وبقيت تقاوم الاستعمار البريطاني بشراسة حتى نقطة النهاية.

الباب الثاني عشر

الإمام المهدي.. كاريزما القلم في صناعة الثورة

الإمام المهدي.. كاريزما القلم في صناعة الثورة

«لقد أُوتِي المهدي ذهناً وقّاداً ومقدرة عالية على الكتابة وعندما قام بحركته استمد من هذا المعين الفياض واستغل ما وهبه الله له من ملكة القيادة والبصيرة النيرة فخرج عن إطار مجتمعه وسياج عصره وسما بأسلوبه وقد بز أقرانه وفاق عليهم وأصبح صوته الأعلى إذا خطب وقلمه الأقوى إذا كتب وحكمه الأرجح إذا نظر فهو بغير شك إمام كُتّاب عصره في السودان».

المؤرخ البروفيسور محمد إبراهيم أبوسليم..
الحركة الفكرية في المهدية..

لقيت الكلمة المكتوبة عند الإمام محمد أحمد المهدي احتفاءاً متميزاً سما بمقاصدها وارتفع بمعانيها سعياً لتوظيفها من أجل توحيد شعبه بأطيافه الشتيتة وتنظيمه حول راية موحدة لمجابهة الاستعمار. ذلك أن أدبيات المهدية المنقولة لم تقتصر فقط على معاني الثورة كعمل جماهيري منظم بل تعدتها لتؤسس لمبادئ اجتماعية وفكرية شكلت مانفستو للتغيير. عموميات كتلك، سيظل الإيغال نحو الحديث المفصل بشأنها هو الطريق الوحيد لجعلها حقائق موضوعية تنثر وهجها من بين خلايا الذهن الذي يأخذ بحجية المنطق وأسانيده المختلفة.

من هذا المنحى تحديداً، يسهل التقدم للحديث بقدر أكثر تفصيلاً عن كتابات المهدي والتي أكسبها الكاتب بأسلوبه المتجدد شكلاً خرج عما ألفه الناس من مضمون يتماهي مع البناء النمطي لكتاب عصره. لقد كتب الكثير من المؤرخين عن كاريزما القيادة السياسية والعسكرية عند المهدي ولكن القليل منهم تعرض لمحمد أحمد المهدي «الكاتب» الذي ألهبت كلماته حماس شعبه واستنهضته من ثرى الخنوع إلى ثريا الأمل.. ذلك أمر أقره ونستون تشرتشل رئيس بريطانيا الأسبق حينما قال بحسب ما أشرنا إليه من قبل:

«لم يماثل البؤس والشقاء الذي رزح تحته السودانيون- إبان الحكم التركي - سوءاً الا معنوياتهم المنخفضة حينها.. ببساطة لم يكن أحد منهم ليجرؤ على رفع السلاح على المستوي العملي لولا مجئ المهدي الذي نفخ في القبائل السودانية روح الحماسة التي طالما افتقدوها»[1]. وفي ذات المعني يقول المؤرخ الوطني البروفيسور محمد إبراهيم أبوسليم عن المهدي «الكاتب»:

«لقد أُوتِي المهدي ذهناً وقاداً ومقدرة عالية على الكتابة وعندما قام بحركته إستمد من هذا المعين الفياض واستغل ما وهبه الله له من ملكة القيادة والبصيرة النيرة فخرج عن إطار مجتمعه وسياج عصره وسما بأسلوبه وقد بز أقرانه وفاق عليهم وأصبح صوته الأعلى إذا خطب وقلمه الأقوى إذا كتب وحكمه الأرجح إذا نظر فهو بغير شك إمام كتاب عصره في السودان».. ويستطرد أبوسليم في حديثه عن المهدي الكاتب: «وكان هو بنفسه يكتب مشرعاً وواعظاً وحاكماً، كأن الكتابة مهمته الأولى، ولا يترك لغيره إلا ما لا يتوفر له. فالمهدي هو الموجه لمسار الفكر وهو القدوة للكتاب فيما يكتبون ولست أرى في تاريخ السودان من كان له هذا التأثير البالغ في تاريخ الثقافة والفكر في السودان»[2].

وقد وافق أبوسليم في هذا الشأن أيضاً، رئيس قلم الاستخبارات البريطانية بمصر.. السير ريجنالد ونجت والذي كُلف من قبل قادته- بحكم معرفته باللغة العربية- بدراسة منشورات وكتابات محمد أحمد المهدي لبناء دعاية حربية مضادة تسهل من مهمتهم في كسر شوكة الدولة السودانية التي أسستها المهدية..مما انتهى به إلى منصب الحاكم العام بعد عملية إعادة احتلال السودان بواسطة بريطانيا في أعقاب نهايات القرن التاسع عشر. واتجه ونجت نحو الإقرار بأثر الكلمة المكتوبة والمسموعة التي كان مصدرها قلم المهدي في تحريك الجماهير السودانية نحو المواجهة مع القوى الاستعمارية. فبعد تأسيسه لحالة مقاربة بين حالة القهر التي أحدثها الاستعمار التركي بين السودانيين وما سبقها من أوضاع مشابهة بفرنسا خرجت من رحمها الثورة الفرنسية.. قام الضابط

1 تشرتشل، مصدر سابق.

2 الحركة الفكرية في المهدية، بروفيسور محمد إبراهيم أبوسليم، قسم التأليف والنشر، جامعة الخرطوم، الخرطوم، السودان، ١٩٧٠، ص ٩٧.

الاستخباراتي الإنجليزي السابق بعقد مقارنة بين نداءات ومخاطبات الثوار الذين فجروا الثورة الفرنسية بنهايات القرن الثامن عشر وأثرها على الجماهير الفرنسية وبين مخاطبات المهدي لاستنهاض شعبه ضد الاحتلال التركي في القرن الذي تلاه. فخلص إلى أن المهدي فاق أقرانه الثوريين بفرنسا من حيث عمق الأثر الذي أحدثته نداءاته.. وذلك على نحو قوله:

«لم يكن هناك خطيب مفوه في العام ١٧٩٣ بفرنسا ليستطيع أن يتحدث عن حالة القهر التي رزح تحتها الفرنسيون من دون أن يتوقع المراقب للأحداث الآن أن ما جرى من قهر فيما بعد في السودان بعهد التركية كان مضاعفاً في الشدة. لم يكن من بين هؤلاء الخطباء من كان قادراً على مناجاة الجماهير الفرنسية المكبلة بقيود العبودية لعهود طويلة بمثل هذا الأثر الذي أحدثته تلك المخاطبات في الجماهير السودانية البسيطة والمتحمسة.. مما يجعل أثر تلك النداءات وفعاليتها يفوق ما حدث في الحالة الفرنسية بمقدار يماثل ثلاثة اضعافها»[1].

كل ذلك حمل مهندس الدعاية البريطانية المضادة للثورة المهدية للإقرار بالمقدرات الذهنية الاستثنائية للمهدي كقائد حين قال:

«لا شك أن هذا الرجل كان يستمتع بأذكى عقلية وأصفى وضوح رؤيا في المليون ميل مربع التي أصبح صاحب الكلمة العليا فيها بلا منازع»[2].

أما الأديب والمفكر المصري الدكتور حسين مؤنس فقد مضى بتقييمه لما قرأ من كتابات المهدي لأبعد مما ذهب إليه ونجت حينما وضع المهدي في الصف الأول من كتاب اللغة العربية بين معاصريه بأواخر القرن التاسع عشر بل وذكر أنه كان يتميز على كتّاب عصره في العالم العربي بحسّ أدبي واضح[3].

1 سيرسي، مصدر سابق، ص ٦٨-٦٩.

2 الرائد عصمت زلفو: كرري.. **تحليل عسكري لمعركة أم درمان**، مطابع التوحيد، مصر، الطبعة الثالثة ١٩٩٥، ص ٤٤.

3 حوليات كلية اداب إبراهيم باشا، المجلد الثاني، العدد الثاني، ص١٤٤. انظر أيضاً **الحركة الفكرية في المهدية** لأبوسليم، مصدر سابق، ص ٩٨.

لعل من نافلة القول الحديث عن أن الخلفية الثقافية والفكرية لأي كاتب هي التي تعبر تعبيراً مباشراً عن تدرجه في مراقي المعرفة والوعي. فقد كانت مصادر العلم والمعرفة السائدة بسودان القرن التاسع عشر مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحركة التصوف والخلاوي التي نشأت في كنفها.. حيث لم يعرف السودان آنذاك تعليماً نظامياً عصرياً متكاملاً. وفي ظل ما أتيح له من تعليم بعصره، شهد المؤرخون لمحمد أحمد المهدي بنبوغ مبكّر ميزه عن أقرانه بمختلف الخلاوي التي تلقى فيها العلم منذ أن كان صبياً يافعاً. في هذا الإطار يقول البريطاني فيرغس نكول صاحب «مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون» واصفاً الحصيلة المعرفية للمهدي:

«عندما بلغ السابعة عشر من عمره كان قد اطلع تماماً على كل العلوم المعرفية الإسلامية التقليدية. فبجانب القرآن الكريم الذي كان أساساً مهما لذخيرته المعرفية فقد درس الفقه وفلسفة الشريعة الإسلامية. لقد اشتمل تعليمه على علوم التوحيد وعلمي التفسير والحديث كما أجاد اللغة العربية وأتقن قواعدها النحوية وامتدت معارفه لتشمل علوم الرياضيات والفلك» ويستطرد نكول ليصف نهم الفتى للاطلاع والمعرفة قائلاً:

«كان التلميذ اليافع يلتهم المؤلفات والمخطوطات المتاحة له التهاماً. بل إنه نقل عدداً منها – مما جاد بها عليه أساتذته– بخط يده. تلك كانت أعمال لكتاب معروفين مختلفين في زمانه أسهمت كثيراً في تشكيل الوعي السياسي والديني لديه».. ثم يمضي نكول ليسرد أعلام الفكر الإسلامي الذين إطلع المهدي على مؤلفاتهم عن ظهر قلب ومنهم الشيخ محي الدين بن عربي، الشيخ أحمد بن أدريس وشيخ الإسلام أحمد بن تيمية[1].

وفي ذات السياق الذي إنتحاه نيكول، قال المفكر المصري الدكتور عبدالودود شلبي:

«قبل أن يبلغ العشرين، أصاب محمد أحمد المهدي في تلك الفترة أكثر مما أصاب زملاؤه علماً وتثقيفًا. لقد أدرك محمد أحمد في تلك السن المبكرة أكثر مما أدركه لداته فقد حفظ القرآن الكريم وجوده ولم يفته النحو والصرف والفقه والتفسير والتصوف

1 مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون، لفيرغس نيكول، ص ٣٢-٣٣.

وأولع بالأدب والعلوم العقلية فدرس الفلسفة والعلوم الطبيعية والمنطق وأقبل على التفسير فقرأ فيه قدراً كبيراً ووجد بخطه على ظهر نسخة من كتاب تفسير (الجلالين) ما يفهم منه انه قرأه أكثر من سبعة واربعين مرة على مشائخ كثيرين. لقد عرف المهدي الغزالي وابن رشد وابن سينا وغيرهم من فلاسفة المسلمين وإحتقب معه كتاب احياء علوم الدين يعاود النظر والتأمل فيه وكان اذا حدثته في العلوم النقلية تسمع من أساليبه الوجيزة والمفيدة ما يدعوك إلى نظمه في عقد من اشتهروا بالبراعة في هذا الفن»[1]. إذن نحن أمام صاحب قلم توفرت له كل أدوات المعرفة بمقاييس زمانه مما خلق في نفسه استعداداً تلقائياً للكتابة، أضف إلى ذلك الظروف التاريخية التي كانت تمر بها البلاد والمظالم الشعبية ضد الاستعمار التركي التي كان لها بلاشك أبلغ الأثر في كتاباته لاحقاً عند قيامه بأمر الثورة المهدية.

وحينما نعمل عدسة النقد في أساليب الكتابة باللغة العربية في عصر المهدي، سنجد أن المشهد الثقافي كان ممتلئاً بالجمود ونهج التقليد كسمتين غالبتين لكتابات ذلك العصر الذي عُرف إصطلاحاً عند النقاد بأواخر عهد إنحطاط الأدب العربي. تلك هي ذات السمات التي إلتصقت بالحركة الثقافية المتوكئة على عصا اللغة منذ صعود العثمانيين لمقاليد السلطة على المستوى الإقليمي. وكان من أوقع النتائج المترتبة على ذلك، خسارة اللغة العربية لموقعها المركزي في الدواوين الإدارية لإمبراطوريتهم. وتبعاً لذلك إنحبس العقل المبدع بين أسوار محطات ماضوية توقفت به عند ما سبق من عهود. في عصر كالذي مر ذكره، لن يُصعّب على قارئ إكتحلت عيناه بذائقة التمحيص اللازم أن يلحظ بجلاء كيف وسم المهدي أسلوبه في الكتابة بميسم التجديد في الشكل والمضمون. ففي مراسلاته الخاصة مع كبار الأمراء- على سبيل المثال- نجد أنه يميل لتأسيس وتمتين الصِّلة النفسية بينه وبين قادته بتشديد متعمد. فبعد ديباجة حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله التقليدية التي عادة ما يبدأ بها المهدي رسائله، يدلف مباشرة للتحية الحارة عن طريق تبيان مكانة المُخاطب عنده فيبادئه بذكر اسمه كاملاً مسبوقاً بلقب

1 عبدالودود شلبي، ص ٢٢.

الحبيب أو المكرم أو الصفيّ ثم يعقب ذلك بالإطراء عليه والدعاء له بالخير.. بينما يذكر اسمه هو -أي المهدي- مصحوباً بلقب الفقير إلى الله أو المفتقر إلى ربه تواضعاً بنفسه أمام قارئه مما يوحي للمتلقي بعظم مكانة المُخاطب عنده.. ويتبدى ذلك بوضوح في مقدمة إحدى رسائله للأمير أحمد ود سليمان والتي قال في مقدمتها:

«الحمدلله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد.. فمن العبد الفقير إلى ربه محمد المهدي بن عبدالله إلى حبيبه وراحة باله وصفيه في الله أحمد ود سليمان وقاني الله وإياه وحفظنا من كل ما لا يرضيه إلى يوم ملقاه».. ولا شك أن هذه المقدمة المتكررة في رسائل المهدي تؤسس لعلاقة ود خاصة بين الكاتب والمتلقي. ويكمن التجديد بين ثنايا ما سبق في الاستفاضة لخلق مساحة من القبول الروحي بين الكاتب ومتلقيه بعكس أدب الرسائل السائد آنذاك والذي تميز بإختزال تلك المقدمة بكلمات قصار لا ترتقي بها إلى الأثر الحميمي الذي تصنعه كلمات المهدي بالقارئ. كل ما سبق كان منافياً لطبيعة ذاك المزيج من الجمود والرتابة الذي اتسم به المحتوى الكتابي لأدب الرسائل في ذلك العصر ببنيته المكررة والموغلة في التقليدية. والأهم من ذلك كله، أن المهدي قد إبتنى نمطه الخاص في إستهلال الرسائل وتهيئة القارئ لما قد يعقبها من مضمون، مبتعداً بقدر كبير عن المقدمات المبتسرة التي لا تحمل متلقيها نحو ذلك الموقع المركزي الذي أفلح المهدي بكلماته في جعل القارئ أو المخاطب يتبوأ موضع القلب منه. تلك المزايا التي إلتمعت من ورائها كلمات المهدي لم تكن على مبعدة من ذهن مؤرخ حاذق على نحو الدكتور أبو سليم حين قال فيما يلي ذلك تحديداً:

«وقد بلغت الرسالة وإن شئت المقالة كما يسميها البروفيسور عبدالله الطيب على يده من حيث البناء والأسلوب درجة عالية من الجودة. بل لم تجد الرسالة في تاريخ السودان من الاحتفال ما بلغته على يد المهدي وأتباعه. وقد تنوعت الرسائل وتعددت أنماطها وتباين بناؤها حسب مقتضى الحال. وعندنا أن المهدي مزج بين نمط الرسائل الخصوصية التي كان يكتبها الناس والرسائل التي كان يكتبها العلماء وأساليب الرسائل الملوكية، وخرج علينا بنمطه الخاص من الرسالة. وقد حافظت الرسالة على

طابع العلاقة المباشرة بين المهدي وقارئه، وهو بخلاف ما يكون عليه الوضع لو إنصرف المهدي إلى وضع الكتب. إن الرسالة مخاطبة جماهيرية بينما الكتاب مخاطبة للخاصة. والرسالة فيها خصوصية لأنها تخاطب القاريء الفرد باعتباره المعني مباشرة. ولذلك كان أثرها على القاريء أقوى من أثر الكتاب»[1].

و شدد البروفيسور أبوسليم مجدداً على النمط الفريد الذي زين به المهدي رسائله حين قال:

«تتميز خطبه ورسائله بكثرة الأسئلة والتعجب والسجع ومقابلة الجمل والأفكار واللعب بالموسيقى اللفظية والتعاطف المباشر مع المستمع بتوجيه الخطاب إليه ومخاطبته دائماً بألفاظ النداء»[2].

أما عن محتوى كتابات المهدي فنجد أنه يتباين بناءاً على تمايز ثقافة القارئ أو المتلقي والغرض الذي كتب من أجله المنشور. فنجده مثلاً يجنح إلى التبسيط والمباشرة بالمنشورات الموجهة لمخاطبة العامة- ولو كانت عبر الأمراء- ويضرب الأمثال المبسطة وفي سبيل ذلك قد يتغاضى عمداً عن التركيب النحوي وقد يجنح لخلط العامية بالفصحي لإيصال المعنى للمتلقي وبالأخص حينما يندرج ذلك في إطار وقوفه على رد المظالم بنفسه ومن ذلك منشوره لأحمد ود سليمان بخصوص رد مظلمة إمرأة تظلمت لديه:

«حبيبي.. إن العرض الذي تقدمت إلي به الحرمة النور بنت يوسف والدة حسن محمد إبراهيم وبه تذكر أن جميع ما بيدها أُخذ منها سوى بهائم ضان (فاضلة) معها الآن أُخذت على يدي عبدالقادر البشير المندوب لخدمة الغنائم بالجهة وأرسلها لبيت المال. وقد ترجت إعطاء البهائم الستة المذكورة لها. فمن حيث أن حقوقها قد أُخذت فقد أجبتها لما طلبت بإعطاء (الستة ضانات) للطف بها وتأليفاً لها. فبوصولها لديكم فإن وُجدت البهائم في بيت المال فسلموها لها بذاتها وإن كان سبق المبيع فأعطها الثمن

1 أبوسليم، مصدر سابق، ص ٩٨.

2 أبوسليم، مصدر سابق، ص ١٠٠.

والسلام»[1]. فالمهدي هنا يستخدم كلمات عامية شائعة لتتوسط سياق المعنى الذي يريد إيصاله بإنسياب تراتيبي مقبول من دون إن يختل البناء الفصيح الذي إنبنت على أوتاده الرسالة.. وهو ذات الأسلوب المتفرد الذي سبر أغواره البروفيسور عبدالله الطيب حين قال:

«وكان المهدي يؤثر أن يخرج حديثه بالعامية ليكون أقرب إلى أذهان العامة إلا أنه أدخل في إسلوبه النثر دفقاً وتدفقاً جديداً دعاه إليه حماسه وما كان يحتاج إليه من مقارعة الحجة بالحجة»[2].

ولم يجد الأستاذ عبد العزيز حسين الصاوي مناصاً من الإيغال في ذات المبحث الدقيق بسفره القيم الذي كتبه مع صديقه المفكر الراحل محمد علي جادين بعنوان (الثورة المهدية، مشروع رؤية جديدة) حين تحدث عن:

«قدرة المهدي على إستقطاب الدعم الجماهيري من خلال التعبير بالقول والفعل عن الوجدان الشعبي لمتطلباته المحددة في مرحلة تاريخية معينة وفي هذا الخصوص فإن التساؤل عما إذا كان محمد أحمد المهدي يتعمد الحفاظ على تلك الخاصية بتبسيط أفكاره والإغتراف من معين التقليدية السائدة كما هي، يظل مفتوحاً.. ففي حقيقة تراوح أسلوب الكتابة عند المهدي بين الدارجة والفصاحة النقية مما يوحي بأنه كان يتعمد مرونة الطرح حتى من حيث المحتوى تمشياً مع إدراكه لضرورة مراعاة ما يستطيع الذهن الشعبي والحس الاجتماعي والديني السائد استيعابه وقبوله أو لا يستطيع»[3].

وفي سياق مقارب لما ذهب إليه كُلٌّ من جادين والصاوي، يقول المهدي في أحد منشوراته للعامة من الناس:

«أحبابي، سألتكم بالله العظيم ونبيه الكريم من كانت له مظلمة والحال أني ناسي

1 أبوسليم: **الآثار الكاملة للإمام المهدي**، مصدر سابق، ص ١٩.

2 **الإمام المهدي – محمد أحمد بن عبدالله ١٨٤٤–١٨٨٥**، للدكتور محمد سعيد القدال، الناشر: دار الجيل، بيروت– لبنان، ١٩٩٢، ص ٩٥.

3 **الثورة المهدية في السودان.. مشروع رؤية جديدة**، محمد علي جادين وعبدالعزيز الصاوي، الناشر: الفارابي للنشر والأدوات المكتبية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص ٢٣.

فليطلبني بها قبل الآخرة فأني قد إتّهمت نفسي بذلك. ومن كانت له مظلمة على الخلفاء والأمراء فليطلب ذلك فلا يؤخر ذلك إلى الآخرة حتى لا نتأخر في الآخرة عن الله بحسن اللقاء.. والسلام»[1].

ذلك كان أهم منشوراته في رد المظالم والذي كُتب بعد تحرير مدينة الأبيض بالعام ١٨٨٣، وهنا نراه كما فعل في المنشورات ذات السياق المماثل أعلاه.. يلجأ للتبسيط الذي يمهد لإيصال المعلومة للمتلقي بلا تعقيد، فهو كما نرى يتحدث عما يريد مباشرة ودون مقدمات مطولة وبوضوح لا يترك للقارئ أي مجال للالتباس بمقصده. ثم يلي هذا المنشور منشور آخر في ذات الصدد للأمير الشيخ محمد البدوي ابو صفية يرتفع فيه المهدي بكلماته لغةً وسلاسةً ويستخدم فيه مقدراته القلمية على المقابسة وتزيين الكلام وتسجيعه بما يوافق مقدرات المتلقي الذي تسمق خلفيته المعرفية تناسباً مع تلك الكلمات. وهو كعادته في هذا المقام يستخدم مقدمة تمهيدية بلا إطالة مملة قبل أن يخلص إلى الغرض من رسالته ليكسب المعني المنقول مزيداً التماسك البياني والقدرة على التأثير.. وقد جاء في ذلك المنشور بعد ديباجة حمد الله والصلاة علي النبي المعتادة:

«حبيبي، إن ما ذكرته أني خفت على نفسي وعلى احبابي من الحبس عند الله للمسألة والمعاتبة، وذلك اصعب ما يكون! فإلى من يلتفت من يوبخه ويعاتبه خالقه الذي لا ولي له سواه؟ وكيف حاله اذا قال له يا عبد السوء أما قلت لك؟ أما امرتك؟ أين الجواب؟ والعبد مزحوم بالحر والحسرة والرب عظيمٌ مهاب. ومن المعلوم أن الناس إن كانت لهم مظلمة مني أو من خواصي يستحون ويخافون. وقد حصل الزجر من ذلك اكيداً. وقد تفكرت فيما وقع في صدري من ذلك الخوف فوجدت أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قد فعل ذلك. ووجدت أن هذا الأمر فيه أسوة به ونصيحة للنفس وخلوصاً للرب سبحانه وتعالى».. ثم يستشهد بقصة النبي (ص) مع عكاشة رضي الله عنه وموقف الصحابة معه ويوضح ضرورة التآسي بالنبي (ص) إلى ان يقول:

«فعلى ذلك لابد أن هذا المنشور الذي بيد الشيخ محمد البدوي يُكتب على الحيطان

1 أبوسليم: **الآثار الكاملة للإمام المهدي**، المجلد الأول، ص ٤١٠.

والأسواق، لنخلص مع أحبابنا قبل يوم التلاق. فمن الدنيا الآخرة ولا آخرة الا بما حصل في الدنيا، وهي لا نصيب فيها،إنما النصيب نصيب الآخرة. وفقنا الله وإياكم إلى الصواب بلزوم السنة والكتاب واتباع النبي الآواب إلى أن نخلص مع الأحباب، والسلام»[1].

وكما نرى هنا فقد يميل المهدي لتوظيف عدد من الجمل الإعتراضية ليضفي على كلماته ما يريد من كمال المعنى وإتساق المتن. ذلك عين ما كان يراه الدكتور أبوسليم من خصائص سلاسة أسلوبه في الكتابة، إذ أنه قال في ذلك:

«وعندنا أن كثرة الجمل الاعتراضية ترجع إلى قوة التداعي عند المهدي وإلى كثرة محفوظه وتزاحم المعاني والصور في ذهنه وترابط المعلومات والمناسبات، وإن هذه السمة تعد مصدراً من مصادر قوة أسلوبه»[2].

وبعيداً عن ذلك الميدان الذي توغل فيه المؤرخ الوطني الراحل أبوسليم بحذاقته المعهودة، استدرجت النزعة التطهرية في كتابات المهدي، مؤرخاً مرموقاً آخر على غرار البروفيسور «كيم سيرسي» أستاذ التاريخ الأمريكي المعروف باهتمامه بتاريخ المجتمعات الإفريقية ودور الإسلام في تشكيل بنية الوعى الاجتماعي والسياسى بين أضابيرها المختلفة. استدرجته تلك النزعة ليعلق على هذا الأمر قائلاً:

« إن عناصر فكر اليقظة المتمددة في كتابات المهدي هي سمة مميزة للتصوف ومفاهيمه ذات الصِّلة برجلٍ مثله زانه الصلاح بما كفل له إمتلاك مقدرات تمكنه من إسترجاع حالة النقاء الأولى.. مستعيناً على ذلك بمقدرته على المزج بين قيمتي الإنسانية والقداسة". ويستشهد سيرسي بدراسة المؤرخ الإيرلندي كروز أوبراين التي خلص فيها لتعريف الجماعات المتصوفة بالقوى الأساسية التي ظلت تلعب دوراً مهماً في عملية إنتاج القيادات الكاريزمية عند المسلمين الأفريقانيين تحديداً. وهو عين ما أراد سيرسي أن يجعله تمهيداً لما خلص إليه هو فيما بعد حين قال:

1 أبوسليم.. نفس المصدر، ص ٤١١-٤١٢.

2 أبوسليم: الحركة الفكرية.. مصدر سابق، ص ٤١١.

«هذا الأمر تجلى بوضوح في حالة المهدي السوداني. كلما بدأ الناس يعرفون مزيداً من التفاصيل عن تاريخه الشخصي. كلما إزداد إعجابهم بسلوكه الورع. وهو نفس السلوك الذي إنتقش في الأذهان نظراً لتطابقه المطلق مع ما عُرف به أعلام الرجال الصالحين الذين تزين بهم المشهد الممتد على أرض شمال السودان»[1].

وبإمعان النظر في الثورة المهدية من حيث طبيعتها كهبّة شعبية سودانية ضد الاستعمار التركي، لن تخطئ عينا أي باحث أمين.. ميل المهدي الصارم بمنشوراته المدونة نحو مقاومة عملية «تتريك» المجتمع السوداني والتي تمددت فيه باطِّراد منذ قدوم طلائع قوات محمد على باشا في بدايات القرن التاسع عشر لضم السودان للحظيرة العثمانية بمركزها القابع عند مداخل الباب العالي بالأستانة. ذلك النوع من المقاومة الذي لم يكن قاصراً على ميدان المواجهات العسكرية وحسب، هو الذي أنشأ النواة الداخلية المُشكِّلة لروح الوعي المبكرة بـ«السودانوية» والتي لم تكن على مبعدة من طبيعة الإسلام بوجهه الشعبي السوداني آنذاك.. إحياءاً لهوية شعب أفلح الاحتلال الأجنبي في طمسها بعد أن تغشاها طوفان «التتريك».فالمهدي يطلب من أبناء شعبه التميز عن الأتراك في كل شيء حتى المعاش والزي والسلوك وذلك على نحو ما كتب:

«كل ما يؤدي إلى التشبه بالترك الكفرة اتركوه، كما قال تعالى في حديث قدسي: قل لعبادي المتوجهين إلى لا يدخلون مداخل اعدائي ولا يلبسون ملابس اعدائي فيكونوا هم اعدائي كما هم أعدائي، فكل الذي يكون من علاماتهم ولباستهم فأتركوه»[2].

وفي منشور آخر يُبين مظالم الترك ويحرض السودانيين على الثورة والثبات في مواجهة الاحتلال التركي حين يقول:

«إن الترك قد وضعوا الجزية في رقابكم مع سائر المسلمين.. وكانوا يسحبون رجالكم ويسجنونهم في القيود، ويأسرون نسائكم وأولادكم ويقتلون النفس التي حرم الله بغير حقها وكل ذلك لأجل الجزية التي لم يأمر بها الله ولا رسوله، فلم يرحموا

1 كيم سيرسي، مصدر سابق.. ص ٧٤.

2 تيارات الفكر الإسلامي، للدكتور محمد عمارة، ص ٢٧٧.

صغيركم ولم يوقروا كبيركم»[1]. وفي إطار التأكيد على كيان السودانيين الشعبي المستقل والتشديد على هويتهم الثقافية المختلفة عن الترك نجده يتبنى طريقة المتصوفة بإرثهم الشعبي الأقرب لوجدان الجماهير في كتابة الحروف كوسيلة متفق عليها في تدوين وثائق الدولة الرسمية بدلاً من الرسم التركي السائد قبل المهدية.. ذلك الرسم الذي إختلطت فيه الحروف مما أدى إلى تغيير المعاني بعض الشئ.. وفي هذا يقول:

«الحمد لله الوالي الكريم والصلاة علي سيدنا محمد وآله مع التسليم، وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن عبدالله اعلاما منه إلى جميع كتبة احكام المهدية وانصار الدين، اما بعد فالذي نعلمكم به ان الله سبحانه وتعالى قال في كتابه: (أحسنوا ان الله يحب المحسنين). وحيث فهمتم ذلك فلابد من احسان الخط وتجويفه وعدم تغيير الحروف وقلب معانيها، فقد أهلك الله المغيرين ودمرهم. فأتركوا خطهم ولا تسلكوا مسلكهم وأظهروا السين من بِسْم الله الرحمن الرحيم والشين من الشيطان الرجيم، فأعطوا الحروف حقها كما أُنزلت وإياكم وكتابة الترك مرة ثانية. فاجتهدوا في أخذ حذركم منها كي تعودوا أيديكم على كتابة القرآن العظيم بالذي انزل بها. فاحفظوا أمرنا هذا وأعلموا الجميع به»[2].

ويتضح جلياً مما مر ذكره، عمق إدراك المهدي لجوهر صراع الثورة مع القوى الاستعمارية واستصحابه لأهمية الانتصار لشعبه في صراع الهوية الوطنية المستقلة بشقيها الثقافي والأيدولوجي لاستكمال ملامح سودان أواخر القرن التاسع عشر بعيداً عن سطوة أدوات الإستلاب الثقافي بما في ذلك رسم الحروف والكلمات. صراع معقد كالذي سبق، كان لابد له من رؤية كاريزمية معينة توجهه في مسارات تلك المواجهة العريضة حتى تنساق في طرائقها الجماهير المعبأة بطاقات الثورة. وهي ذات الرؤية الكاريزمية المحددة التي تحدث عنها الأكاديمي العسكري الأمريكي روبرت روسي، حين قال:

---

1 عمارة، مصدر سابق، ص ٢٧٨.

2 أبوسليم: **الآثار الكاملة**، مصدر سابق، ص ٤٣٦.

«لقد كانت فعالية القيادة عند المهدي هي أحد أهم الأسباب التي أدت لنجاح الثورة المهدية. القيادة نفسها يمكن تعريفها بعملية التأثير على الآخرين لتحقيق مهمة معينة من خلال توفير الغاية وتوجيه الناس نحوها مع توفير الدافع اللازم لذلك. وهو ما انطبق تماماً على قيادة المهدي للثورة. ابتدأ المهدي أولى نجاحاته في القيادة بتوفير رؤية معينة لشعبه لما يجب أن تكون عليه الأحوال. الرؤية هي المفتاح الأساسي لكل المهام التي تنتظر أن تجد طريقها للتنفيذ. لقد كانت رؤية المهدية أخاذة ومبسطة في آن واحد بأعين أنصاره. كان ذلك يقوم على فكرة تأسيس مجتمع مسلم تسوده العدالة. لم يتنازل القائد قط عن تلك الرؤية.. كما لم يسمح لأي شيء بالوقوف في طريق تحقيق ما سبق. لقد كان المهدي ثابتاً على مبادئه وأفعاله وانساق أيضاً نحو تكرار تفاصيل دعوته مع انبلاج كل سانحة جديدة لذلك. فهو قد دعا شعبه للجهاد ضد الأتراك وكل الذين وقفوا في سبيل تأسيس المجتمع الذي كان يدعوا إليه»[1].

وفي الإطار نفسه يرى المفكر المصري الدكتور محمد عمارة، أن ما أحاط بالمهدية مما أسماه بـ«القوالب الأسطورية» يمكن تجاوزه بإعمال الوعي البحثي فيما اكتنفته من ظروف وبالتالي تعريف المهدية في إطارها الصحيح كحركة فكر قومي سوداني حاربت مد التتريك وأفلحت في الانتصار عليه ومن ذلك قوله: «إذا تجاوزنا ذلك، فإننا واجدون أنفسنا أمام فكر قومي وطني، يرفض السلطة العثمانية ويؤكد على أن السودانيين هم قوم غير الأتراك.. وهنا ومن هذا الباب تدخل المهدية إلى ساحة الفكر القومي الذي تصدى للعثمانية والتتريك فيما تصدى له مِن تحديات»[2].

وبالرجوع إلى ما أورده الدكتورعبدالودود شلبي بقراءاته المتعمقة فيما يلي مراسلات المهدي مع خصومه الاستعماريين، يبقى من الصعوبة بمكان على كل دارس متجرد التغافل عما إحتوته تلك المخاطبات من صراع محتدم على مستوى الرؤى والأفكار ضاهى ببأسه ضراوة الاشتباكات بين تلك الأطراف في ميادين القتال. ومن ذلك أن

---

1 روسي، ص٧٢.

2 عمارة، مصدر سابق،ص ٢٧٩.

تسارع وتيرة انتصارات الثورة المهدية على قوى الحكم التركي في السودان قد حتم واقعاً تاريخياً وجيو سياسياً جديداً أفضى إلى تورط بريطانيا وتدخلها المباشر لقمع الثورة السودانية حفاظاً على مصالحها في المنطقة. وعلى اثر ذلك احتدمت المواجهات العسكرية بين المهدية وجيوش بريطانية عتيدة ومنها جيش حملة الإنقاذ البريطانية الذي أرسلته الملكة فكتوريا لإنقاذ الجنرال تشارلز غردون والذي حاصرته قوات الثورة بمدينة الخرطوم وقطعت عنه الإمداد ووسائل الاتصال بالعالم الخارجي. في ظل تلك الأجواء المتوترة، سيسهل على مخيلة أي مؤرخ موضوعي استقراء طبيعة ذاك المناخ الملتهب والذي تشكلت تبعاً لأجوائه سلسلة من المراسلات المطولة بين الإمام محمد أحمد المهدي والجنرال غردون وأطراف بريطانية أخرى. والذي نحن بصدده هنا، يتمثل في تتبع معالم الكاريزما القلمية عند المهدي ومقدرته على توظيف الكلمة المكتوبة من أجل الانتصار للثورة.. ومن ثم إخضاعها لمنهجية تحليلية مفصلة، سعياً لسبر أغوار الأثر الذي أحدثته في أضابير التاريخ ووقائعه.

ولعل كل ما خطه قلم محمد أحمد المهدي من مراسلات مع غردون.. يتباين متنه ومحتواه بوضوح على حسب ما تمليه الظروف الموضوعية المُشكلة لمراحل تطور الصراع بين الثورة والقوى الاستعمارية التي واجهتها. ويتبدى ما سبق جلياً عندما كتب غردون أولى رسائله للمهدي مخاطبا إياه بفخر الأولياء الصالحين وعارضاً عليه أن ينصبه سلطاناً على كردفان. وهي ذات المراسلات التي طارت تفاصيلها لتغزو صحافة أوروبا. ومن ذلك ما قالت به صحيفة «Irishman» الإيرلندية، حين كتبت بلهجة مشفقة من فرضية انجرار المهدي نحو القبول بمساومات غردون وبالتالي إخماد جذوة الثورة السودانية عند محطة السلطنة.وفي ذلك قالت الصحيفة:

«تقادمت الأنباء من الخرطوم – وإن كانت ليست مؤكدة بصورة نهائية – وهي تشير إلى إمساك المهدي بكل أوراق اللعبة التي جرت وقائعها هناك لوقت طويل. وتواردت أخبار أخرى فحواها اتجاه غردون نحو تسوية سياسية مفادها اعترافه بالمهدي سلطاناً هناك وكفالة حرية التجارة لكل الجنسيات. مثل هذا الاتجاه الذي سلكه غردون، يبقى

المتمم الموضوعي لما أشارت إليه ملكة بريطانيا في حديثها عن السودان».. ثم استطردت الصحيفة ذاتها لتفصح عما رآه كاتب المقال مسلكاً أمثلاً يتوجب على المهدي اتباعه هنا في التعامل مع تلك العروض الإنجليزية الماكرة، ومن ذلك قولها:

«يتوجب على المهدي إن كان حكيماً بما يكفي، أن لا يساوم أو يفاوض هذا العدو الإنجليزي المتسم بالغدر والخليق بإثارة الشكوك في مقاصده حتى يكنس آثاره من بلاده تماماً. عليه أن يجبر الإنجليز على دفع فاتورة الدماء التي أراقوها وما أعقب ذلك من تخريب في المناطق التي كان من الممكن أن يمتد إليها نفوذه»[1].

ولم يخيب المهدي أماني محرري الصحيفة الإيرلندية فيه، فرفض ذلك العرض البريطاني في إباء وترفع، مما حدا بالمؤرخ البريطاني فيرغس نيكول لوصف كلمات المهدي في رفض عرض غردون بخصوص سلطنة كردفان بالإباء الصارم أو «Stern dignity».. وهو ذات الإباء الذي ورد في مضمون رد المهدي لغردون والذي قال عنه نيكول إنه «إحتوى على استفاضة مكررة لنقاط متتابعة رأى محمد أحمد انها تشكل سوء فهم أساسي ومتأصل في ثنايا حجج الضابط البريطاني التي أنبنت عليها دعائم خطابه»[2].

عَنْوَن المهدي خطابه لغردون بمقدمة ممعنة في الدبلوماسية حين تقدم اسمه بوصف «عزيز بريطانيا والخديوية» من دون أن يمنعه ذلك من متابعة ما سبق بحشد من الكلمات توحي بسخرية واضحة من مقاصد غردون الحقيقية -وبقدر أكثر تحديداً من شفقته المصطنعة- التي أبداها تجاه المسلمين وهو القائد الذي سبقه صيته الذائع إلى السودان بتخصصه في قمع ثورات الشعوب على بريطانيا الاستعمارية فيما وراء البحار.. وزد على ذلك كله أن غردون نفسه كان يضع على جسده البزة العسكرية التركية التي فجرت مظالمها تلك الثورة السودانية التى تزعمها المهدي.. وقد جاء في رده عليه ما يلي:

«الحمدلله الوالي الكريم والصلاة علي سيدنا محمد وآله مع التسليم، اما بعد فمن عبد ربه المهدي بن السيد عبدالله إلى عزيز بريطانيا والخديوية، غردون باشا.. فقد بلغنا

1 صحيفة «Irishman» الإيرلندية، أرشيف صحافة إيرلندا، ٢٩ مارس ١٨٨٤.

2 نيكول: مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون.. مصدرسابق، ص ٢٢٢.

جوابك وفهمنا ما فيه، والحال انك تزعم ارادة إصلاح حال المسلمين وفتح الطريق لزيارة قبر النبي صلي الله عليه وسلم واتصال المودة فيما بيننا وبينكم وحل المأسورين من النصارى والمسلمانين وان تجعلنا سلطاناً على كردفان»[1].. والذي لا شك فيه أن المهدي قد إنساق في رده على غردون نحو تفنيد كلمات خطابه المعسول بذهنية متيقظة للفخ الذي أراد الأخير أن يستدرج أقدامه إليه وما قد يعقب ذلك من تحجيم تدريجي لحركته يسهل من القضاء عليها. ذلك النوع من الذهنية المتيقظة الذي استبان في رد المهدي على غردون يفتح الباب واسعاً أمام زمرة من التساؤلات ستبقى متخبطة في مسالكها بلا إجابة قاطعة. ومن ذلك، إمكانية إطلاع المهدي على تصريحات غردون المعبرة عن نواياه الحقيقية تجاه ثورته والتي تسربت إلى صحافة مصر قبل قدومه إلى السودان ومنها قوله محذراً من مغبة التهاون مع الثورة السودانية:

«سيسود المدن المصرية جميعاً شعور بأن في وسعهم ان يفعلوا مثلما فعل المهدي وأن يطردوا الدخلاء والخونة كما طردهم وليست إنجلترا وحدها هي التي ستواجه هذا الخطر، فإن نجاح المهدي أهاج غلياناً خطيرا في بلاد العرب وسوريا»[2] وتبقى تلك الفرضية قائمة ويُعضّد صحتها ما أوردته المصادر المختلفة عن العيون والجواسيس الذين جندتهم الثورة المهدية بمصر لنقل اخبار صحافتها وأحوالها عموماً.

ولكن بالعودة على ما ابتداناه من إشارة إلى كلمات خطاب المهدي، فإننا نلحظ هنا انه مال إلى سرد ملخص خطاب غردون السابق إليه حتى يسهل عليه تجميع النقاط التي طرقها للرد عليها الواحدة تلو الأخرى. وتلك أيضاً واحدة من سمات أسلوبه في الكتابة ألا وهي ترتيب الردود بحسب السياق التراتيبي الذي ورد في خطابات خصومه. أما بخصوص عرض سلطنة كردفان فقد تميزت كلماته بالحزم اللفظي الذي لا يقبل أي لبس أو مزيد من التفاوض حين قال:

«لا أريد ملكاً ولا جاهاً ولا مالاً وإنما انا عبد مسكين أحب المسكنة والمساكين اكره

---

1 أبوسليم: منشورات المهدية، دار الجيل، بيروت،١٩٧٩، ص٣١٩.

2 شلبي، مصدر سابق، ص ٣٩.

الفخر وتفخر السلاطين لما جُبلوا عليه من حب المال والبنين وهذا هو الذي صدهم عن صلاحهم وأخذ نصيبهم من ربهم فاخذوا الفاني وتركوا الباقي واشتغلوا بما لا يكون إلا من الفانيات»[1].

ويحلل كلٌّ من البروفيسور الأمريكي ريتشارد ديكميجيان أستاذ العلوم السياسية بجامعة جنوب كاليفورنيا وزميلته الباحثة مارغريت وزروموسكي، جوانب كاريزما القيادة في ردود المهدي على خطابات غردون في سفرهما القيم بعنوان «كاريزما القيادة في الإسلام، مهدي السودان» والذي جاء فيه:

«في الواقع، في ظل أجواء مناخ ثوري متفجر كتلك التي كانت في العام ١٨٨٤ لا يمكن اعتبار غردون صنواً كارزمياً للمهدي.. فبأي حال من الأحوال لم يمتلك غردون المقدرة على السيطرة أو التأثير على روح الأخلاص والتجرد للثورة التي صنعها خصمه الكاريزمي (المهدي) بين الجماهير السودانية.لقد اتسمت السياسية البريطانية بالتردد تجاه السودان تماماً كما اتسمت تحركات غردون في هذا الشأن بعدم الكفاءة (incompetence) مما أسهم كثيراً في سوء فهم متكامل تكون لدي هؤلاء عن طبيعة الثورة المهدية. ومن الممكن رؤية ذلك بوضوح في عرض غردون سلطنة كردفان على المهدي. ذلك هو العرض الذي قابله الأخير بالرفض الفوري. لقد كان رد المهدي على خطاب غردون تجسيداً لسمة أساسية من سمات القيادة الكاريزمية التي لا تطلب لنفسها موقعاً رسميا حكومياً (السلطنة مثالاً).. بل هو يتحدث عن موقع قيادي لشخصه خارج إطار منظومة القوى القائمة آنذاك»[2].

لقد تميزت رسائل المهدي المتكررة لغردون - عند إحكام قبضته على المدينة من خلال عمليات الحصار - تميزت بمحتوى واحد ألا وهو الضغط على الأخير بشتى السبل لتسليم الخرطوم حقناً لدماء المدنيين.. وذلك على نحو رسالته المؤرخة بأواخر أكتوبر ١٨٨٤ والتي جاء فيها:

1 أبوسليم: **الآثار الكاملة**، مصدر سابق.

2 ديكميجيان ووزموريسكي، ص ٢٠٧.

«كن على يقين أنني على علم بحضور عساكر الإنجليز بجهة دنقلا ولكن لست مبالياً بهم ولا بغيرهم بفضل الله» إلى أن يقول.. «ولولا مراعاة حسم دماء المسلمين لضربت صفحا عن مخاطبتك وبادرتك بالهجومات التي لا أشك في نجاحها. فسلم تسلم انت ومن معك، وقد نصحتك وأنصحك وإلا فالحرب بعد ذلك والسلام علي من اتبع الهدى»[1]... ثم تتوالى رسائل المهدي لغردون بذات المضمون مع تصاعد سقف التطمينات الكافية والمتكررة والتي بذلها المهدي لخصمه بخصوص سلامته الشخصية إلى درجة الوصول بتلك التطمينات إلى مشارف عرض سخي بإيصاله (اي غردون) آمناً مطمئنا إلى حملة الإنقاذ البريطانية إن هو آثر التسليم وحقن دماء الناس وذلك على نحو:

«وسنكتب لك آية واحدة من كتاب الله عسى الله أن ييسر هدايتك، فطالما كاتبناك لترجع لوطنك (ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيما).. وقد بلغني في جوابك الذي أرسلته إلينا ان الإنجليز يريدون ان يفدوك وحدك بعشرين الف جنيه، ونحن نعلم أن الناس يتقولون من البطال كلاما كثيراً ليس فينا ولا يعلم نفيه إلا من اجتمع بنا. وأنت إن قبلت نصحنا فبها ونعمت وإن أردت ان تجتمع على الإنجليز فبدون خمسة فضة نرسلك إليهم»[2].

وفي نص آخر ينقل الإمام المهدي لغردون المعزول بداخل الخرطوم.. وقائع مواجهات قوات الثورة المهدية الضارية مع جيش حملة الإنقاذ البريطاني في الشمال والتي سدت الطريق أمام البريطانيين تماماً..

«إن الجردة التي تعتمدونها ما لها من وجهٍ بوصولها لكم بسبب سد الأنصار الطرق. فإن سلمت فقد عفونا عنك واكرمناك وسامحناك فيما جرى وإن أبيت فلا قدرة لك علي نقض ما أراد الله.. وقد بلغني في جوابك الذي أرسلته إلينا ان الإنجليز يريدون أن يفدوك وحدك بعشرين الف جنيه.. إن أردت أن تجتمع بالإنجليز فبدون خمسة فضة

1 أبوشامة: من أبا إلى تسلهاي، ص ١٩٢.

2 أبوشامة، ص ٢١٨.

نرسلك اليهم»[1].. تلك كانت عروض سخية متتالية رفضها غردون بصلفٍ إنجليزي ملك عليه نفسه ليزج بالمدينة في أتون حرب دامية ظل المهدي يعمل على تجنب تبعاتها من خلال حصار مطول للمدينة قارب العشرة أشهر زمنياً..وهو ذات ما عبر عنه المؤرخ البريطاني فيرغس نيكول حينما سرد مجهودات المهدي لحقن الدماء ومحاولة إقناع غردون بتسليم المدينة فقال: «لقد شرع محمد أحمد المهدي في حملة مراسلات مطولة امتدت لزهاء العشرة أشهر لإقناع غردون بالعودة إلى بلاده مكرماً بدلا من إزهاق باقي عمره في الدفاع عن ما لا فائدة في الدفاع عنه!».. وقد أقر نيكول بمصير مختلف للمدينة وخسائر أقل في صفوف مدنييها إن اختار غردون الاستجابة لتلك النداءات وتسليم الخرطوم حين قال:

«لقد كان المهدي رجلاً عند كلمته (The Mahdi was a man of his word).. ولم يُعرف عنه الفتك بالمدنيين أو الجنود الذين استسلموا له»[2]. وفي ذات الصدد إستفاض المفكر المصري الراحل الدكتور عبد الودود شلبي في دراسة مراسلات المهدي مع غردون قبل أن يخلص إلى رؤيته المستمدة من التمحيص في تلك الوثائق والتي قال فيها:

«هذا هو المهدي في تفكيره ودعوته، وذلك هو غردون في عناده وتصلبه. إن القائد الذي لا يُقهر ولا يهُزم لا يريد أن يعترف بقائد آخر لا يُهزم ولا يُقهر فلا يزال غردون أسير أمجاده السابقة وأحلامه. ماذا عليه لو حقن الدماء وأوقف الحرب؟ إنه غرور العظمة وميراث الصليبية وكبرياء رجل يرى الأفارقة والمسلمين عبيداً ووحوشاً مفترسة. الحروب لا تدبَّر بمثل هذه العقلية. فالحروب كَر وفر وعقل وفن، وإعداد وتخطيط، والقائد الحكيم هو الذي يزن الأمور بتجرد كامل من هوى النفس. غردون لم يكن حكيما، كان كما يصفه اللورد كرومر - مندفعاً متهوراً، ونادراً ما كان يصير على رأي ويبدو انه كان خلواً من أي موهبة عظيمة القيمة»[3].

1 **الإستراتيجية العسكرية للإمام المهدي في السودان (١٨٨١-١٨٨٥)**، المرتكزات والمتغيرات، للدكتور أحمد إبراهيم أبو شوك، مجلة أسطور- العدد ٢، بتاريخ يوليو / تموز ٢٠١٥، نسخة إلكترونية بنفس التاريخ.

2 نيكول: مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون.. **مصدر سابق**، ص ٢٣٤.

3 شلبي: **الأصول الفكرية للمهدي السوداني**، مصدر سابق، ص ٢٠٤.

ويتفق المؤرخ الوطني الدكتور أحمد إبراهيم أبوشوك مع ما سبق الإشارة إليه من تعنتٍ جلي اتسمت به مواقف غردون من خلال مراسلاته مع المهدي تجاه الأحداث التي سبقت تحرير الخرطوم وما ترتب على ذلك من نتائج. ويُرجع أبوشوك تحول الثورة من سياسة الحصار لإستراتيجية المواجهة العسكرية مع غردون لتعنت الأخير وتهديده المستمر بقدوم حملة الإنقاذ الإنجليزية من الشمال. ومن ذلك قوله:

«ان إستراتيجية المهدي العسكرية لم يكن هدفها الأوحد تدمير قوات العدو أو الانتقام من الأعداء بل كانت تسعى لفرض وضع عسكري يهئ لها النصر اما بهزيمة العدو حربا أو استسلاماً»[1].

وفي الجانب الاخر وعلى المستوي الشعبي تحديداً، أسال المهدي الكثير من المداد مستميلاً به إلى جانبه تأييداً شعبياً كاسحاً داخل المدينة المحاصرة مما انتقل بغردون إلى أجواء من العزلة عززها المزاج الشعبي الملتهب بفضل الخطاب التعبوي الجماهيري الناجح للإمام المهدي من خلال حركة المنشورات النشطة آنذاك. وعرفت الخرطوم لأول مرة ثقافة المنشورات السرية حتى قبل أن تعرف غيرها من المدن في المنطقة تلك الثقافة. وفي ذات المعني يقول أبوشوك:

«شرع المهدي في حرب المنشورات المتبادلة مع تشارلز غردون إذ كتب منشورا إلى أهالي الخرطوم.. استنسخ الكُتاب نسخاً منه ثم أعطوها لأحد الجواسيس فوضعها في إناء من صفيح على شكل إبريق وعبر به النيل الابيض سباحة بالليل ودخل المدينة على حين غفلة من اهلها وألقي بالمنشورات بالأزقة والطرقات وقذف بها للمنازل».. وترتب على ذلك أضعاف الروح المعنوية لسكان الخرطوم وتأليب الرأي العام ضد غردون ووقوف بعض أعيان وعلماء الخرطوم موقفاً معارضاً له كأحمد العوام.. ممهدين الطريق لإنجاح سياسة الحصار والإنهيار من الداخل[2].

و استكمالاً لما سبق من تداعيات بإصرار غردون على مواصلة المواجهة مع قوى

1 أبو شوك: الإستراتيجية العسكرية للإمام المهدي في السودان (١٨٨١-١٨٨٥)، مصدر سابق.

2 نفسه.

الثورة، فقد فُرض على قلم المهدي التصدي لجملة من التحديات المترتبة على ما يتوقع حدوثه من تجاوزات عندما تجتاح جيوش الثوار المدن وذلك من خلال منشورات متتابعة وسمها- كدأبه دوما في مخاطبة الجماهير- بميسم البساطة والمباشرة، فعمل القائد بحزمٍ شديد علي تحقيق مقاصد الثورة قدر ما استطاع ومن ذلك منشوره الشهير بعد تحرير الخرطوم مباشرة:

«ان النساء الخارجات من قفرة الخرطوم جميعا قد أحببنا ان يعطين لأزواجهن ولا يجوز لأحد من أصحابنا وأحبابنا ان يتزوج منهن.. فذوات الأزواج يسلمن لازواجهن وكل من لا زوج لها تكون لدي امين مأمون[1] ويجري راحتهن.. فالحذر من التزويج لأحد من نساء ألقياقر المذكورة صغيرة أو كبيرة ثيباً أو بكراً ومن تزوج بواحدة من المذكورات بدون نظر حكم الله فهو الجاني علي نفسه والسلام»[2]. وكان المهدي قد استبق معركة التحرير الحاسمة لعاصمة البلاد بمنشوره لقوات الثورة الداعي لإكرام المدنيين الهاربين من جحيم الحصار داخل المدينة وتأليفهم بحسن معاملتهم حين قال: «فألفوا عباد الله الذين يخرجون مُسّلمين ومنقادين بأنواع التأليف وتلقوهم بالإكرام والتشريف.. ولا تتلقوا احداً من المنقادين بتعنيف». وفي ذات المنشور المطول يشدد قائلاً: «واكرموا الذين يأتون مُسّلمين وخصوصاً العلماء ومن كانوا من أهل الوظائف الكبار، وبالأخص نحو الأمين الضرير»[3].

ولم يقف سيل منشورات المهدي بهذا الخصوص عند ما سبق من أوامر ادارية بل جنح إلى الخروج بما كتب إلى حيّز التطبيق الواقعي لما نادى به من أدبيات وبالأخص حينما حاد بعض المتفلتين عما ورد سابقاً فمال بعضهم للتعدي على بعض النساء، عندها لم يتأخر قلم المهدي عن اصدار نص عقوبات تعزيرية صارمة ومنها السجن لمدة شهر والجلد اليومي لكل من تثبت ادانته بتلك الانتهاكات ففي 1885 كتب للخليفة عبدالله قائلا:

1 المقصود شخص محرم.

2 أبو سليم: **الآثار الكاملة**، المجلد الرابع، ص ٢٨٦-٢٨٧.

3 أبوسليم: **الآثار الكاملة**، المجلد الرابع، ص ٢٠٠.

«لا يخفى حبيبي، اننا نبهنا من أول الامر أن نساء الققرة(قفرة الخرطوم) من لها زوج منهن تسلم إليه ولا يعارضه فيها احد. وقد بلغني ان بعض الانصار يقولون ان أمر المهدي لا يلزم العمل به. وقد وقف على ذلك بعض الاخوان الصادقين، ومن ذلك بلغني ان علي ود الجاركوك أخذت منه امرأته التي تسمي العازة بنت نائل وهربت منهم واتت اليّ مستغيثة ممن حبسها وأراد ان يخرجها عن زوجها وكذلك أحمد أخذت منه زوجته فاطمة بنت موسي. ولما كان يحصل التجاسر على خرق امرنا ومخالفته هكذا مع ان امرنا ناشئ عن إلهام صائب مع المشورة المسنونة فكيف يجوز تركه والتهاون به، ومع ان أمراء الدنيا سابقاً لو أمر (باشتهم) بترك المصالح وحرق المدافع يطيعونه حالاً وينفذون أمره بلا تهاون كسعيد باشا ومثل غردون يسكر ويقول كسروا هذا فيكسره بدون تهاون. فكيف لا يقوم الأنصار إن كانوا أنصارا حقاً بأمرنا حالاً؟ وما أظن الذين يفعلون هذا إلا عائقون عن سبيل الله صادون عباد الله عن طاعة الله اتباعاً لأهوائهم. فأفحص يا صديقي هذا أنت ومن معك من الخلفاء والأنصار الصادقين وانه من يفعل مثل هذا أو غيره من ترك الأوامر تحبسوه شهرا وكل يوم يُضرب أربعين سوطا كفارة له وعبرة لغيره لينزجروا عما يورث الهلاك لهم وللأمة، والسلام..

تحشية: وكذلك من يمسك امرأة بدون أن يأمنوه عليها ولا يحفظها ولا يوصلها إلى محل الأمانة المعد لها كأمين بيت المال ومن أمرهم فلازم ان يحصل عليهم الزجر الكافي والتهديد الشافي. وما مثل هذا إلا أفعال الجبابرة الذين لا خِلاق لهم، فيهتكون الحريم ويغتضبون الأبكار.. وفي ذلك عذاب النار، فلازم الاهتمام بهذا الأمر الذي أمرض قلبي وأنالني هماً والسلام»[1].

وكما نرى هنا يستخدم المهدي التحشية للتأكيد والتذكير بما كتب وهو عموما لا يستخدمها كثيراً إلا عندما ينتوي التشديد على مضمون ما ذكره في نص المنشور. فالمهدي لا يستنكف أن يكتب مصححاً ومقوماً كلما رأى الرسم البياني المتصاعد للثورة يحيد عن ما ارتآه من قيم ومنظومة اخلاق بل ويتبع ذلك بإصدار القوانين الزاجرة لما

1 أبوسليم، نفس المصدر، ص ٣٣٩-٣٤١.

يراه من «افعال الجبابرة الذين لا خِلاق لهم». فحتى بعد انتصاره العسكري الحاسم على القوي الاستعمارية بتحرير الخرطوم.. نجده يكتب بقلم المحارب الذي لا يزال محتفظاً بسلاحه لردع مظاهر الانفلات الثوري التي عادة ما تصحب الهبات الجماهيرية المسلحة. وفي نفس المعنى أيضاً كتب الإمام المهدي في أعقاب تحرير الخرطوم للأمير محمد عبدالكريم وجيشه المحاصر لسنار مشيداً بقوات حمدان ابوعنجة لإنضباطها وحسن مسلكها مع المدنيين:

«وجزى الله الحبيب حمدان ابوعنجة عنا وعن دينه خيراً فقد بلغنا عنه ما سرنا من الاستقامة ومنع الأصحاب من أخذ حقوق العباد وأذيتهم»[1].

وكان المهدي على دراية تامة بما يصاحب حروب التحرير من فوضى يثيرها المندسون في صفوف الثوار وأصحاب المصالح الأخرى الذين تتعارض مقاصدهم مع مقاصد الثورة الحقيقية، فكتب من قبل ذلك إلى عامله عبدالله عوض الكريم أبوسن واصفاً هؤلاء بـ «بكلاب الدنيا الذين يتداخلون مع أنصارنا» قبل أن يوجهه بحزم بردعهم قائلاً: «فلنفوض الأمر لله مع الاجتهاد في إزالة كل سوء»[2].

وفي هذا الصدد يقرر كل من ريتشارد دكيمجيان ومارغريت وزموريسكي الذين قاما بدراسة منشورات المهدي باستفاضة من خلال «كاريزما القيادة في الإسلام – مهدي السودان»، بأن مرحلة حصار وتحرير الخرطوم تميزت بنضج واكتمال ملامح القائد الكاريزمي عند المهدي في أوضح صورها وذلك من خلال تمتين العلاقة الكاريزمية للقائد مع الجماهير بالاستناد إلى منظومة من القيم والاخلاق الثورية النابعة من القائد الكاريزمي نفسه.. مما يبقي على الأثر النفسي المطلوب بين الجماهير لتحقيق أهداف الثورة. وتتدرج تلك المعاني وفق التراتيبية التصاعدية لكاريزما القائد وذلك في إطار المرحلة الثالثة فيما يعرف أكاديمياً بمقياس «فيبر» لكاريزما القيادة[3]. وتجدر

---

1 أبوسليم، **الآثار الكاملة**، المجلد الرابع..ص٣٨٣.

2 د. عبدالرحمن الغالي: **المهدية، قراءة في أطروحة رواية شوق الدرويش**، الناشر: دار المصورات للنشر والطباعة والتوزيع، الخرطوم، ٢٠١٦.

3 ريتشارد دكيمجيان ومارغريت وزموريسكي، مصدر سابق.

الإشارة هنا إلى أن مقياس «فيبر» لكاريزما القيادة يُعد من اهم الوسائل العلمية لتحديد قوة الكاريزما في علم الاجتماع السياسي المعاصر وينسب- كما أشرنا من قبل - إلى الباحث الألماني الشهير ماكس فيبر.

و يبقى الحديث عن كاريزما القلم الثوري عند المهدي منقوصاً إن لم تمتد أي دراسة بهذا الشأن لتشمل الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية التي تصدت لها أفكاره المكتوبة لتخاطب أشواق التغيير التي اعتملت في صدور الجماهير.

لقد سبق الإمام المهدي حركات تغيير يسارية كثيرة في الحديث عن ملكية مصادر الثروة للأمة أو ما يمكن إدراجه بمعايير اليوم في سياق تمليك وسائل الإنتاج لمصلحة الطبقات المسحوقة بالمجتمع، وذلك من خلال هيمنة الدولة ومؤسساتها عليها -(بيت المال نموذجاً).. وتحدث المهدي أيضاً عن تأميم المؤسسات القائمة سعياً لإنهاء سيطرة الأفراد- أو لنكن أكثر دقة فلنقل إنهاء تسلط المجموعات الأرستقراطية التي إرتبطت مصالحها بالاستعمار التركي - على وسائل الانتاج القائمة آنذاك.. وذلك على نحو منشوره الذي يقول فيه:

«إن المقصد هو إقامة الدين وإزالة الضرر عن كافة المسلمين.. فيلزم ذلك أن يفرغ الاخوان جميع المواضع التي تنتج منها المصالح جميعا ولا يعرض لها أحد من الانصار وذلك: جميع الدكاكين، والوكالات، والقصيريات والعصاصير والطواحين والبنوك التي كانت بالبحر للإيجار. ولو كانت مسكونة فليخرج منها من هو ساكن فيها لما يترتب عليها من مصلحة عامة للمسلمين من ضعفائهم ومجاهديهم.. حيث أن كل من هو ساكن بتلك الجهات يمكن ان يتدارك له مسكناً فلا يؤخر مصلحة المسلمين وانه أيها الاحباب لما كانت المشارع (مرافئ السفن) بهذا الزمن بهذه الجهات هي كالفئ ونحن لا نريد بالإفياء إلا مصلحة المجاهدين والمساكين، ولا نرضى لمسلم أن يكون همه الدنيا والجمع لها والمعلوم أن المشارع فيها أموال جسيمة وكل من إستولى على مشرع جمع فيه مالاً كثيرا ولا يجهز فيه غزوة ولا سرية وإستضر بكنزه.. فلذلك إستصوب عندنا مع المشورة المسنونة ان نكتب إلى كافة المحبين أن يرفعوا أيديهم عن المشارع. فلا

نريد لمسلم بعد هذا أن يستخدم المشارع لنفسه، فإذا كانت له مركب فلا سبيل عليه، ومن انضم للجهاد معنا فله ضرورته والزائد عن الضرورة فانه على العبد لا له»[1].

و تحليلاً لما تقدم مما إختطه قلم المهدي.. يقول المفكر السوداني الراحل الأستاذ محمد علي جادين:

» ورغم مشاغل الثورة الكثيرة، فإن قيادتها لم تغفل عن مواكبة المتغيرات الجديدة الناتجة عن ظروف الثورة وانتصارها وسيادة الجماهير على نفسها ومقدرات وطنها، فاستجابت لها وبالإصلاحات اللازمة وخصص الامام المهدي حيزاً كبيراً من منشوراته لإعلان التشريعات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة المستندة على عقيدته الإسلامية الصحيحة، فكانت قراراته بتأميم المشارع والحدائق والمباني وكل المواضع ذات النفع العام وضمها لبيت المال»[2].

ولما كان اقتصاد سودان القرن التاسع العشر يقوم على الزراعة بعد الرعي كإحدى وسائل الإنتاج الأساسية.. فقد إنبرى القلم المهدوي للتأسيس لرؤية جديدة قائمة على أساس «الأرض لمن يفلحها» وهي رؤية على الرغم من إقرارها حق الملكية الفردية[3] إلا انها تقوم على إتاحة الفائض عن الحاجة من الأرض للآخرين ليُعملوا سواعدهم فيها لمصلحتهم. ونهى المهدي بحزم عن فرض ملاك الأراضي الزراعية لضرائب على من يستغل تلك الاراضي الفائضة عن الحاجة من الفقراء والمساكين.. ومنها ضريبة «الدقيندي» الشهيرة التي أثقلت كاهل السودانيين بعهد التركية السابقة وذلك على نحو منشوره الآتي:

---

1 عمارة، مصدر سابق، ص ٢٨٢.

2 جادين والصاوي، ص ١٨٨.

3 يرى عبدالله على إبراهيم أن إجراءات المهدي الثورية قد سعت لإنهاء نفوذ المجموعات القبلية ذات المصالح المرتبطة بالقوى الاستعمارية على غيرها من القبائل المستضعفة من خلال تحجيم حق الملكية الفردية للآراضي بالنسبة لهم. ثم انتقل المهدي بسياساته الإصلاحية بعدها إلى إقرار الملكية المشروطة باستزراع الفرد ما لا يفوق حاجته. وهو ذات ما أسماه المؤرخ الوطني الدكتور أبوسليم بـ(انتقال المهدي من مثالية المصلحين إلى واقعية الحاكمين). راجع «**الأرض في المهدية**» لأبوسليم، ص ٦١-٦٢. انظر ايضا: عبدالله على إبراهيم: **الصراع بين المهدي والعلماء**، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ١٩٩٤.

«ومن كان له طين فليزرع ما استطاع زرعه وإن عجز أو لا احتياج له فلا يأخذ فيه (دقيندي وهي ضريبة عينية يدفعها المزارع لصاحب الأرض) لأن المؤمنين كالجسد الواحد وان كل مؤمن ملكه من الطين له ولكن من باب احراز نصيب الآخرة فما لا يحتاج إليه يعطيه لأخيه المؤمن المحتاج»[1].

وفي هذا الشأن تحديداً، أشرنا من قبل لما قاله فريدريك إنجلز رائد الفكر اليساري العالمي في معرض تحليله لسياق الأزمة الاجتماعية والسياسية التي تولدت من رحمها الثورة المهدية، ومن ذلك قوله:

«ان الثورة المهدية هي حركة نشأت بسبب الصراع بين الأغلبية المُستغَلة (القبائل الرحل) والأقلية المستغِلة (أثرياء المدن)»[2].

والذي لا شك فيه أن الموضوعية هنا تقتضي التعاطي بحذر مع أي نهاية تقريرية جازمة ساقها إنجلز بخصوص الثورة المهدية بما يجعل أحداثها تتماهى مع أيدولوجية يسارية مطلقة ينبني أساسها على حتمية الصراع الطبقي ومركزيته في قضايا التاريخ والمجتمعات الإنسانية. بيد أن إنجلز نفسه بنى فرضيته تلك بخصوص الثورة المهدية من خلال تطابق تقريري إنطبع في ذهنه بين الإسلام كدين والطبائع الاجتماعية والاقتصادية لشعوب الشرق الأدنى.. مما دفعه نحو تأطير الثورة المهدية في سياق حركة تاريخية دائرية تنتهي دوماً بصراع تقليدي ينهزم فيه سكان المدن المترفين أمام حركة القبائل المهمشة والمستضعفة تحت قيادة زعيم منقذ كالمهدي[3].

وعطفاً على ما سبق.. فقد تقتضي عملية التوافق مع المنطق هنا، تجنب وصف ما ذهب إليه إنجلز بالرجاحة الصمدية بحسبان أن استقراءه لحقائق الأشياء من على البعد يبقى مرتهناً لمجموعة من الافتراضات المتفاوتة على مستوى دقتها. وفي معنى مشابه لما مر ذكره، كتب الأستاذ تاج السر عثمان مقالاً تحليلياً لمواقف إنجلز من الثورة المهدية

1 عمارة، مصدر سابق، ص ٢٨١.

2 سمرنوف: **دولة المهدية من وجهة نظر مؤرخ سوفييتي**، دار الجيل، بيروت، ترجمة هنري رياض، ١٩٩٤.. ص ١١٨

3 سمرنوف، نفس المصدر، ص ١١٨.

منتهياً بقارئه إلى نهايات مماثلة لما قدمنا له من إشارة[1].

وبتمحيص أكثر دقة، إجتذبت المبادئ الاشتراكية العامة بفكر المهدي مؤرخاً روسياً معروفاً على نحو سيرجي سمرنوف لدراسة متعمقة لتلك الأدبيات..و من ذلك قوله:

«ودعا المهدي للمساواة بين المؤمنين بوصفه قائداً وراعياً لجمهرة المزارعين والبدو الرحل والفقراء من سكان المدن وتشمل المساواة الفقير والغني والخادم والسيد والعربي والأعجمي.. لأن العقيدة المشتركة والجهاد المقدس وحد بين جميع المواطنين».. «كما كان إرتداء الأنصاري لجبة الدمور الخشن والعمة والشال والصندل دلالة على المساواة بين أفراد الشعب دون تفرقة أو تمييز بين غني أو فقير. واهتمت كثير من منشورات المهدية بمراعاة مصالح قطاع كبير من السكان، بل وأدت فعلاً لتحسين أوضاعهم المعيشية. ذلك أنه قبيل نشوب الثورة المهدية، قامت السلطة التركية المصرية بالمنطقة الوسطى بمصادرة أخصب الأراضي الزراعية الواقعة على النيل والتي كانت مملوكة للأهالي. وفي سبتمبر ١٨٨٤ ومايو ١٨٨٥ أصدر المهدي عدة منشورات أمر فيها برد الأراضي الزراعية التي سبق مصادرتها بواسطة الحكومة التركية إلى ملاكها الأصليين. وأمر أيضاً بأن ترد الأراضي الزراعية التي بيعت بواسطة الإدارة التركية لسداد ديون الضرائب التي كانت مستحقة على ملاك الأراضي بشرط أن يقوم الملاك بتعويض المشترين»[2].

وفي سياق متصل بما خاض فيه سمرنوف، يحسّن بِنَا هنا الإشارة لمنشور المهدي والذي أورده الدكتور عبدالله علي إبراهيم في معرض دراسته الرصينة حول تفاصيل الصراع بين المهدية والكبابيش والذي أرجعه الكاتب ضمناً لسياسات المهدية ذات المبادئ الاشتراكية وما تلاها من رفض عنيف من قبل أرستقراطية القبيلة الحاكمة. وهو ذات المنشور الذي قال فيه المهدي: «ولا يتشاجر اثنان في طريق الزرع ولا يدعي أحد وراثة أرض من آبائه وأجداده ليأخذ منها خراجاً أو يقيم بها وهو ساكن لأجل ذلك». فكما يتبين لنا مما سبق أنه هنا لا يعترض على توارث الأرض بقدر ما يعترض

1 تاج السر عثمان: **أسباب وطبيعة الثورة المهدية في السودان**، موقع الحوار المتمدن الإلكتروني، ٢٣-١٠-٢٠٠٨.

2 سمرنوف، مصدر سابق، ص ١٠٦.

على الخراج الباهظ الذي يفرضه أصحاب الأراضي الغير مستغلة على غير القادرين من البسطاء. ومن المهم هنا التطرق لخلفية العلائق المجتمعية والقبلية المعقدة التي وطدت من خلالها السلطة الاستعمارية أركانها في السودان فيما سبق المهدية. وليس أدل على ذلك من شيء مثل ارتباط مصالح أرستقراطية «النوراب» الحاكمة عند الكبابيش بالنظام الاستعماري الذي كان قائماً قبل المهدية مما أتاح لها امتيازات اقتصادية تفضيلية من خلال نظام «التبع» والذي جعل كلمتهم الأعلى بين قبائل أخرى في المنطقة كالكواهلة والشنابلة وبني جرّار بكردفان.. وليس بمستغرب أن تشير بعض المصادر لتمدد نفوذهم حتى مضارب النوبة في الجبال الشمالية جنوباً والزغاوة والفور غرباً. ويرى عبدالله علي إبراهيم أن منشور المهدي المار ذكره:

«قد انبنى على معرفة سديدة بالجغرافية السياسية لبادية شمال كردفان بحيث يصح القول أنه كان بمثابة برنامج سياسي عرض للخاضعين لأرستقراطية النوراب أفقاً للتحرر من علاقات التبعية للنوراب والتحالف مع المهدية التي عززت مصالحهم في إطار السياسات المحلية لمناطقهم»[1]. كما يرى عبدالله علي إبراهيم أيضاً أن: «تعاليم المهدية التطهيرية قد حملت تهديداً قوياً للبنى الاجتماعية والأخلاقية لأرستقراطية النوراب القائمة على الثروة».. وذلك لطبيعة التركيب الطبقي المعقدة لمجتمع النوراب وارستقراطيتهم الحاكمة والذي يستطرد الدكتور إبراهيم في وصف واحدة من صوره حين يقول:

«يكمن احتقار واضح للفقر في اعماق نظرة أرستقراطية النوراب الحاكمة للحياة فالذي لا يملك شيئاً في بيئتهم يحتل إحدى خانتين فهو اما متفضل عليه من ذوي السعة مما يدخل في دائرة اعتدادهم وفخرهم واما مُتندر عليه»[2].

وعلى المستوى الاجتماعي اصطدمت منشورات المهدي الإصلاحية التي أمر فيها بمحاربة غلاء المهور ومنع النياحة على الميت بتقاليد اجتماعية عريقة شكلت أوتاداً

1 عبدالله على إبراهيم: **الصراع بين المهدي والعلماء**، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٨٠،٨١.

2 عبدالله على إبراهيم، مصدر سابق، ص ٨٦.

راسخة استندت عليها ثقافة أرستقراطية النوراب الحاكمة، ومن ذلك منشوره الذي جاء فيه:

«يلزم الا تكون لكم مباهاة في الأعراس ولا في غير ذلك فمن يتزوج منكم تكون وليمته بتمر كوليمة فاطمة بنت رسول الله(ص) أو مع طعام كوليمة ام المؤمنين. ومن لم يقدر ولم يطب له قلباً بما ذكرت فلا يزيد من خروف وذلك إسراف. ولا تزيد العزبة عن خمسة ريال ولا البكر عن عشرة ريال واللبس لا يزيد عن ثوبين وكل ذلك خروجاً عن المباهاة وحب الدنيا». ولوّح المهدي في آخر المنشور بمصادرة المال المبدد بالإسراف في المباهاة بالأعراس والمهور من صاحبه لمصلحة الفقراء والمساكين[1].

وفي ذات الإطار يقول عبدالله علي إبراهيم:

«في مجتمع ذي مراتب قائمة على الثروة يفتئت مثل هذا الامر على امتيازات ذي السعة». ويستطرد أكثر فيما يختص بتعارض منشور منع النياحة على الميت الذي أصدره المهدي مع تقاليد الكبابيش الراسخة بهذا المضمار حين يقول:

«فمن طقوس النياحة اجتماع القبيلة حول النقارة لدى وفاة واحد منها وقد تَرَكُوا ثغرة تدخل منها الإبل وغيرها لينالها الواقفون تعليقاً علي نوعها وعددها وتأتي اخيراً إبل المتوفي وعلي كل ناقة جرس فتُغلق الثغرة وتدور ثلاثا منها داخل الحلقة ثم يُفصَّل صغارها من امهاتهم فينشأ صوت حنين كظيم متبادل بين الصغار والامهات ليشيع مناخاً من الآسي والفقد وينتحب الرجال والنساء على السواء.. فعلاوة على أن الاجتماع على الفراش استعراض لثروة المتوفي والآخرين فشأن المتوفي أيضاً يزداد طرداً مع ما يملك أي مع كمية الأصوات الصادرة من إبله صغاراً وكباراً.. لهذا يصبح النهي عن اجتماع النياحة والفراش إفتئاتاً على الموسرين إذ يقع مشهد وداعهم الأخير في جملة امتيازاتهم القائمة على الثروة»[2].

ولعل تلك المقدمات - في رأينا - تفسر جيداً الاصطدام الحتمي القادم بين أيديولوجيا

1 أبوسليم: **الآثار الكاملة**، المجلد الأول، ص٤٣٢.

2 عبدالله علي إبراهيم: مصدر سابق، ص ٨٧-٨٨.

الزهد المفضية إلى اقتسام الثروة والسلطة وما يقابلها من ايدولوجيا تستند على الجاه القبلي الموروث والغير قابل للقسمة على اثنين والذي يتوكّأ على قيم اجتماعية يصعب تجاوزها بالمقابل الموضوعي. ويبقى كلٌ من الموقفين مُفسراً ومُبرراً في سياقه التاريخي.. ومن المهم هنا الإشارة إلى أن فرعاً لا يستهان به من النوراب بقيادة الأمير عوض السيد قريش قد انضم للمهدية منذ معركة شيكان وكان لهم راية بذات القيادة المؤتمرة برئاسة الجيش المهدوي في معركة كرري..بينما ظل قطاع مهم من النواراب على موقفهم السابق من العداء لتلك السياسات التي دعت لها المهدية لتضاربها البيّن مع مصالحهم وثقافاتهم المحلية المستندة إلى إرث اجتماعي ضارب في البداوة.

كَدَأْب مواطنه المصري محمد عمارة، اجتذبت إجراءات المهدي الاقتصادية الساعية لتمليك وسائل الإنتاج للدولة المفكر المصري الراحل الدكتور عبدالودود شلبي والذي نال درجة الدكتوراة من جامعة اكسفورد البريطانية في «الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته».. نحو الجزم بأن المهدي قد سبق إنجلز وماركس في التأسيس العملي لمبادئ التأميم والملكية الجماعية لموارد الأمة، ومن ذلك قوله:

«في ٩ جمادي الآخر ١٣٠٢ أصدر المهدي أمره بالاستيلاء على الدكاكين والطواحين القائمة على النيل بمدينة الخرطوم وضمها إلى بيت المال، وفي ٢٢ شعبان من السنة نفسها، أمر بالاستيلاء على المشارع وهي مرافئ للسفن النيلية — وكانت هذه المشارع تؤجَّر للناس مقابل مبلغ سنوي يدفع لبيت المال، هذا الاستيلاء أو التأميم بلغة العصر الحديث ظاهرة جديدة تستحق النظر والإلتفات، فمن اين جاء المهدي بهذه الأفكار التي سبق بها ماركس وإنجلز وغيرهما»[1].

واتجه كلٌّ من دكيمجيان وزروموسكي بطرائقهما الأكاديمية المتجددة للحديث عن المسحة الاشتراكية التي اتسمت بها سياسات المهدي في معالجة قضايا الاقتصاد المجتمعي في ظل المواجهات العسكرية مع القوى الاستعمارية.. وفي ذلك قالا:

«لقد عبر النظام الاقتصادي للمهدية عن القيم المبدئية التي دعت لها بالأخص فيما

1 شلبي: مصدر سابق، ص ٢٢٧

يلي توزيع غنائم الحرب. وقد حاول المهدي كبح جماح بعض القبائل النازعة لسلب غنائم العدو المنهزم (بإعادة) تأسيسه للقيمة المبدئية الإسلامية القديمة - لكلٍ حسب حاجته- ومن ثم تم اعتبار الغنائم الحربية ومصادر الثروات الأخرى على نحو الملكية العامة أو الجماعية التي ترجع لكل مكونات المجتمع المهدوي»[1].

وفي الإطار ذاته، يمكن القول بأن المؤرخ البريطاني المعروف «اي.ب. ثيوبولد» لم يكن غافلاً عن مقدرة القارئ المدرك لخبايا اللغة على التعاطي مع النفائس التي تحتويها المادة المكتوبة. وبالتالي كان ثيوبولد مدركاً أيضاً للحواجز المفاهمية التي تكتنف النصوص المترجمة بفعل النقل النصي الصارم من لغة لأخرى دون سبر كاف لأغوار تفاصيلها البكرة. إلا أن الأهم من ذلك كله، كان بلاشك مقدرة مؤرخ- على نحو ثيوبولد- ينتمي لحد ما.. لمدرسة مراجعة الأسلوب الدعائي المعادي الذي اكتنف كتابات البريطانيين الأولي عن الثورة المهدية.. على إلتقاط تفاصيل الصراع الذي تخندق فيه المسحوقون مع المهدي ضد القوى الاستعمارية الموسومة -بحسب وصف ثيوبولد نفسه- بالجشع والفساد والاستبداد. وانطلق ثيوبولد فيما كتب بصورة ضمنية من ذات الذهنية التي انبنى عليها تقييم فريدريك إنجلز لطبيعة النزاع الذي نشأ بين الثورة المهدية وخصومها الاستعماريين. ومن ذلك ما قاله ثيوبولد فيما سبق تحديداً:

«عندما يقرأ المرء كتابات محمد أحمد من خلال ترجمتها للإنجليزية بوسائط غير مكترثة لما احتوته من معاني.. عندها قد تبدو تلك الكتابات لمتلقيها خالية من التشويق، محتوية على قدر من الإسهاب والتطويل ومجبولة على التكرار في نسقها. ولكن يتوجب على المرء أن يتذكر جيداً أن فن الكتابة نفسه كان بمثابة الأمر الذي يندر الوصول إلى مرامي الكمال فيه. إن الروعة التي احتوتها الكلمة المكتوبة عند المهدي وما ترتب على ذلك من سلطة مصاحبة له على الناس هو أمر يصعب علينا إدراكه بمفاهيم اليوم. ولابد أن الأكثر تأثيراً من ذلك كله، كان يتمثل في البلاغة المُلهبة للحماسة عند رجل مثله اشتهر بالورع والقوى الموغلة في الغموض. دعوات كتلك، شكلت بالنسبة

1 ديكميجيان ووزموريسكي، ص ٢٠٧-٢٠٨.

للمسحوقين والمضطهدين والبسطاء، مصدراً للسلوان وبقدر مماثل أضحت مصدراً ملهماً لهم لمجابهة ما كانوا يعانونه من عوز وجوع وكدح موغل في البؤس. ومن ذلك، أن تلك الأشياء لم تعد مما يستحق أن يتأسفوا عليه.. بقدر ما أضحت من الأمور الموجبة للفخر والإعتزاز وراحة البال، لأنهم أعدوا طريقهم نحو النعيم فيما سيعقب ذلك».

وتعرض ثيوبولد لمقدرة المهدي على جذب التأييد لثورته من خلال إقامة حدود فاصلة بين فسطاطين إحتدم بينهما الصراع.. الأول كان هو فيه يتقدم صفوف المسحوقين من أبناء شعبه. أما الآخر فكان يخص رموز السلطة الاستعمارية بكل إمتيازاتها الطبقية وما انبنى حولها من ترف وسرف. وبالتالي انقسم الناس بين مربعين أفلح المهدي من خلال قيادته للمربع الأول في توظيف الدين للانتصار لقضايا المستضعفين. ومن ذلك أنه قد مال لتحديد وتعريف القوى المناوئة للثورة من خلال مخاطباته المتكررة لجماهير شعبه، حين ربط بين الزهد والثورة من جهة والترف والسلطات الاستعمارية من جهة أخرى.. وفي ذلك قال ثيوبولد:

«كان المهدي يشير بأصبعه باصرار نحو الباشا المتعجرف في قصره وكذلك لمسئولي الحكومة الفاسدين ومتحصلي الضرائب الذين كانوا يجمعونها بما يستلزم من وحشية وجنودهم الموسومين بالفسق والفجور.. كل هؤلاء كانوا من الحرص بمكان على هذه الدنيا بما أظهروه من توق لمعاقرة الخمر وتدخين التبغ بمقدار شابه الانحلال الذي تعاملوا به تجاه واجباتهم الدينية. هؤلاء كانوا هم المارقين عن الدين أو على الأقل كانوا المسلمين غير المثاليين. ومن ثم يمكن القول بأن التعاليم التي اتى بها محمد أحمد لم تمنح المسحوقين من بني شعبه الفخر والإعتزاز بأنفسهم وحسب بل منحتهم أيضاً مقتاً وإزدراءاً كافياً لحكامهم المستعمرين»[1].

وبدا الكاتب والمفكر المصري الدكتور محمد عمارة متفقاً مع ما سبق في أعقاب دراسته في لكتابات المهدي ورؤاه الإصلاحية المجتمعية، وليس أدل على ذلك من قوله فيما قرأ:

1 ثيوبولد، ص ٣١.

«تلك هي قسمات الفكر الاجتماعي في الثورة المهدية، تؤكد انها ثورة فقراء صنعت بما فجرته من طاقات روحية في الشعب السوداني أشياء يدهش لها الباحث فيما خلفت من وثائق ومنشورات. وهي تؤكد في كل جوانبها انها كانت واحدة من أبرز حركات اليقظة التي تصدت بها الأمة في السودان للتحديات التي فرضها عليها أعداؤها في ذلك التاريخ»[1].

مما تقدم ذكره، يستبين بوضوح أن قلم الإمام المهدي قد تصدى لجملة من القضايا والتحديات التي جابهت الوطن وأهله بسودان القرن التاسع عشر فكتب وأصلح واجتهد وجاهد بقدر ما استطاع.. وخلّف تراثاً هائلاً احتوت عليه منشوراته.. ما زال إلى يومنا هذا يحتاج للكثير من التنقيب والتمحيص الأكاديمي الأمين حتى يُنصف هذا الرجل الذي حرر وطنه وهزم بالروح التي أحياها في شعبه أعتى إمبراطوريات العالم التي لم تركن الشمس في بقاعها الشاسعة للتواري أبداً. وبناءً على ما تقدم فليس هناك أبلغ مما كتبه المفكر الراحل الأستاذ محمد علي جادين عن رحيل المهدي حينما جزم قائلاً:

«باستحالة إيجاد بديل لهذا النوع من القيادة التاريخية، إذ يعتبر دورها الأبرز في تفجير الثورة وقيادتها، ثم تقمصها لصفة الرمز في أذهان ووجدان الجماهير، ذلك في حد ذاته عنصراً مهماً من عناصر جاذبيتها الشعبية وقياديتها لا يتوفر للرجل الثاني مهما كانت أهمية دوره في الثورة. كما أن هذه النوعية من القيادة تتمتع عادة بخصائص زعامية استثنائية استوجبتها لحظات انعطاف تاريخي معين، مما يستحيل معه وجود شخصين من نفس النوع في بلد واحد في فترة معينة بمثل هذا الوزن الاستثنائي لشخصية محمد أحمد المهدي»[2].

1 عمارة، ص ٢٨٢.

2 جادين والصاوي، ص ١٦٢.

الباب الثالث عشر

معركة كرري..
الوقائع والأصداء العالمية

معركة كرري.. الوقائع والأصداء العالمية

«لقد كان هذا اليوم آخر أيام المهدية ولكنه كان - بحق - أعظمها على الإطلاق.. لم يتراجع العدو قط. لم تكن كرري معركة.. بل كانت حادثة إعدام أبطال. إن جاز لي أن أقول أن قواتنا قد بلغت الكمال.. فلابد لي أن أقر بأن المهدويين بروعتهم.. قد فاقوا حد الكمال! لقد كان جيشهم في كرري من أعظم وأشجع الجيوش التي حاربناها طوال مواجهاتنا الطويلة مع المهدية. وكان دفاعهم مستميتاً عن إمبراطورية شاسعة ومترامية الأطراف أفلحوا في الحفاظ عليها لوقت طويل وبكفاءة عالية. وتصدى لنا حمَلة البنادق منهم ببنادقهم المهترئة وذخيرتهم المحلية التصنيع متحَدين بذلك أقسى أنواع الموت بفعل الآلة الحربية الباطشة التي صنعها الإنسان، فاستماتوا متشبثين بمواقعهم لآخر رمق حول الرايتين الخضراء والزرقاء.. فأظهروا قدراً عجيباً من البسالة».

جي دبليو ستيفنس، مراسل حربي بريطاني من أرض معركة كرري.

ظلت معركة كرري التاريخية الحاسمة والتي دارت رحاها بين قوات الغزو البريطانية والجيش المهدوي السوداني على أسوار العاصمة الوطنية «أم درمان» بتاريخ ٢ سبتمبر ١٨٩٨ أو «The Battle of Omdurman» - كما درجت أدبيات المؤرخين الغربيين على تسميتها - ظلت تلك المعركة الفاصلة وأحداثها الجسام محوراً لحركة بحثية مستمرة من خلال جهود أكاديمية معاصرة لمؤرخين من النصف الشمالي للكرة الأرضية.. حركتهم النزعة الأكاديمية المحايدة لإعادة استقراء ما حدث بالضبط على ميدان المعركة على الرغم من مرور أكثر من ١١٨ عاماً على انقضائها. وهي ذات المجهودات البحثية التي أدت لكشف النقاب عن شهادات مراسلين حربيين أجانب لم تحظ في وقتها بالاهتمام اللائق بها بينما أُسقط بعضها لأسباب مجهولة.

والمدهش حقاً، هو أن معركة كرري تعد من أكثر معارك القرن التاسع عشر أهمية من حيث التغطية الإعلامية بالمراسلين الحربيين ابتداءاً من ونستون تشرتشيل «المراسل الحربي آنذاك» ومروراً بالمراسل الحربي البريطاني الأشهر آنذاك «G.W.Stevens».. وانتهاءاً بمراسلي «Le Temps» الباريسية الشهيرة. وقد فسر المؤرخ البريطاني «فيرغس نيكول» صاحب كتاب «مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون».. فسر ذلك التواجد الإعلامي المكثف بانه.. «جاء مترجماً للشعور القومي البريطاني الجارف بضرورة الانتقام لكبرياء بريطانيا الذي أصابته الثورة المهدية في مقتل عندما لقي خيرة جنرالاتها حتفهم بأسلحة الثورة المهدية ففقدت بريطانيا وليام هكس وستيوارت وتشارلز غوردون.. وفي سبيل ذلك لم تتوان بريطانيا عن جرجرة مصر الخديوية معها في مواجهة المهدية بالتلويح في وجهها بجزرة إعطائها شيئاً من أراضي السودان الذي ملكته في يوم من الأيام فعجلت الثورة المهدية باقصائها من ترابه». ولعل مما يعزز كلام نيكول تلك الأغنية الشعبية الرائجة في بريطانيا آنذاك والتي تتحسر على مقتل بطل بريطانيا القومي الجنرال غردون بسلاح قوات الثورة المهدية.. في بضع كلمات موغلة في الحزن الأسيف:

Too late, Too late to save him
He was England 's pride when lived
He was England's pride when he died

وقد راجت تلك الأغنية الشعبية رداً على غلادستون رئيس الوزراء البريطاني إبان حصار الخرطوم في ١٨٨٥ والذي عارض في البدء فكرة إرسال جيش لإنقاذ غردون قائلاً: «لا يمكنني أن أحارب شعباً يبحث عن حريته» وإن تراجع أخيراً تحت ضغط الرأي العام البريطاني المحموم آنذاك!

ولكن بالعودة مجدداً لتفاصيل المعركة التي نحن بصدد تحليل وقائعها.. وابتداءاً مما يقارب الخمسة أيام تحديداً من النزال الفاصل بربى جبال كرري.. حين كانت صحائف القدر تعيد ترتيب تفاصيلها نحو ما ارتسمت على نسقه نهايات كل شئ. في ذلك الوقت، إحتفر حدث ما بأغوار ذاكرة المراسل الحربي الشاب «تشرتشيل» فدلق تفاصيله على الورق كما إستبان له كل شيء أمام عينيه المجردتين. ومن ذلك، أن قائد

استخبارات جيش المهدية.. الأمير عبدالباقي عبد الوكيل قد مال لإبتعاث الطلائع الأنصارية لنقل أخبار البريطانيين الذين بدأوا في إبتناء معسكرهم بشمال أم درمان. وتبعاً لذلك، وخلافاً لتقديرات الأمير عبدالباقي.. دارت مواجهة غير متكافئة تماماً تقدم فيها مقاتل أنصاري أغْرَته جسارته الحميسة على غزو معقل الجيش البريطاني منفرداً تحت ستار الليل، فصال فيهم بفرسه ورمحه مُثخناً ما استطاع من أجساد الغزاة بجراح غائرات قبل أن ينسحب وسط وابل رصاصهم دون أن يصاب بأذى. تلك هي ذات الواقعة التي قال عنها المراسل الحربي الشاب ونستون تشرتشيل:

«بينما كان ضوء الشمس يميل للتلاشي، اخترق صفوفنا فارس مهدوي وتقدم مندفعاً نحو كتيبة الواركشاير الإنجليزية.. ووجه رمحه الحاد بمقدمته العريضة نحوهم متحدياً بإيماءته تلك كل من كان هناك. وإنبعث في أوساطنا قدر عظيم من الذهول، كان كافياً لتمكين ذلك الفارس الشجاع - والذي بدا لنا كالشبح الذي لم يكن أحد منا يتوقع أن يراه - للانسحاب دون أن يصاب هو بأدنى أذى»[1].

وبمطابقة دقائق تلك الواقعة التي إنتقشت بذاكرة تشرتشيل مع وثائق جهاز استخبارات المهدية التي تبقت متمنعة على الاندثار في أعقاب تلك المعركة، يستبين بجلاء، أنها ذات الواقعة التي نقلها الأمير عبدالباقي عبد الوكيل للخليفة عبدالله[2]

1 ونستون تشرتشيل: **حرب النهر**، ص ٤٦٧-٤٦٨.

2 **الخليفة عبد الله** (١٨٤٦-١٨٩٩): هو عبدالله بن السيد محمد بن الشيخ علي الكرار بن موسى بن الشيخ محمد القطبي. ينتمي لفخذ «الجبارات» من قبيلة «التعايشة» التي تنتشر معاقلها بمنطقة جنوب دارفور. والده هو الشيخ محمد بن علي الكرار الملقب بـ«تور شين «نسبة لما اشتهر به من شجاعة.. فقد كان من عادة أعراب البقارة إطلاق تلك الألقاب التي تتماشى مع بيئاتهم وثقافاتهم المحلية. وكان والده الشيخ محمد علي الكرار هو أحد أهم شيوخ الطريقة السمانية بديار التعايشة حيث ذاع صيته بذات الخلوة والمسجد المجاور لها.. وقد أسّسهما من قبله والده الشيخ علي الكرار. وكان عبدالله منذ صغره ملماً بفنون القتال.. شغوفاً به.. بينما كان شقيقه الأكبر يعقوب ميالاً لخلافة أبيه في أمور سجادة الطريقة السمانية. التقى الخليفة عبدالله بالشيخ محمد أحمد فيما قبل معركة الجزيرة أبا.. وبعدما قامت الثورة المهدية لم يكن من أبكار مناصريها فحسب بل كان من أهم المخططين لاندلاع شراراتها الأولى. كما كان له دَور أساسي في هجرة أنصار المهدي بعد أولى مواجهاتهم العسكرية مع التركية نحو جبل قدير بجنوب كردفان.. وتقلد منصب أمير جيوش المهدية لوقت وجيز قبل أن يصبح في طليعة خلفاء المهدي الثلاثة. خلَف المهدي بعد وفاته في ١٨٨٥. ووقع على عاتقه أمر إدارة الدولة بعد مرحلة الثورة، فواجه تحديات عديدة كان أبرزها تمرد العديد من القبائل على سلطته ونفورهم من قيود الحكم الوطني الجديد بطبائعه

بتاريخ مقارب لما رواه تشرتشيل.. فكتب إليه قائلاً:

«فإن أحد الأخوان المسمى الطاهر من الأهل الحمر ابن أخت المكرم أبوشامة الطاهر كان قد تعين ضمن خيول الطلائع المعدة لكشف أحوال الكفرة.. انفرد بنفسه وجواده وقصد محل الكفرة وإقامتهم وهو بمحل وادي العبيد وكمن إلى أن دخل الليل بينه وبينهم وتربص إلى أن اقترب منهم وهجم على طائفة منهم بالزريبة في ظلام الليل وطعن فيهم واحد وصرخوا وهاجوا في بعضهم وقد نجاه الله ولم يصبه سوء منهم وحضر يوم تاريخه وأخبرنا بذلك والدم على حربته وترك أعداء الله في المحل المذكور. وحيث أن هذا من الفعال الحميدة التي يفعلها أهل الهمم والعزائم فقد حررنا ذلك لسيد الجميع خليفة المهدي عليه السلام» [1].

بيد أن ما سبق ذكره لن يكون خلاصة ما خطه قلم ونستون تشرتشيل من وقائع كان هو بموقع القلب منها حين جمع بين صفتي الضابط الإنجليزي والمراسل الحربي الميداني لعدد من الصحف الإنجليزية في معركة كرري. ومن ذلك أنه قد دون بنفسه لاحقاً عدداً من المشاهد الحربية بتلك المعركة وقام بنشرها في سفره الشهير بـ«حرب النهر» أو «The River War»، فإلى نص شهادته التي دون فيها ما رأى من مشاهد أمام عينيه.. حينما اصطف الجيشان وجهاً لوجه:

«كنت أستطيع ان أرى وأميز عدداً من المشاهد المقترنة بكل أمير من أمراء المهدية المشاهير. ففي أقصي اليسار اصطف (رؤساء المئات) ومعهم بقية جنود الراية الخضراء الباهية اللون تحت قيادة الخليفة علي ود حلو. وبجانبهم فقد رأيت الراية الخضراء الداكنة اللون بقيادة عثمان شيخ الدين والتي شمخت فوق عدد كثيف من المقاتلين

المركزية.. وبالرغم من تلك الانقسامات الداخلية التي شهدتها فترته وما تبعها من صراعات مسلحة، إلا أن الخليفة عبدالله أفلح في الحفاظ على الدولة موحدة بوسائل مختلفة..مكنته من تجميع ستين ألف مقاتل تحت رايته لمواجهة القوات الإنجليزية الغازية في ١٨٩٨. بعد الهزيمة في معركة كرري، انسحب بقواته غرباً آملاً في إعادة الكرة على الإنجليز وبقي يقاتل ويقاوم تجريداتهم العسكرية إلى أن سقط شهيداً برفقة الخليفة على ود حلو ومن تبقى من أمراء المهدية في موقعة أم دبيكرات بالعام ١٨٩٩. انظر «**رجال حول المهدي**» للمؤرخة الفرنسية فيفيان ياجي، ص ٩-٢٥.

1 كرري للرائد عصمت زلفو، ص ٣٧٥.

من حملة الرماح وأمام هؤلاء اصطف صف طويل من المقاتلين اعتقد أنهم كانوا من حملة البنادق. أما في الوسط فقد تمركز الأمير يعقوب برجاله وقد رفرفت فوقهم الراية الزرقاء - راية الخليفة عبدالله - عالية لا تخطئها عين الناظر. وفي أقصى الميمنة، اصطفت مربعات عسكرية من مقاتلي الأنصار بأعداد كبيرة رفرفت فوقهم رايات بيض ناصعة في اصطفاف غاية في الترتيب والتنظيم والبهاء.. بينما كمن خلف هؤلاء رجال راية الخليفة شريف الحمراء اللون.. والتي كنت أراها بالكاد ترفرف من خلفهم من موقعي ذاك. لقد قام الأعداء بحشد كل كبريائهم ومقدراتهم البشرية دفاعاً عن أرضهم ولإبقاء إمبراطوريتهم. فهؤلاء هم حملة البنادق الذين حطموا الجنرال وليم هكس وهزموه.. وحملة الرماح الذين تحّدونا في (أبو طليح).. والأمراء الذين انتصروا وعادوا بالغنائم من (قندر) الحبشية.. و قبائل البقارة.. ومقاتلو جيشهم الذين حاصروا الخرطوم وانتصروا.. كل هؤلاء تقدموا نحونا.. وقد ألهمتهم ذكريات انتصاراتهم السابقة على قواتنا..تماماً كما كان يدفعهم سخط نحونا عندما بلغت مسامعهم ’نتصاراتنا الأخيرة عليهم بقيادة كتشنر.. اندفع كل هؤلاء بحماس لقتال الغزاة الذين اعتدوا على أرضهم بصفاقة». ثم يمضي تشرتشيل ليصف روعة التنظيم العسكري لتحركات الجيش السوداني قبل الالتحام معهم: «ثم واصلوا في خطاهم الأمامية نحونا فقامت ميسرة جيشهم بإعادة الإصطفاف في سهل المعركة فيما بدا لنا وكأنه مقدمة للهجوم على ميمنة جيشنا. أما قلب جيشهم فقد اتجه بصورة مفاجئة إلى جبل سرغام.. بينما اتجهت ميمنة جيشهم للتمركز جنوب ذلك الجبل تماماً. لقد كان منظر تلك الكتلة البشرية (ميمنة جيش الخليفة) ذات التنظيم المثالي والتي يقل عددها عن الـ٦ آلاف قليلاً.. الأكثر إدهاشاً بالنسبة لي حيث أن عدد راياتهم كان يقارب الـ٥٠٠ راية وقد زُخرفت كل راية بآيات من القرآن. لقد أعطت دقة انتظامهم واصطفافهم المستقيم.. مشهداً بديعاً متفرداً للناظر.. وهو ما جعل هذا الجزء من جيش الخليفة يشابه لوحة Bayeux Tapestry الشهيرة والتي كانت تصف الجيش النورماندي الغازي لبريطانيا»[1].

1 تشرتشيل: حرب النهر، ص ٥٠٤-٥٠٥.

بيد أن ما سرده تشرتشيل لم يكن بأي حال أكثر ما ورد في أدبيات المؤرخين الغربيين عن المهابة التي تبدى بها السودانيون لإعدائهم الغزاة عندما تؤخذ الأمور بموازين الإسهاب ودقة التفاصيل. ومن ذلك ما قاله مؤرخ إنجليزي عُرف عنه سبر أغوار الحقائق على نحو «وليام رايت» فلنفسح له مجالاً مناسباً ليحدثنا عن الأمر ذاته:

«من موقعه الذي أتاح له مدى بصرياً أفضل، وصف تشرتشل مشهد تقدم الأنصار نحو عدوهم بأنه كان يحتوي على مهابة مثيرة للدهشة. كانت واجهة جيش الأنصار تتقدم وهي تذرع الرمل المنبسط أمامها على خط عرض بلغ مداه الأربعة أميال. ذلك الجيش الذي كان يحتوي على كتلة ضخمة من الفرسان وهم على ظهور جيادهم التي كانت تعدو بسرعة، المئات من الرايات وهي ترفرف من فوقهم والآلاف من الرماح التي عانقت أسنتها أشعة الشمس فتلألأت كما يومض البرق في كبد السماء المحتشدة بالسحب. ووصف جندي مصري تقدم أصحاب الأرض نحو الجيش الإنجليزي كهدير الموج العاتي وهو يلقي ببأسه على الشواطئ. تشرتشيل قدر العدد الكلي للجيش السوداني برقم لا يقل عن الأربعين ألف من المقاتلين»[1].

هذه الكتلة البشرية الهائلة ليس من العسير القول بأنها ضمت أطيافاً قبلية سودانية مختلفة لم يحل تباين السحنات بينهم وبين التحام فرسانهم بجيادهم المتصاهلة اتفاقاً على كلمة واحدة في مواجهة الغزاة الذين وصفهم تشرتشيل نفسه بالصفاقة دون أن يستثني نفسه من وصفٍ كهذا قرنه بالإجتراء على غزو التراب الذي انغرست فيها أقدام أصحاب تلك الأرض طويلاً حتى ألفهم وألفوه. فمن أواسط السودان توافد العركيون بقيادة الأمير أحمد حمدان العركي[2]، العمارنة بقيادة الأمير بابكر ود عامر، كنانة

1 وليام رايت، ص ١٤٣.

2 هو الأمير **أحمد حمدان العركي**. يعد من أهم أمراء قبيلة «العركيين» في المهدية. انضم للثورة المهدية في مراحلها المبكرة بجبل قدير. اشترك في مواقع المهدية المختلفة كأمير وقائد عسكري مهم. شهد معارك قدير وتحرير الأبيض وشيكان وتحرير الخرطوم. كان شيخاً عالماً متفقهاً فلما قامت الدولة المهدية عمل فيها قاضياً. قاتل في صفوف المهدية كأمير للعركيين ضد القوات الإنجليزية في معركة كرري حيث سقط شهيداً في ١٨٩٨.

انظر «**مذكرات أغبش**» للأستاذ الصحفي عبدالله رجب، دار الصراحة، الخرطوم، ١٩٨٨، ص ٢٠-٢١.

بقيادة الأمير البشير عجب الفيا[1]، دغيم بقيادة عبدالله أبوسوار، الشنابلة بقيادة الأمير فضل الله فضل المولى، الركابية بقيادة الأمير مكاوي أحمد والأمير أحمد السيد الركابي[2]، البطاحين بقيادة الأمير عثمان النائب[3] ومن الشمال توافد الأمير أحمد جمال الدين الجعلي في ثلة من أقاربه وشارك الأمير محمد عبدالحليم مساعد[4] بعدما صادم الجيش الإنجليزي الغازي في فركة وابوحمد قبل أن يواجههم بعزم في كرري مجدداً.. وتقادم الأمير أحمد

1 الأمير **البشير عجب الفيا:** من أبرز أمراء قبيلة كنانة.. يعد من أبكار أمراء الثورة المهدية.. قاتل الإنجليز في عدة مواقع منها موقعة أبو طليح الشهيرة بالعام ١٨٨٥.. وفي تلك الموقعة تحديداً جندل الأمير البشير الجنرال الإنجليزي الشهير بيرنبي بضربة رمح حين اشتبك المقاتلون بالجيشين بأسلوب قتال رجل لرجل.. شهد كرري وأم دبيكرات التي قتل فيها شهيداً بنوفمبر ١٨٩٩.

2 **أحمد السيد الركابي** (١٨٦٣–١٩٢٦) هو الأمير أحمد السيد ود عبدالهادي محمد دوليب الركابي. اشتهر بلقب «تمساح الكدرو». كان من أمراء المهدية في منطقة الاستوائية بجنوب السودان حيث عمل مع الأمير عربي ود دفع الله كبير أمراء المهدية هناك. رجع لأمدرمان في ١٨٩١ واشترك كأمير مقاتل في صفوف المهدية بموقعة كرري. بعد انقضاء دولة المهدية اتفق أهل منطقة الكدرو على زعامته فصار عمدة للكدرو إلى حين وفاته في ١٩٢٦.

3 **عثمان النائب:** هو الأمير النائب عثمان ود أحمد ود على ود نائل ود شاع الدين ود موسى ود نعمان ود عوض ود حسن ود حمد غرارة من فرع البطاحين العبادلة. وُلد في عترة قرب مدني. زامل الإمام محمد أحمد المهدى إبان تتلمذهما بخلوة الشيخ القرشي ود الزين بالحلاويين. بايع المهدي مبكراً وشهد معه عدداً من المواقع برفقة اهله وأقاربه المقربين. وعند تحرير مدينة الأبيّض بالعام ١٨٨٣ عيّنه الإمام محمد أحمد المهدى نائباً للأحكام (قاضياً) كأرفع االمناصب فى المهدية ولذلك سار عليه لقب عثمان النائب وبه عُرف. كان مقرباً من الإمام المهدى والخليفة عبدالله من بعده. كما كان صديقاً للخليفة علي ودحلو والأمير يعقوب بن السيد محمد. ومن ذلك انه اختار السكن بجوارهم بعد تحرير الخرطوم وإنشاء أم درمان كعاصمة وطنية جديدة فكان منزله بقرب جامع الخليفة في مكان مستشفى أم درمان حالياً. شهد كرري وأم دبيكرات مقاتلاً في صفوف قوات المهدية كأمير لقبيلة البطاحين في تلك المعارك وجُرح في أم دبيكرات قبل أن يلقى ربه بعمارة البطاحين بأربجي في ١٩٠٧. راجع مقال الأستاذ أشرف عبد الباقي أحمد بعنوان **النائب عثمان ود أحمد**.. نشر في ١٦ يونيو ٢٠١٦ بمنتدى أربجي الإلكتروني.
http://arbaji.net/forum/showthread.php?7479-%C7%E1%E4%C7%C6%C8-%DA%CB%E3%C7%E4-%E6%CF%C7%CD%E3%CF&styleid=25.

انظر أيضاً: «**موسوعة القبائل والأنساب في السودان**»، للبروفيسور عون الشريف ج ٦، ص٢٤٥٩ -٢٤٦٠.

4 **محمد عبد الحليم مساعد:** هو الأمير محمد الأمين بن الأمير عبدالحليم مساعد. ينتمي بنسبه للجعليين الجودلاب وموطنهم الأصلي قرية كمير الجودلاب أو ما عُرف بكمير ود هاشم ومنها شاع عليهم لقب الهاشماب.. والده الأمير عبدالحليم مساعد أحد أبكار أمراء المهدية كان قد سقط شهيداً في توشكي مع حملة الأمير ود النجومي. أما ابنه الأمير محمد الأمين فقد شهد معظم معارك الأنصار ضد قوات كتشنر الإنجليزية فشارك في فركة وأبوحمد وعطبرة ثم كرري وجرح فيه جرحاً بالغاً.. توفي في ١٩٤٦.. هو عم الدكتور الراحل عبدالحليم محمد وخال الأستاذ محمد أحمد المحجوب رئيس وزراء السودان الأسبق.

ود سعد الجعلي السعدابي مع رفيقه الأمير محمد ود التويم وكان هناك الجوابرة بقيادة الأمير جابر الطيب ومن دارفور وكردفان توافد الأمير محمد أحمد ود محمد ود نيباوي في قيادة ثلة من فرسان بني جرّار، الأمير تمساح أمبدي ومجموعة من فرسان دار حامد، الكبابيش بقيادة الأمير عوض السيد قريش، الكواهلة بقيادة الأمير جادالله ود بليلو وأبنيه الأمير عبدالله والأمير يونس، الجوامعة بقيادة الأمير دودية الجامعي، بني هلبة بقيادة الأمير رضوان آدم، الزيادية بقيادة الأمير جادالله عيسى، الهوارة بقيادة الأمير حامد موسى،الرزيقات بقيادة الأمير موسى مادبو[1] وأخيه الأمير عبدالحميد مادبو والأمير يس فضل، المسيرية الحُمر بقيادة الأمير علي الجلة[2] والهبانية بقيادة الأمير محمود

1 الأمير **موسى ود مادبو** (١٨٦٤-١٩٢٠): هو الأمير موسى بن الأمير مادبو بن على بن برشم (الملقب بحسكنيت) بن عبدالحميد بن ضو البيت. ينتمي لفرع الماهرية من قبيلة الرزيقات المعروفة. ولد موسى بديار قبيلة الرزيقات في ١٨٦٣ وهو ليس بأكبر أبناء والده الأمير مادبو ود علي زعيم الرزيقات عند اندلاع الثورة المهدية. ذهب بصحبة والده لمبايعة المهدي بجبل قدير على قتال المستعمرين. كان يلعب دوراً مكملاً لوالده في تنظيم وتجنيد القبائل بغرب السودان للانضمام لصفوف الثورة المهدية. فلما بعث المهدي والده الأمير مادبو ود على لحصار قوات النمساوي ردولف سلاطين باشا في منطقة دارة، كان موسى قائداً لجزء مهم من قوات الرزيقات التي بقيت مع حشد المهدي لمواجهة جيش الجنرال البريطاني وليام هكس بموقعة شيكان الفاصلة في ١٨٨٣. شهد موقعة تحرير الخرطوم كأمير لقبيلته بينما كان توجيهات المهدي لوالده تقضي بمكوثه في دارفور ببعض قواته لتثبيت دعائم الثورة وحماية ظهرها. ظل موسى على ولائه للمهدية حتى في أعقاب مقتل والده الأمير مادبو ود على في ١٨٨٧. شارك موسى ود مادبو في كرري قائداً لراية قبيلة الرزيقات المنضوية تحت لواء الراية الزرقاء برفقة أخويه عبدالحميد وعلي الذين استشهدا في الموقعة ذاتها. أبلى الأمير موسى بلاءاً حسناً بكرري ثم انسحب بقواته بعد انقضاء المعركة لديار الرزيقات بغرب السودان حيث توفي في ١٩٢٠.
مقابلة مع الأستاذ محمود مادبو ٢٠ أكتوبر ٢٠١٨.

2 الأمير **علي الجُلّة** (١٨٤٥-١٩٤٥): هو علي ود محمد ود قمر ود سلمان. ولد بديار المسيرية الحُمر بكردفان في ١٨٤٤. ينتمي لفخذ مهم من أفخاذ عربان المسيرية عرف باسم «العجايرة». و«العجايرة» بدورهم ينتمون لبيت كبير من بيوت المسيرية الحمر يقال له «أولاد كامل». كان زعيماً لقبيلة المسيرية الحمر عند اندلاع الثورة المهدية بعدما ورث زعامة قبيلته من عمه الشيخ علي مسار. بعد انتصار المهدي على قوات الحكومة بجزيرة أبا سمع بخبر هجرة ذلك الشيخ الثائر باتجاه قدير، فسارع في ثلة من فرسان المسيرية لمهاجمة تحصينات منطقة الأضية بغرب السودان ليقضي على قوات الحكومة هناك. ثم هاجر في جمهرة كبيرة من فرسان المسيرية ليلتقوا بالمهدي وهو في طريقه لجبل قدير بالعام ١٨٨١ حيث بايعوه على قتال السلطة الاستعمارية وانضموا لقواته هناك. حضر هو من معه كل مواقع المهدية منذ ذلك الحين إلى آخر معركة فيها بأم دبيكرات حين انتصرت القوات البريطانية الغازية على الخليفة عبدالله ومن معه من الأنصار. أما الجُلة فقد كان لقباً اشتهر به الأمير علي، ومناسبته أنه كان في معركة كرري رسول الخليفة الذي ينقل تعليماته لأمراء المهدية المقاتلين في أنحاء الاشتباكات المختلفة.. فضُرب مراراً بقنابل الإنجليز- التي عُرفت الواحدة منها بالجُلة أي القنبلة باللهجة العامية السودانية - ولكنه استطاع

عبدالكريم، التعايشة بقيادة الأمير عثمان الدكيم، رجالات الفلاتة بقيادة الأمير بيلو الداداري وابنه الأمير محمد، الميدوب بقيادة الأمير شيبو، فرسان من البرقو بقيادة الأمير الطاهر مكي، ثلة من البرنو بقيادة الأمير حاج إبراهيم، الحمر بقيادة الأمير مسلم عيسى، الهواوير بقيادة الأمير حامد عربي، النوبة بقيادة الأمير عبدالرحمن أنبار، البرتي بقيادة الأمير أحمد أبو جديري، الزغاوة بقيادة الأمير حسبو محمد، الفور بقيادة الأمير إبراهيم شمس الدين،ومن شباب أمراء البيت المهدوي..تقدم محمد السيد حامد[1] وعبد الولي السيد محمد. ومن أقاصي الشرق تقدم الأمير سليمان كشة سليل قبيلة الأرتيقة قائداً لراية سكان أم درمان[2]. وتوافد فرسان الهدندوة بقيادة الأمير عثمان دقنة الذي قال عنه تشرتشيل حين رَآه على رأس مقاتليه من على البعد بأنه الأمير الذي بنى لنفسه اسماً في أذهان الإنجليز بحيث لم تعد شهرته تحتاج لراية يجمع حولها مقاتليه ليتعرف عليه

برغم ذلك الإفلات من وقعها المميت بأعجوبة وتمكّن من إيصال تعليمات الخليفة بكفاءة عالية. أسره البريطانيون بعد موقعة أم دبيكرات وأُطلق سراحه في العام ١٩٠٥.

مقابلة مع السيد الصادق بابو نمر علي الجلة.. أم درمان ٢٣ مارس ٢٠١٨.

1 **محمد ود السيد حامد** (١٨٧٧-١٩١٩): هو محمد بن السيد حامد بن عبدالله بن فحل. والده حامد بن عبدالله هو الشقيق الأكبر للمهدي. استشهد السيد حامد بموقعة قدير في بواكير الثورة المهدية بالعام ١٨٨٢. انتقل محمد وإخوته -بعد وفاة والده- إلى كفالة عمه الإمام المهدي إلى حين وفاته.حفظ القرآن الكريم في سن العاشرة وكان مقرّباً من الإمام المهدي والذي أهداه عمامته وطاقيته وهو فتي صغير. اشترك في معركة كرري وهو شاب بلغ عمره عندها الـ٢١ عاماً. وهي ذات المعركة التي اشترك فيها شقيقه الأصغر عبدالله الهاشمي بن السيد حامد كأحد فرسان الطلائع الذين كُلفوا بنقل تعليمات القيادة العسكرية المهدوية للمقاتلين في مواقع الاشتباكات المختلفة من المعركة. أما محمد بن السيد حامد فقد قاتل تحت قيادة الراية الحمراء وجُرح بالموقعة ذاتها جرحاً بالغاً وأُسر بعدها ليتم نفيه مع بقية الأسرى السودانيين إلى سجن رشيد بمصر. أُطلق سراحه بعد سنوات الأسر لتحدد سلطات الاستعمارالبريطاني إقامته في حلفا ثم دنقلا حيث بدأ بعض الناس يلتفّون من حوله.. فأقلق ذلك الإدارة البريطانية لتقوم مجدداً بتحديد إقامته في مدينة سنجة. عُرف في مدينة سنجة بالصلاح والكرم وتدريس الفقه وعلوم الدين، فالتفّ من حوله مجدداً خلقٌ كثر من قبائل المنطقة التي عُرفت بولائها للمهدية وفي مقدمتها قبيلة كنانة. ولم يلبث محمد بن السيد حامد أن تصدّى بنفسه لقيادة حركة مقاومة مسلحة ضد البريطانيين بمدينة سنجة انتهت بإعدامه في العام ١٩١٩ مع عدد كبير من أتباعه بواسطة السلطات البريطانية. انظر: **الثورة المهدية في سنجة ١٩١٩** المستر آر. ايي بيلي المكتبة الشرقية درم - بريطانيا

«**The Mahdist Revolt in Singa 1919**, R.A.Bailey Durham University».

انظر أيضاً: الأستاذ حسن نجيلة: **ثورة ود السيد حامد.. رجل من تاريخ سنجة** نشر بجريدة الثورة 20 ديسمبر 1963.

2 انظر قائمة أمراء المهدية المشاركين في موقعة كرري، المصدر: **كرري.. تحليل عسكري لمعركة أم درمان،** للرائد عصمت زلفو مطابع التوحيد، مصر، الطبعة الثالثة ١٩٩٥، ص ١٤١-١٤٢.

الناس..(His fame needed no flag)!

أما عن خطة الخليفة العسكرية للمعركة فعلى الرغم من الخلل الذي تحدث عنه عدد من المؤرخين في توقيتها النهاري إلا أن ونستون تشرتشيل وصف تلك الخطة بانها كانت.. «خطة عبقرية بالغة التعقيد».

«The Khalifa's plan to attack appears to have been complex and ingenious».

ثم استطرد تشرتشيل في تقييمه للخطة من ناحية عسكرية قائلاً: «باستثناء عدم تقديره الجيد لفعالية نيران أسلحتنا الحديثة، فأن المرء منا ليس بوسعه انتقاد شيء آخر من إستراتيجية الخليفة العسكرية للمعركة»[1].

وبجانب المؤرخ الوطني الراحل عصمت زلفو صاحب أقيم الأسفار عن تلك الموقعة بعنوان (كرري)، كتب المؤرخ الإنجليزي وليام رايت بقلم درس صاحبه بدقة بعيدة خطة الجيش المهدوي لخوض المعركة من مصادر متعددة ومتباينة فقال:

«لقد كان للأنصار خطة مرنة ومناسبة لدرجة بعيدة مع طبيعة تلك الأرض. بيد أنها كانت تعتمد لحد بعيد على ردود أفعال أعدائهم والتوقيت المتصل بهذا الأمر. ولكن لسوء طالعهم، لم يكن متاحاً لديهم الإلمام بالطريقة التي سيتصرف بها الغزاة. كانت تلك الخطة تعتمد على تقدم الأمير عثمان أزرق مع مجموعة من قوات الملازمين نحو جبل سرغام ومن ثم التحول مباشرة نحو معسكر البريطانيين ومهاجمتهم من الناحية الأمامية. وهو ذات الهجوم الذي كان مقدراً له أن يكون مسنوداً بهجوم متزامن على جناحي خطوط الجيش البريطاني بواسطة الأمير إبراهيم الخليل. هذان الأنصاريان شكلا حوالي خمس القوة الكلية للجيش المهدوي الذي اجتمع في ميدان المعركة. ولكن بعضاً مما أربك الذين تتبعوا تلك الأحداث كمراقبين ومنهم مؤرخون على شاكلة اللورد أنجليسيه، كان يتمثل في ميل شيخ الدين ابن الخليفة نحو الأقاصي البعيدة لجبال كرري ومن ثم الانتظار هناك. كان مقدراً أن تتراجع قوات الراية الخضراء لتكمن

1 تشرتشل، مصدر سابق، ص ٥١١.

خلف الملازمين. بينما ستنتظر قوات الراية الزرقاء على سبيل الإحتياط خلال المرحلة الأولى من الهجوم إذا أفلح المقاتلون في إجتيازها. لقد كان أمل الخليفة يتمثل في توجيه ضربة قاضية تكون بمثابة الشراك الذي يمكن أن يستدرج عدوه نحو مخالب كماشته»[1].

و تماهياً مع ما قاله رايت، سرد تشرتشيل كيف قسم المجلس الحربي للجيش المهدوي خطته لمراحل مختلفة بحيث أن غايتها الأساسية كانت تتمثل في إجبار الإنجليز على الخروج من الزريبة التي تحصنوا بها بمدافعهم الرشاشة وتأخير إشراك قوات مقدرة من الجيش السوداني في المعركة إلى حين إنبلاج تلك السانحة ومن ثم القيام بحركة إلتفاف واسعة على جيش العدو من جهتي الجنوب والشمال لتقوم الراية الخضراء بقيادة على ود حلو بقفل الطريق أمامهم من المقدمة ومن ثم تتقدم قوات الراية الزرقاء لمهاجمتهم من الخلف وهو ما وصفه تشرتشيل نفسه برغبة الخليفة في «رؤية مصير نهائي لكتشنر يماثل النهاية التي انتهى إليها هكس وغردون من قبله»[2]. ويرى تشرتشيل أن السودانيين كان بإمكانهم تحقيق نتائج أفضل لو طُبقت تلك الخطة بحذافيرها على الرغم من توقيتها النهاري -الذي قلل من فرص نجاحها بلاشك - ولكن الأداء التكتيكي للأمراء المنفذين للخطة لم يكن بالتزامن المطلوب بحسب تفاصيلها الدقيقة. ذلك التزامن الوقتي الذي كان موجوداً في أحايين قليلة على نحو إحاطة قوى مقاتلي الأنصار بلواء الجيش الإنجليزي بقيادة الجنرال ماكدونالد، دفع تشرتشيل للقول: «لو كان هجوم الخليفة علينا بهذا التزامن الذي حدث في هذه الحالة، فإن الوضع القتالي للواء البريطاني تحت قيادة ماكدونالد كان سيعتبر ميئوساً منه لحد بعيد»[3].

ويبقى التساؤل قائماً هنا، ما الذي أخل بخطة الهجوم المتزامن الذي خطط له الخليفة؟ ولماذا فشلت ذات الخطة التي وصفها تشرتشيل بـ(العبقرية البالغة التعقيد) في أن تجسم نفسها كما أراد لها أصحابها بجبال كرري؟ مثل هذا النوع من الأسئلة تصدى له المؤرخ الوطني عصمت زلفو بخلفيته العسكرية الأكاديمية محللاً كل القرائن التي

1 وليام رايت: أمدرمان ١٨٩٨، قصة المعركة، مصدر سابق،ص ١٥٣-١٥٤.

2 تشرتشل، مصدر سابق، ص ٥٠١٢.

3 تشرتشيل، مصدر سابق، ص ٥٥٣.

توفرت لديه للوصول إلى إجابة تقارب حقيقة ما جرى. ويرى زلفو أن الجنرال برود وود قد نجح في استدراج أكبر قوة نارية في جيش أصحاب الأرض في كرري (قوات الملازمين تحت قيادة عثمان شيخ الدين) نحو معركة جانبية خاسرة حيدتها عن الالتحام مع بقية أجزاء الجيش المهدوي بتوفير الغطاء الناري لتقدم مشاة الرايتين الخضراء والزرقاء نحو المعسكر الإنجليزي. ولما فرغ شيخ الدين من تلك المواجهة الخاسرة، أدرك الخليفة عبدالله أن الحكمة تقتضي تأخير هجوم الراية الزرقاء قليلاً لحين إلتقاط فرسان الملازمين لأنفاسهم ومن ثم إصدار الأوامر لتلك المجموعة للتمركز بموقع مناسب يتيح لها دقة التصويب. وبينما كان الأمير يعقوب قائد الراية الزرقاء[1] يمارس أقصى درجات ضبط النفس وهو يجول بفرسه في مقدمة رجاله، إلتهبت نارٌ متقدة من الحماسة في نفس السيد محمد ابن الإمام المهدي. ذلك كان فتى توقفت سنوات عمره بالكاد عند مشارف الثامنة عشر حينما نفد صبره وهو يرى النيران الإنجليزية تحصد شهداء الأنصار وسط صيحات الأمير يعقوب المطالبة لقواته بضبط النفس وانتظار التعليمات. كل ذلك انتهى به لجر لجام فرسه نحو الأمير يعقوب ليصيح في وجهه بلهجة

---

1 الأمير **يعقوب بن السيد محمد** (١٨٤٠–١٨٩٨): هو يعقوب بن السيد محمد بن الشيخ علي الكرار بن موسى بن الشيخ محمد القطبي. وهو الشقيق الأكبر للخليفة عبدالله حيث كان يكبره بعام واحد فقط. ينتمي لفخذ «الجبارات» من قبيلة «التعايشة» المنتسبة لأعراب البقارة بمنطقة جنوب دارفور. كان شيخاً متصوفاً من مشايخ الطريقة السمانية قبل اندلاع الثورة المهدية حيث خلف والده الشيخ محمد بن الشيخ علي الكرار في سجادتها بدار التعايشة. التقت كفه مع كف المهدي بالبيعة للثورة عندما نزل المهدي بجبل قدير في منطقة جنوب كردفان بالربع الأخير من العام ١٨٨١. كان يعقوب أميراً ميدانياً للراية الزرقاء بقوات المهدية وهي ذات الراية التي ضمت في صفوفها معظم قبائل كردفان ودارفور وأسهمت بصورة فعالة في انتصارات الثورة المهدية على القوى الاستعمارية ومواجهاتها المختلفة مع الجنرلات البريطانيين. وصعد نجم الأمير يعقوب في مرحلة الدولة المهدية، فاشتهر بلقب «جراب الرأي» أي الحكيم الذي يُنشد عنده الرأي السديد. ويرى المؤرخ عصمت زلفو أن الأمير يعقوب قد امتاز عن معاصريه من صانعي «أوتقراطية التعايشة «بمحبة أهل أم درمان له.. ومن ذلك أنه كان مترفعاً عن التعصب القبلي واتضح ذلك بجلاء من خلال تدخلاته الكثيرة لإصلاح ما أفسده قومه وتقريب الشقة بين قبائل الغرب وقبائل النيل. فهو بحسب زلفو «كان سياسياً ناعماً متزناً مكملاً لشقيقه العنيف «. كما كان يعقوب ممن دعوا للالتحام مع القوات الإنجليزية الغازية ليلاً بدلاً من مهاجمتهم نهاراً.. في مجلس الحرب الذي سبق كرري، متفقاً في ذلك مع رأي كل من الأمير عثمان دقنة والخليفة شريف. استُشهد الأمير يعقوب في معركة كرري برصاص الإنجليز وهو يقود مقاتلي رايته نحو الالتحام مع القوات الإنجليزية بصبيحة ٢ سبتمبر١٨٩٨. انظر «**كرري.. تحليل عسكري لمعركة أم درمان**» للمؤرخ عصمت حسن زلفو، ص ٢٥٧–٢٦٠. انظر أيضاً «**رجال حول المهدي**» للمؤرخة الفرنسية فيفيان ياجي، ص ٣٦–٤٢.

متحدية: (يا الضايقين حلوها.. مُرّها ضوقوه). واندفع محمد المهدي نحو الإنجليز ممتطياً صهوة جواده بقلبٍ لم يعرف الخوف إليه سبيلاً حتى أصيب بوابل من الرصاص الإنجليزي فاخترق جسده النحيل ليتهاوى إلى الأرض شهيداً من دون أن يمنع كل ذلك فرسه من الإندفاع وحيداً نحو خط النار الإنجليزي الأول.

مشهد كالذي سبق، تزامن مع وصول الأمير علي الجلة لمشارف الراية الزرقاء وإبلاغه للأمير يعقوب تحديداً بضرورة تأخير الهجوم حتى وصول قوات الملازمين هناك. وبدا الأمير يعقوب في غاية الانفعال بسقوط ابن المهدي شهيداً بالنيران الإنجليزية فصمم على عصيان أوامر قائده قائلاً لذاك الرسول: «قول لي خليفة المهدي ودعناك الله ورسوله، الملاقاة في الدار الآخرة». وبدت العقيدة القتالية اللامبالية بالموت تأخذ موقعها مِن الجميع في تلك اللحظة، فإندفع الأمير يعقوب بجواده هو يذرع صفوف مقاتليه الأمامية قائلاً: «سبحان الله.. أكان ود المهدي الصغير دا سخى بالموت، انا يعقوب الكملت شيبي وشبابي في خير الدنيا راجي حياة بعد دا؟». ويختلف البناء النصي للرواية أعلاه اختلافاً طفيفاً دون أن يخل بمضمون الوقائع الحماسية التي أفسدت التزامن الذي انبنت عليه الخطة المهدوية فيما يوازيها من أقاصيص سماعية مروية عن شهود عيان. ومن ذلك، أن العمدة آدم يوسف والذي كان قريباً من الأمير يعقوب حينها قد روى أن مشهد استشهاد الأمير الشاب إبراهيم الخليل[1] هو الذي أفقد الأمير

1 **إبراهيم الخليل (١٨٧٤-١٨٩٨)**: هو إبراهيم الخليل بن أحمد بن الشيخ علي الكرار. ولد بدار الرزيقات وتلقي تعليمه على مستوى الخلوة هنالك قبل أن يرتحل وهو دون العاشرة بصحبة إخوته محمود وعبدالرحمن وإسماعيل للعيش في كنف قريبهم الخليفة عبد الله بأم درمان. واكتملت نشأة إبراهيم الخليل هناك من حيث معاصرته لمجتمع أم درمان المتنوع ثقافياً وعرقياً فشب عن الطوق متحرراً من الانتماءات القبلية الضيقة وكان ميالاً للنأي بنفسه عن عبث الشباب فعُرف بمخالطة كهول القوم وعلمائهم. أظهر نبوغاً عسكرياً مبكراً حين عُين أميراً لجيش الكارة المهدوي الشهير فأبلى بلاءاً حسناً في عدة مواقع عسكرية قبل معركة كرري. وكان الأمير إبراهيم الخليل من أبرز المنادين بالهجوم الليلي علي البريطانيين في معركة كرري وقال مقولته الشهيرة في مجلس الحرب الذي سبق المعركة بثقة وحماسة عالية: «كان أديتوني أرباع شيخ الدين.. الكفار بسلمكم جنائزهم الصباح». وقد جزم المؤرخ الوطني عصمت زلفو بأن «أغلب الآراء الصائبة التي قدمت في مجالس الحرب الأخيرة لكيفية مواجهة العدو كان صاحبها هو إبراهيم الخليل». لقي إبراهيم الخليل حتفه في الهجوم الشجاع الذي شنته قواته على ميمنة الجيش الإنجليزي بمعركة كرري. وهي ذات المعركة التي استشهد فيها شقيقه عبدالرحمن. وكان الأمير محمود ود أحمد شقيقه الآخر هو قائد قوات المهدويين التي تقدمت لمواجهة البريطانيين في موقعة

يعقوب صبره ووقاره المعتادين في تلك اللحظة الفاصلة، فصمت تبعاً لذلك للحيظات ثم رفع حربته عالياً وصاح قائلاً: «الأنصار وآسفاه.. العيال الصغار ناس إبراهيم الخليل روّحوا للمقام الدائم.. ونحن يانا فوق خيلنا وماسكين راياتنا.. تبلدية وقعت فوق الكفار.. تبلدية وقعت فوق الكفار.. أمسكوا راياتكم وأطلقوا خيولكم»[1]. مهما كان من أمر الروايتين، فإن خُلاصتهما كانت واحدة ألا وهي تصميم الأمير يعقوب على قيادة قوات الراية الزرقاء نحو الزحف في اتجاه الإنجليز بغية الالتحام بهم أو الموت دون ذلك. ذلك التقدم الجسور نحو النيران الإنجليزية لم يترك في نفس تشرتشيل من أثرٍ سوى خليط من الإعجاب والإكبار بتلك البسالة الفائقة التي أبداها رجال الراية الزرقاء وما انتهوا إليه من نهايات موغلة في الإباء حتى الرمق الأخير. ومن ذلك ما قال به تشرتشل:

«لقد ترفع يعقوب ورجاله الذين قاومونا في حمى الراية الزرقاء عن تولية الأدبار. فواجهوا الموت في وقفتهم الصامدة تلك. هناك في ظل راياتهم المقدسة ظلوا باقين. وعندما وصل عدوهم نحو البقعة التي كانوا بها، وجدوا الراية الزرقاء ما زالت ترفرف فوقهم وإن كانت تخفق بتعاريجها هذه المرة فوق أجساد فارقت الحياة!»[2].

ذلك المسرح المُعبأ بأرتال متتابعة من البسالة جسده المؤرخ الأمريكي روجرز حينما جزم بأن الأمير يعقوب ظل يزحف برجاله نحو الإنجليز دون أن تثنيهم جميعاً نيرانهم المميتة عن التقدم للحظة واحدة، حتى حينما لم يتبق من حوله سوى ١٥٠ من فرسانه، وذلك ما وصفه روجرز تحديداً حين قال:

«وتساقط المهدويون بفعل نيران العدو بأعداد هائلة حتى تدثرت الأرض بملابسهم البيضاء وعمائمهم الناصعة فبدا الميدان وكأنه قد تغطى بطبقة من الجليد. وتقدم يعقوب أخو الخليفة في ١٥٠ ممن تبقى من رجاله لمواجهة قوى الغزاة بمقاتليهم الذين ناهزت

«النخيلة» والتي سبقت «كرري» بعدة أشهر.
انظر.. كرري لعصمت زلفو، مصدر سابق، ص ٢٦٣-٢٦٥.

1 زلفو، مصدر سابق، ص ٥١٠-٥١١.

2 تشرتشيل، مصدر سابق، ص ٥٥١.

أعدادهم الـ٢٣ ألفاً في عمل بطولي فائق المستوى.. تتضائل أمامه كثير من معاني الشجاعة الأسطورية المنسوبة لقوات الـ Light Brigade البريطانية في حروب القرم ضد الروس»[1].

وبتفكيك الخلاصة التي انتهى إليها المؤرخ الأمريكي المار ذكره برؤية موضوعية تستصحب معها مصادر مختلفة الطابع، يبقى عسيراً على أي ذهن محايد وصم روجرز بالجنوح للمبالغة فيما ذهب إليه من نهايات موغلة في الطابع التقريري. ومن ذلك أن ذاك التصميم الحديدي الذي أبداه السودانيون الذين قاتلوا في حمى الراية الزرقاء ضد جحيم النيران الإنجليزية.. لم يكن على مبعدة من خيال العقل المبدع عند البريطانيين وقد جسد ذلك لاحقاً الرسام البريطاني المعروف John Percival Gülich«» من خلال لوحته الشهيرة التي تصور إستبسال فرسان الراية الزرقاء في الدفاع عنها. بيد أن الأثر الأعمق لتلك المقاومة الجسورة ظل متمنعاً على الإنزواء في غياهب الذهن الجماعي للبريطانيين – وبشكل أكثر دقة – على مستوى الذاكرة الصحافية البريطانية بأرشيفها الزاخر بالكثير من التفاصيل الغنية في هذا الشأن تحديداً. وفي السياق ذاته، ظلت تقارير المراسلين الحربيين بوصفها الدقيق لتك الوقائع هي الشاحذ الأكبر لخيال القارئ الراتب لصحافة بريطانيا بشغفها الجامح لتغطية تلك المواجهة الحاسمة. ويستبين ذلك بجلاء فيما نقلته صحيفة اسكتلندية مهمة على نحو «The Edinburgh Evening News» بعد أقل من أسبوع من المعركة على لسان أحد المراسلين الحربيين. وهو ذات الموضوع الذي ورد تحت عنوان «الرجال البواسل يغازلون الموت»، وجاء فيه:

«من خلال مقارنة ما خضناه من تجارب، فإن أغلبية كبيرة منا قد خلصت إلى أن أفضل استعراض للشجاعة الفائقة على المستوى الفردي قد تم تجسيده بواسطة (شقيق) الخليفة الشهير..الأمير يعقوب. لم يُظهر رجلٌ ما قدراً أكبر من الاحتقار للموت مثل ما أبداه ذلك الأمير. امتطى فرسه وهو على رأس كتلة ضخمة من فرسانه السمر وحاول

1 «أعظم رجال العالم من ذوي البشرة الملونة».. **World's Great Men Of Color**، للمؤرخ الأمريكي جي ايه روجرز الناشر: **A Touchstone Book Published by Simon & Schuster**، نيويورك، طبعة ١٩٩٦، ص ٣٠٤.

باستمرار التقدم مقترباً من مواقع قواتنا. وظل هؤلاء الفرسان يتبعون محاولاتهم الحثيثة بأخريات متتابعات وهم يعدون على صهوات جيادهم نحو خطوطنا الأمامية. كانوا يستديرون حولنا بسرعة وقد علت منهم هتافات أُلقيت على وجوهنا كما الرعد تماماً. وكلما تقدموا، كانت خطواتهم تثير سحائب كثيفة من الغبار لا ترى من خلفه إلا أجساداً متساقطة بفعل الرصاص. في لحظة ما، أمطرتهم أسلحتنا بوابل من النيران نال من أجنحة قواتهم المتقدمة وكذلك من موضع المؤخرة منها. كل الذي فعلوه، كان ميلهم نحو التمهل قليلاً ولكنهم واصلوا في احتقار أي فكرة تستدعى تولية الأدبار من مسار المواجهة وتجمعوا في كتلة واحدة كثيفة حول راية الأمير يعقوب وثبتوا في أمكنتهم وقد امتلأت نفوسهم بالعزة والإباء ليواجهوا الرصاص الإنجليزي الذي إنهمر عليهم كالمطر. هناك وقفوا مع قليل ممن تبقى على قيد الحياة من فرسانهم وهم يقاتلون بصيحات مفعمة بالشراسة والتحدي إلى أن أفناهم الموت عن اخر رجل فيهم. وباستقصاء مقاتلينا عن تلك المواجهة فإنه يمكن القول ببساطة إن هؤلاء الرجال قد تجاسروا على احتضان الموت بشجاعة فائقة»[1].

مأخوذاً بمشاهد مشابهة اعتملت بخلايا ذاكرته، وجد مراسل حربي آخر أنه لا مناص لديه من التوثيق لتلك الملحمة النادرة من منحى مختلف. وذلك أنه قد اهتم تحديداً بنقل المشهد الأخير لراية لم تسقط من سواعد حامليها إلا مع آخر قطرة أريقت من دمائهم. وقد جاء كل ما سبق في هذا التقرير الصحفي الذي ورد ببعضه:

«إن ما سنسرده عليكم هو ما كنّا شهوداً عليه بأنفسنا من شجاعة موغلة في التفاني أبداها المهدويون لدرجة جعلت من الصعب العثور على أي صنو لها في سياق روايات التاريخ وأقاصيصه المتخمة بالرومانسية. هناك حول الراية الزرقاء المطرزة بأسطرٍ مفعمة بمعاني التقوى، كنت ترى أرتالاً من جثث المقاتلين المهدويين الذين نالت منهم مدافعنا الرشاشة ورصاص بنادقنا الموجه صوبهم».

---

1 صحيفة **The Edinburgh Evening News**، الأربعاء ٧ سبتمبر ١٨٩٨،أرشيف الصحافة البريطانية. ويبدو أن الصحيفة قد أخطأت حين ذكرت أن الأمير يعقوب هو ابن الخليفة.. والصحيح أن يعقوب هو شقيق الخليفة وليس ابنه.

صمود رجال الراية الزرقاء من الجيش المهدوي في معركة كرري ١٨٩٨،
بريشة الرسام البريطاني المعروف John Percival Gülich.

ثم تمضي الصحيفة لتسرد على لسان ذلك المراسل الحربي كيف تصرَّف آخر رجلين تبقيا على قيد الحياة من رجال الراية الزرقاء حتى بعدما انقضى كل شيء ووضح أن التسليم والإستسلام هو سبيل النجاة الأوحد:

«ثبت كل واحد منهما بمكانه وقد أحكم قبضته على السارية التي إرتفعت فوقها الراية، كان كلاهما مُجرداً من سلاحه واقفاً بمفرده في مواجهة عاصفة من الرصاص والحديد. وأعقب ذلك سقوط أحدهما بطلقة اخترقت جسده. للحيظات قليلة، إرتخت قبضته المحكمة على تلك الراية المقدسة، ولكنه تماسك وجمع قواه ليتمكن بالكاد من الوقوف، من وضع كان فيه جاثياً على ركبتيه ليحكم قبضة يديه مجدداً على ذات السارية. وبذلك أبقى ذلك المقاتل على تلك الراية بألوانها الباهية عالية خفاقة ولَم يحل بينه وبين إتمام مهمته إلا الموت!.. الآن وقد تعين على رفيقه الآخر الدفاع عن هذه الراية بمفرده، كنت تراه هناك واقفاً لوحده من دون أن تبدو على وجهه أدنى إيماءة وقد إنحبست سارية الراية ذاتها بمقبض يده اليسرى. كان يبدو كالصخرة الصماء وهو ييمم وجهه نحو عدوه. وبعدما هدأت الجلبة المتصاعدة بفعل ذاك القتال المحتدم، تمكنت من إجتياز الجزء الأكبر من ميدان المعركة لأحصي بنفسي عدداً لا يقل عن الثلاثين رجلاً من رجالهم وقد تراكمت جثثهم حول الراية التي دافعوا عنها. ووجدت هناك جسد ذلك المقاتل البطل وهو مُسجى على الأرض بعدما اخترقه عدد مهول من الطلقات»[1].

كل ما تقدم ذكره من ملاحم باسلة، استبان وقعه على شاب إنجليزي غض الإهاب تخندق في مواقع العدو الغازي من دون أن يمكنه ذلك من إلجام جماح قلمه الذي تأبي مداده على المرور على تلك الوقائع دون تدوينها بما يليق بها من الدقة. ومن ذلك أن تشرشيل الذي ساقته الأقدار نحو مواجهة حرة اشتملت على قتال رجل لرجل في إحدى وقائع المعركة، قد كتب فيما بعد واصفاً بأس السودانيين حينما واجهوا الغزاة البريطانيين بقوله:

«إنهم اشجع رجال مشوا على وجه الأرض»..

1 صحيفة Norwood News and Crystal Palace Chronicle، ١٠ سبتمبر ١٨٩٨، أرشيف الصحافة البريطانية.

(Yet these were as brave men as ever walked on earth)[1].

كما قال أيضاً «لم نهزمهم ولكن حطمناهم بقوة الآلة»!

ولكن بالرجوع لخطة الخليفة عبدالله لخوض معركة كرري وتوقيتها الذي أعقب صلاة الفجر مباشرة، يبقى من المهم جداً هنا الإشارة لدور المجلس الحربي في وضع الملامح النهائية للنسق الذي تقرر أن يواجه به الجيش الوطني المهدوي قوات الغزو البريطاني. وقد أشار المؤرخ الوطني الراحل عصمت زلفو لإنحياز الخليفة عبدالله مبدئياً لفكرة الهجوم الليلي على الإنجليز. وجاء ذلك تحديداً في المجلس الحربي المنعقد بمنطقة خور شمبات بشمال أم درمان في تمام عصر يوم الخميس الأول من سبتمبر ١٨٩٨ بحضور كل من السيد المكي شيخ مشائخ السادة الإسماعيلية[2]، الأمير الشيخ عبدالقادر ود أم مريوم، الأمير جابر الطيب أمير المحس الجوابرة[3]، الأمير كركساوي

1 **Churchill and the Islamic World: Orientalism, Empire and Diplomacy in the Middle East** by Warren Dockter. Publisher: I.B.Tauris; 2015. United Kingdom, p.25.

2 **السيد المكي** (١٨٢٢-١٩٠٦): هو السيد محمد المكي بن السيد إسماعيل بن السيد عبدالله الكردفاني. وينحدر السيد المكي من أسرة هاجرت من مناطق قبيلة البديرية الدهمشية حول قرية منصوركتي بشمال السودان نحو كردفان منذ نهايات القرن الثامن عشر. كان السيد المكي من أعيان مدينة الأبيض البارزين ومن أبرز مشائخها الذين اتصل بهم المهدي مبكراً، فبايعه على الثورة منذ العام١٨٨١ وكان حينها شيخاً للطريقة الإسماعيلية. حاصر الخرطوم مع المهدي قبل تحريرها في ١٨٨٥ وقد ناهز عمره حينها الـ ٦٣ عاماً. استقر بعدها في زمرة من أحبابه ومريديه بجوار المهدي في مدينة أم درمان.. العاصمة الوطنية الجديدة بعد تحرير الخرطوم. وما زالت المنطقة التي نزل بها تحمل اسمه..«حي مكي». وسكن بجواره قريبه الأمير مصطفى البكري الذي توفي ١٨٨٩ ودفن في االمقابر الشهيرة بمدينة أم درمان والتي عرفت منذ ذلك الحين بمقابر البكري. وبعد وفاة المهدي ظل السيد المكي على ولائه للمهدية، فأكرمه الخليفة عبدالله وأنزله مكانته كحاله مع المهدي من قبل، فصار من مستشاريه وكان عضواً في المجلس الحربي المهدوي، كما كان من أبرز القيادات التي كانت تجلس بفروة القيادة العليا لجيش الأنصار في معركة كرري بجانب الخليفة عبدالله.. وبعد انقضاء المهدية رجع لمدينة الأبيض حيث توفي في ١٩٠٦. والسيد المكي هو جد السيد إسماعيل الأزهري أول رئيس لوزراء السودان بعد استقلاله من بريطانيا في ١٩٥٦. انظر «**موسوعة القبائل والأنساب في السودان**» للبروفيسور عون الشريف قاسم، الجزء السادس، ص ٢٣٧٢-٢٣٧٣. انظر أيضاً مقال بعنوان «**حي السيد المكي أم حي عبدالله خليل**» للأستاذ حسام الدين حسن عباس إسماعيل، نُشر بصحيفة الرأي العام السودانية، نوفمبر٢٠١١.

3 الأمير **جابر الطيب** (١٨٣٠-١٨٩٨): هو جابر بن الطيب بن جابر بن محمد بن عبدالرازق. ينتمي لقبيلة الجوابرة المنتشرة بين مناطق المحس والدناقلة بشمال السودان. هاجرت أسرته منذ عقود عديدة إلى منطقة بارا بشمال كردفان حيث آلت زعامة القبيلة لوالده الناظر الطيب جابر محمد عبدالرازق ومن ثم انتهت إلى ابنه جابر. انضم للثورة المهدية في أعقاب الصراع المسلح الدامي الذي دار حول منطقة

من أمراء الدناقلة بشمال السودان والخليفة علي ود حلو مع أهم أمراء رايته الأمير عبدالله ابو سوار بإنتمائهما المعروف لقبيلة دغيم بوسط السودان. وكان هناك من أقارب المهدي.. الأمير أحمد عبدالكريم وقائد الراية الحمراء الأعلى.. الخليفة محمد شريف[1]

اسحف المتاخمة لبارا بشمال كردفان.. بين القوات الموالية للنظام الاستعماري وقوات الثورة المهدية. عيّنه المهدي أميراً لأهله الجوابرة فشارك بعدها في حرب تحرير إقليم دارفور تحت قيادة الأمير محمد خالد زقل. وأشرف بنفسه على وقائع استسلام مدير مديرية دارفور النمساوي اليهودي رودلف سلاطين. شارك في حصار وتحرير مدينة الخرطوم في ١٨٨٥. واستقر بعدها في مدينة أم درمان بحي كان يطلق عليه «فريق جابر ود الطيب» بجوار بيت المال. اشترك في في معركة كرري كأمير للجوابرة تحت لواء الراية الزرقاء برفقة أخيه الأمير إسماعيل الطيب وابنيه الطيب جابر والمهدي جابر. أسفرت كرري عن سقوط الأمير جابر الطيب مع أخيه وابنه الطيب برصاص البريطانيين.. بينما انضم ابنه المهدي جابر الطيب لقوات الأنصار المنسحبة من المعركة واستشهد لاحقاً في اشتباكات عسكرية مع البريطانيين في منطقة «أبو ركبة». انظر: «**الأمير جابر ود الطيب..شهيد معركة كرري الذي لا يعرفه أحد**».. مقال للأستاذ جابر الأنصاري، نشر بصحيفة الانتباهة بتاريخ ٢٣ يوليو ٢٠١٣.

1 **الخليفة محمد شريف** (١٨٦٣-١٨٩٩) هو محمد شريف بن حامد بن محمد بن ورَّاق. ينتمي للإمام المهدي بصلة القرابة من ناحية والده.. كما ارتبط معه بصلة المصاهرة أيضاً حين تزوج بابنة المهدي الكبرى «زينب». وُلد بجزيرة لبب بشمال السودان في العام ١٨٦٣. التحق بالمهدي مهاجراً في الجزيرة أبا وكان من أوائل الذين ناصروه في مرحلة التحضيرات السرية للثورة. عيّنه المهدي كأحد خلفائه فاشتهر بلقب خليفة الكرّار تيمناً بالإمام عليّ بن أبي طالب. شارك في معظم معارك المهدية حيث كانت قوات الراية الحمراء في الجيش المهدوي تخضع لإمرته. بعد وفاة المهدي، اختلف مع الخليفة عبدالله وناصره قومه الأشراف وأهل الشمال النيلي.. فحدث نزاع على السلطة سرعان ما أخمده الخليفة عبدالله بإقصاء مناصري الخليفة شريف والزجّ بزعيمهم في سجن الساير بأم درمان.. وتدخَّل الوسطاء فحدثت مصالحة بين الخليفتين، وأُطلق سراح الخليفة شريف في ١٨٩٤ ومنُح قيادة قوات الراية الحمراء من جديد. كان الخليفة شريف في مقدمة مقاتلي الجيش المهدوي ضد الإنجليز في معركة كرري بل وكان من أبرز دعاة الهجوم الليلي على قواتهم في المجلس الحربي الأخير قبل المعركة. بعد المعركة انسحب فيما تبقى من رجاله محاولاً اللحاق بالخليفة عبدالله في أم دبيكرات للتصدي لقوات الغزو الإنجليزية مجدداً. لاحقته قوات الغزو البريطاني فأسَرته هو بعض رجاله في أثناء محاولتهم عبور النيل الأبيض باتجاه غرب السودان وأرسلتهم مكبّلين بالأغلال إلى حلفا بشمال السودان. ولم يلبث الإنجليز أن أطلقوا سراحه ولكن أخضعوه هو وأبناء المهدي الفاضل والبشرى وعلي وعبدالرحمن للإقامة الجبرية بقرية الشّكَّابة بمنطقة الجزيرة بوسط السودان في أوائل ١٨٩٩. وفي أغسطس من نفس العام اتهمته السلطة الاستعمارية البريطانية بقيادة حركة مقاومة ضدها وأعدمته قوات الجنرال البريطاني «سميث» هو وابني المهدي الفاضل والبشرى ثم أثقلت جثثهم بالحجارة قبل أن تقذف بها إلى جوف النيل الأزرق. وهي ذات الواقعة التي جُرح فيها السيد عبدالرحمن بن المهدي برصاصات استقرت بكتفه الأيمن ولكنه نجا هو وأخوه علي من حتف إخوته الآخرين وحُددت إقامة جبرية لهما بواسطة الإنجليز فيما بعد بمنطقة جزيرة الفيل بوسط السودان.

انظر: **الذكري الـ١١٦ لمجزرة الشُّكَّابة** للأستاذ محمود علي مادبو، مقال منشور بصحيفة حريات الإلكترونية بتاريخ ٢٨ أغسطس ٢٠١٥. انظر أيضاً: صحيفة «**The Standard**»، ٣١ أغسطس ١٨٩٩، أرشيف الصحافة البريطانية.

جنباً إلى جنب مع الأمير الطيب العربي والأمير يعقوب شقيق الخليفة عبدالله والأمير يونس الدكيم. وابتدر الحديث الأمير جابر الطيب مشدداً على مقترح الهجوم الليلي وفي نهاية الاجتماع بدا الخليفة عبدالله متفقاً مع الفكرة على أتم وجه فخاطب الجميع قائلاً: «سمح، كلكم متجامعين عليه؟» فلما أمنت أغلبية المجتمعين على ذلك، أرسل الخليفة لاستدعاء الأمراء وقادة التشكيلات بما فيهم عثمان شيخ الدين[1].

وعندما يتجول المرء في صحائف لحظات تاريخية حاسمة كتلك، لن يستطيع ذهن أي باحث متقصٍّ لحقائق الأشياء مغالبة الفضول الذي سيستدرج صاحبه للسبب الذي أدى لتغيير توقيت تلك الخطة الحربية الليلية نحو بواكير الصباح الذي أشرقت فيه شمس الثاني من سبتمبر على ربى جبال كرري. والذي لا شك فيه، أن الكثير من أصحاب الرأي من المثقفين السودانين قد خاضوا فيما سبق وهم أسرى لنظرية مفادها أن انفراد الخليفة برأيه المستبدّ قد دفعه لتجاهل نصائح مستشاريه وتغليبه لفكرة هجوم الصباح على الرأي القائل بمباغتة الإنجليز ليلاً. كل ذلك أرسى إرثاً صفوياً اتجه نحو تحميل الخليفة عبدالله نتائج الخسارة في كرري منفرداً. والذي نحن بصدده هنا، هو تفكيك ذلك الإرث الصفوي المتوارث ومن ثم عرضه على قسطاس المصادر التاريخية المتوفرة بما قد يفضي إلى سبر أغوار الوقائع بشيء من الدقة والمنهجية معاً.

محاولة كتلك، تستلزم استصحاب الظروف والتقديرات الميدانية المنبنية على التقارير المتوفرة لقيادة الجيش المهدوي آنذاك ومدى الأثر الذي أحدثته في إعادة صياغة الخطة بما يناسبها. وقد تعرّض عصمت زلفو تحديداً للفكرة التي اختمرت برأس رودولف سلاطين[2] بخصوص إرسال عدد من الجواسيس لإشاعة أن الإنجليز قد انتووا حفر

1 عصمت زلفو، مصدر سابق.

2 **رودلف سلاطين** (١٨٥٧-١٩٣٥): هو رودلف مايكل سلاتين. وُلد في مدينة ڤيينا النمساوية في العام ١٨٥٧. كان والده تاجراً من أصول يهودية استقرت أسرته بالعاصمة النمساوية منذ أمد بعيد. خدم كملازم بالجيش النمساوي في حرب البوسنة بـ١٨٧٨. استدعاه الجنرال البريطاني غوردون للعمل تحت إمرته في فترة ولايته الأولى كحاكم عام على السودان في أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر. عمل كحاكم لمنطقة «دارة» بدارفور قبل أن تحاصره قوات الثورة المهدية بقيادة الأمير مادبو ود علي. واضطر سلاطين للتظاهر باعتناق الإسلام طمعاً في رفع الروح المعنوية لجنوده المسلمين الذين استنكفوا القتال تحت إمرة قائد يهودي ضد بني جلدتهم. وأعلن سلاطين عندها عن تغيير اسمه لعبدالقادر سلاطين.

خنادق عديدة سيختبئ بها جنودهم سعياً لمباغتة الأنصار والانقضاض عليهم منها، مما سيجعل القوات المهدوية المتقدمة لمهاجمتهم في خطر كبير نظراً لانعدام مستوى الرؤية ليلاً ومقدرة الجنود المتخندقين هناك على مناوشة عدوهم بنيران كثيفة من مدافع المكسيم الفتاكة. وقد استطاع رجلان من هؤلاء التسلل لمعسكر الخليفة وتمكنا من مقابلة الأمير يعقوب ومن بعده الخليفة ووصفا له الخنادق المحفورة والغبار المتصاعد الذي رآوه في

كل ذلك لم يَحُل دون تلقّيه هزيمة ساحقة على يد قوات مادبو في معركة «أم وريقات» في ١٨٨٣. وبعد انتصار الثورة المهدية على قوات الجنرال البريطاني هكس، استسلم سلاطين للسودانيين وانضم لقوات المهدية المتجهة لتحرير الخرطوم في١٨٨٤. وتشتمل تلك الفترة على مراسلات بينه وبين محمد أحمد المهدي، وجه فيها الأخير أمين بيت المال بإكرام سلاطين ومنحه – ومن معه من المتحولين للإسلام من الأوروبيين– مخصصات من بيت المال. بعد وفاة المهدي، ظلت علاقة سلاطين مع الخليفة عبدالله مثار جدل كثيف. الثابت أن هنالك روايات سماعية متعددة تتحدث عن إكرام الخليفة له ومعاملته إياه بإحسان ومن ذلك تزويجه من إحدى قريباته. كما عفا عنه الخليفة– باعتراف سلاطين نفسه– بعدما سمع وشايات تؤكد ضلوعه في دسائس مناهضة للمهدية. بَيد أن لسلاطين رواية مختلفة تجسّد عنتاً واحتقاراً شديدين لقيهما في فترة المهدية. رواية كتلك، لم تجد قبولاً كافياً لدى المؤرخ البريطاني ثيوبولد فكتب قائلاً: «لقد حاز سلاطين على موضع مميز من التقدير من بين المحتجزين الأوروبيين. وقد عامله المهدويون بتكريم واحترام. وبعد تمكّنه من الهرب، قام سلاطين برد ذلك الكرم الذي أوفاه له المهدويون بكتابة مؤلفه «**السيف والنار**» الذي شدّد على كل حدث بغيض بقلمه، وشوّه كل الدوافع الحقيقية للأعمال التي قام بها الخليفة وكلّل اسمه بالسواد لكل الأجيال القادمة كطاغية متعطش للدماء ووسَمه بالوحشية نافياً عنه صفة القائد المنقذ أو المُخّلص». واتجه المؤرخ الإنجليزي نورمان دانيال نحو وصف إفادات سلاطين التي خطها في كتابه «السيف والنار» بالنفاق والمداهنة. ويعد هذا السِّفر من أهم الكتب التي عمل الضابط المخابراتي البريطاني ونجت على نشرها قبل غزو البريطانيين للسودان في ١٨٩٨. الكتاب منسوب لسلاطين بعد فراره من السودان وانضمامه للبريطانيين في مصر بالعام ١٨٩٥. بَيد أن هذا الكتاب على الرغم مما ثار حوله من جدل ما زال مرجعاً لدارسي تاريخ المهدية. عمل سلاطين كضابط قيادي بجيش البريطانيين تحت قيادة كتشنر في ١٨٩٨. ونَسبت له العديد من المصادر انتهاكات وحشية في معركة كرري. ومنها إعدام المقاتل المهدوي موسى الكاظم حرقاً بعد وقوعه في الأسر لزعمه بأن الأخير أشرف على عملية ختانه بعد ادعائه اعتناق الإسلام في فترة المهدية. وطالت تصفياته الانتقامية عدداً من الأمراء الجرحى ومنهم الأمير العريفي الربيع والذي أعدمه سلاطين رمياً بالرصاص في الميدان الذي ما زال يحمل اسمه بقلب مدينة أمدرمان.. ميدان «الربيع». وبعد استتباب الأمر للبريطانيين في السودان، تعين سلاطين مفتشاً عاماً للحكومة الاستعمارية في السودان. بَيد أنه هدد بالاستقالة من منصبه عندما قامت ثورة الأمير المهدوي السابق ود حبوبة في ١٩٠٨. ووصف سلاطين أي إجراء لا يؤدي إلى إعدام الثوار بـ«الإجراء الرحيم» الذي سيهدد تبنيه حياة الموظفين الاستعماريين في بقاع السودان المختلفة. ولم يعد سلاطين لمنصبه إلا بعد إثناء ونجت له عما ذهب إليه وجرت محاكمات سريعة قضت بإعدام رجال ثورة ود حبوبة شنقاً حتى الموت في العام ذاته.

انظر: ثيوبولد، مصدر سابق.

نورمان دانيال، مصدر سبق ذكره.

موسى عبدالله حامد: **استقلال السودان بين الواقعية والرومانسية**، مصدر سابق.

جناح القوات المصرية المصاحبة للقوات البريطانية[1]. ويتفق ما تقدم ذكره مع الإفادات التي قدمها غلام الخليفة الحبشي المسمى عبدالله عندما تم استجوابه بواسطة الإداري الاستعماري جاكسون بمنطقة بربر في حوالي العام ١٨٩٩ والذي أكد أن حادثة حفر الخنادق التي روج لها الإنجليز قد أثارت قلقاً موضوعياً في صفوف القيادة العسكرية العليا للمهدويين من فشل هجوم الليل بفعل سقوط القوات السودانية المتقدمة لمواجهة الإنجليز هناك ومن ثم تعرضهم للإبادة بالنيران الموجهة من على مقربة كافية للفتك بالكثيرين منهم[2].

ذلك النوع من المخاوف قد لا يبقى محمولاً على ما يليق بها من ثقل، إن اتجه المرء نحو نزعها من سياقها التاريخي الذي تنامت فيه بقدر كبير. بَيد أن التحليل الموضوعي لكل ذلك بإعمال أخيلة تتقمص جبة من تقدموا لمواجهة الإنجليز في تلك اللحظة التاريخية المحددة لن تقوى على تناسي حقيقة مفادها أن إدراك المهدويين لأثر تلك الخنادق كان منبعثاً من مقدرتهم على استخدام ذات التكتيك العسكري في سحق حملة الجنرال البريطاني هكس في شيكان قبل أكثر من خمسة عشر عاماً من موقعة كرري. حدث ذلك حينما اختبأت قوات الثورة المهدية بخنادق مماثلة هناك وانتظرت عبور الحملة الغازية لها لينقضوا عليهم من الخنادق طعناً من الخلف والأمام. والمفارقة الأبرز هنا هي أن صاحب الفكرة في ذلك الفخ الإستراتيجي المهم، والقائد العسكري المشرف على تنفيذه ميدانياً آنذاك، كان الخليفة عبدالله نفسه مما يوضح بجلاء أن الإعراض عن الأخطار المترتبة على الفكرة ذاتها من خلال خوض هجوم ليلي كامل لم يكن عملاً يمكن وصفه بالحكمة التامة.

على كلّ، فقد شهد المجلس الحربي الأخير خلافات حادة بين أمراء شباب على نحو الأميرين إبراهيم الخليل وعثمان شيخ الدين، طالب فيها الأول بمنحه قيادة قوات شيخ الدين على أساس التقدم نحو الإنجليز ليلاً وفي ذلك قال: «الكفار انا طالعتهم،

1 زلفو، مصدر سابق،ص ٤٠٧.

2 **Osman Digna** by H.C. Jackson. Publisher: Methuen & Co., Ltd.; First Edition edition (1926). United Kingdom, p.407.

إن أديتوني أرباع شيخ الدين، بسلّمكم جنائزهم الصباح». ونادى الأمير عثمان دقنة بمناوشة الإنجليز ليلاً وكذلك الخليفة شريف بينما ظلت مجموعة من أعضاء المجلس الحربي متمسكة - على نحو شيخ الدين- بهجوم ما بعد صلاة الفجر لأسباب متصلة بالمقدرة الأكبر على توجيه وإدارة جيش ضخم كالذي توفر للأنصار في كرري عطفاً على وجود قدر عظيم من المتطوعين الذين لن يسهل ضبط تحركاتهم تحت غطاء الليل[1]. لابد أن الوزن الحقيقي لهذين الأمرين كان يتبدى لعيني الخليفة بدرجة تختلف عما يراه بها أي متمحص لكل ما جرى بذهن تشكلت مفاهيمه بحسابات زمن يلي تلك الفترة بـ ١١٨ عاماً. ومن ذلك أن تلك اللحظة القدرية المهمة انتهت إلى استصدار المجلس الحربي قراراً بخوض المعركة عقب صلاة الفجر مباشرة بتأييد من الخليفة عبدالله نفسه. وهو ذات القرار الذي أوضح تقدم السنوات خطله الكارثي من المنظور الإستراتيجي بقدر لا يقلل من ثقل الظروف الموضوعية التي اكتنفته من خلال استصحاب التفاصيل المسوغة له في سياقها التاريخي والمنهجي.

ولكن بالعودة إلى شهادات المراسلين الحربيين التي أشرنا إليها في صدر هذا الحديث، يبقى المؤرخ الأمريكي جي إيه روجرز «J.A.Rogers» من أكثر المؤرخين المعاصرين تعرضاً لإفادات المراسلين الحربيين المدونة من خلال كتابه «أعظم رجال العالم من ذوي البشرة الملونة» فنقل أولاً بعض إفادات جي دبليو ستيفنس والذي قال واصفاً ما شاهده بنفسه في أرض المعركة:

«لقد كانت أشرس معركة في أشرس يوم.. تقدمت الراية الزرقاء.. راية الخليفة عبدالله.. مقدمة الجيش المهدوي برجالها الأشداء.. المخلصين حتى الموت.. وكان هناك خياران أمامهم.. النصر أو الجنة! It was victory or paradise» ثم يستطرد قائلاً:

«لا أعتقد أن هناك جيوشاً بيضاء قد واجهت سيلاً مندفعاً من الموت ببأسه من قبل كما واجهه هؤلاء.. ولكن هؤلاء الرجال أصحاب البشرة السمراء مع غيرهم من قبائل البقارة.. تقدموا نحو حتفهم بثبات.. هذا السيل المندفع من رصاصنا المميت اجتاح

1 زلفو، مصدر سابق، ص ٤٠٩.

صفوفهم ملقياً بحممه على جموعهم التي بدأت في التساقط وهي تتقدم تجاهنا. ورغماً عن ذلك كله، كنت ترى صفوفهم تتراص بتماسك بالغ لتتقدم نحونا بنسق متساو تماماً.. وعندما كانوا في مرمى مدافع المكسيم أو إحدى شظايانا الفتاكة.. كنت ترى صفوفهم تستبطئ التقدم أو تظن أنها قد توقفت عن الزحف إلى الأمام ولكنك ما تلبث أن تبصر مقاتليهم وهم ينتظمون بصفوف أخرى متماسكة وعصية على الانكسار بل وأكثر ثباتاً وانتظاماً من ذي قبل. وفي نواحي أخرى من الميدان.. كان المقاتلون المهدويون يجمعون صفوفهم للتقدم للأمام صفاً واحداً تلو الآخر بجسارة فائقة وكلما تتساقطت جثث قتلاهم، كلما جمع رفقاؤهم من المقاتلين صفوفاً أخرى كنت تراها تسرع الخطى نحونا للمواجهة. لقد كان هذا اليوم آخر أيام المهدية ولكنه كان بحق - أعظمها على الإطلاق. لم يتراجع العدو قط. لم تكن كرري معركة.. بل كانت حادثة إعدام أبطال. إن جاز لي أن أقول أن قواتنا قد بلغت الكمال، فلابد لي أن أقر بأن المهدويين قد فاقوا بروعتهم حد الكمال! لقد كان جيشهم في كرري من أعظم وأشجع الجيوش التي حاربناها طوال مواجهاتنا الطويلة مع المهدية. وكان دفاعهم مستميتاً عن إمبراطورية شاسعة ومترامية الأطراف أفلحوا في الحفاظ عليها لوقت طويل وبكفاءة عالية. وتصدى لنا حملة البنادق منهم ببنادقهم المهترئة وذخيرتهم المحلية التصنيع متحدين بذلك أقسى أنواع الموت بفعل الآلة الحربية الباطشة التي صنعها الإنسان، فاستماتوا متشبثين بمواقعهم لآخر رمق حول الرايتين الخضراء والزرقاء مظهرين قدراً عجيباً من البسالة. أما حملة الرماح فقد تحدوا الموت في كل لحظة حتى وإن تغشّاهم اليأس من إدراك الانتصار وصولاً للمرحلة التي أفناهم فيها الحتف عن آخرهم فلم يتبق من ورائهم إلا ثلاثة جياد». ولعل تلك المرحلة التي انتثرت فيها أجساد أصحاب الأرض بعدما تساقطت دفاعاً عنها بين جريح وقتيل، هي ذاتها التي وصف فيها ستفنس لاحقاً الحال الذي وجد فيها الغزاة هؤلاء الرجال حين اقتربوا من أجسادهم، فقال فيما يلي ذلك:

«حتى من جرُح منهم بقي ثابتاً في موقعه يصلي للرب عسى أن يكون باستطاعته أن يقتل أحداً منا قبل أن يموت». ثم يمضي ليذكر واقعةً أَسَرته بتفاصيلها كثيراً:

«وكمثال لهذه الشجاعة الأسطورية فقد شاهدت بنفسي طفلاً من أطفالهم كان في العاشرة من عمره تقريباً. رأيته يقف باكياً عند جثة أبيه القتيل في ميدان المعركة. فلما اقتربنا منه تناول بندقية ملقاة على الأرض وأطلق النار نحونا. لقد عمل الطفل الشجاع كل ما كان بوسعه عمله!»[1].

وكتب الضابط الإنجليزي «أيدون» الذي ميزته رتبة ملازم في صفوف قوات الجيش الإنجليزي المسماة بـ«21st Lancers»، كتب عما وقع عليه بصره عندما تقدمت تجاههم قوات الأمير إبراهيم الخليل:

«لقد كانوا أروع من أن توفيهم حقهم أي مجموعة من الكلمات. كنت أرى القذائف تتساقط على جموعهم الكثيفة فتفني أكواماً من أجسادهم ولكنهم على الرغم من ذلك كله كانوا يتقدمون نحونا». وفي ذات السياق نقل المؤرخ «رايت» رواية أحد الضباط البريطانيين المخضرمين ممن شهدوا تلك الجسارة الفائقة من مواقع القوات الغازية. غير أن ما أستوقف هذا الراوي تحديداً.. كان بسالة منفردة أبداها أحد المقاتلين المهدويين حينما أظهر إصراراً حديدياً نحو بلوغ الإنجليز وهو يزحف تجاههم وحيداً بعدما أفنت نيرانهم كل رجال رايته. وعندما سقط ذلك المقاتل الجسور، صاح ذاك الضابط الإنجليزي قائلاً: «يا له من رجل! هؤلاء الفتيان السُّمر يعرفون كيف يقاتلون وكيف يواجهون الموت جيداً»[2].

والذي لا شكّ فيه، أن قوات الجيش المهدوي لم تتأخر عن الإقدام عن خوض تلك المواجهة حتى حينما اتضح جلياً أن النصر بدأ يصطفّ بطلائعه في صفوف الإنجليز. مؤكداً على مبدأ النصر أو الموت الذي شكّل ذهنية السودانيين في تلك المعركة بحسب إشارة ستفنس السابقة، اتجه المؤرخ رايت مجدداً نحو التوثيق الدقيق للحظات الأخيرة من تلك الملحمة بما يجعل المشهد كله ملهماً لخيال القارئ بدرجة تفوق الوصف المجرد،

1 « أعظم رجال العالم من ذوي البشرة الملونة».. World's Great Men Of Color، للمؤرخ الأمريكي جي ايه روجرز الناشر: A Touchstone Book, Published by Simon & Schuster، نيويورك، طبعة ١٩٩٦، ص ٣٠٥-٣٠٦.

2 وليام رايت، مصدر سابق، ص ١٦٧.

ومن ذلك قوله:

«في الوقت الذي بدأ فيه ضجيج المعركة يخفت تدريجياً، وبعدما تناثرت أجساد الآلاف من الجرحى والقتلى مع بعض الذين كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة.. جنباً إلى جنب مع الجياد الصريعة، جاءت تلك اللحظة النهائية الفارقة التي صنعت مشهداً دراماتيكياً استدرج الجنود البريطانيين للتحديق في تفاصيله برهبة كافية ليبقى كل شيء مما رأوه محتفراً بذواكرهم حتى آخر لحظة من لحظات العمر. ومن ذلك، أنه عندما أدرك حوالي مائتي فارس من فرسان البقارة أن لا سبيل لديهم لتغيير نتيجة المعركة وأن خسارتهم لذلك النزال واقعة لا محالة.. عندها صمم أولئك الفرسان على القيام بتحرك بطولي وإن بدا واضحاً للعيان أنه لا طائل من ورائه. وهو ذات الأمر الذي وصفه أحد الضباط البريطانيين بأنه كان (من أعظم الأشياء التي رآها في حياته). واستطرد ذات الضابط قائلاً: (لم يكن لديهم أي أمل في قلب الموازين. لم يتوقف أو يتعثر منهم رجل واحد وهم يزحفون للأمام تجاهنا. كل واحد منهم امتطى جواده نحو الموت دون أن ينكص على عقبيه. القليل منهم تمكنوا من المجيء قريباً من الضباط البريطانيين وبالرغم من ذلك لم يتمكن أحدهم من الوصول تماماً لخط النار الأول)».

وواصل رايت حديثه قائلاً:

«وبعث فرسان البقارة ببسالتهم التي تبدت على مستوى مثالي من الروعة.. بعثوا ذهولاً امتلأت به نفس النقيب البريطاني فرانكز من موقعه المتحصن خلف مدفع المكسيم الذي صوب هو فوهته نحوهم. ووصف فرانكز نفسه ذاك المشهد قائلاً: (لن يرى الواحد منكم أي شيء أكثر إلهاماً من تلك الشجاعة اللامبالية بتبعاتها. ذلك المشهد المحتشد بتقدم أعراب السودان بدا للناظر كلوحة تشكيلية متعددة الألوان Picturesque، وتبدى ذلك حين كانوا يسرعون بخطى ثابتة لملاقاة الموت. تباعاً.. تباعاً.. تقدموا نحونا وسط وابل من الرصاص وكأن أجسادهم كانت محصنة بأرواح ساحرة أخاذة. ومن ثم بدا لنا فجأة أن وابل طلقاتنا المميتة بدأ يصيبهم، كمثل عاصفة مباغتة هبت على سفينة ما. ورغماً عن ذلك، ولمدىً ترامى على مسافة ٢٠٠ ياردة

أمامنا، ما زال هؤلاء الفرسان يتقدمون.. تباعاً ثم تباعاً.. إلى أن ذابت كتلتهم كقطعة ثلجية ضخمة تحولت في نهاياتها لأجزاء صغيرة ثم اختفت وتلاشت. وانتثرت بعدها أجسادهم العنيدة كما تنتثر أوراق الأشجار الراسخة بفعل العواصف)»[1].

ولكن بالعودة إلى ما دوّنه مراسل صحيفة «Le Temps» الفرنسية من انطباعات عن تلك الملحمة، وقعت عليها عينا المؤرخ الأمريكي فنقل إلينا تلك الشهادة كما وردت من خلال كلمات قصار موجزات معبرات تحمل مضموناً يساير ما ذهب إليه الضباط البريطانيون المار ذكرهم:

«إن المرء منا لا يملك إلا أن يحيّي بسالة هؤلاء الجنود المهدويين.. لأنهم بلاشك لا يقلون عن نظرائهم الذين كانوا تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي بسالةً وإقداماً ولاشك أن ريتشارد قلب الأسد لم يكن أشجع رجاله يفوق مستوى هؤلاء وخصوصاً عند الالتحام يداً بيد. لقد كان مسرح المعركة تراجيديا معقدة الفصول، لن تغيب بمشاهدها عن ضمير أي شاعر أو مؤرخ»[2].

بَيد أن كل ما سبق من شهادة بذلها الأعداء على موائد التاريخ بحق البطولة النادرة التي أبداها السودانيون ذوداً عن اراضيهم، لم يمنع المراسلين الحربيين والمؤرخين الغربيين من بعدهم من الاعتراف بالإبادة الجماعية والمقتلة المفتوحة التي نصبها جيش كتشنر في الجرحى العزل من قوى المقاومة السودانية المهدوية حتى بعد انقضاء المعركة. تلك الوحشية التي دمغت سلوك قوات الغزو البريطاني بعيداً عن شهامة المنتصر التي افترضها البعض فيهم، دفعت تشرتشيل للكتابة لوالدته ببريطانيا ليسرد لها بلا مواربة تفاصيل تلك المذبحة المتعطشة لدماء أصحاب الأرض، فقال فيما يلي ذلك:

«لقد تلطخ انتصارنا على المهدويين في أم درمان بعار المذابح اللاإنسانية التي ارتكبناها بحق الجرحى. وأنا أعتقد أن كتشنر هو المسئول عن كل ما جرى»[3].

---

1 نفس المصدر، ص٢٠٢-٢٠٣.

2 جي ايه روجرز، مصدر سابق، ص ٣٠٦.

3 **تشرتشيل والعالم الإسلامي: الاستشراق، الإمبراطورية والدبلوماسية في الشرق الأوسط**، وارين دوكتر، ص ٣٦.

وفي السياق ذاته كتب ونستون تشرتشيل قائلاً:

«لابد لي أن أدوّن في دفاتري أن الانطباع العام الذي كان سائداً هو أنه كلما قلّ عدد الأسرى كلما زادت سعادة القائد كتشنر. النتيجة المترتبة على ذلك كانت تصفية عدد كبير من الأسرى المهدويين بواسطة قواتنا. تقريباً كل من استسلم منهم تمت تصفيته بواسطة القوات المصرية والسودانية العاملة تحت إمرتنا»[1].

وكتب المراسل الحربي البريطاني إرنست بينيت مُقرّاً بالمذابح الوحشية التي ارتكبها الجيش الإنجليزي قائلاً في ذلك:

«إن استعمال الأساليب الوحشية من قِبلنا في تصفية الأسرى صار تقليداً متبعاً عندنا في حروب السودان». ومضى ذلك المراسل الحربي لتحديد ما يعنيه فيما سبق حين قال: «أنه في حكم المؤكد – وفي حالات عديدة – أن قواتنا قامت بذبح جرحى مهدويين غير مسلحين وعاجزين تماماً لأسباب مبعثها اللامبالاة والشهوة العارمة لسفك الدماء»[2]. بيد أن بينيت لم يقف بشهاداته الصادمة عند ما سبق، بل تفرّد هو بكونه أول من كتب من البريطانيين مقراً باستباحة الإنجليز لمدينة أم درمان من خلال توجيه رصاصهم للمدنيين العزل من الأطفال والنساء، وفي ذلك قال:

«في بعض اجزاء مدينة أم درمان، كان المرء منا يستطيع السير بشقّ الأنفس لمسافة خمسين ياردة دون أن تلقاه جثث رجال ملقاة هناك. ويؤسفني القول هنا أنه في بعض الأحايين كانت تلك الجثث لنساء وأطفال أيفاع. على أقل تقدير، يمكنني القول بأنه كان هناك حوالي ٤٠٠ من جثامين هؤلاء القتلى ترقد مبعثرة على شوارع المدينة وطرقاتها. بعضهم تم الاعتداء عليهم بقذائف من طراز (Lyddite)، بينما اخترق رصاصنا أغلبية تلك الأجساد». كل ذلك دفع مؤرخاً إنجليزياً اتسمت كتاباته بالموضوعية على نحو وليام رايت للإقرار في سِفره القيم «أم درمان ١٨٩٨، قصة المعركة» بأن البريطانيين قد ارتكبوا – بحسابات القرن الحادي والعشرين – جرائم حرب مؤكدة في معركة كرري

1 وليام رايت، مصدر سابق، ص ٢١٨.

2 وليام رايت، مصدر سابق، ٢١٩–٢٢٠.

وما تلاها من أحداث[1]. وفي المسار ذاته، اتجه المؤرخ الإنجليزي نورمان دانيال للقول بأن سكان مدينة أمدرمان قد تناقصت أعدادهم بفعل تلك الأهوال من ١٠٠-٤٠٠ ألف من المدنيين في عهد الدولة المهدية إلى ٤٠ ألفاً منهم بعد انقضاء معركتي كرري وأم دبيكرات ومن ثم استتباب الأمر للإنجليز بحسب إحصائيات العام ١٩٠٧[2].

و في اتجاه موازٍ لما ذهبت إليه كلمات تشرشيل عن النصر الملطخ بالعار الذي اقتنصه الإنجليز في كرري، خَلُص المؤرخ البريطاني رايت إلى أن:

«معركة أم درمان قد شكلت حضوراً دائماً في الذهنية البريطانية عطفاً على كونها خليطاً غريباً من المجد والعار. استغلت فرقة الـ«21st Lancers» مثلاً مشهد تقدُّم الأنصار في هجومهم على مواقعهم التي تحصن فيها حملة البنادق منهم لشحذ خيالهم الذي وصف ما جرى. وفيما بعد ذلك، لم ينشغل الكُتّاب والمؤرخون بالكيفية التي قاتل عليها البريطانيون بقدر ما انشغلوا بالكيفية الجسورة التي واجه بها المهدويون الموت»[3].

وتطرَّق المؤرخ الأمريكي روجرز بشكل أكثر توسعاً للروح الانتقامية العمياء التي تميزت بها قيادة كتشنر الميدانية لمعركة كرري فذكر كيف أنه أمر بإعدام ٢٠ ألف جريح ببربرية تتنافى مع كل قيم الإنسانية مما عرّضه لانتقادات جارفة في البرلمان البريطاني في حملة تزعّمها اللورد ريتشارد ريدموند والذي لَقَّب كتشنر بـ«جزّار أمدرمان». ولعل من سخرية الأقدار أن كتشنر نفسه لقي حتفه بعد كرري بـ١٧ عاماً بصورة مأساوية في العام ١٩١٦ حينما غرقت الباخرة التي كانت تقله قبالة شواطئ روسيا الشمالية فلم يُعثر له على جسد حتى الآن.. رغم جهود سلاح البحرية الملكي البريطاني والتي امتدت لقرابة العام بحثاً عن حطام السفينة الغارقة! وألهمت تلك الحادثة شاعراً باكستانياً مجيداً طبقت شهرته الآفاق على نحو العلامة محمد إقبال لدلق حبر قوافيه على الورق من خلال قصيدة شبّه فيها كتشنر الذي ابتلع جسده بحر الشمال البارد بفرعون مصر الذي

1 نفس المصدر، ص٢٢٢.

2 نورمان دانيال: **الإسلام، أوروبا والإمبراطورية**، مطبعة جامعة إدنبرة، شركة إلداين للنشر، المملكة المتحدة، ١٩٦٦، ص ٥٦٢.

3 وليام رايت، مصدر سابق،٢٣٦-٢٣٧.

تعقب نبي الله موسى مستعرضاً البحر.. واتجه إقبال في الوقت ذاته لتمجيد المهدي بعد عقود عدة من وفاته كقائد لثورة نازلت القوى الاستعمارية وأجرى على لسان روحه نداءات عميقة للقادة العرب والمسلمين لجمع الكلمة في مواجهة المد الاستعماري، وفيما يلي هنا بعض أبيات القصيدة التي سبق وأن أشرنا إليها من قبل في سياق مختلف:

الضوء الهائج يبرق من فوق مياه..
الموج الصاخب يتلوّى هدّاراً نحو مداه..
الفوح العاطر يضوع شذاه..
من زهرٍ يملأ جنات الله..
تبدت روح المهدي..
وهجٌ منه..
أذاب لؤلؤةً سكنت بجوف محارة..
بدّد ثقلاً.. أوطأ كتشنر ببأس حجارة..
هتف المهدي..
كتشنر.. لو كان لك عينان تبصر بهما..
فلتنظر عاقبة الانتقام من أشلاء درويش..
الجنة لا تمنح قبراً لأشلاء رجلٍ مثلك..
لم يعد لجسدك متكأ..
سوى جوف البحر المالح..
ثم تهدجت بحلقه كلمات..
وانفلتت من شفتيه تنهيدة ينفطر لها القلب..
يا روح أمة العرب.. إني أناديك.. صاح قائلاً..
انهضوا مثل أسلافكم.. اصنعوا العصور القادمة..
فؤاد، فيصل، ابن سعود..
إلى متى تنكفئون على أنفسكم..
مثل ألسنة من دخان..

أعيدوا إلى الدنيا.. ذلك اليوم الذي انقضى..
امنحينا يا أرض.. خالداً آخر..
أنشدونا ترانيم الوحدة تحت رايات الله..
هذه السهول.. ألا ترون فيها النخل يمتشق شامخاً
ألم يعد فيكم فاروقٌ آخر لينهض فينا ثائراً؟[1]

ثم وصف صاحب الكتاب المؤرخ الأمريكي «J.A.Rogers» ما حدث بعد ذلك:

«لقد أبقى الخليفة عبدالله على جذوة المقاومة مشتعلة إلى حين سقوطه في أرض معركة أم دبيكرات.. بينما ظل العنيد عثمان دقنة مقاوماً حتى وقع في الأسر». وهو ذات المعنى الذي ذهبت إليه كلمات مؤرخ بريطاني مهم على نحو فيرغس نيكول حين تعرض لتلك الأحداث مشدداً على أن الخليفة عبدالله «رغم الهزيمة فإنه رفض الإستسلام، وأياً كانت طريقة حكمه، لم يكن في استطاعة أحد أن يشكك في شجاعته. وحتى بعد الكارثة في جبال كرري كان مستعداً ليحارب حتى النهاية، إلا أن أتباعه أبعدوه بالقوة»[2].

وبالعودة إلى ما ساح فيه روجرز من مصادر وفيرة بخصوص الوقفة الأخيرة للمقاومة المهدوية ضد الإنجليز، نجد أنه لم يغفل - كشأن أي مؤرخ حاذق- عن إيراد خلاصة ما ارتآه مما انتهى إليه بعد استعراض إفادات المراسلين الحربيين الذين حشد تقاريرهم في مقدمة دراسته، فقال فيما يلي ذلك:

«ولكن ستظل المهدية أعظم مثال للبطولة والتفاني يمكن أن يوفره لنا التاريخ الإنساني».

«The Mahdists are as fine an example of heroism and devotion as history provides»[3].

1 من ديوان **Nama Javid** لمحمد إقبال، ترجمه للإنجليزية آرثر جي أربري، أعادت نشره **Kazi Publication**، الولايات المتحدة، ٢٠٠٧.

2 **أم دبيكرات.. جولة بين مراقد الشهداء ومعسكرات الجرحى** للمؤرخ الأستاذ عبدالرحمن إبراهيم الحلو، كتاب تحت الطبع. انظر ايضاً: فيرغيس نيكول، **سيف النبي مهدي السودان**، ترجمة د. عبدالواحد عبدالله يوسف، ص٤٣٩.

3 روجرز، مصدر سابق، ص ٣٠٧.

أثر موقعة كرري في دفاتر الأدب العالمي..

وفي سياق الأثر الذي احتفر بالعقل الإنساني المبدع على مستوى العالم تفاعلاً مع أحداث معركة كرري، لم يكن من الغرابة أن تلهم تلك البسالة التي أبداها السودانيون في مواجهة الغزاة البريطانيين قوافي شعراء أماجد على نحو الإنجليزي هنري سوتريس الذي قال في قصيدته المعنونة بـ«سقوط أم درمان».. (The Fall of Omdurman):

السودانيون..
تقدموا نحونا أخيراً بصيحات كوقع الرعد..
خالطتها غبطة منا لمطالعة الأعداء..
زحفوا تجاهنا.. لا يطلبون سوى..
المجد أو الموت!
في كتلة واحدة.. تقدموا للأمام..
من مقدمة صفوفهم.. إلى آخرها..
ظلوا يزحفون.. حتى اقتربوا منا..
وهم يحملون راياتهم..
التي هاموا بها عشقاً..

ثم تطرقت القصيدة بأبياتها لصمود السودانيين في معسكر المقاومة حتى نقطة النهاية في مجابهة المدافع الإنجليزية المميتة:

وقفتهم الباسلة لا طائل من ورائها..
بيد أنهم ثبتوا هناك حتى آخر رمق..
جرحى وملطخين بالدماء..
في حمى الأمير..
وفي أيديهم رايتهم التي..
أمسكت بها سواعدهم..

بصلابة لا تعرف الارتخاء[1].

وكتبت مجلة نخبوية بريطانية مهمة اسمها «**The Nineteenth Century**» لتسدي ثناءً عظيماً على ثبات السودانيين في وجه آلة بريطانيا الحربية الباطشة دفاعاً عن ترابهم، فاستشهدت بأبيات إنجليزية مأثورة للشاعر البريطاني الفريد تينيسون للإشارة إلى تماهي تفاصيل تلك القافية مع المشهد المهيب في كرري.. ومن ذلك قوله:

مدفعٌ مصوب نحوهم من الميمنة..
وآخر يتلقاهم من الميسرة..
وآخر يترصدهم قبالة الواجهة..
ووابل من الرصاص يرعد في وجوههم..
ولكنهم..
بجرأة فائقة..
امتطوا جيادهم..
وتقدموا بجسارة..
نحو فكّي الموت[2].

عودة لأصداء معركة كرري على مستوى عالم القرن التاسع عشر

وبالعودة نحو الأضابير التي كانت تحتل موقع القلب من إمبراطورية بريطانيا ذاتها، يمكن الإشارة بثقة إلى أن الغزو الإنجليزي للسودان لم يكن محلاً للإجماع لمن أراد أن ينشد الدقة. وقد يأتي كل ذلك على الأقل من باب المبررات التي بذلتها الجهات الرسمية البريطانية سعياً لخلقنة وشرعنة عملية الاحتلال نفسها ومن ثم تسويقها على المستوى الشعبي البريطاني. وذلك أن عملية إعادة احتلال السودان بواسطة بريطانيا قد تزامنت مع تنامي تيار محلي بريطاني قوامه مجموعة من المسلمين الإنجليز الذين تحولوا حديثاً

1 **The March to Khartoum and Fall of Omdurman**, Written By Private Henry Sutrees, Printed By Parkins & Son, Church Street, Westminister, London, (Undated), 8 - 9.

2 مجلة «**The Nineteenth Century**»، أكتوبر 1898، أرشيف الصحافة البريطانية.

من المسيحية للإسلام. وكان في زعامة ذلك التيار القانوني والمحامي المعروف وليام كويليام والذي عُرف بعد تحوله للإسلام بعبدالله كويليام أو شيخ الإسلام ببريطانيا. وعُرف كويليام أيضاً بكتاباته الصحفية الراتبة بصحيفة إنجليزية مهمة على نحو «The Crescent». وقد أفلح كويليام في إرساء القواعد الباكرة لأول مجتمع إسلامي محلي بمدينة ليفربول الإنجليزية بعدما نجح في جعل أكثر من ٦٠٠ مواطن بريطاني يعتنقون الإسلام بفضل مجهوداته الدعوية الحثيثة. والذي لا شك فيه هو أن كويليام قد اصطفّ بجلاء بجانب الثورة المهدية ودولتها الوطنية في مواجهة القوات البريطانية الغازية منذ وقت مبكّر سبق معركة كرري بحوالي العامين من الزمان. وقد جاء ذلك في سياق ما عرف عنه من إدانة متكررة لاستخدام القوى الاستعمارية الأوروبية لبعض المسلمين من البلدان المستهدفة لمساعدة قوى الاحتلال الأجنبية على غزو أوطانهم من خلال القتال في صفوف المحتلين ضد بني جلدتهم ومواطنيهم. ومع اكتمال معالم ذلك السيناريو الذي حذّر منه كويليام، اتجه الأخير نحو استصدار منشور مهم دعا فيه المسلمين للإعراض عن تقديم أي عون للقوى البريطانية الغازية في مسيرتها نحو إعادة احتلال السودان. وجنح كويليام في ذات الخطاب لوصف المقاتلين المهدويين الذي تأهبوا لصد الغزو البريطاني بالمسلمين الذين يدافعون عن تراب أوطانهم وعقيدتهم ضد قوى محتلة غاشمة.. ومن ذلك منشوره الشهير الذي ورد فيه ما يلي:

بِسْم الله الرحمن الرحيم

«السلام على عباد الله المعتصمين بالإيمان الحق ممن سيصلهم هذا المنشور..

اعلموا أيها المسلمون أن الحكومة البريطانية قد قررت بدء عملياتها العسكرية ومجهوداتها الحربية ضد مسلمي السودان الذين تأهبوا لها بدورهم بحمل السلاح دفاعاً عن اراضيهم وعقيدتهم. الحكومة البريطانية تدرس الآن كيف تستعمل المقاتلين المسلمين لينخرطوا في قتال اخوتهم من مسلمي السودان. إن حمل المسلم للسلاح ضد أخيه المسلم لهو أمر مخالف لشريعة الإسلام وشرع الله ونبيه الكريم. إننا نحذر أي مسلم حقيقي متمسك بدينه من تقديم أي مساعدة في مشروع الغزو الذي يُحاك ضد مسلمي

السودان ولو من باب المساعدة على حمل أو توصيل طرد بريدي أو تقديم قطعة خبز أو جرعة ماء لأي شخص سيشارك في هذه الحملة العسكرية التي تستهدف مسلمي هذا البلد، فهو بهذا العمل يعين هؤلاء الذين لا ينتمون لملة هذا الدين الحنيف على من هو على ملته من المسلمين»[1].

و عند انجلاء الغبار الذي تصاعد من قبل حاجباً نتائج معركة كرري عن العالم الخارجي، تلقف العالم أنباء البسالة الفائقة التي أظهرها السودانيون في مواجهة الآلة الحربية البريطانية الباطشة. مأخوذاً بما سمع عن كل هذا، أسال كويليام مداده قائلاً:

«على الرغم من تسليحهم المحدود مقارنة بأعدائهم، إلا أن مسلكهم القتالي كان جديراً بالتقدير وكذلك كانت بسالتهم وما عُرف عنهم من إقدام مما أتاح لهم مساحة عصية على الاندثار بالذاكرة سياق سجلات الشجاعة التي أبداها المسلمون بعصورنا الحديثة».. ومضى كوياليام لأبعد من ذلك حينما وصف المقاتلين المهدويين الذي سقطوا شهداء في ساحة جبال كرري دون أن يتزحزحوا عن مواقع المقاومة للنيران الإنجليزية قيد أنملة، فقال في ذلك:

«هؤلاء هم الرجال الذين تجري بأوردتهم دماء الحرية المقترنة بالولاء للوطن. هؤلاء هم الذين استحسنوا أن يواجهوا الموت برجولة فائقة في أرض المعركة بدلاً من التسليم لعدو سيسومهم ذُل الهوان. هؤلاء هم الذين فضلوا الشهادة دفاعاً عن تراب بلادهم التي أحبّوها»[2].

وعلى الرغم من إفراد الصحف البريطانية لمساحات مقدرة بصفحاتها وهي تتحدث عن الجسارة التي تقدم بها السودانيون لمواجهة جيوشهم الغازية إلا أنها كعادتها لم تغفل أبداً عن إسداء القدر المعروف من التمجيد الذي تعودت أن تزجيه لجنود الجيش البريطاني في مواجهاته الاستعمارية فيما وراء البحار.. وهو ذات التمجيد

1 **Islam in Victorian Britain: The Life and Times of Abdullah Quilliam** by Ron Geaves. Publisher: Kube Publishing Ltd 2017, UK, pp. 329 - 330.

2 صحيفة **The Crescent** البريطانية، ١٤ سبتمبر ١٨٩٨، أرشيف الصحافة البريطانية.

الذي إستقبله صحفي بريطاني – على نحو كويليام– برؤيته الغيرية.. بقدرٍ مهول من السخرية الحارقة. ففي السياق ذاته، جنح كويليام لتعريف مسلك البريطانيين في كرري ضمناً بالجُبن اللائق بمجموعة من القراصنة قبل أن يخلص إلى أن النصر الذي اقتنصه الإنجليز لن يمنع الشرف والفخار من تكليل أجساد السودانيين الذين قاموهم حتى آخر رمق في كرري، ومن ذلك قوله:

«هذه الشجاعة التي يتبجح بها البعض بكثرة وينسبونها للجنود البريطانيين.. أين هي؟ أليس هؤلاء هم الذين أغواهم الشغف بأسلحتهم الإجرامية فطفقوا ينشرون الموت والدمار على كل ما حولهم. ألم تكن القوات البريطانية هي التي إحتمت بمساحة آمنة من عدوها وهي تنثر وابلاً من الرصاص على هذا الحشد من المقاتلين الوطنيين النبلاء الذين امتازوا بالبسالة الكافية بذات القدر الذي أعوزهم فيه حسن التسليح؟ ضعوهم معكم في مكان واحد بحيث يكون كل رجلٍ منهم في مواجهة رجلٍ منكم بفرص متساوية وأسلحة مماثلة.. وعندها.. من منكم يستطيع ان يشكك في النتيجة التي ستنتهي عليها تلك المواجهة؟ لاشك أن صيحات النصر كانت ستصدع بها حناجر المهدويين عندئذ. هذا النصر الذي حققه الجنود البريطانيون هو ذات النصر الذي يستطيع أن يحوز عليه القراصنة واللصوص والمنتهبون لآراضي الشعوب. نعم، من الممكن القول بأن النصر قد وقف في صفوف البريطانيين بذلك اليوم. ولكن الشرف والكرامة سيرقدان للأبد مع أولئك العشرين ألف من الرجال بأجسادهم الصريعة التي ستستحم ببياض ثيابها رمال الصحراء. إن الدخان المنبعث من حروب السودان هو ليس بشاهد على شيء بقدر شهادته على مقدار الجرم الإنجليزي هناك»[1].

وعلى ذات الخطى مضى السياسي الإنجليزي المناهض للإمبرالية ويلفرد بلنت حين نشرت له صحيفة «Weekly Freeman» تصريحاً مهماً، قال فيه:

«لم تكن مذبحة نصبها الإنجليز هناك بلا رحمة وحسب بل كانت قرباناً لا حاجة لنا به تم تقديمه بوحشية فائقة، لأن حكم الخليفة لم يكن بذلك السوء الذي تم تصويره

1 صحيفة **The Crescent** البريطانية، ٢١ سبتمبر ١٨٩٨، أرشيف الصحافة البريطانية.

لنا. وبالنظر لحملة الغزو نفسها، فإننا نعلم جميعاً كيف أن المراسلين الحربيين قد تغاضوا عمداً عن ذكر تفاصيل المذبحة اللا أخلاقية التي أُرتكبت في حق الجرحى المهدويين والتي كانت نسقاً ثابتاً في كل اشتباكاتنا معهم.هؤلاء المراسلون الحربيون كانوا يتمتعون بمواهب أخرى غير الصمت المطبق إزاء ما شهدوه. تلك المواهب تجسدت في التسليم لمغريات الخيال بشكل كبير وتمثل ذلك تحديداً فيما جرى في السودان».

وعلقت الصحيفة ذاتها على تلك التصريحات قائلة: «مهما يكن من هذا الأمر، فإن أي رجل إنجليزي وطني حقيقي لن يسعه إلا الإقرار بأن هذا النصر الذي ظل يتم التباهي به والذي لم يكن في حقيقته سوى عمل دموي، وبلا ضرورة ملحة وبشكل أكثر تعميماً فقد كان عملاً مملوءاً بالخزي والعار». ومضت الصحيفة في اختتام مقالها قائلة:

«إنه في حكم المؤكد تماماً، أن المسلك الذي اتخذه السير هربرت كتشنر في التعامل مع أعراب السودان لم يكن مختلفاً من ذلك الذي ميز القوات الإنجليزية في التعامل مع المزارعين الإيرلنديين في العام ١٧٩٨ و بالتحديد فيما أعقب معركة **Ballinamuck** حينما تم تقتيل الآلاف من الرجال والنساء والأطفال بتعسف بالغ»[1].

وظلت جرائم الحرب الإنجليزية التي أعقبت معركة أم درمان حية في أذهان الكثيرين حتى بعد مرور ما قارب العام على ذكراها الأولى. وليس أدل على ذلك من شيء مثل انشغال السياسي القومي الإيرلندي البارز وأستاذ دراسات القانون الجنائي بالجامعة الوطنية الإيرلندية « **J. G. Swift MacNeill**» بتلك المسألة تحديداً، حين كتب مقارناً بين الممارسات الوحشية للقوات البريطانية المنتصرة في أمدرمان وما شابه ذلك من سلوك اتسمت به مواجهات الإنجليز مع الثوار الإيرلنديين في تاريخ الصراعات الطويلة بين الطرفين. وجاء ذلك المقال الذي تصدت صحيفة «**Freeman Journal**» لنشره في صفحاتها الأمامية.. تحت عنوان «أم درمان في ١٨٩٨ وإيرلندا في ١٧٨٩»[2].

بيد أن كل ما تقدم لم يكن سوى النزر القليل مما أردنا أن نسوقه لتبيان أصداء

1 صحيفة **Weekly Freeman**، السبت ١٧ سبتمبر ١٨٩٨.

2 مقال بتاريخ ٢١ يونيو ١٨٩٩، أرشيف الصحافة الإيرلندية، صحيفة «**Freeman Journal**».

الاستنكار العالمية للمسلك الدموي لمن جاء بِخَيْله ورَجْله ليحتل ديار الآخرين تحت ذريعة إدراجهم في مسالك الإنسانية والتحضر. فبعد انقضاء كرري تعالت أصوات أكثر حدة مما سبق وأن أشرنا إليها، لتستصغر هذا النصر الذي تسربل بوحشية إنجليزية فائقة في التعامل مع الأسرى السودانيين امتدت بقسوتها لتشمل المدنيين الأبرياء في الكثير من الأحيان. ويبقى التقدم نحو تحليل تلك الانتهاكات بالمصادر الإنجليزية نفسها منفذاً مهماً لتحليل حقائق الأشياء بموضوعية تبتعد عن المغالاة وإلقاء الكلام على عواهنه. وفي السياق ذاته، يحسن بنا الإشارة لمجهودات أكاديميين بريطانيين انتشرت مؤخراً هنا وهناك للاعتراف بجرائم الحرب الإنجليزية في حملة غزو السودان بأواخر القرن التاسع عشر ومن ثم إخضاعها لعين البحث العلمي الفاحصة التي بمثلها تستقيم حقائق التاريخ. ومن ذلك ما أوردته المؤرخة البريطانية ميشيل جوردون بدراستها القيمة حول الانتهاكات الدامية لبريطانيا الاستعمارية في مواجهاتها العسكرية بالسودان وأنحاء أخرى من العالم وهي ذات الدراسة المفصلة التي أهلتها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة لندن العريقة. بيد أن ما امتازت به هذه الدراسة عن غيرها، كان هو ميلها للتوثيق لتلك الانتهاكات منذ المواجهات العسكرية الباكرة والتي قاومت فيها القوات المهدوية الجيش البريطاني في وقائع سبقت كرري بأشهر عديدة. ففي معركة النخيلة التي جرت بجوار مدينة عطبرة، كفلت الآلة الحربية للبريطانيين نصراً موضوعياً على قوات الأمير محمود ود أحمد المدعومة بقوات أمير الشرق عثمان دقنة في تلك الموقعة التي جرت ببدايات أبريل ١٨٩٨. وقد إستبانت فيما بعد تلك الواقعة ممارسات موغلة في القسوة المناقضة لأبجديات الأنسان المتحضر من خلال تصفية الأسرى والمدنيين من الأطفال والنساء بوسائل بريطانية مبتكرة. وكان من ضمن هذه الوسائل الإقدام على حرق الأسرى بالنار حتى الموت وهو ذات ما تطرقت له ميشيل جوردون حين قالت:

«اشتملت التكتيكات الأخرى التي إستعملتها القوات الأنجلو مصرية على حشد قوات المقاتلين المأسورين من أعدائهم داخل أكواخ من القش ومن ثم إشعال النار بها لإجبار العدو على شيئين: إما الخروج للعراء أو الاحتراق حتى الموت بداخل تلك

الأكواخ. ونتيجة لذلك أسرع بعضهم للخروج من تلك المحرقة فتم اصطيادهم بالطلقات النارية بينما لقي البعض حتوفهم حرقاً بالنار بداخل الأكواخ نفسها»[1].

مشاهد دموية، كتلك دفعت الضابط الإنجليزي ساموبل فيتزغيبون لتدوين ما وقعت عليه عيناه بعد ذلك، فكتب قائلاً:

«انتثرت جثث القتلى المهدويين والحمير والبغال وبعض من الجمال جنباً إلى جنب مع أجساد القتلى والجرحى من النساء والأطفال في مشهد احتشد بقدر من الارتباك يصعب وصفه تماماً، لقد كانت رائحة كل شيء أشبه بمسلخ لذبح الحيوانات». وفي سياق مماثل، بدا ضابط إنجليزي آخر على نحو «Unsworth» على قدر أكبر من الوضوح حين تحدث عن التعليمات العسكرية التي صدرت لهم بتصفية الأسرى أو الجرحى من المهدويين، حين قال: «أُمرنا بالتأكد من أن كل رجل من الأعداء قد لقي حتفه قبل أن نتركه وراءنا. لقد أطعنا الأوامر وكان ذلك هو ما فعلناه بالضبط»[2].

كل ذلك دفع المؤرخة ميشيل جوردون للجزم قائلة:

«لقد تبدى جلياً أن الإجهاز على الجرحى المهدويين، كان جزءاً من ممارسة واسعة درجت على استخدامها الحملة الإنجليزية هناك. وقد أظهر الذين انخرطوا في تلك الأفعال قليلاً من الندم تجاه ما اقترفوه. ومن ذلك أن السجلات المدونة عن المعركة تشير إلى أن قدراً كبيراً من القوات الغازية لم تر أعداءها من المهدويين ككائنات بشرية مثلهم تماماً. هذا الاتجاه – لتجريد السكان الأصليين من أهل السودان عموماً والأعداء المقاتلين خصوصاً – من الإنسانية كان واضحاً في كل الآثار المدونة عن الحملة الإنجليزية هناك»[3].

1 **British Colonial Violence in Perak, Sierra Leone and the Sudan** by Gordon, Michelle. Doctoral Thesis (PHD) Royal Holloway, University of London,August 2017, p.148. https://pure.royalholloway.ac.uk/portal/files/28666886/British_Colonial_Violence_in_Perak_Sierra_Leone_and_the_Sudan.pdf

2 جوردون، مصدر سابق، ص ١٤٩.

3 نفس المصدر.

وبدا واضحاً أن الإقدام على تلك المجازر دون إظهار «قليل من الندم على إقترافها» يستدعي وجود متلازمة إنسانية مجبولة على الاستعلاء العِرقي على الآخرين تسوغ بقدر كبير لتلك الوقائع في سياقها التاريخي الذي يناسب المسار الذي جرت عليه الأحداث. وفي الشأن ذاته، كتبت المؤرخة الإنجليزية جوردون لتقول:

«لكي نتفهم السياسة الوحشية التي اتّبعتها القوات البريطانية ضد المهدويين والمدنيين السودانيين، من المهم أن نتدارس التعصب العنصري وعقدة الاستعلاء العرقي المنتشرة في بريطانيا وعبر عموم إمبراطوريتها في نهايات القرن التاسع عشر. كانت العنصرية مسوغاً بالغ الأهمية لتبرير الإمبرالية البريطانية وبالتالي جرى استخدام ذات المفهوم بوضوح تام في مرحلة الحملة البريطانية بالسودان»[1].

وتقدمت جوردون بمنهجية بحثية دقيقة الأثر لسبر أغوار ما انتحت إليها كلماتها بأمثلة حية من الوثائق البريطانية التي دونها بعض البريطانيين المشاركين في حملة غزو السودان لاحقاً فأشارت لمحاولة تنميط الطبائع التي تميز أعراب السودان في نموذج موحد موغل في النظرة الإستعلائية. ومن ذلك ما انتهى إليه المراسل الحربي «Burleigh» حين وصف كل واحدٍ منهم بالجمع المتفرد بين سمات الكسل والوحشية والإجرام[2].

ذلك النوع من العنصرية الصفوية – إن صحّ استخدام اللفظ هنا– قد لا يجد العقل البحثي مناصاً من التحلل من إساره دون استكشاف ما يوازيها من عنصرية إستولت بأسها على أخمص خلايا الذهن لدى من احتلوا مواقعاً أدنى في مراقي السلم الاجتماعي للحملة الإنجليزية نفسها. وفي الإطار ذاته، قد يبقى مناسباً استعراض بعض الأدبيات المكتوبة من قبل جنود بريطانيين شاركوا في حملة غزو السودان ومن ذلك ما قال فيه أحدهم وهو يصف ما اعتمل بذهنه حينما وقعت عيناه على جثث شهداء الجيش المهدوي التي انتشرت في سهل كرري عقب الموقعة:

«ذلك المكان الملعون، تركناه ليتقيح كالجرح المتعفن. تركناه كشيء ما يقلى على قدح

---

1 جوردون، مصدر سابق، ص ١٧٠.

2 جوردون، نفسه.

من الزيت بكل ما فيه من القذارة الحافلة بشهوانية مقيتة ومتسربلة بدماء تلك الأجساد. وإنبعثت هناك الروائح القذرة من تلك الجثث الكريهة كبخار متصاعد إلى السماء بشكل يبرر عملية انتقامنا منهم»[1].

تلك اللغة المتطرفة في الاستعلاء على الخصوم في خندق المقاومة كان بعضها نتاجاً طبيعياً لسياسة دعائية بريطانية منظمة سبقت حملة الغزو العسكري للسودان بسنوات عدة تحت إعداد ضابط بريطاني حميس استدرجته عوالم «البروبغاندا» المخابراتية بأوتادها المنغرسة على مزيج من أنصاف الحقائق وبعضٍ من دنيا الخيال. ذلك كان بلا جدال الجنرال ريجنالد ونجت بصيته الذائع فيما يلي كل ذلك. بيد أن ذات الحملة الدعائية التي اختمرت تفاصيلها بعقول الجنود البريطانيين لم تلبث أن اصطدمت بوقائع مغايرة حينما حانت ساعة النزال الفاصلة في كرري. ومن السهل القول هنا، بأنها ذات السانحة التي أُعد لمواجهتها الجندي الفيكتوري بقيم معرفية أُتخم بها الذهن الشعبي الإمبريالي ببريطانيا حتى صار إلصاق سمتي الوحشية والتعصب المرادفتين للهمجية بترافق حثيث على خصوم الإمبراطورية فيما وراء البحار.. أمراً لا يبعث على مجرد التشكيك أو إعادة التحقق. بيد أن ذلك كله، لم يكن بمنأي مما يستوجب مراجعة تلك القناعات الإنجليزية الراسخة في الكثير من الأحيان، وبالأخص حين وقعت أبصار المقاتلين في صفوف البريطانيين بكرري على جيش سوداني منظم وحسن التدريب بشكل لا يحتمل الفرضية التي تتحدث عن أن السودانيين الذين قاتلوا تحت رايته كانوا مجموعة لا تجمعها صفات سوى ما جُبل على تصوره الذهن الفيكتوري آنذاك. ومن أبرز من تزلزلت لديهم تلك القناعات، كان ونستون تشرتشيل الذي قارن بين مراحل النزال المختلفة التي قاومت فيها الثورة المهدية المد الاستعماري البريطاني وفي ذلك قال: «الذين واجهناهم في شيكان كانوا غلاة في الانتماء لعقيدتهم، الذين قاتلونا بموقعة أبوطليح كانوا محاربين وطنين يدافعون عن أرضهم (Patriots)، أما الذين واجهناهم في أم درمان فكانوا مقاتلين نظاميين محترفين ". وقال عنهم أيضاً: «إن أعراب السودان الذين هزمهم

---

1 **Empire on The Nile**, Daly, M.W, Published by Cambridge University Press (2004),UK,PP 6.

كتشنر كانوا يقاتلون تحت رايات جيشٍ يبعث الانتماء لصفوفه على الفخر» [1].

وكفلت العقود المتعاقبة على تلك الوقائع، مناخاً أكثر موضوعية بالنسبة للمؤرخين البريطانيين اللاحقين لتحليل كل ما تقدم ذكره بمنهجية أكثر إعتدالاً واقتراباً من حقائق الأشياء. تلك النقطة توقف عندها تحديداً أستاذ التاريخ البريطاني البروفيسور إدوارد سبيرز حينما خلص إلى أن: «الأمر الذي أدركه البريطانيون هو أنهم لم يكونوا في مواجهة جمهرة عشوائية جامحة من الغلاة المتعصبين كما كان يُعتقد، بقدر ما أنهم كانوا يواجهون الآن قوة عسكرية معادية حسنة التنظيم»[2]. وكتب الضابط الإنجليزي فرانك عن مشهد تقدم الجيش المهدوي المرتب الصفوف لأرض المعركة وما تلى ذلك من مشاعر استولت على نفسه لم تكن في حقيقتها سوى مزيج من الرهبة والإعجاب بذلك المشهد الملهم [3]. وهو ذات الأمر الذي خاضت فيه المؤرخة جوردون حين قالت: «أن الفكرة القائلة بوصف المهدويين على أنهم مجموعة من الغلاة المتعصبين لم تكن سوى أداة سياسية تم استخدامها بجلاء لتسويغ حملة الغزو البريطانية وهي ذات الفكرة التي بان نقيضها تماماً على أرض المواجهة العسكرية»[4].

و بالرجوع قليلاً إلى الوراء، لن يصعب القول بأن ميل القوات الإنجليزية نحو الإجهاز على الأسرى والجرحى المهدويين لم يكن قاصراً على ضباطهم وجنودهم فقط. فقد جرت تلك الوقائع أيضاً في تماهٍ مع ما وصفته المؤرخة الإنجليزية جوردون بـ«حرص البريطانيين على استغلال الصراعات الداخلية السودانية وتوظيفها لمصلحة سياسة تقسيم الشعوب لتسهل السيطرة عليها **Divide and rule**».. تم تشجيع بعض السودانيين القادمين مع الجيش الغازي على تصفية الأسرى والجرحى من بني وطنهم.. ذلك كان عين ما عبر عنه المراسل الحربي الإنجليزي بينيت حين قال:

1 ونستون تشرتشل، مصدر سابق، ص ٧٦.

2 **Campaigning Under Kitchener**, Spiers, PP 69. A Chapter from (**Sudan: The Reconquest Reappraised**).

3 جوردون..مصدر سابق..ص ١٦٥.

4 جوردون، مصدر سابق، ١٦٧.

«ببساطة شديدة يمكن القول بأن السماح للمرافقين غير الرسميين لجيشنا بالنهب والتقتيل، كان أمراً مخزياً وتم تحت المراقبة المباشرة لعيني جنرال بريطاني معين». واتجه بينيت ليدون ما عاصره بوضوح أكثر قائلاً:

«وقيل إن الأوامر قد صدرت للقضاء على الجرحى. إن كان ما سبق صحيحاً أم لم يكن فإنه لا يمكنني الجزم بذلك. ولكن الذي لا شك فيه هو أنه لم يصدر إعتراض من أي أحد عندما قام من معنا من السودانيين بإعدام أرتال من الرجال الذين كانت أجسادهم مسجاة على الطريق»[1]. كل ما مر ذكره، تصدت جوردون لوصفه بميل البريطانيين لاستخدام المصريين والسودانيين الذين جاءوا ليقاتلوا تحت لوائهم فيما أسمته بـ«المعادلة الصفرية العسكرية» أو «Zero sum game» للقضاء على المقاومة المهدوية[2].

وبالرجوع لمذكرات بعض الجنرالات البريطانيين يستبين مجدداً أن عملية استباحة أم درمان لم تكتمل أركانها إلا بمشاركة وقيادة البريطانيين أنفسهم ومن ذلك ما قاله الجنرال هنتر واصفاً ما جرى بلا مواربة:

«الآن بإمكاننا الإستمتاع كصبية صغار يلاحقون مجموعة من الفئران بمخزن للحبوب في مزرعة ما. فقد أنفقنا النهار وما بعده من وقت ونحن نقتحم البيوت، نتردد بين الأزقة، نركل الأبواب بأقدامنا، ونكسر البوابات والمنافذ ونحن نلاحق هؤلاء الشياطين في كل مكان. معظمهم استسلم لنا ولكننا قتلنا رغم ذلك ما تراوح بين الـ٣٠٠ إلى الـ٤٠٠ منهم»[3].

ودوّن الجنرال هنتر لاحقاً في مذكراته، أن ذلك اليوم الذي قضاه وهو يقود جنوده في حملة لاصطياد الأسرى والمدنيين العزل من أهالي أم درمان – ممن أسماهم بالشياطين – ومن ثم تصفية المئات منهم بدم بارد، قد انتهى بـ«إحتسائي لقدح من الشوربة الساخنة

1 صحيفة **The Edinburgh Evening News**، الجمعة ٣٠ ديسمبر ١٨٩٨.

2 جوردون، مصدر سابق، ص١٧٣.

3 نفس المصدر، ص١٦٣.

مع كأس من أفضل أنواع الشمبانيا ومن ثم خلدت إلى نومٍ عميق امتد حتى مطلع الشمس بعدما انقضى يوم من أفضل أيامي»[1]. وكتب هنتر نفسه في موضع آخر عن استباحة مجموعات من جنوده في الليلة التي أعقبت المعركة لشرف «أجمل فتيات أم درمان»..سبياً واعتداءاً[2].

غير أن النصر الذي أثمل هنتر حتى إستلقى على فراشه وفي فمه ذائقة خمر لاذعة، لم يقابله أي قدر من شهامة المنتصر على الأقل حين يبقى الحديث متصلاً باللؤم الذي اتسمت به الطريقة التي عاملت بها القوات الغازية أهل المدينة المحتلة. ومن ذلك أن القوات البريطانية قد عمدت إلى الاستيلاء على ما بقي معهم من حبوب ومؤن غذائية عنوةً. ودفع ذلك مراسلاً صحفياً شفيف القلم وهو الإنجليزي «بينيت» للكتابة عن تلك الواقعة تحديداً بلهجة موغلة في السخرية، فقال «إن القرويين البسطاء الذين تم إجبارهم على تسليم ما كان معهم من الغذاءات إلى جنودنا المتخمين بمصادر الغذاء الوفيرة، ليس من المتوقع أن يدرك الواحد منهم البركات التي تنزلت عليهم بفعل إنضوائهم تحت لواء الحماية البريطانية»[3].

قراءات ميدانية صادقة كتلك، لم تغب عن فطنة باحثة ومؤرخة حاذقة على نحو جوردون حين إستندت على بعضها لتخلص إلى أنه «يمكن القول بوضوح أن النهب كان ممارسة ثابتة درجت على إتباعها القوات الأنجلو مصرية في إعقاب انتصاراتها على طول البلاد هناك»[4].

وفي معرض تأكيده على تورط القوات الإنجليزية الغازية بجرائم حرب مؤكدة في أعقاب معركة كرري،رسخ المؤرخ وليام رايت ما سبقه إليه المراسل الحربي بنيت بما أورده رايت نفسه عن مراسل حربي آخر نقل واقعة كان الأخير شاهداً عليها. وفي تلك الواقعة تحديداً قام ضابط قيادي مرموق في حملة الغزو البريطانية وهو النمساوي

1 نفسه، ص١٦٤.

2 جوردون، مصدر سابق، ص١٦٣.

3 نفس المصدر.

4 نفس المصدر، ص١٦٣.

اليهودي رودولف سلاطين باستصدار أوامره لأحد السودانيين المرافقين لقوات الغزو بتصفية بني وطنهم بدم بارد فما كان من الأخير إلا التنفيذ على الفور. تلك هي ذات الواقعة التي نقلها وليام رايت عن المراسل الحربي ليونيل جيمس فقال فيها:

«لقد تم إرتكاب العديد من جرائم الحرب البريطانية - على الأقل بمقاييس القرن الحادي والعشرين- بشكل مؤكد. وقد ذكر المراسل الحربي ليونيل جيمس أنه كان مرافقاً لسلاطين باشا حينما عثرا سوياً على صبي يافع وهو يجر مقود حمار كان على ظهره مقاتل مهدوي جريح. وعندما علم سلاطين أن ذلك الرجل لم يكن سوى عثمان أزرق، سحب ذلك النمساوي شفتيه إلى الخلف كما يفعل الذئب وانقض على الأمير الجريح لينزله من فوق الحمار مصدراً أوامره لأحد جنود الغزو السودانيين بقتله طعناً. بعض الكتاب مثل فيليب زيغلر قد يجادلون بأن ذلك لم يكن الأمير عثمان أزرق الذي لقي حتفه في المعركة قبل ذلك في وقت سابق من ذلك اليوم. بَيد أنه من الصعب تماماً القول بأن جيمس قد إختلق هذه الرواية حيث أنه قد أكد إحتفاظه ببعض متعلقات ذاك الأمير كتذكار لتلك الواقعة. وهي ذات الواقعة التي نرجح فيها تورط سلاطين بتصفية مقاتل مهدوي غير معروف بدم بارد»[1].

وبمضاهاة ما تعرض له «رايت» من انغماس سلاطين في تصفية الأسرى والجرحي المهدويين مع مراجع الروايات الشعبية التي حفلت بها الذاكرة الشفاهية لأهل أم درمان، يبقى كل ما سبق مقترناً بالمزيد من الأقاصيص الموازية من حيث الوحشية والدموية المفرطة. ومن ذلك ما عُرف عن سلاطين بحرصه على تصفية الأمير الجسور «العريفي الربيع» - والذي سقط جريحاً في أعقاب دخول البريطانيين للمدينة – بميدان فسيح بغرب أم درمان وهو ذات الميدان الذي خُلد في الذاكرة الشعبية للسودانيين بإسم ميدان الربيع وما زال إلى اليوم قائماً في ذات الموضع الذي تمت فيه عملية إعدام الأمير الشهيد المار ذكره[2].

1 **قصة المعركة: أم درمان ١٨٩٨**، وليم رايت، مصدر سابق، ص ٢٢٢-٢٢٣.

2 مقال بعنوان «**ميدان الربيع بأم درمان**» بقلم الأستاذة جميلة حامد. نشر بصحيفة الانتباهة بتاريخ ١٢ أكتوبر ٢٠١٢.

شهادات متفرقة كتلك، بتباين مستوياتها من حيث الأهمية والدقة والتنوع المصدري، قد تدفع المتأمل في تفاصيلها للعودة في مسار دائري مكتمل لمقولة المؤرخ البريطاني «رايت» الجازمة بانشغال المؤرخين- لاحقاً في سياق تحليلهم لموقعة كرري - بالكيفية الجسورة التي واجه بها المهدويون الموت.. بقدر أكبر من الكيفية التي قاتل بها البريطانيون عطفاً على ما وصفه هو بالنصر الإمبريالي بطبيعته «الممتزجة بالعار». وهو ذات المسار الدائري الذي يرتمي في مداه التحليل الموضوعي الذي قامت به المؤرخة جوردون لطبيعة الحدة والمنعة التي اتسمت بها المقاومة المهدوية السودانية للجحافل الإنجليزية وما جاوبهم به الغزاة من عنف مضاد. وجاء في ذلك قولها:

«لقد تم تصنيف المهدية كعقبة أساسية تعترض سبيل المشروع الإمبريالي البريطاني. وقد تم ذلك التصور في سياق الهزيمة التي أذاقتها من قبل للبريطانيين وما صاحبها من وقائع مقتل غردون. كل ذلك كان أمراً وثيق الصلة بجعل العنف الذي اتسمت به تلك المواجهات أكثر راديكالية» [1]. وهو ذات العنف المفرط الذي واجهه السودانيون في معسكر المقاومة بصلابة تأبت عقدتها العصية على الإنحلال حتى فارقت الأنفاس منهم الصدور.. وبقيت أجسادهم العنيدة راسخة في مربع المقاومة ومتحصنة لآخر قطرة دم ضد انكسار الهزيمة، فنقش كل ذلك أثراً عميق الأغوار بدهاليز الذاكرة الصحافية للبريطانيين قبل سواهم من شعوب الدنيا. ولعله ذات الأثر الذي كتبت عنه صحيفة بريطانية مرموقة مثل «Bradford Daily Telegraph» حين قالت:

«إنه لمن المستحيل تماماً على كل من شهد تلك الوقائع أن يكون محصناً ضد التأثر بما أظهره المهدويون من شجاعة بطولية. لحظة بعد لحظة، كانت جموعهم المتناثرة تعيد تنظيم نفسها للتقدم نحونا، حتى أتت لحظة ذابت فيها تلك التكتلات وتحولت لمجموعات صغيرة قبل أن تتلاشى من الوجود تماماً.كان أمراؤهم يتقدمون للأمام متحدين الموت وهم يزرعون الحماسة وسط الجنود. بعضهم كاد أن يصل إلى مواقعنا قبل أن يغرقه مدٌّ جارف من الرصاص. حتى الجرحى منهم كانوا يغالبون الموت ببأسه ليتمكن أحدهم

1 جوردون، مصدر سابق، ص ١٩٩.

من إطلاق آخر رصاصة على عدوّه قبل أن يلقى حتفه»[1].

وقائع كتلك التي بسَطنا في فضائها الفسيح شهادات حية متباينة،قد لا يجد أي ذهن متمحص في تفاصيلها الغنية بالمشاهد التراجيدية.. خاتمة أفضل مما دوّنته وكالة رويترز للأنباء عنها وتناقلته عدة صحف - كان في مقدمتها «ليدز ميركري» الإنجليزية- حين خلصت إلى أن بريطانيا لم تتمكن من العبور فوق أجساد السودانيين المرتمية في تراب كرري لإتمام عملية إعادة احتلال السودان إلا باستعمال القوة الماحقة للنيران الإنجليزية المميتة. وقد تمثل ذلك بجلاء في تلك الكلمات الموجزة:

«تفاصيل القتال التي وردت إلينا من وكالة رويترز للأنباء تفيد بأن المهدويين قد استماتوا مظهرين أكبر قدر ممكن من الشجاعة وظلت حشودهم تتقدم للمواجهة وهم يعيدون الكرة تلو الأخرى من دون أن يتخلفوا عن زحفهم المتواصل نحو الخطوط التي تمركزت فيها قواتنا. ولم يتيسر لدينا تحطيم هؤلاء الرجال إلا بالقوة الماحقة لأسلحتنا وما أعقبها من عاصفة عاتية من الرصاص إنهمرت عليهم»[2].

1 «**Bradford Daily Telegraph**»، الثلاثاء ٦ سبتمبر ١٨٩٨، أرشيف الصحافة البريطانية.

2 صحيفة «**Leeds Mercury**»، ١٠ سبتمبر ١٨٩٨، أرشيف الصحافة البريطانية.

الباب الرابع عشر

الحملة الدعائية البريطانية ضد الثورة المهدية:
قراءة تحليلية في ملامح إرثها الاستعماري..
وما صاحبها من أصداء عالمية

الحملة الدعائية البريطانية ضد الثورة المهدية: قراءة تحليلية في ملامح إرثها الاستعماري.. وما صاحبها من أصداء عالمية

قد يَحسُن بنا في أحيان عديدة النظر للتاريخ من زاوية اتفاقه مع علوم إنسانية أخرى. ومن ذلك أن الفعل التاريخي يعقبه – في الأغلب – فعلٌ مُساوٍ له في المقدار ومُضادٌّ له في الاتجاه. ذلك المزج المعرفي بين العلوم، قد يستدرج حقائق الأشياء لمقاربات تختلط فيها وقائع التاريخ بمعادلات الفيزياء في سفور بائن. مثل هذه التوطئة قد يسهل التقدم على وقعها لسبر أغوار الحملة الدعائية البريطانية ضد المهدويين بتوقيتها المستبق لإعادة احتلال السودان بقيادة الجنرال البريطاني كتشنر في نهاية تسعينيات القرن التاسع عشر. بيد أن تلك الحملة الدعائية لم تكن لتستأثر باهتمام جمهرة من المؤرخين لولا الميل العولمي الذي اكتنف كتابات معاصرة لها نحو اعتمادها كمصادر صمدية للتاريخ المهدوي. تلك هي ذات المسلمات التي تقدم لنقدها بشكل منهجي.. مؤرخ بريطاني رائد على نحو بيتر هولت في خمسينيات القرن الفائت. واستتبع هولت في خطاه مؤرخون اخرون ما زال لأقدامهم أثر محتفر في تحليل «البروبغاندا» البريطانية ضد المهدية باستدامة غير منقطعة.

بَيد أن كل ما تقدم لن يمنع الذهن البحثي من تحاشي المأزق المترتب على السؤال القائل: «ما جدوى إعادة استعراض ما حصحصه المؤرخون من قبل، وما هي صلة كل ما سبق بالأصداء العالمية للثورة المهدية؟»؟. تساؤلات موضوعية كتلك، ستجد إجابات راسخة في المد الذي تكاثف أثره من الدراسات البحثية المهمة والتي ما زالت

تتابع إلى يومنا هذا فيما يختص بالفكرة ذاتها. لاشك أن مياهاً كثيرة من الكتابات المنهجية قد جرت تحت جسر ما قام به هولت من عمل مهم. وأسهمت الثورة المصدرية التي تزامنت مع ظهور الإنترنت في إجلاء الغبار عن مصادر جديدة لم يكن الوصول إليها سهلاً دون ما يليق بذلك من مشقة مميتة. بيد أن ملامسة أعماق ما استجد من دراسات رصينة في الشأن ذاته، يفتح الباب واسعاً نحو استكشاف مغارات معرفية جديدة. ومن ذلك أثر «البروبغاندا» البريطانية على سلوك الجندي البريطاني في كرري وما صحب ذلك من انتهاكات موغلة في الوحشية. ويستبين التخلق الدائري لفكرة البروبغاندا نفسها من خلال إفادات المراسلين الحربيين التي تسربت لصحافة بريطانية بلهجتها المحتجة على ما سبق من سلوك. كل ذلك خلق حالة من التوهان الأخلاقي إلتبست هؤلاء المراسلين وهم ينقلون تلك التجاوزات للقارئ البريطاني والعالمي دون أن ينفوا عن أنفسهم جنحة الصمت حيال نتائجها. وتخلقت تبعاً لذلك الأثر أصداء مهمة.. لن يستصعب الذهن افتراض سطوتها على عدسة الباحثين عن حقيقة ما جرى إبان نهايات الثورة المهدية ودولتها.

على أن التعلق بأهداب المنطق حيال الفكرة ذاتها يستدعي اتفاقاً حول تفهم العوامل الموضوعية التي تنامت على قواعدها تلك الحملة الدعائية. مثل هذا النوع من التفهم يجب أن ينطلق من رؤية موضوعية لخندق الوعي المناهض للمهدية في سياق العقل الأوروبي المعاصر لأحداثها. ويمكن اعتبار حملات البروبغاندا نفسها على أنها حمّالة أوجه. ومن وجوهها العديدة ما يتبدى لنا سافراً فيما أعقب هولت من دارسات. فهناك وجه صليبي بائن القسمات عززته كتابات الرهبان والقساوسة نتيجة ما حاق بأعمالهم من خسران عقب اندلاع الثورة.و أفلحت الآلة الدعائية البريطانية في الإفادة منها بإستثارة المشاعر المسيحية القديمة ضد الإسلام ومن ثم استثمارها في رأس مال الرأي العام الإمبريالي المناهض للمهدية. مثل هذه الوجه-مع ما سواه من الوجوه الأخرى- يُعد مما يستلزم استعراضه وتفكيكه بشكل أكثر دقة لحصحصة أثره على معادلة البروبغاندا بأكملها.

لم يكن من السهل على قوى عالمية عظمى كالإمبراطورية البريطانية، التسامح مع

دولة مستقلة ومعادية لنفوذها بطول حدود مصر الجنوبية إحدى أهم مستعمراتها غير الرسمية. فطوال سنوات الثورة المهدية ومنذ فجر اندلاعها الأول وحتى نهايات دولتها التي امتدت لما قارب السبعة عشر عاماً، تساقط جنرالات بريطانيون كثر في مواجهاتهم مع المهدية بدءاً من وليام هكس وتشارلز غوردون ومروراً بالجنرال وليام ايرل، الجنرال بيرنبي واللورد سانت فنسينت وآخرين. وغني عن القول، أن بنية الوعي النفسية للبريطانيين بخصائصها القائمة على مرتكزات التفوق الإمبريالي الساحق على خصوم الإمبراطورية قد ووجهت بهزة عنيفة نالت من ثقتهم الأزلية في حتمية تفوق آلتهم الحربية فيما وراء البحار. وقد أشار الباحث الإنجليزي جون بيك للحالة التي إلتبست الذهن الفيكتوري جراء مقدرة الثورة المهدية على الخروج منتصرة في مواجهاتها المتتابعة مع جنرالات بريطانيا مصطلحاً على تسميتها بحالة «شكوك بريطانيا في مقدراتها الذاتية» أو «Britain's Self Doubt». وهي ذات الحالة النفسية الجماعية التي أرجعها «بيك» للبعد الرمزي لنتائج صدامهم المسلح مع المهدية وما أعقبها من وطنية غلواء انتظمت الجميع. وقد سار كل ذلك بخطى موازية لدعوات متعاقبة لرد كرامة بريطانيا الجريحة في عصرها الفيكتوري المجيد. لذا اتجه بيك للإشارة لحالة الإستقطاب السياسي الحاد في الأواسط النخبوية الفيكتورية التي تبعت تلك المواجهات فجزم قائلاً فيما يلي ذلك:

«لابد من أن سيادة الأحاديث المنمقة المرتبطة بالغلو في الوطنية تعبر - على الأقل في جزء منها- عن إحساس عام انتظم الجميع بالافتقاد لحالة الشعور بالأمان التي اعتادوا عليها»[1].

وتتابعت استدارة عجلات الأحداث لتتصاعد بالتدريج دعوات عديدة للثأر من السودانيين الذين ثاروا تحت رايات المهدية فأسقطوا غردون قتيلاً على عتبات قصره بالخرطوم كما أسقطوا زمرة أخرى من جنرالات بريطانيا في نزالات عسكرية متفرقة. بيد أن تلك الأصوات المتناثرة لم تستطع أن توجه مسار الرأي العام البريطاني بقدر ما

1 **War, the Army and Victorian Literature** by John Peck.Publisher: Palgrave Macmillan 1998, United Kingdom.

استطاع أن يؤثر عليه ضابط استخباراتي مغمور على نحو فرانسيس ريجنالد ونجت[1]. وتبعاً لما تقدم، صنع ونجت لنفسه اسماً مدوياً بفضل قيادته الثعلبية للحملة الدعائية الاستخباراتية التي سبقت غزو الجيوش البريطانية للسودان في نهايات القرن التاسع عشر.ويبقى من الأهمية بمكان هنا، الإشارة إلى أننا لا نود بتلك الدراسة المخصصة لحملة «البروبغاندا» البريطانية ضد المهدية، مغالطة حقائق الأشياء التي كانت تشير إلى انقسامات الجبهة الداخلية السودانية في أواخر عهد الدولة المهدية بفعل سياسات الأقصاء و«أتوقراطية» الإثنية الواحدة التي بدأت تنجرف إليها الأمور في سياق مخالف لبدايات الأشياء في بواكير الثورة المهدية، فذلك مبحث مختلف تصدى له العديد من البحاثة من قبل ومنها سفر المؤرخ الوطني محمد محجوب مالك المهم بعنوان «المقاومة الداخلية للحركة المهدية (1881 – 1898م)».

ولكن بالعودة لما أشرنا إليه من قبل بخصوص مجهودات ونجت الاستخباراتية للقضاء على المهدية، قد يستصعب المرء تجاهل ما قالته الباحثة الأمريكية «ميريل ويسباك» في ورقتها العلمية المهمة بعنوان (لماذا يكره البريطانيون السودان، حرب المهدية ضد لندن). ومن ذلك أنها قد خلصت في ورقتها تلك إلى أن اهتمام ونجت المهووس بالمهدية كثورة هو الذي قاده لحياكة حملة دعائية ناجحة ضد المهدية ومن ثم تسنمه

1 **ريجنالد ونجت** (١٨٦١–١٩٥٣): هو فرانسيس ريجنالد ونجت. وُلد في مدينة غلاسكو الإسكتلندية بمنتصف العام ١٨٦١. ينتمي لأب موسر عرف بامتهان تجارة المنسوجات في المدينة ذاتها.التحق بالأكاديمية العسكرية الملكية في منطقة ولويتش البريطانية وتخرج منها ملازماً في ١٨٨٠. خدم بلاده في مستعمرات الهند وجنوب الجزيرة العربية قبل ان يلتحق بخدمة القوات البريطانية في مصر. اشترك في عملية إعادة احتلال طوكر بواسطة القوات البريطانية بعد مواجهة حامية استبسل فيها رجال الأمير عثمان دقنة في العام ١٨٩١. عُرف بولعه بالعمل الاستخباراتي واستعان على ذلك بإتقانه وحُسن إلمامه باللغة العربية. تعين لاحقاً رئيساً لقلم المخابرات الاستعمارية بمصر حيث هندس من خلال موقعه ذاك الحملة الدعائية ضد المهدية والتي سبقت إعادة احتلال السودان بواسطة البريطانيين.كان المخطِّط الأساسي لعمليات تهريب الأسرى الأوروبيين على نحو سلاطين وأوهروالدر. كما تعتقد جمهرة مقدرة من المؤرخين بنسبة ما ألفوه من كتب إلى قلم ونجت المخابراتي لتوظيف تلك الأدبيات كوقود لحملة البروبغاندا التي هيأت الضمير العالمي لتقبل عملية استعمار السودان والتصالح مع دوافعها. عمل حاكماً عاماً للسودان في ١٨٩٩ خلفاً لكتشنر قبل أن يتقلد وظيفة إدارية بريطانية مرموقة في مصر على أيام ثورة ١٩١٩ والتي تزعمها سعد زغلول. ومن أهم محطاته بعد السودان شغله لوظيفة القائد العام للجيوش البريطانية في الحجاز حيث كان له دور استخباراتي مهم – مع ضابط المخابرات البريطاني تي أي لورانس «لورانس العرب» – في تفاصيل الثورة العربية الأولى ضد العثمانيين بالعام ١٩١٦.

لقيادة السودان كمستعمرة بريطانية ليصبح ثاني حاكم استعماري عام له بعد انقضاء الدولة المهدية. بيد أن ويسباك لم تغفل عن الإشارة لأدوات «البروبغاندا» الإعلامية التي استغلها ونجت نفسه. ونعني هنا تحديداً مجموعة الأسفار التي إستصدرها الأخير قبل غزو السودان. تلك الكتب التي تصدرت أغلفتها أسماء لأسرى أوروبيين سابقين عند الدولة المهدية ومنهم الإداري الاستعماري السابق.. اليهودي الأصل والنمساوي الجنسية رودولف سلاطين ومواطنه القس أوهروالدر. وبدت ويسباك ممتلئة بالثقة وهي تشير إلى تقاسم ونجت تأليف تلك الكتب مع مؤلفيها الحقيقيين مما يبقي على كل المنافذ مشرعة باتجاه اختلاط إفادات هؤلاء الأسرى ببصمات التدليس الاستخباراتي التي ليس لمثلها صنو في طمس حقائق الأشياء، ومن ذلك ما قالت فيه:

«ونجت.. مدير المخابرات البريطانية منذ ١٨٩٩ والذي رافق كتشنر في حملته إلى السودان، كان مهووساً لحدٍ كبير بالمهدية وهو الذي أدار حرباً دعائية ضدها لإلهاب شغف البريطانيين حتى يضمن مساندتهم لحرب الإبادة الموجهة ضد السودان. وليتمكن من إنجاز مهمته تلك، قام بتوفير ناشرين لنشر مذكرات الأوروبيين الذين وقعوا في أسر المهدية بما فيهم الانتهازي سلاطين صاحب (كتاب السيف والنار في السودان ١٨٩٦) والقسيس اوهرولدر صاحب كتاب (عشر سنوات في أسر المهدي ١٨٩٢) وروزيغونولي وآخرين كثر. وبالإشارة إلى الأزمة في السودان في العام ١٨٩٦ حينما تقاسم ونجت مع سلاطين تأليف كتابه السابق، يُحكى أن ناشر ذلك الكتاب قد قال لزوجته في ذات الخصوص: (يا لها من مزحة تلك التي تناقلتها مع شريكي بدار النشر هنا، لقد دبر الميجور ونجت كل ذلك في الوقت المناسب تماماً بواسطة عملائه السريين!)» [1].

هذه الإشارة الواضحة لجنوح ونجت نحو تأليف تلك الأسفار المار ذكرها بنصف قلم، لم تمر دون أن يتصدى لها بعض الباحثين الغربيين المعاصرين بتشديد أكبر على أن المؤلف الحقيقي لكتابات الأسرى الأوروبيين كان هو القلم الاستخباراتي الإنجليزي المتمثل في ريجنالد ونجت وحده دون غيره. وهي ذات المجهودات المحمومة التي انتهت

1 ميريل ميراك ويسباك، مصدر سابق.

إلى تقليل حجم أهم كتب «البروبغاندا» الاستخبارتية بعنوان «السيف والنار» – في طبعته الثانية– سعياً نحو تلخيص محتواه وجعله تفاصيله سهلة الإنسياب لغزو ذواكر القرّاء وتهيئة أدمغتهم نفسياً لعملية غزو السودان. كل ذلك تزامن مع وجبات إعلامية منتظمة ركزت على مساوئ الحركة المهدية سعياً لإلباسها دثارات عديدة من الشر المطلق. ولن يجد المرء حديثاً أكثر توازياً مع ما سبق بمثل ما قال به الباحث الأمريكي «Noah Salomon» في بحثه بعنوان «Undoing the Mahdiyya» والذي نشره مركز أبحاث جامعي مرموق على نحو مركز «مارتن مارتي» بجامعة شيكاغو الأمريكية، وهو ما جاء فيه تحديداً:

«في واقع الحال، فإن الرأي العام البريطاني قد تمت تغذيته بوجبات إعلامية مستمرة من خلال حملة دعائية مضادة ركزت بشكل كبير على تجاوزات النظام المهدوي. وكان اختصاصيّ هذه الحملة الدعائية الرئيس في حملة الحكومة البريطانية ضد المهدية هو الجنرال فرانسيس ريجنالد ونجت وهو نفس الشخص الذي كان يشغل منصب رئاسة جهازهم المخابراتي في القاهرة. وأصبح ونجت لاحقاً حاكم بريطانيا العام على السودان في (١٨٩٩–١٩١٦) حين قام بتحويل مجهوداته النقدية للمهدية في كتاباته السابقة نحو سياسات حكومية ملموسة. وفي فترة توليه رئاسة المخابرات في القاهرة، قام ونجت بترتيب عملية تهريب أسيرين نمساويين مهمين عند الخليفة عبدالله وهما الأب جوزيف اوهرولدر (مبشر كاثوليكي) وردولف سلاطين والأخير كان حاكم الخديوي على دارفور وأصبح لاحقاً مديراً لجهاز المخابرات الاستعماري في السودان تحت رئاسة ونجت نفسه. وفي أعقاب إستخلاصه لما كان يسعى إليه من معلومات من هذين الرجلين ومن ثم تمرير ما استخلصه بمسارات القنوات العسكرية المناسبة، قام ونجت بنفسه بتأليف وقائع سيرة الرجلين الذاتية التي تعرضت لفترتها بالأسر. وقد قام ونجت بإصدار كتابي (عشر سنوات في أسر المهدي) و(السيف والنار في السودان) بالتتابع. هذه الأقاصيص قامت بهز إنجلترا بأسرها لما أحتوته من صور ملطخة بالدماء نقلتها تلك الكتب عن الوحشية والبربرية المنسوبة لأنصار المهدي. أما كتاب سلاطين

نفسه، فقد صدرت منه طبعة ثانية في السنة التي سبقت تقدم البريطانيين نحو الخرطوم. وهي ذات الطبعة التي تم فيها تقليل حجم الكتاب حتى يكون أكثر قبولاً للعوام من القراء. هذان الكتابان مع غيرهما من الكتب على نحو (سجين الخليفة: ١٢ عاماً من الأسر في أم درمان) لتشارلز نيوفيلد، سوغوا جميعاً لعملية غزو السودان في الذهن الجماعي للبريطانيين»[1].

بيد أن ما أسماها سالمون بـ «مجهودات ونجت النقدية للمهدية»، لم تمض لشأنها دون أن تحاصر أسوارها المرتفعة منهجية «نقد النقد» فتدكها دكاً مزلزلاً لرؤيتها الصمدية لحقائق الأشياء. ومن ذلك أن المدرسة «الونجتية» لقراءة تاريخ المهدية قد تم التصدي لها بواسطة مؤرخين غربيين لاحقين أتت جهودهم متماهية مع قدر أكبر من الحيادية الخليقة بروح البحث العلمي المتحلل من برق «البروبغاندا» الذي يخطف الأبصار. وقد إنتقد المؤرخ البريطاني نورمان دانيال في سفره القيم (الإسلام، أوروبا والإمبراطورية).. إنتقد طرائق «ونجت» نفسها في التحليل الاستخباراتي لوقائع الأحوال في السنوات الأخيرة من حكم المهدية، حينما قضى ضمناً بأنها اتسمت بعدم الحياد نسبة لما أسماه بـ«انعدام الثقة المتزايد لديه في المصادر المتوفرة من أنصار الثورة المهدية بشكل غارق في الوهم» (Excessive delusional mistrust) وإستدل على ذلك بتضخيمه لثورة ابوجميزة ضد الدولة المهدية واعتقاده بأن دارفور وكردفان كلها كانت في حالة ثورة ضدها بينما تبين لاحقاً خطل تخميناته تلك[2]. ثمة أسئلة عديدة ستحاصر ببأسها أي ذهن متوقد لباحث أراد سبر أغوار الحقائق هنا، عن مدى إنفتاح خيال ونجت الاستخباراتي نحو القبول بأي تقييم إيجابي لفترة الحكم المهدوي في السودان وهو الذي قال عنه المؤرخ البريطاني نورمان دانيال بأنه «كان شغوفاً بأمر المهدية لدرجة الهوس قبل أن يصبح

1 «**Undoing the Mahdiyya: British Colonialism as Religious Reform in the Anglo- Egyptian Sudan, 1898 - 1914**»,By Noah Salomon (University of Chicago Divinity School), Martin Marty Center For Advanced Study Of Religion, Published 2004.
https://divinity.uchicago.edu/sites/default/files/imce/pdfs/webforum/052004/Salomon%20Undoing%20the%20Mahdiyya%20Posted%202013.pdf.

2 نورمان دانيال،ص ٤٢٧.

لاحقاً محارباً صليبياً (Crusader) يخطط ويسعى للقضاء عليها»[1]. ولكن بالعودة إلى ما أسماه دانيال بما يمكن وصفه بسيطرة عامل «الشك المتوهم» بكل معلومة تتعارض مع كان يطمح أن يسمعه ونجت، فقد أشار دانيال لواقعة استجوابه لأحد التجار الشماليين الذين جاءوا لمصر بغرض ممارسة أعمالهم التجارية هناك. وهو ذات الرجل الذي سجل منه الجنرال الاستخباراتي البريطاني إفادت تجزم بأن الخليفة عبدالله - وتحديداً بعد إستباب أمر حكم البلاد له- قد اتجه نحو تأسيس «نظام حكم أكثر تسامحاً وأوسع قبولاً من الناحية الشعبية». ولكن ونجت الذي ضخم حركة ابوجميزة حتى عقد عليها الآمال للإطاحة بحكم المهدية لم يجد سبيلاً لإرضاء غريزة «الشك المتوهم» عنده إلا بوصف ما قاله التاجر المار ذكره ب«التهويل المحتمل»[2].

بيد أن إصرار ونجت العنيد على تقزيم كل بارقة مضيئة عن الثورة المهدية ودولتها الوطنية فيما بعد ومن ثم تغييب وقائعها عن دفاتره المخابراتية حتى وإن كانت على شاكلة شهادة فردية كتلك التي مر ذكرها، لم يكن ليخفى على مؤرخين لاحقين اعتادوا على سبر أغوار الدقائق التي تتراص بين الأسطر. ولعل أستاذ التاريخ البريطاني المعروف البروفيسور بيتر هولت يعد بصدق، من آوائل من أعادوا قراءة تاريخ الثورة المهدية من مصادر مختلفة لمراجع «البروبغاندا» الإنجليزية. وهو ما تقدم بقلمه لمربعات أكثر إحاطة بتفاصيل تلك الفترة المهمة باستصحاب أراء الضفة الأخرى من نهر التاريخ. ومن ذلك أنه كان يرى أن من مساوئ «البروبغاندا» المحمومة التي أثارها ونجت، إنصراف المؤرخين المعتمدين عليه كمصدر أساسي عن التقييم العادل لطبيعة ما حدث في فترة الدولة المهدية وبالأخص في عهد الخليفة عبدالله. ويتماهى ذلك جلياً مع قوله التالي:

«كان هناك جانب اتسم بالبناء والإنجازات في عهد الخليفة عبدالله (constructive side) وهو ذات الجانب الذي حاز على اهتمام عدد قليل من الكتاب الذين تركزت أبصارهم في المشهد التصويري الحافل بالرعب والأعمال الوحشية التي كان يعتقد

---

1 نفس المصدر، ص ٤٢٦.

2 نفسه، ص ٤٢٩.

أجدادنا البريطانيون أنها لا ترتكب إلا بواسطة رجال برابرة. فلم تكن السنوات التي حكم فيها الخليفة فترة مشتملة على خيبة الآمال والتأسف على ما ولي بعد انقضاء سنوات الثورة الذهبية وحسب، بل كانت حقبة تنظيم وتعمير تم فيها إحداث عملية توازن بارعة للقوى ليعكس ذلك كله إرادة الخليفة الصلبة وكفاءاته الإدارية المقتدرة في إطار محدودية الخبرات المتوفرة لنظامه. ومن الممكن القول بأن أغلب الفشل الذي أصاب إجراءاته يمكن إرجاعه للقصور الملازم للأدوات والوسائل المستخدمة» [1].

وبدا المؤرخ الوطني البروفيسور يوسف فضل أكثر جنوحاً للخوض في «البروبغاندا» المصدرية للتاريخ المهدوي، ومتوسعاً بشكل أكثر استفاضة في تبيان عناوين الأغلفة المرتبطة بها وميالاً لتسمية الأشياء كما تبدت لنظرته الأكاديمية المجردة، ومن ذلك قوله:

«الكتابات التاريخية البريطانية والمصرية المعاصرة عن الأعوام السبعة عشر والتي شهدت سيطرة المهدويين على مقاليد الأمور في السودان، كُتب أغلبها بواسطة أناس تم توظيفهم بواسطة الحكومة المصرية أو ناشطين في الحملة الدعائية التي مهدت للحملة العسكرية ضد السودان وبالتالي جاءت تلك الكتابات متسمة بالجنوح نحو الإثارة وفي بعض الأحيان أحاطتها النيات الجائرة المبيتة. كانت تلك الأقلام واقعة تحت تأثير الحملة الدعائية الرامية لقمع الثورة المهدية والحملات الإعلامية ضد تجارة الرقيق والحركة الاستعمارية ذات الدوافع المسيحية «Evangelical Imperialism» جنباً إلى جنب مع دوافع الثأر لمقتل غردون. المهدي نفسه أُطلق عليه وصف (النبي الكاذب) سعياً لتشويه دوره الديني. أما الخليفة عبدالله فقد تم تصويره كطاغية متوحش ومتعطش للدماء. رأي كالذي سبق، كان نتاجاً مهماً للحملة الدعائية المصاحبة للحرب. ومن الممكن العثور على أراء مشابهة لما سقناه عند الكولونيل ب. أر. ونجت في كتابه (المهدية في السودان الإنجليزي المصري) وكذلك عند إبراهيم فوزي صاحب كتاب (السودان بين يدي غردون وكتشنر).إن الإفادات المتحاملة التي نقلها ونجت كانت صادرة من ضابط على نقيض التعاطف مع الثورة المهدية وهو ذات الضابط الذي فرضت عليه وظيفته

1 ميشيل جوردون، رسالة دكتوراة، مصدر سابق، ص ١٤٧.

كرئيس لجهاز المخابرات بالجيش المصري، التأكد من إتمام عملية تدمير الدولة المهدية. وقد وصف البروفيسور البريطاني ب. هولت والذي كان أول مؤرخ يدرس تاريخ المهدية من مصادر معاصرة لها.. وصف (كتاب ونجت) بأنه قطعة من (البروبغاند ا) أُعدت لتجهيز وتهيئة العقل الشعبي البريطاني لعملية غزو السودان. في ذات التصنيف، يستطيع المرء أن يشير إلى كتابات نعوم شقير المحررة باللغة العربية. فقد عمل نعوم شقير بموقعٍ كان على مقربة من ونجت فأظهر شغفاً مقدراً بالحقائق ومع ذلك يجب علينا قراءة كتاباته بحذر وحملها على ذات المفاهيم التي حملنا عليها ما كتبه ونجت على ضوء الهدف المشترك الذي جمع بينهما. وبإعمال الوعي على ما يلي ذلك من الأدلة فإن كتاب شقير يحتوي على معلومات كثيرة يمكن الاعتماد عليها وهي ذات المعلومات التي لن يسهل تواجدها بمصادر أخرى. ومن المؤلفات الأخرى المتحاملة، هناك «السيف والنار» لردولف سلاطين الصادر بلندن في العام ١٨٩٦. ويمكن اعتبار ما كتبه سلاطين كمثال نموذجي لكتابات السجناء السابقين في الأسر المهدوي والذين تمكنوا من الهرب لاحقاً. وفي هذا السياق، قد يكون كافياً الإشارة إلى تقييم المؤرخ الإنجليزي ايه بي ثيوبولد لما كتبه سلاطين والذي قال فيه: (لقد حاز سلاطين على موضع مميز من التقدير من بين المحتجزين الأوروبيين. وقد عامله المهدويون بتكريمٍ واحترام. وبعد تمكنه من الهرب، قام سلاطين برد ذلك الكرم الذي أوفاه له المهدويون بكتابة مؤلفه «السيف والنار» الذي شدد على كل حدث بغيض بقلمه، وشوه كل الدوافع الحقيقية للأعمال التي قام بها الخليفة وكلّل اسمه بالسواد لكل الأجيال القادمة كطاغية متعطش للدماء ووسمه بالوحشية نافياً عنه صفة القائد المنقذ أو المُخّلص). على ذات المنوال، يمكن اعتبار كتاب الأب أوهروالر بعنوان (عشر سنوات في أسر المهدي) الصادر في لندن ١٨٩٢.. كمثال مشابه لما سبق ذكره» [1].

واستكمالاً لمنهجية «نقد النقد» التي وجهها بعض المؤرخين البريطانيين لمؤلفات المخابرات البريطانية فيما قبل عملية إعادة احتلال السودان، ارتسم المؤرخ الإنجليزي

1 «**Some Aspects Of The Writings Of History In Modern Sudan**» by Professor Yusuf Fadl Hassan. Publisher: Institute Of African And Asian Studies, University Of Khartoum, Sudan, 1978, P. 11 - 12.

فيرغس نيكول بكلماته مساراً متناصاً مع مجهودات من سبقوه في ذات السياق المار ذكره. ومن ذلك قوله عن مؤلفات تلك الحملة الدعائية:

«هي مؤلفات تم فيها تلوين الحقائق بدرجة عالية وقد اشتملت على تفاصيل ممتلئة بالمرارات الشخصية. وفي أحايين كثيرة امتلأت صفحاتها بإزدراء متعمد لكل ما وقف وثار من أجله المهدي ومن معه من الرجال الذين ناصروه. ويمكن القول بأن الميجور اف. أر. ونجت مسئول المخابرات العسكرية البريطانية في القاهرة هو المؤلف الحقيقي لتاريخ تلك الفترة، فقد ألف بنفسه كتاب (السيف والنار) لسلاطين وكذلك (عشر سنوات في أسر المهدي) لأوهرولدر. وعلى الرغم من توفر بعض المعلومات المنسوبة لشهود عيان كانوا حضوراً في لحظات مفتاحية من مراحل الثورة إلا أن قيمة هذه المؤلفات كمصادر مستقلة لتاريخ المهدية قد تراجعت كثيراً بفعل تدخل ونجت في كتابة تفاصيلها»[1].

بيد أن ما سقناه سابقاً من أطياف شكلت ملامح مراجعات حداثية لإعلام «البروبغاندا» البريطاني وما رسخت له من صورة شائهة لحركة مقاومة أثخنت القوى الاستعمارية بهزائم ماحقة على نحو الثورة المهدية، يبقى من العسر على فطنة قارئ متعقل إدراك كنهه من دون المرور على الدوافع «الكولونيالية» المعلنة والمستترة للحملة الإعلامية ذاتها وما استخدمته من أدوات ووسائل. وكان من ضمن تلك الوسائل إبتعاث مشاعر صليبية قديمة سكنت في غياهب اللاوعي بخلايا العقل الجماعي لأوروبا القرن التاسع عشر. عواطف دينية خاملة عند عوام الناس كتلك، لم تكن لتختبيء في منعرجات النسيان لدى نصوص وكتابات الدعاية المضادة للمهدية. ومن ذلك أن ونجت نفسه اختار – ربما بوحي من مكامن اللاوعي الذهني لديه– أن يكون أحد أهم مؤلفاته منسوباً لقس ورجل دين نمساوي عمل مبشراً ومنصراً في السودان إبان قيام الثورة المهدية فيه ونعني هنا تحديداً «عشر سنوات في أسر المهدي» للأب أوهرولدر. وقد يجادل البعض بأن كتابات القساوسة الاخرين على نحو مذكرات رجل

1 **مهدي السودان ومقتل الجنرال غردون** لفيرغس نكول، مصدر سابق، مقدمة الكتاب، ص **xxiii**.

الدين الإيطالي «Rosignoli» لم تكن رسمياً ضمن مجموعة ونجت المنتقاة لغسل أدمغة قرائه بخصوص الثورة المهدية، بيد أن الروح التي تنفستها كلماته لم تكن على مبعدة من طبيعة البروبغاندا «الونجتية» ضد المهدية بأي حال.

وقد يكون من الموضوعي هنا الاستشهاد بخلاصة مؤلف ونجت - أوهرلدر المار ذكره والذي عبر بحذاقة لا متناهية عن أجندة ذلك الضابط الإستخباتي البريطاني من خلال عصف ذهن القاريء بمجموعة حرى من التساؤلات التي لن تقود إلا إلى طريق صمدي لا ثاني له.وهو يتمثل هنا - بلاشك - في حشد كل الطاقات البشرية الكامنة للقضاء على المهدية..ذلك «الشر الشيطاني المستطير» بحسب ونجت. وفيما يلي ما اشرنا إليه منقولاً من كتاب «عشر سنوات في أسر المهدي»:

«إلى أي مدي سنسمح باستمرار هذا الوضع؟ إلى أي مدى ستصمت أوروبا ومن قبل ذلك بريطانيا صاحبة الحق الأول في مصر والسودان؟ بريطانيا التي تقف بإستحقاق في المرتبة الأولى للأمم التى يقع على عاتقها جلب المجموعات العرقية المتوحشة نحو رحاب الحضارة. إلى متى ستراقب كل من أوروبا وبريطانيا العظمى انتهاكات الخليفة عبدالله وتدميره الممنهج لشعب السودان دون أن تحرك ساكناً؟»[1].

وهكذا لا يجد القارئ فكاكاً من الدوافع الإنسانية النبيلة لإعادة غزو السودان والتي تبدو مبررة تماماً. فـالأمر كله يأتي في سياق الأخذ بيد شعب - على الرغم من دمغه بأكمله هنا بالوحشية- إلا أنه ما زال يستحق تعطفاً كريماً من بريطانيا العظمى ومن خلفها أوروبا كمراكز للحضارة الكونية وما تشكله من رمزية شرعية تسوغ لها دوماً شن غزوات الفتح على مجاهل الوحشية والهمجية الكامنة فيها وراء البحار. ذلك الأمر لم يكن في جوهره إلا سكب ما يكفي من مساحيق التجميل على عملية تكالب القوى الكولونيالية العالمية المختلفة نحو مستعمرات إفريقيا في عهد إصطلح المؤرخون على تسميته بـ «The Scramble for Africa». ولكن بالعودة إلى ما سعى إليه ونجت من جعل الوحشية والمهدية صنوان مترافقان. وهو ما سيأتي متوازياً بالضرورة مع مفاهيم

1 Ohrwalder, **Ten Years' Captivity**, PP.449 - 450.

شرعنة وخلقنة عملية احتلال السودان بواسطة بريطانيا والقيام بحملة تسويق ناجحة للفكرة ذاتها في قالب انساني محض. بالعودة لكل ما سبق، فإن المرء لن يعجز عن رؤية وحشية مماثلة - تفوق تلك التي وسم بها ونجت خصومه - وهي تتقمص كلماته براديكالية مناقضة لكل المشاعر الانسانية الممكنة والخليقة بحملة لواء الحضارة من أمثاله. فلنفسح له مجالاً مناسباً ليحدثنا ضمناً عن الوحشية التي امتلأت بها نفسه تجاه السودانيين حين كان جنرالاً مقاتلاً ضد قوات المهدية في حملة الغزو الإنجليزي تحت قيادة كتشنر. وهي ذات الوحشية التي كان عنوانها الأبرز هو التلذذ بسفك دماء الآخرين بلا مواربة. ومن ذلك قوله:

«بين حين وآخر، أستطيع أن ألمح بعيني رجل ما.. تلك الومضة المتدثرة بالفضول ومبعثها المتصل بالبهجة التي يثيرها سفك الدماء. ذلك النوع من النبض الغامض الذي ما زال متواجداً بطبيعة الإنسان على الرغم من طلاء قشرة الحضارة الخارجي الذي يحيط به. وهو ذات الشعور الذي يتملكه حين يخرج لاصطياد الفئران بمساعدة كلب صيد، أو حين يبتهج بجائزة أو غنيمة نالها بعد الحرب، أو حين يلاعب أسماك سالمون بغرض اصطيادها أو عندما يخرج مثلنا لاقتناص المهدويين. ذلك النوع من الشعور، سموه ما شئتم ولكن تبقى التجربة هي العامل الأكبر في تحديد ملذاتنا بهذه الحياة» [1].

هذا ما كان من أمر الدوافع الرسمية المعلنة لغزو السودان.والآن نأتي للدوافع المستترة لحملة الغزو والتي تعود بداياتها الأولى لمقتل الجنرال غردون حاكم عام السودان البريطاني. لقد تبدت الدوافع الحقيقية التي طالما إنساق وراءها البريطانيون للقضاء على الثورة المهدية ودولتها جلية منذ فجر صداماتهم العسكرية معها. ومن ذلك ما تحدثت به كلمات الجنرال الحانق «ولزلي» قائد فلول القوات البريطانية المنهزمة في أعقاب تحرير الخرطوم بالعام ١٨٨٥.. حين كتب مستنجداً ومستغيثاً بأهالي بلدة «كورتي» ما جاورها من المناطق بشمال السودان. فقبل أن يبذل الوعود بأجور مجزية من الخزائن البريطانية

1 F. R. Wingate cited in P. M. Holt, **The Mahdist State in the Sudan, 1881 - 1898: A Study of its Origins, Development and Overthrow,** 2nd edn (London: Oxford University Press, 1970 [1958]), 224.

لكل من ينضم إليهم عسكرياً من الأهالي، مال ولزلي نحو افتتاح رسالته تلك، بنوايا جهيرة عن حتمية انتقام البريطانيين من الثورة السودانية وقائدها المنتصر الذي تبدى أمام أعين جنرالات بريطانيا كما يتبدى «الوحش الكاسر»، ومن ذلك قوله:

«إننا ندعوكم للقدوم إلينا ومساعدتنا في القضاء على محمد أحمد المهدي. هذا الوحش الكاسر الذي لن تعرف الحكومة البريطانية أي راحة من دون إبادته من الوجود تماماً»[1].

وبمرارة أعمق وإن إنطوت على نوايا انتقامية مشابهة، كتب الجنرال «ولزلي» لأحد الزعماء المحليين الموالين للوجود الاستعماري في السودان «خشم الموس باشا» ما يلي:

«سنسعى لتدمير قوى محمد أحمد المهدي في الخرطوم. ليس مهماً مقدار الوقت الذي سنستغرقه للقيام بتلك المهمة. إنك تعرف أن رجال الدولة التي ينتمي لها غردون باشا، غير محتمل عليهم إدارة ظهرهم لإي مشروع بدأوه من قبل دون إتمامه بنجاح»[2].

مرارات مبيتة كتلك، ظلت في حقيقة الأمر محركاً أساسياً لغريزة الثأر من هزائمهم السابقة بواسطة قوات الثورة المهدية في السودان بما في ذلك مقتل الجنرال البريطاني المنتصر دوماً «تشارلز غردون» بسواعد السودانيين الذين حرروا الخرطوم في ١٨٨٥.. وهي ذات الرغبة التي احتلت موقع القلب من صدر القادة العسكريين البريطانيين بمصر لأمد طويل مما دفع مؤرخاً بريطانياً على نحو نيكول للقول بأن: «أكثرهم.. حتى منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر، ما زال يسيطر عليه الإحساس بالعار نتيجة انسحابهم من السودان تزامناً مع إستفاقتهم على وقع خطى حملة النيل العسكرية الفاشلة تحت قيادة الجنرال ولزلي»[3]. هؤلاء هم من أسماهم نيكول ضمناً بمجموعات الضغط الداعية لاقتناص فرصة ثانية لمواجهة سودان المهدية عسكرياً سعياً لإشباع غريزة الثأر لديهم أو ما عرفه هو بـ «The Second Chance Lobby» مشيراً في الوقت ذاته إلى أن مجهودات ونجت الدعائية ضد المهدية قد جسدت أمانيهم وتطلعاتهم تماماً.

1 نيكول،مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٦.

2 نيكول: غلادستون وغردون وحروب السودان، ص ٣٥٧.

3 نفسه.



رسم كاريكاتوري تناقلته صحافة بريطانيا بعد مقتل غردون..تخاطب فيه السيدة «Britannia» -والتي ترمز للإمبراطورية البريطانية - غلادستون قائلة: «قد يكون متأخرا الآن الحديث عن إنقاذ غردون ولكن الآوان لم يمض بعد من أجل الانتقام لذكراه».

تلك الدوافع المعلنة عند العسكريين البريطانيين، لم تفلح دبلوماسية سياسي بريطاني مرموق -كاللورد كرومر- في تسكينها حتى تبقى مندسة في حرز بعيد عن النوايا الرسمية البريطانية. فمن موقعه الإداري الاستعماري المتقدم الذي عُرف بـ(British Controller-General of Egypt).. دفع اللورد كرومر بثلاثة حجج أساسية لغزو السودان والانتصار على المهدويين وكالعادة كان أبرزها هنا الانتقام لغردون مع مسوغات أخرى على نحو الحجج الإنسانية والأخلاقية المرتبطة بهذا الأمر. بيد أن مقدرة الثورة المهدية على تحرير السودان من القبضة الاستعمارية وما تلى ذلك من تقليص للمساحة التي كان الإنجليز يسيطرون عليها بما في ذلك مصر وحدودها الجنوبية، لم يكن بالأمر الذي يستسهل الكبرياء الإنجليزي المتضخم التعايش مع وقائعه. وقد اتجه اللورد كرومر لاحقاً لجعل كل ذلك جلياً في مؤلفه «مصر الحديثة» من دون التشديد على المسوغات الأخلاقية والإنسانية المزعومة. ومن ذلك قوله:

«إن الشعور العام بالعار الذي ساد في بريطانيا العظمى كان مبعثه تقلص الأراضي المصرية وهي تحت كنف الرعاية البريطانية لدرجة بلغت حد الإنكماش الحاد»[1].

و صرح وزير الخزانة البريطانية السير مايكل هنري-بيتش ليُعبّد بخواطره العلنية طريقاً ينتهي بالبريطانيين إلى نهايات مماثلة..حين دلق كل شيء على سطح طاولة منفتحة الأبعاد لكل متمحص في تفاصيل ذلك الحدث. واتجه السير البريطاني الذي إستنفدت مواجهات الإنجليز الخاسرة مع المهدية سابقاً قرابة السبعة ملايين من الجنيهات الإسترلينية من منصرفات وزارته من قبل، اتجه نحو التعبير عن نفاد صبر الإمبراطورية البريطانية بخصوص وجود قوى إقليمية مستقلة ومعادية للوجود البريطاني على نحو الدولة السودانية التي أسستها الثورة المهدية.. مفصحاً بذلك عن الحقيقة المجردة حين قال:

«لا يمكننا السيطرة على مصر بصورة دائمة، طالما كانت هناك قوة معادية لنا – كالمهدية – تحتل منطقة وادي النيل حتى حدود مدينة الخرطوم»[2].

بيد أن حملة الانتقام لغردون وهزائم بريطانيا السابقة أمام المهدية المقترنة بضرورة فناء الآخر المعادي لوجودهم في المنطقة، لم تجد على الدوام ذلك القبول المطلق عند البريطانيين أنفسهم. ومن ذلك أن آحاداً من السياسيين البريطانيين قد صدعوا بأفكار مضادة للحملة الدعائية البريطانية التي سبقت التخطيط لغزو السودان.. فاتجه في السياق ذاته دبلوماسي بريطاني معروف مثل «وايلد» والذي شغل منصب قنصل بريطانيا في مدينة عدن اليمنية.. اتجه نحو تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية دون مد البصر نحوها بمنظار (البروبغاندا) الذي تختلط في مداه الحقائق بالمغالطات. من ذلك الإشارة بوضوح لقدر الدماء التي سكبها البريطانيين في السودان لغزو آراضيه وتسمية ذلك بالخزي الحقيقي الذي يتوجب على بريطانيا منع تكراره. ومن ذلك ما جاء في قوله:

1 **Modern Egypt** by The Earl Of Cromer. Publisher: The Macmillan Company (1916),UK,p.80.

2 نيكول: غلادستون، غردون وحروب السودان، ص ٣٥٦.
للرجوع لمصادر منصرفات الأعمال الحربية البريطانية ضد المهدية انظر هوامش الفصل المعنون بـ«الأصداء العالمية لموقعة تحرير الخرطوم».

«بإسم الرب، دعونا نصل إلى تسوية لمسألة السودان ولنحاول تعويض خطايانا المتمثلة في أيادينا الآثمة المتلطخة بالدماء هناك. يمكننا تحقيق ذلك من خلال الاجتهاد لجعل سلوكنا المستقبلي ميالاً لغسل تلك البقع الداكنة التي لطختنا وألحقت الخزي بإسم إنجلترا في أثناء تعاملها مع شئون السودان في السنوات القليلة الماضية»[1].

وبالعودة مجدداً لأدوات ووسائل الدعاية المخابراتية التي وظفها ونجت، يستبين جلياً الدور المركزي الذي لعبته شهادات المبشرين المسيحيين في «التكتيكات» الدعائية لحملة «البروبغاندا» الاستعمارية. وفي الإطار ذاته، قال المؤرخ البريطاني نورمان دانيال:

«إن المبشرين الكاثوليك يتحملون القدر الأكبر من المسئولية بخصوص تنامي العداء الأوروبي تجاه الثورة المهدية. وقد إنعكس كل ذلك بوضوح على التاريخ الذي كتبه المؤرخ الإنجليزي غرانت بجانب كتابات الأب اوهروالدر وروزيغونولي. ويبدو أنه من الممكن أن نعزي ذلك جزئياً لما انتهت إليه آمالهم من إحباطات وما صاحب ذلك من إنهيار لأعمالهم ومجهوداتهم التنصيرية (بفعل اندلاع الثورة المهدية). أما الجزء الآخر من دوافع ما كتبوه فقد كان مرتبطا بالذهنية التقليدية المتوارثة عن مسيحي القرون الوسطى وما إتصل بها من تصورات عن الإسلام. إن تحامل ونجت على المهدية كان ينطلق من خلفية عقائدية بروتستانتية واضحة. ذلك النوع من التحامل بجانب ما أظهره سلاطين بخلفيته الكاثولوكية، كان تحاملاً كوزمابولاتني الطابع (cosmopolitan) بالمقارنة مع ما أشرنا إليه سابقاً»[2].

بإعمال المزيد من التحليل على تلك الذهنية المتجذرة في العقل الأوروبي عن الإسلام منذ عهود المواجهات الصليبية للقارة العجوز في قرونها الوسطى معه، سيستصعب المرء عندها دمغ ما ذهب إليه دانيال بالبعد عن ملامسة وقائع الأحداث هنا. ومن ذلك، أن القساوسة المار ذكرهم لم يروا في مواجهات القوى الأوروبية مع الثورة المهدية إلا إستنساخاً مكرراً لكل ما حدث من قبل في فترة الحروب الصليبية. كل ذلك، جعل هذا

1 نيكول، مصدر سابق، ص ٣٥٦.

2 دانيال، مصدر، سابق ص ٤٢٧.

الإرث العتيق المُثقل بمرارت الماضي يهيمن بوضوح على مآخذهم على الثورة المهدية. وهي ذات المآخذ التي تبدت في جوهرها كمآخذ على الإسلام كدين وخصائص أتباعه الحضارية أكثر من كونها إفادات شهود عيان يمكن البناء عليها لإنتاج نظرة أكاديمية نقدية معاصرة للثورة المهدية. ومن ذلك قول القس الإيطالي باولو روزيغونولي:

«العرب هم أناس مجرمون بطبيعتهم وذلك يرجع لما جُبل عليه دينهم الإسلام من صيت شائن في هذا المجال.. وبقدر أكبر يمكن القول بأن إتصافهم بالجهل ونقص التعليم يدفعهم دفعاً نحو ما عُرفوا به من إجرام»[1].

على أن غيبة تلك الأحكام العدائية للقس روزيغونولي ضد المسلمين عن دفاتر ونجت الاستخبارتية -التي إحتوت على وقائع استجواب الأخير له قبل الغزو- مقارنة مع النص الأصلي لكتابه يفتح المجال واسعاً أمام الجدلية القائلة بإمكانية إفلات ذلك الكتاب من مقص الرقيب الونجتي. بيد أن الجدلية ذاتها قد لا تصمد كثيراً- رغماً عما تبدت عليه أوتادها من رسوخ- عندما ندقق في الأمر برمته من زاوية رؤية غيرية تستصحب معها ما أشار إليه المؤرخ البريطاني دانيال عن مقدرة ونجت على» تحويل تلك التقاليد المعادية للإسلام بشكل متوارث نحو مسارات حملته الدعائية ضد المهدية ومن ثم منحها خصائص وهوية إنجليزية وطابعاً رسمياً مماثلاً»[2].

وقد يحاجج المرء هنا بموضوعية خليقة بالسياق الذي تشكلت عليه الحقائق المار ذكرها، عن مدى «أكاديمية»مصادر منسوبة لقسيسين ورهبان كانوا على خلاف معتقدي عريق مع حركة ثورية استخدمت الإسلام السوداني بطابعه الشعبي الموغل في التصوف لمقاومة المد الاستعماري على نحو المهدية. لا شك أن الخندق المعتقدي المختلف الذي تمترست فيه تلك الأفكار وطرائق التحليل العقلية التي انبجست عنها كان له ثقل موضوعي في جرف الأشياء تجاه ما انتهت إليه. ومن ذلك ان تلك الذهنية

1 Rosignoli P. Paolo: **I miei dodici angvni di prigionia in mezzo ai Dervisci del Sudan**. Publisher: Mondovì, 1898, Italia.

انظر أيضاً (الإسلام، أوروبا والإمبراطورية) لنورمان دانيال، مصدر سابق، ص ٤٢٨.

2 دانيال، مصدر سابق، ص ٤٢٨.

قد اتسمت بغربة عن طبيعة الفسيفساء المجتمعي لسودان القرن التاسع عشر.وترتب على ذلك شحن ذاك الإرث المكتوب بمعلومات تكفلت انتصارات المهدية اللاحقة على البريطانيين بكشف ما وسمت به من عدم الدقة. ومن ذلك القول المتوهم بأن المهدي لم يكن تمتع إلا بمساندة شعبية ضئيلة مما يؤسس لفرضية تقول بأن إرسال بضعة جنود بريطانيين كان كافياً للقضاء على حركته. وهي ذات الاستنتاجات التي تبدى إنتهاؤها لعوالم من الخيال حينما انهزم جيش بريطاني فاق عدد جنوده الأربعة عشر ألفاً أمام الرجال السودانيين الذين قاوموه تحت رايات قوات الثورة المهدية لاحقاً وآبت جحافله المنسحبة إلى موانئ إنجلترا وهي تجرجر أذيال الهزيمة. وفي المعنى ذاته، كتب نورمان دانيال قائلاً:

«كانت التقارير الأولى التي بعث بها المبشرون الكاثوليك الآوائل مثل الأب بونومي والراهبة سيبرياني بالإضافة لتعليقات الأسقف سوغارو، يُستشهد بها كثيراً.. مما أعطى وزناً للرأي القائل بإتصاف المهدي بسمة الوحشية. وهي نفس الأراء التي نتج عنها قدر كبير من المعلومات المضللة على نحو وصف الخليفة بالحاكم غير المقتدر أو القول بأن إرسال بضعة جنود بريطانيين قد يكون كافياً لإنقاذ غردون عطفاً على الزعم القائل بالمساندة الشعبية الضئيلة التي كان المهدي يستند عليها» [1].

تلك المعلومات الاستخباراتية المستندة على مزيج من إفادات رجال دين مسيحيين وأسرى سابقين وتقارير أخرى منحازة كانت هى النواة التي تشكلت عليها حملة دعائية مبكرة ضد المهدية.. قادها كاتب بريطاني رائد على نحو جيمس غرانت. وبقدر ما إختلطت الحقائق بالأساطير فيما خطه غرانت – وبالأخص فيما يلي تحرير مدينة الخرطوم- بقدر ما نسف الأخير بنفسه حياديتها حين أقر بميله لاعتماد شهادات المصادر المنتسبة للمعسكر المناؤي للثورة المهدية دون المصادر الموازية لها في الجانب المقابل. بيد أن ونجت جاء من بعده ليرسي قواعد معماره الدعائي على أساس يجعل مما كتبه غرانت مادة محورية في تصنيع التفاصيل المكونة لوصفة «البروبغاندا» البريطانية

1 نفس المصدر، ص ٤٢٥.

ضد االمهدية لاحقاً. كل ذلك يفتح منفذاً مهماً لوصف أعمال غرانت نفسها بمصطلح الـ«precursor» البايولجي لحملة ونجت من بعده، حتى وإن لم يُكتب لمجهودات غرانت ذات الصيت الذي حازته الحملة «الونجتية». وفي ذات السياق، كتب المؤرخ البريطاني نورمان دانيال:

«التقارير التي تحدثت عن عمليات النهب والسلب بعد تحرير الخرطوم كان لها إسهاماً كبيراً في بناء الأسطورة التي وسمت المهدية بالوحشية. وقد أقر المؤرخ البريطاني جيمس غرانت في مؤلفه (Cassell's History of the War in the Sudan) بأن تلك التقارير تتعارض مع بعضها البعض وأن ما فضل هو إيراده منها هو ذاك الذي كان يشتمل على وجهة نظر منحازة لصالح المسيحيين والمصريين».[1]

وقد يكون من الصواب رأياً هنا، إقصاء الخواطر البديهية التي تتوقع أن آثار صناعة الحرب الدعائية البريطانية ضد المهدية قد توقفت عند تجييش الرأي العام البريطاني والعالمي ضدها فيما سبق عملية غزو السودان نفسها. فقد ظلت تلك الحملة الدعائية تحافظ على نمط علائقي متين مع سلوك قوات الغزو البريطانية المتبع ضد المقاتلين السودانين في خندق المقاومة بمعارك النخيلة في عطبرة وكرري بضاحية أم درمان في خريف العام ١٨٩٨. وهوذات النمط العلائقي الذي أشار إليه تشرشيل. فمن موقعه كمراسل حربي لعدد من الصحف البريطانية، وجد تشرتشل نفسه كترسٍ جرفته آلة «البروبغاندا»الجارفة دون أن تحول استدارة ذهنه المتوقد في مداها عن استقصاء حقائق الأشياء، ومن ذلك قوله:

«إن التهويل الذي نقلته الصحف البريطانية عن أوصاف المهدويين والفكرة التي تم نشرها بمشقة شديدة عن ضرورة الانتقام لمقتل غردون، ألهبت حماس الجنود البريطانيين وقادتهم للاعتقاد بأن خصومهم السودانيين لا يستحقون الحياة». وعلى صعيد مماثل،مالت المؤرخة البريطانية ميشيل جوردون نحو وضع مقولة تشرشيل أعلاه في سياق أشمل حين قالت بأن جندلة الثورة المهدية للجنرال البريطاني غردون كانت

---

1 نفسه.

بحسب كلماتها: «بمثابة الصدمة القوية لكبرياء بريطانيا العنصري. ليس هناك جدال في أن ذكرى غردون والفعالية التي تم عن طريقها الترويج لفكرة الانتقام له بأواسط الجنود البريطانيين كان لها الأثر الأكبر في أفعالهم التي تلت»[1].

وظلت ذكرى انتصارات المهدية السابقة على بريطانيا ومقتل غردون وقوداً مستمراً لتسيير آلة الحرب الدعائية البريطانية نحو انتهاكات وثقتها المصادر البريطانية قبل غيرها في دفاتر التاريخ حتى بعد انقضاء معركتي كرري وأم دبيكرات. بالإضافة إلى تصفية الجرحى واغتيال الأسرى السودانيين فيما بعد الحرب رمياً بالرصاص وعن طريق حرقهم بالنار وهم أحياء أو عن طريق الاستيلاء على الغذاءات من المدنيين وتعريضهم لمصير الموت جوعاً، إنطلق الهوس الاستعماري نحو ما يمكن الإصطلاح على تسميته بـ «محاولة إنتاج إسلام شعبي سوداني أنيس وخاضع لهيمنتهم الاستعمارية على البلاد». محاولات كتلك، كانت تقتضي أن تمتد يد القمع الكولونيالية نحو ما وصفه الباحث الأمريكي سالمون قائلاً:

«وبالإضافة لقصف قبة المهدي، فقد منع البريطانيون إرتداء الزي المهدوي المتمثل في الجبة المرقعة كإحدى علامات الزهد. كما قاموا بإرسال من خالف أوامرهم بذات الخصوص إلى الأعمال الشاقة. وقاموا أيضاً بمنع أنصار المهدي من حق التجمع لأداء الصلوات ومنعوا اجتماعهم لقراءة الراتب وهو كتيب من الأدعية التي اعتاد الأنصار تلاوتها بعد الصلوات».

وبعد استيلاء قواته على معظم اراضي السودان، مضى قائد القوات البريطانية كتشنر- ربما بدافع مما أسماه نيكول بـ «حالة الخوف التي كانت تعتريه من أن ينتهي إلى مصير مشابه للجنرالين غردون وهكس ليصبح ثالث جنرال بريطاني يقضي عليه السودانيون بصحبة من يأتمرون بأمره من المصريين»[2] – مضى ليصدر التعليمات المشددة التي قد تجنبه مصير صاحبيه من قبله، ويستبين ذلك في إحدى رسائله لمرؤوسيه والتي

1 جوردون، مصدر سابق، ص ١٥٣-١٥٤.

2 نيكول،مصدر سابق، ص ٣٦٧.

قال فيها:

«المساجد في المدن الرئيسية سنسمح بإعادة بنائها. أما المساجد الخاصة بالجماعات، التكايا، الزوايا وقباب الشيوخ فلن نسمح بإعادة بنائها لأنها من الممكن أن تشكل مراكز للتعصب الديني المعتقدي (Unorthodox Fanaticism). أي طلب للسماح بأمر يتعلق بكل ما سبق يتطلب الرجوع للسلطة المركزية». وقد أشار سالمون إلى أن كتشنر لم يكن يستهدف بإجراءاته تلك التعصب الديني المعتقدي بقدر ما أنه كان يستهدف ضرب قلب دائرة مواقع الإسلام بطابعه الشعبي السوداني[1]. وهي بالطبع، ذات الدائرة المتكئة على الأرض التي إنفلقت من مركزها الثورة المهدية بكل تفاصيلها المقاومة للمد الاستعماري.

وفي السياق ذاته،ارتأى غابريال واربيرغ في دراسته المهمة بعنوان «الإسلام، العلمانية والسياسة في السودان منذ المهدية» والتي قام بتلخيصها الباحث الدكتور عبدالرحمن الغالي.. إرتأى «أنه ورغم سجن الأمراء والقادة والقمع المستمر والحظر وحرمان الأنصار من القيادة الروحية والسياسية لكن الحكومة (الاستعمارية) فشلت في كسر التمسك بالمهدية واعتقاد الناس بها وإطفاء جذوتها في النفوس».. وقال ايضاً: «أن ونجت وسلاطين أدركا حقيقة أنه بينما تم هزيمة المهدية في ميدان المعركة إلا انها إحتفظت بشعبيتها ومحبتها وسط قطاع كبير من السكان»[2].

إن أردنا ان نصطفي من الكلام خلاصةً تلملم أطرافه المبعثرة، قد يبقى من السهل الجزم بأن مواجهات الإمبراطورية البريطانية مع الدولة السودانية المستقلة التي أقامتها المهدية في نهايات القرن التاسع عشر لم تكن قاصرة على مقارعتها بالسلاح في ميادين القتال وحسب..بل امتدت تلك المواجهات لتشمل كيداً استخباراتياً حاكته أروقة المخابرات البريطانية بمساندة آلة إعلامية دعائية إنطلقت من خنادق متجاورة. وهي ذات الخنادق التي تفاوتت طبيعتها بين إشباع غريزة الثأر من الهزائم المجلجلة التي

1 **Salomon Noah**، مصدر سابق.

2 د. عبدالرحمن الغالي: المهدية، قراءة في أطروحة رواية شوق الدرويش، ص ١٩٨.

أذاقها السودانيون لبريطانيا من قبل وضيق الصدر الإمبريالي البريطاني بتواجد قوى وطنية ودينية غيرية ومعادية لنفوذ البريطانيين على المستوى الإقليمي. كل ذلك تم في ارتباط علائقي وثيق بتهافت القوى الاستعمارية العالمية نحو مستعمرات ما وراء البحار. واقترن كل ما سبق، مع مقابل موضوعي داخلي جسد نفسه مع ظهور طلائع حالة انقسام قبائلي ومجتمعي بدأت تتسرب إلى خلايا الجسد السوداني على مستوى الوطن في مرحلة الدولة التي أعقبت الثورة. والأهم من ذلك كله، هو توفر زعامة استخباراتية كانت تتحرق شوقاً نحو الاستثمار الحقيقي في تلك العوامل المختلفة لإعادة أنتاج فكرة غزو السودان والتسويق لها بحذاقة استعمارية ماكرة. ومن أبرز هؤلاء كان الجنرال البريطاني «ونجت» وهو الذي نُسبت إلى قلمه مؤلفات الحملة الإعلامية البريطانية التي هيأت الذهن الشعبي العالمي لغزو السودان، مما أهله ليحتل بجدارة موقع المحارب الصليبي (Crusader) الذي سخر حياته من أجل التخطيط والسعي للقضاء على الدولة المهدية بحسب جزم المؤرخ البريطاني «نورمان دانيال» والذي سبق وأن قدمنا بالإشارة إليه. كل ذلك خلف إرثاً مصدرياً مخابراتياً لم يلبث كثيراً قبل أن تحاصره حملة مراجعات أكاديمية ناقدة من مؤرخين غربيين معاصرين ونظراء لهم وطنيين، سعياً نحو تحرير تاريخ تلك الثورة السودانية من أصفاد الإنحياز والنيات الجائرة المبيتة وخروجاً بتفاصيلها نحو ساحات الحياد والتحليل الأكاديمي الأمين.

المصادر والمراجع

رموز المصادر الرئيسية الإنجليزية:

أ) المصادر الإنجليزية:

1. Charles Wilson, **From Korti to Khartum; a journal of the desert march from Korti to Gubat and of the ascent of the Nile in General Gordon's steamers**. Edinburgh; London: Blackwood.Publication date 1886, E-book.
2. G. W. Forrest, **A History Of The Indian Mutiny: Rivived And Illustrated From Original Documents**. Publisher: william Blackwood And Sons, 1904, Uk.
3. M. W. Daly (ed.), **The road to Shaykan: letters of General William Hicks Pasha written during the Sennar and Kordofan campaigns, 1883**. (Occasional Papers Series [Durham], No. 20.) [iv], 112 pp. Durham: Centre for Middle Eastern Studies, University of Durham, 1983.
4. Major F.R Wingate, **Ten Years' Captivity in the Mahdi's camp.1882-1892**. London: Sampson Low Marston, 1892.
5. Peter Everington, **Watch Your Step, Khawaja – A British Teacher In Sudan 1958-1966**. Publisher: Dal Cultural Forum, 2017. Khartoum, Sudan.
6. Private Henry Sutrees, **The March to Khartoum and Fall of Omdurman**. Printed By Parkins & Son, Church Street, Westminister, London. Re-published by The British Library 2010. United Kingdom.
7. R. A. Bailey, **The Mahdist Revolt in Singa 1919**. Durham University.
8. Rosignoli P. Paolo, **I Miei Dodici Angvni Di Prigionia In Mezzo Ai Dervisci Del Sudan.** Publisher: Mondovì, 1898, Italia.
9. Winston Churchill, **The River war (History of the war in Sudan), Historical & Autobiographical Account of the Reconquest of Sudan**. Publisher: Musaicum Books. E-book, 2018.

ب) المراجع الإنجليزية:

1. A. B. Theobald, **The Mahdiya: A History of the Anglo-Egyptian Sudan 1881-1899**. Publisher: Longman & Green 1965, United Kingdom.
2. Arthur Conan Doyle, **The Green Flag and other Stories of War and Sport**. OTB EBook Publishing, E-book, 2015.
3. Arthur Conan Doyle, **The Tragedy of Korosko**. E-Book.
4. Clifford Edward Bosworth, **The Encyclopedia of Islam**, Volume 6, Fascicules 107-108. Publisher: Brill Archive, 1989.
5. Colonel Mike Snooke, **Beyond Reach of The Empire**. Fortline Books, 2013.
6. Derek Thiam Soon Heng, Syed Muhd Khairudin Aljunied (ed), **Singapore in Global History**. Publisher: Amsterdam University Press, 2011.
7. Dominic Green, **Armies of God: Islam and Empire on the Nile, 1869-1899**. Publisher: Century Random House, United Kingdom, 2007.
8. Donald Featherstone, **Khartoum, 1885: General Gordon's Last Stand**. Publishers: Osprey publishing. United kingdom, 1993.
9. Edward M. Spiers, **Sudan: The Reconquest Reappraised.** Publisher: Routledge; 1 edition (1 Sept. 1998).
10. Fergus Nicoll, Gladstone, **Gordon and the Sudan Wars: The Battle Over Imperial Intervention in the Victorian Age.** Publisher: Pen and Sword. UK, 2013.
11. Fergus Nicoll, **The Mahdi of Sudan and the death of General Gordon**. Publisher: Sutton Publishing Limited. Gloucestershire, United Kingdom, 2004.
12. George Abel, **Gordon and Other Poems**, (1885). Publisher: Kessinger Publishing, USA, 2010.
13. Glencairn Balfour Paul, **Bagpipes in Babylon: A Lifetime in the Arab World and Beyond**. Publisher: I. B. Tauris 2006, United Kingdom.
14. H. C. Jackson, **Osman Digna**. Publisher: Methuen & Co., Ltd.; First Edition (1926). United Kingdom.
15. J. A. Rogers, **World's Great Men of Color**, Volume I. Publisher: Scribner; Touchstone Ed edition 1996, United States.
16. John Peck, **War, the Army and Victorian Literature**. Publisher: Palgrave Macmillan 1998, United Kingdom.
17. Jr. Harold E. Raugh, **The Victorians at War, 1815-1914: An Encyclopedia of British Military History**. Publisher: ABC-CLIO (25 Oct. 2004).
18. Julian Symons, **England's Pride - The story of the Gordon Relief Expedition**. Publisher: House of Stratus, United Kingdom, 2008.
19. Kim Searcy, **The Formation of the Sudanese Mahdist State. Ceremony and Symbols of Authority: 1882-1898**. Series: Islam in Africa, Volume: 11. Publisher: Brill (Leiden-Boston). Publication date: 2011.
20. Lord Cromer, **Modern Egypt**. Publisher: The Macmillan Company (1916),UK.

21. M. W. Daly, **Empire on the Nile**. Published by Cambridge University Press (2004),UK.

22. Michael Foley, "The Reporting of Edmond O'Donovan: Literary Journalism and the Great Game," in Richard Lance Keeble and John Tulloch (ed), **Global Literary Journalism: Exploring the Journalistic Imagination**. Peter Lang, New York, (2012).

23. Muhammad Iqbal, **Javid Nama**. Publisher: Kazi Publications, 2007, United States.

24. Niall Whelehan, **The dynamiters: Irish nationalism and political violence in the wider world, 1867–1900**. Publisher: Cambridge University Press (31 Aug. 2012).United Kingdom.

25. Norman Daniel, **Islam, Europe and Empire**. Edinburgh: University Press; distributed. by Aldine Publishing Company, Chicago. 1966.

26. P. Hardy, **The Muslims of British India**. Publisher: Cambridge University Press, 1973, United Kingdom.

27. P. M. Holt, **The Mahdist State in the Sudan, 1881-1898 A Study of its Origins, Development and Overthrow**. Publisher:Oxford: Clarendon Press, 1958. United Kingdom.

28. Paul A. Townend, **The Road to Home Rule: Anti-imperialism and the Irish National Movement.** Publisher: University of Wisconsin Press; 1st edition edition 2016, USA.

29. Professor Yusuf Fadl Hassan, **Some Aspects of the writings of history in modern Sudan**. Publisher: Institute of African And Asian Studies, University of Khartoum, Sudan, 1978.

30. Robert S. Kramer, **Holy City on the Nile: Omdurman During the Mahdiyya, 1885-1898**. Publisher: Markus Wiener Publishers 2010, United States.

31. Robin Neillands, **The Dervish Wars: Gordon and Kitchener in the Sudan 1880-1898**. Publisher: John Murray; First Edition edition 1996, United Kingdom.

32. Ron Geaves, **Islam in Victorian Britain: The Life and Times of Abdullah Quilliam**. Publisher: Kube Publishing Ltd, 2017, UK.

33. Rudyard Kipling, **Barrack Room Ballads**. University of Oxford Text Archive 2012,e-Book.

34. Russel Miller, **The Adventures of Arthur Conan Doyle**. E-Book, 2008.

35. Sir Henry Newbolt, **Admirals all, and other verses**. Publisher: Bibliolife 2009, South Carolina, USA.

36. Warren Dockter, **Churchill and the Islamic World: Orientalism, Empire and Diplomacy in the Middle East**. Publisher: I.B.Tauris; 2015. United Kingdom.

37. Wilbur Smith, **The Triumph of The Sun- A Novel of African Adventure**. Publisher: MACMILLAN, London 2005.

38. William Wright, **Omdurman 1898: Battle Story**. The History Press, E-Book, 2011.

ت) رسائل جامعية:

1. The Mahdist Revolution. By Major Robert N. Rossi. A Master's Thesis, Presented at U.S. Army Command and General Staff College, USA, 1994.

2. https://apps.dtic.mil/dtic/tr/fulltext/u2/a284465.pdf.

3. The Ideological Structure of the Sudanese Mahdiya. By Nels Johnson. Publisher:McGill University, Montreal – Canada, 1972.

4. British Colonial Violence in Perak, Sierra Leone and the Sudan by Gordon, Michelle.Doctoral Thesis (PHD)Royal Holloway, University of London,August 2017.

ث) الدوريات والمقالات والصحف والمجلات العالمية:

1. Australian Newspaper Archive.
2. British Newspaper Archive.
3. Irish Newspaper Archive.
4. Chronicling America -Library of Congress.Historical American Newspapers.
5. NEWSPAPERSG, an online archive of Singapore's newspapers.
6. National Library Of Scotland, Official Website.
7. Simon Craig: Breaking the Square: Britain Takes on Mahdi at the Battle of Abu Klea, October 2015, War Fair History Network,: http://warfarehistorynetwork.com/daily/military-history/breaking-the-square-britain-takes-on-mahdi-at-the-battle-of-abu-klea/
8. The Perils of Venus: Javid Nama by Allama Iqbal, Ravi Online Magazine, 2016-2017: https://www.ravimagazine.com/chapter-3-the-perils-of-venus
9. THE DACRES DIXON FAMILY: 1630 - 2013 (with sub-chapters on the Earls of Listowel, the Earls of Yarborough & the Bevans).: http://www.turtlebunbury.com/history/history_family/hist_family_dacres.html
10. Lionel James Trafford:The Gordon Relief Campaign (1884-85). A first-hand account by the commander of the Talahawiya steamer by James Baxendale O.B.E. https://www.royalsussex.org.uk/soldiers-stories/lionel-james-trafford/.
11. The Complete Guide to the British Peerage & Baronetage. http://www.cracroftspeerage.co.uk/online/content/stvincent1801.htm.
12. «Speed the Mahdi!» The Irish Press and Empire during the Sudan Conflict of 1883-1885 By Michael De Nie. Journal of British Studies, Vol. 51, No. 4 (OCTOBER 2012), PP. 883-909. Published by: Cambridge University Press on behalf of The North American Conference on British Studies.
13. Undoing the Mahdiyya: British Colonialism as Religious Reform in the Anglo- Egyptian Sudan, 1898-1914,By Noah Salomon (University of Chicago Divinity School), Martin Marty Center For Advanced Study Of Religion, Published 2004.
14. Charismatic Leadership in Islam: The Mahdi of Sudan.By Richard H.Dekmejian and Margaret J.Wyszomirski. Comparative Studies in Society and History.Vol.14, No.2. Publication Date: 1972,PP:(193-214).
15. The Defeat of Hicks Pasha, By sheikh Ali Gulla and L. F. Nalder,Sudan Notes and Records,VIII, 1925.Published by University of Khartoum.PP:119.
16. The Mahdi and British India, By Richard Temple, The Contemporary review, 1866-1900;March 1885,47,British Periodicals.
17. Why the British hate Sudan: the Mahdia's war against London by Muriel Mirak-Weissbach. Executive Intelligence Review (EIR) Volume 22, Number 24, June 9 1995.

المصادر والمراجع باللغة العربية:

1. **الثورة المهدية في المسرح المصري**، الدكتور سيد علي إسماعيل، منشورات المسرح الوطني – مسرح البقعة، أم درمان– السودان، ٢٠١٦.
2. **جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده: العروة الوثقى**، الناشر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة،٢٠١٢.
3. **الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته**، الدكتور عبدالودود شلبي، الناشر: مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠١.
4. **مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، عبدالرحمن الرافعي**، الناشر: دار المعارف، القاهرة – مصر، الطبعة الرابعة، ١٩٨٣.
5. **الشعر في السودان**، الدكتور عبده بدوي، من إصدارات عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والآداب في الكويت، ١٩٨١.
6. **المهدية، قراءة في أطروحة رواية شوق الدرويش**، الدكتور عبدالرحمن الغالي، الناشر: دار المصورات للنشر والطباعة والتوزيع، الخرطوم، ٢٠١٦.
7. **تيارات الفكر الإسلامي**، الدكتور محمد عمارة، دار الشروق للنشر، القاهرة، ١٩٩٧.
8. **الإمام المهدي – محمد أحمد بن عبدالله ١٨٤٤–١٨٨٥**، الدكتور محمد سعيد القدال، الناشر: دار الجيل، بيروت– لبنان، ١٩٩٢.
9. **دولة المهدية من وجهة نظر مؤرخ سوفييتي**، سيرجي سمرنوف، ترجمة هنري رياض، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٤.
10. **مذكرات يوسف ميخائيل**، تقديم وتحقيق الدكتور أحمد إبراهيم أبوشوك، الناشر: مركز عبدالكريم ميرغني، أم درمان – السودان، العام ٢٠١٧.
11. **تاريخ السودان**، نعوم شقير. تحقيق وتقديم الدكتور محمد إبراهيم أبوسليم، الناشر: دار الجيل، بيروت– لبنان، العام ١٩٨١.
12. **موسوعة القبائل والأنساب في السودان**، الدكتور عون الشريف، ج ٣، الطابعون: آفروقراف للطباعة والتغليف، الخرطوم - السودان، ١٩٩٦.
13. **الشايقية ومواقفهم من المهدية**، الدكتورة فاطمة أحمد عمر، الناشر: واحة الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٧.
14. **تبصرة وذكرى.. سياحة في راتب الإمام المهدي**، ب. موسى عبدالله حامد، الناشر: الدار السودانية للكتب، الخرطوم– السودان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.
15. **أوراق السيد علي المهدي**، نسخة بخط يد الشيخ سليمان أديب، دار الوثائق السودانية.
16. **امرأة من الزمن الماضي..**، مجموعة قصصية، الأستاذ القاص صديق الحلو، إصدارات الخرطوم عاصمة الثقافة العربية، الخرطوم - السودان، ٢٠٠٥.
17. **الخليفة علي ود حلو.. صاحب الراية الخضراء**، عبدالرحمن إبراهيم الحلو، مطابع العملة، الخرطوم ٢٠١٢.
18. **معالم تاريخ سودان وادي النيل.. من القرن العاشر إلى التاسع عشر الميلادي**، الدكتور الشاطر بصيلي عبد الجليل، الناشر: مكتبة الشريف الأكاديمية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩.
19. **لوطني وللتاريخ.. مذكرات الشهيد الشريف حسين الهندي**، الناشر: مركز عبدالكريم ميرغني

الثقافي، أم درمان - السودان، ٢٠٠٦.

20. **صولة بني عثمان في ملاحم الثورة المهدية**، الأستاذ مكي أبو قرجة، دار صفصافة للنشر، القاهرة، العام ٢٠١٤

21. **الحرب الشعبية تحت رايات الإمام المهدي والزعيم ماو**، العميد السر أحمد سعيد، الدار العالمية للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٥.

22. **عثمان دقنة.. أمير أمراء السودان الشرقي**، الأستاذ سليمان صالح ضرار، الطبعة الثانية العام ٢٠٠٢، مطبعة رأس الخيمة الوطنية، رأس الخيمة، الإمارات.

23. **من أبا إلى تسلهاي**، الأستاذ عبدالمحمود أبوشامة، المطبعة العسكرية، الخرطوم، ١٩٨٦.

24. **الآثار الكاملة للإمام المهدي**، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبوسليم، المجلد ١-٧. دار جامعة الخرطوم للنشر، ١٩٩٢.

25. **قوات الشيخ العبيد ود بدر تحرر الخرطوم** (مقال)، الأستاذ حسن مبارك كركساوي، نشر بصحيفة **الصحافة** السودانية بتاريخ ٢٦ يناير ٢٠١٢.

26. **استقلال السودان بين الواقعية والرومانسية**، الدكتور موسى عبدالله حامد، إصدارات الخرطوم عاصمة الثقافة العربية 2005، مطابع العملة الوطنية، الخرطوم - السودان 2005.

27. **سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي**، إسماعيل عبدالقادر الكردفاني، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبوسليم، الناشر: دار الجيل، بيروت، ١٩٨٢.

28. **إلى أمير أمراء المهدية عبد الرحمن ود النجومي.. من حفيده في ذكرى مرور 126 عاماً على تحرير الخرطوم**، (مقال) السفير/ محمد عثمان النجومي، نُشر في **الصحافة** يوم 26 - 01 - 2011.

29. **تحرير الخرطوم: جهد ثلاث عبقريات** (ورقة علمية)، اللواء ركن «م» أبو قرون عبد الله أبو قرون، **مؤتمر الدراسات المهدوية العلمي الدولي الثاني**، الخرطوم، ٢٤ يناير ٢٠١٧.

30. **الإستراتيجية العسكرية للإمام المهدي في السودان (١٨٨١-١٨٨٥)**، للدكتور أحمد إبراهيم أبو شوك، مجلة **أسطور**- العدد ٢، بتاريخ يوليو / تموز ٢٠١٥، نسخة إلكترونية بنفس التاريخ.

31. **أسباب وطبيعة الثورة المهدية في السودان (١٨٨١-١٨٨٥)**، الأستاذ تاج السر عثمان، **الحوار المتمدن**، ٢٠٠٨.

32. **قراءة عصرية في منشورات المهدية**، الدكتور محمد وقيع الله، نشر بـ**سودانايل** و**سودارس** سبتمبر ٢٠١١.

https / /:www.sudaress.com /sudanile32911 /

33. **جمال الدين الأفغاني بين دارسيه**، الدكتور علي شلش، دار الشروق، القاهرة،١٩٨٧.

34. **المهدي**، الدكتور محمد أحمد إسماعيل المقدم، الناشر: الدار العالمية، الاسكندرية، مصر،٢٠٠٤.

35. **صحف أبونظارة (١٨٨٢-١٨٨٤)**، دار صادر للنشر بيروت، ١٩٠٠، نسخة الكترونية.

36. **الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان**، الدكتور جلال يحيى، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،١٩٥٩.

37. **محمد إقبال كما لم تعرفه من قبل**، (مقال)، فارس الصغير، موقع **مصر العربية** الإلكتروني، ٢٠١٥.

38. **مسكين من دنقلا.. سيرة الإمام المهدي السوداني**، الدكتور أحمد محمد البدوي، دار البيان للطباعة والنشر، القاهرة،١٩٩٢. 38

39. **الفتوحات الربانية بالأسرار الإلهية على ما وقع في زمان المهدية**، محمود آدم حلو، مخطوطة مودعة

بدار الوثائق السودانية.

40. **الحركة الفكرية في المهدية**، بروفيسور محمد إبراهيم أبوسليم، منشورات قسم التأليف والنشر، جامعة الخرطوم، الخرطوم، السودان، ١٩٧٠.

41. **كرري.. تحليل عسكري لمعركة أم درمان**، الرائد عصمت زلفو، مطابع التوحيد، مصر، الطبعة الثالثة ١٩٩٥.

42. **حوليات كلية آداب** إبراهيم باشا، المجلد الثاني، العدد الثاني.

43. **الثورة المهدية في السودان.. مشروع رؤية جديدة**، محمد علي جادين وعبدالعزيز الصاوي، الناشر: الفارابي للنشر والأدوات المكتبية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٧

44. **مذكرات أغبش**، الأستاذ الصحفي عبدالله رجب، دار الصراحة، الخرطوم، ١٩٨٨. 44

45. **النائب عثمان ود أحمد** (مقال)، الأستاذ أشرف عبد الباقي أحمد، نشر في ١٦ يونيو ٢٠١٦ بـ**منتدى أربجي** الإلكتروني.

http / /:arbaji.net /forum /showthreadphp٪.–7479?C7٪.E1٪.E4٪.C7٪.C6٪.C8٪.–DA ٪.CB٪.E3٪.C7٪.E4٪.–E6٪.CF٪.C7٪.CD٪.E3٪.CF&styleid.25=

46. **دَور الصوفية في مقاومة الاستعمار في إفريقيا**، الدكتور عمر مسعود التيجاني، ورقة علمية بتاريخ ٢٠٠٦:

http: / /dspace.iua.edu.sd /bitstream /123456789 /2854 /1 /5.pdf

47. **النداء في دفع الافتراء**، محمد عبدالرحيم، مطبعة البرلمان، القاهرة، بدون تاريخ.

48. **الثورة المهدية في سنجة 1919**، المستر آر. ايي بيلي المكتبة الشرقية درم - بريطانيا:

«The Mahdist Revolt in Singa 1919, R.A.Bailey Durham University».

49. **ثورة ود السيد حامد.. رجل من تاريخ سنجة** (مقال)، الأستاذ حسن نجيلة، نُشر بجريدة **الثورة** 20 ديسمبر 1963.

50. **الأمير جابر ود الطيب..شهيد معركة كرري الذي لا يعرفه أحد** (مقال)، الأستاذ جابر الأنصاري، نشر بصحيفة **الانتباهة** بتاريخ ٢٣ يوليو ٢٠١٣.

51. **الذكرى الـ١١٦ لمجزرة الشكابة** (مقال)، الأستاذ محمود علي مادبو، منشور بصحيفة **حريات** الإلكترونية بتاريخ ٢٨ أغسطس ٢٠١٥.

52. **أم دبيكرات.. جولة بين مراقد الشهداء ومعسكرات الجرحى**، الأستاذ عبدالرحمن إبراهيم الحلو.. كتاب تحت الطبع.

53. **رجال حول المهدي للدكتورة فيفيان ياجي**، ترجمة مكي بشير مصطفى. الناشر: شركة الخرطوم للطباعة والنشر العام 2000، الخرطوم - السودان.

54. **معالم من العلاقات الخارجية للدولة المهدية (١٨٨٥- ١٨٩٩)**، (مقال)، الدكتور محمد عبدالرحمن عريف، نشر بصحيفة **رأي اليوم** بتاريخ العشرين من أغسطس ٢٠١٨.

https / /:www.raialyoum.com /index.php٪. /D9٪.85٪.D8٪.B9٪.D8٪.A7٪.D9٪.84 ٪.D9٪.85٪.–D9٪.85٪.D9٪.86٪.–D8٪.A7٪.D9٪.84٪.D8٪.B9٪.D9٪.84٪.D8٪.A7٪. D9٪.82٪.D8٪.A7٪.D8٪.AA٪.–D8٪.A7٪.D9٪.84٪.D8٪.AE٪.D8٪.A7٪.D8٪.B1٪.D8٪. AC٪.D9٪.8A٪.D8٪.A9٪.–D9٪.84٪.D9٪.84٪.D8٪.AF٪.D9٪.88٪.D9٪.84٪.D8٪.A9– ٪.D8٪.A7٪.D9٪.84٪.D9٪.85 /

55. **الشعر العربي السوداني في أيام الدعوة المهدية،** (مقال)، الأستاذ أسامة قرشي محمد حسن، نشر بجريدة **الصحافة** السودانية بتاريخ ١٧ مايو ٢٠١٣.

56. **حليل موسى في (CNN)،** (مقال)، عبد المحمود نور الدائم الكرنكي، سودارس:

https / /:www.sudaress.com /alintibaha.11491 /

رقم الإيداع:
2019/0791م